

أغلال الإنسانية

تأليف: سومرست موم

ترجمة: فوزي وهاء



أغلال الإنسانية

هذه الرواية العالمية من أعمال الأديب الإنجليزي الشهير سومرست موم. كتبت في عصر كان الأدب فيه في أزهى عصوره. وهي عن معاناة البشرية وكفاحها وطباع الإنسان وتصرفاته الغريبة. وهي تحكي قصة صبي ولد وقدمه مشوهة لا علاج لها ورياء عمه، وهو رجل دين محافظ بعد أن توفي والداه وهو في العاشرة من عمره. والأغلال تشير في الرواية إلى المشاعر والسلوكيات التي يجد المرء أنه يتبعها رغما عنه دون أن يعرف سببها ولا يستطيع رغم كل المحاولات المخلصة الجادة أن يتخلص منها، وكأنها أصبحت مادة من مواد الإيمان أو أغلالا تقيد روحه. وتدور الرواية حول حب فاشل لطبيب صغير لفتاة سوقية من طبقة فقيرة واستمرار مشاعر الحب هذه رغم بذاعة هذه الفتاة وانحطاطها وخلوها حتى من أية سمات للجمال. اتفق النقاد على أن هذه الرواية الواقعية هي من أحسن ما كتب سومرست موم، بل تكاد تكون أحسن الروايات الأدبية الواقعية التي كتبت في القرن العشرين. وقد ترجمت إلى عشرات اللغات في الشرق والغرب.

روز اليوسف



سومرست موم

كاتب إنجليزي شهير، عاصر النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، بدأ حياته في باريس حتى بلغ سن العاشرة وهو يقول: إن الأدب الفرنسي من أعظم آداب العالم، قضى موم سني حياته الأولى حتى الثانية والعشرين من عمره في دراسة الطب التي يقول عنها أنها أفادته كثيرا في معرفة الحياة عارية على حقيقتها. ولكنه اكتشف أن الحياة لا تعني شيئا بدون الأدب والفن. بدأ موم رحلته الأدبية بالكتابة للمسرح. وقد عرضت له مسرحيات كثيرة ثم كتب كثيرا من الروايات التي يسبها اشتهر كالأديب عالمي ومنها هذه الرواية «أغلال الإنسانية» التي كتبها وهو في السجن من عمره، واعتبرت أحسن عمل من حيث الاتجاه الواقعي في الأدب في القرن العشرين.



فوزي وهاء

عمل بجمهورية الأهرام في عام ١٩٦٧. أسهم بكثير من المقالات في مجال السياسة الخارجية وغيرها، وزار عدة بلدان مثل الولايات المتحدة وتركيا واليونان لكتابة تقارير صحفية منها، وفي عام ٨١ انتقل إلى نيويورك للعمل بإدارة شؤون المؤتمرات بالأمم المتحدة. له عدة ترجمات منها «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للكاتب الإيطالي لويجي بيراندلو وكتاب عن «بيودور هرتزل» مؤسس الحركة الصهيونية للكاتب الإنجليزي ديزموند ستوارت، و«رجل من البيت» للويسانت رامبا، و«في رواق السعادة» للدكتور وين فاير.

أقرش جنبه
٩٣٧ ٩٥

الكتاب الذهبي
روزاليوسف

أغلال الإنسانية

تأليف: سومرست موم
ترجمة: فوزي وفاء

هذه رواية طويلة وأشعر فعلا بالخلج لأن أكتب لها هذه المقدمة فاجعلها أطول
والمؤلف . على الأرجح هو آخر شخص يمكنه أن يكتب بدقة عن عمله وهناك
في هذا الصدح حكاية لطيفة يحكيها روجر مارتن ديجار وهو روائي فرنسي بارز
عن كاتب فرنسي آخر هو مارسيل بروست أراد بروست من صحيفة دورية فرنسية
أن تنشر له مقالا كبيرا عن روايته الرائعة وكان يعتقد أنه ليس هناك من يكتب هذا
المقال أفضل منه فجلس وكتب المقال بنفسه ثم طلب من صديق صغير له مولى
بالأدب أن يضع اسمه على المقال ويحمله بنفسه إلى رئيس تحرير الصحيفة
الدورية وفعل الصديق ما طلبه منه بروست غير أنه بعد أيام فلانل بعث رئيس
التحرير في طلبه وقال له «لقد وجدت أنني يجب أن ارفض مقالك فإن مارسيل
بروست لن يغفر لي أبدا إذا نشرت نقدا لعمله يفتقر بهذا الشكل إلى الحماسة
والتعاطف» ورغم أن الكتاب والمؤلفين حساسون فيما يتعلق بأعمالهم ويميلون
إلى الاستياء من النقد الذي لا يكون في صالحهم فهم نادرا ما يكونون راضين عن
أعمالهم فهم يشعرون أن العمل الذي قضاوا في إنجازه وقتا طويلا جاء أقل مما
كانوا يتوقعون. فهم دائما يهدفون إلى الكمال . وهم يدركون وهم في غاية التعاسة
أنهم لن يحققوا هذا الكمال الذي يصبون إليه

غير أنني لن أتحدث بشيء عن كتابي هذا وسوف أكتفي مرضيا نفسي بأن أقول للغاري
هذه السطور كيف كثبت هذه الرواية التي عاشت الآن وقتا طويلا . كما هو الحال مع
الروايات عامة، وإذا لم تلق هذه الرواية قبول الغاري واهتمامه فإني أرجوه أن يتقبل
اعتذاري . لقد كتبتها أولا عندما كنت في العشرين من العمر وحصلت علي شهادتي في
الطب بعد أن قضيت خمس سنوات في مستشفى سانت توماس وذهبت إلى سيفيل
مصمما عندئذ أن اكسب قوتي ككاتب . ولا زالت النسخة الخطية للكتاب موجودة ولكني
لم ألق عليها نظرة واحدة منذ أن قمت بنسخ النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة
وليس لدي أي شك في أنها فجة وغير ناضجة على الإطلاق وقد أرسلتها إلى الناشر

وأخضعت نفسي لتدريب قاس منهك للعناية في محاولة لتحسين أسلوبى في الكتابة غير أنى تخلصت عن تلك الجهود عندما بدأ إخراج مسرحياتى . وعندما بدأت الكتابة من جديد كان ذلك بهدف مختلف . فلم أعد أسعى إلى كتابة نثر كاللؤلؤ مخملى الملمس . فبدلا من محاولتى العيثية لتحقيق ما أضعت فيه جهدا كبيرا من قبل سعيت لتحقيق العكس راعيت الوضوح والبساطة . ومع وجود الكثير مما أريد أن أقوله في حدود معقولة شعرت أنى ليس في مقدورى أن أبدا الكلمات وبدأت بفكرة استخدام ما هو ضرورى منها لكى تصبح المعانى التى أقصدها واضحة . فلم يكن لدى مكان للزخرفة والتزييق . وقد علمتني تجربتى فى المسرح قيمة الاختصار فى الكلام . ورحت أعمل بشكل متواصل لمدة عامين . ولم أعرف ماذا أسمى كتابى . وبعد أن رحت أبحث كثيرا عن عنوان له لغت نظري فقرة فى الإنجيل تقول «الجمال من الرماد» وبدت لي عنوانا مناسباً غير أنى علمت أن هذا العنوان قد استخدم من قبل مما اضطررتى إلى البحث عن عنوان آخر . واخترت فى النهاية اسم أحد كتب الفيلسوف «سبينوزا» فى الأخلاقيات وأطلقت على روايتى «أعلال الإنسانية» .

ولنى إحساس بأنى كنت محظوظا لأنى لم أستخدم العنوان الذى عثرت عليه قبل ذلك وهذه الرواية ليست سيرة ذاتية بل إنها رواية تعتمد على السيرة الذاتية . فالحقيقة والخيال هنا يمتزجان معا . والأحاسيس هي أحاسيسى أنا ولكنى لم أرو كل الأحداث كما وقعت بالفعل وبعضها الذى نسب إلى بطل الرواية لم يقع فى حياتى ولكنى استعرت من حياة أشخاص آخرين كنت على صلة حميمة بهم . وقد كان رد الفعل للكتاب هو ما أردته . وعندما نشر فى العالم (عالم كان يعاني من آلام حرب رهيبة مشغولا بمعاناته وآلامه ومخاوفه ولم يكن يحفل بمغامرات شاب فى رواية خيالية) وجدت أنى تخلصت من الآلام والذكريات التمسّة التى كانت مصدر عدايى . وقد لاقى الكتاب نقدا رائعا . وقد كتب الكاتب الأمريكى الشهير ثيودور درايزر الذى من أشهر رواياته «الأخت كاريس» نقدا طويلا فى صحيفة «نيو ريپابليك» Republic New إنشاد فيه بالكاتب إنشادة عظيمة غير أن الأمر كان يبدو وكأن الرواية ستسبى فى الطريق الذى سارت فيه الأغلبية العظمى من الروايات ونسئى بعد أشهر قليلة من ظهورها غير أنى لا أعلم كيف حدث بعد سنوات من ظهورها أن لغت انتباه عدد من الكتاب الممتازين فى الولايات المتحدة وكانت كتاباتهم عنها سببا فى لغت نظر الجماهير إليها . وإلى هؤلاء الكتاب ترجع رخصة الحياة الجديدة التى منحت للرواية . وإليهم أتوجه بالشكر للنجاح الذى تحقق لها على مر السنين

« فيشر أنوين» الذى نشر كتابى الأول (عندما كنت طالبا فى كلية الطب كتبت رواية اسمها «ليزا من لامبيت» ولافت بعض النجاح) ولكنه رفض أن يعطينى المائة جنيه التى طلبتها منه مقابل الرواية . ورفض جميع الناشرين الآخرين الذين عرضتها عليهم بعد ذلك أن يقبلوها بأنى فمن . وقد أحرزنى هذا فى ذلك الوقت . غير أنى أدرك الآن أنى كنت محظوظا . لأنه لو كان أحدهم قد قبل الكتاب كان اسمه فى ذلك الوقت «المزاج الفنى لستيفن جراي» . لكنك قد فقدت موضوعا كنت صغيرا جدا لاستفيد منه استفادة سليمة . فلم أكن بعيدا عن الأحداث بالغدر الكافى الذى يجعلنى أصفها بصورة جيدة . ولم يكن لدى قدر من الخبرة التى ساعدتني فيما بعد على إثراء الكتاب الذى كتبتة فى النهاية . ولم أكن أيضا قد تعلمت أنه من الأسهل على المرء أن يكتب عما يعرفه من أمور لا عما لا يعرفه . فمثلا بعثت ببطل روايتى إلى «سروين» (وهي مدينة لم أعرفها إلا كزائر لها من أن آخر) ليتعلم الفرنسية بدلا من أن أبعث به إلى هايدلبرج (حيث كنت أنا نفسى هناك) لأتعلم الألمانية

وعندما قوبلت روايتى بهذا الرفض نحتيت المخطوط جانبا . وكتبت روايات أخرى . ونشرت . وكتبت مسرحيات . وأصبحت فى وقت ما كاتبا مسرحيا مرموقا وناجحا جدا وقررت أن أكرس حياتى كلها للكتابة للمسرح . غير أنى كنت أضع حساباتى دون اعتبار لقوة فى نفسى جعلت قرارنى كلها عبثا . لقد كنت سعيدا وناجحا وموفور المال ومشغولا بعملى كان رأسى يطن بأفكار مسرحيات أريد كتابتها . ولم أعرف ما إذا كان النجاح قد عجز عن أن يحقق لي كل ما كنت أصبو اليه . أو ما إذا كان ما أشعر به هو رد فعل طبيعى . غير أنى بمجرد أن أصبحت كاتبا مسرحيا معترفا به فى تلك الأيام أخذت تجنباننى الذكريات المتلاحقة لحياتى السابقة . عادت إلى تلك الذكريات بصورة ملحة أثناء تومى وسيرى وأثناء إجراء تجارب المسرحيات وفى الفخلات وأصبحت هذه الذكريات تشكل عبئا حقيقيا ثقبلا علي . وقررت أنه ليس هناك سوى طريق واحد للتخلص منها . وهو أن أضع كل تلك الذكريات على الورق . وبعد أن أخضعت نفسى سنوات لمقتضيات المسرح أصبحت توافا للحرية الواسعة التى تنطوي عليها كتابة الرواية . وكنت أعرف أن الكتاب الذى كنت أفكر فى كتابته سيكون كتابا طويلا . وكنت أريد أن أبعد عن كل مصادر الإزعاج فرفضت كل العقود التى عرضها علي مديرو المسارح بشغف شديد واعتزلت المسرح مؤقتا . كنت عندئذ فى السابعة والثلاثين

وبعد أن أصبحت كاتبا بحكم المهنة . أمضيت وقتا طويلا فى تعلم كيفية الكتابة

أغلال الإنسانية

الطبيب إليها قائلا :

- دعيني أخذ الطفل الآن .

وكانت الأم من الضعف بحيث لم تستطع مقاومة رغبته . فأسلمت الطفل إليه وحمله الطبيب بدوره إلى مربيته وهو يقول :

- من الخير أن تعودى به إلى فراشه .

- سمعا وطاعة يا سيدي .

وخرجت الخادمة حاملة الطفل وهو مازال نائما . وانخرطت أمه في البكاء وقد كاد قلبها ينفطر من فرط الحزن . وهممت قائلة :

- ماذا يحدث بعدئذ لهذا المسكين ؟

وحاولت الممرضة أن تهدئ من أشجانها ، وما لبثت أن كفت عن البكاء من كثرة الإجهاد . وسار الطبيب حتى الجانب الآخر من الحجرة حيث منصدة تمددت عليها جثة طفل ولد وقد فارق الحياة . ووضع الطبيب الغطاء عن الحثة وألقى عليها نظرة . وكان هناك ستار يحجب الطبيب عن فراش المرأة . ولكنها أدركت ما يفعله فسالت الممرضة التي وقفت إلى جانبها في صوت منخفض

- هل كان صبيا أم فتاة ؟

- صبي آخر

وصمتت السيدة وسرعان ما عادت مربية الطفل بعد هنيئة واقتربت من الفراش وقالت :

- إن سيدي فيليب لم يستطيع أبدا .

وساد المكان فترة صمت ثم جس الطبيب نبض الأم مرة أخرى وقال .

- لا أعتقد أنني أستطيع أن أفعل شيئا آخر الآن . وسأعود مرة أخرى بعد الإفطار .

وردت الممرضة قائلة :

- سأصحبك حتى باب الخروج يا سيدي

وهبط الاثنان الدرج في صمت وعندما وصلا إلى الردهة توقف الطبيب وبادرها قائلا .

- ألم تبغني صهر السيدة كاري ؟

- بلى يا سيدي . لقد أبلغته

- ألا تعلمين متى يصل إلى هنا ؟

- لا يا سيدي .. إنني أنتظر برفقة منه .

طلع النهار مكفها كتيبيا ، وتجمعت السحب في السماء بكثرة وندت في الجو برودة تشر بتساقط الثلج . ودخلت الخادمة حجرة رقد بها طفل . ثم أراحت ستار الفواقد وألقت على الغزل المقابل نظرة ألية .. كان منزلا ظليت جدرانه بالحصى ذا مدخل طريرل يؤدي إلى باب . وتركزت الخادمة النافذة وعادت إلى فراش الطفل قائلة :

- استيقظ يا فيليب

وصحبت الغطاء من فوق الطفل . ثم حملته إلى الطابق الأسفل . ولم يكن الطفل قد استيقظ تماما . وقالت له :

- إن أمك تريدك الآن .

ثم فتحت باب إحدى الحجرات في الطابق الأسفل . وسارت بالطفل إلى فراش فيه امرأة . هي أمه . وبسطة الأم ذراعها تستقبله . فاستكن الطفل إلى جانبها . ولم يسأل لما أبغضه وقبلته المرأة بين عيني . وراحت تنحس يديها الصغيرتين الواهنتين جسده البض الرقيق وضعت إلى صدرها قائلة .

- أمازلت نائما يا عزيزي ؟

وخرج صورتها خافتا ضعيفا كأنه صادر من أعماق صحيفة ولم يجب الصغير بل ابتسم في ارتياح . لقد كان سعيدا بالفراش الضخم والوتر وبالذراعين الناعمتين اللتين أحاطتا به . فراح يختنن أمه محاولا أن يبدو أصغر مما هو . ثم طبع على وجهها قبلة وهو ناعس . وندت لحظة أنفلق عيني وراح في سبات عميق . وتقدم الطبيب إلى الفراش ووثق إلى جانبه فثالت الأم في أتبن :

- أنوسل إليك ألا تأخذ مني الآن ..

ولم يجب الطبيب بل نظر إليها نظرة جادة . وعندما أدركت أنها لن تستطيع إبقاء الطفل أكثر من ذلك . مالت عليه وقبلته مرة أخرى . ومرت يدها على جسده حتى وصلت إلى قدمه . وراحت تنحس أصابع القدم اليسرى الحمسة الصغيرة ثم تحسست قدمه اليسرى وما لمحت أن خرجت من صدرها زفرة حارة وأجهشت بالبكاء . وقال الطبيب :

- ماذا بك .. هل تشعرين بتعب ؟

وهزت السيدة رأسها . إذ لم تقو على الكلام . ثم انحدرت الدموع على وجنتيها . فأنحنى

- إنها في أسعد حال وفي غاية السعادة

- إني سعيد لذلك

- لقد مارعتك ولن أستطيع أن تراها أبداً

ولم يدرك فيليب ما عنته . وسألها قائلاً

- ولم لا أراها ؟

- إن أمك في السماوات الآن .

وبكت المرأة . ولم يفهم فيليب شيئاً إلا أنه راح يبكي معها . وكانت «إما» امرأة ذليلة من ذلك النوع الضخم العظام ذات شعر أشقر وسلامح عريضة ولدت في بلدة ديفرنشير . وبالرغم من الفترة الطويلة التي اقتصتها في العمل في لندن فإن لهجتها ذات المقاطع العريضة التي يتميز بها أهل بلدها لم يطرأ عليها أي تغيير . وراحت الدموع من حدة انفعالها فضمت الطفل إلى صدرها . وكانت تشعر شعوراً غامضاً بالسفقة على هذا الطفل الذي حرم من الحب الوحيد في هذا العالم الذي يخلو من الأنانية . لقد هالها أن يتولى شئونه بعد ذلك أناس غرباء . ولكنها بعد لحظات جمعت شتات نفسها وقالت

- إن عمك وليام ينتظر لك ليراك . انذهب وودع الأمسة . «واتكن» لمعود بعد ذلك إلى المنزل

فأحباب الطفل في حرص غريزي محاولاً أن يخفي دموعه

- إني لا أريد أن أودع أحداً

- لك ما تشاء أسرع إذن إلى الطابق العلوي وأحضر ثيابك

وأحضر فيليب القبعة . وعندما نزل وجد إما تنتظره في الدرفة . ووصلت إلي سمعه أصوات من حجرة المكت التي تقع خلف حجرة الطعام فتوقف قليلاً وقد علم أن الأمسة «واتكن» وشقيقتهما تتحدثان مع أصدقائهما . وبدلاً - وكان في التاسعة من عمره حينئذ - أنه إذا دخل الحجرة فسيبدي الجميع أسفهم لحاله . فقال لا ما

- أظن أنني سأذهب لأودع الأمسة . «واتكن» .

- حبراً تفعل

- ادخلي رابعتهم بقدمي يا إما

وكان يريد أن يستغل الفرصة إلى أقصى حد ممكن . وطرقت «إما» الباب ودخلت ثم سمعها وهي تقول

- إن سيدي فيليب يريد أن يلقى إليك بنحية الوداع يا أمسة

- وما شأن البطخل الصغير؟ أعتقد أنه سيكون أحسن حالاً إذا ائتمد عن هذا المكان .

- لقد قالت الأمسة «واتكن» إنها ستأخذ معها يا سيدي

- ومن هي الأمسة «واتكن» ؟

- إنها إبيينته .. هل تعتقد أن السيدة كاري ستشفى يا سيدي ؟

- وهز الطبيب رأسه ...

وبعد سبعة أيام كان فيليب يجلس على الأرض في حجرة الاستقبال بمنزل الأمسة «واتكن» في حدائق أوسلو . وكان فيليب طفلاً وحيداً . وقد اعتاد أن يلعب بمفرده . أما الحجرة فكانت مملوءة بالأثاث الضخم المتين . وقد وضعت على كل مضجع ثلاث وسائد كبيرة . وعلى كل مقعد بمساند وسادة أخرى . وجمع فيليب كل هذه الأشياء وجذب المقاعد الخفيفة الحركة وجعل منها كهفاً منفصلاً يحتمي به عن البنود الحمر الذين كانوا يترصبون به خلف الستائر . ومال برأسه وقد ألصق أنه بالأرض وراح يستمع إلى صوت قطع الجاموس الذي أخذ يدعو في البراري . وما لبث أن سمع صوت الباب وهو يفتح . فتوقف عن التنفس حتى لا يكتشف القادم مكانه . ولكن بدا قوية جليت المقعد بعنف فسقطت الوسائد على الأرض . وسمع صوتاً يقول .

- أيها الولد الشرير . إن الأمسة «واتكن» ستغضب منك

فقال الصغير :

- مرحباً «إما» .

وانحنحت المربية وقبلته . ثم بدأت ترتب الوسائد وتعيدها إلى مكانها . وسألها :

- هل سأعود إلى المنزل ؟

- نعم لقد جئت لأعود بك إلى المنزل .

- إنك تتردين ثوباً جديداً

كان ذلك عام ١٨٨٥ . وكانت المربية ترتدي رداء من المخمل الأسود ذا كمينين ضيقين وكفتين منحدرتين . وقد وضعت على رأسها قبعة ذات أربطة من الفطيفة . وترددت «إما» قليلاً لأن الطفل لم يسأل السؤال الذي كانت تتوقعه منه . فلم تستطع أن ترد عليه بما أعدته من جواب .. وأخيراً قالت :

- إنك إذن لم تسأل عن حال والدتك ؟

- نسيت يا إما كيف حال أمي ؟

واسعدت لأن تقول له

إلى حجرة الاستقبال حيث جلس عمه منهكما في كتابة خطابات الشكر على الأكالي التي وصلت إليه . وكان أحدهما قد وصل متأخرا فظل موضوعا في صندوق الورق المقوى على نضد في الردهة . وأبلغت «إما» السيد كاري بوصول فيليب وقالت إما «ها هو السيد فيليب» منهض السيد كاري عن مقعده في تباطؤ وصافح الطفل ، ثم فكر منهية وانحنى فقبل جبهته. وكان كاري رجلا في طوله أقل من الطول المتوسط مانلا إلى البدانة ، ذا شعر طويل منتظم فوق الرأس ومصفف بحيث يخفي صلعته ، حليق اللحية ذا ملامح متناسقة، توحى أنه كان وسيما في شبابه ، وتدل من سلسلة ساعته صليب ذهبي . وقال كاري :

« إنك ستعيش معي منذ الساعة يا فيليب .. هل ستحب ذلك ؟ »

وكان قد حدث منذ عامين أن أرسل فيليب إلى منزل القس ليعيش معه إثر إصابته بالجديري ، وكانت صورة الحديقة الكبيرة ، وتلك الحجرة فوق السطح ما زالتا عالقتين بذهنه أكثر من صورة عمه وزوج عمه . وأجاب فيليب :

« نعم . »

فأردف كاري قائلا

« يجب أن تعتبرني أنا وروح عمك لويزا كأبويك تماما . »

وارتعدت شفتا الصغير قليلا ، وصعد الدم غزيرا إلى وجنتيه ولكنه لم يرد بشيء . فقال كاري :

« لقد تركتك أمك في رعايتي . »

ولم يكن السيد كاري يجد السهولة الكافية لكي يعبر عما يجول في نفسه ، فعندما علم أن زوجة أخيه على فراش الموت سافو في الحال إلى لندن ولكنه وهو في طريقه إلى هناك لم يكن يفكر إلا في الاضطراب الذي سيطرأ على حياته إذا ما اضطره موتها إلى كفالة ولدها . وكان المستر كاري قد تجاوز الخمسين عاما، قضى منها ثلاثين مع زوجته العاقر . ولها لم يكن يسره أن يوجد معه طفل صغير قد يكون مثار ضجيج وضوضاء . وبالإضافة إلى ذلك فإن القس لم يشعر يوما ما بحب زوجة أخيه المتوفاة . وقال :

« غدا سأصحبك إلى بلاكستابل »

« مع إما ؟ »

وأمسك الصغير بيدها فضغطت عليها في حنان . وقال السيد كاري :

« آسف أن أقول أن إما يجب أن تذهب إلى حال سبيلها . »

« ولكني أريدها أن تأتي معي . »

ويدأ فيليب يبكي ، ولم تستطع المربية إلا أن تشاظره بالبكاء ونظر السيد كاري إليهما وهو

وبجأة توقف الجميع عن الحديث ، فقد دخل فيليب الحجرة وهو يمرج كانت «هنريتا واتكن» امرأة بدينة محمرة الوجه قد صبت شعرا . وكانت صباغة الشعر في تلك الأيام منار التعليق . وقد سمع فيليب الكثير من القيل والقال عندما صبت أشيبته شعرا لتغير من لونه . وكانت الأنسة «واتكن» تعيش مع خفيقة تكبرها في العمر وقد اعترلت سنون السيادة راصية بكبر سنها ، وجلست اللتان وصحبتيهما سيدتان كانتا في زيارتهما . وراحت هاتان السيدتان تنظران إليه في فضول وسست الأنسة «واتكن» نراعيها لتستغل فيليب قائلة :

« ظلمي المسكين . »

ثم أجهشت بالبكاء . وفي هذه اللحظة أدرك فيليب لماذا لم تتناول الأنسة «واتكن» طعام الغداء معهم ، وأدرك كذلك سبب انتاحها بالملابس السوداء . ولم تستطع أن تنكلم . وقال فيليب أخيرا

« يجب أن أذهب إلى المنزل »

وخلص نفسه من بين ذراعي الأنسة «واتكن» فقبلته مرة أخرى . ثم ذهب إلى ستقبقتها وألقى إليها بتحية الوداع أيما - وسألت إحدى السيدتين الغريبتين هل تستطيع أن تنقله . سمح لها بذلك في رتا. وشعر فيليب بالرغم من مكانه بلذة متديدة لهذه المشاعر التي كان هو مبعثها بين هؤلاء النسوة . ولو تمكن من البقاء قليلا معين لأصابه سرور غامض لأنه سيؤدي من اهتمامهن به . ولكنه أحس إنهن ينتقلن منه أن يغادر الحجرة فقال لهن أن إما تنتظره في الطيفة السفلى ثم غادر الحجرة على الفور . وكانت إما قد تسللت إلى الطيفة السفلى للحدث مع صديق لها في السرداب . فانتظرها عند نهاية الدرج . واخترق سمعه حينئذ صوت «هنريتا واتكن» تقول :

« لقد كانت والدته حير صديقة لي . وأنا لا أستطيع احتمال فكرة موتها »

فردت شقيقتها قائلة

« كان يجب ألا تنجي إلى الجنازة يا هنريتا . لقد كنت أعلم أن ذلك سيغير أعصابك »

ثم سنع فيليب إحدى السيدتين الغريبتين وحى تقول

« يا للصغير المسكين إنني ارتحت كلما تبادر إلى ذهني أنه سيعيش وحيدا في الدنيا، إنني أراه يمرج . »

« نعم إن إحدى ندميه متوفاة ولقد كان ذلك يبعث ألم كبير لأنه »

وعندما عادت إما إليه عاود المنزل . ونادت على مركبة وأبلغت السائق عن مقصدها . وعندما وصلا إلى المنزل الذي كانت فيه السيدة كاري . رفع في أحد التوارع المحترمة المفترقة في السلطة التي تقع بين بوابة نانفج هيل . وحاض سمرت بكتمسجتون ، محبته إما

حائر لا يستطيع أن يصنع شيئا .

- أرجو أن تتركيني لحظة مع السيد فيليب .

- وهو كذلك يا سيدي .

وهنا تعلق الصغير بها ، ولكنها سحبت نفسها منه برقة . وحمل كاري الطفل وأجلسه على ركبتيه وأحاطه بذراعه وقال :

- ينبغي لك ألا تبكى يا فيليب .. لقد كبرت الآن ولست بحاجة إلى المربية إننا سننظر في أمر إرسالك إلى المدرسة . ولكن فيليب أعاد ما قاله من قبل :

- إني أريد أن تكون إياي معي .

- إن هذا يتطلب كثيرا من المال ، ولم يترك لك والدك الكثير منه ، ولست أعرف ما صار إليه هذا القليل ولهذا يجب أن نهتم بكل بنس تصرفه .

وكان السيد كاري قد قام في اليوم السابق بزيارة لمحامي الأسرة وبالرغم من أن والد فيليب كان جراحا يمارس عمله ببراعة واتقان ، وكان الإحصاء يشير إلى المترددين من المرضى على مستشفاه يبين أن الرجل في مركز محترم .. فإن السيد كاري دهش دهشة بالغة عندما علم أن والد فيليب مات فجأة بالتسمم الدموي ، ولم يترك لأسرته إلا القليل .. وهو مبلغ لم يزد على قيمة التأمين على حياته إلا قليلا وعلى ما يحصلون عليه من إيجار منزلهم في شارع بيرون وكان ذلك منذ ستة أشهر ولم تكن صحة والد فيليب وقتئذ جيدة، وجدت نفسها حاملا فتجبرت في أمرها ، وقبلت أول من يتقدم لاستئجار المنزل . وخزنت أثاثها واستأجرت منزلا مؤقتا لمدة عام وكان القس يرى أن إيجاره باهظ ، وقد فعلت السيدة كاري ذلك كي تتخلص من جميع المضايقات حتى تضع طفلها ولكن السيدة كاري لم تعرف طيلة حياتها كيف تدبر شئون المال فعجزت عن أن توفق بين نفقاتها وبين ظروفها الجديدة ، فراح القليل الذي كان لديها يتسرب من بين يديها بطريقة أو بأخرى ، والآن ، عندما وفّت بكل التزاماتها ، لم يتبق لديها أكثر من ألفين من الجنيهات تعول بها طفلها الصغير حتى يشب عن طوقه ويستطيع أن يكسب عيشه .

لم يكن القس ليستطيع أن يشرح كل ذلك للطفل الصغير الذي ظل مسترسلا في البكاء . فقال كاري :

- من الخير أن تعود الآن إلى إياي

قال ذلك وهو يشعر أن إياي هي الوحيدة التي يمكنها أن تواسي الطفل حتى يتوقف عن البكاء وتسلل فيليب من فوق ركبة عمه دون أن ينطق بكلمة واحدة ، ولكن السيد كاري أوقفه قائلا :

- يجب أن نذهب غدا إلى بلاكستابل لأنه لا بد لي في يوم السبت من أن أقوم بإعداد موقعتي التي سألقبها في الكنيسة ، ويجب أن تطلب إلى إياي الآن أن تعد لك حاجاتك ، ويمكنك

أن تأخذ معك كل لعبك وإذا أردت تذكرك لوالدك أو والدتك ففهي وسعك أن تأخذ شيئا واحدا لكل منهما . لأننا سنبيع كل ما عندنا ذلك .

وتسلل الطفل خارجا من الحجرة .

ولم يكن كاري القس معتادا العمل ، فعاد إلى كتابة خطابات الشكر وهو ممتعض وكان على إحدى جوانب مكتبه مجموعة من الفواتير سببت له عنقا شديدا .. وكادت إحداها تخرجه عن صوابه لأنها حوت مبلغا لا يتصوره العقل ، ذلك أن إما كانت قد طلبت من بائع الزهور بعد موت السيدة كاري مباشرة مجموعة ضخمة من الزهور لوضعها في حجرة المتوفاة . وكان ذلك منها إتلافنا شديدا للمال . وقد بالغت في التصرف من تلقاء نفسها . ولم يكن هذا من حقها . وكان من حق كاري أن يطردها من العمل حتى إذا لم تكن هناك صعاب مالية . ولكن فيليب عاد إلى إما وأخفي رأسه في صدرها . وأخذ يبكي وقلبه كاد يتحطم . وكانت إما تستع أن فيليب ابنها .. فقد حملته بين ذراعيها وهو ابن ثلاثين يوما فهدأت من خاطره وواسته بكلمات مفعمة بالحنان . ووعدته أن تأتي لتراد في بعض الأحيان ، وقالت أنها لن تنساه أبدا وحدثته عن بيتها في ديفونشير وعن الريف الذي هو ذاهب إليه - وقصت عليه كيف أقام أبوها بوابة عند الطريق العام المؤدى إلى أكستر وراحت تصف له الخنازير والبقرة التي في الحظيرة .. وقالت له إن البقرة ولدت عجلا صغيرا .. حتى نسي فيليب دموعه . وأقاربه أفكار رحلته القريبة . وعندئذ . نهضت إما ووضعته على الأرض . فقد كان أمامها الكثير مما يجب أن تفعله . وساعدها فيليب في إخراج الملابس ووضعها على الفراش وطلبت إليه أن يذهب إلى غرفته ليجمع لعبه .. وبعد لحظة كان غارقا بين اللعب وقد بدت عليه السعادة .. ولكنه شعر بالملل أخيرا من وحدته فعاد إلى حجرة النوم التي كانت بها إما ترتب الملابس في صندوق كبير من الصاج ، وتذكر فيليب حينئذ أن عنه قال له إنه يمكنه أن يحمل من البيت شيئا يذكره بأبيه وشيئا يذكره بأمه . فأخبر إما بذلك وسألها ماذا يأخذ فقالت له

- خير لك أن تذهب إلى حجرة الاستقبال وتختار منها ما يروقك .

- إن عمي وليام هناك .

- لا تهتم بذلك فإن الأشياء ملكك الآن .

زميل فيليب الدرج ببطء ، ووجد باب الحجرة مفتوحا . وكان السيد كاري قد غادر الحجرة فدخل فيليب إليها سائرا بتؤدة . ولم يكونا قد بغيا في المنزل طويلا ، ولذلك لم يكن فيه ما يثير اهتمامه بنوع خاص . كانت حجرة يقيم فيها إنسان غريب . ولم ير فيها فيليب من الأشياء ما يثير إعجابه . ولكنه استطاع أن يميز ما يخص أمه مما يخص صاحب البيت . وما لبث أن ركز اهتمامه على ساعة حائط صغيرة الحجم سمع أمه مرة وهي تقول إنها تحبها وعاد بها تاركا الحجرة . وصعد الدرج وقد انتابته مشاعر حزينة .

وعند باب حجرة نوم أمه وقف قليلا يسترق السمع . وشعر بأن من الخطأ الكبير أن يدخل الحجرة ، وإن لم يكده أحد قد أخبره بالألا يدخلها وشعر بقليل من الخوف وراح قلبه يخفق بين جنبيه من القلق . ولكن حافزا دفعه في الوقت عينه إلى أن يدير مقبض الباب .. فأداره بهدوء بالغ كأنه يريد ألا يسمعه أحد ممن بداخل الحجرة ، ثم دفع الباب ببطء . ووقف لحظة على عتبة الحجرة قبل أن تعود إليه شجاعته ويجروا على الدخول . وما لبث أن زال خوفه . ولكن كل شيء بدا له غريبا فأغلق الباب خلفه . كانت الستائر مسدلة والحجرة مظلمة يغشاها ضوء بارد انبعث من إحدى أسيات شهر يناير وعلى نضد الزينة استطاع فيليب أن يرى الفرشاة التي كانت أمه تستخدمها ومراتها الصغيرة . وفي طبق صغير . رأى الدبابيس التي كانت تزين بها شعرها . وعلى رف المدفأة رأى صورة له . وصورة أخرى لوالده .. وكان فيليب يجلس أحيانا كثيرة في الحجرة عندما تغيب أمه عنها . ولكنه هذه المرة شعر أنها غير ما كانت عليه من قبل . فقد كان منظر المقاعد يبدو غريبا بعض الغرابة . وبدا الغراش كأنه أعد لينام فيه شخص في تلك الليلة وكان هناك رداء للنوم بدا من إحدى الحفائض التي كانت ملقاة على الوسادة وفتح فيليب صوانا كبيرا ودخل فيه . وأخذ يجمع بين يديه من الملابس ما استطاع حتى اختفي رأسه بينها . واستتم منها رائحة العطر التي كانت تتطيط به أمه تم جذب الأدرج التي امتلأت بأشائها . وألقى عليها نظرة . فرأى بعض الصناديق التي احتوت زجاجات العطر وقد انبعثت رائحتها الزكية القوية إلى أنفه . وبدا فيليب يألف الغرفة . فقد زال عنه ما انتابه من شعور بعدم الارتياح إليها . وخيل إليه أن أمه خرجت في نزهة وستعود إليه في الحال . ثم تصعد لتتناول معه الشاي في غرفته . وخيل إليه أنه يشعر بملس قبالاتها على شفتيه ولم يكن يصدق أنه لن يراها بعد ذلك .. لم يكن يصدق هذا بسبب بسيط وهو أنه مستحيل . وصعد إلى السرير وألقى برأسه على الوسادة وظل هكذا راقدًا بلا حراك .

افتتق فيليب عن «إما» والدموع تملأ عينيه . ولكن الرحلة إلى بلاكستابل ألته وسرته . وعندما انتهت كان الابتهاج باديا عليه . وقد ولد نفسه على هذا المصير . وتبعد بلاكستابل ستين ميلا عن لندن . وبعد أن وكل السيد كاري أمر الحفائض إلى الحمال . قصدا من فورهما إلى منزل القس . واستغرق سيرهما إلى هناك أكثر قليلا من خمس دقائق . وما كادا يصلان إليه حتى تذكر فيليب فجأة أنه رأى ذلك الباب من قبل . لقد كان بابا أحمر ذا خمسة قضبان يفتح إلى الخارج وإلى الداخل بسهولة على مفصلات . وكان من المستطاع وإن كان محرما عليه : أن يتعلق به ويتأرجح عليه . واخترقا الحديقة حتى وصلا إلى الباب الأمامي .. ذلك الباب الذي خصص للسادة الزائرين ولأيام الأحاد والمناسبات الخاصة . مثل ذهاب القس إلى لندن وعودته منها . إما الدخول المعتاد إلى البيت والخروج منه فكانا يحدثان من باب جانبي . وكان للمنزل باب ثالث في المؤخرة للبيستاني والمسؤولين وأبناء السبيل . وكان منزلا كبيرا من الأجر الأصفر بني على الطراز الكنسي . ذا سطح مائل من الجانبين . وكان الباب الأمامي يشبه أبواب الكنائس .. أما نوافذ حجرة الاستقبال فكانت على الطراز القوطي .

وكانت السيدة كاري تعرف موعد القطار الذي سيصلان فيه ، فراحت تنتظرهما في حجرة الاستقبال متوقعة سماع صرير الباب وهو يفتح . فلما سمعته سارت إليه بسرعة . وقال السيد كاري وهو يقدم زوجته إلى فيليب:

- هذه زوج عمك لويزا هيا اجري وقبلها .

وبدا فيليب يجرى نحوها وهو يعرج ، وأخذ يجر قدمه الشواء خلفه بطريقة مؤلمة ، ثم توقف .

كانت السيدة كاري عجوزا من نفس سن زوجها ، ذات وجه مليء بتجاعيد غائرة ، وعيناها زرقاوين تشوبهما صفرة ، وقد صفقت شعرها الأشيب في حلقات طبقا لطراز ذلك العصر ، وارتدت رداء أسود اللون . أما زينتها الوحيدة فكانت سلسلة ذهبية تعلقت بجيدها وتدلّى منها صليب صغير ، وكانت امرأة حية ذات صوت رقيق .. وقالت لزوجها :

- هل أسرفت في السير يا وليام ؟

قالت ذلك بلهجة يكاد يشوبها التأنيب وهي تقبله . فأجاب وهو يلقي نظرة على ابن أخيه :

- إن هذا لم يخطر ببالي أبدا .

فقالت للصغير :

- ألم يؤلمك السير يا فيليب ؟

- لا .. إني أسير دائما .

وتعجب فيليب قليلا لهذا الحوار بينهما . ثم طلبت إليه زوج عمه لويزا أن يدخل المنزل ، فسار الجميع إلى ردهة أرضها مكسوة ببلاط من اللونين الأحمر والأصفر ، وقد رسمت على بلاطة منها صورة الصليب اليوناني وعلى الأخرى صورة حمل الله وفي جانب من جوانب الردهة أقيم سلم فخم من خشب الصنوبر المصقول يؤدي إلى خارج الردهة . كان هذا الدرج ذا رائحة فذة . وقد أقيم في منزل القس بعد أن أعيد تأثيث الكنيسة وتبقى من الخشب ما كفي بناءه . وكان «درازين» السلم مزينا بقطع خشبية رسمت عليها صور المبشرين بالأنجيل الأربعة . وقالت السيدة كاري:

- لقد أوقدت المدفأة لأنني ظننت أنكما ستشعران بالبرد بعد رحلتكما .

وكانت هناك مدفأة ضخمة في وسط الردهة ، ولم تكن توقد إلا حين تسوء هناك حالة الجو للغاية ويصاب القس بالبرد فلا توقد المدفأة لأن تكاليف الفحم كانت باهظة . هذا إلى جانب أن ماري آن الخادمة لم تكن تحب وجود النار في البيت . وكانت تقول أنهما إذا أراد أن يشعلا هذه النيران كلها ، فإن عليهما أن يستخدمنا خادمة أخرى . وفي الشتاء كان السيد

كاري وزوجته يجلسان في حجرة الطعام حتى تكفيهما نار واحدة ، وإذا ما أتى الصيف يكونان قد تعودا حجرة الطعام ، ولهذا كان السيد كاري هو الوحيد الذي يستخدم حجرة الاستقبال في أيام الأحاد فقط ليغفو فيها قليلا عند الظهيرة . ولكنه كان دائما يوقد المدفأة يوم السبت حتى يستطيع أن يكتب عظته الدينية .

واصطحبت العمة لويزا فيليب إلى الطابق الأعلى حيث أطلعتة على حجرة صغيرة لنومه تطل على الطريق وكانت قبالة النافذة مباشرة شجرة ضخمة تذكرها الطفل جيدا لأن فروعها كانت مدلاة بحيث كان في استطاعته أن يتسلقها في سهولة ، وقالت السيدة كاري:

- تلك حجرة صغيرة لطفل صغير .. هل تخاف إذا نمت فيها بمفردك ؟

- لا .

وكان في أول زيارة قام بها فيليب للقس قد اصطحب معه مربيته، ولهذا فلم تكن السيدة كاري تقوم بالكثير من شئونه، أما الآن فقد نظرت العمة لويزا بشيء من عدم الثقة.

- هل تستطيع أن تغسل يديك وحدك أم تريد أن أغسلهما لك ؟

- فأجابها فيليب في حزم :

- نعم أسطيع !

- هذا حسن ولكني سأرى بنفسي هل يداك نظيفتان عندما تنزل لتناول الشاي .

ولم تكن السيدة كاري تعرف شيئا عن الأطفال . لكنها بعد أن تقرر أن يمكث فيليب معها هي وزوجها في بلاكستابل أخذت تفكر كثيرا كيف تعامله ، وكانت راغبة في أن تقوم بواجبها كاملا نحوه ، والآن .. وقد أصبح الصغير معها وجدت نفسها خجلة منه كخجله منها ، وتمنت ألا يكون فيليب مزعجا فظا ، لأن زوجها لا يحب الأطفال المزعجين غير المؤدبين . وانتحلت السيدة كاري عذرا حتى تترك فيليب بمفرده . ولكن لم تمض لحظة حتى عادت إليه وطرقت باب الحجرة ، وسألته دون أن تدخل إن كان يستطيع أن يصب الماء لنفسه .. ثم عادت إلى الطابق الأسفل ، ودقت الجرس إيدانا بموعد تناول الشاي .

وكانت حجرة الطعام متسعة ، متناسبة الطول والعرض ، ولها نوافذ على جانبيين من جوانبها أسدلت عليها ستائر سميكّة من المخمل الأحمر ، وفي وسط الحجرة استقرت منضدة وفي جانب من جوانبها صوان كبير من خشب المجنة رائع المنظر ، وبها مرآة ، وفي ركن من أركان الحجرة أرغن صغير الحجم . ووضعت على جانبي المدفأة مقاعد مكسوة بالجلد المزركش ، وغطى أعلى كل مقعد بغطاء صغير من القماش ، وكان هناك مقعدان أحدهما من مسندين فأطلقوا عليه اسم الزوج والآخر بلا مساند فأطلقوا عليه اسم الزوجة ولم تكن السيدة كاري تجلس أبدا على المقعد ذي المساند .. وكانت تقول إنها تفضل ألا يكون مقعدها مفرط في الراحة ، لأن لديها دائما الكثير من الأعمال ، وإذا جلست على مقعد ذي مسندين فقد

وكان السيد كاري منهمكا في إشعال نار المدفأة عندما دخل فيليب حجرة الطعام وأشار إلى ابن أخيه بأن هناك محركين لتحريك النار في المدفأة . أحدهما كبير الحجم لامع مصقول، لم تقس عليه كثرة الاستعمال فسموه القس . أما الآخر فكان أصغر كثيرا من صاحبه وبدا عليه أنه مر بنيران كثيرة فأطلقوا عليه نائب القس وقال السيد كاري :

- ماذا ننتظر الآن ؟

فأجابته زوجته :

- لقد طلبت من ماري أن تعد لك بيضة .. فقد ظننت أنك ستشعر بالجوع بعد رحلتك .

وكانت السيدة كاري تعتقد أن الرحلة من لندن إلى بلاكستابل شاقة للغاية ذلك لأنها قلما سافرت لأن دخل الأسرة لم يكن يتجاوز ثلاثمائة جنيه في العام . ولذلك كان زوجها يسافر بمفرده إذا أراد أن يمضي عطلة لأن المال لم يكن يكفي لاثنتين وكان السيد كاري يهوى حضور مؤتمرات الكنائس فكان في العادة يدبر أمره بحيث يسافر إلى لندن مرة كل عام .. وقد سافر مرة إلى باريس ليشاهد المعرض الذي أقيم هناك ومرتين أو ثلاث مرات إلى سويسرا .

وجاءت ماري أن بالبيضة ، وجلس الجميع حول المائدة . وكان المقعد قصيرا بالنسبة لفيليب ، وفي تلك اللحظة انتابت الحيرة السيد كاري وزوجته فلم يعرفا ماذا يفعلان . وهنا قالت ماري أن :

- سأضع تحته بعض الكتب .

وتناولت من فوق الأرض الكتاب المقدس وكتاب التراتيل الذي يتلو القس منه صلواته، ووضعت الكتابين على مقعد فيليب . فصاحت السيدة كاري منزعة :

- وليام .. لا ينبغي أن يجلس فيليب على الكتاب المقدس . واستمرت في لهجة يشوبها الانزعاج :

- ألا تستطيعين أن تضعي تحته كتابا آخر من الكتب التي في حجرة المكتب ؟

وفكر كاري في الأمر لحظة ثم قال :

- ماري أن .. أعتقد أن لا بأس في هذه المرة أن تضعي كتاب التراتيل فوق الكتاب المقدس . فهذا كتاب من وضع أناس مثلنا ولا يمكن القول أنه كلام الله .

فقالت العمة لويزا :

- إن هذا لم يخطر ببالي يا وليام ..

وجلس فيليب فوق الكتابين وبعد أن تلا القس دعاء الطعام ، قطع الطرف الأعلى للبيضة

يسكين وقال وهو يعطيه لفيليب :

- والآن تستطيع أن تأكل طرف بيضتي إذا شئت ..

وكان فيليب يريد بيضة كاملة لنفسه . ولكنيا لم تقدم إليه فاكتفى بما استطاع أن يحصل عليه . وسأل القس :

- كيف كان حال الدجاج من حيث البيض منذ أن سافرت ؟

- إنه دجاج فظيع .. فلسنا نحصل إلا على بيضة واحدة أو بيضتين كل يوم ..

- هل أعجبتك رأس البيضة يا فيليب ؟

- أعجبتني كثيرا جدا أشكر ..

- ستأكل قطعة أخرى مثلها بعد ظهر يوم الأحد .

ذلك أن السيد كاري كان دائما يأكل بيضة مسلوقة مع الشاي بعد ظهر يوم الأحد حتى يقوى على إقامة الصلاة في الكنيسة مساء الأحد .

بدأ فيليب رويدا يعرف الناس الذين سيعيش معهم . وعرف من أجزاء من الحديث بعضه لم يكن موجبا إليه ولا مقصودا أن يصل إلى أسماعه كثيرا عن نفسه وعن والديه المتوفين . كان والد فيليب أصغر بكثير من أسقف بلاكستابل . وبعد تقدم مذهل حققه في مستشفى سانت لوك انضم إلى هيئة أطباء المستشفى . وعندئذ بدأ يتدفق عليه المال بكثرة . غير أنه راح ينفقه ببذخ شديد . وعندما بدأ القس البروتستانتي في إجراءات إصلاح كنيسة وطلب من أخيه التبرع لعملية الإصلاح هذه دهش عندما تلقى منه أكثر من مائتي جنيه : قبلها السيد كاري بمشاعر متضاربة فقد كان يحيل إلى الاقتصاد بطبعه وإلى التوفير بالضرورة ، كان يحسد أخيه لأنه كان في مقدوره أن يدفع هذا المبلغ الكبير ، وكان مسرورا من أجل كنيسة ، ويشعر بضيق غامض لهذا الكرم الذي أبداه أخوه والذي يبدو وكأنه ضرب من التفاخر . ثم تزوج هنري كاري من إحدى مريضاته ، فتاة جميلة ولكن معدمة . بنيمة بلا أقارب ولكنها من أسرة طيبة ؛ وقد حضر حفل الزفاف عدد كبير من الأصدقاء . وكان الأسقف يشعر بالتحفظ إزائها عندما يزورها عندما كان يزورها في سفره إلى لندن . وكان يشعر بالخجل معها وفي مكان قلبه يستاء من جمالها الأخاذ ؛ كانت توتدي ثيابا فاخرة رائعة لا تليق بزوجة طبيب جاد في عمله ؛ ثم هذا الأثاث الفاخر الذي يزهو به منزلها والورود التي تعيش بينها حتى في فصل الشتاء ، كلها توحى ببذخ وأسراف كان يأسف له . وقد سمعها تتكلم عما تعترم تقديمه من ضيافة : ومن المستحيل ، كما قال لزوجته عندما عاد إلى المنزل أن يقبل الضيافة دون أن يرددها . لقد رأى كروم في حجرة الطعام ثمن الرطل منها ثمانية شلنات علي الأقل ؛ وعلي المائدة قدم إليه الأسباجوس قبل ظهيرة في حديقة منزله بشهرين . والآن فإن كل ما توقعه قد حدث : لقد شعر الأسقف بالارتياح الذي يشعر به المتنبئ الذي حذر المدينة

من أن النار سوف تشتعل فيها وتأتي عليها ولكن أحدا لم يستجب لتحذيراته . مسكين فيليب
لقد كان مدقعا فعلا وما فائدة أصدقاء والدته الطيبين الآن؟ لقد سمع أن إسراف والده كان
أمرا إجراميا حقا وكان من الرحمة أن الرب رأى أنه من المناسب أن يختار أمه العزيزة إلى
جوارده فلم تكن لديها فكرة عن المال أكثر من فكرة طفل في هذا الشأن .

وبعد أن أمضى فيليب أسبوعا في بلاكستابل وقع حدث يبدو أنه ضائق عمه كثيرا . ففي
أحد الأيام وجد على مائدة الإفطار طردا صغيرا أرسل بالبريد من منزل المرحومة السيدة
كارى في لندن . كانت الرسالة موجهة إليها . وعندما فتح الأسقف الطرد وجد به اثنتي عشرة
صورة فوتوغرافية للسيدة كارى . وكانت الصور تظهر رأسها وكنتفها فقط . وقد صغف شعرها
بطريقة أسوأ من المعتاد وقد تدلى الشعر على جبهتها مما أکسبها منظرًا شاذًا . وكان الوجه
نحيلا مرهقا غير أن جمال قسماتها لم يكن في استطاعة أي مرض أن يخفيه . وكان تبدو في
العينين السوداوين الواسعتين لمسة حزن لم يكن فيليب يستطيع أن يتذكرها . وقد صدم السيد
كارى صدمة خفيفة عندما وقعت عيناه على صور السيدة الراحلة غير أن ذلك سرعان ما تلاه
شعور بالارتباك . فالصور يبدو أنها التقطت حديثا ولكن لم يستطع أن يتصور من الذي
طلبها .

وسأل فيليب «هل تعرف أي شيء عن هذه الصور يا فيليب؟»

ورد فيليب قائلًا «أذكر أن أمي قالت أنها التقطت لها . لقد لامتها الأنسة واتكن... ولكنها
قالت لها أريد أن يكون لدى الصبي شيئا يتذكرني به عندما يشب عن الطوق» .

نظر السيد كارى إلى الطفل لحظة . لقد تكلم الطفل بصوت عال واضح . كان يذكر الكلام
لكنه لم يكن يعني شيئا له . وقال السيد كارى:

«يستحسن أن تأخذ صورة من هذه الصور وتحفظ بهات في حجرتك وسوف أحتفظ أنا
ببقية الصور» .

ثم بعث الأسقف برسالة إلى الأنسة «واتكن» التي ردت عليه وأوضحت كيف التقطت هذه
الصور .

ففي أحد الأيام كانت السيدة كارى مستلقية مريضة في فراشها وكانت في ذلك اليوم
تشعر بأنها أفضل من المعتاد وقد بدا على الطبيب في الصباح أنه منعم بأمل كبير في
شفائها: وقد أخذت «إما» الطفل إلى الخارج وكانت الخادومات في الدور الأسفل في البدرين:
وفجأة شعرت السيدة كارى أنها وحيدة في العالم بشكل يائس . وانتابها خوف فظيع من أنها
لن تشفى من الحبس النهائي الذي كانت تتوقعه في أسبوعين . كان عمر ابنها تسع سنوات .
كيف يمكن أن يتوقع منه أن يتذكرها ؟ ولم تتحمل أن تفكر أنه سوف يكبر وينسى . ينساها
تماما ، فقد كانت تحبه بشدة لأنه كان ضعيفا ومشوها ولأنه ابنها . فلم تلتقط صور لها منذ

زواجها . وكان هذا قبل عشر سنوات . وكانت تريد من ابنها أن يعرف كيف كانت تبدو في
أيامها الأخيرة . فعندئذ لن ينساها . لن ينساها نسيانا تاما . وكانت تعرف أنها لو نادت علي
مرضتها وقالت لها أنها تريد أن تنبض من الفراش فإن الممرضة سوف ترفض وأنبا
ليست لديها القوة الآن كيف تناقش وتكافح . فنهضت من الفراش وارتدت ملاسيا . لقد ظلت
راقدة على ظهرها طويلا حتى لم تعد ساقاها تقويان على حنلها . وكانت تستشعر وخزا في
كعبي قدميها فوجدت صعوبة شديدة في وضعيها على الأرض . ولم تكن معنادة علي
تصفيف شعرها بنفسها فعندما رفعت ذراعيها وبدأت تسوي شعرها شعرت بأنها يكاد أن
يغشي عليها . ولم تكن تستطيع أن تسوي شعرها كما كانت تسوي ممرضتها . كان شعرها
رائع الجمال رقيق وذو لون ذهبي ثري . حاجباها كانا مستقيمان لونهما أسود فاحم . ارتدت
قنورة سوداء وصداوة توب المسيرة التي كانت تحبها كثيرا . وكانت من الحرير الأبيض الذي
كان من الأزياء الأنيقة في تلك الوقت . وتأملت نفسها في المرآة . كان وجهها مصغرا للغاية
ولكن بشرتها كانت صافية: لم يحدث أبدا أنها كانت تستع بلون لبسترتها وهذا جعل حمرة
فمها الجميل شيء رائع . لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتنهد . ولكنها لم تشعر بالأسف
على نفسها : وكانت في تلك اللحظات تشعر فعلا بتعب شديد وارتدت الفراء الذي أهداها هنري
إياه في عيد الميلاد السابق - كانت غخورة للغاية بهذا الفراء وسعيدة للغاية عندما قدم
إليها . تسلت تهبط درجات السلم . وخرجت من المنزل بأمان وقادت سيارتها إلى أحد
المصورين ودفعت ثمن اثنتي عشرة صورة . وكانت مضطرة أن تطلب كوب ماء أثناء جلوسها
كي تلتقط لها الصور وعندما لاحظ مساعد المصور أن السيدة مريضة اقترح عليها أن تحضر
في يوم آخر غير أنها أصرت على البقاء حتى النهاية وانتهى التصوير وقادت سيارتها عاندة
إلى المنزل القذر الصغير في كينسجتون وهو منزل كانت تفتته من أعماق قلبها . منزل فظيع
أن يموت المرء فيه .

وجدت الباب الأمامي مفتوحا وعندما دخلت هرعت الممرضة وإما إليها هابطتين السلم
بسرعة لمساعدتها . لقد شعرا بخوف شديد عندما جدا حجرتها خالية . وفي البداية ظننا أنها
ذهبت إلى الأنسة «واتكن» وأرسلت الطباخة خلفها لتبحث عنها هناك . وعادت الطباخة مع
الأنسة «واتكن» وراحت تنتظر بقلق في حجرة الاستقبال غير أنها راحت تبيط السلم الآن
مفعمة بالقلق والرغبة في التأنيب : غير أن السيدة كارى لم تكن مهية لهذا النوع من التعب
وسرعان ما تهاوت بين ذراعي إما وحملوها للدور العلوي . وظلت مغشيا عليها لمدة بدت
أطول بشكل لم يصدقته من كانوا يراقبونها ولم يحضر الطبيب الذي استدعي للحضور علي
وجه السرعة . وفي اليوم التالي تحسنت حالتها قليلا فاستطاعت الأنسة «واتكن» أن تحصل
منها علي بعض التفسيرات لما حدث منها . وكان فيليب يلعب على الأرض في حجرة نوم أمه
ولم تعلمه أي من السيدتين أي انتباه . وبالكاد كان يفهم ما يتكلمون عنه ولم يعرف لماذا ظل
الكلام الذي قالته أراه محفورا في ذاكرته .

«أريد أن يكون لدى الصبي شيئا يتذكرني به عندما يشب عن الطوق».

وقالت السيدة كاري «لا أعرف لماذا طلبت دسنة من الصور، بينما كانت تكفي صورتان».



كان كل يوم يشبه الآخر في الأبرشية .

وبعد الإفطار مباشرة جاءت ماري أن بجريدة التايمز . كان السيد كاري يشترك في هذه الجريدة مع اثنين من جيرانه . فكانت تظل معه من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة عندما يقوم البستاني بحملها إلى السيد إيليس جاره فتظل معه حتى الساعة السابعة ثم تنتقل إلى السيدة بروكس في مانور هاورس التي يكون لها حظ الاحتفاظ بها حتى اليوم التالي لأنها تحصل عليها متأخرة . وفي الصيف عندما تكون السيدة كاري تعد المربي كانت كثيرا ما تطلب منها نسخة من الجريدة لتغطي بها البرطمانات . وعندما كان الأسقف يجلس لقراءة الجريدة كانت السيدة كاري ترتدي لباس رأسها وتخرج لكي تشتري لوازم المنزل . وكان فيليب يخرج معها . كانت بلاكستابل قرية صيادين بها شارع رئيسي به المتاجر والبنك وبيت الطبيب وبيوت اثنين أو ثلاثة من ملاك سفن الصيد ، وحول الميناء الصغير كانت هناك شوارع صغيرة قدرة يعيش فيها الصيادون والفقراء من سكان القرية ، ولما كان هؤلاء الفقراء يذهبون إلى الكنيسة الصغيرة فلم تكن لهم أهمية تذكر . ولو تصادف أن قابلت السيدة كاري في الشارع الكهنة المنشقين عن الكنيسة فإنها كانت تنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع لكي تتجنب لقاءهم ولكن إذا لم يتوفر الوقت لذلك فكانت تركز أنظارها إلى أسفل على الرصيف . كانت فضيحة لم يتقبلها القس أبدا وهي أن هناك ثلاث كنائس صغيرة في الشارع الرئيسي ولم يكف عن الشعور بأن القانون كان يجب أن يتدخل لمنع إقامة تلك الكنائس الصغيرة . لم يكن التسوق في بلاكستابل أمرا سهلا لأن الانشقاق عن الكنيسة كان أمرا شائعا ساعده أن الأبرشية كانت تبعد ميلين عن المدينة وكان من الضروري التعامل فقط مع الذين يترددون على الكنيسة : كانت السيدة كاري تغرف جيدا أن العادة المتبعة في بيت القس هي التي لها أكبر الأثر في إيمان التاجر . فقد كان هناك جزاران يترددان على الكنيسة . ولم يكن في استطاعتهم أن يفهما لماذا لا يستطيع القس أن يتعامل معهما في وقت واحد ولم يكونا أيضا راضين عن خطة القس بالذهاب ستة أشهر إلى أحدهما وستة أشهر للآخر . وهدد الجزار الذي لم يكن يبعث باللحم إلى القس باستمرار بأن لا يذهب إلى الكنيسة وكان القس يضطر أحيانا إلى التهديد : إنه يخطئ تماما بعدم الذهاب إلى الكنيسة ولكنه إذا تمادي في الإثم وذهب فعلا إلى الكنيسة الصغيرة فإن السيد كاري سيضطر إلى تركه إلى الأبد . وكثيرا ما كان السيد كاري يتوقف عند البنك ليعتد برسالة إلى جوسيا جريفز المدير الذي كان أيضا رئيسا لجوقة

المنشدين في الكنيسة وأمين الصندوق ووكيل الكنيسة . كان رجلا طويل القامة ، نحيفا له وجه شاحب وأنف طويل ، وكان شعر رأسه قد شاب وابيض وكان فيليب يراه معناه في الشخوخة . وكان مستولا عن حسابات الأبرشية ويتولى شئون المنشدين والمدرسة : ورغم أنه لم يكن هناك أرغن في كنيسة الأبرشية فقد كان من المعترف به بصفة عامة أن جوقة المنشدين التي كان يقودها (في بلاكستابل) من أحسن الجوقات في «كننت» وكان يقوم بكل الاستعدادات اللازمة عندما يعقزم إقامة أي حفل في أية مناسبة . مثل زيارة المطران للعماد أو زيارة كاهن الريف الكبير لكي يدلي بسوعظته في عيد شكر الحصاد . ولم يكن يتردد عند أداء أي شيء وكل ما كان يفعله هو أن يجري مشاورات روتينية مع القس ، أما القس الذي كان على استعداد دائما أن يزفر على نفسه المتاعب فكان يستاء بشدة من طرق وكيل الكنيسة في الإدارة وكان في الواقع ينظر إلى نفسه على أنه أهم شخص في الأبرشية . وقد قال السيد كاري لزوجته أن جوسيا جريفز إذا لم يلزم حذره فإنه سوف يوبخه في يوم ما غير أن السيدة كاري نصحته بأن يتحمل السيد جوسيا جريفز : فهو حسن القصد وليس خطوه أنه ليس سيئا كامل التهذيب . وقد مارس القس الصبر انطلاقا من التزامه بالحرص على الفضائل المسيحية . ولكنه انتقم لنفسه بأن سمي وكيل الكنيسة «بسمارك» من وراء ظهره .

وحدث مرة شجار عنيف بين الاثنين وظلت السيدة كاري تذكر هذا الوقت المثير للقلق برعب . وكان مرشح المحافظين قد أعلن أنه يعقزم إلقاء إحدى خطاباته الانتخابية في بلاكستابل : ولما كان جوسيا جريفز قد اتخذ ترتيباته بأن يحدث هذا اللقاء في قاعة الإرسالية فقد قصد السيد كاري وأبلغه بأنه يأمل أن يلقي كلمة في تلك المناسبة . واتضح أن المرشح طلب من جوسيا جريفز أن يرأس الاجتماع . وكان هذا أكثر مما يمكن أن يحتمله السيد كاري . فقد كانت أراؤه حازمة فيما يتعلق بالاحترام الراجع إلى الزي ومن السخرية أن يرأس وكيل الكنيسة الاجتماع بينما القس هناك . وذكر جوسيا جريفز بأن كاهنا معاناهما أن هناك شخصا اسمه القس يرعى الكنيسة . وقد رد جوسيا جريفز على ذلك بأن قال أنه أول من يعتز بكرامة الكنيسة ، غير أن هذا أمر يتعلق بالسياسة وقام بدوره بتذكير القس بما قاله السيد المسيح المبارك «اعط ما لغنيصم لقيصر وما لله لله» . وقد رد السيد كاري على ذلك فقال أن الشيطان يمكنه أن يقتبس من الكتاب المقدس ما يخدم مصالحه وأنه هو نفسه لديه السلطة الكاملة فيما يتعلق بقاعة الإرسالية ، وإذا لم يطلب إليه أن يرأس الاجتماع فإنه يرغب استخدام القاعة في اجتماع سياسي . وقال السيد جوسيا جريفز للسيد كاري أن له أن يفعل ما يشاء وأضاف أنه من جانبه يعتقد أن كنيسة ويزلين الصغيرة يمكن أن تؤدي الغرض وأن تكون مكانا مناسباً بالمثل . وعندئذ قال السيد كاري أنه إذا وضع جوسيا جريفز قدمه في مكان أفضل بقليل من معبد اللوثنيين فإنه لا يستحق أن يكون وكيلا لأبرشية مسيحية . وعندئذ استقال جوسيا جريفز من كل مناصبه وفي نفس الليلة أرسل إلى الكنيسة يطلب أرديته الكهنوتية البيضاء وغيرها . أما شقيقته الأنسة جريفز التي كانت

محمرا ومفروما وفي أيام الخميس والجمعة والسبت لحم الضأن . وفي يوم الأحد كانوا يأكلون إحدى دجاجاتهم . وكان فيليب يستذكر دروسه بعد الظهر . وتعلم اللغة اللاتينية والرياضيات على أيدي عمه الذي لم يكن يعرف أيًا منهما . وعلمته عمته كيف يعزف على البيانو كما علمته اللغة الفرنسية . كانت جاهلة في اللغة الفرنسية ولكنها كانت عازفة بيانو ماهرة وكانت تصاحب عزفها بغناء الأغاني القديمة التي عرفت منذ ثلاثين سنة . وكان العم ويليام يقول لفيليب أن زوجته ، عندما كان راعيا للأبرشية . كانت تعرف اثنتي عشر أغنية كانت تحفظها عن ظهر قلب وتغنيها على الفور عندما يطلب منها ذلك . وكانت تنني بدون مصاحبة الموسيقى في حفلات الشاي التي كانت تقدم في مقر القس . وكان هناك عدد قليل من الناس تحضر عائلة كاري على دعوتهم هناك وكانت الحفلات التي يقيمونها تضم راعي الأبرشية ، وجوسيا جريغز وشقيقته . والطبيب ويجرام وزوجته . وبعد تناول الشاي كانت السيدة جريغز تعزف قطعة أو قطعتين من موسيقى مندلسون «أغاني بلا كلمات» وكانت السيدة كاري تغني الأغاني التي تحفظها .

ولكن عائلة كاري لم تكن تقيم حفلات الشاي كثيرا ، لأن إعدادها كان يزعجهم وكانوا يشعرون بالإرهاق بعد أن ينتهي الحفل ويرحل المدعون . وكانوا يفضلون أن يتناولوا الشاي وحدهم ، وبعد الشاي كان كاري وزوجته يلعبان الطاولة . وقد وضعت السيدة كاري في حسابها أن السيد كاري يحب أن يكسبها في لعب الطاولة لأنه كان لا يحب أن يخسر وكان يتناولوا عشاء باردا بالليل وكان هذا العشاء وجبة غير متزنة لأن ماري أن لم تكن تحب إعداد شيء بعد تناول الشاي وكانت السيدة كاري تساعد في تنظيف المائدة .

ونادرا ما كانت السيدة كاري تأكل أكثر من الخبز والزبد ثم تتناول بعدهما قليلا من الفاكهة المطهية ولكن القس كان يتناول شريحة من اللحم البارد . وبعد العشاء مباشرة يذق السيد كاري الجرس للصلاة ، وبأوي فيليب بعد ذلك إلى فراشه . وقد ثار لأن ماري أن كانت تساعد في خلع ملابسه وارتداء رداء النوم وبعد فترة نجح في خلع وارتداء ملابسه بنفسه . وفي الساعة التاسعة تجلب ماري أن البيض والبطيخ . وكانت السيدة كاري تكتب التاريخ على كل بيضة وتسجل رقم البيضة في كراسة ثم تحمل البيض على ذراعها وتتصعد إلى الدور العلوي . ويواصل السيد كاري قراءة أحد كتبه القديمة . ولكن عندما تدق الساعة العاشرة ينهض ويطلق أنوار المصابيح ويتبع زوجته إلى حجرة النوم .

وعندما وصل فيليب إلى منزل عمه كانت هناك صعوبة في تحديد اليوم الذي سيستحم فيه فيليب . فلم يكن من السهل أبدا الحصول على كمية كبيرة من الماء الساخن . لأن غلاية المطبخ كانت معطلة ، وكان من المستحيل أن يستحم شخصان في نفس اليوم . وكان الرجل الوحيد الذي لديه حمام في منزله هو السيد ويلسون وكان يعتقد أن هذا نوع من التفاخر من جانبه . وكانت ماري أن تستحم في المطبخ مساء يوم الاثنين لأنها كانت تحب أن تبدأ

ترعى شئون المنزل فقد استقالت من وظيفة سكرتيرة نادى الأمومة الذي يزود الفقير بالحوامل بالملابس وأردية الأطفال وفحم الوقود وخمسة ثلثات . وقال السيد كاري أنه أخيرا أصبح صاحب النفي والأمر في منزله . غير أنه سرعان ما وجد أنه يجب عليه أن يشرف على أشياء كثيرة لم يكن يعرف عنها شيئا : أما جوسيا جريغز فقد وجد في أول لحظة من الضيق أنه فقد اهتمامه الرئيسي في الحياة . وقد استاءت كل من السيدة كاري والأنسة جريغز من هذا النزاع : وتقابلا بعد تبادل الخطابات في تكتم وصمتا على تسوية النزاع وتحسين الأحوال : وتحدثتا واحدة إلى زوجها والأخرى إلى شقيقها من صبيحة النهار إلى ساعا متأخرة من الليل . ولما كانتا تحاولان إقناع الرجلين بأن يفعلا ما تطلبه عليه مشاعرهم فقد أمكن ، بعد ثلاثة أسابيع من القلق . الوصول إلى صلح بينهما . وكان الصلح يخبر مصلحة كليهما غير أنهما أرجعا ما حدث إلى الحب المشترك ليسوع المسيح . وعقد الاجتماع في قاعة الإرسالية وطلب من طبيب القرية أن يرأسه . وألقي كل من السيد كاري والسيد جريغز كلمة في الاجتماع .

عندما كانت السيدة كاري تنهي عملها مع صاحب المصرف كانت عادة تصعد إلى الطابق العلوي لتتبادل حديثا قصيرا مع شقيقته : وبينما كانت السيدات يتبادلن الحديث عن أمور الأبرشية وراعي الأبرشية أو عن قبعة السيد ويلسون الجديدة - كان السيد ويلسون أغنى رجل في بلاكستابل وكان يعتقد أنه يكسب خمسمائة جنيه في السنة على الأقل وقد تزوج الطباخة التي كانت تعمل عنده - كان فيليب يجلس متظاهرا بالاحتشام في الردهة الرسمية التي كانت تستخدم فقط لاستقبال الزائرين ويشغل نفسه بمراقبة الحركات المتواصلة للسيدة الذهبي الذي كان يسيح في السلطانية الزجاجية . ولم تكن النوافذ تفتح إلا لدقائق قليلة في الصباح لتتهوية الغرفة ، وكانت رائحة هواء الغرفة رائحة هواء فاسد لها صلة غريبة برائحة غرف المصارف .

وتذكرت السيدة كاري بعد ذلك أن عليها أن تذهب إلى دكان البقال فأتخذتا طريقهما إلى البقال وعندما انتهت من شراء ما تريد اتجها إلى شارع جانبي به منازل صغيرة معظمها من الخشب ويسكنها الصيادون . (وهنا وهناك كان يجلس صيادا يصلح شبكته وكانت هناك شبك معلقة على الأبواب كي تجف) حتى وصلا إلى شاطئ صغير تحاصره المستودعات من جانبيه لكنه يطل على البحر . وتوقفت السيدة كاري قليلا ونظرت إلى البحر كان البحر عكرا أصفر اللون (من يعرف أي أفكار كانت تدور في ذهنها في ذلك الوقت ؟) بينما كان فيليب يبحث في رمال الشاطئ عن أحجار ملساء ليلعب بها . ثم سارا في بطاء عاندين وأطلا على مكتب البريد لمعرفة الوقت بالضبط ، وأوما برأسيهما للسيدة ويجرام زوجة الطبيب التي كانت تجلس في شرفة منزلها تخطط شيئا ثم عادا إلى المنزل .

كان الغداء في الساعة الواحدة وفي أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء وكان يشغل لحم البقر

الأسبوع وهي نظيفة . أما العم ويليام فلم يكن يستطيع أن يستحم يوم السبت ، لأنه كان لديه يوم شاق أمامه ، وكان دائما يشعر بالتعب بعد أن يستحم ولذلك كان يستحم يوم الجمعة . وكانت السيدة كاري تأخذ حمامها يوم الخميس للسبب نفسه . ويبدو أن يوم السبت كان محددا بواقع الأمر لفيليب ، ولكن ماري أن قالت أنها لا يمكنها أن تترك النار موقدة مساء السبت : فماذا تفعل وعليها كل هذا الطبخ يوم الأحد . فكان عليها أن تطبخ الغطائر وما إلى ذلك من أصناف أخرى ولم تكن تشعر أنها يجب أن تحمي فيليب مساء السبت وكان واضحا تماما أن فيليب لا يمكنه أن يستحم بنفسه . وكانت السيدة كاري تخجل من أن تحمي الطفل . أما القس فقد كان عليه بالطبع أن يعد موعظته التي يلقيها في الكنيسة يوم الأحد . ولكن القس كان يصبر علي أن يكون الصبي نظيفا في يوم الرب . وقالت ماري أن أنها تفعل لو تخلت عن عملها على أن يزيدونها إرهاقا بمزيد من العمل - فبعد ثمانية عشر عاما لم تتوقع أن يضاف إلى عملها المزيد - وقال فيليب أنه لا يريد أن يحمي أحد وأنه يستطيع أن يستحم بنفسه . وقد حل ذلك المشكلة . غير أن ماري أن قالت أنها واثقة كل الثقة أنه ليس في استطاعه الصبي أن يستحم بنفسه استحماما صحيحا . وقالت أيضا أنه بدلا من أن يظل فيليب قدرا - لأنها لا تستطيع أن تتحمل طفلا قدرا - فإنها علي استعداد لأن تعمل كالفاعل حتى في مساء يوم السبت .



كان يوم الأحد يوما مشحونا بالأحداث . وقد اعتاد السيد كاري أن يقول أنه الرجل الوحيد في الأبرشية الذي يعمل يوم الأحد .

وكان المنزل يستيقظ قبل موعده المعتاد بنصف ساعة . لا يحق للفقير أن يستلقي في فراشه يوم الراحة ، أبدى السيد كاري هذه الملاحظة لماري أن عندما راحت تدق علي الباب في الموعد بالضبط الساعة الثامنة . وقد استغرقت السيدة كاري وقتا أطول لترتدي ملابسها ونزلت لتتناول الإفطار في الساعة التاسعة وهي تلهث قليلا ، قل أن ينزل زوجها . وقد ترك حذاء السيد كاري أمام المدفأة ليُجف . وكانت الصلاة أطول من المعتاد . وكان السخاء باديات في طعام الإفطار . وبعد الإفطار قطع القس شرائح رقيقة من الخبز للطعام الرباني ، وكان فيليب محظوظا بأن قام بتقطيع قشرة الرغيف . وطلب منه أن يذهب إلي غرفة المكتب ليحضر مثقلة مصنوعة من الرخام استخدمتها السيدة كاري في الضغط علي الخبز حتى أصبح رقيقا ليأكل ثم قامت بتقطيعه إلى مربعات صغيرة . وكانت المسألة كلها يتحكم فيها الجو . ففي يوم جوه سيء لا يحضر عدد كبير من الناس إلى الكنيسة وفي الجو اللطيف فإن الذين يحضرون الصلاة في الكنيسة قليل منهم ينتظر للمشاركة في تناول العيش الرباني .

ويزداد العدد كلما كان الجو جافا إذ يسهل لهم الوصول إلى الكنيسة «سيرا على الأقدام ولكن إذا كان الجو جميلا جدا فإن الكثيرين تكون لديهم الرغبة في مغادرة الكنيسة على عجل .

أخرجت السيدة كاري طبق العيش الرباني من دولاب في حجرة المؤن وقام القس بتنميعه بقطعه من جلد الشمواة (جلد الظبي) وفي الساعة العاشرة وصلت المركبة الخفيفة التي تقل القس إلى الكنيسة وارتدى السيد كاري حذاءه . وأضاعت السيدة كاري عدة دقائق لكي ترتدي قبعيتها وكان القس في تلك الأثناء يقف في الردهة مرتديا عباءة غضفاضة وقد ارتسم على وجهه تعبير أشبه بمسحكي قديم يوشك أن يلقي به في الساحة الرومانية كي يقاتل الوحوش . وكان من الغريب أنه بعد ثلاثين عاما من الزواج لم تكن السيدة كاري تستطيع أن تكون مستعدة في الوقت المناسب صباح يوم الأحد . وأخيرا وصلت في ثوب من الساتان الأسود . لم يكن القس يحب أن ترتدي زوجة رجل الدين ثيابا ملونة في أي وقت ولكنه كان يصبر على أن ترتدي زوجته ثيابا سوداء في يوم الأحد . وأحيانا ، وبالتأمر مع الأنسة جريفرز كانت تغامر بوضع ريشة بيضاء أو وردة حمراء في قبعيتها ، غير أن القس كان يصبر علي أن تخفي : وقال أنه لا يريد أن يذهب إلى الكنيسة مع المرأة القرمزية : وكانت السيدة كاري تقفد كامرأة وتطيع كزوجة . وكانوا على وشك أن يركبوا العربة عندما تذكر القس أن أحدا لم يعطه بيضته . كما أنه لا بد أن يتناول بيضته من أجل صوته ، كانت هناك امرأتان في المنزل ولم يكن لدى أحد أي احترام لراحته . ووجهت السيدة كاري اللوم إلى ماري أن وقالت ماري أن أنها لا تستطيع أن تفكر في كل شيء . وعادت مسرعة إلى المنزل لتحضر البيضة ، وقامت السيدة كاري بضرب البيضة مع شراب الشيرى في كوب ابتلعها القس دفعة واحدة . ووضع طبق الخبز الرباني في العربة التي مضت في طريقه إلى الكنيسة .

جاءت العربة من «الأسد الأحمر» وكانت بها رائحة قش عفنة ، «مضت العربة في طريقها وناغذتها مغلقتان حتى لا يصاب القس بالبرد» . كان حافظ غرفة المقدسات ينتظر في الشرفة لكي يحمل طبق الخبز الرباني وبينما اتجه القس إلى غرفة اجتماعات مجلس الكنيسة جلس فيليب والسيدة كاري في مقصورة مقر القس . وضعت السيدة كاري أمامها قطعة نقود من فئة البنسات الست التي اعتادت أن تضعها في الطبق وأعطت فيليب قطعة الثلاث بنسات لنفس الغرض . وبدأت الكنيسة تزدهم بالتدريج وبدأت الصلاة .

شعر فيليب بالملل أثناء العظة التي كان القس يلقيها ولكنه عندما كان يتململ كانت السيدة كاري تضع يدها برقة علي ذراعه وتنتظر إليه نظرة عتاب . واستعاد فيليب اهتمامه بعد أن انتهت التراتيل ومر السيد جريفرز على الحاضرين بالطبق .

وبعد أن غادر الجميع الكنيسة ذهبت السيدة كاري إلي مقصورة الأنسة جريفرز لكي تتبادل معها بعض الحديث بينما كانوا ينتظرون الرجال وذهب فيليب إلى حجرة الاجتماعات . وكان

راعي الأبرشية والسيد جريفز ما زالوا في رداثهما الكهنوتي الأبيض. وأعطاه السيد كاري باقي الخبز المقدس وقال له أنه يمكنه أن يأكله. وكان معتادا على أن يأكله هو بنفسه لأن يعتقد أنه من الكفر التخلص منه بطريقة أخرى، وقد وجد أن شهية فيليب المفتوحة قد أعفت من هذا الواجب. ثم راحوا يحصون النقود. كانت قطعاً من البنسات والست بنسات. وكان هناك دائما بين النقود شلنان أحدهما يضعه في الطبق القس والثاني السيد جريفز وأحيانا كان يوجد بين النقود فلورين (عملة هولندية) وقد قال السيد جريفز للقس من الذي وضع هذه العملة. كان من يضعها دائما غريبا على بلاكستابل، وتساءل السيد كاري من هو ولكن الأنسة جريفز لاحظت التصرف المتهور واستطاعت أن تقول للسيد كاري أن الغريب الذي وضع الفلورين جاء من لندن ومتزوج ولديه أطفال. وأثناء رحلة العودة إلى المنزل نقلت السيدة كاري هذه المعلومات إلى الآخرين، وقرر القس أن يزور الغريب ويطلب منه التبر للجمعية الإضافية لرعاة الأبرشية.

وسأل السيد كاري ما إذا كان فيليب قد سلك سلوكا حسنا؛ ولاحظت السيدة كاري أن السيدة ويجهام زوجة الطبيب كانت ترتدى عباءة جديدة، ولم يكن السيد كوكس في الكنيسة واعتقد أحدهم أن الأنسة فيليب قد خطبت. وعندما وصلوا إلى بيت القس أحسوا جميعا أنهم يستحقون عشاء دسما.

وبعد أن انتهى العشاء ذهبت السيدة كاري إلى حجرتها لتستريح، واستلقى السيد كاري على الأريكة في حجرة المعيشة كي يغفو قليلا.

وتناولوا الشاي في الساعة الخامسة، وأكل القس بيضة ليقوى نفسه من أجل تراتيل المساء. وفي المساء ذهب السيد كاري إلى الكنيسة سيرا على الأقدام وسار فيليب بجانبه وهو يعرج. وقد أثر فيه بشكل غريب السير عبر القرية في ظلمة المساء. وبدأت الكنيسة يكثر أضوائها من بعيد وهي تقترب منهم بالتدريج وكأنها كائن ودود جدا. كان فيليب في البدايات خجولا مع عمه غير أنه بدأ رويدا يألفه، وكان يدس يده بين يدي عمه ويسير بمزيد من اليأس شاعرا بطمأنينة الحماية.

وعندما عادا إلى المنزل تناولوا عشاء متأخرا. وكان خفا السيد كاري ينتظره على مسند للقدمين أمام المدفأة وبجانبيه خفي فيليب. وكان يشعر أنه مرهق إرهاقا شديدا عندما صعد إلى فراشه فلم يبد أي مقاومة عندما بدأت ماري تخلع عنه ملابسه ليرتدي ثوب النوم وبعدها قبلته وبدأ يشعر بالحب نحوها.



كان فيليب يحيا دائما حياة الوحدة ككل طفل وحيد. ولم تكن وحدته في منزل القس أسوأ منها عندما كانت أمه على قيد الحياة. وعقد عرى الصداقة مع ماري آن. وكانت ماري آن عانسا في الخامسة والثلاثين صغيرة الجسم. وكانت ابنة أحد صيادي السمك، وقد عملت في منزل القس منذ أن كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وكان منزل القس أول مكان عملت فيه، ولم تكن تنوى أن تتركه على الإطلاق.. ولكنها كانت تتحدث دائما عن احتمال زواجها، حتى تحتفظ لنفسها بخطر الرجعة من تحكم سيدها وسيدتها، أما أبواها فكانا يعيشان في منزل صغير بالقرب من شارع الميناء. وكانت تذهب لزيارتها كلما خرجت في المساء، وقد ألهمت أفانيسها عن البحر خيال فيليب.. وأضحت الأزقة في حي الميناء الصغير مجالا متسعا للمغامرات التي صورها له خياله، وسألت في إحدى الأمسيات هل في استطاعتها أن تصحبه إلى منزلها.. ولكن عمته لويزا كانت تخشى عليه من أن يصاب بشيء أو يمرض.. وقال القس إن الاتصال بالأشرار يفسد الخلق الحميد فقد كان يبغض مجتمع الصيادين، وذلك المجتمع الفظ، الذي يذهب بالرغم من فساد خلقه إلى الكنيسة ويصلى. ولكن فيليب كان يشعر بالارتياح عندما يجلس في المطبخ، وهو شعور لم يكن يحس به عند جلوسه في غرفة الطعام. فكان يحمل معه لعبه إلى المطبخ ليلعب هناك كلما استطاع إلى ذلك سبيلا، ولم تأسف عمته لهذا. إنها لا تحب الفوضى، وقد أدركت أن الصبية غالبا ما يتوقع منهم أن يكونوا عديمي النظام فارتضت أن يقوم فيليب بقلب النظام في المطبخ.. ومن ناحية أخرى، كانت العمة لويزا تخشى أن يحدث فيليب شيئا من الضجيج يقلق عمه الذي كان يضجر بسهولة، وكانت تخشى أن يبعث به إلى المدرسة لأنها ترى أن فيليب مازال صغيرا، ولا يمكنه الذهاب إلى المدارس وكانت تشعر بقلبها ينجذب نحو الطفل، ولكن محاولاتها لكسب عاطفته ورضائه كانت سمجة غير موفقة. وكان فيليب يشعر بالخجل منها، ويتلقى تعليماتها في عبوس شديد مما كان ينغص عليها حياتها كثيرا. وأحيانا، كانت تسمع صوته وهو يضحك مجلجا في المطبخ فإذا ما دخلت عليه صمت فجأة، ثم صعد الدم إلى وجهه غزيرا عندما تبدأ ماري أن تقص على السيدة كاري الفكاهة التي أضحكته. ولم تكن السيدة كاري ترى فيما تسمعه شيئا مثيرا للضحك أو مسليا، فكانت تبتسم على كره منها. ولما عادت العمة لويزا إلى تطريز الثوب الذي في يدها قالت:

- إنه يبدو أسعد مع ماري آن يا وليام أكثر مما هو معنا.

- ألم يتضح لك إنه سيئ التربية.. إنه في حاجة إلى التأديب حتى يحسن سلوكه.

وحدث في يوم الأحد التالي بعد أن وصل فيليب حادث مشئوم. ذلك أن السيد كاري، ذهب إلى حجرة الاستقبال ليغفو فيها قليلا كعادته بعد أن يتناول الغداء في يوم الأحد، ولكنه كان في حالة شديدة من الضيق، ولم يستطع النوم. وكان جوسيا جريفز في صباح ذلك اليوم قد عارضه معارضة شديدة في تزيين مذبح الكنيسة ببعض الشمعدانات التي كان السيد كاري

قد اشتراها قديمة من بلدة تير كانبرى ، وكان يعتقد أنها جميلة جدا . ولكن جوسيا جريغز قال إنها تبدو من الطراز الكاثوليكي ، وكانت هذه السخرية تثير القس على الدوام . ذلك أن كان في أكسفورد عندما شبت الحركة التي انتهت بالانفصال عن كنيسة إدوارد مانتج ، وكان يشعر بشيء من التعاطف مع كنيسة روما ، وكان يرضيه أن يجعل من طقوس صلاة الأحر شيئا أكثر بهجة وتنميكا مما تعود أن يراء في كنيسة أبرشية بلاكستابل . وكان يتوقى من أعماق نفسه إلى الموكب ذي الشموع المضاءة في الكنيسة . وكان يرسم علامة الصليب كلما انطلق البخور ويمقت كلمة بروتستانت ويطلق على نفسه اسم كاثوليكي . واعتاد أن يقول إن الذين يتبعون البابا لا بد لهم من لقب . فهم كاثوليك ومان . ولكن الكنيسة البريطانية كنيسة كاثوليكية بخير ما تحمله هذه الكلمة من معان وأكملها وأنبلها . وكان السيد كاري يفتيد كلما تبادر إلى ذهنه أن لحيقته الحليقة النظيفة ، تضفي عليه مظهر القساوسة . وكانت تبدو على القس في شبابه هيئة الناسك أو المتقشف مما زاد من وقع مظهره هذا . وكثيرا ما كان يروي أنه عندما كان في بولونيا في إجازة من تلك الإجازات التي لم تصحبه فيها زوجة اقتصادا في النفقة ، قدم إليه نائب القس أثناء جلوسه في الكنيسة ودعاه إلى إلقاء عظة . لفصل السيد كاري نوابه في الكنيسة عندما تزوجوا لأنه كانت له آراء ثابتة مقرررة عن وجوب بقاء رجال الدين غير ذوي المرتبات عزابا . ولكنه عندما كتب الأحرار على سور حديق الكنيسة باللون الأزرق بحروف كبيرة «هذا الطريق يؤدي إلى روما» هدد بمقاضاة زعماء حزب الأحرار في بلاكستابل . وقد قرر الآن أنه مهما فعل جوسيا جريغز فإن ذلك لن يهتد بابعاد الشمعدانات عن مذبح الكنيسة ، ونطلق في سره باسم بسمارك مرة أو مرتين وهو غاضب .

ووصل إلى مسعنه فجأة ضجيج غير متوقع فأزاح المنديل عن وجهه ونهض من الأريكة التي كان يستلقي عليها وقصد من فرره إلى حجرة الطعام .

وكان فيليب يجلس على الخوان وقد تناثر حوله عدد كبير من مكعبات لعبته . ذلك أنه بنى منها قلعة ضخمة . ولكن بعض الخطأ في أساسها تسبب في سقوط البناء الشاخ وتناثر وأحدث ذلك ضجيجا أفرز القس منه . وصاح :

— ماذا تفعل بهذه المكعبات يا فيليب ؟ ألا تعرف أنك ممنوع من اللعب يوم الأحد فحملك فيليب في القس لحظة بعينين ملوئهما الخوف وتصاعد الدم إلى وجنتيه بغزاا كعادته وقال :

— لقد اعتدت دائما أن لعب هكذا في المنزل .

— إني متأكد أن أمك العزيزة لم تكن تسمح لك أبدا أن تأتي عملا شريرا مثل هذا .

ولم يكن فيليب يعرف أن ما فعله كان عملا شريرا . ولكن إذا كان الأمر كذلك فإنه لا يرى أن يعزى إلى أمه أنها كانت تسمح له به وأحنى رأسه دون أن يحير جوابا . ولكن القس

استرسل في غضبه قائلا :

— ألا تعلم أن اللعب يوم الأحد يعد عملا شريرا للغاية . و إلا فكيف تفسر قولهم أن هذا اليوم هو يوم الراحة ؟ إنك ستذهب إلى الكنيسة في المساء فكيف تواجه خالقك إذا كنت قد عصيت أوامره بعد ظنير اليوم نفسه ؟

وأمره السيد كاري أن يبعد المكعبات التي يلعب بها في الحال ووقف يراقبه حتى انتهى فيليب من إبعادهما .. ثم قال :

— إنك طفل شرير للغاية .. تخيل الآن ما سببته من أحزان وأسى لأمك المسكينة التي في السماء ..

وشعر فيليب برغبة في البكاء ولكنه كان بطبعه يميل إلى إخفاء دموعه عن الآخرين . ولذا عض على أسنانه حتى لا يسترسل مرغما في النحيب وجلس السيد كاري في مقعده . وبدأ يقلب صفحات كتاب في يده . ووقف فيليب أمام النافذة .

وكان منزل القس في الطرف الآخر من الطريق الذي يؤدي إلى تير كانبرى .

ومن نافذة الحجرة يطل المرء على خميلة نصف دائرية تليها الحقول الخضراء التي تتعاقب أطرافها مع الأفق البعيد . وكانت الضأن ترعى في هذه الحقول والسماء تبدو معتمة موحشة . وشعر فيليب بتعاسة لا حد لها . وفي هذه اللحظة دخلت ماري أن لتقدم الشاي . وهبطت العمة لويزا الدرج وقالت :

— هل استمتعت بإغفاءة قصيرة لطيفة يا وليم ؟

فأجاب القس :

— أبدا.. لقد أثار فيليب ضوضاء شديدة فلم يغمض لي جفن !

ولم يكن هذا الكلام دقيقا لأن القس لم تقلقه إلا أفكاره . وتذكر فيليب وهو يستمع إليه أنه لم يحدث ضجة إلا مرة واحدة ولم يدر أي سبب منع عمه من النوم قبل هذه الضجة أو بعدها وعندما طلبت السيدة كاري تفسيراً لهذا سرد القس الحقائق وأنهى حديثه قائلا :

— وبالرغم من هذا فإنه لم يقل حتى أنه آسف .

وقالت السيدة كاري وهي تخشى أن يبدو الطفل لعمه أكثر خيئا مما ينبغي :

— إني واثقة أنك آسف لما فعلته يا فيليب .

ولم يجب فيليب بل استمر في التهام ما أمامه من خبز وزبد . ولم يدرك فيليب أية قوة فيه قد حالت بينه وبين أن يعتذر للقس ، وأحس بطنين في أذنيه وشعر بميل إلى البكاء ولكن شفتيه لم تنفرجا عن شيء . وقال السيد كاري :

- أرجو ألا تزيد الأمر سوءاً بعبوسك هذا.

ثم انتهى الجميع من تناول الشاي في سكون . وأخذت السيدة كاري تنظر خلصة من آخر إلى فيليب، ولكن القس تجاهله كل التجاهل .

وعندما رأى الصغير أن عمه صعد إلى الطابق الأعلى لكي يستعد للذهاب إلى الكنيسة خرج إلى الردهة و تناول معطفه وقبعته ولكن القس عندما هبط الدرج وراه بادره قائلاً :-
- إني لا أريد أن تذهب إلى الكنيسة الليلة يا فيليب لأنني أعتقد أنك لست في حال من صفاذهن تسمح لك بدخول بيت الله.

ولم تنبس شفتاه بكلمة واحدة، وشعر بالمهانة الشديدة التي لحقت به، فاحمرت وجنتاه ووقف في صمت ينظر إلى عمه وهو يضع قبعته العريضة فوق رأسه، ويتلفع بعباءة الضخمة . وأسرت السيدة كاري إلى الباب لتودع زوجها كعادتها ثم عادت إلى فيليب وقالت له :

- لا عليك يا فيليب . إنك لن تعود إلى شقاوتك يوم الأحد القادم أليس كذلك؟ فان فعلت فيصبحك عمك معه إلى الكنيسة في المساء، ثم خلعت عنه قبعته ومعطفه وسارت معه إلى حجرة الطعام ، وهي تقول :

- ألا تحب أن نتلو معا الصلوات يا فيليب ، ثم نغني النشيد بمصاحبة الأرغن ؟

وهز فيليب رأسه في إصرار ، و بهتت السيدة كاري فإنها لم تكن تدري ما تفعل به إذا لم يتل معها صلاة المساء ، وأخيراً سألته وقد نفذت حيلتها :

- إذا ماذا تريد أن تفعل حتى يعود عمك ؟

وأخيراً خرج فيليب عن صمته وقال :

- أريد أن تتركيني وحدي .

- فيليب .. كيف تقول كلاماً يمثل هذه القسوة .. ألا تعرف أني أنا و عمك لا نريد إلا مصلحتك ، ألا تحبني إطلاقاً؟

- إني أكرهك .. وأتمنى أن تكوني في عداد الأموات!

وشهقت السيدة كاري، لقد قال فيليب هذه الكلمات في قسوة و عنف حتى أنها فوجئت بهما أشد المفاجأة ولم تعرف ماذا تقول له.. فجلست في مقعد زوجها ، و راحت تفكر فيما تريده من إظهار حبها لهذا الصبي المعوق الذي لا صديق له و تلك الرغبة الشديدة التي تجتاحها في أن تجعله يبادلها هذا الحب فقد كانت السيدة كاري عاقراً، وبالرغم من أن إرادة الله هي التي حرستها من الأطفال ، فإنها كلما رأت طفلاً شعرت بقلبها يعتصره الأسى والألم .. وبينما هي تفكر في كل هذا ، تفرقت الدموع في عينيها وانحدرت على وجنتيها

المر واحدة ، وأخذ فيليب يراقبها في ذهول و أخذت هي منديلها ثم اسلمت نفسها كعادتها .. وأدرك فيليب فجأة أن ما قاله هو سبب بكائها ، فشعر بالندم وذهب إليها في سكون وقبلها .. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقبلها فيها دون أن تطلب إليه ذلك ، و بدت المرأة المسكينة في ذلك الوقت صغيرة في رداءها الأسود وشعرها المضحك الملتوي . وأخذت الطفل وأجلسته في حجرها وأحاطته بذراعيها وراحت تنتحب باكية وقلبها يكاد ينفطر ، ولكن دموعها امتزجت بشعور من السعادة لأنها أحست بأن الفرقة قد زالت بينهما ، وشعرت نحوه الآن بحب جديد لأنه جعلها تتعذب .



وفي يوم الأحد التالي كان القس يستعد للذهاب إلى حجرة المعيشة من أجل إغفاءة قصيرة - كل تصرفات زوجته كانت تتم وكأنها احتفالات - وكانت السيدة كاري تستعد للصعود إلى الدور العلوي ، وقال فيليب :

- ماذا سأفعل إذا لم يكن يسمح لي باللعب ؟

-ألا يمكن أن تجلس دون حراك مرة وتصمت ؟

- لا يمكن أن أجلس دون حركة حتى موعد تناول الشاي .

نظر السيد كاري إلى الخارج من النافذة ولكن الجو كان بارداً ولا يمكنه أن يقترح على فيليب أن يذهب إلى الحديقة ويلعب هناك .

- أعرف ما يمكنك أن تفعله . يمكنك أن تحفظ عن ظهر قلب صلاة اليوم .

وأخذ من فوق الأرغن كتاب الصلوات الذي يستخدم للصلاة وقلب الصفحات حتى وصل إلى الصفحة التي يريدها .

- إذا استطعت أن تحفظها وتتلوها دون خطأ فسوف تحصل على طرف بيضتي .

حملت السيدة كاري المقعد الذي يجلس عليه فيليب ووضعت أمام منضدة الطعام - كانوا قد جاءوا إليه بمقعد أعلى - ووضعت الكتاب أمامه .

وقال السيد كاري:

- إن الشيطان يجد عملاً للكسالي حتى يعملوا .

ووضع مزيداً من قطع الفحم في المدفأة حتى تكون هناك نار مبهجة عندما يعود لتناول الشاي ، وذهب إلى حجرة المعيشة . فك ياقة قميصه ورتب الوسائد ورقد في وضع مريح على

الأريكة . لما رأت السيدة كاري أن حجرة المعيشة قد تكون باردة بعض الشيء أتت ببطانية من الصالة ووضعتها فوق ساقيه وثنت نهايتها حول قدميه . وأسدت الستائر حتى لا يؤدي الضوء عينيه ولما رأت أنه أغلق عيناه بالفعل تسلت على أطراف أصابعها خارجة من الحجرة . كان القس مستريحا نفسيا اليوم وفي عشر دقائق كان يغط في نوم عميق وارتفع شخير الهادئ .

اليوم هو السادس بعد عيد الغطاس . وبدأت الصلاة بالكلمات التالية أيها الرب الذي ظهر ابنك المبارك كي يدمر أعمال الشيطان ويجعلنا أبناء الرب وورثة الحياة الأبدية

وقرأ فيليب الآية بدقة ولم يفهم منها شيئا . وبدأ يردد الكلمات بصوت عال لنفسه ولكنه لم يكن يعرف كثيرا منها وكان تركيب الجمل غريبا . ولم يبق في ذهنه أكثر من سطرين . وكان انتباهه يجول باستمرار في أشياء أخرى : هناك أشجار فاكهة عند حوائط الأبرشية ، وأغصان طويلة تضرب سور النافذة من أن آخر : الأغنام ترعي بتبلد فيما وراء الحديقة . وبدأ الأمور وكان هناك عقد في ذهنه . وانتابه الفزع لدرجة أنه لم يعد يعرف من الكلمات شيئا عندما حل موعد تناول الشاي وراح يهمس بها لنفسه بسرعة ! لم يحاول أن يفهم بل أن يرددها مثل الببغاء في ذاكرته .

لم تستطع السيدة كاري أن تنام بعد ظهر ذلك اليوم وفي الساعة الرابعة كانت مستيقظة تماما حتى أنها تركت غرفة النوم ونزلت إلى الدور السفلي . وفكرت في أنها سوف تسمي فيليب يتلو صلاته حتى لا يرتكب أي أخطاء عندما يتلوها أمام عمه . وسوف يغتبط عمه عندئذ إذ سيرى أن قلب الصبي موضوع في مكانه . ولكن عندما كانت السيدة كاري تقترب من حجرة الطعام وتوشك أن تدلف إليها وصل إلي أسماعها صوت جعلها تتوقف فجأة واضطرب قلبها قليلا فاستدارت وتسلت بهدوء خارجة من الباب الأمامي . وسارت حول المنزل متي وصلت إلى نافذة حجرة الطعام ونظرت من خلالها يحذر . كان فيليب ما يزال جالسا على المقعد الذي وضعته له أمام المنضدة ولكن رأسه كانت على المائدة مدفونة بين ذراعيه وكان يتنهد بشدة . ورأت الحركة المتشنجة لأكتافه . خافت السيدة كاري . فالشيء الذي كان يذهلها في هذا الطفل هو أنه كان يبدو متماسكا للغاية . فلم تره أبدا يبكي . والآه أدركت أن هدوءه هو خجل غريزي من إظهار مشاعره فقد خبا نفسه لكي يبكي .

وبدون أن تفكر أن زوجها يكره أن يوقظه أحد من إغفائه هرعت إلى غرفة النوم وصاحت قائلة : ويليام ويليام إن الصبي يبكي وكأن قلبه سينفطر . استقام السيد كاري في جلسته وأبعد الغطاء عن قدميه وقال :

- ما الذي يبكيه ؟

- لا أعرف يا ويليام ولكننا لا ينبغي أن نجعل الطفل تعيسا . هل تعتقد أن هذا خطؤنا لم كان لدينا أطفال لعرفنا ماذا نفعل .

نظر السيد كاري إلى ها في ارتباك وشعر أنه عاجز عن فعل أي شيء بشكل غير طبيعي . - إنه لا يمكن أن يبكي لأنني أعطيته الصلاة كي يحفظها .. إنها ليست أكثر من عشرة أسطر . - ألا تعتقد أنني يجب أن أعطيه بعض الكتب المصورة كي يتفرج علي الصور يا ويليام . هناك صور للأرض المقدسة وليس هناك خطأ في ذلك .

- وهو كذلك .. أنا لا أمانع .

وزهبت السيدة كاري إلى حجرة المكتب . إن جمع الكتب كان هو الغرام الوحيد للسيد كاري .. فلم يحدث أن ذهب إلى كانتربيري دون أن يقضي ساعة أو ساعتين في المكتبة التي تبيع الكتب القديمة ؛ وكان دائما يعود حاملا أربعة أو خمسة مجلدات ضخمة . ولم يقرأها أبدا لأنه فقد منذ زمن طويل عادة القراءة ولكنه كان يحب أن يقلب الصفحات وينظر إلى الصور إذا كانت الكتب مصورة وكان يحافظ علي تجليدها . كان يرحب بالأيام التي تتساقط فيها الأمطار لأنه كان يستطيع أن يمكث بالمنزل دون تأنيب من ضميره ويقضي بعد الظهر مع بياض بيضه ووعاء من الصمغ يصلح بهما الغلاف الخارجي المصنوع من الجلد الروسي لكتب تكون أغلفتها في حالة سيئة . وكانت لديه كتب كثيرة عن الأسفار القديمة ووجدت السيدة كاري بسرعة كتابين يصوران فلسطين . وتعمدت أن تسعل عند الباب حتى تتيح لفيليب الفرصة كي يعدل من وضعه ؛ فقد شعرت أنه قد يحس بالامتهان إذا دخلت عليه وهو في وسط مكانه . وتعمدت أن يصدر صوتا وهي تفتح الباب من مزلاجه . وعندما دخلت الحجرة كان فيليب منكبا علي كتاب الصلوات يخفي عينيه بيديه حتى لا تلاحظ السيدة كاري أنه كان يبكي .

وقالت السيدة كاري : هل تعرف الصلاة الآن ؟

توقف فيليب لحظة عن الرد عليها ، وشعر أنه لم يستطع أن يسيطر على صوته . وأحست بالحرج بشكل غريب . وقال فيليب أخيرا وهو يتنهد :

- لا أستطيع أن أحفظها عن ظهر قلب .

- وهو كذلك .. لا تهتم .. أنت لا تحتاج إلى حفظها عن ظهر قلب . لقد جئت ببعض الكتب المصورة لك لكي تطلع عليها . تعال واجلس إلى جانبي وسوف نشاهد الصور معا . وانزلق فيليب من على مقعده وسار وهو يعرج نحوها . وكان ينظر إلي الأرض حتى لا ترى عينيه وأحاطته بذراعيها . وقالت له :

- انظر .. هذا هو المكان الذي ولد فيه أبونا المبارك .

أطلعت علي صورة مدينة شرقية فيها منازل ذات أسطح منبسطة ، وقباب ، ومداخن . وفي المنطقة الأمامية كانت هناك مجموعة من النخيل وتحتها اثنان من الأعراب وبعض الجمال . ومر فيليب بيده على الصورة وكأنه يريد أن يستشعر المنازل وبملايس البدو الفضفاضة .

وعال لها : أقرنتي ما تقول له الصورة .

وقرأت السيدة كاري بصوتها الهادئ الصفحة المقابلة في الكتاب . كان الكتاب عبارة عن قصة خيالية لرجل شرقي مسافر في الثلاثينيات . قد يكون مبالغ فيها لكنها معبأة بالمشاعر التي جاء بها الشرق إلى الجيل الذي أعقب بايرون وشاتوبريان . وبعد قليل قاطعها فيليب قائلا :

-أريد أن أرى صورة أخرى .

وعندما دخلت ماري آن ونهضت السيدة كاري كي تساعد في فرد الملاءات على الفراش ، أخذ فيليب الكتاب بين يديه وأسرع يقلب صفحاته ليشاهد الصور . وبصعوبة أقنعت السيدة كاري أن يترك الكتاب لتناول الشاي . وكان قد نسي صراعه لكي يحفظ الصلاة عن ظهر قلب ؛ ونسي دموعه . وكان اليوم التالي ممطرا وطلب أن يرى الكتاب مرة أخرى . وأعطته السيدة كاري الكتاب وهي مسرورة . وقد وجدت وهي تتكلم مع عمه عن مستقبله أن كليهما هي وعمه يرغبان في أن يصبح فيليب كاهنا وكان شوقه ليطالع على الكتاب الذي يصف أماكن أصبحت مقدسة بوجود المسيح فيها دليلا طيبا علي ذلك . وكان يبدو وكأن الصبي متجه اتجاهها طبيعيا نحو الأمور المقدسة ولكنه بعد يوم أو اثنين طلب مزيدا من الكتب وصحبه السيد كاري إلى غرفة المكتب وأشار علي الرف الذي يحمل الكتب المصورة واختار له كتابا عن روما . وأخذ فيليب بنهم . كانت الصور طريقا جديدا للتسلية . وبدأ يقرأ الصفحات التي تسبق كل صورة والتي تليها لكي يعرف كل شيء عن الصورة ، وسرعان ما فقد اهتمامه بلبه .

وبعدئذ عندما كان لا يجد أحدا قريبا منه كان يأخذ الكتب بنفسه ، ولعله لأن أول انطباع في ذهنه جاء من مدينة شرقية فقد وجد تسليته الرئيسية في تلك الكتب التي كانت تتحدث عن الشرق . كان قلبه يدق جزلا عندما يرى صور المساجد والأماكن الثرية وكانت هناك صورة في كتاب عن القسطنطينية ألهمت خياله بطريقة غريبة . كان اسم الصورة قاعة الألف عمود . كانت حوضا بيزنطيا أضفى عليه الخيال الشعبي اتساعا خرافيا وقالت الأسطورة التي قرأها أنه كان هناك دائما قاربا مربوطا دائما عند مدخل الحوض لإغراء المتهورين بركوب المخاطر . ولكن لم يحدث أبدا أن شوهد مرة أخرى أي مسافر خاطر بدخول الظلمة . وتعجب فيليب ما إذا كان القارب يسبح إلى الأبد من ممر ذي أعمدة إلى ممر آخر أو يصل في النهاية إلى قصر غريب .

وفي يوم من الأيام حدث له حادث طريف ، إذ تصادف أن وجد ترجمة المترجم «لين» لكتاب ألف ليلة وليلة . وفي أول الأمر جذبت انتباهه الصور ثم بدأ بعد ذلك يقرأ الكتاب قرأ قصصا في الكتاب عن السحر ثم قصصا أخرى وراح يقرأ القصص التي يحبها مرة تلو الأخرى . ولم يستطع أن يفكر في شيء آخر . ونسي الحياة من حوله . وكان ينادى عليه مرتين

مرات قبل أن يذهب لتناول العشاء . وبدون وعي خلق لنفسه ألد العادات في العالم : القراءة : ولم يكن يعرف أنه بذلك قد خلق لنفسه ملجأ من محن الحياة . ولم يكن يعرف أيضا أنه كان يخلق لنفسه عالما غير حقيقي من شأنه أن يجعل العالم الحقيقي لكل يوم غيبوبة أمل مريرة . وفي ذلك الوقت بدأ يقرأ أشياء أخرى وكان ذهنه ناضجا في وقت مبكر . ولما رأى عمه وزوجته أنه شغل نفسه ولم يعد قلقا أو مثيرا للوضوء فقد توقفا عن مضايقته . وكان لدى السيد كاري كتب كثيرة لدرجة أنه لم يكن يعرفها ولما كان يقرأ قليلا فقد نسي الكتب الغريبة التي اشتراها ذات مرة وغيرها لأنها كانت رديئة . ويتصادف أن يكون بين كتب الصلوات والمواعظ الدينية والأسفار وحياة القديسين ورجال الكنيسة وتاريخ الكنيسة روايات قديمة فات وقتها وقد اكتشف فيليب على الأقل وجود تلك الروايات . وكان يختارها حسب عناوينها وكانت أول رواية قرأها هي رواية «ساحرات لانكشير» ثم قرأ كتاب «كرايتون العجيب» ثم قرأ غيرها كثير .

وجاء الصيف وصنع له البستاني ، وهو بحار عجوز ، أرجوحة شبكية وثبتها بين فرعين قويين لشجرتي صفصاف . وعلي هذه الأرجوحة كان يرقد ساعات طويلة بعيدا عن أعين من يزورون الأبرشية يقرأ ويقرأ بشغف كبير . ومرة الوقت وجاء شهر يوليو ثم شهر أغسطس : وفي أيام الأحد كانت الكنيسة تمتلئ بأناس غرباء وكان مجموع الصدقات يصل إلى جنيهين . ولم يكن القس ولا السيدة كاري يخرجان من الحديقة كثيرا في ذلك الوقت ؛ فكانا لا يستطيعان الوجوه الغريبة وكانا ينظران إلي الزائرين القادمين من لندن بنوع من البغض . وقد أجر المنزل المواجه لمنزل القس لمدة ستة أسابيع رجل له ولدين صغيرين وقد بعث إلى عائلة كاري يطلب إليهم ما إذا كان فيليب يستطيع أن يلعب مع ولديه غير أن السيدة كاري ردت رافضة بأدب . كانت تخاف على فيليب أن يفسده الصغيران الجدد القادمان من لندن . ففيليب سوف يصبح من رجال الكنيسة ومن الضروري أن يبقى بعيدا عن التلوث .



قررت أسرة كاري أن تبعث بفيليب إلى مدرسة كنجز في تيركانبري لأن جيرانهم من رجال الدين في الكنيسة يرسلون أولادهم إلى هذه المدرسة . وكانت المدرسة تربطها روابط قديمة بالكنيسة فناظرها الحالي كاهن فخري و ناظرها السابق هو رئيس الشماسية في الكنيسة .. وكانت المدرسة تشجع الأطفال على أن يكونوا فيما بعد من رجال الدين وكان التعليم فيها من ذلك النوع الذي يعد الفتى ليكون شريفا يقضى حياته في خدمة الله ، و ألحقت بالمدرسة مدرسة إعدادية هي التي اتفق على أن يلتحق بها فيليب .

وبعد ظهر أحد أيام الخميس اصطحب القس فيليب إلى تيركانبري ، وكان ذلك في نهاية

شهر سبتمبر ، وقد ظل فيليب القلق طوال اليوم مضطربا بل خائفا ، ذلك لأنه لم يكن يعرف إلا القليل عن حياة المدرسة مما قرأه في الحكايات في صحيفة الصبي الخاصة وكان قد قرأ أيضا زايريكس.

و عندما نزلا من القطار في تيركانبرى شعر فيليب بكثير من الخوف و جلس وهو في طريقه إلى المدرسة في العربة صامتا شاحب الوجه . و بدت له المدرسة بسورها الحجري العالي كأنها أحد السجون . و كان في هذه السور باب صغير فتح عندما دق الجرس ، و خرج منه رجل قذر يهرول و حمل حقيبة ملابس فيليب و صندوق لعبه إلى المدرسة . و أدخل الاثنان إلى قاعة الاستقبال و كانت القاعة مملوءة بأثاث ضخم قبيح المنظر و قد رصت فيها المقاعد ملتصقة بالحائط في جمود شديد منفر .. و جلسا ينتظران ناظر المدرسة .

و بعد قليل سأل فيليب كيف يبدو السيد واتسون فأجاب عمه :

- سترى ذلك بنفسك عما قليل .

و سادت المكان فترة سكون أخرى و تعجب السيد كاري خلالها من تأخر الناظر ، و بذل فيليب في تلك اللحظة جهدا ليقول لعمه :

- قل له أن لي قدم حنفاء .

و قبل أن ينطق السيد كاري بكلمة واحدة ، انفتح الباب على مضراعيه و دخل السيد واتسون كأنه يكتسح الحجرة أمامه .

وبدا السيد واتسون لفيليب عملاقا ضخما ، فقد كان طوله يزيد على ستة أقدام عريض المنكبين ، له يدان كبيرتان ، و لحية حمراء صهباء ضخمة و تكلم في مرح و في صوت مرتفع . ولكن كانت هناك مسحة عدوانية بدت في بشاشة الناظر ، بعثت الرعب والرهبه في قلب فيليب ، و صافح الناظر السيد كاري ثم أخذ يد فيليب الصغيرة في يده و صاح قائلا :

- أيها الفتى الصغير ؛ هل أنت سعيد بدخولك المدرسة ؟

فاحمر وجه فيليب و لم يجد كلمة يرد بها .

- كم سنك ؟

- تسع سنوات .

و هنا قال عمه موجها كلامه إلى فيليب :

- يجب أن تخاطب الناظر قائلا يا سيدي .

و صاح الناظر في مرح :

- يبدو أن هناك أشياء كثيرة جدا عليك أن تتعلمها .

و أراد أن يبعث الثقة في نفس الطفل فبدأ يداعبه بأصابعه الخشنة و لكن فيليب انكمش وهو يشعر بعدم الارتياح لمداعبته .

- لقد وضعته مؤقتا في عنبر النوم الصغير ؛ (ثم وجه كلامه لفيليب) هل سيرضيك هذا؟ .. أنتم ثمانية في العنبر فقط و لن تشعر بالوحدة .

ثم فتح الباب مرة أخرى و دخلت السيدة واتسون . كانت امرأة سمراء ذات شعر أسود مصفف بعناية ، و فرق عند منتصف رأسها ، و لها شفتان غليظتان و أنف صغير مستدير و عينان سوداوان واسعتان و اكتسى مظهرها ببرود غريب . و كان كلامها نادرا و ابتساماتها أكثر ندرة ، و قدم زوجها إليها السيد كاري ثم دفع فيليب بلطف نحوها قائلا :

- هذا تلميذ جديد يا هلين .. اسمه كاري .

صافحته دون أن تنطق بكلمة واحدة ، ثم جلست صامته و أخذ الناظر يسأل السيد كاري عن القدر الذي يعرفه فيليب من العلوم و عن الكتب التي كان يدرسها .

وارتبك قس بلاكستابل قليلا لبشاشة الناظر الصاخبة و هم واقفا بعد لحظة و قال :

- أعتقد أنه من الأفضل أن أترك فيليب معك الآن .

- و هو كذلك أنه سيكون في أمان معي ، و سيتقدم بسرعة كالبيت الذي تشب فيه النيران .. أليس كذلك أيها الفتى الصغير؟

و انفجر الرجل ضاحكا دون أن ينتظر إجابة من فيليب الذي قبله السيد كاري على جبهته ثم رحل ، و صاح السيد واتسون :

- أيها الفتى الصغير تعال معي لتشاهد بناء المدرسة .

و خرج من الحجرة في خطوات جبارة ، و أسرع فيليب خلفه و هو يعرج و دخلا حجرة طويلة عارية بها منضدتان ، امتدتا على طول الحجرة و قد صف على جانب كلا منهما عدد من المقاعد الخشبية و قال السيد واتسون :

- لا يوجد كثير من التلاميذ الآن ، و سأريك فناء المدرسة و ملاعبها ، ثم أتركك لتتنقل بنفسك فيها كما تشاء .

وسار السيد واتسون أمامه ليريه الطريق ، و وجد فيليب نفسه في فناء واسع أقيمت على ثلاثة من جوانبه حوائط مرتفعة من الآجر ، و في الجانب الرابع سور من الحديد ترى من خلاله خميلة فسيحة وارتفعت عند نهايته بعض مباني مدرسة كنجز . و رأى فيليب صبيا واحدا صغيرا يتجول في الفناء و قد بدا عليه الاكتئاب ، و راح يركل الحصى في أثناء سيره و صاح السيد واتسون :

- أهلا يا فيننج .. متى عدت؟

وتقدم الصبي الصغير إلى الناظر و شد على يده محييا .. وأشار الناظر إلى فيليب قائلا:

- صبي جديد هنا ، إنه أكبر منك سنا و حجما فلا تحاول أن تشاكسه .

و نظر إليهما الناظر نظرة ودية ، ولكنهما شعرا بالرعب من هدير صوته ، ثم تركهما وهما يقهقه عاليا و عندئذ قال الصبي لفيليب :

- ما اسمك؟

- كاري.

- ماذا يعمل أبوك؟

- لقد مات أبي.

- و هل تعمل أمك غسالة؟

- لقد ماتت أُمي أيضا .

وظن فيليب أن إجابته هذه ستخرج الصبي قليلا ، و لكن فيننج لم يكن يكف عن مزاحه

- و لكن هل كانت أمك تغسل؟

و قال فيليب و قد بدا عليه الغضب:

- نعم.

- لقد كانت غسالة إذن.

- لا.. لم تكن غسالة .

- إذن فهي لم تغسل..

و تهلل الصبي من نشوة نجاحه في هذا الحوار ، ثم لمح قدمي فيليب فقال:

- ماذا بقدمك؟

و حاول فيليب بطريقة غريزية أن يخفي قدمه عن مرأى الصبي فوضعها خلف قدمه السليمة و قال:

- إن قدمي حنفاء .

- و كيف حدث ذلك؟

- لقد ولدت هكذا.

- دعني أراها...

- لا ...

- كما تشاء إذن .

وشفع الصبي كلماته هذه بركلة قوية على قصبة ساق فيليب لم يكن يتوقعها على الإطلاق فلم يستطع حماية نفسه منها و شعر بألم شديد جعله يلهث ، و لكن المفاجأة كانت أشد وقعا عليه من الألم ، و لم يدرك لماذا ركله فيننج ، و لم يكن على استعداد لأن يرد له الضربة بين عينيه ، يضاف إلى هذا أن الصبي كان أصغر منه سنا ، و كان قد قرأ في مجلة الأطفال أن من الدناءة أن تضرب من هو أصغر منك .

بينما كان فيليب يتحسس عظم ساقه ، ظهر صبي ثالث ، فتركه فيننج الذي عذبه هذا العذاب. و لاحظ فيليب أن الاثنين أخذتا يتبادلان الحديث عنه و راحا ينظران إلى قدمه فتضايق من ذلك و غلا الدم في عروقه . و لكنه رأى صبية آخرين بلغ عددهم اثني عشر سار بعضهم مع بعض ، ثم ظهر آخرون ، وبدأوا يتحدثون عما فعلوه أثناء عطلتهم ، وأين كانوا ، و عن لعبة «الكريكييت» التي لعبوها. ثم جاء صبية جدد قليلي العدد ، و ما لبث فيليب أن وجد نفسه يتحدث مع هؤلاء . و كان فيليب خجولا عصيبا ، و قد حاول جاهدا أن يجعل من نفسه شخصا لطيفا يشيع البهجة و السرور ، ولكنه لم يستطع أن يجد شيئا يقوله ووجهوا إليه كثيرا من الأسئلة أجاب عنها جميعا و هو راض أتم الرضا..

و سأله أحد الصبية هل يستطيع أن يلعب «الكريكييت» فأجاب قائلا:

- لا.. إن قدمي حنفاء .

و نظر الصبي بسرعة إلى قدمه ، و اخمر وجهه خجلا ، و لاحظ فيليب أن الصبي شعر بأنه سأل سؤالا لا يليق ، و كان من الخجل بحيث لم يستطع الاعتذار إليه و نظر إلى فيليب نظرة الشخص المحرج.



وفي صبيحة اليوم التالي عندما أيقظ الجرس فيليب من نومه نظر حوله في مهجعه في نوم. ثم سمع صوتا وعندئذ تذكر أين هو .

- هل أنت صاح يا سنجر .

كانت القواطع التي تفصل بين أماكن النوم مصنوعة من خشب الصنوبر المعالج بالقار و قد أسدلت أمامها ستارة خضراء . وفي تلك الأيام لم يكن أحد يفكر كثيرا في التهوية ، وكانت نوافذ عنبر النوم تغلق ولا تفتح إلا في الصباح عندما يراد تهوية العنبر.

نهض فيليب من فراشه وانحنى على ركبتيه ليتلو صلاته . كان صباحا باردا وأحس

برعدة قليلة . ولكن عمه علمه أن صلاته تكون أكثر قبولا للرب إذا تلاها في ثيابه الليلية إذا انتظر ليرتدى ملابسه العادية . ولم يدهشه هذا لأنه بدأ يدرك أنه من خلق إله يقدر عباده . ثم اغتسل . كان هناك حمامان فقط لخمسين من طلبة المدرسة الداخلية وكان كل تلميذ أن يستحم مرة في الأسبوع . أما بقية اغتساله فقد كان يتم في حوض صغير بالحائط يشكل هو وفراش ومقعد أساس حجرة معيشته . وكان الصبية يتحدثون بمرح يرتدون ملابسهم . وكان فيليب كله أذانا مصغية . ثم رن جرس آخر وهرع التلاميذ إلى السلام إلى الدور السفلي . وجلسوا على مقاعد خشبية رصت على جانبي مناخد طويل فصل المدرسة ودخل الفصل السيد واتسون تتبعه زوجته واتخذوا مجلسيهما . وقرأوا واتسون الصلوات بطريقة مؤثرة وتكلم بصوت مثل الرعد وهو يتلو الابتهالات وكانت كل أشبه بتهديدات موجهة منه شخصا إلى كل صبي في المدرسة . واستمع فيليب إليه منزعج . وبعد ذلك قرأ السيد واتسون فصلا من الإنجيل . وفي لحظات جاء حفنة من الصبية المستهترين بوعاءين كبيرين من الشاي وفي رحلة ثانية جاءوا بأطباق مملوءة بالخبز والزبد .

كانت شهية فيليب شديدة الحساسية وسرعان ما قلبت شرائح الخبز والزبد الفقير أما غير أنه رأى الصبية الآخرين يهجمون على الأكل ففعل مثلهم . وقد تناولوا جميعا مطبوخا في قدور وما شابه ذلك جاءوا به معهم في سلال خاصة وبعضهم تناولوا إضافية أخرى مثل البيض ولحم الخنزير المقدد التي كان يقدمها السيد واتسون ويحقق مكسبا . وعندما سأل السيد كاري هل يحب أن يتناول فيليب البيض واللحم قال السيد أنه يعتقد أنه لا ينبغي إفساد الأولاد . ووافق السيد واتسون على ذلك تماما - فقد كان أنه لا شيء أفضل للصبية أثناء نموهم من الخبز والزبد - غير أن بعض الآباء الذين يدرسون أولادهم بلا داع يصرون على تقديم هذه الأطعمة الإضافية لهم .

ولاحظ فيليب أن تلك الأطعمة «الإضافية» تضيف على الصبية نوعا من الأهمية ، عندما يكتب إلى العمه لويزا أن يطلب منها أن توفرها له .

وبعد الإنطار بدأ الصبية يتجهون إلى فناء المدرسة . وهناك بدءوا يتجمعون بالقدور كان منهم أبناء رجال الكنيسة وموظفي المخازن ورجال الأعمال الذين يقيمون في المدينة القديمة . قرع الجرس في تلك اللحظات وتدفقوا جميعا إلى المدرسة . المدرسة عبارة عن حرم متسعة جدا يقوم عن طرفيها مساعداو مدربين بالتدريس للفصلين الثاني والثالث وحجرات جانبية أصغر يستخدمها السيد واتسون الذي يدرس للفصل الأول . ولإلحاق المدرسين الإعدادية بالمدرسة الثانوية فكانت هذه الفصول الثلاثة تعرف رسميا في أيام الخطب والتقارير بالفصول العليا والمتوسطة والثانية الأدنى وقد ألحق فيليب بالفصل الثاني الأدنى وكان المدرس وهو رجل محمر الوجه صوته رخيم واسمه السيد رايس؛ وكانت له طريقة

رس .. يسميت من مذهب إلى الملعب .. تستطيع السير إلى هناك . أليس كذلك ؟

لم يكن فيليب يعرف أين الملعب ولكنه رد على أي حل قائلًا :

- نعم يا سيدي .

واتجه التلاميذ إلى السيد رايس وتجمعوا حوله ولما رأى السيد رايس أن فيليب لن ملابسه كي يلعب سأله لماذا لا يريد أن يلعب . فقال فيليب :

- السيد واتسون قال لي أنه ليس من الضروري أن ألعب يا سيدي .

- لماذا ؟

كان التلاميذ يحكون به وينظرون إليه بفضول ، واجتاح فيليب شعور بالعار والنظر بعينيه إلى الأرض ولم يجد جوابا . وأجاب آخرون :

- إن قدمه حنفاء يا سيدي .

- هكذا إذن .

كان السيد رايس شابا صغير السن، ولم يكن قد تخرج إلا منذ سنة ، وشعر فجأة بالوحشة وكان يشعر أنه يريد أن يطلب من الصبي عفوَه ولكنه كان خجولا ولا يستطيع أن يفعل وتعمد أن يصيح بصوت عال خشن :

- والآن ... ماذا تنتظرون ؟ هيا بكم .

وبعد أن انصرف بعضهم كان هناك آخرون ساروا في جماعات من اثنين أو ثلاثة السيد رايس إلى فيليب وقال :

- يستحسن أن تأتي معي يا كاري فأنت لا تعرف الطريق حقا .. أليس كذلك ؟

خمن فيليب هذا الحنان وتنهد .

- لا أستطيع أن أسير بسرعة كبيرة يا سيدي .

وقال السيد رايس وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه :

- عندئذ سوف أسير ببطء جدا .

وانجذب قلب فيليب إلى المدرس ذي الوجه الأحمر الشاب العادي الذي حدثه بكلمة رقيقة . وفجأة شعر أنه أقل تعاسة .

ولكن في المساء عندما آووا إلى فراشهم وكانوا يخلعون ملابسهم ويرتدون ثياب النوم خرج الصبي المسمى سينجر ودس رأسه في رأس فيليب وقال له :

- اسمع يا صاح .. دعنا نلقي نظرة على قدمك .

من سينجر إلى فراش فيليب بسرعة وقال :

- تقبل لي لا .. هيا بك .. أرنا .

كان الفتى المجاور لفيليب ينظر من زاوية مهجعة، وعندما سمع الحوار قفز هو أيضا إلى فراش فيليب وهاجماه وحاول أن ينزعا عنه غطاءه غير أنه تمسك به بشدة . وصاح فيليب :

- لماذا لا تتركوني لحالي ؟

وأمسك سينجر بفرشاة وراح يضرب بها ظهر كف فيليب الذي كان يتمسك بغطاء فراشة فضيحة . ويكي فيليب .

- لماذا لا تدعنا نرى قدمك بهدوء ؟

- لا .. لن أدعكم .

وفي يأس ضم فيليب قبضته وضرب الصبي الذي كان يعذبه ولكنه كان في وضع سيئ فأمسك الصبي بذراعه . وبدأ يلويها . وصرخ فيليب :

- لا تلوي ذراعي .. سوف تكسرها .

- كف إذن .. ودعنا نرى قدمك .

تنهد فيليب وشق . ولوي الصبي ذراعه أكثر . وشعر فيليب بآلام لا تحتمل وقال :

- وهو كذلك .. سأريكم قدمي .

وأخرج قدمه من تحت الفراش . وكان سينجر يمارس المزيد من لي ذراعه . وعندما رأى قدم فيليب راح يخلق فيها بفضول شديد . وقال صبي آخر اسمه ماسون وهو يحملق في قدم فيليب :

- إنها شيء فظيع أليس كذلك ؟

وجاء صبي آخر وراح يحملق في قدم فيليب وصاح في لهجة ملؤها الازمتمزاز :

- ياله من شيء فظيع .

وقال سينجر وقد بدا الازمتمزاز على وجهه :

- هل هي متحجرة ؟

وراح يلمسها بطرف إصبعه بحذر وكأنها كائن حي . وفجأة سمعوا خطوات السيد واتسون الثقيلة على درجات السلم . فألقوا بالغطاء على فيليب وهرعوا بسرعة كالآرانب كل إلى فراشه .

ودلف السيد واتسون إلى عنبر النوم. وشب على أطراف قدميه ليرى كل الصبية فاستوتوا كلهم قد خلدوا إلى النوم فأطفأ الأنوار وخرج من العنبر.

وهمس سينجر مناديا فيليب غير أنه لم يرد. لقد راح يعض وسادته بأسنانه حتى لا أحد بكاءه. لم يكن يبكي بسبب الألم الذي لحق به ولا بسبب ما لحقه من إذلال عندما ينظرون إلى قدمه، بل كان يبكي غضبا من نفسه لأنه لم يستطع أن يتحمل التعذيب ولهم قدمه من تلقاء نفسه ليروها.

ثم شعر بأكبر بؤس في حياته. فقد بدا لعقل الطفل أن تعاسته هذه سوف تستمر الأبد. ولسبب لم يعرفه تذكر ذلك الصباح البارد الذي أخرجه إما من الفراش وأرقدت بجانب أمه. ولم يكن قد فكر في ذلك أبدا من قبل ولكن يبدو الآن أنه يشعر بدفء والدته يرقد إلى جانبها وحنان ذراعيها وهي تحيط بهما. وفجأة بدا له وكأن حياته ليست حلم؛ وفاة أمه وحياته في بيت القس وهذان اليومان التعيسان في المدرسة وسوف يعود إلى الصباح ويعود إلى المنزل. وجفت دموعه عندما فكر في ذلك لقد كان تعيسا جدا.. لا أن تكون إلا حلما وأن أمه ما زالت على قيد الحياة وسوف تحضر «إما» حالا ويأوي فراشه. ونام. غير أنه عندما استيقظ في صباح اليوم التالي كان ذلك على صوت المدرسة، وكان أول ما سقطت عليه عيناه الستار الأخضر المحيط بفراشه.



لقد أصبحت عاهة فيليب على مر الأيام شيئا غير مثير للاهتمام، فأصبح الجميع ينظرون إليها كما ينظرون إلى صبي ذي شعر أحمر، أو صبي مفرط في السمنة. وفي الأثناء ازدادت حساسية فيليب إلى حد رهيب، فتجنب الجري كلما استطاع إلى ذلك سبب لأنه أدرك أن الجري يكشف عن عرجه ويجعله أكثر وضوحا. واتخذ لنفسه مشية خافتة وكان يقف ساكنا بقدر ما يستطيع واضعا قدمه الحنفاء خلف الأخرى حتى لا يثير أحد. وكان يراقب على الدوام أية إشارة من أحد إليها. وظلت حياة الصبية غريبة عليه لم يشاركهم لعبهم. وكل ما كان يفعله أنه كان يسلى نفسه بما يفعلون وهو بعيد عنهم وخيل إليه أن هناك حاجزا يفصل بينه وبينهم، وبدا له أنهم يعتقدون في بعض الأحيان الذنب في عدم مشاركته إياهم في لعب الكرة واقع عليه، ولم يكن في استطاعته أن يفهم يفهمون خطأ ظنهم هذا، وبذلك كان فيليب كثيرا ما يبقى وحيدا. وما لبث أن أثر الص على الكلام رويدا رويدا، وبدا يمعن الفكر في الفارق بينه وبين غيره.

وكان أكبر صبي في العنبر لا يميل إلى فيليب وكان فيليب الذي يبدو أصغر من سنه

مثيرا من المعاملة الصعبة. وفي منتصف الدورة المدرسية تفشي في المدرسة جنون لعبة «نيب» أي سن الريشة. ويشارك في اللعبة تلميذان وتمارس على مائدة بريش من حبر من الصلب. وعلى أحد اللاعبين أن يدفع بظفر إصبعه سن ريشته حتى يجعل ريشها الدقيق يستقر فوق ظهر سن خصمه بينما يحاول الخصم أن يمنعه من ذلك وعندما ينفق ذلك ينفخ اللاعب الأول في إبهام يده ويضغط به بشدة على سني الريشتين وإذا استطاع أن يرفع الاثنتين دون أن يسقط أحدهما على المنضدة فإنه يحصل على كلتا سني الريشتين لنفسه. وسرعان ما تفشت هذه اللعبة وأصبح لا يرى شيئا سوى تلاميذ يلعبونها.

وقرر السيد واتسون أن هذه اللعبة ليست سوى نوع من الميسر واستولى على جميع سنون الريش التي في حوزة الصبية. وكان فيليب بارعا في اللعبة ويقلب حزين تخلي عن مكاسبه منها ولكن أصابعه كانت لا تزال تستحثه على اللعب وفي أحد الأيام في طريقه إلى الملعب وجد متجرا واشترى عددا من سنون الريش الكبيرة دفع فيها بنس واحد. ووضعها في جيبه وكان يتحسسها ويشعر بنشوة. وعرف سينجر أن فيليب اشترى هذه السنون الضخمة وكان سينجر قد تخلي عن سنونه غير أنه احتفظ بواحد كبير منها وهو سن لم يهزم صاحبه ولم يكن يستطيع مقاومة الفرصة التي تواتيه لكي يجرد فيليب مما معه. ورغم أن فيليب كان يعرف أنه في موقف صعب بسبب السنون الصغيرة التي لديه إلا أنه كان يميل أن يخاطر وكان يعرف أن سينجر لن يسمح له بأن يرفض اللعب معه. لم يكن قد لعب لمة أسبوع فبدأ يلعب وهو مضطرب وسرعان ما فقد اثنين من سنون ريشه، وكان يبدو علي سينجر أنه سعيد للغاية. غير أنه خسر في النهاية وفي لحظة الخسارة دخل السيد واتسون. وسألها:

— ماذا تفعلان؟

ونقل عيناه من سينجر إلى فيليب غير أن أيهما لم ينبس بكلمة.

— ألا تعرفان أنني منعت هذه اللعبة الحمقاء؟

اضطرب قلب فيليب اضطرابا شديدا وكان يعرف ما ينتظره وشعر بخوف بالغ غير أن هذا الخوف كان يمتزج بنوع من الابتهاج. فلم يحدث أن عوقب أبدا من قبل. لا بد طبعاً أن العقاب سوف يكون مؤلماً ولكنه سيكون شيئا يفخر به فيما بعد.

— إلى مكتبي.

واستدار الناظر وتبعه فيليب وسينجر وكانا يسيران خلفه جنباً إلى جنب. وهمس سينجر إلى فيليب: الوليل ينتظرنا.

أشار السيد واتسون إلى سينجر وقال:

— انحنى.

شاهد فيليب وقد ابيض وجه سينجر وهو يرتعش في كل ضربة وسمعه بعد الضربة الثالثة يبكي . وتبع ذلك ثلاث ضربات أخرى .

- يكفيك هذا .. انهض الآن .

ووقف سينجر وكانت الدموع تسيل على وجهه . وتقدم فيليب نحو السيد واتسول النظر إليه لحظة ثم قال :

- أنا لن أضربك بالعصا . أنت صبي جديد . وأنا لا أستطيع أن أضرب صبيا أعرج . أغر عن وجهي كلاكما . وكفا عن البذاءة مرة أخرى .

وعندما عادا إلى حجرة الدراسة كانت تنتظرهما مجموعة من الصبية الذين علموا بطريق غريبة ما حدث . وهجموا على سينجر للتو يسألونه بشغف كثيرا من الأسئلة . وواجه سينجر ، ووجهه محمر من الألم وعلامات الدموع ما زالت باقية على وجهه . وأشار برأسه إلى فيليب الذي كان يقف وراءه بقليل ، وقال في غضب واضح :

- لقد نجا من العقاب لأنه أعرج .

وقف فيليب ساكنا وقد كست وجهه خمرة الخجل . وشعر أنهم كانوا ينظرون إليه باحتقار وسأل أحدهم سينجر :

- كم ضربة ؟

لكنه لم يرد فقد كان غاضبا لما لحقه من ألم . وقال لفيليب :

- لا تطلب مني أن ألعب معك سن الريشة مرة أخرى ، إن اللعبة لطيفة بالنسبة لك فليعب وراءها أي مخاطرة .

- أنا لم أطلب منك أن تلعب معي .

- حقا .. لم تطلب مني ؟

ومد قدمه بسرعة وراء فيليب ودفعه فسقط على الأرض فقد كان فيليب دائما غير ثابت على قدميه . وقال سينجر :

- أعرج .

وقد عذب سينجر فيليب بقية الفترة الدراسية ورغم أن فيليب حاول دائما الابتعاد عنه كانت المدرسة صغيرة جدا إلى حد أن ذلك كان مستحيلا . وحاول أن يكون ودودا ولطيفا مع أول نفسه إلى حد أنه اشترى مطواة لسينجر الذي أخذ المطواة لكن هذا لم يرضه . وفي مرة مرتين كان صبر فيليب قد نفذ ولم يعد يحتمل فضرب الصبي الأكبر وركله ولكت سينجر كان أقوى منه بكثير وكان فيليب عاجزا فعلا أمامه وكان يضطر بعد أن يعذب أن يعتذر له . وكان

هذا هو الذي يعتمل في نفس فيليب : فلم يكن يتحمل مهانة الاعتذار الذي كان يصدر عنه بألم أكثر مما يحتمل . ومما جعل الأمور أسوأ أنه لم تكن هناك نهاية ظاهرة لتعاسته فقد كان سينجر في الحادية عشرة من عمره ولن ينتقل إلى المدرسة الثانوية إلا إذا بلغ الثالثة عشرة من عمره . وأدرك فيليب أن عليه أن يعيش عامان من حياته مع جلال لا مهرب منه . لم يكن يشعر بالسعادة إلا وهو يعمل وعندما يأوي إلى فراشه . وغالبا ما كان ينتابه هذا الشعور الغريب بأن حياته بكل تعاستها ليست سوى حلم وأنه يستيقظ في الصباح ويجد نفسه في فراشه الصغير في لندن .



ومر عامان ، وبلغ فيليب عامه الثاني عشر أو كاد ، وكان في الصف الأول وليس بينه وبين أن يكون في مقدمة الفرقة إلا مكان أو ثلاثة أمكنة ، ولن يلبث بعد عيد الميلاد حين ينتقل بعض الأولاد إلى المدرسة العليا أن يصبح أول فرقته وكان قد حصل على مجموعة من الجوائز ، وكتب من المدرسة غير ذات قيمة مطبوعة على ورق رديء حوتها أغلفة ثمينة مزودة بشعار المدرسة . وأنقذه وضعة من تهجم زملائه عليه ، وذهب عنه شقاؤه ، فلم يشعر بالتعاسة ، ولم يحسده زملاؤه على نجاحه لما في جسمه من نقص .

وقالوا إن من أسهل الأمور عليه أن ينال الجوائز لأنه لا يستطيع أن يصنع شيئا إلا أن يستذكر . وزال عن فيليب خوفه من السيد واتسون فقد اعتاد على صوته الجهوري . وكان يفتن في غموض أن الناظر يريد ملاطفته إذا ما ألقى بيده الثقيلة على كتفه . وكان فيليب يتمتع بتلك الذاكرة القوية التي هي أكثر فائدة في الحفظ عنها في تقوية الذهن . وكان يعرف أن السيد واتسون يتوقع منه الخروج من المدرسة وقد نال منحة دراسية لتفوقه ، ولكن فيليب أصبح بالغ الرقة والحساسية هيويا شديد الوعي بذاته .

إن الطفل لا يحس أن جسمه جزء منه أكثر مما يحس الأشياء التي تتناثر حوله ، إنه يلعب في أصابع قدمه دون أن يكون شعوره بأنها أقوى من شعوره باللعبة التي تلعب جانبها . وعندما يشعر بالألم يبدأ رويدا رويدا في إدراك حقيقة الجسد . وتجارب الألم هذه ضرورية حتى يحس المرء نفسه ويدركها ، ولكن هناك نقطة خلاف ، فبالرغم من أن كل إنسان يدرك أن جسده جهاز كامل مستقل به عن الآخرين فإنه لا يستطيع إدراك نفسه بوصفه شخصية منفصلة تماما عنهم ، فشعور المرء بالانفصال عن الآخرين يأتيه في سن الحلم ، ولكنه لا يتطور دائما إلى الحد الذي يصبح معه الفارق بينهم ملحوظا . ومثل هذا الفرد الذي لا يحس نفسه إلا بقدر ما تحس النحلة نفسها وهي خليتها ، هو السعيد في هذه الدنيا ، لأن لديه غير فرص السعادة ، فالكل

يشاطره نشاطه و سروره متعة للآخرين لأنهم يشعرون به ويسهمون فيه، فتأمله يرقصون في الأعياد ويمرحون، وفي مباريات الكرة يصيحون ويهللون، ما مر موكب ملكي يطلون من النوافذ مصفقين محيين. وبفضلهم عرف الإنسان حيوان اجتماعي .

وقضى فيليب سن طفولته البريئة ، وبلغ فترة انتابه فيها إحساس مرير بذاته ، جلبت عليه قدمه من سخریات . و كانت ظروفه غريبة للغاية فلم يستطع أن يلانم حاله وبين المؤلف من قواعد الحياة التي تنطبق على الأحوال العادية ، فاضطر يسلك طريقا خاصا. وبعثت الكتب الكثيرة التي قرأها إلى رأسه بأفكار لم يكن يفهم تماما ، فأكسب ذلك خياله أفقا فسيحا، ونما في أعماق نفسه شيء آخر إلى جانب خجلة، فبدأ يدرك شخصيته إدراكا غير واضح المعالم . وكان أحيانا يدهش لما يراه من تصرفات لا يدرك الباعث عليها ، وكان يشعر عندما يمعن فكره فيما أتاه بأنه في محيط لا نهاية له .

وكان هناك صبي اسمه لوارد نشأت صداقة بينه وبين فيليب وفي يوم من الأيام كانا يلعبان معا في الفصل بدأ لوارد يستعرض بعض الخدع مستخدما غطاء قلم من الأبنوس خاص بفيليب .

- لا تلعب لعب الحواة معي فسوف تكسره فقط .

ولم يكد فيليب يفرغ من كلامه حتى تحطم غطاء القلم وانقسم إلى قطعتين . ونظر إلى فيليب بأسى .

- آسف .. أنا آسف للغاية .

وترقرقت الدموع من عيني فيليب ولكنه لم يقل شيئا .

وقال لوارد مندهشا :

- ماذا حدث ؟ سوف أحضر لك قلما آخر مثله تماما .

قال فيليب في صوت به رعشة :

- أنا لا أهتم بالقلم .. المسألة أن أمي أعطته لي قبل أن تموت .

- أنا آسف جدا يا كاري .

- لا يهم .. لم يكن ما حدث خطأ منك .

أخذ فيليب قطعتي غطاء القلم ونظر إليها . وحاول أن يكبح تنهداته . لقد شعر بتعيس للغاية . ولم يكن يستطيع أن يعرف سبب هذه التعاسة لأنه يعرف تماما أنه استبدل غطاء هذا القلم أثناء غطلته الأخيرة في بلاكستابل ببنسين ونصف بنس . ولم يعرف

الذي جعله يخترع تلك القصة المحزنة ولكنه كان تعيسا وكأن هذه القصة حقيقية فعلا .
البحر التقي في بيت القس والرنه الدينية في المدرسة جعلاً ضميره بالغ الحساسية. فقد امتص بلا وعي الشعور السائد حوله وهو أن هناك من يراقبه دائما للفوز بروحه الأبدية: ورغم أنه لم يكن أكثر صدقا من معظم الصبية فإنه لم يحدث أن قال كذبا دون أن يعاني من الندم . وعندما فكر في تلك الحادثة الأخيرة شعر بأسى بالغ وقرر أن يذهب إلى لوارد ويقول له أن قصته كلها كانت ملفقة. ورغم أنه كان يخشى المذلة أكثر من أي شيء آخر في العالم فقد شعر بالسرور يومين أو ثلاثة بسبب فكرة ما سيشعر به من ابتهاج يمتزج بالعذاب لإذلال نفسه أمام عظمة الرب. غير أنه لم يتقدم أكثر من ذلك . فقد أرضي ضميره بالأسلوب الأكثر راحة وهو الإعراب عن ندمه لله فقط . لكنه لم يفهم لماذا تأثر حقا بهذا الشكل من الحكاية التي لفقها . فقد كانت الدموع التي سالت على وجنتيه دموعا حقيقية. ثم بنوع من تداعي المعاني طرأ له هذا المنظر الذي أبلغته فيه إما بوفاة أمه ورغم أنه لم يكن يستطيع أن يتكلم في ذلك الوقت لأنه كان يبكي فقد أصر على أن يذهب إلى الأنسة وأتسرن حتى يمكنهم أن يروا مدى حزنه على والدته .



ثم سادت المدرسة موجة من التدين اختفت على إثرها الكلمات البذيئة وكانت سخافات الصبية تقابل بنظرات عدوانية ، ولجأ الكبار منهم - كما لجأ سادات العصور الوسطى المندبين - إلى استخدام قوة أذرعهم لإقناع الأضعف منهم باتباع الطريق السوي.

وأصبح فيليب تقيا ورعا ، إذ كان ذهنه يتوق دائما إلى كل جديد و سرعان ما سمع أن في وسعه أن ينضم إلى إحدى جمعيات الكتاب المقدس ، فكتب خطابا إلى لندن يسأل عن المعلومات المطلوبة وكانت هذه تتضمنها استمارة يدون فيها اسم الطالب وعمره ومدرسته، وتعهد صريحا بأن يقرأ جزءا معيناً من الكتاب المقدس كل ليلة مدة عام كامل. ثم يدفع ما يوازي عشرة قروش ، وذلك حتى يثبت المتقدم رغبته الجدية في الالتحاق بالجمعية من جهة وتستخدم هذه القروش لتغطية مصروفات الأعمال الكتابية للجمعية من جهة أخرى . وما لبث فيليب أن بعث بالرسالة والنقود . فجاءه كتيب لا يساوي أكثر من بنس واحد دونت فيه الأجزاء التي يقرأها الطالب كل يوم ، وأرفقت بالكتيب ورقة رسم على أحد وجهيها صورة للراعي الطيب وحمل ، وزين الوجه الآخر بإطار من سطور حمراء فيه نص الصلاة التي تتلى قبل القراءة .

وكان فيليب في كل ليلة يسرع بخلع ملابسه ليتاح له من الوقت ما يتم فيه قراءته قبل أن ينطفئ مصباح الغاز في الحجرة . وراح كعادته يقرأ في جد واجتهاد دون نقد لما يقرأ .

- أي فقرة هذه ؟

- الفقرة التي تقول أنه إذا آمن المرء فيمكنه أن يحرك الجبال .

وقالت السيدة كاري وهي ترفع سلة البيض :

- إذا كان الإنجيل يقول ذلك فهو صحيح يا فيليب .

ونظر فيليب إلى عمه منتظرا ردا منه .

- إنها مسألة إيمان .

- هل تعني أنك إذا آمنت فعلا أنك تستطيع أن تحرك الجبال فستحركها ؟

وقال القس :

- بمشيئة الرب .

وقالت السيدة كاري :

- والآن قل لعمك عمت مساء . أنت لا تريد أن تحرك جبلا الليلة ، أليس كذلك ؟

وسمح فيليب لعمه أن يطبع قبلة على جبهته . وسبق السيدة كاري في الصعود إلى الدور

العلوي . لقد حصل على المعلومات التي يريدها . كانت حجرته الصغيرة باردة كالثلج . وقد

بعث البرودة بقشعريرة في أوصاله عندما أخذ يرتدي منامته . ولكنه شعر دائما أن الرب

يأخذ تقبله لصلواته عندما يؤديها في ظروف أكثر مشقة . وكانت برودة يديه وقدميه قربانا

للرب . وفي تلك الليلة ركع على ركبتيه ودفن وجهه بين يديه وصلي للرب بكل قوته وطلب

منه أن يشفي له قدمه الحنفاء . كان ذلك شيئا طفيفا جدا بالمقارنة لتحريك الجبال . وكان

يعرف أن الرب سوف يستجيب له لو شاء وأن إيمانه الآن كامل تماما . وفي صبيحة اليوم

التالي أنهى صلاته بالطلب نفسه وحدد موعدا للمعجزة .

- ربي .. أبتهل إلي رحمتك وكرمك إذا كانت تلك مشيئتك أن تشفي قدمي ليلة عودتي إلى

المدرسة .

شعر بالسعادة لأنه وضع مطلبه في صيغة لائقة وكررها فيما بعد في حجرة الطعام في

الفترة القصيرة التي كان القس يتوقف فيها بعد تلاوة الصلاة قبل أن ينهض من على

ركبتيه . وكررها مرة أخرى في المساء ومرة أخرى كانت البرودة تبعث القشعريرة في أوصاله

فهل أن يأوي إلى فراشه . وكان قد غمره الإيمان . وكان ينظر قدما إلى الوقت الذي ستنتهي

فيه الإجازة . وضحك عندما تصور نفسه وهو ينزل السلالم ثلاث درجات مرة واحدة

واندهاش عمه عندما يراه يفعل ذلك ، وبعد الإفطار سوف يسرع بالخروج مع العمدة لويزا

لشترها حذاء جديدا . وفي المدرسة فإن الصبية سيصابون بذهول .

- مرحبا يا كاري .. ماذا فعلت بقدمك ؟

فقرأ قصصا عن القسوة والخداع و نكران الجميل والخيانة والغش والمكر الديني . وكان الأعمال التي من شأنها أن تثير في نفسه الرعب مما يحيط به من صنوف الحياة تمر به وهو يقرأها دون أن يعلق عليها بشيء ، لأنها حدثت عن وحي مباشر من الله .

وكانت طريقة الرابطة أن تستبدل كتاب العهد القديم بكتاب العهد الجديد وفي إحدى الليالي يقرأ فيليب كلمات للسيد المسيح تفيد أنه إذا آمن المرء إيمانا كافيا فيمكنه أن يحرك الجبال .

لم يكن لهذه الكلمات تأثير خاص عليه غير أنه حدث بعد يومين أو ثلاثة وكان يوم أن اختارها الكاهن المقيم لكي تكون نصا لموعظته . حتى لو أن فيليب أراد أن يستمع إلى

الكلمات لما استطاع لأن التلاميذ مدرسة كينجز كانوا يجلسون في مكان المرتلين ، وكان منبر الوعظ في ركن من جناح الكنيسة فكان ظهر الواعظ تقريبا متجها ناحيتهم . وكان

المسافة أيضا كبيرة لدرجة أن الواعظ كان لا بد أن يكون رجلا ذا صوت واضح ومعرفة بالخطابة وطريقة الإلقاء حتى يصل صوته إلى أسماع فريق المرتلين ؛ ووفقا للعادة المتبعة

منذ زمن طويل فقد قساوسة كانتبري يختارون من أجل علمهم لا من أجل أي صفة أخرى قد تكون ذات نفع للكنيسة الكاثدرائية . ولكن كلمات هذا النص ترددت واضحة في أسماع

فيليب ربما لأنه قرأها قبل فترة قصيرة وفجأة بدت وكأنها تنطبق عليه شخصا . وظل يردد

فيها معظم وقت الخطبة التي كان يلقيها القس ، وفي تلك الليلة عندما أوى إلى فراشه في صفحات الإنجيل وعثر عليها مرة أخرى . ورغم أنه كان يصدق ضمنا كل شيء

مطبوعا ، فقد علم بالفعل أنه عندما يتحدث الإنجيل عن شيء ما فغالبا وبطريقة غامضة يعني شيئا آخر . ولم يكن هناك أحد يحب أن يسأله في المدرسة وهكذا احتفظ بالسؤال

إجازات عيد الميلاد . وفي يوم ما هيا لنفسه فرصة لذلك كان ذلك بعد والانتهاه توا من تلاوة الصلاة . كانت السيدة كاري تحصي البيض الذي أحضرته ماري آن كالمعتاد وتكتب التواريخ على كل بيضة . ووقف فيليب عند المائدة وتظاهر أنه يقلب صفحات الإنجيل بكسل .

هل أسألك سؤالا يا عمي ويليام .. هذه الفقرة التي تتحدث عن الإيمان القوى وتحرك الجبل .. هل تعني ذلك حقا ؟

ووضع إصبعه عليها وكأنه عثر عليها مصادفة .

ونظر السيد كاري من وراء نظارته فقد كان يقرأ صحيفة بلاكستابل تايمز وهو جالس أمام المدفأة . وقد وصلت الصحيفة في تلك الأمسية رطبة من المطبعة ، وكان القس يقرأ بتهويته لمدة عشر دقائق قبل أن يبدأ في قراءتها .

وسأل :

فيرد بدون اهتمام وكأن ما حدث شيء طبيعي للغاية :

- كل شيء علي ما يرام ، لقد شفيت الآن .

سوف يصبح في استطاعته أن يلعب كرة القدم مع زملائه . وقفز قلبا جذلا عندما رفسه يجري .. ويجري بسرعة أكثر من أي تلميذ آخر . وفي نهاية فترة عيد الفصح تبدأ الدروس الرياضية وسوف يستطيع أن يشترك في مسابقات الجري وقد تخيل نفسه حتى يشارك في مسابقات العوائق . سوف يكون من الروعة أن يكون هو مثل أي شخص آخر ولا ينظر إليه التلاميذ الجدد الذين لا يعرفون شيئا عن عاهته بفصول ولن يحتاج في الصيف إلى الاحتياطات التي يتخذها أثناء الاستحمام ، وأثناء تغيير ملابسه ولن يحتاج إلى ستر قد وإخفائها بدسها في الماء ليبعدا عن أنظار الآخرين .

راح يصلي بكل ما أوتيت روحه من قوة . ولم تخالجه أية ظنون . كان واثقا في كلام الرب وفي الليلة التي سبقت عودته إلى المدرسة أوي إلى فراشه يرتعد من موقفه المثير كانت الثلج قد كست الأرض . وسمحت العمة لويزا بترف أن تشعل لنفسها نيران المدفأة في حجرة نومها ولكن حجرة نوم فيليب كانت باردة جدا حتى أنه فقد الحس في أصابعه ووجد صعوبة كبيرة في فك أزرار ياقته . أما أسنانه فكانت تصطك في بعضها . وواتته فكرة بأنه يجب أن يفرش شيئا أكثر لكي يحصل علي بركة الله واهتمامه وأبعد البساط الذي كان موضوعا أمام فراشه حتى يركع على الأرض عارية ؛ ثم خطر له أن المنامة التي يرتديه قد تكون نوعا من الرفاهية لا يرضي خالقه فخلعها وراح يتلو صلاته وهو عار . وعندما صعد إلى فراشه كان يشعر ببرودة شديدة فلم يستطع أن ينام ، غير أنه عندما نام كان نومه عميقا حتى أن ما كان عليه من ملابس لم يلاحظه . غير أنه عندما جاءت بالماء الدافئ كي يغتسل في الصباح . وراح تكلمه وهي تزيج الستار عن النافذة غير أنه لم يرد عليها ؛ لقد تذكر على الفور أن هذا صلب المعجزة . وكان قلبا فرحا مليئا بالامتنان . وقد دفعته غريزته الأولى أن يمد يده ويتحسس بها قدمه التي شفيت تماما الآن غير أنه إذا فعل ذلك فمعناه أنه يشك في رحمة الله . كان يعلم أن قدمه قد عوفيت . ولكنه أخيرا اتخذ قراره وبطرف أصابع قدمه اليمني لمس فقط الأرض ثم مر بيده عليها .

نزل السلالم وهو يعرج عندما كانت ماري آن في طريقها إلى حجرة الطعام لتبدأ الصلاة ثم جلس إلى المائدة لتناول الإفطار وقالت العمة لويزا :

- أنت هادئ جدا اليوم يا فيليب .

وقال القس :

- إنه يفكر في الإفطار اللذيذ الذي سيتناوله غدا في المدرسة .

عندما كان فيليب يرد كان يرد بطريقة كانت تضايق عمه . كان يرد ردا لا علاقة

الذي يتحدثون بشأنه . وقال فيليب :

أخبرني أنك طلبت من الرب شيئا مثل تحريك الجبل مثلا .. وكان لديك الإيمان الكافي

لحدث شيء .. فما معني ذلك ؟

أنت هادئ جدلويزا :

أنت العمة لويزا :

أنت صبي غريب حقا ! لقد سألت عن تحريك الجبال هذا قبل أسبوعين أو ثلاثة .

قال العم ويليام :

معناه بالضبط أنك ليس لديك إيمان .

فيليب هذا التفسير . فإذا كان الله لم يشفه فهذا لأنه لم يؤمن إيمانا حقيقيا . ورغم ذلك لم يستطع أن يرى كيف يمكنه أن يفعل لكي يؤمن أكثر مما فعل ولكن لعله لم يمنح الله الكافي ليستجيب لطلبه فقد طلب منه أن يحقق له ما يريد في تسعة عشر يوما . وبعد يومين بدأ صلواته مرة أخرى وفي هذه المرة طلب من الرب أن يستجيب له بحلول عيد الفصح . وهذا هو يوم بعث ابن الرب وقد يكون الرب أكثر استجابة في ذلك الوقت . غير أن الآن أضاف وسائل أخرى لتحقيق رغبته فكان يتلوها عندما يرى قمرا جديدا أو فرسا أو نجما يهوى ؛ وأثناء تغيبه أحيانا عن المدرسة كان القس يقدم دجاجة على الغداء . فيليب يكسر عظمة الحظ فيها مع العمة لويزا ويتلو رغبته مرة أخرى . وكان يناشد دون توقف منة آلهة أقدم النسبة لسلالته من إله إسرائيل . وراح يصلي للرب كثيرا في أوقات غريبة . كل يوم وبنفس الكلمات لأنه كان في اعتقاده أنه من المهم أن يقدم طلبه بنفس العبارات . أنه أحس أنه في هذه المرة لن يكون إيمانه كافيا . ولم يستطع أن يقاوم الشك الذي

تخلعه . وجعل من نتائج تجربته الخاصة قاعدة عامة وقال :

الاعتقاد أنه لا يوجد أحد لديه الإيمان الكافي .

لقد كان مثل الملح الذي حدثت عنه مربيته . يمكنك أن تصطاد أي طائر إذا وضعت الملح على ذيله ؛ وفي مرة حمل معه كيسا صغيرا من الملح وهو ذاهب إلى كينسنجتون جاردينز . لكنه لم يتمكن من الاقتراب من أي طائر بحيث يستطيع أن يضع الملح على ذيله . وقبل أن يفرط في موعده عيد الفصح تخلي فيليب عن كفاحه . وشعر ياستياء غريب من عمه لأنه ضلله . الفقرة التي تحدثت عن تحريك الجبال فقد كانت من تلك الفقرات التي يقال فيها شيئا غير

تعني شيئا آخر . واعتقد أن عمه كان يداعبه بطريقة عملية .

كانت مدرسة «كنجز» التي انتقل إلى ها فيليب عندما كان في الثالثة عشرة من عمره تعتر

النوع أعيد تنظيمها بعد تدمير أديرة الرهبان على أيدي المسؤولين التابعين للملوك الثامن. ومنذ ذلك الوقت وهي تتبع طريقها المتواضع قدمت لأبناء الطبقة الأرستقراطية والمهنيين في «كينت» تعليمًا يكفي احتياجاتهم. وقد تخرج من هذه المدرسة أمم مبدعين منهم أديب شهرته تنافس الشاعر شكسبير كما تخرج منها اثنان من كبار الأطباء واثنان من رجال الصف العسكري لهم مكانتهم غير أنها خلال القرون الثلاثة التي فيها عن نظام الرهبان قامت أساسا بتدريب رجال الكنيسة والمطارنة وكبار الكهنة من رجال الدين: وهناك تلاميذ في المدرسة تعلم أبائهم وأجدادهم وأبناء أجدادهم أصبحوا جميعهم قساوسة في أبرشيات تابعة لأبرشية كانتربري وقد التحقوا بالمدرسة وفي قرارة أنفسهم أنهم يريدون خدمة الكنيسة. غير أنه كانت هناك بوادر الكنيسة لم تعد كما كانت من قبل. ولم تكن المسألة هي المال، بل إن طبقة الناس يلتحقون بها ليسوا كما كانوا من قبل. وهناك تلميذان أو ثلاثة يعرفون رعاة أبائهم تجار. والتاجر في مدرسة كينجز كما هو الحال في أبرشية بلاكستابل هو الذي لم يسعده الحظ لتملك الأرض أو لم ينضم إلي المهن الأربع التي ينتمي إليها والصبية في المدرسة والذين بلغ عددهم مائة وخمسين من أبناء الطبقة الأرستقراطية المحلية يعتبرون أن على أولئك الذين ينحدرون من آباء يعملون في مجال الصناعات يتحملوا نتائج انحطاط منزلتهم.

ولم يكن الأساتذة يطبقون صبرا على تلك الأفكار التربوية التي قرءوا عنها في التاييمز أو الجارديان. و كانوا يأملون أن تظل المدرسة مخلصنة لتقاليدها. وكانت القديمة الميته تدرس في هذه المدرسة بدقة كبيرة حتى أن الطلبة عندما يكبرون لا إلا أن يشعروا بالملل عندما يتذكرون هومر أو فرجيل. وبالرغم من أن تلميذا أو تلميذة الذين أوتوا بعض الجراءة كانوا يقولون في أثناء تناول الطعام أن الرياضيات ذات متزايدة، فقد كان الشعور السائد بين الطلبة هو أن دراستها أقل نبلا من دراسة الكلاسيك ولم يكن الطلبة يدرسون في المدرسة اللغة الألمانية أو الكيمياء. أما الفرنسية فلم يدرسها مدرسو الفصول الذين كانوا يستطيعون حفظ النظام أكثر من الأجانب. وإذا كانوا قواعد النحو الفرنسي كما يعرفها أي فرنسي صميم فلم يكن يهتم المدرسة أن أحدا لا يستطيع أن يحصل على فنجان قهوة في المطعم في «بولونيا» إلا إذا كان الخادم قليلا من اللغة الإنجليزية. وكان الطلبة يعتمدون في دراسة الجغرافيا على رسم للبلاد وكانت هذه مهمة محببة، وعلى الأخص عندما تكون البلاد التي يدرسون طبيعة جبلية فقد كان من المستطاع إضاعة وقت طويل في رسم جبال «الانديز» «الابنين».

وكان المدرسون وهم خريجو جامعتي أوكسفورد وكامبريدج كهنة معينون متزوجين: وإذا تصادف أنهم أرادوا أن يتزوجوا فيمكنهم أن يفعلوا ذلك بأن يقبلوا

المهنة الموضوعة تحت تصرف رجال الكنيسة: ولكن لسنوات طويلة لم يأبه أحد المجتمع المذهب في كانتربري ليعيش حياة مملة في بيت قسيس في الريف. كان الناظر من ناحية أخرى مضطرا للزواج وقد أدار المدرسة حتى بدأ الكبر يبدو عندما تقاعد كوفئ بمعاش أحسن من أي معاش يأمل في الحصول عليه أي من المدرسين.

بل أن يلتحق فيليب بهذه المدرسة بعام واحد طرأ عليها تغير كبير، فقد تبين أن فليمنج الذي كان ناظرا لها طيلة الخمسة والعشرين عاما السالفة، قد ازداد صممه لم يعد يستطيع أداء مهمته في المدرسة أداء يمجده به الله.

بعد أن استغنت المدرسة عن الدكتور فليمنج أضحي من الضروري أن تبحث المدرسة بلفه، ولم تكن تقاليدها تسمح باختيار أستاذ أقل منه مرتبة، وحينئذ أبدت لجنة المدرسة التي تبحث شئون الطلبة والمدرسين رغبتها في ترشيح السيد واتسون ناظر الإعدادية ليحل محل الدكتور فليمنج. نعم إنه لم يكن من المستطاع الآن أن يكون أستاذ في مدرسة كينجز ولكنهم كانوا يعرفونه منذ عشرين عاما، ولم يكن ثمة خوف من أن يثير السيد واتسون أي مشكلات في المدرسة.

لم يكن مجلس إدارة المدرسة خرج عليهم بمفاجأة مذهلة فاختر رجل اسم بيركينز، ولم يكن أحد في أول الأمر من هو بيركينز هذا، ولم يكن للاسم كذلك أثر طيب في أحد منهم الجميع علموا قبل أن تزول آثار هذه المفاجأة أن بيركينز هذا هو ابن بيركينز تاجر النسيج الداخلي. وأبلغ دكتور فليمنج الأساتذة هذا النبأ قبل تناولهم العشاء مباشرة. وبدأ الخروج من طريقته في الكلام إليهم وقد استمر من كان مدعو معهم لتناول الطعام في الهدوء لا يكاد ينطق بكلمة واحدة، ولم يشر أحد إلي هذه المسألة إلا بعد أن غادر الخدم ثم بدءوا بعدئذ يتكلمون، وليس يهمنا أن نذكر أسماء من كانوا حاضرين وقتئذ. تلاميذ المدرسة يعرفونهم منذ عدة أجيال بهذه الأسماء سايز، وينكس، بات، تار، بيركنز.

وكانوا جميعا يعرفون توم بيركنز، وأبرز ما عرفوه عن طباعه أنه لم يكن من السادة الذين جدا فقد كان فتى صغيرا أسمر اللون ذا شعر أسود أشعث، وعينين واسعتين ويبدو أنه من سلالة الغجر، قدم إلى المدرسة طالبا نهائيا وحصل منها على أفضل المنح الدراسية التي تمنحها المدرسة، فلم يكلفه تعليمه والحالة هذه شيئا ما. وكان بيركنز في الحال تلميذا نابها فكان فتاهم الأول وكان في أيام المناظرات يخرج مثقلا بالجوائز وكان هو موضع فخرهم أمام الزائرين وأخذوا الآن يذكرون بمنتهى القلق خوفهم أن يحاول الحصول على منحة من إحدى المدارس الخصوصية الكبرى فيقلت بذلك من أيديهم. وكان فليمنج قد ذهب لزيارة أبيه تاجر القماش - وكان الكل يذكرون متجرا بيركنز وكوبر

في شارع سانت كاترين - وقال فليمنج أنه يأمل أن يبقى توم معهم حتى موعد أكسفورد . وكانت المدرسة من أفضل عملاء محال بيركنز وكوبر . وقد سر بيركنز كل أن يؤكد لهم استجابته لما يرغبون فيه ، وظل توم بيركنز يواصل النجاح ، فكان في قسم الدراسات القديمة الذين يذكر فليمنج أسماءهم . وعند تخرج بيركنز من حظي بأفضل المنح الدراسية التي تقدمها المدرسة إلى المتفوقين وحصل على منحة أخرى من مدرسة مجالين ، ثم بدأ يخطو نحو مستقبل باهر في الجامعة . وسجل في المدرسة تفوقه عاما بعد عام وعندما حصل على شهادته الأولى كتب دكتور فليمنج كلمة مديح في الصفحة الأولى من المجلة ورحب الجميع بتفوقه في رضا بالغ . وزاد عن نجاحه أن بيركنز وكوبر قد حلت بهما أيام سوء فقد راح كوبر يجرع الخمر كالما أن يحصل بيركنز على إجازته العلمية كان المتجر قد تقدم لطلب إعلان إفلاسه . بيركنز قسا في الوقت المناسب وعين بذلك في المنصب الذي يلائم مواهبه أحسن وأصبح مساعدا لناظر مدرسة «ولنجتون» ، ثم لمدرسة «راجبي» .

ولكن هناك فارقا كبيرا بين أن يرحب الأساتذة بنجاحه في المدرسة الأخرى وأن تحت رياسته في مدرستهم ، فكثيرا ما ضايقه تارة كثيرا ما ضربه سكويرتز على الواقع أنهم لم يتصوروا كيف وقع مجلس الإدارة في مثل هذا الخطأ ، فهم لا يمكنهم أن بيركنز هذا ليس إلا ابن تاجر مفلس للأقمشة ، ومما زاد الطين بلة أن كوبر وإدمان قد أضافا إلي هذا العار عارا جديدا . وكان المفهوم أن العميد قد أيد ترشيح بيركنز بالغة ، ولهذا فإن الكاهن الكبير سيدعو بيركنز غالبا لتناول العشاء معه ولكن هل يكون الدعوات اللطيفة في البيوت المجاورة للمدرسة المعنى نفسه عندما يجلس توم بيركنز مكان الرئاسة من المائدة . وماذا عن مركز تدريب الجنود؟ حقا أن بيركنز لا يتواءم بالضباط والموظفين والسادة المهيئين أن يستقبلوه كواحد منهم ، لأن هذا يعود على بأضرار لا تحصى ، فسيتبرم آباء الطلبة ، ولهذا فإن الآباء أبناءهم من الطلبة بالجملة فإن ذلك لن يكون مثار دهشة لأحد . ثم هناك شيء آخر وهو إهانة تلقبيه وعنه بس السيد بيركنز وفي هذا من المهانة ما فيه . وفكر الأساتذة في تقديم استقالة احتجاجا على هذا التعيين ، ولكنهم أحجموا عن ذلك خوفا من أن تقبل المدرسة هذه الاتهام دون أن تعبأ بشيء .

وقال الأستاذ «سايز» الذي ظل خمسة وعشرين عاما يشرف على الفرقة بالمدرسة إشرافا لا يماثله في عجزه أي إشراف سواه :

- ليس أمامنا إلا أن نعد أنفسنا لما يحدث من التغيرات !

وعندما رأوه لم يطمئنوا . وقد دعاهم الدكتور فليمنج لمقابلته على الغداء . وقد أصبح في الثانية والثلاثين من عمره . طوي القامة نحيف . ولكن كان منظره كما يتذكرونه

في أشعث . وكانت ملابسه رثة رديئة التفصيل ارتداها بإهمال . وكان شعره حمرا ورد اللون وكان من الواضح أنه لم يتعلم كيف يساويه وينظفه فقد كان يسقط على كل حركة من رأسه . وكان يمد يده بسرعة ليبعد شعره عن عينيه . كان له شارب صلبة صعدت على وجهه حتى عظام الوجنتين . كان يتحدث إلى الأساتذة بكل راحة كهم من أسبوع أو أسبوعين من قبل . وكان من الواضح أنه سعيد بلقائهم . ويبدو أنه يشعر بغربة الموقف ولم يلاحظ أي شيء شاذ في أن ينادونه «السيد بيركنز» .

ولما ودعهم ، قال له أحد الأساتذة لمجرد أن يقول شيئا أنه منح نفسه وقتا أطول من الملحق بقطاره . فرد بمرح قائلا «أريد أن أقوم بجولة عموما ثم ألقى نظرة على

أن هناك حرج واضح . و تعجبوا كيف تعوزه اللباقة بهذا الشكل . ومما زاد الطين بلة يد واتسون لم يسمع ما قاله بيركنز بل فصرخت زوجته في أذنه قائلة :
- هل يريد أن يقوم بجولة ويلقي نظرة على متجر أبيه القديم .

وكان توم بيركنز وحده هو الذي لم يشعر بالمهانة التي شعر بها الجميع . فوجه كلامه السيدة فليمنج قائلا :

- من صاحب المتجر الآن ، هل تعرفين ؟

وكان من الصعب عليها أن ترد . فقد كانت غاضبة للغاية . وقالت بمرارة :

- إنه مازال متجرا لبيع المنسوجات . واسم صاحبه «جروف» ونحن لا نتعامل معه الآن .

- ترى هل سيسمح لي بزيارة المنزل ؟

- أتوقع أنه سوف يسمح لك إذا قلت له من أنت .

حتى نهاية العشاء في تلك الليلة لم تكن هناك إشارة واحدة في حجرة مجلس الإدارة إلى الموضوع الذي شغل بال المجتمعين . ثم كان سايز هو الذي تكلم :

- ما رأيكم في رئيسنا الجديد ؟

وفكروا في الحديث الذي دار على الغداء . لم يكن حديثا فعلا . كان حوارا من جانب واحد فقد راح بيركنز يتكلم بصفة متواصلة في صوت عميق رنان ، وكانت الكلمات تخرج منه بسرعة وأحيانا كان يضحك ضحكة خاطفة قصيرة تنم عن أسنانه البيضاء وقد تابعوا كلامه بصعوبة لأنه كان يقفز من موضوع لآخر ويصل بينها بطريقة لم يستطيعوا فهمها دائما وتكلم عن أمور التعليم وكان هذا طبيعيا بلا شك : ولكنه تكلم كثيرا عن نظريات جديدة في ألمانيا لم يسمعوها أبدا واستقبلوها في ريبة وشك . وتكلم عن الكلاسيكيات فقد زار

بالعناد الشديد و التي لم يقلل من شدتها أنهم ستروها بأن تظاهروا
بالموافقة على آراء الناظر الجديد ، وبالرغم من أن أساتذة المدرسة استمروا
باللغة الفرنسية لطلبة المدرسة الابتدائية ، فإن أستاذا جديدا يحمل إجازة في
من جامعة هايدلبرج ، بالإضافة إلى سنوات ثلاث قضاها في مدرسة فرنسية
درس اللغة الفرنسية لطلبة الفصول العليا ، و اللغة الألمانية لأي طالب يريد
بدلا من اللغة اليونانية. وتم التعاقد مع أستاذ آخر لتدريس الرياضيات
منظمة أكثر مما كان يحتاج إليه في ذلك الوقت، ولم يعين أي من هؤلاء .. و
لأنه ثورة حقا في المدرسة، فعندما وصل هذان الأستاذان استقبلهما الأساتذة
في شئ من عدم الثقة. وجهاز للمدرسة معملا، وبدأت فصول التدريب العسكري
الجميع أن طابع المدرسة أخذ في التغير، ولا يعلم إلا الله ما المشروعات التي
دور في رأس السيد بيركنز الأشعث.

كانت المدرسة صغيرة إذا ما قورنت بغيرها من المدارس الحكومية ، ولم يكن بها
من مائتي تلميذ في القسم الداخلي ، وكان من الصعب أن تزداد اتساعا لأنها كانت
في لمباني الكنيسة الكبرى و كانت البيوت المجاورة كلها - باستثناء بيت واحد
فيه بعض الأساتذة - يحتلها رجال الكنيسة ، ولم يكن هناك أي متسع للبناء ، و
سيد بيركنز وضع مشروعا متقنا يستطيع أن يحصل به على ما يلزم من مساحة
لحظة خجم المدرسة الحلوى. فقد كان يريد أن يجذب إليها الطلبة من لندن ، وظن
أن الخير لهؤلاء أن يتصلوا بصبية «كنت» ، وأن هذا الاتصال سيشحذ من ذكاء
الريفي.

قال السيد سايز عندما أخبره بيركنز بمشروعه :

هذا المشروع يتعارض مع كل تقاليدنا، ولقد خرجنا عن طريقنا المألوف حتى نتجنب
الطلبة لندن.

أجاب السيد بيركنز: -

سياله من هراء!

لم يحدث من قبل أن أحدا قال لرئيس الفصل أن كلامه هراء وراح يفكر في رد لاذع ربما
أن يدرج فيه إشارة خفية عن المنسوجات والملابس عندما هاجمه السيد بيركنز
بوقتة العنيفة الفظة .

ذلك المنزل في المنطقة المجاورة . إذا حدث وتزوجت فسوف أطلب من مجلس
المدرسة أن يبني فوكة دورين آخرين وسوف نبني عنابر نوم وفصول ويمكن لزوجتك أن
تأخذك.

يرى أن أولاد لكي ينجحوا في امتحاناتهم . وتكلم عن السياسة وعرفوا من كلامه أنه لم
وغاصت قلوبهم . وتكلم عن الفلسفة الألمانية والرواية الفرنسية . ولم يستطيعوا أن
كيف يكون الرجل عميقا إذا كانت لديه كل هذه الاهتمامات .

كان وينكس هو الذي لخص الانطباع العام برمته وصاغه في صورة شعروا جميع
نديم بيركنز . كان وينكس مدرس الفصل الثالث الأعلى ، وهو رجل ضعيف، جفون
مدلاة كانت أطول من اللازم بالنسبة لقوته وكانت حركاته بطيئة واهنة. وكان
انطباعا بأنه رجل كسول . وكان الاسم الذي أطلقوه عليه مناسب جدا . وقال وينكس :
- إنه متحمس جدا .

الحماس معناه سوء التربية . الحماس معناه عدم التهذيب . وفكروا في جيش الط
بنهيق أبواقه وقرع طبوله . الحماس معناه التغيير . إن جلودهم تقشعر عندما يفكرو
العادات الطريفة القديمة التي تقف معرضة لخطر وشيك . وكان من الصعب عليهم أن
قدما إلى المستقبل .

وقال أحدهم بعد تردد :

- إنه يبدو عجريا أكثر من أي وقت مضى .

وقال آخر بمرارة :

- ترى هل كان كبير الأساقفة ومجلس المدرسة يعرفان أنه شخص راديكالي
رشاه؟

عندما كان سايز وتار يسيران معا إلى منزل رجال الكنيسة في يوم الخطبة بعد
بأسبوع قال تار الذي كان لاذع اللسان لزميله :

- لقد شاهدنا أيام خطب جميلة هنا .. أليس كذلك . ترى هل سنرى أياما جميلة أخرى

وكان سايز يشعر بحزن أكثر من المعتاد وقال :

- لا يهمني الآن أن أتقاعد في أي وقت لو كان معاشي يكفي .



ومر عام وعندما عاد فيليب إلى المدرسة كانت الأساتذة القدامى ما زالوا جميعا
أماكنهم، ولكن كثيرا من التغيرات حدثت في المدرسة على الرغم من معارضة الأسا

شقيق القس العجوز. لماذا يتزوج ؟ لقد بلغ السابعة والخمسين من عمره ولا يمكن أن يتزوج وهو في السابعة والخمسين. وهو لا يستطيع أن يبدأ في رعاية أسرة في هذا من العمر. وهو لا يريد أن يتزوج. وإذا وقع الاختيار بين الزواج والعيش في الرواق سوف يستقيل فوراً. فكل ما يريده الآن هو السكينة والهدوء.

وقال :

- أنا لا أفكر في الزواج .

نظر إليه السيد بيركنز بعينه السوداوين اللامعين ولو كان بريقا قد لمع فيهما في المسكين لم يره .

- يا للأسف.. ألا تتزوج إرضاء لنا ؟ زواجك سوف يدعم موقفنا عندما اقترب طابقين فوق بيتك .

وكانت أكثر بدع السيد بيركنز غير المحببة ما كان يعتمد إليه من أن آخر من أستاذ آخر . وكان يطلب ذلك بوصفه جميلاً يسدى إليه ولكنه في واقع الأمر جميل رفضه، وقال تار وكذلك قال بيركنز أن هذا أمر غير لائق بكرامة الجميع ولم يكن يري بما سيفعله ولكنه كان بعد الانتهاء من صلاة الصباح يقول لأحد الأساتذة :

- ترى هل لديك مانع في أن تأخذ اليوم الفرقة السادسة في الساعة الحادية عشر دروسنا أموافق ؟

ولم يعرف الأساتذة إن كان هذا التصرف أمراً مألوفاً في المدارس الأخرى . بلا شك لم يحدث من قبل في تيركانبرى .. وكانت النتيجة عجيبة، فقد أبلغ تيرنر كان الضحية الأول-النبأ لتلاميذ فصله .. فقال إن السيد الناظر سيأخذهم في ذلك في درس اللغة اللاتينية. وتعلل بأنهم قد يحبون أن يسألوه سؤالاً أو سؤالين .. يجعلوا من أنفسهم أضحوكة أمام السيد الناظر وأضاع معهم الربع الأخير من التاريخ في تفسير قطعة للشاعر ليفي كانت دراستها مقررة في ذلك اليوم ولكنه عاد إلى فصله وتأمل الكشف الذي رصد فيه السيد بيركنز الدرجات وجد مفاجأة .. فقد دهش دهشة بالغة بعد انتهاء درس الناظر، إذ وجد أن التلميذين المتقدمين الفصل قد أجابا إجابات سيئة في حين أن غيرهما ممن لم يتفوقوا على أقرانهم نالوا النهاية العظمى ، وعندما طلب إلي الدريدج وهو أحسن تلاميذه تفسيراً لذلك الجواب في عبوس :

- إن السيد بيركنز لم يعطنا شيئاً لنشرحه على الإطلاق ، بل سألني ماذا أعرفه الجنرال جوردون .

وحمل السيد تيرنر فيه دهشة، وكان من البين أن الطلبة قد شعروا بأنهم عوملوا

رثر إلا أن يشاركهم شعورهم الصامت بانهكهم من ...
الجنرال جوردون بالشاعر ليفي و جازف بأن يستفهم عن الأمر بعد ذلك فقال للسيد
... يحاول أن يضحك:
لقد ارتبك. الدريدج بشدة لأنك سألته ماذا يعرف عن الجنرال جوردون .

ضحك السيد بيركنز وقال :

لقد لاحظت أنهم وصلوا إلى الدرس الخاص بقوانين كايوس جراثوس الخاص
بصلاح الزراعي فقلت لنفسي هل يعرفون شيئاً عن المشكلات الزراعية في أيرلندا ، وكان
ما عرفوه عن أيرلندا أن دبلن تقع على نهر ليفي .. ولذلك قلت لنفسي ترى هل سمعوا أبداً
الجنرال جوردون .

هنا تجلت الحقيقة المخيفة .. وهى أن الناظر الجديد مصاب بهوس ما يسمونه
معلومات العامة ، وأنه يشك في فائدة الامتحانات في موضوعات تحشر في أذهان
لغة حشراً . لقد كان يريد الفهم والإدراك السليم .

وازداد قلق السيد سايز شهراً بعد شهر وكره موقف الناظر من الأدب القديم ؛ فلم يستطع
يقطع من ذهنه فكرة أن السيد بيركنز سوف يطلب منه أن يحدد موعداً لزيارته وكان يكره
موقف الذي اتخذه من دراسة الكلاسيكيات ولم يكن هناك شك في أنه دارس ممتاز ويقوم
بكل يتمشى مع التقاليد الصحيحة : فقد كان يعد رسالة عن الأشجار في الأدب اللاتيني
لكنه كان يتكلم عنها بلا اهتمام وكأنها تضييع للوقت لا قيمة له مثل لعبة البلياردو التي
يلعب بها وقته ولكنه لا ينظر إليها بجدية، وكلما مرت الأيام ازداد مزاج السيد بيركنز أستاذ
فرقة الثالثة المتوسطة خدة .

وكانت فرقته هي التي التحق بها فيليب عندما دخل المدرسة . وكان الكاهن الموقر ب.
جوردون رجلاً لا يصلح بطبعه لأن يكون ناظراً لمدرسة فقد كان عديم الصبر سريع
الغضب . ولم يكن مسئولاً أمام أحد ولم يكن يواجه إلا صبية صغار ومنذ زمن طويل فقد
القدرة على السيطرة على نفسه . فقد بدأ عمله برغبة عارمة وأنهاء بانفعال شديد . كان رجلاً
بهيماً متوسط الطول شعره قصير مجعد، بدأ الآن يغزوه الشيب وله شارب صغير كث ولم يكن
هناك من هو أسوأ منه ليكون معلماً لطفل خجول مثل فيليب . كان وجهه العريض بعينه
الناقبتين الخضراوين أحمر طبيعي اللون ولكنه في نوبات غضبه الكثيرة كان لون وجهه
يحول إلى لون أرجواني غامق. وكانت أظافر أصابعه منقرضة حتى آخرها ذلك لأنه كان
عندما يقوم صبي يرتعد بتفسير نص ما كان يجلس إلى منضدته يرتعش من الغضب الذي
يلتهمه ويعض في ذلك أظافره. وكان هناك حكايات ربما كانت مبالغاً فيها عن تصرفاته
العنيفة فقيل سنتين ثارت ضجة في المدرسة عندما تردد : أن أحد أولياء أمور الطلبة هدد
بمحاكمة المدرسة فقد ضرب السيد جوردون صبياً اسمه والترز بمجلد ضخم على أذنيه مما

سر على سمعه، وكان لابد من إخراج هذا الصبي من المدرسة . والد الصبي كان يكرهه . وقد اجتاحت المدينة موجة غضب شديدة وكتبت الصحيفة المحلية الموضوع غير أن السيد والترز والد الصبي لم يكن سوى صانع جعة، ولهذا انقسم الناس بينه وبين ناظر المدرسة . وقد اتخذ بقية الصبية جانب الناظر رغم احتقارهم له لا يعرفونها هم .. وقد ساءت الأمور بالنسبة للسيد واتسون لأن الطلبة أظهروا غضبهم المسائل الداخلية للمدرسة كانت تسوى خارجها. وقد فر من المدينة وعاش بالكاد على فقير ولم يضرب صبيًا منذ ذلك الوقت. وقد سحب من المدرسين الحق الذي كان لهم في التلاميذ بالعصا علي أيديهم . ولم يعد سكويرتز يستطيع أن يعبر عن غضبه الزائد بالعلي منضدته بالعصا، بل كل ما كان يفعله هو أن يهز التلميذ من كتفيه. وكان يستطيع أن يجعل الصبي الشرير يقف مادًا ذراعًا واحدة إلى الأمام لمدة تتراوح بين دقائق وساعة، وكان عنيفا كما كان من قبل بلسانه.

عاد فيليب إلى المدرسة وهو أقل خوفا مما كان في المرة الأولى التي دخل فيها السيد واتسون وقد عرف في هذه المدرسة عددا كبيرا من الصبية الذين كانوا معه في الإعدادية. أحس أنه قد ازداد نمواً، وأدرك بغريزته أن عاهته الجسدية عيبه ستكون أقل للاهتمام بين هذا العدد الكبير من التلاميذ . ولكن السيد جوردون بعث الرعب في قلبه اليوم الأول وبدا لما كانت لديه من قدرة على معرفة الطلبة الذين يخافونه، وكأنه لفيليب كرها غريباً .

وكان فيليب قد استمتع بعمله ، ولكنه راح الآن ينظر إلى الساعات التي يقضيها في المدرسة في فزع . وكان يفضل أن يجلس صامتا في غباء ولا يجازف بإجابة قد خاطئه فيلقى عاصفة من التآنيب من المعلم . وكان يشعر بالسأم ويبيض لونه من الخوف عندما يجيء دوره في الشرح .

وكان أسعد أوقاته تلك التي يأخذ الفصل فيها السيد بيركنز لأنه كان في استطاعته يرضى ولع الناظر بالمعلومات العامة التي كان حريصا عليها .. ذلك أنه كان قد قرأ كثيرا من الكتب الغريبة التي تعلو على مستوى سنه وكثيرا ما كان السيد بيركنز عندما يلقى على الفصل يقف إذا جاء دور فيليب وابتسم ابتسامة تملأ الصبي طربا ونشوة. ويقول : - والآن أجبهم أنت يا كاري ..

وكانت الدرجات العالية التي يحصل عليها فيليب في هذه المناسبات سببا في زوال غضب السيد جوردون .

وجاء دور فيليب لكي يقوم بالترجمة .. وفي أحد الأيام جلس السيد جوردون في مقعد يحملق في غضب شديد وبدت عليه الشراسة، وشرع فيليب يتكلم في صوت خافت وصار الأستاذ جوردون :

.. لا تفمغم ..
.. استمر .. استمر .. استمر ..
كل مرة كانت الكلمات تخرج كصراخ شديد .. وكان أثر هذا أن تبخر كل ما كان فيليب من معلومات ونظر إلى الصفحة المطبوعة أمامه فبدت خالية، وبدأ السيد يتنفس في ثقل ثم قال :
أكنت لا تعرف فلماذا لا تقول ذلك ؟ أتعرف هذا أم لا تعرفه ؟ لم لا تتكلم ؟ تكلم أيها
تكلم !!

سك السيد جوردون بمسندي مقعده وشد بقبضتيه عليهما كأنه يغالب نفسه حتى
.. بهما على فيليب .

أنوا يعرفون أن السيد جوردون كان فيما مضى يمسك بالطلبة من رقابهم حتى يكادوا
.. ونفرت شرايين جبهته ، وأضحى وجهه قاتما غليه سمات الوعيد والتهديد ، لقد
الواقع رجلا مجنونا . وكان فيليب يعرف القطعة حق المعرفة في اليوم السابق ولكنه
اللمحات لم يتذكر منها شيئا .. وشهق قائلاً :

إني لا أعرفها ..

ولم لا تعرفها ؟ فلنتناول الكلمات كلمة كلمة .. وسنرى هل تعرفها أم لا ..

وقوف فيليب صامتا وقد ازداد شحوب وجهه . وهو يرتعد قليلا ورأسه منحني فوق
.. وب، وعلا تنفس المدرس حتى كاد يصبح شخيرا ..

إن الناظر يقول إنك ذكي ، ولكني لا أعلم كيف يرى ذلك .. المعلومات العامة.

وضحك في وحشية :

- أنا لا أعرف لماذا ضموك إلى هذه الفرقة .. أيها الغبي !

واغتبط لهذه الكلمة فأعادها بأعلى صوته :

- غبي .. غبي بقدم حنفاء .. غبي !

وأراحه ذلك بعض الشيء ، ورأى فيليب وقد احمر وجهه فجأة ، فأمره أن يحضر الكتاب
.. الأسود ، ووضع فيليب كتاب قيصر وخرج وهو صامت .

وكان الكتاب الأسود مجلدا قاتم اللون يتضمن أسماء التلاميذ وأخطاءهم وسلوكهم
.. السيئ وإذا ما كتب اسم تلميذ فيه ثلاث مرات كان معنى ذلك الجلد بالعصي ، وذهب فيليب
.. إلى منزل الناظر وطرق باب حجرة مكتبه .. وكان السيد بيركنز جالسا إلى مكتبه ..

فأجاب السيد بيركنز في إيماءة من رأسه مشيراً إلى موضع الكتاب :

- ها هو ذلك.. وما الذي فعلته وكان لا يجب ألا تفعله ؟

- لا أعرف يا سيدي ..

وحدث السيد بيركنز فيليب بنظرة خاطفة . وعاد إلى عمله في هدوء دون أن يجيب فيليب بعد أن حمل الكتاب معه ثم عاد به بعد دقائق من انتهاء ساعة الدرس .. وقال الناظر :

- دعني ألقى نظرة عليه .. إنني أرى أن السيد جوردون قد وضع اسمك في الكتاب .. لعمل وقح جسيم .. فما هو ؟

- لا أعرف يا سيدي .. لقد قال السيد جوردون أنني غبي ذو قدم حنفاء .

ونظر إليه السيد بيركنز ، وتساءل في عجب هل تحمل إجابة الصبي سخرية ما ، والصدمة كان بادياً عليه فقد ابيض وجهه ، وبدت في عينيه نظرة كرب ممزوجة بالهلع ونهض السيد بيركنز تاركاً الكتاب .. وبينما هو يفعل ذلك ، التقط بعض الصور وقال :

- لقد أرسل لي أحد أصدقائي صوراً من أتينا هذا الصباح .. انظر .. هذا هو الأكي وبدا يشرح لفيليب ما يراه .. وتجسست لفيليب حطام المعبد في كلماته . وأراه «ديونيسوس» وأوضح له نظام جلوس الناس في المسرح .. وكيف كانوا يرون فيما ذلك ، بحر «إيج» الأزرق . ثم أردف قائلاً على حين غفلة :

- إنني أذكر أن السيد جوردون اعتاد أن يسميني الغجري النطاط عندما كنت في فصل وقبل أن يدرك فيليب المقصود من هذه الملاحظة ، لأن ذهنه كان مركزاً في الصور أمامه ، كان السيد بيركنز يريه صورة لميناء سلاميس .. بإصبعه التي كانت بها بقعة في نهاية الظفر ، أخذ يوضح له مواضع السفن اليونانية والفارسية في الميناء .



أمضى فيليب العاميين التاليين في رتبة مريحة ، فلم يعد أحد يستبد به أكثر مما يستبد به من هم في مثل حجمه من الصبية ، وأبعدته عاهته عن الإسهام في الألعاب الرياضية وأكسبته ضالة شأن ارتاح وحمد الله عليها ولم يكن فيليب مشهوراً بين زملائه وكان وحيداً . وأمضى فترتين مع وينكس في الفصل الثالث العالي . وكان وينكس بأجفانه المظلمة وطريقته المضجرة يبدو دائماً ملولاً . كان يؤدي واجبه ولكن بذهن سارح . كان طبيب

كان يؤمن إيماناً عظيماً باحترام التلاميذ ويعتقد أن أهم شيء لجعلهم لا ندخل في أذهانهم اللحظة أنهم يمكن أن يكذبوا . وقال يقتبس من الإنجيل : «سوف تعطي الكثير» كانت الحياة سهلة في الفصل الثالث الأعلى . فالتلميذ وجه التحديد النص الذي سيشرحه عندما يأتي دوره وعن طريق قصاصات تمر من يد لأخرى يعرف التلميذ كل ما يريد في دقيقتين ؛ فيمكنك أن تضع كتاب اللاتينية مفتوحاً على ركبتيك ، بينما الأسئلة تدور من حولك ؛ ولم يلاحظ وينكس شيء غريب في أن نفس الأخطاء التي لا تصدق توجد في مختلف التمارين . ولم يكن هذا في جدوى الامتحانات لأنه لاحظ أن التلاميذ لا يجيدون الإجابة فيها كما بها في الفصل : كان هذا شيئاً مخيباً للآمال ولكن ليس له أهمية تذكر . وفي الوقت الذي ينتقل التلاميذ إلى الفصول الأعلى ولم يتعلموا إلا قليلاً من الوقاحة المرححة في الحقيقة التي يمكن أن تكون ذات فائدة لهم في الحياة بعد ذلك أكثر من القدرة على اللغة اللاتينية .

وقعوا في أيدي تار . وكان اسمه تيرنر ؛ وكان أكثر الأساتذة القدامى مرجحاً وحيوية : مصير القامة له بطن كبير منتفخ ولحية سوداء ، بدأ الآن يغزوها الشيب وبشرته داكنة . وفي زيه الكنسي كان يبدو مثل هرميل من القار (تار بالإنجليزية معناها الزفت أو بالعربية) ورغم أنه من ناحية المبدأ كان يعاقب أي تلميذ يسمع أنه يردد اسمه بطريقة سيئة بأن يعطيه خمسمائة سطر لحفظها فقد كان هو نفسه في حفلات الغداء في الضواحي يكثر نكات صغيرة عن نفسه . وكان أكثر الأساتذة خبرة بالحياة والناس وكان يتناول طعامه بالمطاعم أكثر من الأساتذة الآخرين . ولم يكن المجتمع الذي يتحرك فيه كنسياً معنًى المعروف . وكان الصبية ينظرون إليه ككلب . وكان يخلع رداءه الكنسي في الممرات وقد شوهد في سويسرا وهو يرتدي حلة مبهرجة من التويد . وكان يحب أن يتناول طعاماً طيباً مع زوجة من النيب ؛ ولما شوهد مرة في مقهى رويال في صحبة سيدة هي على الأرجح قريبة له فقد افترضت أجيال من التلاميذ أنه يحضر حفلات عريضة تفاصيلها تشير إلى إيمان مطلق بفساد الإنسانية .

وقدر السيد تيرنر أنه لابد من فترة دراسية كاملة كي تتحسن حالة التلاميذ بعد الفصل الثالث الأعلى ، ومن آن آخر كان يصدر عنه تلميحا خبيثاً يتضح منه أنه يعرف تماماً ما يجري من مفاصد في فصل زميله . وقد تقبل ذلك بروح طيبة . وكان يعتبر التلاميذ وحوشاً صغيرة ، ومن الممكن أن يكونوا أمناء صادقين إذا تأكد لهم أن الكذب مصيره أن يكتشف ، وهم لن يميلوا إلى الشغب إذا عرفوا أنه لن يعود عليهم بأي فائدة . وكان فخوراً بفصله تواقاً وهو في الخامسة والخمسين أن يؤدي التلاميذ امتحاناتهم بطريقة أفضل عن الآخرين كما حدث عندما جاء إلى المدرسة لأول مرة . كان ينتابه غضب الرجل البدين الذي يثور بسرعة ويهدأ بسرعة . وسرعان ما اكتشف تلاميذه أن هناك طيبة كامنة وراء الذم الذي كان دائماً

لقد فقد: كان يؤمن إيماناً مطلقاً بأن الألم يسمر إليّ، لأنّ كان يؤمن بأنّه

اليوم الذي تكلم مع السيد بيركنز بعطف، عندما كان يتألم بسبب تلك الصورة من سوء المعاملة التي لم يكن يتحملها على الإطلاق، فقد حمل فيليب لأستاذنا إلى الكلب بصاحبه. وقدح ذهنه بلا جدوى لكي يجد طريقاً لإرضائه واعتز بأى كلمة من الإطراء تخرج من بين شفتيه. وعندما كان يذهب إلى الاجتماعات الهادئة في منزله كان على استعداد لأن يستسلم استسلاماً كاملاً. وأبقى عينيه مثبتتين على السيد بيركنز اللامعتين وجلس وفمه نصف مفتوح ورأسه مدفوعة إلى الأمام قليلاً. فقد كانت الموضوعات التي يتناولونها مثيرة للمشاعر بشكل غير عادي. وغالباً ما موضوع الذي يتحدث فيه الأستاذ يأسره فيدفع الكتاب الذي أمامه إلى الخلف ويضم يدها أمام صدره وكأنه يريد أن يوقف نبض قلبه، ويتحدث عن أسرار دينهم. وأحياناً فيليب لا يفهم، لكنه لم يكن يريد أن يفهم، فقد شعر بشكل مبهم أنه يكفي أن يحس

قام السيد بيركنز بهذا الجزء من عمله في جد عظيم. وهنا لم يكن يتخلل الدرس شيئاً من الهزل التي جعلت الأساتذة الآخرين يتشككون في أن السيد بيركنز ثرثار ذلق. وكان يجد الوقت لكل شيء في يومه المزدحم، فاستطاع في فترات متقطعة معينة أخذ الطلبة الذين يريد أن يعدهم للشهادة نحو ربع ساعة أو عشرين دقيقة. فقد كان هم أن يدركوا أن هذه هي الخطوة الجديدة الأولى في حياتهم، وحاول أن يغوص إلى عمق يريدني أن أكرس نفسي لخدمة الكنيسة.

- وأنت ؟ ..

وتحول فيليب بعينه بعيداً فقد خجل من أن يجيب بأنه شعر أنه ليس أهلاً لذلك.

وقال السيد بيركنز:

- إني لا أعرف حياة مليئة بالسعادة كحياتنا، أود لو أستطيع أن أجعلك تشعر بما في هذه حياة من ميزات عظيمة. إن في مقدور المرء أن يخدم الله في كل سبيل يسلكه في الحياة. نحن أقرب من غيرنا إليه ولست أريد أن أؤثر فيك ولكنك إذا قررت فلن يسعك إلا أن تسبى بتلك المتعة وتلك الراحة اللتين لا تفارقان المرء بعد ذلك أبداً.

ولم يجب فيليب ولكن الناظر قرأ في عينيه أنه فهم شيئاً مما حاول أن يشير إليه:

- إذا مضيت في سبيلك التي أنت سائر فيه الآن فستجد نفسك في يوم من الأيام أول هذه المدرسة، وستكون واثقاً من الحصول على منحة دراسية عند رحيلك.. هل لديك أموال خاصة

يوجهه إليهم. لم يكن يتحمل المهرجين أو المغفلين ولكنه كان على استعداد لأن يبذل مع الصبية الذين يشك في أنهم يخفون ذكاء وراء عنادهم وكان يحب أن يدعوهم الشاي ورغم أنه كان يقسم ألا يجعلهم يرون أبداً الكعك والفطائر لأن الاعتقاد السائد كان أن بدانتة سببها شهية نهمة، وكذلك شهية الدودة الشريطية النهمة التي تقيم في فقد كانوا يقبلون دعوته مسرورين.

كان فيليب الآن أكثر ارتياحاً، ولأن المكان كان محدوداً للغاية فلم تكن هناك إلا للتلاميذ في المدرسة العليا وكان حتى ذلك الوقت يعيش في القاعة الكبرى التي جميعاً يأكلون فيها، وكان من آن لآخر يشعر بالضجر لتواجده مع الناس ويريد بسراً يكون وحده. وبدأ يقوم بمسيرات وحده في الريف. فقد كان هناك نهر صغير على باسقة وكان النهر يجري عبر حقول خضراء ولم يعرف لماذا كان يشعر بالسعادة عندما يسير على جانبي النهر. وعندما كان يتعب من السير كان يستلقي ووجهه نحو الأرض الحشائش ويراقب الأسماك الصغيرة والضفادع. وكان التجول بتؤدة في الجوار بارتياح غريب. وفي وسط النهر كان التلاميذ يتدربون على رمي الشباك في الصيف المنطقة كانت هادئة بقية السنة: وقد اعتاد الصبية أن يتجولوا في المنطقة أحياناً كل يمسك بذراع الآخر، وأحياناً يسير التلميذ المجد في تؤدة وهو ينظر أمامه ساهماً يكرر شيئاً يجب أن يحفظه عن ظهر قلب. وكانت هناك مستعمرة من طيور الغدافان تعيش أشجار الدردار الكثيرة وكانت تملأ الجو بصيحاتها الحزينة. وعلى أحد جانبي النهر ترقد الكاتدرائية ببرجها الكبير. وكان فيليب الذي لم يكن يعرف شيئاً عن الجمال بعد، عندما ينظر إليها ببهجة مقلقة لم يكن يفهمها. وعندما أصبحت لديه غرفة يستذكر فيها (كانت حجرة مربعة صغيرة يشاركه فيها أربعة تلاميذ تطل على حي فقير) صورة لمنظر الكنيسة وعلقها فوق المنضدة التي يستذكر عليها. وجد بنفسه شوقاً جديداً رآه من نافذة حجرة الفصل الرابع. فكانت تطل على مروج قديمة معتنى بها وأشجار أوراقها كثيفة وافرة. وجلب ذلك إلى قلبه شعور غريب ولم يعرف ما إذا كان سروراً أم كأن أول فجر يبرز لمشاعر الجمال. وقد صاحب ذلك تغييرات أخرى. وتحسّر صوته يعد يسيطر عليه وخرجت من حنجرتة أصوات غريبة.

ثم بدأ يحضر الدروس التي كان يعقدها ناظر المدرسة في مكتبه بعد تناول مباشرة وذلك لإعداد التلاميذ لنيل شهادتهم.

ولم تتمكن تقوى فيليب من الصمود أمام اختبارات الزمن فقد توقف منذ فترة طويلة قراءة الإنجيل بالليل؛ غير أنه الآن تحت تأثير السيد بيركنز وحالة جسمه الجديدة التي أكثر كثيراً فقد عادت إليه مشاعره القديمة ولام نفسه بمرارة على التخلي عن إيمانه. وراحت الجحيم تشتعل بعنف أمام عينيه. فلو كان قد مات في ذلك الوقت الذي كان فيه أفضل

بك ؟

فأجاب فيليب :

- إن عمى يقول إنى سأحصل على مائة جنيه كل عام بعد بلوغي الواحدة والعشرين..

- ستكون ميسور الحال .. أما أنا فلم يكن لدى شيء..

وتردد الناظر قليلا ثم أخذ يرسم بقلمه خطوطا على قطعة من ورق النشاف أمامه ومضى قائلا :

- إنى أخشى أن اختيارك لمهنتك سيكون محدودا ، فأنت لن تستطيع بطبيعة الحال أن تختار عملا يتطلب نشاطا جسديا .

واحمر فيليب حتى جذور شعر رأسه ، كعادته دائما عندما يشير أحد إلى قدمه الحنفاء.. ونظر إليه السيد بيركنز في جد ووقار وقال :

- إنى أظنك تبالغ كثيرا في حساسيتك بالنسبة لسوء حظك هذا ؟ ألم يخطر ببالك أن تشكر الله عليه ؟

ورفع فيليب إليه عينيه بسرعة ، وزم شفثيه ، وتذكر كيف وثق منذ أشهر فيما قالوا وابتهل إلى الله أن يشفيه كما شفى الأكمه والأبرص .

- ما دمت تقبل الأمر وأنت متمرّد فلن يسبب ذلك إلا الخجل ، ولكنك إذا اعتبرت أنه محزن خضك الله بها لأن كتفيك القويتين تستطيعان أن تتحملاها وأنها من دلائل محبة الله لك.. فإنها ستصبح مصدرا لسعادتك بدلا من تعاستك ..

ولاحظ الناظر أن الصبي يكره مناقشة هذا الموضوع فتركه لحال سبيله ..

ولكن فيليب فكر في كل ما قاله الناظر ، وانشغل فكره تماما بالحفل الذي ينتظره وتملكته نشوة صوفية غامضة ، وبدا كأن روحه قد تحررت من أغلال الجسد وأنه يحيا حياة سعيدة ، وراح يبتغى الكمال بكل ما أوتى من عاطفة خماسية وأراد أن يهب نفسه كلية لخدمة الله ، وقرر نهائيا أن يلتحق بخدمة الكنيسة . وعندما أتى اليوم العظيم اهتزت روحه لكل ما سبق هذا اليوم من استعداد .. بالكتب التي قرأها وأكثر من ذلك كله بالأثر الطافي الذي تركه في نفسه ناظر المدرسة حتى لم يستطع أن يكبح مشاعره التي تأرجحت بين الرهبة والجدل ولكن فكرة واحدة عذبتة فقد كان يعلم أن عليه أن يسير بمفرده حتى يصل إلى المحراب ، وأفرّعه أن ذلك لن يظهر عرجه للمدرسة كلها التي ستحضر الحفل فحسب بل سيظهره كذلك للغرباء ، من المدينة ، أو الآباء الذين جاءوا ليروا أبناءهم يكرسون . ولكنه أحس فجأة عندما حان الموعد أنه يستطيع تقبل هذه المذلة مغتبطا مسرورا . وبينما كان يعرج متجها إلى المحراب بحجمه الصغير غير ذي

قيمة تحت قبة الكنيسة الشاهقة .. أحس أنه يقدم عاهته قربانا للرب الذي يحبه !



ولكن فيليب لم يحتمل العيش طويلا في عالم التصوف والخيال . فقد حدث له الآن ما حدث له عندما استولى عليه شعوره الديني لأول مرة ذلك أنه وقد أحس بقوة جمال الإيمان والرغبة في التضحية بذاته يلتهب بها قلبه وتتألق فيه تألق الدرة الكريمة بدت قوته قاصرة عن تحقيق آماله وقد أنهكه العنف الذي اتسمت به عاطفته وبدا ينسى وجود الله الذي خيل إليه أنه اكتنفه تماما ، وامتلاّت نفسه فجأة بجذب لا مثيل له ، وأضحت واجباته الدينية التي كان يؤذيها بانتظام مجرد شكليات . وما لبث في أول الأمر أن لام نفسه لهذا التداعي من جانبه ، وحنه خوفا من نار الجحيم إلى تجديد نشاطه ولكن العاطفة ماتت وسلبت أفكاره خواطر أخرى شيئا فشيئا .

وقلما كان لفيليب أصدقاء . فقد عزلته عادة القراءة عن الصحاب ، وأصبحت تلك العادة أمرا ملحا أشعرته بالقلق والضجر بعد أن ظل في صحبة أصدقائه بعض الوقت .. وكان معجبا بنفسه للمعلومات الغزيرة التي استقاها من كثير مما قرأ من الكتب ، وكان ذهنه متيقظا ، ولم يكن لديه من الحذق ما يمكنه من إخفاء ازدرائه لغباء رفاقه ، فكانوا يتهمونهم بأنه معترّ بنفسه ، وإذا لم يكن يفوقهم إلا في أمور غير ذات قيمة بالنسبة لهم فقد راحوا ينسألون في سخرية ما الذي يدعوه إلى الخيلاء والغرور .. وأخذت روح التهكم تنمو في نفس فيليب ووجد أنه اكتسب مهارة في قول كل ما هو مرير يؤلم الناس أشد الألم ، ويقول له لأنه يسره ويسليه دون أن يدرك ما فيه من أذى ، وكان يكدره أن يجد ضحاياه ينظرون إليه في نفور شديد . ودفعه الذل الذي لاقاه في أيامه الأولى في المدرسة إلى الانقباض بعيدا عن رفاقه ، ولم يتمكن على الإطلاق من التغلب على شعوره هذا نهائيا ، فظل خجولا صامتا معجبا بنفسه للمعلومات الغزيرة التي استقاها من كثير مما قرأ من الكتب ، وكان ذهنه متيقظا . ولم يكن لديه من الحذق ما يمكنه من إخفاء ازدرائه لغباء رفاقه فكانوا يتهمونهم بأنه معترّ ، بالرغم من أنه كان يعمل جاهدا لكي يبعد عنه عطف غيره .. فإنه كان يتوق من أعماق قلبه إلى الشهرة التي يتمتع بها بعضهم في سهولة ويسر ، وكان يعجب بهؤلاء عن بعد إعجابا شديدا . ومع أنه كان يميل إلى أن يسخر منهم أكثر مما يسخر من غيرهم ويوجه النكات الخفيفة لهم ، فقد كان يسره أن يستبدل بوصفه وصفهم مهما كلفه ذلك من ثمن ، بل كان يتعنى لو استطاع أن يستبدل بمكانه مكان أغبي طالب سليم الجسم في المدرسة . واعتاد عادة خاصة به . فكان يتصور أنه يضع روحه في جسد تلميذ سليم طيب القلب ويتكلم بصوته ويضحك مثله ويتصور نفسه يفعل تماما كل ما يفعله هذا الصبي ، وكان من الواضح

أنه لم يعد هو نفسه. وبهذه الطريقة كان يستمتع بفترات كثيرة من السعادة الخيالية .

وفي بداية فترة عيد الميلاد التي أعقبت تكريسه وجد فيليب نفسه ينتقل إلى حجرة دروس أخرى . وكان أحد التلاميذ الذين يشاركون في هذه الحجرة اسمه «روز» وكان في نفس سن فيليب ودائما ما كان فيليب ينظر إليه بإعجاب مشوب بالحسد . لم يكن الصبي جميل المظهر ولكن يديه الكبيرتين وعظامه العريضة توحى بأنه سيصبح رجلا طويل القامة . كانت هيبتة تعوزها الرقة ولكن كانت له عيناان جذابتان وعندما كان يضحك (كان دائما يضحك) وجهه يتجعد حول عينيه . ولم يكن ذكيا ولا غبيا ولكنه كان جيدا بما فيه الكفاية في الرياضيات وأكثر من جيد في المباريات الرياضية . كان محبوبا من الأساتذة والتلاميذ وبدوره يحب الجميع .

وعندما وضع فيليب في حجرة الدرس الجديدة لا حظ رغما عنه أن التلاميذ الآخرين أمضوا معا ثلاث فترات دراسية رحبوا به في فتور . وكان شعوره بأنه دخيل يجعله غافلا ولكنه تعلم أن يخفي مشاعره ووجد التلاميذ أنه هادئ ولا يتدخل في شيء أما مع روز كان خجولا وحادا أكثر من المعتاد . وفي يوم من الأيام ، وفجأة تماما ، سأل فيليب إذا يريد أن يسير معه حتي ملعب كرة القدم ، فاحمر وجه فيليب وقال :

- لا أستطيع أن أسير بسرعة كافية لك .

-كلام فارغ .. هيا بنا .

وقبل أن يبدؤا سيرهم وضع تلميذ رأسه أمام فتحة باب حجرة الدرس وطلب من روز يذهب .

-لا أستطيع أن أذهب معك فلقد وعدت الآن كاري أن نذهب معا .

وقال فيليب بسرعة :

- لا تهتم بي .. فلن أتضايق أبدا

- كلام فارغ .

ونظر روز إلى فيليب بعينيه الطيبتين وضحك وأحس فيليب برجفة غريبة في قلبه وفي فترة قصيرة نمت صداقتهما بسرعة صبيانية ، ولم يعد الاثنان ينفصلان عن بعضهما . وتعجب التلاميذ الآخرون لهذه الصداقة الحميمة المفاجئة وكانوا يسألون روز ما الذي في فيليب . فكان يرد قائلا :

- لا أعرف .. إنه حقا ليس فتي سيئا .

وسرعان ما اعتاد التلاميذ على رؤية الاثنين يذهبان إلى الكنيسة الصغيرة يتحدثان في سريته . وشك كل منهما ذراعه في ذراع الآخر . وإذا وجد أحدهما في مكان ما لا بد أن يوجد الآخر .

ومن باب الاعتراف بالملكية كان الصبية عندما يريدون روز يتركون رسالة مع كاري وكان فيليب في البداية متحفظا . ولم يكن يدع نفسه يستسلم كلية للابتهاج الذي شعر به وفي تلك اللحظات فإن ارتياحه في الأقدار استسلم لسعادة غامرة . كان يرى أن روز هو أروع زميل رآه في حياته . وقد أصبحت الآن كتبه شيئا تافها فلم يكن يأبه لها عندما يكون هناك شيئا أكثر أهمية يشغله . وقد اعتاد أصدقاء روز أن يتناولوا الشاي في حجرة الدراسة أو يجلسون بلا هدف عندما لا يكون لديهم شيء آخر يفعلوه - كان روز يحب زمرة أصدقائه وما يوفره ذلك من فرصة للمزاح - ووجدوا أن فيليب كان زميلا مهنيا . وكان فيليب سعيدا .

وعندما حل آخر يوم في الفترة الدراسية اتفق فيليب وروز علي القطار الذي سيعودان عليه حتى يمكنهما أن يتقابلا في المحطة ويتناولوا الشاي في المدينة قبل العودة إلى المدرسة . وعاد فيليب إلى منزله مثقل القلب . وكان يفكر في صديقه روز طيلة الإجازة وكان يتخيل كل شيء سيحدث في القيام به في الفترة الدراسية التالية . وشعر بالملل في بيت القس ، وعندما سأله عمه في آخر يوم من الإجازة السؤال المعتاد بالطريقة المصطنعة المألوفة :

- هل أنت سعيد بالعودة إلى المدرسة ؟

رد فيليب بمرح :

- إلى حد ما .

ولكي يضمن مقابلة روز في المحطة استقل قطارا مبكرا عن العادة . فسار وانتظر علي رصيف المحطة ساعة . وعندما وصل القطار إلى «فافرشام» التي كان يعلم أن روز سيغير قطاره عندها . جرى علي طول المحطة في نشاط . غير أن روز لم يكن في القطار . وسأل فراش في المحطة متى يصل القطار التالي وراح ينتظر غير أن أماله خابت مرة أخرى وانتظر ... غير أن أماله خابت مرة أخرى : كان يشعر بالبرد وقد عضه الجوع ، فراح يسير في شوارع جانبية في حي فقيرة متجها إلى المدرسة من طريق مختصر . وجد روز في الفصل وقد وضع قدميه علي رف المدفأة يتحدث باهتمام إلى نصف دسنة من الصبية كانوا يجلسون على أي شيء يمكن الجلوس عليه . وصافح فيليب بحماس غير أن وجه فيليب عبس لأنه أدرك أن روز نسي أن يأتي عن مواعدهما . وقال روز :

- لماذا تأخرت كثيرا هكذا ؟ لقد اعتقدت أنك لن تجيء أبدا .

وقال صبي آخر :

- لقد كنت في المحطة في الساعة الرابعة والنصف لقد رأيتك هناك .

واحمر وجه فيليب قليلا فلم يكن يريد أن يعرف روز أنه كان من الحماسة بحيث راح ينتظره .

واخترع حكاية ينقذ بها موقفه فقال :

-كنت أودع إحدى أقارب العائلة فقد طلب مني ذلك .

غير أن خيبة أمله جعلته عابسا بعض الشيء . فجلس في صمت وعندما كان أحد يكلمه كان يرد بكلمات مقتضبة . كان يفكر أن ينهي الأمر مع روز عندما يلتقيان بمفردهما . ولكن عندما غادر الآخرون الفصل نهض روز وجلس علي ذراع المقعد الذي يجلس عليه فيليب وقال :

- أنا سعيد جدا لأننا في نفس الفصل هذه الفترة ، شيء رائع أليس كذلك ؟

كان روز يبدو سعيدا حقاً لرؤية فيليب ولذلك زال الضيق الذي كان يشعر به فيليب . وبدلاً من يتحدثان وكأنهما لم يفترقا سوى دقائق عن آلاف الأشياء التي تغير اهتمامهما .



في مبدأ الأمر كان فيليب شاكراً جداً لصداقة روز، ولذلك لم يكن يغامر بطلب أي شيء منذ قبل الأمور كما تجيء واستمتع بحياته . غير أنه بدأ يتضايق من لطف روز الذي ينشره على نطاق عالمي . كان يريد صلة أكثر خصوصية ، وطالب بحق كان من قبل يعتبره خدمة . ورائه يراقب بغيرة رفيقة روز مع الآخرين ، ورغم أنه كان يعرف أن ذلك ليس معقولاً فلم يكن يستطيع أحياناً أن يمنع نفسه من توجيه كلام مرير إليه . فإذا قضي روز ساعة يلعب في فصل آخر فإن فيليب يستقبله عندما يعود إلى فصلهما بوجه مقطب الجبين . وقد يظل عابساً يوماً بأكمله وكان يعاني أكثر لأن روز إما لم يلاحظ عبوسه أو تعمد تجاهله .

لم يكن نادراً أن يصطنع فيليب شجاراً مع روز فينقطع الحديث بينهما عدة أيام ، ولكن فيليب لم يكن يحتمل أن يظل غاضباً معه لمدة طويلة وكان يعتذر لروز حتي لو اقتنع أنه هو الذي كان علي حق . ثم يستمر أسبوعاً كأعظم أصدقاء . غير أن الأحوال الجيدة سرعان ما تنتهي وسرعان ما وجد فيليب أن روز يسير معه بحكم العادة القديمة أو خشية أن يغضبه فلم يعد بينهما مواضيع يتحدثون عنها وكان روز كثيراً ما يشعر بالملل . وأحس فيليب أن عاقبته بدأت تثير غضبه .

وقرب نهاية الفترة الدراسية أصيب صبيان أو ثلاثة بالحمى القرمزية، وبدأ الحديث يتردد كثيراً عن احتمال إبعادهم عن المدرسة ونقلهم إلى منازلهم حتي لا ينتشر المرض في صورة وباء . غير أنه تم عزل المرضى . ولما لم يصب آخرون فقد افترض أن المرض لن ينتشر وكان فيليب واحداً من الذين أصيبوا بالحمى القرمزية . وظل في المستشفى طوال إجازة عيد الفصح وعاد في بداية الفترة الصيفية إلى منزل القس ليتنفس قليلاً من الهواء الطلق . وعلى الرغم من التأكيدات الطبية أن حالة فيليب لم تعد معدية فقد استقبله القس في ريبة : ورأى

أنه من التهور من الطبيب أن يقول أن فترة نقاهة ابن أخيه يجب أن تكون في جوار البحر ولم يوافق على أن يعود فيليب إلى منزله إلا لأنه ليس لديه مكان آخر يمكن أن يأوي إليه .

عاد فيليب إلى المدرسة في منتصف الفترة الدراسية . وقد نسي مشاجراته مع روز ولكنه تذكر فقط أن روز هو أحسن أصدقائه . وأدرك أنه كان سخيلاً وقرر أن يكون أكثر حكمة وتعقل . فأتى مرضه بعث إليه روز برسالتين قصيرتين كل منهما يقول فيها بين ما يقول «أسرع وعد إلينا» واعتقد فيليب أن روز ينظر قدماً بشغف إلى عودته كما كان فيليب يشاقق لرؤية روز . ووجد أنه بسبب وفاة أحد التلاميذ بالحمى القرمزية حدث تغير في ترتيب التلاميذ في الفصول ولم يعد روز في نفس فصل فيليب . وكانت تلك خيبة أمل مريرة . وعندما وصل إلى المدرسة اندفع إلى فصل روز . كان روز جالساً إلى منضدته يستذكر مع صبي اسمه هانتر واستدار بغضب عندما دخل فيليب وصاح قائلاً :

- يا للشيطان .. من هذا ؟ ... آه إنه أنت .

وتوقف فيليب محرجاً وقال :

- فكرت أن أجيء لأرى كيف حالك .

- إننا نذاكر فقط .

وتدخل هانتر في الحديث قائلاً :

- متى عدت ؟

- منذ خمس دقائق .

وجلسا وراحا ينظران إليه كأنه يزعهما . وكان من الواضح أنهما يتوقعان منه أن يتركهما بسرعة . احمر وجه فيليب وقال لروز :

- سوف أرحل الآن . يمكنك أن تتصل بي عندما تنتهيا من عملكما .

- وهو كذلك .

أغلق فيليب الباب خلفه وسار يعرج حتى وصل إلى فصله . وشعر بأنه جرح بشكل مخيف . ولم يبد روز سعيداً لرؤيته بل كان يبدو عليه الضيق . لعلهما لم يكونا أكثر من معارف . ورغم أنه انتظر في فصله لم يغادره لحظة عسي أن يحضر روز فإن صاحبه لم يظهر أبداً : وفي صباح اليوم التالي عندما ذهب لأداء الصلاة رأى روز وهانتر يسيران كل في ذراع الآخر .

ولم يستطع أن يراه بنفسه قاله له الآخرون . فقد نسي أن ثلاثة أشهر زمن طويل في حياة تلميذ ورغم أنه أمضاهم في وحدة فإن روز قد عاش حياته بالكامل . وقد احتل هانتر المكان الشاغر . ووجد فيليب أن روز يتجنبه في هدوء . غير أنه لم يكن صبياً يتقبل موقفاً ما دون أن يتكلم بشأنه : فانتظر حتي تأكد أن روز وحده في فصله ودخل وسأل قائلاً :

-هل يمكن أن ادخل؟

نظر إليه روز بحرج وقال :

- نعم إذا أردت .

وقال فيليب بلهجة ساخرة :

- هذا كرم منك فعلا .

- ماذا تريد ؟

- أريد أن أقول لماذا كنت سخيفا بعد أن عدت ؟

- لا تكن أحمق .

- لا أعرف ماذا ترى في هانتز ؟

- هذا أمر خاص بي .

وجه فيليب نظره إلى الأرض . لم يستطع أن يجعل نفسه يقول ما كان يدور في خلدِه
كان يخشى أن يهين نفسه . وقال روز :

- علي أن أذهب إلى صالة الرياضة .

وعندما وصل إلى الباب أرغم فيليب نفسه أن يقول :

-أريد أن أقول لك يا روز .. لا تكن وحشا كاسرا .

- اذهب إلى الجحيم .

أغلق روز الباب بعنف وراءه وترك فيليب وحيدا . وانتفض فيليب من شدة الغضب . وذهب
إلى فصله وأدار الحوار في ذهنه . لقدكره روز الآن . وكان يريد أن يؤلمه وفكر في أشياء لاذعة
كان يمكن أن يقولها له . وأطال التفكير في نهاية صداقتهما وتخيل أن ثمة آخرين يتكلمون
عنها . وتخيل أنهم يقولون على أي حال فلم يكن من المحتمل أن تستمر طويلا . أنه لم يتمسك
بكارى إطلاقا .

ولكي يبين عدم مبالاته أقام صداقة مع تلميذ اسمه «شارب» كان يكرهه ويحتقره
كان هذا الصبي من لندن ، ذا شعر سميك ، بدأت بوادر شعر تظهر فوق شفته وكان حاجبا
كثيفان متصلان فوق أنفه . وكانت يداه ناعمتين وكانت أخلاقه سامية بالنسبة لسنة
وتكلم بمسحة من لهجة لندن وكان من أولئك الصبية بطيئي الحركة الذين يصعب عليهم
ممارسة الرياضة وكان يخترع أعذارا عبقرية لتجنب المباريات الرياضية التي كانت
إجبارية في المدرسة . وكان التلاميذ والأساتذة ينظرون إليه بنوع من الكراهية الغامضة
وكان من باب الغطرسة أن سعي فيليب إلى صداقته . وكان شارب بعزم الذهاب إلى

مانيا لمدة عام بعد انتهاء فترتين دراسيتين . وكان يكره المدرسة التي ينظر إليها على
أنها إهانة عليه أن يتحملها حتي يكبر سنا وينطلق إلى العالم . وكانت لندن هي كل ما
يهمه ، وكانت لديه حكايات كثيرة عما فعله هناك أثناء الإجازة - ومن حكاياته التي كان
يحكيها بصوت رقيق عميق - خرجت الشائعة الغامضة عن شوارع لندن بالليل وكان
فيليب يستمع إلى تلك الحكايات مسحورا مشمئزا . وبخياله الجامح كان يرى الناس تتجمع
حول أبواب المسارح الرخيصة ، وكأن يرى الأضواء تنبعث من المطاعم ، والحانات حيث
يجلس الرجال نصف مخمورين علي كراسي يتحدثون إلى الساقيات ، وتحت أعمدة الأنوار
في الشوارع .

يمر كل من يبغي المسرات تحت ضوء خافت . وقد أعاره شارب روايات رخيصة من شارع
«هوليويل» قرأها فيليب في حجرة نومه بنوع من الخوف الرائع .

وحاول روز مرة أن يصلح الأمور . فقد كان فتى طيب لا يحب أن يكون له أعداء .

- أقول يا كاري .. لم تتصرف كشخص عنيد ؟ فلن يفيدك بأي شيء أن تقاطعني وما
إلى ذلك .

فرد فيليب قائلا :

- لا أعرف ماذا تعني .

- أنا لا أفهم لماذا لا نتبادل الكلام مع بعض .

- أنت تضجرتني .

- أنت حر .

وهز روز كتفيه وترك فيليب . ابيض فيليب كما يحدث له دائما عندما يستثار . وراح قلبه
يدق بعنف . وعندما تركه روز شعر فجأة بأنه بائس حقا . كان مستعدا أن يضحي بأي شيء
كي يظل صديقا لروز . وكره أنه تشاجر معه والآن وقد رأي أنه آلمه فقد أسفا شديدا .

ولكنه في هذه اللحظة لم يكن سيد نفسه فقد استولى عليه شيطان ما أرغمه على أن يقول
أشياء مريرة رغما عنه ولو أنه في وقت ما كان يريد أن يصفح روز ويلتقيان في منتصف
الطريق . وكانت الرغبة في أن يجرح قوية جدا لديه . لقد أراد أن ينتقم لنفسه من الآلام
والمهانة التي تحملها . كانت المسألة هي عزة النفس والحماسة أيضا لأنه كان يعرف أن روز
لن يأبه لشيء بينما هو سيعاني بمرارة . وواتته فكرة أن يذهب إلى روز ويقول له : دعنا
نتصالح . ولكنه كان يعرف أنه لن يستطيع أن يفعل ذلك أبدا . كان يخشى أن يسخر روز منه
. كان غاضبا من نفسه . وعندما جاء شارب بعد ذلك بفترة قليلة انتهز أول فرصة ليتشاجر
معه . وكانت لدى فيليب حاسة شيطانية يستطيع بها أن يعرف نقاط الضعف في الآخرين .
وكان يستطيع أن يقول أشياء تؤثر في النفس لأنها حقيقية . ولكن شارب كانت له الكلمة

يفكر فيما يريد أن يقول ، ثم قال فجأة :

- ماذا بك يا كاري؟

واحمر وجه فيليب ونظر إليه بسرعة ، ولكنه كان يعرفه جيدا حينئذ ، فانتظره كي يواصل حديثه دون أن يرد هو على سؤاله :

- إنني لست راضيا عنك في الفترة الأخيرة ، لقد أصبحت متراخيا متوانيا ويبدو أنك لا تهتم بعملك .. ولذلك أصبح رديئا طابعه الإهمال .

فقال فيليب :

- إنني لجد آسف يا سيدي ..

- أهذا كل ما تقوله دفاعا عن نفسك ؟

وأرعى فيليب عينيه وهو عابس .. وكيف يجيبه بأنه سنم كل شيء حتي الموت ..

- أنت تعلم أنك ستأخر في هذه الفترة بدلا من أن تتقدم .. ولن أكتب عنك تقريرا جيدا جدا ..

وتعجب فيليب ماذا سيقول لو علم كيف قوبل هذا التقرير .. لقد وصل التقرير وهم على مائدة الإفطار ، وألقت السيدة كاري عليه نظرة في غير اكتراث ، ثم ناولته لفيليب وقال وهو يجري بأصابعه على غلاف قائمة للكتب المستعملة :

- ها هو ذا تقرير المدرسة عنك ، من الخير أن ترى ما جاء به .

وقرأ فيليب التقرير ، وسألته العمة لويزا :

- هل التقرير جيد ؟

فأجابها فيليب مبتسما وهو يناولها إياه :

- ليس جيدا بالدرجة التي استحقها .

وردت العمة لويزا قائلة :

- سأقرأه فيما بعد عندما أحضر نظارتي ..

ولكن ماري آن دخلت بعد الإفطار لتنبئهم بقدوم القصاب ونسيت العمة لويزا كل شيء تقريبا عن التقرير . ومضى السيد بيركنز يقول :

- إنني مستاء منك يا فيليب ولا أستطيع أن أفهم شيئا . إنني أعلم أنك تستطيع أن تفعل أي شيء إذا أردت . ولكن يبدو أنك لم تعد ترغب في ذلك ولقد كنت أعترم أن أجعلك رئيسا للفصل في الفترة القادمة ، ولكني أعتقد أن من الخير أن أنتظر قليلا .

الأخيرة . إذ قال :

- لقد سمعت الآن روز يتحدث عنك مع ميلور . وقال ميلور لروز «لماذا لم تركله ؟ فس يعلمه ذلك بعض الأخلاق . وقال روز» لم أحب أن أفعل ذلك . هذا الأعرج الملعون .

أصبح فيليب فجأة قرمزي اللون . فلم يستطع أن يرد إذ كان هناك حجر في حنجرتة تقريبا أن يخنقه .



ونقل فيليب إلى الفرقة السادسة ، ولكنه أصبح في ذلك الوقت يمقت المدرسة وقتئذ صميم فؤاده ، ولما كان قد فقد طموحه فإنه لم يعبأ بشيء سواء أبلى بلاء حسنا أم سيئا فكان يستيقظ في الصباح بقلب واهن ، لأن عليه أن يمضي يوما آخر من الكد المتواصل وعافته نفسه أن يفعل ما يؤمر بفعله وأضنته القيود لا لأنها كانت قيودا غير معقولة لمجرد أنها قيود . وتاق إلى الحرية ، ومل تكرار الأشياء التي كان فهمها منذ البداية من أن فتى غبي القريحة .

لقد كان في وسعك إن كنت من تلاميذ السيد بيركنز أن تعمل أو لا تعمل كما تشاء . وكما حريصا على الدرس شارد الفكر في وقت واحد ، وكان فصل الفرقة السادسة في جزء من القديم الذي أعيد بناؤه ، به نافذة على الطراز القوطي .. وحاول فيليب أن يخادع شعوره بالملل بأن يرسم هذا البناء المرة بعد المرة ، وكان في بعض الأحيان يرسم من الذاكرة بيده الكنيسة المرتفع أو الباب المؤدى إلى الأرض المجاورة ، ذلك أنه كان يهوى الرسم ، وكانت العمة لويزا في شبابها ترسم بالألوان الماء .. وكان لديها عدد كبير من الكراسات مملوءة بصور الكنائس والقناطر القديمة والأكواخ الجميلة . وكانت هذه الصور تعرض في حفلات الشبان التي يقيمها القس ، وقد أهدت فيليب مرة صندوقا من الألوان في عيد الميلاد ، وبدأ فيليب بتقليد الصور التي رسمتها هي ونقلها خيرا مما كان متوقعا منه وما لبث أن رسم صورة صغيرة من عنده وشجعتة على ذلك السيدة «كاري» فقد كان ذلك طريقا سويا لإبعاده عن الفساد ، ثم أن رسومه ستكون فيما بعد ذات فائدة في الأسواق ، وقد وضعت اثنتان منها ثلاث في إطارات وعلقت على الحائط في حجرة نومه .

ولكن السيد بيركنز أوقفه في أحد الأيام وهو يتلصق خارجا من فصله بعد انتهاء دروس الصباح :

- أريد أن أتحدث معك يا كاري!

ووقف فيليب وأخذ السيد بيركنز يعبث في لحيته بأصابعه النحيلة وينظر إلى فيليب كأ

واحمر وجه فيليب خجلا ، ولم يعجبه تفضي الناظر عنه ، فزَم شفتيه وقال :

- وهناك شئ آخر ، إن عليك من الآن أن تفكر في منحتك الدراسية .. فلن تنال شيئا إذا لم تبدأ دراستك بغاية الجد .

وتضايق فيليب من هذه المحاضرة ، فقد غضب من الناظر وغضب من نفسه .. وقال :

- لا أعتقد أني سأذهب إلى اكسفورد ..

- ولم لا ؟ لقد كنت أعتقد أنك تفكر في الانخراط في سلك رجال الدين .

- لقد غيرت رأيي ..

- ولماذا ؟

ولم يجب فيليب ، ووقف السيد بيركنز رافعا قامته بطريقته المعهودة الشاذة ، باديا كأحد الأشخاص في صور «بيرجينيو» وراح يعيث بلحيته بأصابع يده النحيلة وهو مفكر ساهم وأخذ ينظر إلى فيليب وكأنه يحاول أن يفهم .. ثم ذكر له فجأة أنه يستطيع أن يمضي لحاله .

وكان من الواضح أن السيد بيركنز لم يكن راضيا عنه فقد حدث في إحدى الأمسيات بعد ذلك بأسبوع أن اضطر فيليب إلى دخول المكتبة حاملا بعض الأوراق فعاد الناظر إلى حديثه ولكنه انتهج هذه المرة طريقة أخرى فلم يخاطبه كما يخاطب الناظر تلميذا بل خاطبه كما يخاطب إنسان إنسانا آخر .. ولم يبد عليه خيئذ أنه كان مهتما بأعمال فيليب ، سواء كانت رديئة أو جيدة ، وإن فرصته ضعيفة أمام منافسيه الأقوياء للحصول على المنحة الدراسية ليكون أهلا للذهاب إلى اكسفورد .. بل كان أهم شئ هو تغيير نية فيليب بشأن حياته المستقبلية . وأخذ السيد بيركنز يعمل لكي يعيد إلى فيليب شوقه إلى الدخول في خدمة الكنيسة ، فأخذ يتلاعب بمشاعره في مهارة فائقة ، وقد يسر له ذلك أنه هو ذاته كان متأثرا بالموقف تأثرا حقيقيا . لقد كان تغيير فيليب لرأيه سببا في شعوره بضيق مرير ، واعتقد حقا أنه يتخلى عن فرصته للسعادة في الحياة في سبيل شئ لم يعرف ما هو . وكان صوت الناظر مقنعا للغاية . وكان فيليب سريع التأثر بعواطف غيره من الناس فقد كان هو نفسه عاطفيا بطبعه بالرغم من هدوئه الظاهر.. فقلما كان وجهه ينم عما يشعر به ، إلا إذا كان ذلك بحمرة تلو وجنتيه وكان بعض السبب في هذا راجعا إلى فطرته وبعضه إلى ما تعودته طوال السنين التي قضاها في المدرسة ، ومن أجل هذا تأثر أشد التأثر بما قاله الناظر وشكر له ما أظهره من اهتمام به .. وقد أنبه ضميره لما سببه له سلوكه من حزن ، وكان في ذلك شئ من الإطراء لفيليب إذ اختصه الناظر باهتمامه رغم ما عليه من عبء التفكير في المدرسة جميعها ، ولكن فيليب أحس في نفس الوقت كأن هناك شخصا آخر يقف عند مرفقه وقد تعلق في يأس بكلمتين :

لن أفعل .. لن أفعل .. لن أفعل .

وشعر كأنه ينحدر في هاوية ، فقد كان مسلوب القوة إزاء الضعف الذي خيل إليه أنه ينبثق من قرارة نفسه وكأنه كالماء الذي يرتقى في زجاجة فارغة فوق حوض ممتلئ به . وعض على نواجذه وهو يعيد هذه الكلمات :

- لن أفعل .. لن أفعل ..

وأخيرا وضع السيد بيركنز يده على كتفه وقال :

- إني لا أريد أن أؤثر فيك ، بل يجب أن تقرر كل شئ بنفسك ، فادع الله أن يساعدك ويهديك .

كان هناك رذاذ خفيف يتساقط عندما خرج فيليب من بيت الناظر فصار إلى المنطقة التي تؤدي إلى جوار المدرسة . ولم يكن فيها إنسان قط .. وكانت الغريان ساكنة فوق الأشجار ، وسار حول المنطقة في ببطء وشعر بالحرارة ومن أجل هذا أراحه تساقط المطر وفكر في كل ما قاله السيد بيركنز في هدوء بعد أن تخلص من سطوة الناظر ، وحمد الله انه لم يستسلم له

وكان الظلام يحول بينه وبين رؤية الكنيسة الضخمة الواضحة ، وشعر في هذه اللحظة بكره نحوها لما سببته له الصلوات الطويلة- التي كان يدفع دفعا لحضورها - من ملل وإرهاق ، فالتراتيل لم تكن تنتهي أبدا وكان لا بد لك أن تقف بجمود أثناء إنشادها ، ولم تكن تستطيع سماع العظة التي تشبه الأنين وكان جسمك يتململ لأن عليك أن تجلس ساكنا في الوقت الذي تريد فيه أن تتحرك . وفكر فيليب في الصلاتين اللتين كانا يؤديهما يوم الأحد في بلاكستابل . فقد كانت الكنيسة عارية باردة تغشاها رائحة الملابس المنشأة المعطرة ، وكان أسقف الكنيسة وعمه يتبادلان إلقاء الوعظ . ولما كبر فيليب بدأ يعرف عمه حق المعرفة . وكان صريحا لا يتسامح ، ولا يستطيع أن يفهم كيف يمكن لرجل أن يقول أشياء في إخلاص بوصفه قسا ولا يفعلها على الإطلاق بوصفه رجلا . وأغضبه هذا الخداع لقد كان عمه رجلا ضعيفا أنانيا ، وكان همه الأول أن يبتعد عن المتاعب . وحدثه السيد بيركنز عن جمال الحياة التي يقضيها الإنسان في خدمة الله . وعرف فيليب أي نوع من الحياة كان يحياها القساوسة في هذا الركن من شرق «انجيليا» التي كانت مسقط رأسه وكان من هؤلاء أسقف «وايتستون» وهي كنيسة تبتعد قليلا عن بلاكستابل .

وكان عزبا ، اتخذ الزراعة له هواية يسلي بها نفسه وكتبت صحيفة المقاطعة باستمرار عن قضاياها في محكمة المقاطعة ضد هذا وذاك . وعن عمال لا يدفع لهم أجورهم ، وتجار اتهمهم بغشه وخداعه ، وترددت الفضائح تقول انه يميئ أبقاره جوعا ، وتردد كثير من الحديث عن ضرورة محاكمته ومنهم أسقف «فيرن» وهو رجل ملتخ وسيم اضطرت زوجته إلى

«سيرل» وهى قرية صغيرة على شاطئ البحر وكان يري دائما في المساء جالسا في الحانة على مرمى حجر من بيته ، وذهب سدنة الكنيسة إلى السيد كارى ليسأله النصح . ولم يكن واحد منهم يجد من يتحدث إليه سوى صغار المزارعين أو الصيادين ، وكانت أمسيات شتائهم طويلة تهب فيها الرياح فتصفى في كآبة خلال الأشجار التي تساقطت أوراقها ، ولم يكونوا يرون من حولهم إلا حقول محروثة تمتد في منظر رتيب ممل . وكان من حولهم الفقراء إلى جانب ذلك عدم وجود أي عمل ، وكان هذا وذاك جدير باهتمامهم ، فكانوا يطلقون السراح لكل عقدة في نفوسهم ولم يكن هناك ما يوقفهم عند حدهم .. ومن أجل ذلك أصبحوا شوائن ضيقي الأفق . وعرف فيليب كل ذلك ولكنه في شبابه الذي ليس فيه تسامح لم يكن يسمع لهم بالأعذار والمبررات، وكان يرتعد فرقا إذا راودته فكرة العيش مثلهم .. بل كان يريد أن يخرج إلى العالم .



وما لبث السير بيركنز أن أدرك أن كلماته لم يكن لها أي أثر في فيليب ، فتجاهله بعد ذلك فيما بقى من زمن حتى انتهاء الفترة ، وكتب التقرير عنه وكان سيئا للغاية . وعندما وصل التقرير سألت العمة لويزا فيليب عنه فقال في ابتهاج :

إنه تقرير عفن!

فقال القس :

أحق هذا ؟ يجب أن أراه إذن مرة أخرى ..

فقال فيليب :

هل تعتقد أن في بقائي في تيركانبري أي فائدة ؟ إنى أرى أنه كان من الأفضل أن أذهب إلى ألمانيا بعض الوقت .

فقالت العمة لويزا :

ما الذي أدخل هذه الفكرة في رأسك ؟

ألا تعتقدين إنها فكرة جميلة إلى حد ما ؟

ولكنك عندئذ لن تحصل على منحة دراسية ؟

كان شارب قد ترك مدرسة كينجز وكتب إليه من «هانوفر» . كان فعلا قد بدأ حياته وقد جعل فيليب ذلك أكثر قلقا عندما يفكر في هذا الموضوع . وشعر أنه لن يحتمل سنة أخرى

من القيود .

لم تعد لدى فرصة للحصول على منحة دراسية على أية حال .. وإلى جانب هذا فإني لأعرف هل أنا شديد الرغبة في الذهاب إلى أكسفورد .

وهنا صاحت العمة لويزا في فزع :

ولكن إذا كنت تريد العمل في الكنيسة يا فيليب ؟

لقد أقلت عن هذه الفكرة من زمن طويل مضي .

ونظرت إليه السيدة كارى بعيون ملوها الدهشة . ثم كبحت جماح نفسها كعادتها دائما ، وصبت قدحا آخر من الشاي لعمه . وكف الجميع عن الكلام ، وبعد هنيهة رأى فيليب الدموع تتساقط ببطء من عينيها وانقبض قلبه فجأة لأنه سبب لها هذا الألم ، وبدت السيدة كارى حينئذ في ردائها الأسود الضيق الذي حاكته لدي حائك الثياب في أول الشارع ووجهها المجعد وعينيها الشاحبتين المتعبتين ، وشعرها الذي تصر على أن تصففه كما كانت تفعل في شبابها ، إنسانا يبعث على السخرية ولكنه مثير للعطف . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها فيليب ذلك .

وبعد أن أغلق القس والكاهن المكتب عليهما ، أحاط فيليب خصرها بذراعيه وقال :

- إني أسف لأنك تضايقت يا زوج عمى .. ولكن ليس من المستحب أن ألتحق بخدمة الكنيسة إذا لم يكن لدي نداء داخلي بذلك .. أليس كذلك ؟

فقالت في أنين :

- إني مستاءة للغاية يا فيليب ، لقد وضعت كل أملى في ذلك وكنت أعتقد أنك ستصبح نائبا لعمك ، وعندما تحين ساعتنا ، فنحن لن نعيش إلى الأبد على أية حال .. أليس كذلك .. فإنك ستحل محله .

وارتعد فيليب فقد استولى عليه الفزع ، وانتفض قلبه كأنه عصفور يضرب بجناحيه بعد أن وقع في الفخ .. وبكت زوجة عمه في هدوء ورأسها على كتفه فقال فيليب :

- أود لو تقنعين عمى وليام حتى يدعني أغادر تيركانبري .. فلقد سئمتها إلى أقصى حد . ولكن قس بلاكستابل لم يكن يغير بسهولة أية ترتيبات وضعها . وكان الذي اعتزم دائما أن يظل فيليب في مدرسة كينجز حتى يبلغ الثامنة عشرة . ثم يلتحق بعدئذ بأكسفورد .. ومهما كان الأمر فإن القس لن يقبل بأن يغادر فيليب تيركانبري ، وحينئذ لأنه لم يخطر المدرسة بذلك ولا بد إذن من دفع مصاريف تلك الفترة مهما كانت الأحوال .

وقال فيليب بعد حديث طويل مرير :

- إذن فستبلغهم بأني سأرحل في عيد الميلاد ؟

.. سأكتب إلى السيد بيركنز عن ذلك الأمر وأرى ماذا يقول فيه .

- آه .. ليتني كنت في الحادية والعشرين من عمري ، فإن من أقطع الأشياء أن يكون المرء تحت رحمة غيره ..

- وقالت السيدة كاري في لطف :

- فيليب .. لا يليق أن تتحدث إلى عمك بهذه الطريقة .

- ولكن .. ألا تريد أن بيركنز سيريدني أن أبقى في تيركانبري .. لأنه يتقاضى مبلغا معين عن كل شاب في المدرسة .

- ولم لا تريد الذهاب إلى أكسفورد ؟

- وما الفائدة إذا كنت لن ألتحق بالكنيسة ؟

وقال القس :

- إنك لن تلتحق بالكنيسة .. لأنك في الكنيسة بالفعل .

وأجاب فيليب وقد نفذ صبره :

لقد كُرس إذن ؟

وسألته السيدة كاري :

- ماذا تريد أن تصبح يا فيليب ؟

لا أعلم فلم أقرر شيئا في هذا الشأن بعد .. ولكن مهما يكن من أمري فإن من الخير لي أن أعرف اللغات الأجنبية ، وسأستفيد من قضاء سنة في ألمانيا أضعاف أضعاف ما سأستفيد إذا بقيت في هذا الجحر .

لم يقل فيليب أنه يشعر بأن أكسفورد تكاد تكون أفضل من أن يواصل حياته في المدرسة . لقد كان أشد ما يتمناه أن يكون سيد نفسه يضاف إلى هذا أنه إذا ذهب إلى أكسفورد فسيكون معروفا إلى حد كبير بين زملائه القدامى ، وهو يريد الابتعاد عنهم جميعا . وكان يشعر بأن حياته في المدرسة قد أخفقت ويريد أن يبدأ حياة جديدة .

وحدث أن اتفقت رغبة فيليب في الذهاب إلى ألمانيا مع بعض الأفكار الأخرى التي كانت موضع نقاش في بلاكستابل . ذلك أن بعض الأصدقاء كانوا يقدون أحيانا للبقاء مع الطبيب ويأتون بالأخبار من العالم الخارجي . وكانت للزوار الذين يقضون شهر أغسطس على شاطئ البحر طريقتهم الخاصة في النظر إلى الأمور ، وقد سمع القس أن هناك أناسا يعتقدون أن التعليم القديم لم يعد ذا فائدة في تلك الأيام كما كان من قبل وأن اللغات الحديثة بدأت تلقى اهتماما لم تكن تلقاه أيام شبابه .

ولم يكن عقله مستقرا من هذه الناحية لأن أخوا صغيرا له ذهب إلى ألمانيا بعد أن رسب في أحد الامتحانات وكان ذلك سابقة له يصح أن يقتفي أثرها ، لكن هذا الأخ مات بمرض التيفود ، فأصبح من المستحيل النظر إلى تلك التجربة إلا على أنها شيء خطير .. وكانت نتيجة هذه المحادثات التي لا عدد لها أن يعود فيليب إلى تيركانبري لقضاء فترة مدرسية أخرى ، ثم يغادرها بعد ذلك ، ولم يكن فيليب غير راض عن هذا الاتفاق ، ولكن حدث ببعد بضعة أيام من عودته إلى المدرسة أن حدثه الناظر قائلا :

- لقد وصلني خطاب من عمك . يبدو منه أنك تريد السفر إلى ألمانيا وهو يسألني عن رأيي في هذا ..

ودهش فيليب واستولى عليه الغضب من وصية لتراجعه عن وعده وقال :

- لقد كنت أظن أن الأمر قد سوي يا سيدي .

إنه أبعد ما يكون عن ذلك . فقد كتبت إلى عمك لأقول له إنه من الخطأ الشنيع إبعادك عن المدرسة .

وجلس فيليب لساعته وكتب رسالة شديدة اللهجة إلى عمه ، ولم يزن كلمات الرسالة . واشتد به الغضب فلم يستطيع النوم إلا في ساعة متأخرة جدا تلك الليلة .. وفي الصباح المبكر راح يفكر في الطريقة التي عاملوه بها ، وانتظر وهو على أحر من الجمر رد عمه ، فلما وصل بعد يومين أو ثلاثة أيام ، كان رقيقا منمقا من العمة لويزا تقول فيه إنه يجب ألا يكتب مثل هذه الأشياء لعمه لأن ذلك قد ساءه كثيرا فقد كان فيليب قاسيا وليس هذا من أخلاق المسيحي الحق و يجب عليه أن يعلم أنهما يبذلان خيرا ما في وسعهما لصالحه وأنهما بلغا من الكبر سنا يجعلهما أقدر منه على معرفة ما فيه الخير له ، وقبض فيليب يديه ، فطالما سمع هذه الجملة السقيمة من قبل وقد عجز أن يعرف لماذا يعتقدان بصحتها ، فهما لا يعرفون حالته كما يعرفها هو ، ولماذا يعتقدان أن من الأمور البديهة أن كبر سنهما يجعلهما أعظم منه حكمة ، وانتهى الخطاب بإبلاغ فيليب أن السيد كاري قد سحب المذكرة التي أرسلها . وظل فيليب يتجرع غصته حتى الفترة التي ينقطع الطلبة فيها عن الدراسة بعض الأيام في منتصف السنة ، وكانت أنصاف الأيام المدرسية هي الثلاثاء والخميس لأنهم كانوا يؤدون الصلاة أمسيات السبت في الكنيسة . وتوقف فيليب في المؤخرة حتى خرج يقية طلبة الفرقة السادسة وسأل :

- أرجوك يا سيدي .. هل أستطيع الذهاب إلى بلاكستابل بعد ظهر اليوم ؟

فأجاب الناظر في اقتضاب :

.. لا

- كنت أريد أن أقابل عمي بشأن موضوع هام جدا .

- ألم تسمعني أقول لا ..

ولم يجب فيليب بشيء ، وولى خارجا فقد سئم هذه المهانة .. تلك المهانة التي يتجشم المرء عندما يطلب شيئا يقابل بالرفض الجاف . لقد كره الناظر عندئذ ..

وكان فيليب يتلوى من ذلك الطغيان الذي لا يكلف نفسه عناء إبداء سبب ما لأكثر الأعمال ظلما واستبدادا ، وتملكه الغضب ، فلم يعد يهتم بما يفعل ، وبعد الغذاء خرج ماشيا في طريق خلفية كان يعرفها حتى وصل إلى المحطة واستطاع أن يلحق بالقطار المسافر إلى بلاكستابل ، وقصد منزل القس ، فوجده هو وزوجه جالسين في حجرة الطعام .. وقال القس - مرحبا .. من أين خرجت علينا ؟

ريدا من الواضح أن القس لم يكن مغتبطا لرؤيته فقد ظهر عليه بعض القلق.
وأجاب فيليب :

- لقد ظننت أني يجب أن آتي لأتفاهم معك بشأن سفري .. إني أريد أن أعرف ما الذي تقصده بأن تعدني شيئا أثناء وجودي هنا ثم تفعل ما يناقضه بعد ذلك بأسبوع واحد .
وشعر فيليب بقليل من الخوف لجراته ، ولكنه كان قد قرر انتقاء الكلمات التي يقولها بالضبط ، بالرغم من أن قلبه أخذ يخفق في عنف فإنه أرغم على قولها . وقال عمه :

- هل أذن لك أن تأتي إلى هنا بعد ظهر اليوم ؟
لا .. لقد طلبت أجازة من بيركنز ولكنه رفض . وإذا أردت أن تكتب إليه لتخبره أنني كنت هنا فستجعلني حقا في موقف لا أحسد عليه ..

وجلست السيدة كارى تحيك ملابسها بيدين مرتعدتين ، ذلك لأنها لم تعتد مثل هذه المواقف .. وكانت تثير اضطرابها إلى حد كبير .. وقال السيد كارى :

- ستنال جزاءك الحق إن أنا أخبرته .
إذا أردت أن تشي بي ففي وسعك أن تفعل ذلك إنك بعد أن كتبت إلى بيركنز ما كتبت قادر على أن تفعله .

كان من الحماسة أن يقول ذلك لأنه أتاح للقس الفرصة التي يريدها بالضبط . وقال القس في كبرياء :

- إني لن أقف بلا حراك وأنت تتماذى في وقاحتك معي ..
ونفض عن مقعده وأسرع خارجا إلي حجرة المكتب . وسمعه فيليب يغلق الباب خلفه ثم يوصده . وقال فيليب :

- كم كنت أتمنى من الله أن أكون في الحادية والعشرين .. إنه من أفزع الأشياء أن يستعبد

برء بهذه الطريقة .

وبدأت العمة لويزا تبكى في سكون . وقالت :

- أوه يا فيليب .. لم يكن من حقك أن تخاطب عمك بما خاطبته به .. أرجوك أن تذهب وتقول إنك آسف لما فعلت .

- إني لست آسفا على الإطلاق .. إنه يستغل فرصة حقيرة .. إن بقائي في المدرسة بالطبع مضيعة للمال ، ولكن هذا لا يهمهم ؟ فالمال ليس ماله . ولقد كان من القسوة أن أوضع تحت وصاية أناس لا يعرفون شيئا عن أحوال العالم .
- فيليب ...

ووقف فيليب فجأة عن غضبه السادر عند سماع صوتها الذي بدت فيه رنة الانكسار..
ذلك أنه لم يكن قد أدرك مرارة ما كان يقوله.

- فيليب .. كيف تستطيع أن تقسو هذه القسوة ؟ وأنت تعرف أن موقفنا ليس كموقف من لهم أبناء ، ولذلك استشرنا السيد بيركنز .. وهنا تهدج صوتها ومضت تقول ، لقد حاولت أن أكون لك كامك .. ولقد أحببتك كأنك ولدي من لحمي ودمي .

لقد كانت صغيرة الجسم هزيلة ، وكان في موقفها وكأنها فتاة عذراء ما يستدر العطف عليها ، لذلك فقد تأثر فيليب وأحس فجأة غصة شديدة في حلقه وامتلات عيناه بالدموع ، وقال :

- إني آسف ... فلم أقصد أن أكون بهذه الوحشية .

وركع بجوارها ، وأخذها بين ذراعيه وقبل وجنتيها الذابلتين المبللتين بالدموع ...
وبكت المرأة في مرارة .. ويبدو أنه أحس فجأة بالشفقة على تلك الحياة الضائعة التي لم تستسلم فيها أبدا لإبداء عواطفها على هذا النحو .. وقالت له :

- أعرف أنني لم أكن ما أردت أن أكونه لك .. لقد كان حرمانني من الأطفال أمرا موجعا لي مثل حرمانك أنت من أمك ...

- ونسي فيليب غضبه ومشاكله الخاصة .. ولم يفكر حينئذ إلا في إرضائها بكلمات مبعثرة وملاطفات سمجة .. ودقت الساعة وكان عليه أن يسرع في الحال ليلحق بالقطار الذي يعود به إلى تيركانبرى في الموعد المحدد لنداء الأسماء في المدرسة . وبعد أن اتخذ له ركنا في عربة القطار رأى أنه لم يفعل شيئا وغضب من نفسه لضعفه . لقد كان من الحقارة له أن يسمح لنفسه بأن تحوله عن هدفه دموع عمته وخيلاء القس ولكن الحديث الذي دار بين الاثنين - ولم يعلم فيليب ما هو - أسفر عن خطاب آخر إلى الناظر . وقرأه السيد بيركنز ثم هزكتفيه في ضجر . وأطلع فيليب عليه ، وهذا نصه :

أرجو معذرتي لإزعاجك مرة أخرى بشأن من في وصايتي ، ولكنني أنا وعمته كنا بشأنه . إنه يبدو شديد الرغبة في ترك المدرسة ، وتظن عمته أنه غير سعيد فيها ومن علينا للغاية أن نعرف ماذا نفعل لأننا لسنا والديه . ويبدو عليه أنه لا يعتقد أنه يسير حسنا، ويشعر بأن بقاءه في المدرسة مضيعة لأمواله .. وأكون شاكرا جدا إذا تفاهمت فإذا أصر على ما في نيته فقد يكون من الأفضل بالنسبة له أن يترك المدرسة عند حلول الميلاد القادم كما انتويت أصلا .

المخاطب

وليام ك

وأعاد فيليب الخطاب إليه . وشعر بنشوة من الفخر لانتصاره . فقد كان له ما أراد ورضي عن نفسه فقد تغلبت إرادته على إرادة غيره ، وقال الناظر وهو في شدة الضيق : - لا فائدة من أن أقضى نصف ساعة في كتابة خطاب لعمك إذا كان يغير رأيه فور يصله خطاب ثان منك ..

ولم يقل فيليب شيئا .. وظل وجهه في غاية الهدوء، ولكنه لم يستطع أن يخفي الومض الذي بدا في عينيه، وقد لاحظ السيد بيركنز ذلك فضحك ضحكة قصيرة وقال :

لعلك قد انتصرت .. أليس كذلك؟ ..

فابتسم فيليب في التواضع لم يستطع أن يخفي ابتهاجه، ومضي السيد بيركنز يقول : - أحقا أنت شديد الرغبة في ترك المدرسة؟

- نعم يا سيدي

- آنت غير سعيد هنا ..؟

واحمر وجه فيليب فقد كان يكره بطبعه أية محاولة لسبر أغوار مشاعره وقال :

- لست أعلم يا سيدي ..

ونظر إليه السيد «بيركنز» وراح يعث في لحيته بأصابعه في تودة ويفكر في الأمر. وكأنه يكاد يحدث نفسه :

«إن المدارس لم تخلق إلا للمتوسطين من الناس بطبيعة الحال ، إن الحفر حولنا في مكان ومهما يكن من شكل الأوتاد فلا بد أن يجد كل وتد بطريقة ما حفرة تناسبه. والم لا يجد من الوقت ما يتيح له أن يهتم بشيء غير المتوسطين من الناس ...»

وفجأة وجه حديثه لفيليب قائلا :

- استمع إلى ، إن لدى اقتراحا أعرضه عليك . إننا نقرب الآن من نهاية الفترة المدرسية .. وأعتقد أن فترة أخرى لن تقتلك، ومن الخير لك إذا أردت الذهاب إلى ألمانيا أن تذهب إليها بعد عيد الفصح لا بعد عيد الميلاد، لأن ألمانيا ستكون أطف في الربيع عنها في منتصف الشتاء، وإذا انقضت الفترة القادمة وكنت مصرا على الذهاب فلن أبدى أية معارضة . ما رأيك في هذا ؟

شكرا جزيلا يا سيدي ..

وسر فيليب لكسب الشهور الثلاثة الأخيرة فلم يعبأ بالفترة الإضافية وبدأ له المدرسة أقل شيئا بالسجن لأنه أدرك أنه ستركها إلى الأبد بعد عيد الفصح .. ورقص قلبه من الفرح بين ضلوعه .. وفي تلك الأمسية في الكنيسة الصغيرة راح ينظر حوله إلى التلاميذ . وكانوا يقفون حسب ترتيب فصولهم كل في مكانه المحدد . وابتسم ابتسامة الرضا عندما فكر أنه بعد قريب لن يراهم مرة أخرى . غير أن ذلك جعل نظرته إليهم تمتزج بشعور من الود . وثبتت أنظاره على روز . وقد أخذ روز موقفه كمراقب الفصل بجد بالغ : كانت لديه فكرة جيدة كيف يكون شخصا ذا نفوذ في المدرسة وقد حان دوره ليقرأ الدرس في ذلك المساء، وقرأه جيدا جدا. وابتسم فيليب عندما فكر في أنه سوف يتخلص منه إلى الأبد ولن يهم في ستة شهور ما إذا كان روز طويل القامة ومستوي الساقين . وما أهمية أن يكون في ذلك الوقت مراقب الفصل ورئيس فريق كرة القدم ؟ ونظر فيليب إلى الأساتذة في أريدتهم الكنسية . كان جوردون قد مات بعد إصابته بجلطة في المح قبل سنتين ، غير أن الآخرين جميعا كانوا هناك . ونظر إليهم فيليب .. يالهم من جماعة مثيرة للشفقة ، ربما ماعدا «تيرنر» فقد كانت فيه رجولة . وشعر بالغضب من مجرد فكرة الخضوع الذي تعرض له . وفي ستة شعر لن يكون لذلك أهمية على أي حال . فمدحهم إياه لن يعني شيئا له ولا قدحهم فيه أيضا وهز كتفاه باستخفاف .

وكان قد تعلم ألا يبدي من التصرفات ما يفضح مشاعره ، وكان الخجل ما زال يعذبه ولكنه غالبا ما كان في روح معنوية عالية . وبالرغم من أنه كان يعرج متجولا في رزاة فقد ظل ساكنا متحفزا كأن هناك شيئا يصرخ في قلبه، وخيل إليه أنه أصبح يسير أكثر خفة .. ورقصت كل الأفكار في رأسه وراحت الأوهام تتسابق مشوشة ذهنه في عنف فلم يستطع أن يمكس بأي وهم منها غير أن ذهب تلك الأوهام وإياها ملاء بالانتعاش والبهجة . والآن بعد أن شعر بالسعادة استطاع أن يعمل ، واستطاع في الأسابيع المتبقية أن يعوض ما فاتته بإهماله الطويل . وراح ذهنه يعمل في يسر، وأصبح يشعر بلذة قوية من نشاطه الذهني ، وأبلى بلاء حسنا في الامتحانات التي عقدت في نهاية الفترة. ولم يبد له السيد بيركنز سوى ملاحظة واحدة فقد كان يحدثه عن مقال كتبه وقال له بعد أن وجه إليه النقد المعتاد :

إن لقد قررت أن تمتنع بعض الوقت عن حمقك .. أليس كذلك ؟

وابتسم له فبدت أسنانه اللامعة ، وابتسم فيليب في حرج وهو يخفض من ناظره.

وكان الطلبة الستة الذين توقعوا أن يقتسموا فيما بينهم الجوائز المختلفة التي تمنح في نهاية الفترة الصيفية قد تجاهلوا فيليب ولم يعودوا يرون فيه منافسا جديا لهم. ولكن بدءوا الآن ينظرون إليه في شئ من القلق. ولم يخبر فيليب أحدا بأنه سيغادر المدرسة في الفصح . وبذلك لا يكون منافسا لهم بأي حال لكن تركهم لمخاوفهم. وكان يعلم أن رؤيته يتفاخر بمعرفته اللغة الفرنسية لأنه قضى إجازتين أو ثلاثة في فرنسا وكان يتوقع أن يحصل على جائزة عمي المدرسية في المقال الإنجليزي . وشعر فيليب بارتياح كبير عندما لاحظ الرعب الذي انتاب روز عندما رأي فيليب يتفوق عليه كثيرا في تلك المواد . وثمة زميل آخر «نورتون» لم يكن يستطيع الذهاب إلى أكسفورد ما لم يحصل على إحدى المنح الدراسية التي كانت تترف فيها المدرسة. وسأل فيليب ما إذا كان سيتقدم للحصول على إحدى تلك المنح. وسأله فيليب «هل لديك أي مانع؟»

وكان يطرب كلما فكر في أن مصير شخص ما معلق بين يديه. لقد كان هناك شئ من الخيال والشاعرية في أن يقبض على الجوائز فعلا بين يديه ثم يتركها لغيره لأنه يحتقرهم وأخيرا حل يوم الوداع . وذهب إلى السيد بيركنز ليلقي إليه بتحية الوداع . وقال الناظر - إنك لا تعنى حقاً أن تقول أنك تريد أن تسافر ..

وشحب وجه فيليب للدهشة الواضحة التي بدت على وجه الناظر وقال:

- لقد قلت أنك لن تضع في طريقي أية عقبات يا سيدي .

اعتقدت أنها ليست سوى نزوة من الخير أن أعالجها، فأنا أعلم أنك عنيد صليب الرأي. والسبب الذي يدعوك أن تسافر الآن؟ فلم يعد باقيا أمامك سوى فترة أخرى فإنت تستطيع أن تحصل على منحة «ماجدالين» المدرسية بسهولة وستحصل على نصف الجوائز التي ستقدمها المدرسة .

ونظر فيليب إليه في عبوس .. فقد شعر بأنه خدع، ولكنه ما زال لديه وعد الناظر ، ولا بد أن يفى بيركنز بوعده :

- إنك ستمضي وقتا سعيدا جدا في أكسفورد ، ولست في حاجة لأن تقر حالا ما ستفعل فيما بعد . ولست أدري هل تدرك لذة الحياة هناك لكل من في رأسه عقل مفكر.

- لقد أعددت كل العدة الآن يا سيدي للرحيل إلى ألمانيا ..

وسأله السيد بيركنز وهو يبتسم ابتسامته الفريدة المحيرة :

- هل لا يمكن تغيير ما أعددت به بأي حال. إني آسف جدا لفقدك، فالتلاميذ الأغبياء في المدارس إذا ما دأبوا على العمل يحرزون نتائج طيبة خيرا من الأذكى الذين لا يعملون. أم

إكان التلميذ ذكيا ومجدا في الوقت نفسه فإنه يفعل ما فعلته أنت في هذه الفترة. واحمر وجه فيليب بشدة. فلم يعدت المجاملات قط ، ولم يقل له أحد من قبل أنه ذكي، ووضع الناظر يده على كتفه:

- إنك تعلم أن إدخال المعلومات في عقول التلاميذ الأغبياء عمل سقيم. ولكن عندما تتاح الفرصة من آن لآخر لتعليم صبي يتقدم إليك في منتصف الطريق ويكاد يفهم الكلام قبل أن يخرج من فمك، فعندئذ يصبح التعليم أكثر الأشياء بهجة في العالم.

وذاب قلب فيليب من أثر هذا الحنان ، ذلك أنه لم يخطر بباله أبدا أن بقاءه في المدرسة أو رحيله عنها يهم حقا السيد بيركنز. ولهذا تأثر وشعر بأنه أطرى إطرأ لا مزيد عليه. وقال في نفسه إنه يسره أن ينهى أيامه في المدرسة بالنصر، ثم يرحل بعد ذلك إلى أكسفورد. وبدت أمامه في ومضة عين الحياة التي سمع وصفا لها من الطلبة الذين جاءوا ليلعبوا في المباريات النهائية أو التي كانوا يصفونها في رسائل من الجامعة ويقرؤها التلاميذ بصوت عال في المكتبة. ولكنه شعر بالخجل لأنه إذا استسلم في هذه اللحظة فسيبدو أمام نفسه أحقق أبله وسوف يضحك عمه بملء شذقيه للنجاح الذي أحرزته حيلة الناظر. وكان يري في ذلك إلى حد ما رجوعا عن تنازله المسرحي عن الجوائز التي كانت بين يديه والتي كان يحتقرها، وعودة منه حقيرة عادية ليكسبها. ولم يكن الأمر يتطلب إلا مزيدا من الإقناع بما يكفي لكي يحفظ فيليب احترامه لنفسه، وعندئذ كان سيفعل أي شئ يريده السيد بيركنز. ولكن وجهه لم ينع من أي شئ من تلك المشاعر التي كانت تتصارع في نفسه. لقد ظل هادئا عابسا وقال :

- أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب إلى ألمانيا يا سيدي

وعندئذ نفذ صبر السيد بيركنز قليلا، وكان السيد بيركنز ينفذ صبره بعض الشيء إذا لم يظهر لسلطانه أثر على الفور شأنه في هذا شأن كثيرين من الناس الذين يسوسون الأمور بنفوذهم الشخصي وكانت مشاغله وقتئذ كثيرة لا تسمح له بأن يضيع كثيرا من وقته مع صبي بدا له عنيدا إلى درجة الجنون. وقال :

- لقد وعدتك أن أتركك تسافر إذا أردت ذلك حقا، وسأفي بوعدي. متى تسافر إلى ألمانيا؟ وقفز قلب فيليب بين ضلوعه.. لقد كسب المعركة ولم يكن يعلم أنه قد خسرها ورد قائلا : في أول شهر مايو .

- لك هذا وعليك أن تأتي لزيارتنا عندما تعود.

وبسط إليه يده.. ولو أن السيد بيركنز أتاح لفيليب فرصة أخرى لغير رأيه ولكنه بدا وكأنه يرى أن الأمر قد بت فيه. وخرج فيليب من منزل الناظر لقد انتهت أيامه في المدرسة وأصبح حرا، ولكنه لم يشعر بالبهجة الشديدة التي كان يتوقعها في تلك اللحظة. وسار في الأرض المجاورة للمدرسة على مهل وقد استولى عليه إحساس قوي بالانقباض. وعندئذ تمنى لو أنه

لم يتصرف هذا التصرف الأحمق. إنه لم يكن يريد الرحيل ولكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يذهب بنفسه بأن يذهب إلى الناظر ويخبره بأنه سيقى، فتلك مهانة لا يمكنه أن يتحملها لنفسه وتساءل أترى ما فعله هو الصواب. ولم يكن راضيا على كل أحواله وسأل نفسه في كآبة لما يتمنى المرء شيئا ثم ينفر منه بعد أن يتحقق له .



كان لعم فيليب صديقة اسمها الأنسة ويلكنسون تعيش في برلين، وهى ابنة أحد رجال الكنيسة. وقد قضى عمه أيام أسقفيته الأخيرة عند أبيها الذي كان قسا في إحدى قرى مقاطعة لينكولنشير. واضطرت الأنسة ويلكنسون بعد وفاة أبيها أن تعمل لتكسب عيش نفسها، فعملت مربية للأطفال في أماكن عدة في فرنسا وألمانيا، واستمرت في مراسلة السيد كارى، وقضت أجازتها مرة أو مرتين في منزل القس في بلاكستابل، وكانت تدفع مبالغ ضئيلة في مقابل إقامتها عنده كما يفعل زواره القليلون.

وعندما تبين أن الاستسلام لرغبات فيليب خير من مقاومتها، كتبت السيدة كارى إلى الأنسة ويلكنسون تستشيرها في أمره، فأوصت الأنسة ويلكنسون بأن يذهب فيليب إلى هايدلبرج وهى أفضل مكان يتعلم فيه اللغة الألمانية وأوصت كذلك بمنزل الأستاذة المدرسة إيرلين وقالت إنه مكان مريح لمن يقيم فيه، وقالت إن فيليب يستطيع أن يقيم في هذا المنزل بثلاثين ماركا في الأسبوع وأن زوج المدرس وهو أستاذ في المدرسة الثانوية سوف يعطى دروسا لفيليب .

ووصل فيليب إلى هايدلبرج في صبيحة أحد الأيام في شهر مايو، وألقى متاعه فوق عربة يد صغيرة وتبع الحمال إلى الخارج المحطة. وكانت السماء زرقاء صافية وقد امتلأت الأشجار التي مر بها فيليب بأوراقها، وأحس فيليب بأن في الهواء شيئا جديدا عليه، امتزج بالخوف الذي شعر به من إقباله على حياة جديدة بين قوم غرباء غير أن ذلك كله أشعره بنشوة غامرة، وأحس قليلا من الكآبة عندما لم يجد أحدا في استقباله عند المحطة، وعندما تركه الحمال عند باب منزل أبيض ضخم، أحس بالخجل الشديد، وقاده صبي أشعث إلى داخل المنزل ودلفا إلى حجرة الاستقبال. وقد شغل الحجرة طاقم من الأثاث الضخم كسي بالمخمل الأخضر واستقر في الوسط نضد مستدير عليه إناء فيه باقة من الزهور الكبيرة ربطت ببعضها ببعض ربطا محكما وحولها ورقة مغلضة تشبه عظم ساق الضأن . وقد رصت حول الإناء في عناية كتب غلفت بأغلفة جلدية . وفاحت من الحجرة رائحة عفنة..

وما لبثت أن دخلت المدرسة وقد علقت بها رائحة الطهي وكانت امرأة بدينه ذات وجه

مر وشعر شد حول رأسها في عناية، وعينين صغيرتين تتلألآن كحبات الخمر، وبدت على سجيتهما، وأخذت بيدي فيليب بين يديها ثم سألتها عن الأنسة ويلكنسون التي قضت عندها مرتين عدة أسابيع قلائل، وكانت تتكلم بالألمانية وبنجليزية عرجاء، ولم يتمكن فيليب من أن يجعلها تفهم أنه لا يعرف الأنسة ويلكنسون. ثم ظهرت ابتهاها، وأدرك فيليب أنهما ليستا صغيرتي السن ولكنهما قد لا تتعديان الخامسة والعشرين، وكانت الكبيرة «ثيكلا» قصيرة القامة كأماها وتتصرف بنفس السهولة ولكنها جميلة الوجه ذات شعر غزير أسود. أما «أناس» وهى الأصغر سنا فكانت طويلة القامة عليها مسحة من البساطة وعلى فمها ابتسامة حلوة جعلت فيليب يفضلها لساعته عن أختها، وبعد حديث مؤدب استغرق دقائق صحبت السيدة إيرلين فيليب إلى غرفته وتركته فيها . كانت الغرفة في برج صغير من المنزل تطل على قمم الأشجار في منطقة أنلاج، وكان السرير في ركن منها بحيث أنك إذا جلست إلى المكتب لا يبدو على الحجرة أنها حجرة للنوم على الإطلاق، وفك فيليب أمتعته وأخرج جميع كتبه وأحس أخيرا بأنه أصبح سيد نفسه..

وفي الساعة الواحدة دق جرس يدعوه إلى الغداء، ووجد ضيوف السيدة مجتمعين في حجرة الاستقبال. وقدم إلى زوجها، وهو رجل طويل متوسط العمر ذو رأس أشقر بدأ يغشاه الشيب وله عينان زرقاوان هادئتان، وتحدث إلى فيليب في إنجليزية رصينة بل إنجليزية قديمة تعلمها من دراسته للأدب الإنجليزي القديم لا من الحديث، وكان من الغريب سماعه وهو يستخدم بضع كلمات عامية لم يقابلها فيليب إلا أثناء قراءته لشكسبير. وقد كانت السيدة إيرلين قد أطلقت على مؤسستها هذه اسم الأسرة ولا تسميها بنسيونا ولكن الأمر كان يتطلب خبرة أحد علماء الطبيعة ليجد بالضبط الفارق بين الاثنين..

وعندما جلسوا لتناول الغداء في حجرة طويلة معتمة توصل إلى حجرة الاستقبال، لاحظ فيليب وهو يشعر بخجل شديد أن هناك ستة عشر شخصا وجلست المدرسة عند أحد أطراف المائدة توزع الطعام. وقام الصبي الجلف السمج الذي فتح له الباب بالخدمة في شنشنة عالية للصحاف، وبالرغم من أنه كان سريعا، فإن أول من قدم لهم الطعام فرغوا منه قبل أن يصل إلى الآخرين نصيبهم منه. وأصرت المدرسة على ألا تسمح بالحديث إلا باللغة الألمانية، ولهذا فإن فيليب اضطر أن يلتزم الصمت. لأنه ما كان يستطيع الحديث حتى لو أتاحه له حياؤه. وأخذ ينظر إلى الذين سيعيش بينهم، وجلس إلى جانب السيدة صاحبة الدار عدد من النسوة المسنات ولكنه لم يوليهن كثيرا من الاهتمام. وكانت بينهن فتاتان صغيرتان شقراوان إحداهما في غاية الجمال، وسمع فيليب إحداهما تنادى بالأنسة سيسيلي والأخرى بالأنسة هيدويج. وكان للأنسة هيدويج ضفيرة طويلة تدلت خلف ظهرها. وجلست الفتاتان متجاورتين تتبادلان حديثا تخللته ضحكات خافتة مكتومة. وراحتا من أن آخر تسترقان النظر إلى فيليب وقالت إحداهما شيئا في صوت خفيض وضحكتا ضحكة خفيفة. وتساعد الدم إلى وجه فيليب

خجلاً وبنت عليه السماجة، إذا أحس أنهما تسخران منه. وجلس إلى جانب الفتاتين صيني ذو وجه أصفر وابتسامة عريضة، كان يدرس «أحوال الغرب» في الجامعة. هذا الرجل يتكلم بسرعة في لهجة غريبة لم تستطع الفتاتان فهمه على الإطلاق فأنفذا ضاحكتين، فضحك هو في سماجة وانطبقت عندئذ عيناه الصغيرتان اللتان تشبهان ثمرة اللوز. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من الأمريكيين ارتدوا سترات سوداء يميلون النحافة والاصفرار وكانوا يدرسون اللاهوت واستمع فيليب من خلال لغتهم الألمانية الركيكة إلى لهجة أهالي نيو أنجلند ونظر إليهم في شئ من الريبة لأنه تعلم أن ينظر الأمريكيين كأنهم قوم همج متهورون.

وبعد أن جلسوا قليلاً على المقاعد المخملية الخضراء الجامدة في حجرة الاستقبال سألته الأنسة «أنا» هل يحب الخروج مع الجماعة في نزهة قصيرة، فقبل فيليب. وكانت مجموعة كبيرة لا بأس بها تتكون من ابنتي السيدة إيرلين والفتاتين الأخريين، وواحدة من الطلبة الأمريكيين، وفيليب. وسار فيليب إلى جانب أنا والأنسة هيدويج وشعر بقليل من الزهو، لأنه لم يسبق له أن تعرف إلى فتيات من قبل، ولم يكن في بلاكستابل منهن إلا المزارع وبنات التجار وكان يعرفهن بالاسم وبالنظر فقط، وكان يغلب عليه الحياء وأنها أنهن يضحكن منه لسبب عاهته، وبذلك قبل راضياً هذا الحاجز الذي أقامه القس وعمته مكانتهم العالية ومكانة المزارعين في بلاكستابل. وكان للطبيب هناك ابنتان كلتااهما سنا من فيليب، وقد تزوجتا من مساعدين جاء أحدهما وراء الآخر حين كان فيليب صغيراً، وكان في المدرسة فتاتان أو ثلاث فتيات لديهن من الجرأة أكثر مما لديهن الحشمة، وقد عرفن بعض التلاميذ وتردد الأقاصيص الشائنة التي كان مبعثها في أغلب الاحتمالات خيال الصبية الجامع عن مكائدهم معهن. ولكن فيليب كان دائماً يخفي الرعب الذي يملؤه منهن تحت ستار من الاحتقار السامي الرفيع. وقد بعث فيه خياله والكتب التي قرأها نزعاً بيرونية (نسبة إلى الشاعر الإنجليزي بايرون) وحاتت نفسه بين شعور بند مكتئب مهموم وبين اعتقاده أن من حقه على نفسه أن يكون شهماً، وما لبث أن شعر بأنه يجب أن يكون بشوشاً ومسلماً ولكن ذهنه بدا مجذباً فلم يستطع التفكير في شئ يقول وكانت الأنسة «أنا» ابنة صاحبة الدار توجه حديثها إليه إحساساً منها بواجبها نحوها ولكن الابنة الأخرى لم تكن تتكلم إلا قليلاً، وكانت ترمقه بين الفينة والفينة بعين متلألئتين وكانت أحياناً تضحك على الفور فيضطرب لذلك اضطراباً. وكان فيليب يشعر أنه تعتقد أنه سخيض مضحك. ثم راحوا يسيرون إلى جانب تل بين أشجار الصنوبر بعث عبيراً بالبهجة الحقيقية في نفسه. وكان الجو دافئاً والسماء خيالية من السحب، وأخيراً وصلوا إلى قمة تطل على وادي نهر الراين الذي كان ينبسط أمامهم تحت الشمس. وكان الوادي رقاً متسعة من الأرض تتلألأ بالأضواء الذهبية وترامت المدن على بعد منه وتسلل من خلال شريط النهر الفضفي ..

لقد كانت الأراضي الفضاء الواسعة نادرة في أركان «كنت» التي عرفها وكان البحر هو الأفق الوحيد العريض. وقد بعثت فيه الرقعة الفسيحة التي رآها عندئذ نشوة لا توصف، فجأة شعر بالاغتراب والبهجة، وكانت هذه أول مرة يحس فيها بالجمال غير مختلط بغيره من المشاعر التي تخفف من أثره وإن لم يدرك ذلك وقتئذ. وجلس ثلاثتهم على أريكة لأن بقية الجماعة كانوا قد ذهبوا إلى حال سبيلهم، وأخذت الفتيات يتكلمن باللغة الألمانية السريعة وراح فيليب يتمتع بعينه بجمال المنظر غير مبال بوجودهن إلى جواره. وحث نفسه بلا وعى منه قائلاً:

بالله .. إني لسعيد!



كان فيليب من آن لآخر يفكر في مدرسة كينجز في تيركانبيرى وضحك في نفسه عندما تذكر ماذا كانوا يفعلون في لحظه معينة غريبة من اليوم. وكان أيضاً من آن لآخر يحلم أنه مازال هناك في المدرسة وعندما يستيقظ كان يشعر بارتياح عظيم عندما يرى أنه مازال نائماً في حجرته الصغيرة في البرج الصغير. ومن فراشه كان يمكنه أن يرى أعمدة السحب الضخمة المعلقة في السماء الزرقاء. وأحس بمتعة من استقلاله وحريته. فهو يذهب إلى فراشه متى شاء ويستيقظ متى يحلو له ذلك. فليس هناك أحد يتحكم فيه الآن. ومما أذهله أنه لم يعد يفكر في الكذب على أحد.

وقد اتخذت الترتيبات بحيث يعلمه البروفيسور إيرلين اللاتينية والفرنسية؛ وكان هناك فرنسي يأتي كل يوم ليعلمه اللغة الفرنسية. وقد أوصت الأستاذة المدرسة لكي يدرس فيليب الرياضة برجل إنجليزي كان يدرس فقه اللغة التاريخي ليحصل على شهادة من الجامعة. وكان هذا الرجل اسمه «والتون» وفيليب يذهب إليه صباح كل يوم. وكان يعيش في غرفة واحدة في الدور العلوي لمنزل قديم جداً وكانت الحجرة قدرة غير مرتبة، تنبعث منها رائحة نفاذة عبارة عن خليط من مجموعة روائح نتنة. وكان عندئذ يقفز من فراشه و يرتدي حلة قدرة عندما يصل فيليب في الساعة العاشرة، وكان عندئذ يقفز من فراشه و يرتدي حلة قدرة وخفين من اللباد وبينما كان يعطي الدرس لفيليب كان يأكل إفطاره. كان قصير القامة منتفخاً من الإسراف في شرب الجعة له شارب كث وشعر أشعث، عاش في ألمانيا خمس سنوات وأصبح مثل الألمان تماماً. وكان يتحدث بسخرية عن كامبريدج حيث حصل على شهادته وباشمئزاز عن الحياة التي تنتظره، حيث سيكون عليه بعد أن يحصل على شهادة الدكتوراه من هايدلبرج، أن يعود إلى إنجلترا وإلى مهنة التعليم. وكان يعيش الحياة في الجامعة الألمانية بما فيها من حرية جميلة ورفاق ممتازين. كان فقيراً جداً ولم يخف أن

لا ينظرون إلى مقعد العلم بشعور من الرهبة .

- لماذا تريد أن تذهب إلى أكسفورد هناك . لن تكون هناك سوى طالب محترم ، لماذا لا تأخذ شهادتك من هنا ؟ ثم إن سنة واحدة لا تكفي . أقضي خمس سنين هنا . هل تعرف أن هناك شيئين جميلين فقط في هذه الحياة حرية الفكر وحرية الحركة . ففي فرنسا تجد حرية الحركة فيمكنك أن تفعل ما تشاء ولن يزعجك أحد ولكنك يجب أن تفكر كما يفكر الآخرون . وفي ألمانيا يجب أن تفعل مثلما يفعل الآخرون ولكن يمكنك أن تفكر كما تشاء . كلاهما جميل ولكني شخصيا أفضل حرية الفكر . وفي إنجلترا لا تستطيع أيا من الاثنين : فستلتصق بالأرض بسبب التقاليد فلن تستطيع أن تفكر كما تشاء ولا تفعل ما تشاء . ذلك أن إنجلترا بلد ديموقراطي . . وأتوقع أن تكون أمريكا أسوأ .

واضطجع إلى الخلف على كرسيه بحذر لأن أرجل الكرسي كانت متقلقلة وسيكون أمرا مزعجا إذا قوطع كلام بلاغي بسقطة مفاجئة على الأرض . واستطرد قائلا :

- يجب أن أعود إلى إنجلترا هذا العام ولكن إذا استطعت أن أوفر ما يكفي لكي أحافظ علي التوازن بين روحي وجسدي ، فسوف أبقى اثني عشر شهرا أخرى . ولكن بعدئذ سيكون علي أن أرحل . ويجب أن أترك كل هذا - وحرك يده في دائرة حول الحجرة - القذرة ، الفراش القذر و الملابس الملتصقة علي الأرض وصف زجاجات الجعة الفارغة الراقدة إلى جوار الحائط وأكوام الكتب الممزقة في كل ركن - وألتحق بجامعة من الجامعات المحلية حيث أستطيع أن أحصل علي كرسي لفقهِ اللغة التاريخي . وسوف أَلعب التنس وأؤم حفلات الشاي . وتوقف عن الكلام لحظة ووجه إلى فيليب الذي كان متأنقا في ملابسه ، وياقته نظيفة ، وشعره منسق ، نظرة ساخرة . ثم قال «وبالله لا بد أن أغتسل» .

احمر وجه فيليب ، وشعر أن أناقته أصبحت باعثا علي سخرية لا تحتمل : فقد بدأ في الفترة الأخيرة يهتم بهندامه وتزيين نفسه ، وخرج من إنجلترا بمجموعة جميلة من أربطة العنق .

حل الصيف في البلد مثل فاتح غاز . فكل يوم كان جميلا . كان للسماء زرقة متغطرة تهمل الأعصاب مثل المهباز . وكانت خضرة الأشجار في «أنلاج» عنيقة خام . وكانت المنازل عندما تسطع عليها الشمس تعكس لونا أبيض باهرا . وأحيانا كان فيليب عند عودته من عند وارتون يجلس في الظل على أحد المقاعد الطويلة في «أنلاج» يستمتع بالبرودة اللطيفة ويتأمل تلك الأشكال الغريبة التي يرسمها ضوء الشمس على الأرض وهو يتخلل أوراق الشجر . وكان سعيدا بلحظات الكسل هذه التي يختلسها من عمله . وأحيانا كان يتسكع في شوارع المدينة القديمة وكان ينظر في رهبة إلى طلبة الكلية العسكرية بوجوههم الحمراء النابضة بالحياة وهم يسيرون مختلين بقلنسواتهم الملونة . وكان بعد الظهيرة يتجول حول التلال مع الفتيات المقيمات في منزل الأستاذة المدرسة وأحيانا كانوا يسرون حتى النهر ويتناولون

الدروس بالنسبة له تعني الفرق بين تناول الخبز والزبد في الغداء وتناول اللحم . وكان بعد ليلة ثقيلة يصيبه صداع يجعله غير قادر على شرب قهوته فكان يعطي دروسه بروح مثقلة . ومن أجل ذلك كان يحتفظ ببعض زجاجات من الجعة تحت فراشه ، وإحدى هذه الزجاجات مع دخان غليون سوف يساعده على تحمل أعباء الحياة الثقيلة .

كان يتحدث وهو يصب الجعة بعناية وحرص حتى لا تجعله الرغبة ينتظر طويلا ليحتسي كأسه ويقول إنه لديه شعرة من شعر الكلب الذي عقره .

ثم راح يحدث فيليب عن الجامعة والمشاجرات بين المجموعات المتنافسة والمنازعات ومزايا هذا الأستاذ أو ذاك . وتعلم منه فيليب كثيرا عن الحياة أكثر مما تعلم من الرياضيات وأحيانا كان نورتون يضطجع إلى الخلف في مقعده ويقول ضاحكا :

- انظر يا فيليب .. إننا لم ندرس شيئا اليوم فلا داعي لأن تدفع لي أجر الدرس .

- هذا لا يهم .

كان هذا شيئا جديدا ومثيرا للغاية ، وشعر أن له أهمية ومعني أكثر من حساب المثلثات الذي لم يفهمه أبدا . كان ما حدث بمثابة نافذة فتحت على الحياة واستطاع أن ينظر من خلالها بقلب ينبض بشدة . وقال وارتون :

- لا .. لا عليك أن تحتفظ بنقودك البغيضة .

وقال فيليب وقد علت وجهه ابتسامة لأنه كان يعرف حالة أستاذه المالية :

- ولكن ماذا عن غدائك ؟

وقد طلب منه وارتون أن يدفع له شلنين أجر الدرس كل أسبوع بدلا من مرة كل شهر لأن ذلك سيجعل الأمور أقل تعقيدا . وقال وارتون :

- لا تشغل بالك بغدائي . فلن تكون هذه أول مرة أتغدي فيها على زجاجة من الجعة فذهني لا يكون أصفي في أي وقت أكثر من الوقت الذي أتناول فيه زجاجة من الجعة .

وغاص تحت السرير . (كانت الملاءات رمادية اللون لحاجتها إلى الغسيل-) وأخرج زجاجة أخرى من الجعة . وقد رفض فيليب - الذي كان صغيرا ولا يعرف شيئا عن لذات الحياة - أن يشاركه في الزجاجة ، ولهذا شرب وحده . وسأله وارتون :

- كم سيطول بقاؤك هنا ؟

كان هو وفيليب قد تخليا بارتياح عن التظاهر بأن وارتون يعلمه الرياضيات .

- لا أعرف .. حوالى سنة على ما أعتقد . ثم إن أسرتي تريدني أن أذهب إلى أكسفورد .

هز وارتون كتفيه احتقارا . كانت خبرة جديدة لفيليب أن يعرف أن هناك أشخاص

وابتسمت ابتسامة ودية وأمسكت بيده وضغطت عليها ثم استدارت وعادت إلى حجرة الاستقبال. وفي اليوم التالي كان يشعر بحرج شديد حتى أنه لم يستطع أن يكلمها ، وفعل كل ما يمكنه وهو خجول لكي يتجنبها. وعندما طلبوا منه أن يصحبهم في الجولة العادية رفض وتعلل بأنه لديه عمل يؤديه. غير أن الأنسة هيدويج استغلت فرصة وجودهما وحدهما لكي تتحدث معه. وقالت بركة :

- لماذا تتصرف بهذه الطريقة معي. فأنت تعرف إنني لست غاضبة منك لما قلته الليلة الماضية. فأنت لا تستطيع أن تمنع نفسك إذا كنت تحبني. أنا سعيدة لإطرائك لي. ولكن رغم أنني لست بالضبط مخطوبة لهيرمان فأنا لا يمكن أن أحب شخصا آخر غيره وأنا أعتبر نفسي عروسة. احمر وجه فيليب مرة أخرى ولكن وجهه بدت عليه سمات العاشق المنبوذ.



كان البروفيسور إيرلين يعطي لفيليب درسا كل يوم. ووضع قائمة من الكتب كان على فيليب أن يقرأها حتى يستعد لقراءة «فاوست» للشاعر الألماني جوته؛ وفي أثناء ذلك جعله يبدأ في الترجمة إلى الألمانية لمسرحية للشاعر الإنجليزي شكسبير كان فيليب قد درسها في المدرسة.

كانت تلك الفترة في ألمانيا هي الفترة التي راجت فيها شهرة الشاعر الألماني «جوته» فعلى الرغم من موقف والده المتلطف مع الوطنية فقد اعترف به كشاعر ألماني الوطني وظهر منذ حرب السبعينيات أنه أحد أمجاد الوحدة الوطنية. ولكن إحدى علامات عظمة الكاتب هي أن العقول المختلفة يمكن أن تجد فيه إichاءات مختلفة ؛ وقد أعرب البروفيسور إيرلين ، رغم أنه يكره البروسيين، عن إعجابه بجوته لأن أعماله كانت هي الملجأ الوحيد الذي يلجأ إليه العقل المتزن هربا من الهجوم الضاري للجيل الحالي. وكان هناك كاتب مسرحي اشتهر اسمه أخيرا في هايدلبرج وفي الشتاء السابق عرضت إحدى مسرحياته على المسرح وقوبلت بهتافات مؤيديه واستهجان الناس المهذبين. وقد سمع فيليب مناقشات حول تلك المسرحية علي المائدة الطويلة في منزل البروفيسور وفي أثناء تلك المناقشات فقد البروفيسور هدوء المعتاد ، فضرب المائدة بقبضته وأغرق كل المعارضة بهدير صوته الصافي العميق. لقد كانت كلاما فارغا وكلاما فارغا قذرا. وقد أرغم نفسه على أن يترك المسرحية وهو لا يعرف إن كان قد شعر بالملل أم بالغثيان. وإذا كان هذا ما سيؤول إليه المسرح فقد أن الأوان لكي تتدخل الشرطة لإغلاق

الشاي في حديقة خضراء مورقة. وفي المساء كانوا يقصدون الحديقة العامة حيث يستمعون إلى عزف الفرقة الموسيقية .

سرعان ما تعرف فيليب على الاهتمامات العديدة للأسرة . كانت الأنسة «ثيكل» الابنة الكبرى للأستاذة المدرسة مخطوبة لرجل في إنجلترا أمضي اثني عشر شهرا في المنزل ليتعلم اللغة الألمانية. وكان من المقرر أن يتم زواجهما في نهاية العام غير أن الرجل بعث إليه يقول أن والده ، وهو تاجر مطاط هندي يعيش في «سلاو» لم يوافق على الزواج وكانت الأنسة ثيكل تبكي دائما لهذا السبب. وأخيانا كانت ترى هي وأمها وعيونهما متجهمة ووجهيهما متحجرين وهما تقرأن خطابات الحبيب المتردد . كانت ثيكل ماهرة في الرسم بألوان الزيت وأخيانا كانت هي وفيليب برفقة الفتيات الأخريات يخرجون لكي ترسم ثيكل لوحا صغيرا وكانت الأنسة هيدويج الجميلة تواجه متاعب في حبها أيضا . كانت ابنة تاجر في برلين وقد وقع في غرامها جندي أوروبي مندفع ولكن والداه اعترضوا على زواجه من فتاة في مثل وضعها وقد سافرت إلى هايدلبرج كي تنساه . ولم تستطع أبدا أن تفعل ذلك وراحت ترأس بصفة مستمرة وكان هو من جانبه يبذل كل جهد ليقنع والده الغاضب بأن يغير رأيه . وقالت كل ذلك لفيليب وهي تتنهد في عذوبة ويحمر وجهها بصورة جذابة وأطلعتة علي صور الضابط المرح . وكان فيليب يحبها أكثر من أي فتاة أخرى في المنزل وكان أثناء سيرهم يحاول دائما أن يسير إلى جانبها. وكان وجهه يحمر خجلا عندما يمازحه الآخرون لتفضيل الواضح للأنسة هيدويج . وأعلن قدم أول تصريح في حياته لها ولسوء الحظ كانت حادثة وقد وقعت بهذه الصورة . في الأمسيات التي كانوا لا يخرجون فيها كانت الفتيات يغنون أغنيات صغيرة في حجرة الاستقبال المخملية الخضراء بينما الأنسة «أنا» التي كانت تجعل نفسها شخصا مفيدا دائما تصاحبهم في الغناء بصورة نشطة . وكانت أغنية الأنسة هيدويج المفضلة أغنية ألمانية اسمها «أحبك» . وفي إحدى الأمسيات بعد أن قامت بغناء تلك الأغنية عندما كان فيليب يقف بجوارها في الشرفة ، ينظر إلى النجوم ، خطر له أن يدلي بملاحظة عن الأغنية فبدأ بأن قال لها بالألمانية :

- أحبك .

وعندئذ انتهت مفردات لغته الألمانية وراح يبحث عن الكلمة التي يريد بها . وكان صمتا لا نهائيا . ولكن قبل أن يستطرد قالت الأنسة هيدويج :

- يجب أن تكلمني بضمير الغائب المفرد .

وشعر فيليب بأنه يغلي لأنه لم يكن أبدا يجرو أن يفعل شيئا له طابع حميمي بهذا الشكل ولم يستطع أن يفكر في شيء يردد به عليها . ولن يكون من الشجاعة أن يقول أنه لم يكن يدلي بملاحظة من عنده بل كان يردد اسم أغنية فقال :

- أرجو معذرة .

الارتياح بل بقليل من الحزن. وغنت الأنسة هيدويج عدة أغان ، وعزفت الأنسة أنا نشيد الزواج ثم ترنم الأستاذ بأغنية ألمانية. وبين كل هذا المرح لم يكن فيليب يولي القادم الجديد كثيرا من الانتباه. ومع أن كلا منهما قد جلس في مواجهة الآخر أثناء تناول العشاء فقد استغرق فيليب في الحديث مع الأنسة هيدويج. وكان القادم الغريب لا يعرف الألمانية فتناول طعامه في سكوت. ولاحظ فيليب أنه يرتدى ربطة عنق زرقاء حائلة اللون، ولذلك انتابه شعور مفاجئ بعدم الميل إليه. وكان الرجل في السادسة والعشرين من عمره، جميل الوجه ذا شعر متموج ، كان يرتبه بيده في تراخ بين الحين والحين. وكانت عيناه واسعتين زرقاوين ولكن الزرقاة كانت حائلة إلى حد كبير ، وقد لاح عليهما الإجهاد وان لم يمض عليه في المكان إلا وقت قليل وكان حليق اللحية ذا فم دقيق بالرغم من شفتيه الرفيعتين. وكانت الأنسة «أنا» مولعة بعلم الفراسة وقد جعلت فيليب يلاحظ كيف أن هيكل رأسه الغريب جميل التكوين، وأن الجزء الأسفل من وجهه ضعيف. وقالت إن الرأس رأس مفكر ولكن الفك تنقصه الشخصية.. وقد قدر للأنسة أنا بما كان لها من عظام فك بارزة وأنف ضخمة مشوه ، أن تقضى بقية عمرها عانسا ، فراحت تهتم اهتماما كبيرا بمسألة الشخصية. وكان هو يقف بعيدا عنهم وهم يتحدثون عنه ، وراح يراقب الحفل الصاخب في روح مرحة وبقليل من العجرفة. وكان طويلا ممشوق القوام ، وقد شد من قامته في رشاقة متعمدة. وذهب ويكس أحد الطلبة الأمريكيين إليه وراح يبادلته الحديث ، بعد أن لاحظ انفراده بنفسه. وكان الاثنان مختلفين اختلافا عجيبا، فالأمريكي أنيق غاية الأناقة بسترته السوداء وسرواله النحيل المزركش بالنقط البيضاء والسوداء وكان نحिला ضامرا ، وقد بدت في سلوكه سمة الرهبان ، على حين كان الإنجليزي طويل الأطراف بطئ الحركة في سترته الفضفاضة من صوف التويد، ولم يتحدث فيليب إلى القادم الجديد حتى اليوم التالي ، فقد وجدا نفسيهما وحيدين في شرفة حجرة الجلوس قبل موعد الغداء فوجه إليه هايوارد حديثه قائلا :

أنت إنجليزي؟ أليس كذلك ؟

- بلى..

وهل الطعام رديء دائما كما كان بالأمس ؟

- إنه دائما كذلك على وجه التقريب..

- هذا شئ بهيمي ، أليس كذلك ؟

- بهيمي نعم..

لم يكن فيليب قد لاحظ أن هناك ما يعيب الطعام على الإطلاق ، بل إنه في الحق قد أكل منه كميات كبيرة في شهية وتلذذ. ولكنه لم يشأ أن يبدو شخصا عديم التمييز فيقول عن الطعام إنه جيد بينما يرى آخر أنه رديء.

واضطرت الأنسة ثيكلا بسبب زيارة شقيقتها لبريطانيا أن تكثر من عملها في المنزل، ولم تستطع في معظم الأحيان أن تجد من الوقت ما يتيح لها الخروج في نزهاتها الطويلة. أما

كل المسارح. فلم يكن شخصا متحشما ويمكنه أن يضحك مثل إي شخص على الكلا أخلاقي في أي مسرحية هزلية في مسرح الباليه رويال، ولكن هنا لم يكن هناك القذارة. وبإيماءة للتأكيد أمسك بأنفه وأطلق صفيرا من خلال أسنانه. كان ذلك هو دور العائلة ، والقضاء على الأخلاق وتدمير ألمانيا.

ومن الطرف الآخر من المائدة قالت الأستاذة المدرسة :

- اهدأ يا سيدي ولا تزعج نفسك.

هز قبضته نحوها. لقد كان شخصا لطيفا جدا ولم يخاطر بأي تصرف في حياته أن يستشيرها. وصاح قائلا :

- لا يا هيلين.. دعيني أقول لك هذا.. إنني أفضل لو أرى بناتي أمواتا عند قدمي ولا أرى يستمعون إلى الكلام التافه لهذا الرجل الوقح.

كان اسم المسرحية «بيت الدمية» ومؤلفها هو هنريك إبسن.



قضى فيليب ثلاثة أشهر في هايدلبيرج ، وفي صبيحة يوم أنباته صاحبة البيت أن رحلته إلى إنجلترا يسمى هايوارد قادم ليقم فيه. وفي ذلك المساء نفسه وعلى مائدة العشاء فيليب وجها جديدا. وقد عاشت الأسرة قبل مجيئه عدة أيام في حالة هياج نفسي لأن الشاب الإنجليزي خطيب الأنسة ثيكلا دعواها لقضاء عدة أيام معهم في إنجلترا ، وجاء نتيجة لرجاء متركز وتهديد مقنع وعدة تدابير لا يعلم أحد ما هي. ورحلت الأنسة ثيكلا وجعلتها مجلد جمعت فيه الصور التي رسمتها بالألوان المائية لتبين مدى ثقافتها ومجموعة من الخطابات لتثبت إلى أي حد وقع الشاب في غرامها. وبعد أسبوع من ذلك الوقت أعلنت الأنسة هيدويج في ابتسامة خلابة أن الضابط فارس أحلامها سيصل إلى هايدلبيرج في صحبة والديه. وقرر الوالدان أن يتعرفا إلى الفتاة بعد أن سئما إلحاح ابنيهما ، وأثنى فيهما ضخامة البائنة التي قدمها والد الأنسة هيدويج إلى ابنيهما ، وكانت المقابلة مرضية وقدمت الأنسة هيدويج حبيبها إلى أسرة إيرلين. وكان الاضطراب باديا على السيدات اللاتي جلسن عند رأس المائدة. وعندما قالت الأنسة هيدويج أنها يجب أن تذهب إلى المنزل في الحال لكي تتم الخطبة رسميا ، أعلنت صاحبة الدار أنها ستقدم لهم نوعا نادرا من الشراب رغم ما يكلفها من نفقات ، وراح البروفيسور إيرلين يفاخر بمهارته في إعداد ذلك المسكر اللطيف الذي وعدتهم به صاحبة الدار ، وبعد العشاء وضع في وقار على المائدة المستديرة في حجرة الاستقبال إناء كبير من الخمر الممزوج بالصودا ، وقد طفت على وجهه حشائش ذات أريج عطر ، وفاكهة الفراولة. وراحت الأنسة أنا تغيط فيليب لرحيل حبيبته ، فشعر بعد

الآنسة سيسيلي ذات الشعر الأشقر الطويل والوجه والأنف الأنطس ، فقد أبدت في الفترة الأخيرة نزعة إلى نبذ المجتمع . وكانت الآنسة هيدويج قد رحلت ، والأمريكي ويكس الذي صاحبهم كثيرا في جولاتهم قد سافر في رحلة إلى جنوبي ألمانيا ، وبذلك خلا فيليب إلى نفسه كثيرا. وسعى هايوارد إلى التعرف به ولكن فيليب كان ذا طابع غير مستحب يرجع إما إلى الخجل وإما إلى خصلة موروثه بطريق الرجعة عن أجداده سكان الكهوف. فكان دائما يكره الناس عند أول معرفته بهم ، ولم يكن يستطيع التغلب على أول ما ينطبع في نفسه منهم إلا بعد أن يتعود عليهم ، ومن أجل ذلك كان من الصعب الوصول إليه. لقد واجه محاولات هايوارد للتقرب إليه في خجل شديد ، وعندما طلب إليه في يوم من الأيام الخروج معه في نزهة ، وافق لأنه لم يستطيع التفكير في عذر مهذب وكان يبدي أعذاره المعتادة وهو حائق على نفسه لوجناته المحمرة التي لم يكن يستطيع السيطرة عليها. وكان يحاول التخلص من هذا المأزق بالضحك.

وقال فيليب :

- أخشى ألا أستطيع السير معك بسرعة !

- لله درك.. أنا لا أسير لكي أكسب رهانا. وأفضل أن أتمهل..

- ألا تذكر ما كتبه «ماريوس» عندما قال على لسان «باتر» إن رياضة السير الرفيعة هي خير حافز على المحادثة..

وكان فيليب من ذلك النوع الذي ينصت جيدا ، وإن كان في أغلب الأحيان يفكر في أشياء بارعة ليقولها ولكنه قلما كان يقولها في الوقت المناسب بل بعد أن يفوت أوانها، أما هايوارد فكان محبا للحديث ، ولربما أعتقد أي شخص ذي مزيد من الخبرة عن فيليب أن هايوارد هذا يحب سماع نفسه وهو يتكلم ، وقد أثر سلوكه المتعالي هذا في فيليب فلم يستطيع إلا الإعجاب به ، ومع هذا فقد روعه من هذا الرجل إنه كان يبدي احتقارا دفيناً لأشياء كان فيليب ينظر إليها على أنها تكاد تكون مقدسة، قد نبذ الولع بالرياضة البدنية وأصبح يسم كل من يعنون بأنواعها المختلفة بأنهم يسعون لاصطياد الجوائز لا غير ، ولم يلاحظ فيليب أنه بعمله هذا إنما يستبدل بها الولع بالثقافة..

وسارا في طريقهما حتى وصلا إلى القلعة وجلسا في الشرفة التي تطل على المدينة المستقرة في قلب الوادي على نهر النيكار في اطمئنان وهدوء. وقد علق بالسماء الدخان المتصاعد من مداخنها ، وأضفى عليها ضباباً أزرق خائل اللون، كما أضفت عليها الأسطح المرتفعة، وأبراج الكنائس ، روح العصور الوسطي، وكان فيها بساطة تدفئ القلب. وراح هايوارد يتحدث عن ريتشارد فيفرييل ، ومدام بوفاري ، وفيرلين، ودانتى، وماثيو أرنولد. ولم يكن هناك من يعرف ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات عمر الخيام في هذه الأيام غير الطبقة الراقية ، وتلا هايوارد شعر الخيام على فيليب فقد كان مغرماً بتلاوة الشعر ، سواء كان شعره

أو شعر غيره، وكان ينشده في رتابة مملة ، وبعد عودتهما إلى المنزل كان شعور فيليب بعدم الثقة في هايوارد قد تغير إلى شعور بالإعجاب الشديد...

وأخذا يخرجان معا بعد ظهر كل يوم وما لبث فيليب أن عرف شيئا عن أحوال هايوارد، فقد كان ابن قاض في إحدى المدن وتوفي أبوه من وقت غير بعيد تاركا له ثلاثمائة جنيه كل عام. وقد أبلى بلاء حسنا في دراسته في تشارتر هاوس ولما التحق بجامعة كامبريدج خرج عميد كلية ترينتي عن عاداته وأعرب له عن اغتباطه لذهابه إلى تلك الكلية ، وقد أعد هايوارد نفسه لمستقبل زاهر ، فتنقل بين أكثر المجالس ثقافة ، وقرأ الشاعر براوننج في حماسة شديدة ولم يكن يعبأ بالشاعر تنيسون ، وأدار له أنفه الجميل. وكان يعرف كل تفاصيل ما كتبه الشاعر شيلي عن هاريت وكان يعبث بتاريخ الفن وقد زينت جدران حجرته بصور «لبيرن جونز» و«بوتشيللي» وكتب شعرا تغلب عليه روح التشاؤم ، وكان أصدقائه يقول بعضهم للآخر إنه رجل ذو مواهب ممتازة ، وكان هو يستمع إليهم ويقبل كلامهم عنه عن طيب خاطر عندما كانوا يتنبأون بمستقبله العظيم. وأصبح هايوارد على مر الأيام ثقة في الفن والأدب. وأثرت فيه كثيرا آراء نيومان في الدفاع عن الديانة المسيحية، وقد لاقت معتقدات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هوى من نفسه النزاعة للجمال. ولم يعقه عن الأخذ بهذا المذهب إلا خوفه من غضب أبيه وهو (رجل ساذج بسيط ضيق الأفق قرأ ماركولي) وقد ذهل زملاؤه عندما حصل على درجة مقبول فقط ، ولكنه هز كتفيه في استخفاف وأشار في رقة إلى أنه ليس غرا ينخدع أمام الممتحنين ، وكان يجعل المرء يشعر بأن الحصول على درجة عليا في الامتحانات أمر ليس له أهمية ، وراح يصف أحد الامتحانات الشفوية في فكاهة لطيفة ، فقد أخذ شخص يرتدي ياقة قميص غريبة يسأله أسئلة في المنطق ، وكانت أسئلة مملة للغاية ، وفجأة لاحظ أنه يرتدي حذاء برقبة مغطى بالمطاط من الجانبين. وكان هذا في اعتقاده شيئا مضحكا باعثا على السخرية ، وعندئذ أبعد ذهنه وراح يفكر في الجمال القوطي للكنيسة الصغيرة في كنجز ، ولكنه قضى بضعة أيام جميلة في كامبريدج ، وأقام حفلات للعشاء أفضل مما أقامها أي شخص عرفه ، وكانت الأحاديث التي دارت في حجرته خليقة بأن يتذكرها المرء دائما، وتلي هايوارد على فيليب هذا البيت الرائع: «قالوا لي يا هيراقليطس»، «قالوا لي إنك مت». وعندما قص هايوارد بعدئذ نادرته اللطيفة عن الممتحن وحذائه ضحك وقال :

- لقد كانت هذه حماقة بطبيعة الحال.. ولكنها حماقة فيها شئ رائع جميل.

وأعتقد فيليب وقد طرب قليلا ، أن هذا شئ رائع..

ثم ذهب هايوارد إلى لندن ليعيد نفسه ليدرس لكي يكون محاميا . واتخذ له حجرات جميلة في فندق كليمنت ، وذات حوائط غطي نصفها الأسفل بالخشب ، وقد حاول أن يجعل هذه الحجرات كحجراته القديمة في الكلية، وكانت له مطامع سياسية مبهمه غامضة ووصف نفسه بأنه من حزب الأحرار والتحقيق بناد له طابع الأحرار ولكن تسوده روح السادة المهيضين.

سباب رجل تخلي عن طبيعه وكان كريما معه. ولكنه كان يفقد صوابه عندما يبدى ويكس ملاحظاته المقذعة عن هايوارد. وقال ويكس في ابتسامة هزيلة من فمه اللاذع :
- إن صديقك الجديد يشبه الشعراء.

- إنه شاعر..

- هل قال لك ذلك ، إننا في أمريكا نسميه المثل الحقيقي للرجل المتبطل.

وقال فيليب في لا مبالاة :

- على أية حال ، نحن لسنا في أمريكا..

- كم عمره ؟ خمسة وعشرون عاما ؟.. ولا يفعل شيئا إلا البقاء في المنزل ليقرض الشعر..

وقال فيليب متحمسا :

- أنت لا تعرفه..

- بل.. إني أعرفه.. لقد قابلت مائة وأربعة وسبعين من أمثاله..

ولمعت عينا ويكس ، ولكن فيليب الذي لم يكن يفهم المزاح الأمريكي زم شفتيه وبدت عليه الصرامة ، وأعتقد فيليب أن ويكس رجل في منتصف العمر ، ولكنه لم يكن في الواقع قد تجاوز الثلاثين إلا بقليل ، وكان طويلا نحيل الجسم وتبدو عليه انحناء طلاب العلم ، ذا رأس ضخم قبيح عليه شعر خفيف حائل اللون وبشرة ترابية اللون وقد أضفى عليه فمه الرقيق وأنفه الطويل الرفيع وعظام جبهته البارزة مظهرا من الغلظة والخشونة ، وكان باردا دقيقا في تصرفاته لا يحتاج أبدا ولا ينفعل رجل بدون عاطفة ، وكانت لديه نزعة غريبة إلى الاستخفاف والاستهتار كانت تخيب آمال الجادين من الناس فيه.. أولئك الذين ألقوا به طباعه بينهم. وكان يدرس اللاهوت في هايدلبرج ، ولكن طلبة اللاهوت الآخرين من جنسيته كانوا ينظرون إليه في شئ من الريبة ، كان غير قويم الرأي وقد أخافهم هذا وأثار مزاحه الثقيل امتعاضهم. وسأل فيليب في جد :

كيف حدث أن عرفت مائة وسبعة وأربعين من أمثاله ؟

وقال ويكس :

لقد قابلت أمثاله في الحي اللاتيني في باريس وفي البنسبونات في برلين وميونخ ومنهم من يسكن الفنادق الصغيرة في مدينتي بيروجيا وأسيسي. وهم يقفون بالعشرات أمام لوحات «بوتشيلي» في فلورنسا ويجلسون على كل المقاعد في كنيسة سيستين في روما ، وأمثاله في إيطاليا يسرفون قليلا في شرب النبيذ ، وفي ألمانيا يشربون كثيرا من الجعة ، وهم يعجبون دائما بما هو صحيح في أي صورة كان ، وهم في يوم ما سيكتبون كتباً رائعة ، ولتصور هذا.. تصور مائة وسبعة وسبعين كتابا عظيما تستكن في أعماق قلب مائة وسبعة وسبعين عظيما من الرجال. ولكن الشيء المفجع في هذا أن واحدا من تلك المائة والسبعة والسبعين كتابا لن يكتب أبدا. وبالرغم من كل هذا فالعالم سائر في طريقه.

وكانت فكرة هايوارد هي أن يتدرب على الحمامة (فاختر جانب القضاء الأعلى لأنه أفضى فظاظة من غيره) ، وحصل على مقعد في إحدى الدوائر اللطيفة بمجرد أن وفي من وعد بوعودهم المختلفة ودأب في الوقت نفسه على التردد كثيرا على الأوبرا ، وتعرف إلى عدد صغير من الشخصيات الساحرة التي كانت تعجب بكل الأشياء التي كان يعجب بها ، وانتقل إلى ناد للطعام شعاره «الكل والخير والجميل». وعقد صداقة أفلاطونية مع إحدى السيدات التي كانت تكبره بعدة سنوات وكانت تقيم في ميدان كنسنجتون ، وقد تناول معها الشاي في ظهر كل يوم تقريبا على ضوء الشموع الخافتة ويتحدثان عن جورج ميريديث ووالتر براون وكان من الأشياء المشهورة رديئة السمعة أن أي أب له يمكنه النجاح في الامتحانات التي يعقدها مجلس المحامين ، ولذلك راح يواصل دراسته في إهمال وتراخ ، وعندما رسب امتحانه النهائي اعتبر ذلك إهانة شخصية له ، وفي هذا الوقت أبلغته السيدة التي تقيم في ميدان كنسنجتون أن زوجها سيعود من الهند في إجازة. وقالت إنه بالرغم من أنه رجل يفتقر من جميع النواحي إلا أنه ذو عقلية عادية ولن يفهم زيارات شاب إذا تكررت لبيتته. وبما أن هايوارد بأن الحياة مفعمة بالقبح ، وثارت نفسه حين فكر في مواجهة سخريه الممتحنين من أخرى ، ورأى أنه من الروعة أن يركل الكرة التي تستقر عند قدميه. يضاف إلى هذا أنه كان غارقا في الدين إلى حد كبير فقد كان من الصعب أن يعيش في لندن عيشة الرجل المهمل بثلاثمائة جنيه في العام فقط ، وتاق قلبه إلى مدينتي البندقية وفلورنسا اللتين وصفهما جون راسكين وصفا ساحرا. وأحس بأن صخب الحمامة الفظ لا يناسبه ، لأنه اكتشف أنه يكفي أن تضع اسمك على الباب لترد إليك دعاوى ، واتضح له أن السياسة الحديثة تفتقر النبيل ، وأحس أنه شاعر فتخلص من حجراته في فندق كليمنت ، وسافر إلى إيطاليا وكان قضي شتاء في فلورنسا وشتاء آخر في روما ، وهو الآن يقضي الصيف الثاني في ألمانيا بألمانيا حتى يستطيع أن يقرأ جوتة بلغته الأصلية..

وكان لهايوارد موهبة نفيسة للغاية. فقد كان يستطيع تذوق الأدب وكان في مقدوره يعبر عن شعوره في طلاقة تأثير الإعجاب ، وكان يشارك بنفسه شعور الكاتب ويرى المحاسن التي فيه ثم يمكنه بعد ذلك أن يتحدث عنه بقدر كبير من الفهم ، وكان فيليب يقرأ كثيرا ولكنه قرأ كل ما كان يعثر عليه دون تمييز. وكان من الخير له كثيرا أن يقابل في ذلك الوقت شخصا يوجه ذوقه ، فأخذ يستعير الكتب من مكتبة الإعارة الصغيرة في الميدان وبدأ يقرأ كل الروائع التي كان هايوارد يتحدث عنها ولم يكن يستمتع دائما بالقراءة ولكنه كان يقرأ قراءة دأب ومواظبة ، لأنه كان تواقا إلى أن يرقى بنفسه فقد شعر أنه في غم جهل. وما كاد السيد ويكس يعود من جنوب ألمانيا في نهاية شهر أغسطس حتى كان فيليب قد أصبح تحت تأثير هايوارد ، ولم يكن هايوارد يشعر بميل نحو ويكس ، ذلك أنه لم تعجبه السترة الأمريكية السوداء والسروال ذي النقط السوداء والبيضاء ، وكان يتحدث بهز كتفيه سخريه من الاتجاهات الجديدة في نيوانجلاند ، وكان فيليب يستمتع في أدب.

وكان ويكس يتحدث جادا ، ولكن عينيه العسليتين أخذتا تلمعان قليلا في نهاية حديث الطويل. واحمر وجه فيليب عندما أدرك أن الأمريكي يهزأ منه. فقال في غضب :
- إن حديثك هذا هراء..



كان لدى ويكس غرفتان صغيرتان خلف منزل البروفيسور إيرلين. إحداهما مؤثث بحجرة استقبال وكانت مريحة إلى حد يسمح له باستقبال الناس فيها. وبعد العشاء، كان يدعو فيليب وهايوارد - مثلما كان يفعل مع أصدقائه في كامبريدج - ليتبادلوا الحديث معه وكان يستقبلها بحفاوة كبيرة ويصر على أن يجلسا علي المقعدين المريحين الوحيديين في الحجرة. ورغم أنه كان لا يشرب الخمر فبأدب أدرك فيليب ما فيه من لا مبالاة وضع ويكس زجاجتين من الجعة قرب مرفق هايوارد وأصر وسط حماس المناقشات علي أن يشعل عن الثقب لهايوارد كلما انطفأ غليونه. وفي بداية تعرفهما ببعض اتخذ هايوارد بوصفه عضواً في جامعة شهيرة موقفا متلطفاً مع ويكس الذي كان خريج جامعة هارفارد؛ وعندما تناولا الحديث بينهما، بالصدفة، التراجيديين اليونانيين، وهو موضوع كان هايوارد يشعر أنه يتكلم عنه عن ثقة فكان ينتهج موقف من يتفضل بتقديم المعلومات لا موقف من يتبادل المعلومات مع الآخرين. وكان ويكس يستمع في أدب وابتسم في تواضع ، حتى ينتهي هايوارد من كلامه ؛ ثم يسأل سؤالاً أو سؤالين مكرين يبدو عليهما البراءة، وكان هايوارد يرد عليهما برقة دون أن يدرك المأزق الذي يسير إليه. ويعترض ويكس اعتراضاً مهذباً. يتلو ذلك تصحيحاً للوقائع وبعد ذلك جملة مقتبسة من معلق لاتيني غير معروف ثم إشارة إلى مرجع ألماني؛ ثم تنضح الحقيقة بعد ذلك وهي أنه طالب علم ذكي. وفي يسر وابتسامة فيها لمسة اعتذار مزق ويكس كل ما قاله هايوارد تمزيقاً تاماً؛ وبكياسة حصيفة بين مساح سطحية ما توصل إليه. لقد هزأ به بسخرية رقيقة.

ورأي فيليب أن هايوارد بدا وكأنه مغفل تماماً. ولم يكن هايوارد من العقل بحيث يكس عن الكلام ، فحاول ، وهو مهتاج وثقته في نفسه، مازالت في أوجها ، أن يجادل : فعرض قضايا بحماس شديد وصححه ويكس برفق ، وكان منطق زائف وأثبت له ويكس أن ما يقوله كله سخف واعترف ويكس أنه درس الأدب اليوناني في هارفارد ورد هايوارد علي ذلك بضحكة ساخرة وقال.

- كان يمكن أن أعرف ذلك. بالطبع قرأت أنت اليونانية كمدرس ولكن أنا قرأتها كشاعر - وهل تجد اليونانية أكثر شاعرية وأنت لا تعرف معناها ؟ أعتقد أنه في الديانات القديمة جاءت عن طريق الوحي فقط كان سوء الترجمة هو الذي حسن المعني.

وأخيرا بعد أن شرب الجعة ، ترك هايوارد حجرة ويكس وهو يشعر بسخونة وارتباك، وبإشارة غاضبة منه قال لفيليب :

- هذا الرجل طبعاً متحذلق فليس لديه إحساس حقيقي بالجمال. الدقة هي صفة الكتبية إنها روح اليونانيين هي التي نهدف إليها. إن ويكس أشب بهذا الشخص الذي ذهب ليسمع روبنشتاين ثم شكاً أنه لعب أنغاماً خاطئة ! ما أهمية ذلك إذا كانت الأنغام قد أدت بشكل رائع.

ولم يكن فيليب يعرف كم من الناس غير الأكفاء قد وجدوا بهجة في تلك الأنغام فتأثر بكلامه كثيراً.

ولم يكن هايوارد يستطيع مقاومة الفرصة التي يتيحها له ويكس لكي يكسب الأرض التي فقدوها في مناسبات سابقة وكان في استطاعة ويكس بمنتهى السهولة أن يجزه إلى المناقشات. ورغم أنه كان يري ضالة ما توصل إليه بالمقارنة بالأمريكي فإن عناده البريطاني ، وكرامته المجروحة لم يسمحا له بالتخلي عن الصراع. ويبدو أن هايوارد كان يجد لذة في إظهار جهله ورضائه عن نفسه وتفكيره الخاطئ. وكلما نمت عن هايوارد مقولة غير منطقية كان ويكس بكلمات قليلة يبين زيف منطق ، ويتوقف للحظة ليستمتع بانتصاره ، ثم ينتقل بسرعة إلى موضوع آخر. وقد حاول فيليب أحيانا أن يقول شيئاً لمساعدة صديقه غير أن ويكس سحقه برفق وبصورة لطيفة تختلف عن الصورة التي يرد بها علي هايوارد لدرجة أن فيليب وهو بالغ الحساسية لم يشعر بأي استياء من ويكس. ومن أن لآخر كان هايوارد يفقد هدوءه عندما يشعر أنه ازداد سخفاً فيصبح بذينا وكان أدب الأمريكي المبتسم فقط هو الذي يحول دون أن تتحول المناقشة إلى مشاجرة. وفي تلك المناسبات كان هايوارد عندما يغادر حجرة ويكس يتمتم في غضب :
- الأمريكي الملعون.

وكان هذا يحل كل شيء. فقد كان هذا رداً ممتازاً علي جدل لم يكن له رد. ورغم أنهم كانوا يناقشون كل أنواع الموضوعات في حجرة ويكس الصغيرة إلا أن المناقشة كانت تتطرق في النهاية إلى موضوع الدين : وقد اهتم طالب اللاهوت بالمناقشة اهتمام المحترفين ، ورحب هايوارد بموضوع لا تسبب له الحقائق الواقعية فيه أي إحباط. فعندما يكون الشعور هو المقياس فيمكنك أن تستبعد المنطق ؛ وعندما يكون المنطق ضعيفاً يكون هذا مناسباً جداً. وجد هايوارد أنه من الصعب أن يشرح معتقداته لفيليب دون أن يلجأ إلى سيل من الكلمات ولكن كان من الواضح (وقد تمشي ذلك مع فكرة فيليب عن النظام الطبيعي للأشياء) أنه نشأ في الكنيسة وفقاً للقانون السائد. ورغم أنه تخلي الآن عن فكرة أن يصبح كاثوليكيًا رومانياً فإنه ما زال ينظر إلى تلك الطائفة بنوع من التعاطف معها. فلهذه الكثير ليقوله مدحا فيها وقارن مؤيدا حفلاتها الرائعة بالصلوات البسيطة التي تؤدي

في كنيسة إنجلترا. وأعطى فيليب كتاب «فيليب نيومان» عن الدفاع عن العقائد المسيحية لقراءته. وقد وجد فيليب الكتاب مملا جدا ومع ذلك قرأه حتى النهاية. وقال هايوارد :
- أقرأه لأسلوبه لا لموضوعه.

وتكلم بحماس عن الموسيقى في الكنيسة الصغيرة وقال أشياء ساحرة عن العلاقة بين البخور والروح التبعية. واستمع له ويكس بابتسامته الفاترة.

- هل تعتقد أنه مما يثبت حقيقة الكاثوليكية الرومانية أن «جون هنري نيومان» كتب أسلوبا إنجليزيا جيدا وأن الكاردينال «مانينج» ظهرت له صور مقدسة ؟

وأشار هايوارد إلى أنه دخل في معاناة كثيرة مع نفسه. وقال إنه ظل عاما يسبح في بحر من الظلمات. ومر بإصبعه خلال شعره وقال أنه لن يستطيع ولو منح خمسمائة جنيه أن يتحمل هذا العذاب الذهني مرة أخرى. ولحسن الحظ فقد وصل أخيرا إلى المياه الهادئة. وقال فيليب الذي لم يكن يرضي أبدا بالكلام الغامض:

- ولكن ما الذي تؤمن به ؟

- أؤمن بالكمال كله وأؤمن بكل ما هو طيب وجميل.

وبدا هايوارد وهو يقول ذلك وسيما للغاية بأطرافه الضخمة المرتخية وشكل رأسه الرائع وسأله ويكس في رفق :

- هل هكذا ستصف ما تؤمن به في ورق إحصاء ؟

-إني أمقت التعاريف الجامدة : فهي قبيحة ومكشوفة. وإذا كنت تحب فسوف أقول : أؤمن بكنيسة دوق ويلنجتون ومستر جلاستون.

-هذه هي كنيسة إنجلترا.

ورد هايوارد قائلا :

ياله من شاب حكيم.

قال هذا بسرعة وبابتسامة فاحمر وجه فيليب لأنه شعر أنه إذا وضع في كلمات بسيطة ما قاله آخر في صياغة منمقة فإنه سيكون بذلك مذنباً بالسوقية. وواصل هايوارد قائلا :

قائلا أنا أنتمي إلى كنيسة إنجلترا ولكنني أعشق الذهب والحرائر التي يكتسي بها أسقف روم كما أحب عزوبته وكرسي الاعتراف وأحب فكرة العذاب من أجل التطهر ؛ وأحب رائحة البخور الذي يعبئ ظلمة الكنيسة الإيطالية الصغيرة وغموضها ، وأؤمن من كل قلبي بمعجزة القديس

والصلاة. وفي البندقية رأيت صيادة سمك تدخل الكنيسة حافية القدمين وتضع سلتها بها السمك إلى جانبها على الأرض وتجتو على ركبتها وتصلي للعداء ؛ وهذا هو ما شعر

أنه الإيمان الحقيقي وصلبت معها وأمنت. ولكنني أؤمن أيضا بأفروديت (إلهة الحب والجمال عند الإغريق) وأبوللو (إله الشعر والموسيقى والجمال الرجولي عند الإغريق) كما أؤمن بال

العظيم بأن (إله المراعى والغابات عند الإغريق).

كان صوته ساحرا وكان يخرج الكلمات في تناغم وكان يمكنه أن يستمر غير أن ويكس فتح زجاجة ثانية من الجعة.

-دعني أسقيك شيئا.

واستدار هايوارد إلى فيليب وصدرت منه إيماءة رقيقة مما أثر في فيليب. وقال :

- والآن هل أنت راض ؟

وشعر فيليب أنه حائر بعض الشيء فاعترف أنه راض.

وقال ويكس :

- أنا مستاء لأنك لم تضيف قليلا من البوذية. وأعترف أنني أشعر بنوع من التعاطف مع محمد ومما يؤسف له أنك تركته دون الإشارة إليه بشيء.

ضحك هايوارد لأنه كان في حال مرحلة في تلك الأمسية ، وكان رنين كلماته وعباراته يتردد لطيفا في أذنيه. وشرب كأسه كلها. ثم قال :

- أنا لم أتوقع أبدا أن تفهمني فبذكائك الأمريكي الفاتر لا يمكنك إلا أن تتخذ موقف الناقد على غرار إيمرسون وأمثاله ، ولكن ما هو النقد أصلا ؟ النقد هو تدمير بمعنى الكلمة فأني شخص يمكنه أن ينقد ولكن ليس أي شخص يمكنه أن يبني. أنت متحذلق يا زميلي العزيز.

المهم هو أن تبني : أنا بناء : أنا شاعر.

نظر ويكس إليه بنظرة ملوها الأسى ولكن فيها بريق ابتسامة وقال :

-إذا لم يكن لديك اعتراض علي ما أقول.. فأعتقد أنك مخمور بعض الشيء.

ورد هايوارد بمرح :

- لم أشرب شيئا يذكر ، ولم أشرب ما يكفي لكي يجعلني غير قادر علي التغلب عليك في المناقشة. ولكن تعال هنا ، لقد أفصحت أنا عن نفسي والآن قل لنا أنت ما هي ديانتك ؟

مال ويكس برأسه علي أحد جانبيه وبدا وكأنه عصفور يحتمي بعشه وقال.

- لقد حاولت لسنين أن أعثر على ذلك. أعتقد أنني موحد.

وقال فيليب :

- ولكنك بذلك تكون منشقا.

ولم يستطع أن يتخيل لماذا انفجر الاثنان ضاحكين فقد قهقهه هايوارد بصوت مرتفع وأرتسمت ابتسامة غريبة على وجه ويكس. وقال ويكس :

- وفي إنجلترا الموحدون لا يعتبرون من السادة المبجلين (جنتلمان)

ورد فيليب قائلا :

- لو سألتني بصورة مباشرة فلا شك أنهم ليسوا من السادة المبجلين.

كان يكره أن يضحك أحد عليه ، وراحا يضحكان مرة أخرى. وقال ويكس :

- لكن هل يمكن أن تقول لي من هو الجنتلمان ؟

- لا أعرف.. فكل الناس تعرف من هو الجنتلمان.

- هل أنت جنتلمان ؟

ولم يحدث أن طرأ علي ذهن فيليب شك في هذا الموضوع لكنه لم يكن يستطيع أن ينسب تلك الصفة إلى نفسه.

- إذا قال لك أحدهم أنه جنتلمان فلتراهن بكل ما لديك أنه ليس كذلك.

- هل أنا جنتلمان ؟

جعل أمانة فيليب من الصعب عليه أن يرد على هذا السؤال ولكنه كان مؤدبا بطبيعته وقال:

- حسنا.. أنت شيء مختلف.. أنت أمريكي أليس كذلك ؟

وقال ويكس بأسى :

- أعتقد أننا يجب أن نسلم بأن الإنجليزي هو الجنتلمان.

ولم يعارضه فيليب وقال ويكس :

- هل يمكن أن تعطيني مزيدا من صفات الجنتلمان.

احمر وجه فيليب ولما شعر بالغضب لم يحفل إذا جعل من نفسه سخرية. وقال :

يمكن أن أعطيك كثيرا من تلك الصفات. وتذكر عمه عندما كان يقول له أن الأمر يستحيل أجيالا لإعداد الجنتلمان : فأولا وقيل كل شيء يجب أن يكون ابن جنتلمان وأن يدرس مدرسة بارزة ثم في أكسفورد أو كامبريدج.

وقال ويكس متسائلا :

- وجامعة أدنبرة.. لا تنفع على ما أعتقد ؟

- ثم يجب أن يتكلم اللغة الإنجليزية مثل الجنتلمان ويرتدي الملابس اللائقة وإذا كان جنتلمان فإنه يمكنه أن يعرف من هم أمثاله.

وبدا لفيليب أنه من العبث أن يستمر ولكن هذا هو ما يعنيه بتلك الكلمة وكل من عرفه يعنون ذلك عندما يقولونها. وقال ويكس :

-لقد اتضح لي أنني لست جنتلمان. ولا أستطيع أن أرى لماذا دهشتم بهذا الشكل لأنني قمت بأنني منشق. وقال فيليب :

- أنا لا أعرف على وجه التحديد ما هو الموحد.

ومال ويكس بطريقته الغريبة برأسه على أحد الجانبين ثم قال :

- الموحدوي أو الموحد يؤمن تقريبا بإخلاص بكل شيء يؤمن به أي شخص آخر ولما إيمان دائم حي بشيء لا يعرف ما هو.

وقال فيليب :

- أنا لا أعرف لماذا تسخر مني فأنا أريد أن أعرف فعلا.

-يا صديقي أنا لا أسخر منك. لقد وصلت إلى هذا التعريف بعد سنين من الجهد الشاق والدراسات القلقة المدرة للأعصاب.

وعندما نهض فيليب وهايوارد استعدادا للرحيل أعطي ويكس لفيليب كتابا صغيرا مغلفا بورق مصقول وقال له :

- أعتقد أنك تستطيع أن تقرأ الفرنسية جيدا الآن وأتساءل ما إذا كان هذا الكتاب سيمتعك. شكره فيليب وأخذ الكتاب ونظر إلى العنوان : «حياة المسيح بقلم ريبان».



لم يخطر على بال هايوارد أو ويكس أن المناقشة التي ساعدتهم على قضاء أمسية في استرخاء ظلت تدور في ذهن فيليب النشط. فلم يعن له من قبل أن الدين أمر يمكن أن يكون موضع مناقشة. فالدين بالنسبة له هو كنيسة إنجلترا، وعدم الإيمان بعقائد هذه الكنيسة هو علامة على العناد لا يمكن أن ينجو صاحبه من العقاب سواء هنا أو في الآخرة. وكان لديه بعض الشك في عقاب الكفرة. فمن المحتمل أن يعفي قاضي رحيم - يحتفظ بلهيب الجحيم للوثنيين والبوذيين والبقية الباقية من غير المؤمنين - المنشقين عن الكنيسة والرومان الكاثوليك من العقاب (رغم أن ذلك يكون علي حساب قدر المهانة التي سيشعرون بها عندما يدركون أخطأهم). ومن الممكن أيضا أن يرثي هذا القاضي لأولئك الذين لم تتح لهم الفرصة لمعرفة الحقيقة - فهذا معقول إلى حد كبير رغم أنه مع نشاط المجتمع التبشيري لن يكون هناك كثيرين في تلك الحالة - ولكن إذا توفرات لهم فرصة المعرفة فعلا وتجاهلوها (ومن هذه الفئة طبعاً الرومان الكاثوليك والمنشقين) فإن العقاب يكون مؤكدا ومستحقا. ومن الواضح أن الكافر في حالة محفوفة بالخطر. وربما لم يتعلم فيليب هذه الحقيقة بأسلوب مسهب ولكن لا شك أنه أعطي الانطباع أن المنتمين إلى كنيسة إنجلترا هم فقط الذين لديهم أمل بالسعادة الأبدية.

ومن الأشياء التي سمعها فيليب فعلا ما قيل من أن الكافر شخص شرير فاسد ، غير أن ويكس رغم أنه لا يؤمن بأي شيء يؤمن به فيليب كان يعيش حياة من النقاء المسيحي.

وقد لقي فيليب قليلا من الحنان في حياته ، وقد تأثر برغبة الأمريكي في مساعدته: ففي المرة التي ألزمته فيها إصابته بالبرد أن يلزم الفراش ثلاثة أيام، قام الأمريكي برعايته وتمريضه كما لو كان أمه. فلم يكن في ويكس رذيلة أو شر ، بل فقط إخلاص وحنان لطيف. وكان من الواضح أنه من الممكن أن يكون المرء فاضلا عفيفا وغير مؤمن.

ولما كان فيليب قد جبل علي أن يفهم أن الناس أذانا بديانات أخرى فقط من باب العناد أو للمصلحة الذاتية : فإنهم في قلوبهم يعرفون أنهم مخطئون وأنهم يعتمدون خداع الآخرين. والآن فقد اعتاد من أجل تعلم اللغة الألمانية أن يحضر الصلاة في الكنيسة اللوثرية غير أنه عندما حضر هايوارد بدأ يذهب معه إلى القداس. ولاحظ أنه بينما كانت كنيسة البروتستانت خالية تقريبا، وأن الجو العام فيها يخيم عليه الكسل فإن كنيسة اليسوعيين من

- إذن كيف تعرف أننا لدينا الحقيقة الآن ؟
- لا أعرف.

وفكر فيليب في ذلك ملياً ثم قال :

- أنا لا أرى لماذا لا تكون الأشياء التي نؤمن بها إيماناً مطلقاً الآن خطأ كما كانوا يؤمنون بأشياء خطأ من قبل ؟
- ولا أنا أيضاً.

- إذن كيف تؤمن بأي شيء على الإطلاق ؟
- لا أعرف.

وسأل فيليب ويكس عن رأيه في معتقدات هايوارد. فقال ويكس :

- الناس دائماً يتصورون الآلهة علي شاكلتهم. إن هايوارد يؤمن بكل ما هو رائع. توقف فيليب قليلاً ثم قال :

- أنا لا أرى لماذا يجب على الإنسان أن يؤمن بآله على الإطلاق.

ولم تكد الكلمات تخرج من فيه حتى أدرك أنه توقف فعلاً عن ذلك. وقد شعر عندئذ أن شيئاً سحب أنفاسه كما يقفز المرء في حوض من الماء البارد. ونظر إلى ويكس بعينين مرتاحتين. وفجأة شعر أنه خائف. فترك ويكس بقدر ما يستطيع من السرعة. كان يريد أن يكون وحده. لقد كانت التجربة من أكثر التجارب المروعة التي مر بها. وحاول أن يتأمل فيها لقد كانت أمراً مثيراً للغاية لأنه في حياته كلها كان مهتماً بهذا الموضوع (وأعتقد أن قراره في هذا الشأن سوف يؤثر بعمق في مجرى حياته) وأن خطأ ما قد يؤدي إلى الخطيئة الأبدية المميتة ؛ غير أنه وجد أنه كلما ازداد تفكيره ازداد اقتناعه، ورغم أنه في خلال الأسابيع القليلة التالية قرأ باهتمام بالغ، كتباً تساعد على النزوع إلى الشك، فلم تكن نتيجة ذلك إلا تثبيتته فيما شعر به غريزياً. والواقع أنه كفف عن الإيمان ليس لهذا السبب أو غيره بل لأنه لم يؤثر المزاج الديني. فلقد فرض عليه الإيمان من الخارج. فقد كان مسألة بيئية وقدوة. وثمة بيئة جديدة وقدوة جديدة أتاحها له فرصة العثور على ذاته. فقد تخلى ببساطة عن إيمان الطفولة مثل عبادة لم يعد المرء يحتاج إليها. ففي البداية بدت الحياة غريبة وفيها وحد بدون الإيمان الذي كان سنداً لم يخله رغم أنه لم يدرك ذلك أبداً. وشعر كأنه رجل تعود أيسير مسقنداً على عصا وفجأة يرغم على السير دون مساندة. وحققا بدت الأيام وكأنها أبر والليالي أكثر وحدة. غير أن الإشارة قوته، وبدت كأنها جعلت الحياة مغامرة مثيرة؛ وفي فتر وجيزة بدت العصا التي تخلى عنها والعبادة التي ألقى بها من على كتفيه وكأنهما كما عبناً لا يحتمل تخلص منه. وكانت الممارسات الدينية التي فرضت عليه لسنوات كثيرة جز لا يتجزأ من العقيدة بالنسبة له. وفكر في الصلوات القصيرة وفي آيات الكتاب المقدس التي كان يجبر علي حفظها عن ظهر قلب، ثم الصلوات التي كانت تستغرق فترة طويلة الكاتدرائية التي كان يجلس لمتابعتها وكل طرف من أطرافه يرجوه أن يتحرك ؛ وتذكرت

ناحية أخرى كانت مزدحمة، وكان المصلون يصلون بهمة من كل قلوبهم. ولم تكن تبد عليهم سمات المتناقضين. وقد دهش لهذا التناقض لأنه كان يعلم طبعاً أن اللوثريين الذين كانت معتقداتهم أقرب إلى معتقدات كنيسة إنجلترا فقد كانوا من هذه الناحية أقرب إلى حقيقة الرومان الكاثوليك. كان معظم الرجال - وكان الجمع معظمه من الرجال - من جنوب ألمانيا. ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول أنه لو ولد في جنوب ألمانيا فلا شك أنه كان سيصبح كاثوليكياً رومانياً. وكان فيليب على علاقة ودية مع فتى صيني كان يجلس معه على المائدة مرتين في الأسبوع. كان اسمه «سونج».. وكان دائماً مبتسماً دمج الأخلاق مذهباً. وكان من الغريب أن هذا الشخص المذهب يجب أن يقلى في النار لمجرد أنه صيني؛ ولكن إذا كان الخلاص ممكناً مهما كانت عقيدة الإنسان فلا يبدو أن هناك ميلاً خاصة للانتساب إلى كنيسة إنجلترا.

ولما انتابت الحيرة فيليب كما لم يحدث له في حياته من قبل لجأ إلى ويكس. وكان يجب أن يلتزم حذره لأنه كان شديد الحساسية إذا تعرض للسخرية من أحد؛ وكانت الدعاية اللازمة التي يعامل بها الأمريكي كنيسة إنجلترا تثير استياءه. أما ويكس فقد جعل حيرته تزداد. فقد أقنع فيليب بأن يسلم بأن أولئك الألمان الجنوبيين الذين رأهم في كنيسة اليسوعيين مقتنعين تماماً بحقيقة عقيدة الكاثوليكية الرومانية كما هو مقتنع بما تدعو إليه كنيسة إنجلترا وكم هذا المنطلق فإن البوذيين وغيرهم من الديانات الأخرى مقتنعون بصحة عقائدهم. وبدا الأمر وكأن معرفة المرء أنه على حق لا تعني شيئاً فكلهم يعرفون أنهم على حق. ولم يكن لدى ويكس أي نية لتقويض إيمان فيليب ولكنه كان مهتماً بشدة بالديانات والعقائد وبجدها مادة ممتعة للحديث. وقد وصف آراءه بدقة عندما قال إنه بكل جدية لا يؤمن بكل شيء يؤمن به الآخرون. وذات مرة سأله فيليب سؤالاً، سمع عنه يردده عندما وصل الحديث في بيت القس إلى مؤلف عقلاني كان موضع مناقشات في الصحف. قال فيليب

- ولكن لماذا تكون أنت علي صواب وكل أولئك الرفاق مثل القديس أنسليم والقديس أوغسطين علي خطأ ؟
وسأل ويكس :

-أنت تعني أن هؤلاء كانوا رجالاً أذكىاء ومتقفين، بينما تشك كثيراً في أن أكون أنا مثلهم ؟

ورد فيليب قائلاً : نعم. لأن وضع السؤال بهذا الشكل فيه نوع من الوقاحة.

- كان القديس أوغسطين يعتقد أن الأرض مسطحة وأن الشمس تدور حولها.

- لا أعرف ما الذي يثبته ذلك ؟

- لماذا، إنه يثبت أن المرء يؤمن بما يؤمن به جيله. لقد عاش هؤلاء القديسون في عصر الإيمان عندما كان من المستحيل عملياً ألا يؤمنوا بما لا يمكن أن نصدقه الآن.

حل فصل الشتاء. وذهب ويكس إلى برلين لحضور محاضرات «بولسين»، وبدأ هايوارد يفكر في السفر إلى جنوب ألمانيا. وقد فتح المسرح المحلي أبوابه وكان فيليب وهايوارد يحضران عروضه مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع من أجل تحقيق الهدف النبيل وهو تحسين لغتهما الألمانية، ووجد فيليب أن تلك طريقة مسلية لتحسين لغته عن السماع إلى الصلوات. ووجدا أنهما في وسط حركة إحياء الدراما. وكان من المقرر أن يعرض المسرح عددا من مسرحيات «هنريك إبسن» في فصل الشتاء. وكان هناك كتاب مسرحيات آخرين كتبوا مسرحياتهم تحت تأثير الموجة الحديثة وشاهد فيليب سلسلة من المسرحيات ظهرت فيها وضاعة الجنس البشري. ولم يكن فيليب قد حضر عرضا مسرحيا في حياته من قبل (كانت فرق مسرحية فقيرة أحيانا تقدم عروضها في قاعة الاجتماعات بالمدرسة في بلاكستابل) غير أن القس كان يرفض حضورها من ناحية بسبب مهنته كقس ومن ناحية أخرى لأنه كان يعتقد أن حضورها يعتبر أمرا سويا. وقد استولي علي فيليب جنون المسرح. كان يهتز طربا في اللحظة التي يدخل فيها المسرح الصغير الرث خافت الضوء. وسرعان ما بدأ يعرف الأشياء الغريبة التي تتميز بها الفرقة الصغيرة وبدأ يعرف من الممثلين السمات الشخصية لأشخاص المسرحية غير أن هذا لم يكن يهمه في شيء. فقد كان المسرح بالنسبة له هو الحياة الحقيقية. كانت حياة غريبة مظلمة وفيها آلام، كان الرجال والنساء فيها يظهرون بعيون قاسية الشر الكامن في قلوبهم. الوجه الجميل يخفي عقلا فاسدا فاسقا؛ الفضلاء يستغلون الفضيلة كقناع لإخفاء رذائلهم السرية، الذين تبدو عليهم القوة يسقطون صرعى ضعفهم، الشرفاء فاسدون، البسطاء بذيئون. ويبدو كأنك تقيم في غرفة أقيمت فيها حفلة عريضة في الليلة السابقة فالنوافذ لم تفتح في الصباح، وكان الهواء فاسدا تفوح منه رائحة الجعة الرديئة والتبغ. ولم يكن هناك ضحك في المسرح. وكل ما يحدث هو أن تضحك ضحكة مكبوتة علي المنافق أو الأحمق، وكانت الشخصيات تعبر عن نفسها بكلمات قاسية تبدو وكأنها خرجت من قلوبهم بخجل ومعاناة.

لقد سقط فيليب صريعا لهوى المسرح ولتلك الخسة الشديدة التي اتسم بها ويبدو أنه بدأ يرى العالم من خلال منظار جديد، وكان أيضا شديد الشوق لمعرفة هذا العالم. وبعد أن انتهت المسرحية قصد إلى حانة وجلس في الدفء المنير مع هايوارد لتناول ساندويتش وشرب كأس من الجعة. وحولهما جلس جماعة من الطلبة يتسامرون ويضحكون، وكانت هناك أيضا عائلة أو اثنتان الأب والأم وولدان وفتاة، وأحيانا كانت الفتاة تقول شيئا يثير الضحك فكان الأب يتراجع إلى الخلف ويستند إلى ظهر مقعده ويضحك من أعماق قلبه. كان الجو وديا وبريئا. كانت هناك ألفة واضحة في هذا المشهد غير أن فيليب لم يلحظ ذلك، فقد كان كل فكره منصبا على المسرحية التي شاهدها.

وقال فيليب في عصبية :

المسيرات الليلية الطويلة في الطرق الموحلة، حيث كان يتجه إلى أبرشية الكنيسة في بلاكستابل وبرودة ذلك المبني الكئيب؛ كان يجلس وقدماه مثل قطعتين من الثلج وأصابه ثقيلة فاقدة الإحساس وكل شيء حوله كانت تفوح منه الرائحة السقيمة لذلك المرهم الذي يدهنون به شعورهم. يا لله لقد كان يشعر بالملل بشدة. وقفز قلبه عندما رأى أنه تحرر من كل ذلك.

وقد دهش من نفسه لأنه كف عن الاعتقاد بهذه السهولة ولم يكن يعرف أن مشاعره سببه طبيعته الرقيقة الباردة وعزا اليقين الذي توصل إليه إلى حذقه الخاص. وكان مسرورا من نفسه بشكل مفرط. وبافتقار الشباب إلى التعاطف مع موقف مغاير لموقفه، فقد شعر باحتقار غير قليل لويكس وهايوارد لأنهما كانا قانعان بالعاطفة الغامضة التي أسموها الإله ولم يتخذا الخطوة الأبعد التي كانت واضحة له كل الواضح.

وإذا انتشي فيليب بذكائه وبعدم خوفه من شيء دخل حياة جديدة. ولكن فقدانه لإيمانه لم يؤثر في سلوكه كما كان يتوقع. ورغم أنه تخلى عن جانب واحد من العقائد المسيحية فلم يخطر له أبدا أن ينتقد الأخلاق المسيحية. فقد أقر بالفضائل المسيحية ورأي حقا أنه من الخير ممارستها لما فيها من خير دون التفكير في ثواب أو عقاب. وكانت فرصة البطولة بسيطة في منزل البروفيسور ولكنه كان صادقا إلى حد كبير عن المألوف وأجبر نفسه على أن يكون ميجاملا أكثر من المعتاد مع السيدات المستنات عندما يزجون به أحيانا في الحديث معهن.

وبعد أن سوى الأمر كله بالطريقة التي ترضيه سعي إلى أن طرده من ذهنه غير أن قواه هذا كان أسهل من فعله ولم يستطع أن يمنع الأسف أو يكبت الشكوك والهواجس التي كانت تعذبه. كان صغيرا جدا وكان أصدقاؤه قليلين، ولذلك فلم تكن فكرة الخلود لها جاذبية خاصة لديه وكان يستطيع دون متاعب أن يتخلى عن الإيمان بها؛ غير أنه كان هناك شيء واحد جعله بائسا؛ وقال لنفسه أنه ليس عقلانيا، وحاول أن لا يهتم بمثل هذه الشفقة، ولكن الدموع تفرقت في عينيه عندما تذكر أنه لن يستطيع أبدا أن يرى مرة أخرى الأم الجميلة التي ازداد خبها له قيمة كلما مرت السنين منذ وفاتها. وأحيانا كان يبدو أنه يتعرض لتأثير الأجداد الذين لا حصر لهم الخاشعين الذين يخشون الله، دون وعي منه، وانتابه خوف مفرط من أنه يمكن قبل كل شيء أن الموضوع كله حقيقي وأن هناك وراء السماوات إله غيور سوف يعاقب في النيران الملتهبة كل كافر أثيم. وفي هذه الأوقات كان منطق لا يساعده أبدا مساعدة وتصور آلام العذاب الجسدي التي ستستمر إلى الأبد، وشعر أنه مريض من شدة الخوف وشعر بالعرق الغزير يتدفق من خلايا جسمه، وفي النهاية استطاع أن يقول لنفسه في يأس :

— إنها ليست غلطتي قبل كل شيء. لا أستطيع أن أرغم نفسي أن أؤمن. وإذا كان هناك إله سيعاقبني لأنني لا أؤمن. فأنا لا أستطيع أن أدرك ذلك.

- أنت تشعر أنها الحياة بعينها ، أليس كذلك ؟ هل تعرف أنني لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك فأنا أريد الذهاب إلى لندن حتى يمكنني أن أبدأ فعلا. أريد أن أكتسب التجارب. لقد مللت الإعداد للحياة أريد أن أعيشها فعلا الآن.

أحيانا كان هايوارد يترك فيليب كي يعود إلى المنزل وحده. ولم يكن يرد أبدا على تساؤلات فيليب ولكنه كان يشير في ضحكة مرحة وغبية إلى حب رومانسي ويردد عدة أسطر اقتبسها من الشاعر «روزيقي» وفي مرة أطلع فيليب على قصيدة شعرية امتزج فيها التشاؤم بالشفقة عن سيدة شابة اسمها «تروود». وكان هايوارد يحيط مغامراته السوقية القذرة الحقيرة بهالة من الشعر، ويعتقد أنه وصل إلى مرتبة الشاعر بيركينز أو فيدياس لأنه في وصف من يهتم به استخدم بعض العبارات اليونانية بدلا من العبارات الفظة المناسبة التي تستخدم في اللغة الإنجليزية. وكان فيليب بالنهار ينتابه الفضول لكي يمر بالشارع الصغير القريب من الكوبري القديم بمنازله البيضاء الأنيقة ونوافذه الخضراء اللون التي قال هايوارد أن السيدة «تروود» الذي تقيم فيه ولكن النسوة ذات الوجوه المتوحشة والوجنات المتبرجة اللاتي خرجن من أبواب منازلهن ونادوا علي فيليب ملأه بالخوف منهن. وفر مشمئزا من الأيادي الخشنة التي تحاول. وكان يتوق قبل كل شيء للتجربة وشعر بأنه سخي لأنه في سنة هذه لم يتمتع بذلك الشيء التي ذكرت كل أقاصيص الأدب إنه أهم شيء في الحياة ؛ غير أنه كانت لديه الموهبة التعيسة التي تجعله يرى الأشياء كما هي ، والحقيقة التي عرضت عليه اختلفت بصورة كبيرة عن أحلامه المثالية.

ولم يكن يدري طول المسافة الشاسعة الجرداء التي يتعين على المسافرين في الحياة أن يقطعها قبل أن يصل إلى قبول الحقيقة. هناك وهم وهو أن الشباب سعيد وهو عند أولئك الذين ضاع منهم هذا الشباب ؛ غير أن الشباب يعرفون فعلا أنهم تعساء لأنهم امتلأوا بمثل عليها غير حقيقية غرست فيهم ؛ وفي كل مرة يحتكون بالحقيقة يصدمون ويخرجون. ويبدو الأمر وكأنهم ضحايا مؤامرة: لأن الكتب التي قرأوها وهي كتب مثالية من منطلق ضرورة الانتقاء ؛ والكلام الذي سمعوه ممن يكبرونهم سنا الذين كانوا ينظرون إلى الماضي من خلال ستار وردي من النسيان ، كل ذلك هيأهم لحياة غير حقيقية. وعليهم أن يكتشفوا بأنفسهم أن كل ما قرأوه وكل ما قيل لهم هو كذب في كذب في كذب؛ وكل اكتشاف يصلون إليه هو مسهب آخر في نعش هذه الحياة. والشيء الغريب أن كل واحد مر بالتحجر المرير من الوهم يزيد بدوره الوهم في نفسه بدون وعي منه بقوة من داخله أقوى منه. كانت رفقة هايوارد أسوأ شيء ممكن لفيليب، فقد كان رجلا لم ير شيئا بنفسه بل كل ما رآه كان من خلال إطار أدبي وبأمانة اعتبر أن الانغماس في شهواته شعور رومانسي والتذبذب حساسية فنية وبطالته وتعطله استقرار فلسفي. أما ذهنه الذي كان سوقيا في جهوده نحو التهذيب فقد رأي كل شيء أكبر من حجمه في الحياة والأشكال غير واضحة في ضباب ذهبي من المشاعر العاطفية. كان يكذب ولم يعرف أبدا أنه يكذب وعندما قيل له أنه يكذب قال أن الكذب جميل. كان مثاليا.



كان فيليب قلقا ضجورا ومستاء. وقد أزعجت خياله تلميحات هايوارد الشعرية وتاقت روحه إلى الغرام.

حدث أن شيئا وقع في منزل السيدة إيرلين كان من شأن ذلك أن ازداد اهتمام فيليب بموضوع الجنس. ففي مرتين أو ثلاث أثناء سيره بين التلال قابل الأنسة «كاسيلي» تسير وحدها. ومر جانبا بانحناء وبعد ذلك بيارات قليلة رأي الرجل الصيني. ولم يفكر في الموضوع إطلاقا ؛ غير أنه في أمسية ما بينما هو في طريق عودته إلى منزله في ظلمة الليل مر بشخصين يسيران جنبا إلى جنب. ولما سمعا وقع خطواته ابتعدا عن بعضهما بسرعة ورغم أنه لم يتمكن من الرؤية جيدا في الظلام فقد كان واثقا أنهما «كاسيلي» والسيد «سونج». وكانت حركتهما السريعة في الابتعاد عن بعض توحى بأنهما كانا يسيران وقد تشابكت ذراعاهما. وانتابت فيليب الحيرة والدهشة. كانت فتاة عادية ليست جميلة وجهها مربع وقسماتها غير محددة. ولا يمكن أن تكون أكثر من ستة عشر عاما لأن شعرها كان مضفرا. وفي العشاء في ذلك المساء نظر إليها باستغراب ؛ ورغم أنها هي الفترة الأخيرة لم تكن تتكلم كثيرا أثناء تناول الطعام إلا أنها وجهت الحديث إليه قائلة:

- أين تمشيت اليوم يا سيد كاري ؟

- لقد سرت حتى كوني جستول.

- أنا لم أخرج فقد كنت أعاني من الصداع.

واستدار الرجل الصيني الذي كان يجلس إلى جانبها وقال :

- أنا آسف ، أرجو أن تكون حالتك قد تحسنت الآن.

كان من الواضح أن الأنسة كاسيلي كانت قلقة فوجهت كلامها إلى فيليب مرة أخرى:

- هل قابلت كثيرين أثناء سيرك ؟

ولم يسع فيليب إلا أن يحمر وجهه وهو يكذب ويقول:

- أبدا ، لا أعتقد أنني قابلت كائنا حيا.

وهيأ له أن نظرة ارتياح لمعت في عينيها.

وسرعان ، على أية حال ماتيقن - دون شك - في أن هناك شيئا بين الاثنين، فقد شاهدهما أناس آخرون في منزل السيدة إيرلين يتسكعان في أماكن مظلمة. وبدأت النساء المسنات الجالسات في قمة المائدة في الكلام عما أصبح الآن فضيحة. وكانت السيدة البروفيسور غاضبة ومتضايقة. فقد بذلت كل ما في وسعها كي لا ترى شيئا. فقد كان الشتاء على وشك المجيء ولم يكن الموضوع سهلا كما هو الحال في الصيف لكي يظل منزلها مشغولا بأكمله. وكان السيد سونج زبونا جيدا: فقد كان يستأجر حجرتين في الدور الأرضي وكان يشرب زجاجة من النبيذ مع كل وجبة وكانت السيدة البروفيسور تقاضيه ثلاث ماركات عن كل زجاجة فتحقق مكسبا وفيرا. ولم يكن أحد من بين نزلائها الآخرين يشرب النبيذ وبعضهم حتى لم يشرب الجعة. ولم تكن أيضا تريد أن تفقد الأنسة كاسيلي التي كان لدى والديها

تجارة في أمريكا الجنوبية وكانا يدفعان بسخاء مقابل عناية السيدة البروفيسور بالآنسة كاسيلي ، وكانت تعرف أنها لو كتبت إلى عم البنث الذي يعيش في برلين فإنه سيسحبها من رعايتها على الفور. وقد أرضت السيدة إيرلين نفسها بأن وجهت إليهما نظرات حادة على المائدة، ورغم أنها لم تجرؤ على أن تكون عنيفة مع الرجل الصيني فقد شعرت بارتياح خاص لأنها لم تعامل الآنسة كاسيلي بالكياسة المطلوبة . ولكن السيدات المسنات الثلاث لم تكن راضيات. اثنتان منهما أرملتان والثالثة عانس هولندية ذات مظهر رجولي، وكن يدفعن أقل مبلغ ممكن نظير سكنهن، وكن يسببن متاعب كثيرة غير أنهن كن دائمات التواجد فكان من الضروري تحملهن. وذهبن إلى السيدة البروفيسور وقلن لها أنه لا بد من عمل شيء، لأن ذلك أمر مشين وسوف يصبح البيت غير محترم. وحاولت السيدة البروفيسور معهن العناد والغضب والدموع ولكن الثلاث هزمنها، وبغضب مفاجئ ممزوج بإجساس بالفضيلة قالت أنها سوف تضع حدا للأمر برمتة.

وبعد الغداء أخذت السيدة كاسيلي إلى حجرة نومها وراحت تتحدث إليها بجدية ومأنهشها أن اتخذت الفتاة موقفا صفيقا وقالت أنها ستفعل ما تشاء وأنها إذا أرادت أن تسير مع الرجل الصيني فإنها لا ترى أن هذا من شأن أحد ولكن هذا أمر يخصها هي. وهددت السيدة البروفيسور بأنها سوف تكتب إلى عمها.

- وعندئذ قالت : سيجعلني عمي هينريش أقيم مع أسرة في برلين في الشتاء وسيكون هذا أفضل بكثير لي. وسوف يأتي السيد سونج إلى برلين أيضا.

وبدأت السيدة البروفيسور تبكي. وترقرقت الدموع في عينيها علي وجنتيها الحمراء والسمينتين الخشتين. وضحكت منها الآنسة كاسيلي.

-معنى هذا ثلاث غرف فارغة طوال فصل الشتاء.

ثم حاولت السيدة البروفيسور خطة أخرى. فوجهت الثناء إلى أخلاق الآنسة كاسيلي، فقد كانت رقيقة وعاقلة ومتسامحة ؛ وقالت أنها لم تعد تعاملها كطفلة بل كامرأة ناضجة وقالت أن الأمر ليس فظيحا بهذا الشكل ولكن أن تعرف رجلا صينيا بجلده الأصفر وأنفه الأفتس وعينه اللتين تشبهان عينا الخنزير فهذا شيء مروع. وهذا شيء يجعل المرء يشمئز إذا فكر فيه.

-من فضلك ، من فضلك ، أنا لن أسمع أي شيء يقال ضده.

وشهقت السيدة إيرلين وقالت :

- ولكن علاقتكما ليست جدية.

- أنا أحبه ، أحبه ، أحبه.

- يا للشيطان.

وحملت السيدة إيرلين فيها بنظرة ملؤها الفزع والدهشة؛ كانت تعتقد أن المسألة ليست أكثر من شقاوة من جانب الطفلة ، حماقة بريئة، غير أن العاطفة التي امتلأ بها صوتها

كشفت كل شيء. ونظرت كاسيلي إليها لحظة بعينين ملتتهبة ثم غادرت الحجرة بهزة من كنفها.

احتفظت السيدة إيرلين لنفسها بما دار بينها وبين الآنسة كاسيلي وبعد ذلك بيوم أو يومين غيرت ترتيب الجلوس على المائدة. وطلبت من السيد سونج أن يجلس عند طرف المائدة التي كانت هي تجلس إليه وبأدبه الشديد وافق بسرعة. وقبلت الآنسة كاسيلي هذا التغيير بلا مبالاة. ولكن لأن العلاقة بينهما أصبحت معروفة للجميع فقد أصبحا أقل خجلا ولم يجعلا من خروجهما معا سرا يخفى وكانا بعد ظهر كل يوم يخرجان علنا للنزهة معا حول التلال. وكان من الواضح أنهما لم يهتمتا بما كان يقال عنهما. وأخيرا تغير حتى هدوء البروفيسور إيرلين نفسه وأصر على أن تتكلم زوجته مع الرجل الصيني. فانتحت به جانبا وراحت تجالده : لقد كان يدمر مستقبل البنث ، ويفسد سمعة البيت ولا بد أن يعرف سوء سلوكه؛ ولكنها قبلت بانكار مبتسم ، لم يكن السيد سونج يعرف ما الذي تتكلم عنه السيدة إيرلين وقال أنه لا يولي أي اهتمام للآنسة كاسيلي وأنه لم يتنزه معها أبدا وكل ذلك غير حقيقي كل كلمة منه غير حقيقية.

- يا لله يا سيد سونج كيف تقول ذلك ؟ لقد شوهدتما معا مرارا ومرارا.

- أبدا.. أنت مخطئة. وهذا غير صحيح.

ونظر إليها بابتسامة متواصلة كشفت عن أسنانه البيضاء الصغيرة المنتظمة. كان هادئا جدا. وقد أنكر كل شيء. أنكر بكل وقاحة. وفي النهاية فقدت السيدة إيرلين أعصابها وقالت أن الفتاة اعترفت أنها تحبه. لم يتأثر. واستمر في الابتسام.

- كلام فارغ ! كلام فارغ ! كله غير حقيقي.

لم تستطع أن تحصل منه على شيء. وساءت حالة الطقس بشدة. وتساقطت الثلوج ، ثم بدأت الثلوج تذوب مع تتابع أيام كئيبة كان التنزه فيها تسلية فقيرة. وفي إحدى الأمسيات بعد أن انتهى فيليب من درس الألمانية مع البروفيسور وكان يقف لحظات في حجرة الاستقبال يتحدث مع السيدة إيرلين ، دخلت «أنا» مسرعة:

- أمي.. أين ذهبت كاسيلي ؟

-أعتقد أنها في غرفتها.

- ليس هناك ضوء في الغرفة.

وأبدت السيدة إيرلين تعجبها ونظرت إلى ابنتها في رعب. وقد قفزت الفكرة التي كان في رأس أنا إلى رأسها.

- رني الجرس لإيميل.

وإيميل هذا هو الرجل الأخرق الذي ينتظر لخدمة المائدة ويقوم بمعظم أعمال المنزل. وجاء إيميل

فيليب للحظة أن السيد سونج سوف يتهرب من المحنة. وأخيرا جاء يبتسم ابتسامة عريضة وعيناه تفيضان بالاعتذار الذي أبداه عن تأخره في الحضور. وأصر كالمعتاد على أن يقدم للسيدة إيرلين كأسا من النبيذ الذي يشربه وقدم كأسا للآنسة فورستر. كان جو الحجرة حارا فقد ظلت المدفأة موقدة طوال اليوم. والنوافذ كانت نادرا ما تفتح. وراح إيميل يتخبط هنا وهناك، غير أنه استطاع في النهاية أن يخدم بسرعة وينظام. وجلست السيدات المسنات الثلاث صامتات وكان من الواضح أنهن رافضيات لكل شيء مما حدث: ولم تستطع السيدة إيرلين التخلص من دموعها وكان زوجها صامتا وحزينا. وفترا الحوار. وبدا لفيليب أن هناك شيئا مخيفا في هذا الجمع الذي جلس معه مرارا. وكان شكلهم جميعا مختلفا تحت ضوء المصباحين المعلقين عما كانوا يبدون من قبل: وأحس أنه مرتبك. ووقعت عيناه على عيني الآنسة كاسيلي، وأعتقد أنها تنظر إليه في كراهية واحتقار. أصبح جو الغرفة خانقا. ويبدو أن العاطفة لهذا الثنائي أزعجتهم جميعا.

ساد شعور بالفساد الوارد من الشرق: ونكهة واهية لعصي الطعام الصينية، وغموض الرذائل المستترة كل ذلك جعل أنفاسهم ثقيلة. كان فيليب يشعر بنبض عروقه في جبهته. ولم يستطع أن يفهم ما هو الشعور الغريب الذي جعله تائها غائب الانتباه: ويبدو أنه كان يشعر في الموضوع بشيء جذاب إلى أقصى حد ومع ذلك فقد كان يشعر أيضا بالنفور والرغب. وسارت الأمور هكذا لعدة أيام. وكان الجو سقيما بسبب الشعور غير الطبيعي الذي انتاب الجميع، ويبدو أيضا أن أعصاب البيت كله كانت ساخطة. وكان السيد سونج هو الوحيد الذي لم يتأثر بشيء وكان مازال مبتسما دمث الخلق ومؤدبا أكثر من ذي قبل: ولا يمكن لأحد أن يعرف هل سلوكه هذا كان تعبيراً عن انتصار المدنية أم تعبيراً عن اختقار الشرق للغرب المهزوم. وكانت الآنسة كاسيلي مزهومة وساخرة. وفي النهاية لم تستطع السيدة إيرلين أن تحتمل الموقف أكثر من ذلك. وقد استولي عليها الفزع لأنها أشارت بصراحة وحشية إلى النتائج المحتملة لمؤامرة أصبحت الآن واضحة للجميع ورأت أن اسمها في هايدلبيرج وسمعة بيتها قد تخطما بسبب فضيحة لا يمكن سترها. ولسبب ما، فإن هذا الاحتمال لم يخطر ببالها من قبل والآن وقد شوشت أفكارها بسبب الخوف الفظيع، فلم يكن في الإمكان منعها من طرد الفتاة من البيت فوراً. وكان بسبب تعقل أنا أن أرسلت رسالة توخي فيها الحذر إلى عم الفتاة في برلين أقترح فيها أن تغادر كاسيلي المنزل في هايدلبيرج. ولما قررت السيدة إيرلين أن تفقد النزليين لم تستطع أن تقاوم الشعور بالرضا الذي جاءها من إطلاق العنان لسوء مزاجها الذي حرصت ألا تهديه لمدة طويلة. وقد أصبحت الآن حرة في أن تقول أي شيء للآنسة كاسيلي.

لقد بعثت برسالة إلى عمك كي يأخذك من هنا. فأنا لا أستطيع أن أبقى في منزلي أكثر من ذلك.

ولمعت عيناهما الصغيرتان عندما رأت إصفرار وجه الفتاة. واستمرت تقول:

إيميل.. اذهب إلى غرفة السيد سونج وادخل دون أن تطرق الباب. فإذا كان هناك أحـ قل إنك جئت لتفحص المدفأة.

ولم تظهر على وجه إيميل البارد أي من علامات الدهشة.

ونزل السلالم ببطء. وتركت السيدة إيرلين والآنسة أنا الباب مفتوحا وأصغينا للسمع وسمعنا إيميل يصعد السلالم ونادتا عليه.

وسألته السيدة إيرلين:

هل كان هناك أحد؟

نعم، السيد سونج كان هناك.

هل كان وحده؟

وابتسم إيميل ابتسامة خبيثة فضافت مساحة وجهه وقال:

لا.. كانت الآنسة كاسيلي هناك.

وصاحت السيدة إيرلين:

آه.. يا للعار.

وزادبت ابتسامة إيميل وقال:

الآنسة كاسيلي توجد معه كل مساء. إنها تقضي ساعات كل يوم هناك.

بدأت السيدة إيرلين تعصر يديها.

أوه.. يا للقرف.. ولكن لماذا لم تبلغني بذلك؟

رد بهبط وهو يهز كتفيه:

هذا ليس من شأني.

أعتقد أنهما دفعا لك كثيرا. أغرب عن وجهي...

وسار في ثناقل نحو الباب.

وقالت أنا:

يجب أن يتركا البيت يا أمي.

ومن الذي سيدفع الإيجار والفواتير حل موعد سدادها؟! أنت لا تهتمين وتقولين يجب أن يتركوا البيت. إذا تركا البيت لن أستطيع دفع الفواتير. والتفتت إلى فيليب والدموع تنهمر من عينيها. «أخ يا سيد كاري، إنك لن تقول شيئا مما سمعته. فلو علمت الآنسة فورستر» - هذه هي العانس الهولندية - فسوف تترك البيت فوراً وبعد ذلك لن أستطيع الإبقاء عليه.

بالطبع لن أقول شيئا.

وقالت أنا:

إذا بقيت بالمنزل فلن أتكلم معها.

وفي ذلك المساء على العشاء جلست الآنسة كاسيلي في مكانها في الموعد المحدد وكان وجهها أكثر حمرة من المعتاد وبدت بعينيها نظرة عناد، غير أن السيد سونج لم يظهر وظن

إلى جنسهم. فقد كان بدنه يقشعر عندما تجول في خاطره فكرة هذه الأفراح الباغية التي تقام في هذا الفصل من العام واشتدت رغبته في تجنب هذا الأمر الواضح، فقرر السفر في ليلة عيد الميلاد...

لم يكن فيليب أسفا لفراقه إلا لأنه كان صريحا، وكان يضايقه أن يخفي أي شخص ما يدور بخلده. وهو وإن أصبح إلى حد كبير تحت تأثير هايوارد فلم يسلم بأن الحيرة تشير إلى حساسية محبة وكان يستاء من شبح السخرية التي كان ينظر بها هايوارد إلى أساليب فيليب الصريحة. وتراسلا، وكان هايوارد يكتب رسائل رائعة تثير الإعجاب، إذ كان يعرف في نفسه هذه الموهبة فكان يبذل جهدا كبيرا في كتابة رسائله، وكان ذا طبيعة تعني ما يتصل بها من مؤثرات جميلة فاستطاع أن يبعث إليه في خطاباته من روما بأريخ إيطاليا العطر. وكان يظن أن مدينة الرومان القدامى تتسم بقليل من السوقية، ولم يجد فيها ما يميزها غير تدهور الإمبراطورية الرومانية، ولكن روما الباباوات هي التي استهوت مشاعره ولاح من كلماته التي انتقاها في تألق، جمال روما الغابر. فكتب عن موسيقى الكنائس العتيقة وتلال «البان» ورائحة دخان البخور الخفيفة، وسحر الشوارع في الليل بعد أن يتساقط عليها المطر وتلمع الأرصفة ويبدو الغموض على المصابيح. وربما كان هايوارد قد أعاد كتابة هذه الرسائل الرائعة إلى عدد من الصحاب ولكنه لم يدرك أنها كانت ذات أثر مضمّن في فيليب الذي خيل إليه أنها جعلت من حياته أمرا تافها مملا. وعندما حل الربيع أصبح هايوارد متحمسا مجنونا واقترح على فيليب أن يأتي إلى إيطاليا وقال أنه يضيع وقته ببقائه في هايدلبرج وأن الألمان شعب فظ والحياة عندهم لا روعة فيها، فكيف تستطيع الروح أن تعود إلى نفسها في مثل هذه البقاع الجامدة؟ أما الربيع في توسكاني فينثر الزهور على الأرض، وكان فيليب في التاسعة عشرة، فإذا جاء إلى إيطاليا فإنهما سيتجولان في المدن القابعة علي جبال أمبريا. وصدحت هذه الأسماء في قلب فيليب بموسيقى عذبة. وكانت كاسيلي قد ذهبت كذلك مع حبيبها إلى إيطاليا، وعندما فكر فيهما فيليب انتابه ضجر لم يعرف علته، فلحن حظه لأنه لم يكن لديه المال الذي يمكنه من السفر، وكان يعلم أن عمه لن يبعث إليه بأكثر من الخمسة عشر جنيها التي اتفقا عليها كل شهر. وهو لم يحسن تدبير أمر مرتبه هذا، فكانت مصاريفه وما يدفعه لدروسه لا تبقى له بعد بذلك إلا القليل، ووجد أن مطاوعة هايوارد ستكونه الكثير. فكثيرا ما اقترح هايوارد القيام بالرحلات أو الذهاب إلى المسرح، أو شراء زجاجة من النبيذ، في الوقت الذي مرتب فيليب الشهري قد قارب على الانتهاء، لم يكن يريد - لحماقته التي تنتاب أمثاله في هذه السن - أن يعترف بأنه لا يحتمل هذا التبذير.

وكانت خطابات هايوارد لحسن الحظ قليلة نادرة، وفي الفترات التي بينها عاد فيليب إلى حياته النشطة، فقد قبل طالبا في الجامعة وحضر المحاضرات في منهج أو اثنين. وكان كينو فيشر وقتئذ في أوج شهرته، وكان في ذلك الشتاء يلقي محاضراته الرائعة عن «شوينهور». وكانت هذه بداية دراسة الفلسفة بالنسبة لفيليب. وكان ذهنه يتسم بالمنطق العملي فتحرك

- أنت مخزية.. مخزية ليس عندك أي حياء.

وواصلت سبها بألفاظ مقذعة.

وقالت الفتاة فجأة بعد أن تخلت عن استقلالها الذي كانت مزهوة به.

- ماذا قلت لعمي أيتها الأستاذة؟

- سوف يقول لك بنفسه وأنا أتوقع رسالة منه غدا.

وفي اليوم التالي ولكي تزيد من حدة المهانة وتشيعها على الملاء بقدر أكبر نادت الأنسة كاسيلي أثناء تناول العشاء وقالت لها:

- لقد تلقيت رسالة من عمك. عليك أن تجمعي حاجياتك الليلة وسوف نضعك في القطار صباح غد. وسوف يقابلك عمك في برلين في محطة بانهوف.

- جيد جدا يا سيدتي الأستاذة.

ابتسم السيد سونج في وجه السيدة إيرلين وبغض النظر عن احتجاجاتها قدم لها كأس من النبيذ. أكلت السيدة إيرلين عشاءها بشهية مفتوحة. ولكنها انتصرت بطريقة غير عاقلة وقبل أن تأوي إلى فراشها نادت على الخادم.

- إيميل.. إذا كانت الأنسة كاسيلي قد أعدت حاجياتها فمن الأفضل أن تحملها إلى أسفل الليلة، فسوف يحضر البواب قبل الإفطار لأخذها.

اختفى الخادم ثم عاد بعد لحظة.

- الأنسة كاسيلي ليست في غرفتها وقد اختفت حقيبتها.

أسرعت الأستاذة صائحة نحو الحجرة: كان الصندوق على الأرض مربوطا ومغلقا بقليل ولكن لم تكن هناك حقيبة ولا قبعة ولا عباءة. ولم يكن هناك شيء على منضدة الزينة وهرعت السيدة إيرلين وهي تتنفس بصعوبة إلى أسفل متجهة إلى حجرة السيد سونج. لم تكون قد تحركت بسرعة طيلة عشرين عاما وصرخ إيميل فيها يحذرهما كي لا تسقط. ولم تحفل بأن تدق الباب بل اقتحمته فجأة. كانت الحجرة فارغة. واختفي المتاع وكان الباب الموصل إلى الحديقة ما زال مفتوحا مبينا كيف خرجا. وكانت هناك في مظروف ترك على المنضدة أوراق نقدية بقيمة الإقامة لمدة شهر ومبلغ إضافي للنفريات. جلست الأستاذة منهكة على أريكة ليس هناك شك الآن في أن الاثنين خرجا معا.



ظل هايوارد يردد طوال شهر أنه سيسافر إلى الجنوب في اليوم التالي ويؤخر ذلك من أسبوع لآخر بسبب عدم قدرته على اتخاذ قراره وما يلاقيه من المتاعب في حزم متاعه مضافا إلى ملل الرحلة ثم اضطر أخيرا إلى الرحيل قبل عيد الميلاد، بسبب الاستعداد لهذا العيد، ذلك أنه لم يستطع أن يتحمل التفكير في هذه الأفراح التي يقيمها الألمان، ومن ينتمون

وربتت على يديه ونظرت إلى وجهه بعينين بدا فيهما السرور وقالت:

-لقد كبرت الآن وأصبحت رجلا حقا..

وكان شارب صغير قد ظهر فوق شفته العليا، وقد اشترى موسى ، وكان بين الحين والحين يخلق الزغب من ذقنه الأملس في عناية فائقة وقالت:

-لقد شعرنا بالوحدة أثناء غيابك..

ثم سألتها في خجل وقد تهدج صوته:

-ألا تسرك عودتك إلى منزلك ؟

-بلى.. إنها تسرني فعلا..

كانت نحيفة إلى حد يخيّل إلى من ينظر إليها أنها تكاد تكون امرأة شفاقة، وكانت الذراعان اللتان أحاطتا بعنقه عظاما هشّة تذكرك بعظام الدجاج، وامتلاً وجهها الهزيل بالتجاعيد، وأضفت عليها حلقات الشعر الرمادية اللون التي صففت بها شعرها كما كانت تصفقه أيام شبابها مظهرا عجيبا يدعو إلى الرثاء، وبدا جسدها الذابل كورقة من أوراق الخريف تشعرك بأن أي ريح تهب ستطيح بها. وأدرك فيليب أن حياة هاتين النفسين الهادئتين قد انتهت وأنهما ينتميان إلى جيل مضي، وأنهما ينتظران الموت هناك في صبر بل في غباء. وقد ذهل فيليب لهذا الضياع لأنه كان شابا به ظمأ إلى الحياة والمغامرة.. إنهما لم يفعلوا شيئا، وإذا ما فارقا الحياة فسيبدو الأمر وكأنهما لم يأتيا إليها أبدا. وشعر فيليب بعطف كبير على العمة لويزا وأحس فجأة بأنه يحبها لأنها أحبته.

ثم دخلت الأنسة ويلكنسون بعد أن احتجبت بعيدا حتى تتيح للأسرة أن ترحب بهنّ بالأخ. وقالت السيدة كاري:

-هذه هي الأنسة ويلكنسون يا فيليب.

ومدت الأنسة ويلكنسون يدها قائلة:

-ها قد عاد الفتى الكريم. لقد أحضرت زهرة لعروة الفتى الكريم.

وفي ابتسامة مرحة ثبتت الزهرة التي أتت بها من الحديقة بدبوس في عروة فيليب، وتصاعد الدم إلى وجهه خجلا وشعر بالحماسة، فقد كان يعلم أن الأنسة ويلكنسون هي ابنة قس كان آخر رئيس لعمه وليام. وكان له صلة قوية ببنات رجال الكنيسة. وكان يرتدين ملابس رديئة التفصيل وينتعلن نعلا ضخمة، وكان غالبا ما يرتدين الثياب السوداء لأن المنسوجات المحلية لم تكن قد وصلت إلي «إيست أنجليا» عندما كان فيليب يقضي أيامه الأولى في بلاكستابل. ولم تكن نسوة الكنيسة يستطعن الألوان الزاهية ولم يكن يعنن بتصفيف شعرهن، وكانت تنبعث منهن رائحة غير محببة هي رائحة الثياب الداخلية المنشأة، وكان من رأيهن أن المفاتن الأنثوية لا تتناسب مع مكانتهن وكان جميعا يظهرن بمظهر واحد، الكبيرات منهن أو الصغيرات وكان يتمسكن بدينهن بغطرسة وكانت صلتتهن الوثيقة بالكنيسة تجعلهن يقفن من سائر بنى الإنسان موقفا يتسم بالطغيان.

في من بين المنعوتات، ولكنه وجد سخرام ينومعه في الأسفلح إلى الأبحاث الميتافيزيقية التي كانت تبهر أنفاسه وكان الأمر أشبه إلى حد ما بمشاهدة راقص على حبل مشدود فوق هوة سحيقة يأتي بحركات خطيرة ولكنها مثيرة إلى حد لا مزيد عليه..

واستهوت روح الموضوع التشاؤمية شبابه، وأعتقد حينئذ أن العالم يوشك أن يخطو إلى مكان مملوء بالكوارث المروعة، ولكن هذا لم يقلل من شوقه إلى اقتحامه ولما عرضت عليه السيدة كاري التي كانت تقوم بإبلاغ فيليب بأراء وصيه في الوقت المناسب العودة إلى إنجلترا، وافق على اقتراحها في حماسة بالغة. فقد كان عليه حينئذ أن يقرر ماذا يريد أن يفعل. وقال في نفسه إنه إذا رحل عن هايدلبرج في نهاية شهر يولية لاستطاع أن يناقش الأمور خلال شهر أغسطس، وبذلك يجد متسعا من الوقت ليتخذ ما يشاء من ترتيبات وتعد يوم رحيله وكتبت إليه السيدة كاري مرة أخرى وذكرته بالأنسة ويلكنسون التي كان يفضلها، ذهب إلى منزل إيرلين في هايدلبرج، وأبلغته أنها اتخذت ترتيباتها لكي تقض معهم بضعة أسابيع في بلاكستابل وأنها ستمر بمحطة فلاشينج في يوم كذا وكذا، وإذا سافر هو في نفس الوقت فسيكون في وسعه أن يبحث عنها ويفود في صحبتها إلى بلاكستابل. وقد اضطره حيأؤه إلى أن يبحث إليها برسالة في الحال ويقول أنه لن يتمكن من السفر إلا بعد هذا الموعد بيوم أو يومين، فقد تخيل فيليب نفسه وهو يبحث عن الأنسة ويلكنسون ثم تخيل الحرج الذي سيصيبه عندما يذهب إليها ويسألها هل هي الأنسة ويلكنسون (ومن المحتمل جدا أن يوجه هذا السؤال إلى شخص آخر فيزجره) ثم تأتي مشكلة وجودها معه في القطار وهل يتحدث إليها أو يتجاهلها ويقرأ كتابه.

وأخيرا غادر هايدلبرج ولم يفكر طيلة الأشهر التي مضت في شيء إلا في المستقبل وغادر المدينة غير أسف. ولم يعرف أبدا أنه كان سعيداً هناك وقد أعطته الأنسة «أنا» نسخة من كتاب لمؤلف ألماني، وأهداها هو في المقابل نسخة من كتاب وليام موريس وكان كلاهما حكيما كل الحكمة فلم يقرأ هدية الآخر..



ودهش فيليب عندما رأى عمه وعمته (زوجة عمه) ، فلم يكن قد لاحظ من قبل أنهما مسنان إلى هذا الحد ، واستقبله القس في تجاهله المعتاد الذي يتسم بشيء من المودة، وقد بدا أكثر بدانة عن ذي قبل واتسعت صلته قليلا ، وازداد بياض شعره، ورأى فيليب حينئذ أنه رجل غير ذي شأن، وكان وجهه هزيلا فيه مسحة من التسامح ، وأخذته العمة لويزا بين ذراعيها وقبلته وانسابت دموع الفرح على وجنتيها فتأثر فيليب ذلك لأنه لم يكن يدرك أنها تحبه حبا نهما وتعنى به. وقالت له:

-لقد بدا الزمن طويلا منذ رحيلك يا فيليب..

-إنها ليست دجاجة صغيرة يا لويزا، فعندما كنا في لينكولنشير منذ عشرين عاما، كانت فتاة بالغة تقريبا. وكانت تصفف شعرها على هيئة صغيرة وتلقى بها خلف ظهرها.

وقال فيليب :

-ربما لم تكن تعدت العاشرة..

فأجابت العمة لويزا :

-كانت أكبر من ذلك..

وقال القس :

-أظن أنها كانت تقترب من العشرين..

-لا يا وليم كان يبدو على مظهرها أنها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة..

فقال فيليب :

-إن هذا يجعلها فوق الثلاثين بكثير..

وفي هذه اللحظة نزلت الأنسة ويلكنسون وهي تترنم بأغنية لبنيامين جودار وقد ارتدت قبعتها لكي تخرج مع فيليب في نزهة. ومدت له يدها حتى يوثق أزرار قفازها ، وفعل ذلك وهو مرتبك. وشعر بالحرج ولكنه فعله بشهامة ، وكان الحديث يدور بينهما وقتئذ في سر ، وكانا في أثناء سيرهما يتناولان جميع الموضوعات ، فحدثته عن برلين وحدثها هو عن السنة التي قضاها في «هايدلبرج» وبينما هو يتحدث إليها بدت له الأمور التي كانت تافهة من قبل وكأنها اكتسبت أهمية جديدة وراح يصف لها من كانوا معه في منزل السيدة إيرلين، وعندما أبلغها بالحديث الذي دار بين هايوارد وويكس والذي بدا في هذا الوقت ذو معنى كبير ، حوره قليلا حتى جعلهما في صورة مضحكة. واغتبط فيليب عندما ضحكت الأنسة ويلكنسون.. وقالت له :

-لشدة ما أنا خائفة منك.. فأنت جد ساخر..

ثم سألته مازحة هل كانت له مغامرات غرامية في «هايدلبرج»..

وأجابها في صراحة دون أن يفكر بأنه لم يكن له شيء من ذلك ، ولكنها أبت أن تصدقه وقالت له :

-يا لك من فتى كتوم ، أمن غير المحتمل ألا يحدث ذلك في سنك هذه..

واحمر وجه فيليب خجلا وأجابها ضاحكا :

-إنك تريد أن تعرفي أكثر مما يجب.

وردت عليه قائلة:

-أعتقد ذلك..

وضحكت وكأنها انتصرت عليه وقالت :

- إنه يحمر خجلا !

أما الأنسة ويلكنسون فقد كانت تختلف عنهن كثيرا. فقد كانت ترتدى ثوبا من الموسلين نقشت عليه رسوم من مجموعات أزهار رمادية اللون وتنتعل حذاء ذا كعب عال مستدير الرأس وخيل إلى فيليب القليل التجربة أنها ترتدي ثيابها في أناقة بالغة، ولم يلحظ حينئذ أن ثوبها كان رخيصا ومبهرجا، وقد صفقت شعرها في عناية فائقة وجعلت به قصة صغيرة على منتصف الجبهة، وكان هذا الشعر لامعا في سواد فاحم متماسكا إلى حد خيل إليه معه أنه من الصعب نفشه. وكانت عيناها سوداوين واسعتين وأنفها معقوفا قليلا، فإذا نظرت إليها من الجنب خيل إليك أنها طير كاسر ولكن وجهها من الأمام كان جذابا وكانت تبتسم كثيرا، ولكنها لمهما كان كبيرا فكانت كلما ابتسمت تحاول إخفاء أسنانها الكبيرة المائلة إلى الأصفر ولكن الذي حير فيليب كثيرا هو كثرة المساحيق على وجهها، فقد كانت آراؤه عن سلوك المرء آراء صارمة، وكان يظن أن السيدات المتهذبات لا يضعن المساحيق. وكانت الأنسة ويلكنسون بالطبع أنسة مهذبة لأنها ابنة رجل من رجال الكنيسة، ورجل الكنيسة رجل مهذب..

وقرر فيليب أن يكرهها أشد الكره فقد كانت تتكلم بلكنة فرنسية خفيفة، ولم يدر لم تفعل ذلك وهي التي ولدت ونشأت في قلب إنجلترا وظن أن في ابتسامتها تكلفا ، وضايقة سلوكها ذلك المرح المشوب بالحياء. وظل طيلة يومين أو ثلاثة أيام صامتا معاديا لها، ولم يبدو أنها لم تلحظ ذلك فقد كانت لطيفة للغاية وكانت توجه حديثها إليه وحده، وقد بشيء من الزهو للطريقة التي كانت تبدي بها إعجابها بأحكامه الصائبة. وكانت تجب يضحك أيضا ، ولم يكن فيليب يستطيع أبدا أن يقاوم من يدخل السرور على نفسه. وكانت أصبحت لديه وقتئذ ملكة ترديد الجميل من القول من آن لآخر. وكان يسره أن يجد من يستجيب إليه ويقدر حديثه حق قدره، ولم يكن القس أو السيدة كاري يحسنان الفكاهة ولم يضحكا من أي شيء قاله. ولما ألفت صحبة الأنسة ويلكنسون وزال عنه خجله بدأ يشعر بمزيد من المودة إليها ، ووجد أن اللكنة الفرنسية رائعة ، كما رآها في حفل أقامه الطبيب أكثر الحاضرين أناقة، فقد كانت ترتدى ثوبا أزرق به نقط بيضاء كبيرة وسر فيليب لما سببه هذا الثوب إعجاب بين الحاضرين. وقال لها وهو يضحك :

-أنا واثق من أنهم يعتقدون أنك في أحسن حالاتك.

وقالت ردا عليه :

-إن حلم حياتي أن ينظر إلى الناس على إنى امرأة فاجرة مهجورة.

وحدث في يوم من الأيام أن كانت الأنسة ويلكنسون في حجرتها وسأل فيليب العمة لويزا عن عمر الأنسة ويلكنسون فقالت له :

- يا عزيزي.. يجب ألا تسأل أبدا عن عمر سيدة ، ولكنها بكل تأكيد أكبر من أن تليق زوجة.

وابتسم القس ابتسامته البطيئة البدينة وقال :

سر فيليب لأنها اعتقدت أنه كان كلبا حزيناً وغير وجهة الحديث بحيث يجعلها تعتقد أنه لديه كثير من الأشياء الرومانسية التي لم يجروا علي خوضها وأنه مستاء من نفسه لذلك، فلم تكن هناك فرصة.

وكانت الأنسة ويلكنسون حانقة على حظها فقدكرهت أن تضطر إلى كسب عيشها بنفسها وحكت لفيليب حكاية طويلة عن خالها الذي كانت تتوقع أن يترك لها ثروة كبيرة ولكنه تزوج طاهيته وغير وصيته. وأشارت إلى فخامة منزلها وقارنت بين حياتها في لينكولنشاير حيث العربات والخيول بحالتها الحالية التابعة الفقيرة. وقد احتار فيليب قليلا وهو يذكر ذلك للعمة لويزا فقالت له أنها عندما كانت تعرف أسرة ويلكنسون لم يكن لديهم سوي فرس قرم وعربة يجرها كلب: وقد سمعت العمة لويزا عن الخال الثري ولكنه تزوج وأنجب أطفالا قبل أن تولد الأنسة إيميلي ولا يمكن أن يكون لديها أمل كبير في وراثة ثروته. ولم تمدح الأنسة ويلكنسون في حديثها برلين لأنها كانت هناك في موقف صعب وشكت من سوقية الحياة الألمانية وقارنت بينها بمرارة وبين روعة الحياة في باريس حيث أمضت عدة سنوات لم تقل كم سنة. كانت مربية أطفال في عائلة فنان رسام أنيق تزوج من سيدة يهودية ثرية وفي منزلهم قابلت شخصيات شهيرة كثيرة. وأذهلت فيليب بأسماء تلك الشخصيات. ممثلون من الكوميدي فرانسيز كانوا يزورون البيت كثيرا وكان الشخصية الشهيرة كوكلين يجلس إلى جانبها على مائدة الغداء وقال لها أنه لم يقابل أجنبيا يتحدث الفرنسية بهذه الطلاقة. وكان يزورهم أيضا ألفونس دوديه وقد أهداها نسخة من كتابه «سافو» ووعدها بأن يكتب اسمها على النسخة ولكنه نسي ونسيت هي أن تذكره وقالت أنها تعتز بهذا الكتاب رغم ذلك ووعدت فيليب بأن تعطيه إياه. ثم جاء موباسان.. ونظرت الأنسة ويلكنسون وبضحكة مجلبة إلى فيليب نظرة متعمدة، ياله من رجل! ياله من كاتب. كان هايوارد قد تكلم عن موباسان ولم تكن سمعته غير معروفة لفيليب.

وسألها:

— هل مارس الحب معك؟

كانت الكلمات تلتصق بحنجرته بصورة غريبة ولكنه تفوه بها والسلام. كان الآن يحب الأنسة ويلكنسون كثيرا وكان حديثها يمتعته، ولكنه لم يستطع أن يتصور أن أحدا يمكنه ممارسة الحب معها. وصاحت قائلة:

— ياله من سؤال. مسكين. لقد مارس الحب مع كل امرأة قابلها لقد كانت عادة لم يستطع التخلي عنها.

تنهدت قليلا ويبدو أنها كانت تفكر في الماضي برقة. وقالت:

— كان رجلا ساحرا.

ومن له خبرة أكثر من فيليب كان يمكن أن يخمن من تلك الكلمات احتمالات اللقاء: الكاتب الشهير يدعى إلى الغداء مع الأسرة. وتجيء مربية الأطفال تصحبها الفتاتان الطويلتان اللتان تعلمهما: التقديم:

— آنستنا الإنجليزية!

— أهلا بك يا آنسة.

ثم يبدأ الغداء الذي تجلس فيه الأنسة الإنجليزية صامتة، بينما يتكلم الضيف مع مضيفيه.

ولكن بالنسبة لفيليب فقد أثارت كلماتها كثيرا من الخيال الرومانسي.

وقال في فضول:

— حدثيني عنه.

وقالت صادقة:

— ليس عندي ما أقوله عنه.

قالت ذلك بطريقة توحى بأن ثلاثة مجلدات يمكن بالكاد أن تحوي الحقائق المثيرة.

— لا تكن فضوليا.

وبدأت تتكلم عن باريس، كانت تحب الشوارع والغابات الفرنسية. كان بكل شارع لمسة ساحرة، والأشجار في الشانزليزيه غير الأشجار في أي مكان آخر. كانا يجلسان على سلم يستخدم في عبور جدار قرب الطريق العام. وكانت الأنسة ويلكنسون تنظر باحتقار إلى أشجار الدردار أمامهما. ثم المسارح: المسرحيات رائعة والتمثيل لا مثيل له. وكثيرا ما كانت تذهب مع السيدة «فوايه» أم البنيتين اللتين كانت تدرس لهما عندما كانت تجرّب ملابسها.

وصاحت قائلة:

— من البؤس أن يكون الإنسان فقيرا.. هذه الأشياء الجميلة.. في باريس فقط يعرفون كيف يرتدون ملابسهم وتصور أنك لا تقدر علي شرائها! مسكينة السيدة فوايه. فجسمها غير مناسب. وأحيانا كان الترتي الذي يخطط لها الملابس يهمس في أذني يا ليت جسمها مثل جسمك.

ولاحظ فيليب وقتئذ أن الأنسة ويلكنسون تتمتع ببنية غليظة وكانت فخورة بها.

— الرجال أغبياء جدا في إنجلترا. إنهم لا يفكرون إلا في الوجه. أما الفرنسيون وهم أمة من العشاق يعرفون أن شكل الجسم أكثر أهمية.

لم يكن فيليب قد فكر في مثل تلك الأشياء من قبل ولكنه لاحظ الآن أن كعبي الأنسة ويلكنسون سميكان وبشعان. وأشاح بوجهه عن النظر إليهما بسرعة.

— يجب أن تذهب إلى فرنسا. لماذا لا تذهب إلى باريس لمدة عام. فسوف تتعلم الفرنسية

وسوف تعلمك باريس كثيرا. (قالت تعلمك بكلمة فرنسية غير معروفة) فتساءل فيليب:

— ما هذا؟ ماذا قلت؟

فردت بمكر قائلة :

- ابحث عن هذه الكلمة في القاموس. الإنجليز لا يعرفون كيف يعاملون النساء. فهم خجولون جدا. والخجل شيء سخي في الرجل. وهم لا يعرفون كيف يمارسون الحب. ولا يستطيعون حتى أن يقولوا لامرأة أنها جميلة دون أن تبدو عليهم الحماسة. شعر فيليب أنه سخي. وكان من الواضح أن الأنسة ويلكنسون تريد أن يغير من سلوكه. وكان يسره أن يقول كلاما زكيا فيه تودد للجنس اللطيف ، غير أن هذا الكلام لم يخطر له أبدا ، وعندما كان يخطر له أحيانا كان يخاف أن يقوله حتى لا يبدو أحمق.

وتنهدت الأنسة ويلكنسون وقالت:

- أوه ، لقد أحببت باريكس. ولكن كان علي أن أذهب إلى برلين. فقد بقيت مع بنتي فواييه حتى تزوجتا ثم لم أجد شيئا أفعله بعد ذلك وواتتني تلك الفرصة في برلين. إنهم أقارب عائلة فواييه وقبلت. كانت لي شقة صغيرة في شارع «بريدا» المتفرع من الشارع الخامس : لم تكن شقة محترمة على أية حال. أنت تعرف ما هو شارع «بريدا». تلك النسوة كما تعرف. أوما فيليب برأسه ولم يكن يعرف إطلاقا ماذا تعني. وكان يريد ألا يعطيها الانطباع بأنه جاهل تماما. وقالت :

- ولكن أنا لا يهمني.. وأضافت بالفرنسية التي كانت تتكلمها جيدا وكانت تحب جدا أن تتكلمها - أنا حرة أليس كذلك ؟ وفي مرة كانت لي مغامرة غريبة هناك.

وتوقفت قليلا غير أن فيليب شجعها أن تستمر.

- ألن تحكي لي أنت عن مغامراتك في هايدلبرج.

فقال فيليب :

-إنها ليست مغامرات على الإطلاق.

- لا أعرف ما يمكن أن تقوله السيدة كاري لو عرفت المواضيع التي نتحدث عنها.

- أنت لا تتخيلين أنني سأقول لها.

- هل تعدني بذلك ؟

وعندما وعدها قصت عليه كيف أن طالبا يدرس الفن كان يقيم في غرفة في الطابق الذي يعلو الطابق الذي كانت تقيم فيه - وتوقفت عن الكلام. وقالت :

- ولكن لماذا لا تدرس الفن ؟ فأنت ترسم ببراعة.

- ليس إلى درجة أن أدرس الفن.

- هذا الحكم يجب أن يأتي من الآخرين. أنا أعرف وأعتقد أن لديك موهبة فنان عظيم.

- لا يمكن أن تري ما يرتسم على وجه عمي ويليام عندما أقول له فجأة أنني أريد أن أذهب إلى باريس لأدرس الفن.

- أنت سيد نفسك ، أليس كذلك ؟

- أنت تحاولين أن تبعدينني عن الموضوع. أرجوك أن تستمري في حكايتك.

ضحكت الأنسة ويلكنسون ضحكة قصيرة ثم واصلت كلامها. مربى الطالب الذي يدرس الفن عدة مرات على السلام ولم أعره انتباها ما. لاحظت أن له عينين لطيفتين وكان يرفع لها قبعته بأدب شديد. وفي يوم ما وجدت خطابا زج به أسفل الباب. كان الخطاب منه. وقال لها أنه أحبها حبا كبيرا طيلة شهور وكان ينتظرها عندما تهبط السلم ليراها. أوه. لقد كانت رسالة ساحرة ! وهي بالطبع لم ترد عليها ولكن أي امرأة لا تشعر لا يمكنها أن تشعر بالإطراء ؟ كانت الرسالة رائعة وعاطفية ومؤثرة. وبعد ذلك عندما كانت تقابله أثناء نزوله السلم لم تكن تعرف إلى أين تلتفت «وظلت الرسائل تأتي كل يوم إلي أن رجاها أن تقابله». وقال أنه سيأتي في المساء حوالي الساعة التاسعة ولم تعرف ماذا تفعل. بالطبع كان هذا مستحيلا وقد يستمر في ضرب الجرس ولكنها لن تفتح الباب أبدا. وبعد ذلك بينما كانت تنتظر رنين الجرس ، وكلها أعصاب متوترة وجدته فجأة واقفا أمامها. فقد نسيت أن تغلق باب الغرفة عندما دخلت.

- كانت مصيبة.

- وسألها فيليب :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

وقالت ضاحكة

- تلك هي نهاية القصة.

وظل فيليب صامتا لحظة وقد أخذ قلبه ينبض بسرعة وثمة مشاعر غريبة راحت تتصارع في فؤاده. ورأى السلم المظلم والمقابلات التي كانت تحدث بالصدفة وأعجب بشجاعة الخطابات - لم يكن يجروء على أن يفعل ذلك - ثم الدخول الصامت الغامض. وقد بدا له ذلك قمة الرومانسية.

- كيف كان شكله ؟

- كان جميلا. فتني ساحر.

- هل مازلت تعرفينه ؟

وشعر فيليب بضيق قليل عندما سأل ذلك السؤال.

- لقد عاملني معاملة كريهة. الرجال دائما سواء. أنتم جميعا بلا قلب.

وقال فيليب محرجا بعض الشيء :

- أنا لا أعرف شيئا عن ذلك.

وقالت الأنسة ويلكنسون :

دعنا نعود إلى المنزل.



لم يستطع فيليب أن يبعد حكاية الأنسة ويلكنسون عن ذهنه. لقد كان واضحا بما فيه الكفاية ما كانت تعنيه رغم أنها قطعت قصتها ووصدم هو قليلا. كان كل ذلك شيئا ليس غريبا بالنسبة للنساء المتزوجات، ولقد قرأ كثيرا من الروايات الفرنسية ويعرف أن هذه هي القاعدة في فرنسا غير أن الأنسة ويلكنسون كانت إنجليزية وغير متزوجة والدها من رجال الدين. وبذلك خطر له أن طالب الفن هذا لم يكن على الأرجح أول ولا آخر عشاقها، وشهق. إنه لم ينظر أبدا إلى الأنسة ويلكنسون هذه النظرة، ويبدو من غير المعقول أن يمارس أحد الحب معها. وبسبب صراحته وسذاجته شك في رواية الأنسة ويلكنسون، كما شك فيما قرأه في الكتب، وكان غاضبا لأن مثل تلك الأشياء الرائعة لم تحدث له. وكان من المهين أنه إذا أصرت الأنسة ويلكنسون على أن يحكي لها عن مغامراته في هايدلبرج فلن يكون لديه ما يحكيه. وحقيقة أنه أوتي بعضا من قوة الإبداع غير أنه ليس واثقا من أنه سوف يستطيع أن يقنعها أنه غارق في الرذيلة؛ فالنساء لديهن حدس طبيعي. لقد قرأ ذلك. وقد تكتشف بسهولة أن ما يقوله ليس سوى ضرب من الكذب. واحمر وجهه بشدة إذ تصورهما وهي تضحك ملء شديها وهي تسمع كلامه.

راحت الأنسة ويلكنسون تعزف علي البيانو وتغني بصوت مرهق إلى حد ما غير أن الأغنيات التي غنتها كانت جديدة على فيليب وأمضيا عدة ساعات مع البيانو. وفي أحد الأيام سألتها ما إذا كان يستطيع الغناء وأصرت على أن يحاول ذلك. وقالت له أن صوته باريتون جميل وعرضت عليه أن تعطيه دروسا. وفي أول الأمر رفض بسبب خجله المعتاد ولكنها أصرت، وبدأت في كل صباح بعد الإفطار تعطيه درسا يستغرق ساعة. كانت لديها موهبة تدريس طبيعية، وكان من الواضح أنها مربية أطفال ممتازة. ورغم أن لكتنها الفرنسية كانت جزءا لا يتجزأ منها فظلت معها، فقد هدرها سلوكها المعسول عندما بدأت في التدريس. فكانت لا تتهاون في أي سفاسف. وأصبحت في صوتها نغمة استبدادية وبالسليقة كانت لا تقبل الغفلة وتصحح الإهمال. وكانت تعرف ما تفعل فعلمت فيليب السلام الموسيقية وزودته بالتدريبات.

وعندما ينتهي الدرس كانت تستأنف بدون مجهود ابتسامتها الساحرة ويصبح صوتها رخيما حانيا غير أن فيليب لم يستطع أن يقتنع أنه التلميذ وهي المدرس لأن هذه المشاعر تضاربت مع المشاعر التي أثارها في حكاياتها السابقة. لقد كان ينظر إليها بشكل أكثر دقة فقد كان يحبها أكثر في المساء عنه في الصباح. ففي الصباح كانت الخطوط تظهر علي بشرتها وكانت بشرة عنقها أكثر خشونة. وتمني لو تخفيها، ولكن الطقس كان حارا في ذلك الوقت وكانت ترتدي قمصانا تفصيلها منخفض عند الصدر. كانت مغرمة باللون الأبيض. ولكن ذلك لم يكن يناسبها في الصباح. وفي المساء كانت تبدو جذابة جدا فكانت ترتدي ثوبا يمكن أن يكون ثوب دعوة علي وليمة وسلسلة من العقيق الأحمر حول جديها، أما الشريط الذي كان في الثياب حول صدرها ومرفقيها فقد أكسبها نعومة لطيفة وكان العطر الذي

تضعه (لم يكن أحد في بلاكستابل يستعمل شيئا آخر إلا ماء الكولونيا وذلك في أيام الأحد فقط أو عندما يعاني من صداع مؤلم) مثيرا وغريبا. وكانت وقتئذ تبدو صغيرة جدا.

وأجري فيليب حسابات كثيرة بشأن سنّها. فأضاف عشرين إلى سبع عشرة سنة ولم يتمكن من الوصول إلى مجموع مرض. وسأل العمّة لويزا أكثر من مرة لماذا تعتقد أنها في السابعة والثلاثين: فيما لا يبدو عليها أنها أكبر من الثلاثين، وكل الناس تعرف أن الأجانب يشيخون بسرعة أكثر من الإنجليزيات؛ لقد عاشت الأنسة ويلكنسون طويلا في الخارج حتى يمكن أن تسمى أجنبية. وهو شخصا لا يعتقد أنها تعدت السادسة والثلاثين.

وقالت العمّة لويزا:

— إنها أكبر من ذلك.

لم يكن فيليب يطمئن إلى دقة مقولات أسرة كاري. وكل ما يتذكرونه بوضوح هو أن الأنسة ويلكنسون لم يكن شعرها مرفوعا في آخر مرة رآوها في لينكولنشاير. ربما كانت في الثانية عشرة من عمرها في ذلك الوقت، لقد كان ذلك منذ فترة طويلة مضت وكان القس دائما لا يعتمد عليه. قالوا إن ذلك كان منذ عشرين عاما غير أن الناس تستخدم الأرقام الكاملة ومن المحتمل أن يكون ذلك منذ ثمانية عشر عاما مضت أو سبعة عشر عاما. سبعة عشر عاما، بالإضافة إلى اثني عشر عاما معناها تسعة وعشرين عاما، وهذه ليست سنا كبيرة أليس كذلك؟ لقد كانت كليوباترا في الثامنة والأربعين عندما تخلي أنطونيوس عن العالم في سبيلها.

كان صيفا لطيفا. فالأيام كانت حارة والسماء خالية من السحاب ولكن كان البحر يلطف من حرارة الجو. وكان في الجو انتعاش لطيف حتى أن المرء يشعر بالسُرور وليس بالانقباض بسبب شمس شهر أغسطس. وكانت هناك بحيرة في الحديقة بها نافورة وأسماك ذهبية تسبح قرب سطح الماء. وقد اعتاد فيليب والأنسة ويلكنسون أن يأخذا معهما سجادة ووسائد ويستلقيان علي المروج بعد الغداء في ظل سياج عال من الورود. وكانا يتحدثان ويقرآن طيلة فترة بعد الظهر. وكانا يدخان، الأمر الذي لم يكن القس يسمح به في المنزل. فكان يعتقد أن التدخين عادة مقززة وكان يقول دائما أنه من العار على أي شخص أن يصبح عبدا لعادة. وقد نسي أنه هو نفسه كان عبدا لتناول الشاي بعد الظهر.

وفي يوم أعطت الأنسة ويلكنسون لفيليب رواية حياة المتشرد *La vie de boheme* وكانت قد عثرت عليها صدفة بينما كانت تنقب في كتب مكتبة القس.

وكان القس قد اشتراها مع مجموعة أخرى، كان القس يريدّها وظلت عشر سنوات دون أن يكتشفها أحد.

وبدأ فيليب يقرأ التحفة التي كتبها «ميرجر» السخيفة ذات الأسلوب الرديء ووقع فوراً صريع سحرها. ورقصت نفسه فرحا بصورة ذلك الجوع القاتل الذي روى بأسلوب مرح وعن قذارة صورت بشكل رائع، وعن غرام خسيس صور بشكل رومانسي، وعن عاطفة مفرطة لها

تأثير عظيم. رادولف وميمي وموزيت وشونارد ! يتجولون في الشوارع القائمة في الحي اللاتيني يجدون ملجأ الآن في حجرة تحت السطح وأخري بعد ذلك. من يمكنه أن يقاوم سحرهم وهم يسرون بملابسهم الطريفة التي تعود إلى طراز لويس فيليب، وبسماتهم ودموعهم، متهورين يعيشون وفقا لما تأتي به الرياح. وفقط عندما تعود إلى الكتاب لتحكم حكما أفضل تجد أن مسراتهم كانت رخيصة وأن تفكيرهم كان سوقيا، وتشعر بالتفاهة التامة للفنانين والبشر في هذا الموكب المستهتر. وأبهج فيليب.

وسألته الأنسة ويلكنسون وهي تبتسم لحماسه :

- هل تود لو تذهب إلى باريس بدلا من لندن ؟

وقال:

- لقد فات الأوان الآن، حتى لو كنت أريد ذلك .

دارت مناقشات كثيرة بينه وبين عمه حول مستقبله ، خلال الخمسة عشر يوما التي تلت عودته من ألمانيا ، وقد رفض فيليب نهائيا أن يذهب إلى أكسفورد ، وإذا لم تكن لديه حينئذ الفرصة للحصول على المنحة الدراسية، فقد قال السيد كاري نفسه أنه لا يحتمل نفقات أكسفورد، وذلك أن ثروة فيليب كلها لم تكن تتجاوز ألفين من الجنيهات ، وبالرغم من أنها استثمرت في مشروعات تربح خمسة في المائة، فإن فيليب لم يتمكن من العيش على هذا الربح، فقد نقصت الآن هذه الثروة قليلا ، ومن العبث أن ينفق فيليب مائتي جنيه كل عام في أكسفورد وهو أقل مبلغ يمكن أن يعيش به في الجامعة، ثم يقضي هناك ثلاث سنوات لن تفيده شيئا بعد ذلك من كسب عيشه. وكان يتوق للذهاب مباشرة إلى لندن.. وكانت السيدة كاري تعتقد أن سادة القوم المهذبين لا يعملون إلا في أربع مهن : الجيش، والبحرية ، والقضاء ، أو الكنيسة. ثم أضافت إلى ذلك مهنة الطب، لأن زوج أختها قد مارس هذه المهنة ولكنها لم تنس أنها في صغرها لم يكن أحد يعتبر الأطباء من سادة القوم المهذبين، أما المهنتان الأوليان فقد كانتا خارج الموضوع، وكان فيليب حازما في قراره بعدم الالتحاق بالكنيسة. ولذلك لم يبق أمامه إلا القانون - وقد اقترح الطبيب المحلى أن كثيرا من السادة يتعلمون ليصبحوا مهندسين، ولكن السيدة كاري عارضت الفكرة في الحال وقالت :

- إني لا أحب أن يكون فيليب صاحب مهنة ..

وقال القس :

لا بل يجب أن يكون صاحب مهنة.

ولم لا تجعله طبيبا كوالده ؟

وقال فيليب :

إني أبغض تلك المهنة..

ولم تأسف السيدة كاري، فقد كانت المحاماة خارج الموضوع لأنه لن يذهب إلى أكسفورد لأن أسرة «كاري» كانت تعتقد أنه لا بد له من الحصول على شهادة للالتحاق بالمحاماة،

وأخيرا اقترح أن يتدرب كاري عند أحد المحامين، وسرعان ما كتبوا إلى «ألبرت نيكسون» محامي الأسرة الذي كان مساعدا لقس بلاكستابل في إدارة أملاك «هنري كاري» الراحل، وسئل هل يمكنه أن يدرب فيليب عنده. وجاء الرد بعد يوم أو يومين من المحامي يقول إنه ليس لديه مكان خال ، وأنه يعارض الفكرة كلها فإن المهنة مزدحمة إلى حد كبير وإذا لم يكن للمرء رأس مال أو اتصالات فإنه لا تتاح له فرصة لكي يصبح أكثر من كاتب إداري، وقد اقترح على أي حال أن يصبح فيليب محاسبا قانونيا. ولم يعرف القس ولا زوجته أقل شئ عن تلك المهنة ولم يكن فيليب قد سمع من قبل عن أي شخص أصبح محاسبا قانونيا، ولكن خطابا آخر من المحامي أوضح أن اتساع الأعمال الحديثة وزيادة عدد الشركات قد أدى إلى قيام عدد كبير من مكاتب المحاسبين ليقوموا بمراجعة دفاتر الحسابات ولكي يدخلوا على طرق إمساكها وسائل جديدة لتنظيم العملية كان يفتقر إليها المحاسبون القدامى.

وقد صدر بذلك مرسوم ملكي منذ عدة سنوات ازدادت به المهنة أهمية واحتراما، وأصبحت تدر مزيدا من الربح عاما بعد آخر، واتفق أن كان لدى المحاسبين القانونيين الذين وظفهم ألبرت نيكسون منذ ثلاثين عاما مكان خال لطالب جديد ويمكنهم أن يأخذوا فيليب على أن يدفع ثلاثمائة جنيه في العام ويرد إليه نصف هذه المبلغ مرتبا أثناء السنوات الخمس التي يتطلبها تعليمه، ولم يكن المشروع مما يثير اهتمام فيليب ولكنه شعر بأنه لابد أن يستقر رأيه على شئ، وعندما راودته فكرة العيش في لندن زال التردد الطفيف الذي شعر به في أول الأمر وكتب قس بلاكستابل يسأل السيد نيكسون هل هذه مهنة تناسب الرجل المهذب. ورد السيد نيكسون بأنه منذ صدور هذا المرسوم أخذ الرجال المهذبون خريجو الجامعات والمدارس الخاصة ينضمون إلى هذه المهنة. وعلاوة على ذلك فإذا لم يحب فيليب هذا العمل وشاء بعد عام أن يتخلى عنه فإن هربرت كارتر - وهو اسم المحاسب - سيعيد إليه نصف النقود التي دفعها لتدريبه.

وبهذا حسم الأمر.. ودبر كل شئ بحيث يبدأ فيليب عمله في الخامس عشر من شهر سبتمبر..

وقال فيليب:

- ما زال أمامي شهر كامل..

وردت الأنسة ويلكنسون قائلة :

- وتذهب أنت إلى الحرية، وأذهب أنا لأوضع في الأغلال.

ذلك أن أجازتها كانت تمتد ستة أسابيع وستغادر بلاكستابل قبل أن يرحل فيليب بيوم أو يومين لا أكثر:

وقالت:

- ترى هل سنتقابل مرة أخرى..

- ولم لا ؟

- لا تتكلم بهذه الطريقة العملية.. إنني لم أر في حياتي شخصا غير عاطفي مثلك..

واحمر وجه فيليب لأنه كان يخشى أن تعتقد الأنسة ويلكنسون أنه فتى مخنث.. لقد كانت امرأة صغيرة السن على أي حال تبدو ظريفة في بعض الأحيان وكان هو يقترب من ستين والعشرين وكان من المضحك ألا يتكلم في شئ عدا الفن والأدب، لقد كان يجب عليه أن يبث حبه. وقد تحدثا كثيرا عن الحب وحدثته هي عن الرسام الذي عاشت مع أسرته طويلا في باريس وطلب إليها أن تجلس إليه ليرسمها، ثم راح يبثها غرامه بعنف حتى اضطرت أن تختلق الأعذار كي لا تجلس له مرة أخرى. واتضح أن الأنسة ويلكنسون قد اعتادت مثل هذا الاهتمام. وبدأت حينئذ جميلة للغاية في قبعاتها العريضة المصنوعة من القش.. وكان عصر ذلك اليوم حارا بل كان من أشد الأيام التي مرت بهما حرارة. وتناثرت حبات العرق في خيوط فوق شفتها العليا.. ولاحت له فرصة للغرام، ولما كانت الأنسة ويلكنسون فرنسية فقد أضاع ذلك إلى حماسه في القيام بمظاهرة من نوع ما، وعندما فكر في الأمر ليلا وهو في فراشه عندما جلس في الحديقة وحده يقرأ كتاب شعر بنشوة، ولكنه عندما رأى الأنسة ويلكنسون الأمر أقل روعة.

ومهما يكن من شئ فإنها لن تدهش إذا بثها فيليب حبه بعد ما قالت له وكان يخاف من شعور بأنها تعتقد أنه من الغريب ألا يأتي بأية بادرة من جانبه، وقد حدث مرة أو مرتين خلال اليومين الأخيرين أن تخيل إليه أنها تنظر إليه بشيء من الازدراء ولكن لعل هذا كله وهما لا أساس له من الحقيقة وقالت له الأنسة ويلكنسون وهي تبتسم :

- فيم تفكر؟

فقال :

- لن أنبئك..

وكان يفكر في أنه يجب أن يقبلها في تلك اللحظة بالذات.. ولم يكن يعرف هل تتوقع منه، ولكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك دون أن تسبقه أي مقدمات.. ولو فعل لعدته مجنون وقد تصفعه على وجهه أو تشكوه لعمه، فإن فعلت كان أمرا في غاية الفظاعة وتعجب من فعل سونج مع الأنسة كاسيلي. وقد كان يعرف طبيعة عمه ولا يشك في أنه سيفضي بالقول إلى الطبيب، وإلى جوسيا جريفز، وبذلك يبدو في غاية الحماسة. وكانت العمة لويزا تقدر دائما أن الأنسة ويلكنسون قد بلغت السابعة والثلاثين، وارتعد هو عندما خطر بباله سيتعرض له من سخرية، فسيقولون عنها إنها تصلح لأن تكون أمه. وابتسمت الأنسة ويلكنسون وهي تقول :

- فيم عدت تفكر؟

فأجاب في جراءة :

- كنت أفكر فيك..

ولكن كلماته هذه لم تربطه بشيء.

- وما الذي كنت تفكر فيه؟

- إنك الآن تريد أن تعرفني أكثر مما يلزم.

فقالت الأنسة ويلكنسون :

- يالك من فتى خبيث !

ها هي ذي القصة تتكرر له مرة أخرى فكلما نجح في الإقدام على الأمر قالت له في الحال ما يذكره بما كانت تقول له مربيته بعد أن ينشد أناشيده بطريقة لا ترضيها، فقد كانت تقول له في عتب إنه فتى خبيث. ولكنه في تلك المرة وجم بشدة.. وقال :

- أود لو تكفين عن معاملتي كأني طفل صغير..

- ترى هل غضبت مني ؟

- غضبت جدا..

- لم أقصد ذلك!

و مدت له يدها فأمسك بها. وكان فيليب قد تخيل أنها ضغطت على يده في خفة مرة أو مرتين عندما تصافحا مساء من قبل، ولكنه في هذه المرة لم يعد لديه شك في ذلك. لم يعرف على وجه التحديد ماذا يقول بعد ذلك. هنا في النهاية أمامه فرصة للمغامرة وسيكون أحق لو لم يستغلها، ولكنها كانت عادية قليلا لقد توقع مزيدا من السحر. لقد قرأ أوصافا كثيرة للحب ولم يشعر أن لديه أي من تلك العواطف العنيفة التي يصفها الروائيون؛ فلم يشعر أن شيئا من موجات العاطفة المتتابعة قد زلزلته؛ وحتى الأنسة ويلكنسون لم تكن هي المثل الأعلى : فكثيرا ما تصور عيونا بنفسجية رائعة وبشرة مثل المرمر لفتاة جميلة، وتخيل نفسه يدفن وجهه بين خصلات شعرها الأحمر. ولم يتخيل نفسه وقد وضع وجهه بين خصلات شعر الأنسة ويلكنسون فقد كان يشعر دائما أنه شعر لزج. وعلى أي حال فمن المريح جدا أن يقوم بخدعة وانتشي بالفخر الذي سوف يشعر به من وراء انتصاره. فإغراؤها يرجع إليه هو. وقرر أن يقدم على تقبيل الأنسة ويلكنسون ، ليس الآن ولكن في المساء فسوف يكون الأمر أسهل في الظلام وبعد أن يقبلها سوف يحدث ما يجب بعد ذلك. وقرر بقسم منه أن يقبلها في ذلك المساء.

ووضع خطته، فبعد العشاء اقترح أن يقوموا بنزهة في الحديقة. ووافقت الأنسة ويلكنسون وسارا جنبا إلى جنب. كان فيليب مضطربا للغاية. ولم يعرف لم. فالحديث لا يمكن أن يؤدي إلى الاتجاه الصحيح : وكان قد قرر أن أول شيء يفعله هو أن يحيط خصرها بذراعه وهي تتكلم عن سباق الزوارق الذي سيبدأ في الأسبوع التالي. وقادها بحيث وصلا إلى أكثر المناطق ظلاما في الحديقة غير أنه عندما وصل إليها خائنه شجاعته. وجلسا علي مقعد طويل. ووقتها قرر فعلا أن فرصته قد جاءت عندما قالت الأنسة ويلكنسون أنها واثقة أن المكان به حشرات وأصرت على الانتقال منه، وسارا حول الحديقة مرة أخرى، ووعده فيليب

نفسه بأنه سيبدأ التنفيذ عندما يصلان إلى ذلك المقعد الطويل مرة أخرى؛ ولكن عندما مر بالمنزل شاهدا السيدة كارى تقف عند الباب.

- أليس من الأفضل يا شباب أن تدخلوا المنزل أعتقد أن هواء الليل ليس مناسباً لكما.
قال فيليب :

- ربما من الأفضل أن ندخل فلا أريدك أن تصابي بالبرد.

قالها وهو يتنهد بارتياح. فلن يحاول أي شيء آخر الليلة. غير أنه بعد ذلك عندما كان وحيداً في غرفته غضب من نفسه. لقد كان مثال الفتى الأحمق. كان واثقاً أن الأنسة ويلكنسون توقعت منه أن يقبلها ، وإلا لما سارت معه في الحديقة. كانت تقول دائماً أن الفرنسيين فقط هم الذين يعرفون كيف يعاملون النساء. وقد قرأ فيليب الأدب الفرنسي. فلما كان فرنسياً لاحتضنها بين ذراعيه وقال لها بوجد أنه يعشقها ثم قبلها في عنقها. ولم يكن يعرف لماذا يقبل الفرنسيون النساء في العنق. فهو شخصاً لم ير شيئاً جذاباً في مؤخر العنق وبالطبع أنه من الأسهل على الفرنسيين أن يفعلوا ذلك : فاللغة عامل مساعد كبير. فقد كان فيليب يشعر دائماً أن التفوه بكلمات عاطفية باللغة الإنجليزية شيء سخيف جداً. وتمنى أنه لم يشرع في حصار الفضيلة لدى الأنسة ويلكنسون. فقد كان أول أسبوعين رائعين، ولكن الآن يشعر بأنه بائس ولكنه كان مصراً على ألا يستسلم، فلو فعل فلن يحترم نفسه بعد ذلك وأصر على قراره بأنه في الليلة القادمة سوف يقبلها مهما حدث.

وعندما استيقظ صباح اليوم التالي كانت السماء تمطر. وكانت أول فكرة طرأت بباليه أنها لن يستطيعا السير في الحديقة في المساء. وكانت روحه المعنوية مرتفعة أثناء الإفطار وقد أرسلت الأنسة ويلكنسون ماري أن برسالة تقول فيها أنها سوف تلزم الفراش لأنها مصابة بصداع. ولم تنزل من غرفتها إلى أن حان موعد تناول الشاي عندما ظهرت في ذلك مناسب لها ووجه شاحب ، ولكن عندما حان موعد العشاء كانت قد شفيت تماماً وكانت وجه العشاء مبهجة جداً. وبعد تلاوة الصلاة قالت إنها سوف تأوي فوراً إلى فراشها وقبلت السيدة كارى ثم استدارت لفيليب وفجأة صاحت :

- معذرة.. كنت أكاد أن أقبلك.

وقال فيليب :

- ولم لا تقبليني.

فضحكت ومدت له يدها وضغطت على يده بوضوح.

كانت السماء في اليوم التالي صافية ليس بها سحب وكانت الحديقة جميلة ناضرة بعد أن تساقط عليها المطر، وذهب فيليب إلى الشاطئ ليستحم قليلاً، وبعد عودته إلى المنزل تناول طعاماً فاخراً. واستعد الجميع في ذلك اليوم لحفل يقام بعد الظهر إثر مباراة للتنس في منزل القس، وارتدت الأنسة ويلكنسون أفخر ثيابها، وكانت تعرف حقاً كيف ترتديها. ويسع فيليب إلا أن يلاحظ أنها في غاية الأناقة وهي واقفة إلى جانب زوجة القس وابنة

الطبيب المتزوجة. وقد ثبتت وردتين فوق الحزام الذي وضعته حول خصرها، وجلست على أحد مقاعد الحديقة إلى جانب العشب الأخضر ورفعت فوقها مظلة حمراء وكان الضوء الذي انعكس على وجهها يناسبها خير مناسبة. وكان فيليب يعشق لعبة التنس، فقد كان ماهراً في القذف بالكرة إلى زميله، وكان لا يحسن الجري، ولذا كان يلعب بالقرب من الشبكة.. وكان سريعاً في لعبه على الرغم من قدمه الحنفاء.. وكان من الصعب إذا وقف قرب الشبكة أن تمر إلى جانبه كرة. وقد سره أن فاز على كل من كان يلعب معهم. وعندما بدأوا يتناولون الشاي، جلس عند قدمي الأنسة ويلكنسون وهو ساخن لاهث الأنفاس.. وقالت:

- إن رداء اللعب يناسبك.. فإنك تبدو جميلاً اليوم..

واحمر وجه فيليب مغتبطاً ، وقال:

- إن في وسعي أن أرد هذا الإطراء في صدق وأمانة، فأنت اليوم فاتنة جداً ،

فابتسمت ورمقته بنظرة طويلة من عينيها السوداوين، وبعد أن فرغاً من تناول العشاء، ألح عليها فيليب أن تخرج معه، فقالت:

- ألم تكفيك الرياضة التي قمت بها اليوم؟

- سيكون الجو رائعاً في الحديقة الليلة، فقد ظهرت النجوم كلها في السماء..

كان في حالة نفسية رائعة.

وقالت الأنسة ويلكنسون بينما كانا يمشيان الهوينى في حديقة المطبخ :

- هل تعرف ، لقد وبختني السيدة كارى بسببك وقالت لي إنني لا يجب أن أغازلك.

- هل كنت تغازليني ؟ لم ألاحظ ذلك.

- لقد كانت تمزح معي لا غير.

- لقد كانت قسوة منك ليلة أمس أن ترفضني أن تقبليني.

- لو رأيت النظرة التي رماني بها عمك عندما فعلت، ما قلت.

- هل هذا كل ما منعك ؟

- أفضل أن أقبل الناس بدون شهود.

- ليس هناك شهود الآن.

وأحاط فيليب خصرها بذراعه وقبلها على شفتيها.

ضحكت قليلاً ولم تقم بأي محاولة لتنسحب. حدث ذلك بصورة طبيعية جداً. وشعر فيليب بالفخر بنفسه. فقد سبق أن قال أنه سيفعل ذلك وفعل. كان ما فعله أسهل شيء في العالم.

وتمنى لو أنه فعل ذلك من قبل. وقبلها مرة أخرى وقالت :

- أوه ، لا يجب أن تفعل ذلك.

-ولم لا.

وقالت ضاحكة :

- لأن الحكاية أعجبتني ،

وفي اليوم التالي بعد الغداء حملا السجادة والوسائد وكتبهما ليجلسا حول النافورة ولكنهما لم ينظرا في الكتب. واتخذت الأنسة ويلكنسون وضعا مريخا لها وفتحت الشمسي الحمراء. لقد زال الخجل عن فيليب الآن ولكنها في البداية لم تسمح له بأن يقبلها. وقالت :
 - لقد كان خطأ هائلا مني ليلة أمس. لم أستطع النوم فقد شعرت أنني ارتكبت أمرا فظيحا وصاح فيليب قائلا :
 - ما هذا الكلام الفارغ ! أنا واثق أنك نمت كالفراس نفسه.
 - ما رأيك فيما سيقوله عمك لو عرف ؟
 - ليس هناك ما يدعو لأن يعرف.
 - واتكأ عليها وازدادت ضربات قلبه. وقالت :
 - لماذا تريد أن تقبلني ؟
 - وكان يعرف أنه يجب أن يرد قائلا «لأنني أحبك» ولكنه لم يستطع أن يقول ذلك. وبدلا من ذلك سألها :
 - لماذا تعتقدين أنت أنني أريد أن أقبلك ؟
 - ونظرت إليه بعينين مبسمتين ولمست وجهه بأطراف أصابعها وقالت :
 - يا لنعومة وجهك.
 - أحتاج للحلاقة بشدة.
 - كان من المدهش أن يجد صعوبة في التفوه بكلام رومانسي. ووجد أن الصمت يساء أكثر من الكلام. وتنهدت الأنسة ويلكنسون وقالت :
 - هل تحبني فعلا ؟
 - نعم أحبك إلى أبعد حد.
 - وعندما حاول أن يقبلها مرة أخرى لم تقاوم وتظاهر بأنه عاطفي بقدر أكبر ونجح أداء دور بدا في نظره جيدا جدا. وقالت الأنسة ويلكنسون :
 - لقد بدأت أشعر بالخوف منك.
 - ورجاها قائلا :
 - هل ستخرجين بعد العشاء ؟
 - إذا وعدتني بأن تسلك سلوكا حسنا.
 - سأعذك بأي شيء.
 - كان يحترق بنار اللهب الذي تظاهر به جزئيا وفي وقت تناول الشاي، كان مرحا صاها نظرت إلى الأنسة ويلكنسون بقلق وقالت له فيما بعد :
 - يجب ألا تبدي هذا السرور البالغ في عينيك. ماذا سيدور في ذهن العمة لويزا ؟
 - لا يهمني ما تفكر فيه العمة لويزا.
 - وضحكت الأنسة ويلكنسون مسرورة. وبعد أن فرغا فورا من تناول العشاء قال لها :

- هل ستبقين على صحبتي وأنا أدخن لفافة تبغ ؟
 - وقالت السيدة كاري :
 - لماذا لا تترك الأنسة ويلكنسون تستريح.. يجب أن تتذكر إنها ليست صغيرة مثلك.
 - وردت الأنسة ويلكنسون بحدة :
 - أوه.. أنا أحب الخروج.
 - وقال القس :
 - اتغدى وأتمدد واتعشى واتمشي.
 - وقالت الأنسة ويلكنسون بعد أن أغلقا الباب الجانبي وراءهما :
 - عمك سيدة لطيفة ولكنها أحيانا تثير أعصابي.
 - ألقي فيليب بلفافة التبغ التي أشعلها لتوه بعيدا وأحاطها بذراعيه. وحاولت أن تدفعه بعيدا عنها.
 - لقد وعدتني أن تكون لطيفا يا فيليب.
 - أتظنين أنني كنت سأفي بوعد كهذا ؟
 - لا تفعل هذا ونحن قرب المنزل بهذا الشكل فلنفترض أن أحدهم خرج فجأة.
 - وقادها إلى حديقة المطبخ حيث لا يحتمل أن يجيئها أحد وفي هذه المرة لم تفكر الأنسة ويلكنسون في الحشرات. وقبلها بحرارة. وكان من أحد الأشياء التي حيرته أنه لم يكن يحبها في الصباح وأحبها قليلا بعد الظهر، أما في المساء فإن لمسة يدها كانت تثيره. وقال عبارات لم يكن يتصور أن يقولها، ومن المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يقولها في ضوء النهار واستمع إلى نفسه متعجبا راضيا. وقالت :
 - أنت عاشق جميل.
 - كان هذا ما يعتقده في نفسه. وقال بحرارة :
 - آه لو أستطيع أن أقول كل ما في قلبي.
 - كان كل شيء رائعا. كان أكثر اللعبات التي لعبها إثارة والرائع فيها أنه شعر تقريبا بكل شيء قاله رغم أنه بالغ قليلا. اقترحت الأنسة ويلكنسون في النهاية أن يعودا إلى المنزل.
 - وصاح فيليب قائلا :
 - لا لا تعودني بعد.
 - قالت بصوت خفيض :
 - يجب أن أعود.. إني خائفة.
 - وبحس مفاجئ أدرك ما يصح أن يفعلاه. وقال :
 - لا أستطيع أن أعود إلى المنزل الآن. سوف أبقى هنا وأفكر. إن وجهي مشتعل وأريد هواء الليل. عمت مساء.

إلى الكنيسة بهدوء. غير أنه كان يذهب إلى الكنيسة في الصباح. واعتبر عدم ذهابه إلى الكنيسة في المساء تأكيداً مناسباً لحرية الفكر. وعندما عرض اقتراحه لم تتكلم الأنسة ويلكنسون للحظة ثم هزت رأسها وقالت : - لا.. لن أفعل ذلك.

غير أنها في يوم الأحد وقت تناول الشاي أذهلت فيليب إذ قالت فجأة : - لا أعتقد أنني سوف أذهب إلى الكنيسة هذا المساء.. فأنا أشعر فعلاً بصداق فظيع. وقد أصرت السيدة كاري بعد أن شعرت بالقلق عليها أن تعطيها جرعة دواء كانت هي معتادة علي استخدامها. وشكرتها الأنسة ويلكنسون وأعلنت بعد تناول الشاي مباشرة أنها سوف تذهب إلى غرفتها وتستلقي هناك.

وسألتها السيدة كاري وقد بدا عليها القلق :

- هل أنت متأكدة أنك لا تحتاجين شيئاً ؟

- متأكدة تماماً وأشكرك.

- لأنه إذا كان الأمر كذلك فسوف أذهب إلى الكنيسة لأن الفرصة لا تتاح لي دائماً للذهاب إلى الكنيسة مساء.

- نعم تفضلي وذهبي إلى الكنيسة.

وقال فيليب :

- سوف أبقى بالمنزل، فإذا أرادت الأنسة ويلكنسون شيئاً فيمكنها دائماً أن تناديني.

وقالت السيدة كاري :

- يستحسن يا فيليب أن تترك باب غرفة الجلوس مفتوحاً حتى تسمع جرس الأنسة ويلكنسون إذا أرادت منك شيئاً.

- بالتأكيد.

وهكذا بعد الساعة السادسة ترك فيليب في المنزل وحيداً مع الأنسة ويلكنسون. وأحس بالتوعك من شدة الخشية. وتمني من كل قلبه لو أنه لم يقترح تلك الخطة. غير أن الأوان قد فات ويجب أن ينتهز الفرصة التي هيأها بنفسه. فماذا سيكون رأي الأنسة ويلكنسون فيه لو لم ينتهز هذه الفرصة. كان الصمت يخيم على المكان. وتساءل هل الأنسة ويلكنسون مصابة بصداق فعلاً ؟ ربما تكون قد نسيت اقتراحه. وازدادت ضربات قلبه بعنف. وصعد السلم حريصاً بقدر الإمكان ألا يحدث أي صوت. ووقف خارج غرفة الأنسة ويلكنسون وراح يتنصت. ووضع يده على مقبض الباب. وانتظر. وبدا له أنه ينتظر عشر دقائق على الأقل محاولاً أن يتخذ قراره وراحت يده ترتعش. وود لو يتراجع ولكنه يخاف من الندم الذي يعرف أنه سيلحق به. كان مثل الصعود إلى منط قفز عال في حمام سباحة وهذا المنط لا يبدو أنه شيء وأنت تنظر إليه من أسفل ولكن عندما تصعده وتنظر أسفل إلى الماء فإن قلبك يتهاوى والشيء الوحيد الذي يرغمك على القفز هو العار الذي سيحل بك

ومد يده جاداً وأمسكت بها في صمت. وظن أنها كبتت تنهداً. وبعد فترة مكث فيها بالحديقة المظلمة شعر بالملل، فدخل إلى المنزل ليجد أن الأنسة ويلكنسون قد أوت إلى فراشها.

وبعد ذلك تغيرت الأمور بينهما. وفي اليوم الذي بعده أظهر فيليب نفسه كمحب تواق إلى حبيبته. وشعر بإطراء لذيذ لأن الأنسة ويلكنسون وقعت في غرامه. قالت له ذلك بالإنجليزية وبالفرنسية. وراحت تكيل له المديح والمجاملات. ولم يحدث من قبل أن قال له أحد أن عيني ساحتان وفمه فيه حساسية. ولم يكن يهتم كثيراً بمظهره الشخصي ولكن الآن عندما تخير أي مناسبة فإنه ينظر إلى نفسه في المرآة بارتياح. وعندما قبلها كان شيئاً رائعاً أن يشعر بالعاطفة التي يبدو أنها سرت في روحها. لقد قبلها كثيراً ووجد أنه من السهل أن يفعل ذلك عن أن يقول أشياء شعر أنها تتوقعها منه. وما زال قوله أنه يعبدها يجعله يشعر أنه أحمر وتمني لو أن هناك شخصاً يمكنه أن يتباهى معه قليلاً ويتناقش معه عن رغبة في نقل صغيرة في سلوكه. وأحياناً كانت تقول أشياء غامضة وكان يشعر معها بالحيرة. وتمني أن هياوارد كان هناك حتى يسأله عن رأيه في معني ما قالت.

وما يفضل أن يفعله بعد ذلك. ولم يستطع أن يقرر هل يتعجل الأمور أم يتركها تأمل وقتها، ولم يكن أمامه إلا ثلاثة أسابيع. وقالت :

- لا أتحمّل أن أفكر في ذلك فإن قلبي يتحطم، ثم ربما لا نري بعضنا مرة أخرى.

وقال هامساً :

- لو كنت تهتمين بي فلا يمكن أن تكوني بهذه القسوة معي.

- لماذا لا ترضى بأن تدع الأمور تجري كما هي ؟ إن الرجال دائماً متشابهون فلا يرضون بشيء أبداً.

وعندما ألح عليها قالت :

- ألا ترى أنه مستحيل. كيف يمكننا هنا ؟

واقترح عليها كل أنواع الخطط ولكنها رفضتها كلها وقالت :

- لا أجزؤ على المخاطرة فسيكون أمراً مرعباً إذا علمت عمك بالأمر.

وبعد يوم أو يومين واثته فكرة بدت له رائعة.

- ما رأيك لو تظاهرت أنك أصبت بصداق ليلة الأحد واقترحت أن تمكثي بالمنزل وتقولين أنك ستراعيه. فالعمة لويزا سوف تذهب إلى الكنيسة.

عموماً كانت السيدة كاري تبقى بالمنزل ليلة الأحد حتى تتيح لماري أن تذهب إلى الكنيسة ولكنها سترحب بفرصة حضور صلاة المساء.

ولم يجد فيليب أنه من الضروري أن يحدث أقاربه عن التغيير الذي حدث في آرائه المسيحية، الذي حدث في ألمانيا. فلم يتوقع منهم أن يفهموه. وبدا أنه من الأسلم أن يذهب

عندما تعود هابطا السلم الذي صعدته من قبل. وتحصن فيليب بشجاعته. وأدار المقبض ودخل الغرفة. وأحس أنه يرتجف كورقة شجرة.

كانت الأنسة ويلكنسون تقف أمام نضد الزينة وظهرها ناحية الباب واستدارت بسرعة عندما سمعت الباب يفتح.

-أوه.. إنه أنت. ماذا تريد؟

كانت قد خلعت تنورتها وقميصها وكانت تقف وهي مرتدية قميصا تحتانيا. كان قصيرا، ووصل فقط إلى قمة رقبة حذائها وكان الجزء الأعلى منه أسود اللون من قماش لامع وله أهداب حمراء اللون وكانت عليها سترة نسوية قصيرة. كان شكلها غريبا متنافرا. وانقبض قلب فيليب وحملق فيها فلم تبدو هكذا أبدا فاقدة الجاذبية : غير أن الألوان قد فات الآن. وأغلق الباب خلفه ثم أوصده.



استيقظ فيليب مبكرا وكان نومه قلقا غير أنه عندما مد ساقيه ونظر إلى أشعة الشمس التي تسللت خلال الستائر ورسمت على الأرض أشكالا غريبة تنهد بارتياح. كان مسرورا من نفسه وقد بدأ يفكر في الأنسة ويلكنسون. لقد طلبت منه أن يناديها إيميلي ولكنه لم يعرف لماذا لم يستطع ذلك. لقد كان دائما يفكر فيها على أنها الأنسة ويلكنسون. ولما وبخته لأنه لما يناديها كذلك تجنب أن يستخدم اسمها تماما. وأثناء طفولته سمع كثيرا اسم إيميلي يطلق على شقيقة للعملة لويزا كان زوجها ضابطا بحريا. ولم يكن يشعر بارتياح إذا نادى الأنسة ويلكنسون بهذا الاسم ولا يوجد اسم يناسبها أكثر من اسمها الأصلي. وهذا الاسم يبدو أنه لا يمكن أن ينفصل عنها أبدا. وقطب جبينه قليلا..فقد رآها في أسوأ منظر لها ولم يستطع أن ينسى عندما استدارت ورآها في قميصها التحتاني وتذكر الخشونة البسيطة في بشرتها والخطوط الطويلة الغائرة في جانب عنقها. لقد كان انتصاره قصير الأجل. وراح يحسب عمرها ولم ير كيف يمكن أن تكون أقل من أربعين عاما، لقد جعل هذا من علاقته بها أمرا سخيلا. لقد كانت عجوزا قبيحة. وقد أظهرها له خياله امرأة مجعدة منهكة ومصطنعة بتلك العباءات التي ترتديها والتي تبدو فيها مبهرجة وأصغر من سنّها. وارعد..وشعر فجأة أنه لا يريد أبدا أن يراها مرة أخرى. فإنه لا يحتمل فكرة تقبيلها. وشعر بالرعب من نفسه. هل هذا هو الحب؟

وراح يتلصقا بقدر الإمكان وهو يرتدي ملابسه حتى يؤخر رؤيتها. وعندما ذهب أخيرا إلى حجرة المائدة كان قلبه يغوص بين جنبيه. وتليت الصلاة وكانوا جميعا جالسين للإفطار وصاحت الأنسة ويلكنسون في مرح :

- كسول.

فنظر إليها وتنهد بارتياح. كانت تجلس وظهرها للنافذة. كانت حقا لطيفة جدا. وتعجب لماذا فكر تلك الأفكار من قبل. وعاد إليه رضاؤه عن نفسه.

لقد ذهل للتغيير الذي طرأ عليها. وقالت له بعد الإفطار بصوت منتشي بالعاطفة أنها تحبه، وعندما ذهب إلى حجرة الجلوس بعد ذلك لبدء درس الغناء جلست على مقعد البيانو وقالت له :

- قبلني.

وعندما انحني أحاطت عنقه بذراعيها بشدة حتى أنه شعر بالاختناق. وقالت بلهجتها الفرنسية :

- أحبك.. أحبك.. أحبك.

وتمني فيليب لو تكلمت الإنجليزية. وقال :

- لا أعرف إذا كنت قد فكرت في أن البستاني يمكن أن يمر قرب النافذة في أي وقت.

- أنا لا يهمني البستاني ولا غير البستاني.

وفكر فيليب أن الأمر كله يبدو وكأنه رواية فرنسية ولم يعرف لماذا ضايقه ذلك قليلا. وأخيرا قال :

- أظن أنني سأسير إلى الشاطئ وأغطس في الماء قليلا.

-أوه.. أنت لا تنوي أن تتركني هذا الصباح.. وبالذات هذا الصباح.

ولم يعرف فيليب لماذا لا يتركها غير أنه لا يهتم. وابتسم قائلا :

- أتحبين مني أن أبقى معك؟

- أوه يا عزيزي..ولكن هيا اذهب إلى الشاطئ.. أحب أن أفكر فيك وأنت تتحكم في أمواج البحر المالحة وتستحم أطرافك في المحيط العريض.

أخذ قبعته وسار الهوينى نحو الشاطئ. وقال لنفسه : ياله من حديث نسائي متعفن.

ولكنه كان مسرورا وسعيدا. وكان من الواضح أنها وقعت في هواه. وبينما سار يعرج في الشارع الرئيسي في بلاكستابل نظر إلى الناس الذين كانوا يسيرون في الشارع بنوع من التكبر. وكان يعرف الكثيرين منهم فكان يومئذ إليهم برأسه، وبينما كان يبتسم لهم أيضا دارت الأفكار في ذهنه..آه لو يعرفون ! كان يريد بشدة أن يعرف أحد. وفكر في أنه قد يكتب لهايوارد وراح في ذهنه يخط الرسالة» سوف يحدثه عن الحديقة والزهور والمربية الفرنسية الصغيرة مثل زهرة غريبة من الزهور عطرة وفاسدة» سوف يقول له إنها فرنسية : نعم فقد عاشت في فرنسا طويلا لدرجة أنها أصبحت فرنسية ثم أنه من السخف أن يروي القصة كلها بالضبط. وسوف يقول لهايوارد كيف رآها في ثوبها الحريري والوردة التي أعطتها إياه وجعل منها قصيدة شعر : فقد أضفت عليها الشمس والبحر عاطفة حارة وسحرا وأضفت عليها النجوم شعرا رقيقا ، وكانت حديقة القس مكانا مناسبا رائعا. وسمع فيليب قلبه يدق بسرعة. كان سعيدا بأحلامه جدا حتى أنه

بدأ يفكر فيها مرة أخرى عندما زحف عائدا إلى حمامه يشعر بالبرد وتتساقط منه قطرات الماء. وفكر في الموضوع الذي يثير حبه . لها أنف صغير فاتن وعيون واسعة بنية اللون - سوف يصفها لهايوارد - وكتل من الشعر البني الناعم، ذلك النوع من الشعر الذي تقلد بأن تدفن رأسك فيه. وبشرة مثل العاج وضوء الشمس وجنتاها مثل وردة حمراء كم عمرها ؟ ربما في الثامنة عشرة وسماها «موزيت» صوتها ناعم رقيق وهو أحلي موسيقي سمعتها أذناه.

- فيم تفكر ؟

توقف فيليب فجأة. كان يسير ببطء إلى المنزل.

- كنت ألوح لك طوال ربيع الميل الأخير. أنت سارح تماما.

كانت الأنسة ويلكنسون تقف أمامه وهي تضحك من دهشته. وقالت :

- ظننت أني سأتي وأقابلك .

ورد فيليب قائلا :

- هذا لطيف جدا منك.

- هل أفرعتك ؟

- نعم فزعت قليلا.

وكتب رسالته لهايوارد. وكانت من ثماني صفحات.

مر الأسبوعان المتبقيان بسرعة. ورغم أن الأنسة ويلكنسون كانت كل مساء عندما يتنزهان في الحديقة بعد العشاء تقول أم يوما آخر قد مر فقد كان فيليب في حالة طيبة فلم يدع هذا الأمر يضايقه.

وفي إحدى الأمسيات قالت له أثناء حديثها أنه قد يكون من الأفضل أن تستبدل بوظيفتها في برلين أخرى في لندن، وحينئذ يمكن لكل منهما أن يرى الآخر على الدوام. وقال فيليب أن تلك فكرة سارة ولكنها لم تثر حماسه فقد كان يتوق إلى حياة أكثر بهجة وروية في لندن، وأراد ألا يعوقه عن هذا الأمل شيء، فراح يتحدث في قليل من التبسط عما يريد أن يفعل، فأتاح بذلك للأنسة ويلكنسون أن تدرك أنه مشتاق إلى السفر.

وصاحت قائلة :

- لو كنت تحبني ما قلت ذلك.

ذهل وظل صامتا.

وأضافت :

- أي حمقاء كنت.

ولدهشته رأي أنها تبكي. وكان له قلب رقيق ويكره أن يري أحدا في بؤس.

-أوه ، أنا أسف جدا ، ماذا فعلت ؟ لا تبكي أرجوك.

- فيليب.. لا تتركني يا فيليب..أنت لا تعرف ماذا تغني لي. إن حياتي بائسة وقد جعلتني سعيدة جدا.

وقبلها بهدوء. وكانت نغمة صوتها توحى بأنها تعاني كرها حقا وقد شعر بالخوف. فلم يخط له أبدا أنها تعني ما تقول بجد.

- أنا أسف جدا. أنت تعرفين أنني مغرم بك جدا. وأتمني لو تأتي إلى لندن.

- أنت تعرف أنني لا يمكنني أن أذهب إلى لندن. فالأماكن من الصعب الذهاب إليها وأنا أكره العيشة الإنجليزية.

ويدون وعي منه تقريبا أنه يمثل دورا ما.. وقد تأثر بأساها.. فراح يلح عليها أكثر وأكثر. وقد أحس بالإطراء الغامض من دموعها فقبلها بعاطفة حقيقية.

غير أنها بعد يوم أو يومين افتعلت أزمة حقيقية. فكان هناك حفل للعب التنس في منزل القس وحضرته فتاتان جديدتان ، ابنتا ضابط متقاعد في الفوج الهندي استقر مؤخرا في بلاكستابل . كانت الفتاتان فانتتان للغاية وكانت إحداهما في سن فيليب والأخرى أصغر منه بسنة أو سنتين. وكانتا معتادتين علي مجتمع الشباب من الرجال (كانت لديهن حكايات كثيرة عن محطة هيل في الهند وفي ذلك الوقت كانت قصص الكاتب رايدارد كيبلنج عن الهند في أيادي الناس جميعا) وبدأتا تمارحان فيليب في مرح: وكان هو سعيدا بهذا التجديد - فقد كانت الفتات في بلاكستابل يعاملن ابن أخي القس بنوع من الجدية.

وثمة شيطان في داخله دفعه إلى مغازلة الفتاتين، ولما كان هو الشاب الوحيد في الحفل فقد تماشيا معه في الغزل والمزاح. وكان من المصادفة أنهما تلعبان التنس جيدا جدا وكان فيليب قد سئم اللعب الهزيل للأنسة ويلكنسون (كانت قد بدأت تلعب عندما جاءت إلى بلاكستابل فقط)، ولذلك فعندما رتب اللاعبون بعد تناول الشاي اقترح أن تلعب الأنسة ويلكنسون ضد زوجة راعي الأبرشية على أن يكون راعي الأبرشية زميلها في المباراة وسيلعب هو فيما بعد مع القادمتين الجديدتين. وجلس إلى جانب أكبرهم الأنسة أوكونر وهمس إليها قائلا :

- سوف نعبد الأغبياء عن الطريق ثم نلعب معا مباراة رائعة بعد ذلك.

ويبدو أن الأنسة ويلكنسون سمعت هذا الكلام لأنها ألقت بمضرب التنس على الأرض وقالت أنها تشعر بصداع وغادرت المكان. وتضايق فيليب خشية أن تقوم بإعلان كل شيء علي الجميع. وتم ترتيب المباراة بدونها ، غير أن السيدة كاري نادت فيليب :

- فيليب ، لقد جرحمت مشاعر الأنسة ويلكنسون وهي الآن في غرفتها تبكي.

- لماذا استاءت ؟

- كلام عن مباراة الأغبياء. اذهب إليها وقل لها أنك لم تقصد أن تكون قاسيا. فيليب ولد

طييب.

- وهو كذلك.

قرع باب غرفة الأنسة ويلكنسون ولما لم يتلق ردا دخل. وجدها مستلقية تبكي ووجهها ملتصق بالفراش. ولمس كتفها.

- ما الحكاية.. ماذا حدث ؟

- اتركني وحدي.. لا أريد أن أتكلم معك مرة أخرى.

- ماذا فعلت أنا ؟ أنا أسف جدا إذا كنت قد جرحت مشاعرك فأنا لا أقصد ذلك.. أرجوك أن تنهضي من فراشك.

- أوه، أنا حزينة جدا، كيف تكون قاسيا معي بهذا الشكل ؟ أنت تعرف أنني أكره هذه اللعبة الغبية. وأنا ألعبها فقط لأنني أريد أن ألعب معك.

ونفضت من على الفراش واتجهت إلى نضد الزينة ولكن بعد نظرة سريعة في المرأة جلست على مقعد. وكورت منديلها وجففت به عينيه.

- لقد أعطيتك أغلى ما يمكن أن تعطيه المرأة للرجل. أوه.. يا لحماقتي ! وأنت ليس لديك عرفان بالجميل. أنت لاشك عديم القلب. كيف تكون بهذه القسوة بحيث تعذبني بالغزل مع هاتين الفتاتين السوقيتين. لم يتبق لنا أكثر من أسبوع. أفلا تعطيني ذلك ؟

وقف فيليب بجانبها عابسا. ورأي أن سلوكها أقرب إلى سلوك الأطفال. وشعر بالغضب منها لأنها أظهرت غضبها أمام الغرباء.

- ولكنك تعرفين أنني لا أعبأ إطلاقا بأي من هاتين الفتاتين.. ماذا دهاك وجعلت تفكرين بهذه الطريقة.

وتخلت الأنسة ويلكنسون عن منديلها. تركت الدموع علامات على مساحيق وجهها وكان شعرها مشوشا. ولم يكن ثوبها الأبيض يناسبها كثيرا عندئذ. ونظرت إلى فيليب بعيون جائعة مشوبة بالعاطفة. وقالت بصوت أجش :

-لأنك في العشرين وهي كذلك. وأنا عجوز.

واحمر وجه فيليب وتحاشى النظر إليها. فقد أثاره الألم الذي بدا في صوتها وجعله يشعر بعدم الارتياح. وتمنى من كل قلبه لو أنه لم تكن له أي علاقة بالأنسة ويلكنسون. وقال وهو مرتبك :

- أنا لا أريد أن أجعلك تعيسة. ويستحسن أن تنزلي الآن وتعتني بأصدقائك. فسوف يتساءلون ماذا حدث لك.

- وهو كذلك.

وسره أن تركها.

وسرعان ما جاءت المصالحة في أعقاب ذلك الشجار غير أن الأيام القلائل التي تبتقت كانت مصدر إزعاج لفيليب. فلم يكن يريد أن يتحدث عن شيء سوى المستقبل. وكان الكلام عن المستقبل يثير دموع الأنسة ويلكنسون. كان بكاءها في البداية يؤثر فيه ولكنه شعر أنه حيوان فضاعف من احتجاجاته بأن عاطفته لم تمت، غير أن كل ذلك ضايقه الآن. كان يمكن أن تكون الأمور أحسن بكثير لو أن الأنسة ويلكنسون كانت فتاة ولكن من السخف بالنسبة

لامرأة كبيرة السن أن تبكي. ولم تكف أبدا عن تذكيره بأنه مدين لها بجميل لن يستطيع أن يرده أبدا. وكان علي استعداد لأن يقر ذلك ما دامت هي تصر عليه غير أنه لم يعرف حقا لماذا يكون هو مدينا لها بمعروف ولا تكون هي مدينة له بمعروف. وكان متوقعا منه أن يبدي إحساسه بالدين بطرق مزعجة إلى حد ما : وقد اعتاد هو على الوحدة وكانت هذه الوحدة ضرورة في بعض الأحيان، ولكن الأنسة ويلكنسون كانت تري أن عدم وجوده تحت إمرتها نوع من القسوة، وقد دعتهم الأنسة أوكوثر كليهما لتناول الشاي وكان فيليب يحب أن يلبي الدعوة غير أن الأنسة ويلكنسون قالت له أنه ليس أمامهما سوى خمسة أيام وأنها تريده فيهم كلية لنفسها. كان مطلبا فيه إطرأ له ولكنه ممل. وحكت له الأنسة ويلكنسون حكايات عن الرقة المتناهية للرجال الفرنسيين في علاقاتهم مع الجنس اللطيف المماثلة لعلاقتها مع فيليب. وراحت تمتدح كياستهم ونزعتهم نحو التضحية بالذات ولباقتهم وحساسيتهم. وكان يبدو أن الأنسة ويلكنسون تطلب الكثير.

واستمع فيليب إليها وهي تتحدث عن السلوكيات التي يحب أن يتحلّى بها المحب العظيم. وانتابه شعور بالارتياح لم يستطع أن يقاومه لأنها تعيش في برلين.

- سوف تكتب إلي. أليس كذلك.. اكتب لي كل يوم. أريد أن أعرف كل ما تفعله ولا يجب أن تخفي عني أي شيء.

- سوف أكون مشغولا جدا وسوف أكتب كثيرا بقدر الإمكان.

وأحاطت عنقه بذراعها بعاطفة مشوبة. كان أحيانا يشعر بحرج من إظهارها لعواطفها. وكان يفضل لو أنها أكثر سلبية. ومما صدمه قليلا أنها تفوقه في هذا المجال بكثير : ولم يتناسب هذا مع تحيزه لاحتشام المزاج الأنثوي.

أخيرا انتهت أجازتها وحل يوم سفرها، ونزلت لتناول الإفطار مغلوبة على أمرها بادية الشحوب وارتدت ثوبا للسفر من قماش أبيض وأسود وبدأت حينئذ كالمربية المثالية حقا.. وظل فيليب صامتا لأنه لم يعرف ماذا يقول في مثل هذه المناسبات، وكان يخشى إذا ما ثرثر وقال ما هو غير مناسب أن تنهار الأنسة ويلكنسون أمام عمه. وكان كل منهما قد ودع الآخر الوداع الأخير عندما كانا في الحديقة الليلة قبل البارحة، وشعر فيليب بالارتياح لأنه لم تكن هناك فرصة أخرى لينفرد أحدهما بالآخر. وانتظر في حجرة المائدة بعد الإفطار حتى تستطيع الأنسة ويلكنسون أن تقبله على السلم إذا أرادت.. ولم يكن يريد ماري أن تراهما في هذا الموقف المثير للشبهات. وقد أصبحت ماري آن حينئذ سيدة متوسطة العمر سليطة اللسان ولم تكن تحب الأنسة ويلكنسون، وكانت تسميها القطة العجوز.

وكانت العمّة لويزا متوعة قليلا في ذلك اليوم ولم تكن تستطيع اصطحاب الأنسة ويلكنسون إلى المحطة، فودعها القس وفيليب. وعندما هم القطار بمغادرة المحطة مالت برأسها إلى السيد كاري وقبلته ثم قالت:

- يجب أن أقبلك أنت أيضا يا فيليب..

فقال وقد احمر وجهه خجلا :

- وهو كذلك..

وصعد درجة السلم فقبلته قبلة خاطفة، وبدأ القطار في التحرك و غرقت الأنسة ويلكنسون في ركن من أركان العربة و راحت تبكي مهمومة، وأحس فيليب وهو في طريقه إلى المنزل بشعور قوي من الارتياح. وعندما وصلا قالت العمدة لويزا:

- هل أوصلموها بسلام؟

- نعم.. لقد بدا عليها البكاء و أصرت على أن تقبلنا أنا و فيليب..

وقالت السيدة كاري:

- ليس هذا بالأمر الخطير من امرأة في مثل سنها.. وأشارت إلى الخوان وقالت : هناك خطاب لك يا فيليب وصل في الدفعة الثانية من البريد.

كان الخطاب من هايوارد وقال فيه ما يلي :

صديقي العزيز.

ها أنا أرد علي خطابك على الفور. لقد غامرت بقراءته على صديقة لي ، سيدة فانتة كانت مساعدتها لي وعطفها علي شيئا ثمينا لي لديها إحساس حقيقي بالفن والأدب ووافقنا على أن خطابك ساحر. لقد سطرت السطور من أعماق قلبك وأنت لا تعرف البراءة المبهجة الكامنة في كل سطر. ولأنك تحب فأنت تكتب كشاعر. آه يا عزيزي هذا هو جوهر الحياة الحقيقية : لقد شعرت بوهج عاطفتك البريئة وكان النثر الذي كتبتة موسيقيا نابعا من نقاء وإخلاص عاطفتك. يجب أن تكون سعيدا. كنت أتمني أن أكون هناك في الحديقة الساحرة حيثما كنتما تسيران وأشهدكما من مكان خفي تسيران كل يعتصر يد الآخر والحب الوليد يشع من عيونكما وهي بين ذراعيك صغيرة وناعمة ورقيقة وهي تقسم أن لا تستسلم أبدا - استسلمت. آه يا صاحبي كم أغبطك. جميل أن يكون حبك الأول شعرا صافيا. فلتسعد بهذه اللحظات لأن الله الخالد قد منحك أعظم هدية وسوف تظل ذكرها في أعماقك حتى يوم الرحيل العظيم. ولن تتمتع مرة أخرى بهذه النشوة الخالية من الهموم. فالحب الأول هو أعظم حب وهي جميلة وأنت في عز الشباب والعالم كله ملك لك. وقد شعرت بقلبي ينبض بسرعة عندما قلت ببساطتك الرائعة أنك دفنت وجهك بين خصلات شعرها الطويلة. وأنا واثق أن لون شعرها هو هذا اللون الكستنائي المشوب بالذهب. كنت سأجعلكم تجلسان تحت شجرة مورقة جنباً إلى جنب وتقرأن معا روميو وجوليت ثم أجعلك تركع على ركبتك وتقبل نيابة عني الأرض التي تركت عليها بصمات قدميها، ثم تقل لها إن هذا اعتراف من شاعر بشبابها الوضاء ولحبك لها.

المخلص دائما

ج. إثيريدج هايوارد

وعندما فرغ فيليب من قراءة الخطاب قال «ياله من كلام عفن ملعون». والغريب أن الأنسة ويلكنسون كانت قد اقترحت أن يقرأ رواية روميو وجوليت معا غير أن فيليب رفض ذلك بحزم. ثم بعد أن وضع الخطاب في جيبه شعر بشعور غريب من المرارة لأن الحقيقة بدت مختلفة جدا عن الشيء المثالي.



سافر فيليب إلى لندن بعد بضعة أيام من ذلك الوقت، وقد أوصاه عمه بحجرات في «بارنز» فبعث بخطاب ليحتجزها نظير أربعة عشر شلنا في الأسبوع.

ووصل إلى بارنز في المساء ، وكانت صاحبة المنزل قد أعدت له الشاي، وهي عجوز شمطاء قصيرة ضامرة الجسم ذات وجه مملوء بالتجاعيد. ولاحظ فيليب أن الغرفة المعدة للجلوس قد شغلها الخوان و نضد مربع الشكل وأسند إلى أحد حوائطها مضجع غطى بقماش صنع من شعر الخيل، و إلى جانب المدفأة استقر مقعد يناسب المضجع وقد وضع في أعلاه غطاء للزينة و وضعت على المقعد وسادة صلبة لأن أسلاكه السفلية كانت قد تحطمت.

و بعد أن تناول الشاي أفرغ حقائبه ورتب كتبه ثم جلس و حاول أن يقرأ ولكنه كان مكتئبا فقد ضايقه السكون الذي انتاب الشارع و شعر بوحدة قاسية.

وفي اليوم التالي نهض مبكراً وارتدى سترته وقبعته العالية التي كان يرتديها في المدرسة، ولكنها بدت رثة قد بهت لونها فخرج على أحد المحال في طريقه إلى المكتب وابتاع أخرى جديدة. و بعد أن فرغ من ذلك وجد أن لديه متسعا كبيرا من الوقت فراح يذرع شارع ستراند. وكان مكتب هيربرت كارتر وشركاه في شارع صغير في «شانسري لين». واضطر أن يسأل عنه مرتين أو ثلاثا وشعر بأن الناس يحدقون فيه كثيرا وقد خلع قبعته مرة ليرى هل تركت عليها الورقة الدالة على المتجر مصادفة، وعندما وصل إلى المنزل طرق الباب ولكن أحدا لم يجبه وعندما نظر إلى ساعته وجد أنها لم تكد تبلغ التاسعة والنصف فغادر المكان وعاد بعد عشر دقائق ليجد صبييا في المكتب ذا أنف طويل و وجهه به بثور ويتكلم في لكنه اسكتلندية، و فتح الصبي الباب و سأل فيليب عن السيد كارتر فعلم أنه لم يصل بعد، فقال:

- ومتى يصل؟

- ما بين العاشرة والعاشرة والنصف..

فقال فيليب:

- من الأفضل أن أنتظره إذن.

فسأله الصبي:

- وماذا تريد؟

وأحس فيليب بثورة أعصابه حينئذ، ولكنه حاول أن يخفي ذلك بمرحه.

- إني سأعمل هنا.. إذا لم يكن لديك مانع؟
فرد عليه قائلاً :

- آه أنت الكاتب الجديد...؟ تفضل.. إن السيد جوردورثي سيصل حالا.

ودخل فيليب الحجره، ولاحظ أن الصبي الذي كان في مثل سنه والذي كان يطلق عليه نفسه اسم «الكاتب الصغير» راح يتأمل قدمه، فاحمر وجه فيليب خجلاً ، وعندما جلس أخفاها خلف القدم الأخرى. وراح يتأمل الحجره حوله. فرأها حجره معتمه رطبه للغاية ينثني الضوء إليها من كوة في السقف، وكان بها ثلاثة صفوف من المكاتب أمام كل منها مقعد عال بلا ظهر.. وفوق المدفأة علق صورة محفورة لمباراة في الملاكمة وقد علاها الغبار وما لبث أن دخل أحد الكتبة، وتبعه آخر بعد قليل، ونظرا إلى فيليب وفي صوت هامس السيد الصبي «عن هذا الزائر» وعرف فيليب أن اسمه ماكدوجال وسمع صوت صفارة على أنه نهض الصبي وقال لفيليب:

- لقد وصل السيد جوردورثي.. إنه المدير.. هل أنبئه أنك هنا؟
- نعم إذا سمحت.

وخرج الصبي ثم عاد بعد لحظة وقال:
- هل تتكرم و تتبعني؟

وسار فيليب خلف الصبي وعبرا ممرا حتى وصلا إلى حجره صغيرة بها أثاث بسيط وبها رجل نحيف ظهره تجاه المدفأة. كان الرجل أقصر من الطول العادي بكثير وقد أكسب رأسه الكبير الذي بدا وكأنه التصق بجسده في استرخاء، منظرًا عجيباً منفرداً، كان غير واضح الملامح عريض القسماذ عينين شاحبتين جاحظتين وكان شعره متفرق عن بعضه ولم يبلون الرمل، له عارضان نما على وجهه في غير انتظام فلا تجد شعرا على الإطلاق في المواقع التي تتوقع وجود الشعر بغزارة، وكانت بشرته ملساء شاحبة . ومد يده إلى فيليب وعندما ابتسم بدت أسنانه المتآكلة، وتكلم بشيء من الترفع وقليل من الجبن كأنه يحاور أن يضفي على نفسه شيء من الأهمية لم يكن يشعر بها. وقال أنه يأمل أن يلقي العمل به في نفس فيليب، وأضاف إلى ذلك أن فيه كثيرا من الإرهاق ولكنه يصبح ممتعا لمن يعمله عليه ويحصل منه على المال وهو أهم شيء.. أليس كذلك؟ وضحك في هذا المزيج العجيب من التعالي والخجل، ثم قال:

- إن السيد كارتر سيصل بعد قليل، إنه أحيانا يتأخر قليلا صباح يوم الاثنين، وسأستدعيك فور وصوله.. وإلى أن يجيء سأعطيك شيئا تفعله.. أتعرف شيئا عن الحسابات مسك الدفاتر؟

فأجاب فيليب:

- لا ، أخشى أن أقول إني لا أعرف عن ذلك شيئا..

- إني لم أفترض أنك ستعرف ، فهم في المدرسة لا يعلمونكم أشياء تنفعكم في ميدان العمل..

وفكر قليلا ثم قال :

- أعتقد أنه يمكنني أن أجد لك شيئا تفعله.

وذهب إلى حجره مجاورة ثم عاد وهو يحمل صندوقا من الورق المقوى يضم عددا ضخما من الخطابات موضوعة في غير نظام، وطلب إلى فيليب أن يخرجها جميعا ثم يرتبها في الدرج حسب أسماء كاتبها بالحروف الأبجدية وقال:

- سأصحبك إلى الحجره التي يجلس فيها دائما الكاتب المتعاقد معه، وستجد هناك فتى لطيفا للغاية اسمه واتسون وهو ابن واتسون الذي يشترك مع كراج ، و تومسون في مصنع الجعة، ألا تعرفهم؟ إنه يقضي معنا عاما ليتعلم شئون التجارة.

وقام السيد جوردورثي بمصاحبة فيليب إلى حجره المكتب، حيث كان يعمل وقتئذ ثمانية من الكتبة، ثم سارا إلى غرفة ضيقة تقع خلفها. وقد حولت إلى شقة منفصلة بفواصل زجاجي وضع بينهما. وهناك وجدا السيد واتسون وقد استند بظهره إلى المقعد وراح يقرأ صحيفة سبورتمان (الرياضي). كان السيد واتسون شابا بدينا يرتدي ملابسه في أناقة. و التفت عند دخول السيد جوردورثي وناداه قائلاً : «جوردورثي» فقط دون ألقاب، وذلك ليثبت مكانته لنفسه، وكان رئيس الكتبة يعترض على هذه الألفة، ويناديه بالرغم من هذا بالسيد واتسون ولكن واتسون بدلا من أن يجعل هذا بمثابة تأنيب له تقبل اللقب كأنه اعتراف بمكانته وقال واتسون لفيليب عندما أصبحا وحدهما في الحجره:

- أرى أنهم أبعدوا ريجولييتو عن السباق.

ورد فيليب رغم أنه لم يكن يعرف شيئا عن سباق الخيل:
- هل فعلوا ذلك حقا؟

ونظر فيليب وهو مرتاع إلى ملابس السيد واتسون الجميلة ، فقد كانت سترته ثلاثه تماما، وعلى صدره وفي منتصف ربطه عنق رائحة استقر دبوس ثمين وكانت قبعته العالية الموضوعه على رف المدفأة في شكل الناقوس لامعة تدل على الرغبة في التظاهر والتأنق. وشعر فيليب إزاء ذلك بأنه رث الملبس بشدة وبدأ واتسون يتحدث عن الصيد ويقول أن من أصعب الأشياء على النفس ألا يستطيع المرء أن يخرج للصيد لأنه يضيع وقته في مثل هذا المكتب الجهنمي.. فهو لا يستطيع الصيد إلا في أيام السبت ، ثم الرماية.. إن لديه دعوات ملحة من جميع أنحاء البلاد غير أنه مضطر ألا يلبسها.. إنه حقا حظ لعين. ولكنه لن يصبر على هذه الحال طويلا، لقد ظل في هذا الجحر اللعين عاما بأكمله وبعد ذلك سيبدأ مشروعه هو ثم يصطاد أربعة أيام في الأسبوع ويقضي في الرماية ما يشتهي من الوقت. وحرك ذراعه

وهي مدرسة محترمة. فيها فصول جميلة للصبية، وقال إن ابنه سينهي دراسته فيها بعد سنتين، وأنه يحب أن يكون ابنه رياضيا بكل ما في الكلمة من معنى. وقال كذلك أنه يأمل أن يتمكن فيليب من أن يحب عمله وأن يستمر فيه، وألا تفوته المحاضرات فإنهم يرتفعون بمستوى المهنة ويريدون لها رجالا مهذبين، وقال إن السيد جودورثي موجود دائما وإذا أراد فيليب أن يعرف شيئا فسيخبره به. وسأل كيف حاله فيما يتعلق بخطه في الكتابة. ثم أضاف أن السيد جودورثي سيهتم بهذه المسألة.

لقد غمرت فيليب رقة الرجل.. إنهم في «إيست أنجيلا» يعرفون من هم الرجال المهذبون ومن هم غير المهذبين، ولكن الرجال المهذبين لا يتكلمون أبدا عن ذلك..



في البداية تأثر فيليب بالعمل لأنه كان شيئا جديدا. فقد كان السيد كارتر يملئ عليه الرسائل وكان عليه أن يعد نسخا من كشوف الحسابات.

وكان السيد كارتر يحب أن يدير العمل في المكتب بطريقة مهذبة. فلم يكن يحب الآلة الكاتبة وكان ينظر إلى الاختزال باحتقار: فقد كان صبي المكتب يعرف الاختزال، ولكن كان السيد جودورثي وحده هو الذي يستفيد من إنجازات الصبي في الاختزال. ومن آن لآخر كان فيليب يخرج في صحبة أحد الكتبة المحنكين لمراجعة حسابات بعض الشركات وعرف عندئذ الزبائن الذين يجب معاملتهم باحترام وغيرهم الذين لا داعي للاحترام الكثير في معاملتهم. وأحيانا كان يكلف بجمع قائمة كبيرة من الأرقام. وحضر المحاضرات من أجل امتحانه الأول. وكان السيد جودورثي يكرر عليه دائما أن العمل يكون مملا في البداية ولكنه سوف يعتاد عليه بعد ذلك. وكان فيليب يغادر المكتب في الساعة السادسة مساء ويسير عبر النهر إلى واترلو. وكان عشاؤه ينتظره عندما يصل إلى مسكنه وبعد ذلك يقضي الأمسية في القراءة. وفي أيام السبت بعد الظهر يذهب إلى المتحف الوطني. وكان هايوارد قد أوصاه بدليل تم جمعه من أعمال راسكن ولما كان هذا الدليل متوفرا لديه فقد راح يزور المتحف ويتنقل فيه من حجرة إلى أخرى: ويقرأ بعناية ما يقوله النقاد عن لوحة معينة وإذا به يرى في تلك اللوحة نفس ما يقوله النقاد. وكان يصيبه الملل في أيام الأحد لأنه لم يكن يعرف كيف يقضي الوقت. فلم يكن يعرف أحدا في لندن ولذلك فكان يقضي هذا اليوم وحيدا مع نفسه. وقد دعا مرة السيد نيكسون المحامي لكي يقضى معه يوم أحد في هامبستيد وقضى فيليب يوما سعيدا مع غرباء مليئين بالحيوية والمرح فقد أكل وشرب كثيرا وسار في المروج وخرج من ذلك بأن وجهت إليه دعوة عامة بأن يعود إلى الزيارة وقتما يشاء غير أنه خشي تماما أن يكون مصدر ضيق لهم، ولذلك راح ينتظر أن تصله دعوة رسمية. وبالطبع لم تصله هذه

مشيرا إلى الحجرة الصغيرة وقال موجهها حديثه إلى فيليب مع حركة دائرية من يده تشير إلى أنحاء الحجرة:

- إنك ستقضي هنا خمس سنوات.. أليس كذلك؟

- أظن هذا؟

- أستطيع أن أقول إذن.. إنني سأراك كثيرا فيما بعد، فإن كارتر هو الذي يتولى حسابات كما تعلم..

و غلب فيليب التأثير مما أبداه الشاب نحوه من لطف وتواضع، فقد كانوا في بلاكستون ينظرون إلى صانعي الجعة نظرة احتقار، وكان القس يسخر في بعض الأحيان من هم المهنة، ولذلك دهش فيليب أشد الدهشة عندما وجد أن واتسون شخص لطيف رائع. لقد ذهب واتسون إلى أكسفورد ونشستر، وكثيرا ما تجلى أثر هذه الأسفار في حديثه واضحا في الموضوع. وعندما علم بدقائق حياة فيليب وكيف قضى فترة دراسته أصبحت تصرفاته نحوه أكثر رقة ولطفا. وقال:

- بالطبع إذا لم يستطع المرء الذهاب إلى المدارس الخاصة فإن هذا النوع من المدارس خير ما يمكن أن يجده بديلا عنها بطبيعة الحال.. أليس كذلك؟

وسأله فيليب عن الرجال الآخرين الموجودين في المكتب، فقال واتسون:

- أنا لا أهتم بهم كثيرا.. إن «كارتر» ليس بالشخص الرديء.. فنحن ندعوه لتناول العشاء معنا من آن لآخر. أما الباقيون فإنهم ثلة من المزعجين.

ولم يلبث واتسون أن شغل بعمل. وشرع فيليب في فرز الخطابات. وبعد قليل عاد السيد جودورثي ليلبغهم أن السيد كارتر قد وصل، ثم سحب فيليب إلى حجرة واسعة تجاوز حجمها استقر فيها مكتب ضخم ومقعدان كبيران بمساند وتزدان أرضها ببساط تركي، وقد زينت جدران الحجرة برسوم عن الرياضة، وكان السيد كارتر جالسا إلى مكتبه وعندما دخل فيليب نهض ليصافحه. وقد ارتدى سترة رسمية سوداء، وبدت عليه سمات الرجل العسكري فقد فتل شاربه وقومه بالشمع وكان شعره الرمادي قصيرا سوي في عناية، وكان معه القامة وتكلم في بساطة، كان يسكن في «أنفيلد». وكان السيد كارتر يهتم بالمباراة الرياضية وبمصالح البلاد، فقد كان ضابطا في فرقة «هيرتفوردشير» ورئيسا لرابطة المحافظين، وعندما علم أن شخصا مهما في البلدة قال عنه أن أحدا لن يخطئ ويعتقد كارتر من سكان المدينة مشعر بأنه لم يضيع حياته هباء. وتحدث كارتر إلى فيليب في بعض بلا تكلف، وقال إن السيد جودورثي سيقوم بالإشراف على عمله، وأضاف أن السيد واتسون شخص لطيف حقا ورجل مهذب ورياضي ممتاز، وسأل فيليب هل يصطاد؟ ثم أعرب عن أسفه لأنه لا يفعل ذلك.. فالصيد رياضة السادة المهذبين: وقال إنه قد ترك الصيد لابنه لعمله لا يتيح له الخروج لممارسته. وكان ابنه في كامبريدج وقد أرسله إلى مدرسة «رجب»

به حفل. ووقف بين جماعة صغيرة من ناس يرتدون ملابس رثة ، خلف الخدم، يراقبون الزائرين الذين يصلون إلى المنزل وراح يتنصت للموسيقى المنبعثة من النافذة. وأحيانا ، رغم برودة الجو ، كان شخصان يدخلان إلى الشرفة لاستنشاق الهواء الطلق وتخيل فيليب أنهما عاشقان يحب كل منهما الآخر، فاستدار وسار في الشارع يعرج بقلب مثقل بالهم. إنه لن يستطيع أبدا أن يكون في مكان هذا الرجل. وشعر بأن لا توجد امرأة في العالم ستنتظر إليه دون تقزز من عاهته.

وذكره ذلك بالأنسة ويلكنسون. لقد فكر فيها بدون ارتياح. فقبل أن يفترقا اتفقا علي أن توجه رسائلها إلى مكتب بريد «شارينج كروس» إلى حين أن يبعث إليها بعنوانه. وعندما ذهب إلى المكتب وجد ثلاثة خطابات منها. لقد كتبت بالفرنسية على ورق أزرق وبحبر بنفسجي. وتعجب فيليب لماذا لا تكتب بالإنجليزية مثل أي امرأة عاقلة. وعندما قرأ تعبيراتها العاطفية ذكرته بما قرأه في الروايات الرومانسية الفرنسية فشعر ببرودة تسرى في أوصاله. لامته لأنه لم يكتب إليها وعندما رد عليها طلب منها أن تعذره لأنه كان مشغولا. ولم يعرف كيف يبدأ خطابه إليها. ولم يكن مقتنعا أن يكتب لها عزيزتي أو حبيبتي وكره أن يكون الاسم الذي يستخدمه معها هو إيميلي وفي النهاية قرر أن يكتب العزيزة.

كان هذا أول خطاب غرامي يكتبه في حياته وكان يدرك أنه خطاب تافه وشعر أنه يجب أن يقول كل الأشياء الملتهية : كيف أنه يفكر فيها طول الوقت وكم يتوق إلى تقبيل يديها الجميلتين وكم يرتجف لمجرد التفكير في شفيتها القرمزيتين غير أن ثمة احتشام غير مفهوم منعه من ذلك، وبدلا من ذلك حدثها عن مسكنه الجديد والمكتب الذي يعمل به. وجاء الرد بالبريد العاجل : غاضبة ، محطمة القلب ، مؤنبة ، كيف يكون باردا بهذا الشكل؟ ألا يعرف أنها تنتظر رسائل بفارغ صبر ؟ لقد أعطته كل ما يمكن أن تعطيه أنثي لرجل وتلك هي مكافأتها. هل سئم منها فعلا ؟ ولما لم يرد عليها لعدة أيام راحت تمطره بوابل من رسائلها. إنها لا تستطيع أن تتحمل قسوته. وراحت تنتظر البريد ولم يصلها خطاب منه وراحت تبكي كل ليلة حتى يغلبها النوم. لقد رد عليها المرض حتى أن الجميع لاحظوا ذلك : وإذا لم يكن يحبها فلماذا لا يقول ذلك ؟ وقالت إنها لن تستطيع أن تعيش من غيره وأنه ليس أمامها سوى الانتحار. وقالت له أنه بارد القلب وأناني وناكر للجميل. كل كتابتها كانت بالفرنسية وكان فيليب يعرف أنها تكتب بهذه اللغة للتظاهر ولكنه كان قلقا طول الوقت. فلم يكن يريد أن يتسبب في تعاستها. وبعد قليل قالت له أنها لم تعد تحتمل الفراق أكثر من ذلك وأنها سوف تتخذ ترتيباتها للمجيء إلى لندن في عيد الميلاد. ورد فيليب قائلا أنه لا يتمني أكثر من ذلك غير أنه قد ارتبط بالفعل الآن لقضاء عيد الميلاد مع أصدقاء في الريف ولا يرى كيف يمكنه التراجع عن هذا الارتباط. وردت قائلة أنها لا تريد أن تفرض نفسها عليه وأنه من الواضح تماما أنه لا يريد رؤيتها وأنها استاءت كثيرا لذلك ولم تفكر أبدا أنه سيرد طيبتها بكل تلك القسوة. كان خطابها مؤثرا ، ولا حظ فيليب أنه رأى علامات دموعها على الورق ، واضطر أن

الدعوة أبدا لأن أسرة نيكسون بما لها من عدد كبير من الأصدقاء لم تفكر في هذا الفتى الوحيد الصامت الذي لا يهم استضافته. ولهذا كان في أيام الأحد يستيقظ من النوم متأخرا ويقف بجولة طويلة في طريق مقطورات الجر. وكان يحضر مسرحية مساء كل يوم سبت وكان يقف بابتهاج ساعة أو أكثر عند باب المتحف فلم يكن الأمر يستحق العودة إلى بارنز في الفتى بين إغلاق المتحف وتناوله وجبته في محل إيه بي سي وكان هذا الوقت مصدر ملل له. وكان ينظر إلى الناس الذين يسيرون في الشوارع ويحسدهم لأنهم لديهم أصدقاء وكانوا سعداء بينما كان هو تعيس ، ولم يكن يتصور أبدا أن المرء يمكن أن يكون وحيدا في مدينة كبيرة وفي بعض الأحيان كان الرجل الذي يقف إلى جواره عند باب المتحف يحول أن يتكلم مع غير أن فيليب كان لديه الشك المعروف لدى أهل الريف فكان يرد بطريقة تمنع المزيد من الحوار. وبعد أن انتهت المسرحية أسرع يعبر جسر واترلو محتفظا بكل آرائه عن المسرح لنفسه. وعندما عاد إلى حجراته التي لا تكون فيها نيران المدفأة موقده من باب الاقتصاد غاص قلبه بين جنبيه. كانت كئيبة جدا. لقد بدأ يمقت مسكنه والأمسيات الطويلة من الوحشة التي يقضيها فيه ، وأحيانا كان يشعر بوحدة شديدة حتى أنه لم يكن يستطيع القراءة فيجلب محمقا في نار المدفأة ساعات وساعات في كآبة مريرة.

لقد قضى الآن في لندن ثلاثة شهور وفيما عدا يوم الأحد الذي دعي فيه إلى هامبست فإبانه لم يتكلم مع أحد سوى زملائه الكتبة. وفي إحدى الأمسيات دعاه واتسون إلى العشاء مطعم وزهبا معا بعد العشاء إلى قاعة الموسيقى ولكنه كان يشعر بالخجل وبدعم الارتياح وكان واتسون طوال الوقت يتكلم عن أشياء لا تهم فيليب في شيء ورغم أنه كان ينظر إلى واتسون على أنه رجل محافظ لا يأبه للفن إلا أنه لم يتمكن من الشعور بعدم الإعجاب وكان مستاء لأن واتسون لم يبال بثقافته وبطريقته في النظر إلى نفسه حسب نظرة الآخر له بدأ يحتقر كل ما اكتسبه من علوم وثقافات والتي كانت حتى ذلك الوقت شيئا ليس عليه الأهمية ، وشعر لأول مرة بمذلة الفقر. فقد كان عمه يرسل له أربعة عشر جنيه في الشهر وسترته المسائية فقط كلفته خمسة جنيهات فقد كان عليه أن يشتري كثيرا من الملابس. وقال له واتسون أن يقول لواتسون أنه اشترى سترته من محل ستراند الذي يبيع بضائع رخيصة. وقال له واتسون في لندن. وقال له واتسون في يوم ما وهو ينظر إلى قدمه الحنفاء:

— أعتقد أنك لا ترقص.

— بلا.

— يا للأسف.. لقد طلب إلى أن أصبح بعض الرجال للرقص في حفل راقص. كان يمكن أن أقدمك إلى بعض الفتيات الممتازات.

وحدث في مرة أو مرتين أن مكث فيليب في المدينة لأنه كره العودة إلى مسكنه في بارنز وراح يتجول في وقت متأخر في المساء في حي لندن الغربي (ويست إند) حتى وجد منزلا

يكتب لها قائلا أنه آسف كل الأسف ويرجوها أن تأتي إلى لندن. غير أنه ارتاح كثيرا عند تلقي ردها الذي قالت فيه أنها وجدت أنه من المستحيل أن تسافر. وعندما كانت تصل خطاباته بعد ذلك فإن قلبه كان يغوص بين جنبيه وكان يتأخر في فتحها لأنه يعرف بها : تأنيب غاضب وتوسلات سخيصة من شأنها أن تجعله وحشا حقيقيا ومع ذلك فلم يرى سببا للوم نفسه. فكان يؤجل رده من يوم لآخر. وعندئذ يصله خطاب آخر تقول فيه أن مرضية ووحيدة وبانسة.

- وقال لنفسه كنت أتمنى من الله لو لم تكن لي علاقة بها.

وكان فيليب معجبا بواتسون لأنه كان يدبر تلك الأمور ببساطة شديدة. كان واتسون بدأ علاقة مع فتاة تعمل في فرقة مسرحية جواله. وكانت حكايته عن تلك العلاقة تملأ فيليب بالدهشة والحسد. غير أنه بعد وقت قصير تغيرت المشاعر بينهما وفي يوم وصف لفيليب كيف انفصلا عن بعض.

- رأيت أنه ليس من الخير أن استمر في إزعاج نفسي ولهذا قلت لها إنني حصلت من علي ما فيه الكفاية.

وسأله فيليب :

- ألم تحتج وتحدث ضجيجا لك ؟ -

- الشيء المعتاد أن يحدث كما تعلم ولكنني قلت لها أن هذه الأمور لن تجدي معي. وهل بكت ؟

- بدأت فعلا تبكي ولكنني قلت لها أنها من الأفضل أن تكف عن ذلك.

وسأل فيليب مبتسما :

- لم يكن أمامها شيء آخر تفعله ، أليس كذلك ؟

هناك تقريبا أي شخص وحده. وأحس فيليب أنهم جميعا سعداء. أما هو نفسه فقد شعر أنه لم يكن وحيدا من قبل مثل ما هو وحيد الآن. وكان هدفه أن يقتل اليوم في الشوارع وبعد ذلك يتناول عشاءه في مطعم ولكنه لم يكن يستطيع مرة أخرى أن يواجه منظر الناس السعداء المبتهجين الذين يتكلمون ويضحكون ويجعلون حياتهم مريحة وهكذا عاد إلى واترلو ، وفي طريقه عبر جسر ويست مينستر اشترى شريحة من اللحم وفطيرتين ورجع إلى مسكنه في بارنز. وأكل طعامه في غرفته الصغيرة الوحيدة وقضى الأمسية مع كتاب. كان ما يشعر به من اكتئاب أمر لا يحتمل.

وعندما عاد إلى المكتب تألم عندما سمع رواية واتسون عن إجازة عيد الميلاد القصيرة. فقد كانت معهم بعض الفتيات الفاتنات وبعد العشاء نظفوا حجرة الاستقبال ورقصوا فيها. وقال واتسون :

- لم أذهب إلى فراشي إلا بعد الثالثة صباحا ولا أعرف كيف دخلت الفراش فقد كنت ثملا حقا .

وأخيرا سأل فيليب في يأس :

- كيف يمكن للمرء أن يتعرف على الناس في لندن.

ونظر إليه واتسون مندهشا وقال :

- لا أعرف.. فالمرء يعرف الناس. إذا ذهبت إلى حفلات الرقص فسوف تعرف الكثيرين منهم.

كان فيليب يشعر بكراهية نحو واتسون ولكنه كان علي استعداد لأن يضحي بأي شيء لكي يكون مكانه. لقد عاوده الشعور القديم الذي كان يسيطر فيه في المدرسة وحاول أن يتصور كيف تكون الحياة لو كان هو في مكان واتسون.



وأخذت الأعمال تتراكم في نهاية العام.. و ذهب فيليب إلى كثير من الأماكن بصحبة كاتب اسمه «تومسون». وكان يقضي اليوم في ملل يتلو بنود المصروفات التي كان الآخر يراجعها. وكان يعطي في بعض الأحيان صفحة طويلة مزدحمة بالأرقام ليقوم بجمعها. وكان فيليب يكره الأرقام بطبعه ولم يكن يطيقها أبدا فكان يقوم بهذه العملية في ببطء وكان تومسون متضايقا من الأخطاء التي يرتكبها فيليب. وكان تومسون طويلا نحيفا في حوالي الأربعين من عمره مصفر الوجه شاحب اللون ، ذا شعر أسود و شارب أشعث ، ووجنتين غائرتين وخطوط عميقة على جانبي أنفه، ولم يكن يحب فيليب لأنه كان كاتباً مؤهلا، ولأن فيليب كان يستطيع أن يدخر ثلاثمائة جنيه ويعول نفسه خمس سنوات، فكان يمكنه بذلك أن يجد له فرصة يضمن بها مستقبله على حين أنه بكل ما

اقترب موعد إجازة عيد الميلاد. وقد مرضت السيدة كاري في شهر نوفمبر. واقترب عليها الطبيب أن تذهب هي والقس إلى كورنوال لمدة أسبوعين قبل عيد الميلاد كي تستريح. وكانت النتيجة هي أن فيليب لم يكن لديه مكان يذهب إليه. وأمضى يوم عيد الميلاد في مسكنه. وتحت تأثير هايوارد أقنع نفسه أن الاحتفالات التي تصاحب ذلك اليوم هي احتفالات سوقية وهمجية وقرر ألا يهتم بهذا اليوم. غير أنه عندما حل يوم عيد الميلاد فاجأه ابتهاج الجميع حوله أثر فيه بشكل غريب. فصاحبة البيت الذي يقيم فيه وزوجها قالا إنهم سيقضيان هذا اليوم مع ابنة لهم متزوجة. ولكي لا يثير فيليب مشاكل قرر أن يتناول طعاما في الخارج. فذهب إلى لندن في منتصف اليوم وأكل شريحة من لحم الديك الرومي وحلوى البودنج وحده، ولما لم يكن لديه ما يفعله بعد ذلك ذهب إلى كنيسة ويست مينستر لحضور قداس العصر. وكانت الشوارع خالية تقريبا من الناس، أما السائرون فيها فكان يبدو عليهم أنهم مشغولون فذلك يكونون يتجولون بل يسيرون وكأنهم يقصدون إلى هدف معين ولم يكن

أوتي من خبرة و قدرة لن يصبح أكثر من كاتب يتقاضى خمسة و ثلاثين شلنًا في الأسبوع، و كان هذا الرجل يحمل على كاهله عبء أسرة كبيرة، مما جعله في غاية الاضطراب و خيل إليه أن فيليب متعجرف فأبدى امتعاضه منه لذلك، وأخذ يسخر منه لأنه أحس أنه أحسن منه تعليمًا. ولم يترك فرصة يهزأ فيها منه، حتى الطريقة التي كان ينطق بها، فإن لهجة فيليب لم تكن كلهجة أهالي لندن، وعندما كان يتحدث إليه ساخرًا كان يقلد لهجته و يبالغ في كيفية نطقه الحروف و لم يكن مسلكه في أول الأمر يتعدى الغلظة المنفردة و لكنه عندما أكتشف أن فيليب لا يجيد العد والحساب بدأ يتلذذ بتحقيقه و إذلاله، و اتسمت حينئذ هجماته عليه بالسخافة والخشونة، ولكنها كانت تجرح شعور فيليب، وأراد أن يدفع عن نفسه غلو ذلك الرجل فأضفى على نفسه تعالي وكبرياء لم يكن يشعر بهما بحق. وقال تومسون عندما وصل فيليب إلى المكتب متأخرًا ذات يوم لأن المحافظة السابقة على مواعيده لم تستمر طويلاً:

- هل استحممت هذا الصباح ؟

فرد فيليب قائلاً :

- نعم.. ألم تستحم أنت ؟

- لا.. إني لست من السادة المهذبين.. ولست إلا كاتبًا ولا أستحم إلا في أمسيات السبت.

- أعتقد إذن أن هذا هو السبب في أنك تبدو سيئ الطبع أكثر من المعتاد يوم الاثنين.

- أتنازل سيادتكم وتقوم ببعض عمليات الجمع البسيطة اليوم ؟ أخشى أن يكون طلبى

هذا مما يشق على رجل مهذب يعرف اللاتينية واليونانية ؟

- إن مجاولاتك للتهكم اليوم ليست ناجحة تمامًا.

ولكن فيليب لم يستطع حقا أن يخفي عن نفسه أن غيره من الكتبة خشني الطباع الذين لا يتناولون إلا القليل من الأجر كانوا أكثر منه نفعا.. وحدث مرة أن نفد صبر السيد جودورثي فقال له:

- كان يجب أن تكون الآن أفضل بكثير مما أنت عليه فإنك لم تصل في النشاط إلى مرتبة

صبي المكتب نفسه..

واستمع فيليب إلى هذا الحديث وهو عابس، فلم يكن يحب أن يوجه أحد اللوم إليه، لأنه كان يحس بالذل إذا ما كلفه السيد جودورثي بعمليات حسابية ببيضاها، ثم لا يرضى عن عمله فيؤكله بعد ذلك إلى كاتب آخر ليعيده. وكان العمل في أول الأمر محتملاً لجديته ولكنه ما لبث أن غدا باعثًا على السأم وعندما أدرك فيليب أنه يعوزه الاستعداد له بدأ ييغضه وكثيرًا ما كان يحدث في الوقت الذي يجب عليه فيه أن يؤدي عمله أن يخط بعض الرسوم على أوراق المكتب. فكان يرسم واتسون في جميع الأوضاع التي يمكن تصورها. وقد أعجب واتسون بموهبة فيليب هذه، وخطر له أن يحمل هذه الرسوم معه إلى منزله. ففعل وعاد في اليوم التالي وهو يبلغ فيليب ثناء أفراد أسرته عليها. وقال لفيليب :

- ترى لماذا لم تصبح رسامًا ؟.. ولكن المشكلة هي أن تلك المهنة لا تدر الكثير من المال وتصادف بعد ذلك بيومين أو ثلاثة إن كان السيد كارتر يتناول العشاء مع أسرة واتسون فأطعموه على الرسوم.. فبعث في صبيحة اليوم التالي يطلب فيليب. وقلما كان فيليب يرا فوقف أمامه في شيء من الرهبة، وهنا قال السيد كارتر:

- انتبه إلى أيها الشاب.. إني لا أعاب بما تفعل في غير أوقات العمل، ولكني رأيت هذا الرسوم التي رسمتها ووجدتها على أوراق خاصة بالمكتب، وقد أبلغني السيد جودورثي أنك كسول متراخ. ولن تكون محاسبًا مؤهلًا إذا لم تكن نشيطًا. والمحاسبة مهنة طيبة ونحو نحاول أن نضم إليها فئة من أفضل الرجال.

وراح الرجل يبحث عن الكلمات التي يختتم بها عبارته. ولكنه لم يستطع أن يعبر بالضبط عما يريد فأنهى حديثه في هدوء نوعًا ما قائلاً:

- مهنة يجب أن تبدو فيها نشيطًا..

وربما بدا لفيليب أن يستقر في عمله هذا لولا ما اشترط في الاتفاق من أنه يستطيع ترك عمله بعد عام إذا لم يلق العمل قبولًا منه، ويسترد في هذه الحال نصف ما دفعه من المال نظير تدريبه وشعر أنه ربما لا يصلح لأن يكون شيئًا آخر خيرا من إنسان يجمع الأرقام، وأن من الحقارة أن يؤدي عملاً يبدو بهذا السخف. وكانت تلك المشاحنات المبتذلة التي تجرى بينه وبين تومسون تثير أعصابه. وفي شهر مارس انتهى واتسون عامه في المكتب، وشعر فيليب بالأسف لفراقه وإن لم يكن يعبأ به كثير وكان مما يؤلف بينهما أن غيرهما من الكتبة كانوا يشعرون بكراهية نحوهما وأنهم ينتميان إلى طبقة أعلى قليلاً من طبقتهما. وحينما فكر فيليب في أن عليه أن يقضي أكثر من أربع سنوات أخرى مع هذه الجماعة الكئيبة غاص قلبه بين جنبيه. ذلك أنه كان يتوقع أن يرى ما يروعه ويعجبه، ولكنه لم يجد شيئًا من ذلك في لندن. فما لبث أن كرهها ولم يكن يعرف إنسانًا فيها ولم يجد سبيلاً إلى معرفة إنسان ما. وقد أعياها الذهاب إلى كل مكان بمفرده. وشعر بأنه لا يستطيع أن يحتمل مثل هذه الحياة أكثر مما احتمل. وكان إذا ما استلقى على فراشه ليلاً يبتهج إذا ما فكر في عدم العودة إلى رؤى حجرة المكتب الغبراء أو أي إنسان فيها والفرار من ذلك المسكن القذر.

وأصاب فيليب خيبة أمل كبيرة في ربيع ذلك العام، فقد قال صديقه هايوارد إنه ينو المجيء إلى لندن لقضاء الربيع فيها، وكان فيليب ينتظر رؤيته على أحر من الجمر، فقد قرأ كثيرا في الفترة الأخيرة وامتلاً رأسه بكثير من الأفكار التي كان يريد مناقشتها معه ولم يكن يعرف أحداً يعنى بمثل هذه الأشياء المجردة. وما كان أشد إبتهاجه حين فكر في أنه سيتحدث مع إنسان آخر، ولهذا شعر بخيبة أمل شديدة عندما كتب له هايوارد يقول أنه لم يعرف في إيطاليا ربيعاً أجمل من هذا الربيع، وأنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه منه، ثم

أحد الكتب. وحدث أن مرض الكاتب الذي اعتاد أن يصحبه ، وحالت كثرة العمل دون ذهاب واحد من الكتب الآخرين ، وقد فكر السيد جودورثي في فيليب لأن المكتب يمكن أن يستغني عنه أكثر مما يستغني عن غيره ولأن مؤهلاته تخول له بعض الحق في وظيفة تعتبر إحدى مباحج العمل. وسر فيليب كثيرا من هذا العرض وقال السيد جودورثي:

- ستضطر إلى أن تعمل طول اليوم ، ولكن أمسياتنا ستكون ملكا لنا ، وباريس هي باريس كما تعلم.. وابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور ومضى يقول :

- إنهم يخدموننا خدمة حسنة في الفندق ، ويقدمون إلينا جميع وجباتنا، ولذلك فنحن لن نتكلف شيئا مطلقا.. وهذه هي الطريقة التي أحب بها الذهاب إلى باريس.. على حساب الأخرى.

وعندما وصلا إليس كاليهس ، ورأى فيليب ذلك الجمع من الحمالين كثيري الحركة قفز قلبه وحدث نفسه قائلا :

- هذه هي الحياة حقاً.

وأصبح كله عيونا تحلق عندما تحرك بهما القطار مخترقا تلك البلاد وامتلأت نفسه بحب كثبان الرمال وبدا لونها أحب إلى نفسه من كل ما رآه في حياته، وقد أخذت بلبه القنوات الطويلة والصفوف الطوال من أشجار الحور، وعندما خرجا من محطة «الشمال» وراحا يتجولان في الشوارع المرصوفة في عربة مزعجة الصوت وبدا له كأنه يتنفس عبير هواء جديد أسكره ، لم يستطيع أن يمنع نفسه عن الإعراب عن إعجابه بصوت عال.

وعندما وصلا إلى باب الفندق قابلهما مديره ، وهو رجل بدين لطيف حدثهما بلغة إنجليزية مقبولة، وكان السيد جودورثي صديقا له قديما فحياهما الرجل في بشاشة دون تحفظ في إبداء عواطفه. وتناولوا الغداء في غرفته الخاصة ومعهم زوجه. وبدا لفيليب أنه لم يذق قبل ذلك طعاما في لذة تلك الشريحة من لحم البقر بالبطاطس ولم يشرب أبدا مشروبا كالنبيذ العادي الذي وضع أمامه.

وكانت العاصمة الفرنسية في نظر السيد جودورثي، رب البيت ذو المبادئ السامية ، جنة الفحش البهيج وسأل مدير الفندق في اليوم التالي هل ثمة شيء دسم يمكن أن يراه هو وصاحبه، وكان السيد جودورثي يستمتع تماما بزياراته هذه لباريس ويقول أنها تحفظ المرء من الصدا ولما انتهيا من عملهما في المساء وتناولوا عشاءهما اصطحب السيد جودورثي فيليب إلى ملهي المولان روج ثم إلى ملهي الفولي بيرجير ولمعت عيناه وكست وجهه ابتسامة شهوانية مأكرة حين أخذ يفكر في كل ما هو إباحي وقصد كل الأماكن التي أعدت خاصة للأجانب ثم قال بعد ذلك أنه لا خير في أمة تسمح بمثل هذه الأشياء. وكان يلکز فيليب كلما رأي في بعض هذه الأماكن امرأة تبدو في ملابسها شبه عارية وكلما سارت عاهرة ممشوقة القوام في الصالة أشار إليها. وكانت باريس المبتذلة هي التي اطلع السيد جودورثي فيليب عليها. ولكن فيليب رأي باريس بعيون أعماها

راح يسأل فيليب عن سبب عدم مجيئه إليها، وعما يعود عليه من قضاء أجمل أيام الشباب في مكتب مع أن العالم بهيج جميل من حوله؟ ومضى الخطاب يقول:

« إنى لأعجب كيف يمكنك أن تتحمل ذلك. فأنا كلما فكرت الآن في شارع فليت وفندق لينكولن أصابتني رجفة من الاشمئزاز. ذلك أنه ليس في العالم إلا أمران خليقان بأن يحب المرء من أجلهما، هما الحب والفن. ولا أستطيع أن أتخيلك جالسا إلى مكتب وأمامك دفتر من دفاتر الحسابات. ترى هل ترتدى قبعة عالية وتحمل مظلة وحقيبة سوداء؟ إن شعوري هو أن المرء يجب أن ينظر إلى الحياة كأنها مغامرة وعلى المرء أن يمتلئ قلبه بوجهه الذي يشبه وهج الدرة ، كما أن عليه أن يغامر ويعرض نفسه للأخطار. لم لا ترحل إلى باريس وتدرس الفن هناك؟ لطالما ظننت أنك فنان موهوب».

جاء هذا الاقتراح عندما كان فيليب تراوده فكرة غامضة بالذهاب إلى باريس لقضاء بعض الوقت فيها وأذهله الأمر في البداية ولكنه لم يستطع أن يكف عن التفكير فيه. وكان يجد في هذا التفكير الدائم المهرب الوحيد من تعاسته. إن الذين يعرفون كلهم يرون أنه موهوب. ففي هايدلبرج أعجبوا برسومه المائية، وما أكثر ما قالت له الأنسة ويلكنسون مرات ومرات أن هذه الرسوم ساحرة ، وحتى الغرباء من أمثال واتسون قد أخذوا برسومه. لقد خلف كتاب «حياة البوهيمية» في نفسه أثرا عميقا، واصطحب الكتاب معه إلى لندن، وكان إذا شعر بالاكتناب يلجأ إلى قراءة بعض الصفحات فيه فتنتقله إلى تلك الحجرات الساحرة التي يغنى فيها «رودلف» وصحبته والآخرون ويرقصون ويحبون وعندئذ راح يفكر في باريس كما فكر في لندن من قبل ولكنه لم يخش في هذه المرة أن تخيب فيها آماله مرة أخرى، فقد كان يصبو إلى الخيال والحب والجمال ، وخيل إليه أن باريس تعطيه كل هذا.. ثم أنه مولع بالتصوير فلم يرسم ببراعة كما يرسم أي إنسان آخر؟ فكتب إلى الأنسة ويلكنسون يسألها كم تعتقد يكفيه للعيش في باريس فأبلغته أنه يمكنه أن يدبر أموره في يسر بثمانين جنيها في العام. ووافقت على مشروعه هذا في حماسة كبيرة وقالت أنه شخص ممتاز لا يستحق أن يقضي حياته بين جدران مكتب. وسألته بطريقة مثيرة : من الذي يرضى بأن يكون كاتب حسابات وأمامه المجال لكي يصبح فنانا عظيما؟ وألحت عليه أن يثق في نفسه وقالت : إن هذا أعظم شيء. ولكن فيليب كان حذرا بطبعه. لقد كان مناسبا لهايوارد أن يتحدث عن حياة المغامرة فقد كان لديه ثلاثمائة جنيه كل عام من سندات مضمونة الأرباح ومن الدرجة الأولى ، أما ثروة فيليب بأجمعها فلم تكن تتجاوز ألفا وثمانمائة من الجنيهات. ولهذا تردد طويلا.

ثم حدث أن سألته السيد جودورثي فجأة في أحد الأيام ما إذا كان يريد الذهاب إلى باريس. ذلك أن المكتب يقوم بمراجعة حسابات فندق في «نوربورج سانت أونوريه» الذي كانت تملكه شركة إنجليزية. وكان السيد جودورثي يذهب إلى هناك مرتين كل عام بصحبته

الخداع فكان في الصباح يندفع خارجا من الفندق ليذهب إلى الشانزلزيه ويقف في ميدان الكونكورد كان ذلك في شهر يونيو والهواء عليل رقيق وشعر فيليب بقلبه يندفع خارجا نحو الناس، وهنا أعتقد أنه وجد الغرام في آخر الأمر.

وقضى الإثنان الأسبوع هناك وغادرا باريس يوم الأحد وعندما وصل فيليب إلى حجرته القذرة في بارنز في ساعة متأخرة من الليل، كان قد اتخذ قراره. فسوف يسلم ما لديه من أعمال ويذهب إلى باريس ليدرس فيها الفن، ولكنه قرر كذلك أن يبقى في المكتب حتى نهاية العام كيلا يظن أحد أنه طائش فسيطلب أجازته السنوية في النصف الثاني من شهر أغسطس وسيبلغ هيربرت كارتر عندما يهم بمغادرة المكتب أنه لا ينوي العودة. وأخذ فيليب يرغم نفسه علي الذهاب إلى المكتب كل يوم إلا أنه لم يستطع حتى التظاهر بأنه يهتم بعمله. فقد كان فكره مشغولا بالمستقبل. ولم يكن لديه بعد أن انتصف شهر يولية الكثير من العمل فكان يكثر من ترك مكتبه مدعيا أنه ذاهب لتلقي المحاضرات استعدادا لامتحانه الأول. وكان يقضي الوقت الذي يحصل عليه بهذه الطريقة في المعرض القومي للصور. واستغرق في قراءة كتب رسكن وقرأ ما كتبه فاساري عن حياة الفنانين وأعجبته قصة الفنان كوريجيو وتخيل نفسه، وهو يقف أمام إحدى لوحاته صائحا متعجبا. وما لبث أن زال عنه تردده، واقتنع بأنه تكمن فيه كل المواهب الكفيلة بأن تخلق منه فنانا عظيما، وحدث نفسه قائلا: علي أية حال ليس علي إلا أن أحاول.. ذلك أن أعظم شيء في الحياة هو المغامرة والمخاطرة.

وأخيرا حل منتصف شهر أغسطس، وكان السيد كارتر يقضي شهرا في اسكتلندا وكان رئيس الكتاب يتولي إدارة المكتب، وكان السيد جودورثي يبدو كأنه قد أنس إلى فيليب منذ رحلتها معا إلى باريس والآن وقد عرف فيليب أنه سيتترك العمل عما قليل ارتأى أنه يستطيع أن يعامل هذا الرجل الصغير في سماحة وقال له السيد جودورثي في المساء:

-إنك ستبدأ إجازتك غدا يا كاري.

وكان فيليب قد ظل طوال هذا اليوم يردد في نفسه أن تلك هي المرة الأخيرة التي يجلس فيها في هذه الحجرة القذرة. وقال:

-نعم.. إن هذه هي نهاية العام بالنسبة لي.

-أخشى أن أبلغك أن السيد كارتر غير راض عنك علي الإطلاق فإنك لم تكن مجيدا في عملك.

ورد فيليب عليه في مرح قائلا:

-إن عدم رضا السيد كارتر عني لا يقل من عدم رضائي أنا عنه.

-أعتقد أنك يجب ألا تتكلم كذلك يا كاري.

-إني لن أعود إلى المكتب مرة أخرى.. فقد دبرت أموري بحيث يرد إلى السيد كارتر نصف النقود التي دفعتها في فترة تعليمي في نهاية العام إذا لم أجد إلي المحاسبات ميلا. -يجب ألا تتسرع في اتخاذ هذا القرار.

-لقد كنت أكره كل شيء طوال الأشهر العشرة الماضية لقد كرهت العمل والمكتب، وكرهت لندن وإني لأفضل أن أكنس معابر الطرق علي أن أقضي أيامي هنا.. -لا بد لي أن أقول إذن أن المحاسبات عمل لا يناسبك.

وبسط فيليب يده إليه ثم قال:

-وداعا.. أريد أن أشكرك علي حسن معاملتك لي وإذا كنت قد أثرت أي متاعب فإني آسف لهذا فقد أدركت منذ البداية أنني لا يرجي من ورائي خيرا.

-وليكن.. إذا كنت تصر حقا علي أن يكون هذا وداعك لنا.. ولست أعرف ماذا ستفعل ولكن إذا وجدت نفسك بجوارنا أحيانا فتعال في أي وقت لرؤيتنا.

وضحك فيليب ضحكة صغيرة وقال:

-أخشى أن يكون ما سأقوله وقح للغاية.. ولكن الذي أرجوه من أعماق قلبي هو ألا تقع عينا علي أحدكم مرة أخرى.

ولم يرض قس بلاكستابل مطلقا عن ذلك المشروع الذي عرضه فيليب فقد كان يري أن المرء يجب أن يتمسك بأي شيء يبدأ فيه مهما كان ذلك الشيء وكان ككل الضعاف من الرجال يولي أهمية قصوى لعدم تغيير المرء لرايه.

وقال السيد كاري:

لقد اخترت أن تكون محاسبا بنفسك وبمحض إرادتك.

-لم أختارها إلا لأنها كانت الوسيلة الوحيدة لكي أذهب إلى المدينة.. أما الآن فإني أمقت لندن وأمقت العمل ولن يضطرنني شيء إلى العودة إليه وروع السيد كاري وزوجته حقا لفكرة فيليب بأن يصبح رساما وقال له أنه يجب ألا ينسي أن والديه كانا من علية القوم وسادتهم وأن الرسم ليس بالمهنة الجدية، فهو عمل بوهيمي خليع فاسد ثم باريس!!

وقال القس في حزم:

-إذا كان لي رأي أبدي في هذا الشأن فإني لن أسمح لك بالإقامة في باريس إنها بؤرة للفسق.. والفجور فيها عرضت المرأة الفاسقة والأخرى القادمة من بابليون فسقهما ولم تكن أقبح المدن تزيد عليها في شرها.

ومضي القس يقول:

-لقد نشأت نشأة رجل مسيحي مهذب وأني لأكون خائنا للأمانة التي عهد بها إلى أبيك وأملك المتوفيين إذا سمحت لك بأن تعرض نفسك لهذا الإغراء.

فرد عليه فيليب قائلا:

-وليكن..إني أعرف أنني لست مسيحيا.. وقد بدأت أشك الآن في أنني رجل مهذب.

واشتدت حدة النزاع. وكان قد بقي عام واحد لكي يحصل فيليب علي ميراثه الصغير، واقترح السيد كاري أن يعطيه في ذلك الوقت مخصصا شهريا من حسابه إذا استمر في عمله بالمكتب. وكان واضحا لفيليب أنه إذا شاء ألا يستمر في عمل المحاسبات هذا فيجب أن يتركه في الوقت الذي يستطيع فيه أن يحصل فيه علي نصف المبلغ الذي دفع في العقد الذي وقع مع المكتب ولكن القس صم أذنيه عن سماع طلبه ففقد فيليب صوابه وراح يقول كل ما هو مثير وجارح للشعور.

وكان مما قاله:

- ليس من حقه أن تبذر مالي إنه مالي أنا قبل كل شيء.. وأنا لست طفلا.. ولن تستطيع أن تحول بيني وبين الذهاب إلى باريس إذا أصررت أنا علي الذهاب إليها.. ولن تستطيع أن تضطرنني للعودة إلى لندن.

فأجاب القس قائلا:

- كل ما أستطيع أن أفعله هو ألا أعطيك النقود إلا إذا فعلت ما أعتقد أنه صحيح..

- وهو كذلك.. إني لا أعبأ بما تقول لقد صممت علي الذهاب إلى باريس. وسأبيع ملابسني وكتبي وجواهر والدي.

وجلس العمة لويزا في صمت تعيسة قلقة، لقد رأت أن فيليب قد خرج عن طوره وذهب عنه عقله وأن أي شيء تقوله لن يكون له من أثر إلا زيادة غضبه.

وأخير قال القس أنه لا يريد أن يسمع المزيد عن ذلك الموضوع، وغادر الحجرة في اعتزاز. ولم يوجه أي منهما هو أو فيليب أية كلمة إلى الآخر طوال الأيام الثلاثة التالية. وكتب فيليب إلي هايوارد يطلب منه معلومات عن باريس، وقرر السفر بمجرد أن يصل إليه رد هايوارد. وراحت السيدة كاري تفكر في المسألة بلا انقطاع وأحست أن الكره الذي يضمه فيليب لزوجها قد شملها كذلك. وآلمها هذا كثيرا، فقد كانت تحب فيليب من كل قلبها. وأخيرا كلمته واستمعت إليه في انتباه وهو يفضي إليها بكل ما خيب أمله في لندن، وعن أمله العظيم في المستقبل.

وقال فيليب :

- قد أكون غير ذي نفع.. ولكن اتركوا لي الفرصة لكي أحاول علي الأقل.. فلن أكون أكثر فشلا مما كنت في ذلك المكتب الحيواني.. وإني أشعر أنني قادر علي أن أصبح رساما.. فأنا أعرف أن لدي هذه الموهبة في أعماقي.

ولم تكن السيدة كاري واثقة بقدر ما يثق زوجها، إنها أصابا بمعارضة رغبة فيليب الجامحة في أن يجرب حظه في الرسم فقد قرأت عن كبار الرسامين الذين حققوا شهرة وكان آبائهم يعارضون رغباتهم في الدراسة، وقد تبين فيما بعد أن هذه حماقة، ومهما يكن من شيء فإن في وسع الرسام أن يحيا حياة فاضلة ترضي الله كما يحياها محاسب قانوني. وقالت لفيليب في عطف ظاهر:

- ما أشد ما أنا خائفة من ذهابك إلى باريس.. ولن يخامرني هذا الخوف كله إذا درست في لندن.

- إذا كنت سأدرس الرسم فيجب أن أدرسه بدقة وعناية وفي باريس وحدها يتلقى المرء هذا الفن علي أصوله.

واستجابت السيدة كاري لاقتراح أبدأه فيليب فكتبت إلى المحامي تقول له أن فيليب غير راض عن عمله في لندن وسألته رأيها في تغيير هذا العمل.

ورد السيد نيكسون المحامي قائلا:

عزيزتي السيدة كاري:

لقد رأيت السيد هيربرت كارتر وأخشي أن أبلغك أن فيليب لم يكن مجيدا في عمله كما كان يرجي منه وربما كان من الخير أن ينتهز الفرصة التي لديه الآن لكي يقطع فترة تعليمه إذا كان شديد البغض لهذا العمل، وأنا بطبيعة الحال شديد الاستياء لهذا وهم يقولون كما تعرفين «في وسعك أن تقود الحصان إلى النهر ولكن ليس في وسعك أن تجعله يشرب!».

وعرض الخطاب علي القس، ولكن ذلك لم يفلح إلا في زيادة عناده. لقد كان علي استعداد لأن يلتحق فيليب بمهنة أخرى يختارها لنفسه، واقترح مهنة والده وهي الطب، ولكنه لم يوافق أبدا على أن يدفع لفيليب شيئا من المال إذا ذهب إلى باريس وقال:

- إن ذلك مجرد عذر للانغماس في اللذات والشهوات البهيمية.

فرد فيليب في مرارة قائلا:

- يسرني أن أسمعك تلوم غيرك علي الانغماس في اللذات والشهوات.

وما لبث أن تسلم فيليب الرد علي خطابه من هايوارد وقد ذكر له فيه اسم أحد الفنادق حيث يمكنه أن يحصل علي حجرة بثلاثين فرنكا في الشهر. وأرفق بالخطاب توصية إلى مديرة إحدى المدارس، وقرأ فيليب الخطاب علي السيدة كاري وقال لها إنه سيسافر في أول سبتمبر.

فقالت:

- ولكنك ليس لديك أية نقود..

- سأذهب إلي تير كانبرى بعد ظهر اليوم لأبيع المجوهرات.

وكان فيليب قد ورث عن أبيه ساعة وسلسلة ذهبيتين وخاتمين أو ثلاثة خواتم ودبوسين منهما واحد ذو لؤلؤة وبعض أزرار للقمصان ومشكين قد تباع بمبلغ كبير.. وقالت زوج عمه لويزا:

- شتان ما بين ما يساويه الشيء وما يباع به.

وابتسم فيليب فقد كانت هذه إحدى عبارات عمه المحفوظة وقال:

- إني أعلم ذلك ولكنني أعتقد أنني سأحصل منها جميعا علي مائة من الجنيهات في أسوأ الأحوال وسيكفييني هذا المبلغ حتى أبلغ الراحة والعشرين.

ولم تجب السيدة كاري ولكنها صعدت إلى الطابق العلوي ، وارتدت قبعتها السود الصغيرة وذهبت إلى المصرف وعادت بعد ساعة. وذهبت إلى فيليب الذي كان يقرأ في حجر الجلوس وناولته مظروفا.

وسألها قائلاً:

- ما هذا؟ فأجابت وهي تبتسم علي استحياء:

-هدية صغيرة لك.

فتح فيليب المظروف ورأى بداخله عشر ورقات من فئة الخمسة الجنيهات وكيسا صغيرا من الورق منتفخا بالجنيهات الذهبية وقالت له:

-أنا لا أحتفل أن تبيع مجوهرات والدك. وهذه هي النقود التي كنت أحتفظ بها المصرف تعادل مائة جنيه تقريبا.

واحمر وجه فيليب وامتلات عيناه فجأة بالدموع لسبب لا يعرفه.

-أوه عمتي العزيزة.. إني لا أستطيع أن أخذها إن هذا جميل كبير منك ولكني لا أستطيع أن أخذها.

وكان منشأ المال أنه لما تزوجت السيدة كاري كان لديها ثلاثمائة جنيه، وقد حرم كثيرا علي هذه النقود وخصصتها للأحداث الطارئة أو لابتياح هدايا عيد الميلاد لزوجها وفيليب.. ونقص المال علي مر الزمن نقصا كبيرا ولكن ذلك كان بالنسبة للقسط موضع للتفكه، فكان يتحدث عن زوجه كأنها امرأة موثرة وراح يتندر باستمرار علي المال الذي يدخر للطوارئ ، وقالت العمة لويزا:

-أرجوك أن تأخذها يا فيليب ويوسفني أني كنت مبذرة فلم يتبق لي إلا هذا المبلغ ولكنك إذا أخذته فسوف تسعدني كثيرا.

-ولكنك ستحتاجين إليه.

-لا أعتقد..إني لن أحتاج إليه فقد كنت أحتفظ به حتى إذا ما فارق عمك الحياة قبلي احتفاظي بشيء يمكنني الحصول عليه عندما أريد سيكون ذا نفع لي، ولكني لا أعتقد سأعيش كثيرا بعد الآن.

-آه لا تقولي ذلك يا زوجة عمي العزيزة. لماذا ؟ إنك بالطبع ستعيشين إلى الأبد لا يمكنني الاستغناء عنك بحال من الأحوال.

-أوه.. إني لست أسفة.

وتهدج صوتها وأخفت عينيها عن فيليب، ولكنها لم تلبث أن جففت دموعها وابتسم لفيليب في شجاعة وقالت:

-لقد كنت في أول الأمر أدعو الله ألا أفارق الحياة قبل عمك لأنني لا أريده أن يبقني وحدي حتى لا يقاسي العذاب كله وحده، ولكنني عرفت الآن أن الأمر لا يعنيه كثيرا مثل يعني.إنه يريد أن يعيش أكثر مني ولم أكن أبدا الزوجة التي كان يريد بها وربما تزوج

مرة ثانية إذا حدث لي شيء، ولذلك أريد أن أفارق الحياة قبله ولست أظنك تعتقد أن هذه أنانية مني يا فيليب؟ ولكني لا أستطيع أن أحتفل رحيله هو قبلي.

وقبل فيليب وجنتيها المجعدتين الهزيلتين ولم يدر لماذا بعث فيه هذا الحب الغامر شعورا بالخلل الغريب، ولم يستطع أن يفهم لماذا تهتم برجل عديم المبالاة وأناني لا يعنيه إلا نفسه ، يطلق العنان لرغباته. وراوده ظن خفي أنها تعلم يقينا أنه أناني عديم المبالاة، ولكنها بالرغم من ذلك تحبه في دعة. وقالت في رقة وهي تربت علي يده بلطف:

-إنك ستأخذ النقود يا فيليب، وأنا أعلم أنه يمكنك أن تستغني عنها، ولكنك إذا أخذتها فإن ذلك سيسرني كثيرا، فطالما أردت أن أفعل لك شيئا، وأنت تعلم أنه لم يكن لي ولد أبدا وقد أحببتك كما أحب ولدي، وعندما كنت صبيا صغيرا كنت أتمني أن تمرض لكي أسهر عليك ليل نهار، وإن كنت أعلم أن هذا أمر قبيح مني ولكنك لم تمرض إلا مرة واحدة وكنت حينئذ بالمدرسة. إني أتمني أن أساعدك من كل قلبي، وهذه هي الفرصة الوحيدة التي أتيتحت لي وربما لن تنساني في يوم من الأيام عندما تصبح فنانا عظيما، بل ستذكر أنني أنا التي دفعتك الدفعة الأولى.

فرد عليها قائلاً:

-إن هذا فضل منك عظيم وإني لجد شاكر لك كرمك.

ولاحت الابتسامة في عينيها المتعبتين، وكانت ابتسامة تنم عن السعادة الخالصة وقالت:

-إني في غاية السرور.

ومضت أيام قلائل ذهبت السيدة كاري بعدها إلى المحطة لتودع فيليب ووقفت إلى جانب باب العربة تحاول أن تكبت دموعها. وكان فيليب قلقا واعتمل في نفسه شوقا شديدا إلى الرحيل.. وقالت له زوج عمه :

-قبلني مرة أخرى يا فيليب.

ومال من النافذة وقبلها. وتحرك القطار ووقفت هي علي الرصيف الخشبي للمحطة الصغيرة، ولوحت له بمنديلها حتى اختفي القطار عن الأنظار. وكان قلبها مثقلا بالهم إلى أقصى حد وبدت المسافة بينها وبين منزل القس في غاية الطول. وراحت تفكر في إصرار فيليب علي الرحيل وتقول في نفسها إن ذلك أمر طبيعى، فإنه ما زال صبيا والمستقبل يومئ له بكل شيء ، أما هي.. وعضت على نواجذها حتى تمنع نفسها عن البكاء.. وأخذت تدعو الله سرا أن يحفظه ويبعده عن مواطن الإغراء ويمنحه الحظ والسعادة.

ولكن فيليب كف عن التفكير فيها بعد لحظة قصيرة من جلوسه في عربة القطار وراح يفكر في المستقبل لا غير. لقد كتب إلى السيدة أوتر التي تجمع الاشتراكات من طلبة المدرسة التي بعث إليه هايوارد يعرفه بها وكان في جيبه دعوة لتناول الشاي في اليوم التالي. وعندما وصل إلى باريس وضع متاعه في عربة وراح يسير بها الهوينى في الشوارع المرحية

فسار بها فوق الجسر وعبر شوارع الحي اللاتيني الضيقة وكان قد استأجر غرفة في فندق المدرستين الذي يقع في شارع غير راق بالقرب من ميدان المونبارناس. وكان مكان الفندق مناسباً لأنه يقع قرب مدرسة أميترانو التي سيلتحق بها. وحمل أحد الخدم حقيبته وصعد بها خمسة أدوار وقاد فيليب إلى حجرة صغيرة جداً كان هواؤها فاسداً بسبب إغلاق نوافذها وشغل السرير الخشبي مساحة كبيرة منها وكان عليه غطاء من القماش الأحمر، وقد أسدل على النوافذ ستائر ثقيلة من القماش نفسه الذي بدا عليه الغبار.. وقد استغل صوان الملابس لوضع أدوات الغسيل، وكان هناك صوان آخر ضخم للملابس من طراز «لويس فيليب». أما الورق الذي كسيت به جدران الغرفة فقد حال لونه لقدمه فبدا رمادياً داكناً تستطيع أن تميز فيه بصعوبة رسومات لأزهار ذات أوراق بنية اللون وبدت الحجرة في عيني فيليب ساحراً فريدة في نوعها. وكان فيليب قلقاً إلى حد لم يتمكن معه من النوم رغم تأخر الوقت، فخرج واخترق الميدان متجهاً إلى الأنوار. وقاده هذا الطريق إلى المحطة وبدا الميدان أمامه واضحاً بمصابيحها القوية وضوضاء عربات الترام الصفراء وقد بدت له أنها تعبره من جميع الاتجاهات. وضحك فيليب من فرط السرور.. والتفت المقاهي حول الميدان. وأراد أن يروى ظمأه وشغفه لرؤية الجمهور عن قرب فاختر نضداً صغيراً خارج مقهى فيرساي وجلس إلى جانب وكانت الموائد الأخرى مشغولة لأن الليل كان ساحراً، وراح فيليب ينظر في فضول إلى الناس فها هنا أسر وهناك جماعات من الرجال الملتحين وضعدوا على رؤوسهم قبعات غريبة الشكل وراحوا يتحدثون في صوت مرتفع مصحوب بإشارات من أيديهم.. وجلس إلى جواره رجلان بدا عليهما أنهما رسامان وبصحبتهم امرأتان تمنى فيليب ألا تكون زوجتيهما الشرعيتي وسمع من خلفه أمريكيين يتكلمون في الفن بصوت عالٍ. واهتزت نفس فيليب طرباً ووجد جالساً بحاله هذه إلي ساعة متأخرة جداً حتى شعر بالتعب ولكنه لم يستطع التحرك من فرط السرور. وعندما آوى إلى فراشه أخيراً كان النعاس قد طار من عينيه ووصلت إلى سمعها ضوضاء باريس المختلطة.

وفي اليوم التالي وفي موعد تناول الشاي شق فيليب طريقه إلى سليون دي بيلفوري وفي شارع جديد يؤدي إلى ميدان «راسبيل» عثر على السيدة أوتر. كانت امرأة غير ذات شأن في الثلاثين من عمرها، عليها سمات القرويات تسلك في تعمد سلوكها كسلوك السيدات المتهذبات. وقدمته إلى والدتها، وسرعان ما علم فيليب أنها درست في باريس لمدة ثلاث سنوات، ثم افترقت عن زوجها أخيراً. وكانت لديها في غرفة استقبالها الصغيرة لوحة لوجتان رسمتهما بنفسها. ورأى فيليب الذي لم يكن خبير الفن بعد أن اللوحات في غاية الإتقان. وقال لها:

— ترى هل أستطيع في يوم ما أن أرسم مثل هذا الرسم؟

— وأجابته في شيء من الزهو والرضا عن نفسها:

— أتوقع هذا ولكنك لا تتوقع أن تفعل كل شيء دفعة واحدة بطبيعة الحال.

وكانت السيدة أوتر لطيفة للغاية فأعطته عنوان متجر يستطيع أن يبتاع منه حقائب كاملة تحوي أدوات الرسم أوراق وأصابع فحم، وقالت:

— سأكون في مدرسة أميترانو في حوالي التاسعة من صباح غد. فإذا رأيتهك هنا فأسألك في الحصول على مكان جيد وكل شيء من هذا القبيل.

وسألته ماذا يريد أن يفعل، وشعر فيليب أنه لا يجب أن يجعلها ترى أن لديه غموضاً فيه يتعلق بكل شيء في هذا الشأن.

قال:

— أولاً أريد أن أتعلم كيف أرسم.

— أنا سعيدة لأن أسمعك تقول ذلك. فالناس دائماً يريدون أن يفعلوا ما يريدون بسرهم غريبة، فأنا لم أرسم بألوان الزيت إلا بعد أن أمضيت هنا سنتين. وانظر إلى النتيجة. وألقت نظرة خاطفة للوحة والدتها، لوحة بغیضة كانت معلقة فوق البيانو. وقالت:

— لو كنت مكانك لالتزمت الحذر الشديد مع الناس الذين ستعرفهم، فيستحسن ألا تختار بأي أجنب. أنا شخصياً حريصة جداً.

وشكرها فيليب على نصائحها، ولكنه رأى أنها نصائح شاذة بعض الشيء. فلم يك يعرف أنه لا بد أن يكون حريصاً بصفة خاصة.

وقالت والدته السيدة أوتر التي لم تكن قد تكلمت بعد:

— إننا نعيش وكأننا نعيش في إنجلترا. وعندما جئنا هنا أحضرنا معنا كل أثاثنا. نظر فيليب حوله في الحجرة. كانت مملوءة بقطع أثاث ضخمة وعلي النافذة رأي نفوس الستائر البيضاء المزينة بشرائط من حرير مثل التي كانت في بيت عمه القس. وكان البيانو أيضاً مغطى بقماش من حرير وكذلك رف المدفأة. وتتبع السيدة أوتر نظراته التي كانت تتجول في الغرفة. وقالت السيدة أوتر:

— في المساء عندما تغلق شباك النافذة نشعر تماماً كأننا في إنجلترا.

وقالت والدتها:

— ونتناول طعامنا وكأننا في موطننا. إفطار يضم اللحم في الصباح وغداء في منتصف اليوم.

وبعد أن ترك السيدة أوتر ذهب لشراء أدوات الرسم. وفي صبيحة اليوم التالي عندما دة الساعة التاسعة، قدم نفسه إلى المدرسة وحده ليثبت ثقته بنفسه، ولكن السيدة أوتر كما قد سبقته إليها فتقدمت نحوه في ابتسامة ودية، لقد كان قلقاً من ناحية الاستقبال الذي سيلاقيه لأنه قرأ كثيراً عن المزاج الخشن الذي يتعرض له الجدد من الطلبة في بعض مدار الرسم ولكن السيدة أوتر طمأنته وقالت له:

— لا يوجد هنا شيء من هذا القبيل، فأنت ترى أن نصف طلبتنا من السيدات وهن يضيفن جوّاً خاصاً على المكان. وكان المرسم متسعاً عارياً ذا جدران رمادية علقت عليها لوحات

- غير أن الفكرة هي أن كل المدارس رديئة ، فدراستها أكاديمية وليست عملية. والمدرسة لماذا هي أقل ضررا من معظم الأخريات.. لأن التدريس فيها أقل كفاءة عنه في مكان آخر. فأنت لا تتعلم شيئا.. وقاطعه فيليب قائلا :

- ولكن لماذا تأتي إلى هذه المدرسة إذن ؟

- إني أرى طريق الصواب ولكني لا أتبعه. إن الأنسة بريس ، وهي أنسة مثقفة سوف تتدبر كيف يقال هذا الكلام باللاتينية.

وقالت الأنسة بريس بفضاضة :

- أود لو تتركوني بعيدة عن محادثاتكم يا سيد كلاتون.

واستطرد كلاتون يقول « إن الطريقة الوحيدة لتتعلم كيف ترسم هو أن تستأجر مرسما ونموذجا ثم تكافح في الطريق بنفسك».

قال فيليب :

- هذا أمر بسيط جدا.

ورد كلاتون قائلا :

وكل ما تحتاج إليه هو المال.

وبدا يرسم بالألوان. ورمقه فيليب بجانب عينه فرآه شخصا نحيفا إلى درجة غير عادلة يخيل إليك أن عظامه الضخمة تبرز من جسمه وكان مرفقاه حادين كأنهما يبرزان من سترته الرثة. وكان سرواله قد تأكل من عند القدمين ، وكان على كل نعل من نعليه راحة سمجة ونهضت الأنسة بريس وذهبت إلى حامل فيليب ثم قالت :

- إذا أمسك السيد كلاتون عن الكلام لحظة استطعت أن أساعدك قليلا.

وقال كلاتون وهو ينظر إلى قماش رسمه ويتأمله مفكرا فيه :

- إن الأنسة بريس لتبغضني لما أمتاز به من روح مرحة ولكنها تمقتني أشد المقت لبدى من عبقرية.

قال ذلك في جد وقد جعل أنفه الهائل حديثه هذا ظريفا وهو يتأنق في ألفاظه للفتنة فاضطر فيليب أن يضحك ولكن الأنسة بريس تميزت غضبا وقالت :

- إنك الشخص الوحيد الذي اتهمك بالعبقرية.

- وإني كذلك الشخص الوحيد الذي يرى أن رأيك أقل الآراء قيمة بالنسبة لي.

وبدأت الأنسة بريس توجه النقد إلى رسم فيليب وراحت تتحدث بطلاقة عن التشويه وتكوين الجسم والمستويات والخطوط وعن أشياء كثيرة أخرى لم يفهمها فيليب ، ذلك أنه قضت فترة طويلة في مدرسة أميترانو وعرفت النقط الرئيسية التي يهتم بها أساتذة الفن وكان في وسعها أن توضح لفيليب أخطاءه ولكنها لم تستطع أن ترشده إلى إصلاحها. وقال فيليب :

- إنه لكرم شديد منك أن تولى عملي هذا الاهتمام كله.

فأجابته على استحياء غير ظريف :

- إني لم أفعل شيئا يستحق الشكر. لقد فعل غيري هذا إلى عندما أتيت هنا لأول مرة.. وأنا على استعداد لأن أفعل هذا لأي إنسان.

وهنا قال كلاتون :

- إن الأنسة بريس تريد أن تقول أنها تتفضل عليك بمعلوماتها أداء للواجب فقط لا افتتانا بشخصك.

ورمقه الأنسة بريس بنظرة مملوءة بالغضب وعادت إلى رسمها. ودقت الساعة الثانية عشرة فترجلت النموذج عن المنصة ونزلت وهي تصيح صيحة الارتياح وجمعت الأنسة بريس أدواتها ثم قالت لفيليب وهي ترمق كلاتون بنظرة من عينيها :

- إن بعضنا يذهب إلى مطعم جرافير لتناول الغذاء ، أما أنا فأذهب دائما إلى المنزل.

وقال كلاتون لفيليب :

- سأصحبك إلى جرافير إذا شئت.

وشكره فيليب ، واستعد لصحبته. وسألته السيدة أوتر وهو في طريقه إلى الخارج عما فعلت قائلة :

- هل ساعدتك فاني بريس؟.. فلقد وضعتك هناك لأنني أعلم أنها تستطيع أن تعاونك إذا أردت ذلك، إنها ليست بالفتاة المقبولة لما لها من مزاج حاد ، وهي لا تستطيع أن ترسم على الإطلاق ولكنها تستطيع أن تبصرك بمواطن الزلل وفي استطاعتها كذلك إفادة الجدد إذا اهتمت بهم.

حدثه كلاتون وهما في طريقهما إلى الشارع :

- لقد أحدثت أثرا في نفس فاني بريس فخير لك أن تلزم جانب الحذر.

وضحك فيليب لأنه لم يكن أقل رغبة من أن يترك أثرا في إنسان خاصة في فاني بريس. ووصلا إلى المطعم الصغير الرخيص الذي كان عدد كبير من الطلبة يتناولون الطعام فيه وقصد كلاتون إلى مائدة كان قد جلس إليها من قبل أربعة رجال.. وخلصوا مقابل فرنك واحد على طبق من اللحم وبيضة وجبنا وزجاجة صغيرة من النبيذ. أما القهوة فكانت مجانا. وكانت المائدة التي جلسوا إليها على طوار الشارع وراحت عربات الترام الصفراء تخترق الميدان أمامهم رائحة غادية تدق أجراسها التي لا تنقطع وعندما اتخذا مجلسيهما قال كلاتون محدثا فيليب :

- وبهذه المناسبة.. ما اسمك ؟

- كاري

وقال كلاتون في لهجة جادة :

ورد بابتسامة قائلا :

- لا شيء.

ونظرت إلى ما رسمه فيليب ثم قالت :

- لا يمكن أن تتوقع أن تنجز شيئا بهذه الطريقة فيجب أن تضع المقاييس وأن تقسم

ورقتك إلى مربعات.

وبينت له بسرعة كيف يبدأ في عمله. وقد تأثر فيليب بإخلاصها ولكنه نفر من افتقارها

إلى الجمال. كان ممتنا للملاحظات التي أبدتها له وبدأ في الرسم مرة أخرى. وفي تلك الأثناء

كان طلبة آخرون قد جاءوا إلى الفصل ومعظمهم من الرجال لأن السيدات كن يصلن أولا

وكان المرسم في ذلك الوقت من السنة (كانت السنة في بدايتها) مشغولا بالكامل تقريبا.

والآن دخل شاب صغير شعره متباعد أسود وأنفه ضخم جدا ووجهه طويل يذكرك برأس

الحصان. وجلس بجوار فيليب وأوما برأسه عبارة إلى الأنسة بريس التي قالت له :

- لقد تأخرت كثيرا ، هل استيقظت من النوم توا.

- إنه يوم رائع. ظننت أن أرقد في الفراش وأفكر في روعة الجو في الخارج.

وابتسم فيليب غير أن الأنسة بريس أخذت الكلام علي محمل الجد.

- هذا شيء غريب فعلا.. أعتقد أنه من الأنسب في هذه الحالة أن تنهض من فراشك

وتستمتع بالجو في الخارج.

وقال الرجل برزائة :

- إن طريقة الظرفاء صعبة جدا.

وبدا أنه غير ميال إلى العمل. ونظر إلى القماش الذي يرسم عليه. كان يرسم بالألوان وكان

قد رسم مخططة للنموذج التي يرسمونها في اليوم السابق. واستدار إلى فيليب وقال له :

- هل جئت توا من انجلترا ؟

- نعم.

- وكيف عرفت مدرسة أميترانو ؟

- إنها المدرسة الوحيدة التي كنت أعرفها.

- أمل ألا تكون قد جئت ومعك فكرة أنك ستتعلم شيئا هنا سيكون ذا أقل فائدة لك.

وقالت الأنسة بريس :

- إنها أحسن مدرسة في باريس وهي المدرسة الوحيدة التي تأخذ الفن بجدية.

وسأل الشاب الصغير :

- وهل يجب أن يؤخذ الفن بجدية ؟

ولما ردت عليه الأنسة بريس بهزة استخفاف من كتفها استطرد يقول :

الطلاب التي فازت بجوائز ، وجلست فتاة كنموذج للرسم على أحد المقاعد وقد ألقى عليه
دثار واسع.. وانتشر في المكان حول اثنتي عشر شخصا بعضهم رجال والبعض نساء
بعضهم يتكلمون والآخرون ما زالوا منكبين على لوحاتهم.. وكانت هذه فترة الراحة الأولى
للمنموذج.. وقالت له السيدة أوتر :

- من الخير لك ألا تحاول رسم شيء صعب في البداية ، ضع حامل الرسم هنا فستجد
هذا هو أسهل وضع.

ووضع فيليب الحامل حيث أشارت ، ثم قدمته السيدة أوتر إلى سيدة صغيرة السن كانت
تجلس بجانبه.

السيد كاري.. الأنسة بريس.. السيد كاري لم يدرس الرسم أبدا من قبل فهل تمانعين في
مساعدته قليلا في البداية ؟

ثم وجهت كلامها إلى النموذج وقالت بالفرنسية :

-عودي إلى جلستك.

وألقت النموذج بصحيفة بيتي ريبابليك «الجمهورية الصغيرة» التي كانت تقرأها جاءت
وطرحت عباها جانبا ثم صعدت إلى المنصة. ووقفت متجهة إليهم على قدميها وقد شبكت
يديها خلف رأسها. وقالت الأنسة بريس :

-إن هذا وضع سخيف لا أستطيع أن أتصور كيف انتقوه.

وكان الموجودون في المرسم قد نظروا إلى فيليب عند دخوله بشيء من عدم الاهتمام
وكذلك ألقت عليه النموذج نظرة خاطفة بلا مبالاة. ثم ما لبثوا أن كفوا عن الاهتمام به ورا

فيليب يحملق في سذاجة في النموذج وأمامه ورقة الرسم . ولم يعرف كيف يبدأ ذلك أنه
يكن قد رأى في حياته من قبل امرأة عارية ، ولم تكن المرأة صغيرة السن وكان ثديا

منكمشين وكانت عديمة اللون شعرها أشقر ينساب في غير انتظام فوق جبهتها ، وألقي نظره
خاطفة إلى عمل الأنسة بريس ، كانت منهمكة في الرسم بحماس رزين ، وكان حاجبا

منعقدين من شدة اللهفة وكانت في عينيها نظرة قلقة ، كان الجو حارا في المرسم وظهر
على جبهتها نقط من العرق. كانت فتاة في الحادية والعشرين من عمرها ذات شعر لون

ذهبي باهت ؛ ولكنه شعر جميل ولكنه لم يكن قد سوي بعناية قد كان مسحوبا من مقدم
الرأس ومعقوصا بسرعة في عقدة خلف رأسها كان وجهها كبيرا وعريضا ومعالمها مسطحة

وعيناها صغيرتين وكانت بشرتها شاحبة غير صحية وقد اختفي اللون من وجنتيها وعموم
لم يكن المرء يمنع نفسه من أن يشعر أنها تنام في ملابسها التي تخرج بها. لقد كانت جارية

وصامته وعندما بدأ الوضع الثاني للنموذج تراجعت إلى الخلف وراحت تنظر إلى ما رسمته
ثم قالت :

- لماذا أولي المسألة اهتماما زائدا عن الحد، ولكن كل ما أريده هو أن أرسم رسما
صحيحا. والتفتت إلى فيليب واستطردت تقول «وكيف حالك أنت ؟»

- غير أن الفكرة هي أن كل المدارس رديئة ، فدراستها أكاديمية وليست عملية. وهذه المدرسة لماذا هي أقل ضررا من معظم الأخريات.. لأن التدريس فيها أقل كفاءة عنه في مكان آخر. فأنت لا تتعلم شيئا.. وقاطعه فيليب قائلا :

- ولكن لماذا تأتي إلى هذه المدرسة إذن ؟

- إنني أرى طريق الصواب ولكنني لا أتبعه. إن الأنسة بريس ، وهي أنسة مثقفة سوف تتفهم كيف يقال هذا الكلام باللاتينية.

وقالت الأنسة بريس بفظاظة :

- أود لو تتركوني بعيدة عن محادثاتكم يا سيد كلاتون.

واستطرد كلاتون يقول « إن الطريقة الوحيدة لتتعلم كيف ترسم هو أن تستأجر مرسما ونموذجا ثم تكافح في الطريق بنفسك».

قال فيليب :

-هذا أمر بسيط جدا.

ورد كلاتون قائلا:

وكل ما تحتاج إليه هو المال.

وبدا يرسم بالألوان. ورمقه فيليب بجانب عينه فرآه شخصا نحيفا إلى درجة غير عادية يخيل إليك أن عظامه الضخمة تبرز من جسمه وكان مرفقاه حادين كأنهما يبرزان من سترته الرثة. وكان سرواله قد تآكل من عند القدمين ، وكان على كل نعل من نعليه رقعة سمجة ونهضت الأنسة بريس وذهبت إلى حامل فيليب ثم قالت:

-إذا أمسك السيد كلاتون عن الكلام لحظة استطعت أن أساعدك قليلا.

وقال كلاتون وهو ينظر إلى قماش رسمه ويتأمله مفكرا فيه:

-إن الأنسة بريس لتبغضني لما أمتاز به من روح مرحة ولكنها تمقتني أشد المقت لدى من عبقرية.

قال ذلك في جد وقد جعل أنفه الهائل حديثه هذا ظريفا وهو يتألق في ألفاظه للغة فاضطر فيليب أن يضحك ولكن الأنسة بريس تميزت غضبا وقالت :

-إنك الشخص الوحيد الذي اتهمك بالعبقرية.

-وإنني كذلك الشخص الوحيد الذي يرى أن رأيك أقل الآراء قيمة بالنسبة لي.

وبدأت الأنسة بريس توجه النقد إلى رسم فيليب وراحت تتحدث بطلاقة عن التشويه وتكوين الجسم والمستويات والخطوط وعن أشياء كثيرة أخرى لم يفهمها فيليب ، ذلك أنه قضت فترة طويلة في مدرسة أميترانو وعرفت النقط الرئيسية التي يهتم بها أساتذة الفن وكان في وسعها أن توضح لفيليب أخطائه ولكنها لم تستطع أن ترشده إلى إصلاحها. وفي

فيليب :

-إنه لكرم شديد منك أن تولى عملي هذا الاهتمام كله.

فأجابته على استحياء غير ظريف:

-إنني لم أفعل شيئا يستحق الشكر. لقد فعل غيري هذا إلى عندما أتيت هنا لأول مرة.. وأنا على استعداد لأن أفعل هذا لأي إنسان.

وهنا قال كلاتون:

-إن الأنسة بريس تريد أن تقول أنها تتفضل عليك بمعلوماتها أداء للواجب فقط لا افتتانا بشخصك.

ورمقته الأنسة بريس بنظرة مملوءة بالغضب وعادت إلى رسمها. ودقت الساعة الثانية عشرة فترجلت النموذج عن المنصة ونزلت وهي تصيح صيحة الارتياح وجمعت الأنسة بريس أدواتها ثم قالت لفيليب وهي ترمق كلاتون بنظرة من عينيها:

-إن بعضنا يذهب إلى مطعم جرافير لتناول الغذاء، أما أنا فأذهب دائما إلى المنزل.

وقال كلاتون لفيليب :

-سأصحبك إلى جرافير إذا شئت.

وشكره فيليب، واستعد لصحبته. وسألته السيدة أوتر وهو في طريقه إلى الخارج عما فعلت قائلة :

-هل ساعدتك فاني بريس؟.. فلقد وضعتك هناك لأنني أعلم أنها تستطيع أن تعاونك إذا أردت ذلك، إنها ليست بالفتاة المقبولة لما لها من مزاج حاد ، وهي لا تستطيع أن ترسم على الإطلاق ولكنها تستطيع أن تبصرك بمواطن الزلل وفي استطاعتها كذلك إفادة الجدد إذا اهتمت بهم.

حدثه كلاتون وهما في طريقهما إلى الشارع :

-لقد أحدثت أثرا في نفس فاني بريس فخير لك أن تلزم جانب الحذر.

وضحك فيليب لأنه لم يكن أقل رغبة من أن يترك أثرا في إنسان خاصة في فاني بريس. ووصلا إلى المطعم الصغير الرخيص الذي كان عدد كبير من الطلبة يتناولون الطعام فيه وقصد كلاتون إلى مائدة كان قد جلس إليها من قبل أربعة رجال.. وحصلوا مقابل فرنك واحد على طبق من اللحم وبيضة وجبنا وزجاجة صغيرة من النبيذ. أما القهوة فكانت مجانا. وكانت المائدة التي جلسوا إليها على طوار الشارع وراحت عربات الترام الصفراء تخترق الميدان أمامهم رائحة غادية تدق أجراسها التي لا تنقطع وعندما اتخذوا مجلسيهما قال كلاتون محدثا فيليب:

-وبهذه المناسبة.. ما اسمك؟

-كاري

وقال كلاتون في لهجة جادة:

-اسمحوا لي أن أقدم إليكم السيد كاري، وهو صديق قديم أمين.. السيد فلانجان، السيد لوسون.

وضحك الجميع ثم واصلوا حديثهم الذي تناولوا فيه آلاف الموضوعات. وكان الجميع يتكلمون في وقت واحد ، فلم يلق أي منهم أقل انتباه للآخر. تحدثوا عن الأماكن التي زاروها في فصل الصيف وعن المراسم والمدارس المختلفة وذكروا أسماء لم تكن مألوفة لفيليب.. مونى، رينوار، بيسارو، ديجا، واستمع فيليب إلى حديثهم بعناية وانتباه وأخذ قلبه يرقص طربا، وإن كان قد أحس أن الموضوع بعيد قليلا وانقضى الوقت بسرعة ونهض كلاتون وهو يقول:

-أعتقد أنكم ستجدوني هنا مساء إذا حرصتم على المجيء وستجدون أن هذا هو أفضل مكان في الحي يمكنكم أن تصابوا فيه بعسر الهضم بأرخص الأسعار.



سار فيليب في شارع مونبارناس. لم يكن الشارع مثل ما رآه في الربيع أثناء زيارته لعمل حسابات فندق سانت جورج - لقد فكر في هذا الفصل من حياته برجفة - غير أنه ذكره بفكرته التي كان قد كونها عن المدينة. كانت بها لمسة من التحرر ، واتساع مشمس يدعو الفكر إلى أحلام اليقظة. ترتيب الأشجار والبياض الناصع للبيوت واتساع الأماكن كلها أمور جميلة ، وأحس أنه فعلا في موطنه. وراح يمشي الهوينى ينظر إلى الناس ، ثمة أناقة تبدو على الجميع ، العمال بأحزمتهم الحمراء العريضة وسراويلهم الفضفاضة والجنود الصغار في زيهم الجميل. والآن وصل إلى ميدان الأوبزيرفاتوار وتنهد بسرور عندما رأى هذا المكان الرائع الجميل. ووصل إلى حدائق لوكسمبورج ، كان الأطفال يلعبون ، والمربيات يسرن ببطاء كل اثنتين معا بشرائطنهن الطويلة ، رجلان نشيطان يحملان حقائب كتب تحت إبطيهما. كان المنظر عاديا لذيذا ، كانت الطبيعة رتبة ومنظمة ولكن بتأنق لدرجة أن الطبيعة غير المنظمة والمرتبة بدت وكأنها شيء همجي. وشعر فيليب بسرور غامر. وقد شغره بالسعادة لأنه يقف في البقعة التي قرأ عنها كثيرا : كانت أرضا كلاسيكية بالنسبة له. وبينما هو يتجول تصادف أن رأي الأنسة بريس تجلس وحدها على أحد المقاعد ، وتردد لأنه في تلك اللحظات لم يكن يريد أن يرى أحدا وكان أسلوبها اللفظ لا يتناسب مع السعادة التي تحيط به. غير أنها لما كانت قد رآته رأى أنه من الأدب أن يتحدث إليها.

وقالت عندما اقترب منها :

- ماذا تفعل هنا ؟

-استمتع كما ترين.. هل تفعلين أنت ذلك أيضا ؟

-أوه. أنا أحضر هنا كل يوم من الساعة الرابعة حتى الخامسة. لا أعتقد أن الإنسان يعمل بشكل أفضل إذا استمر في العمل دائما.

- هل تسمح لي أن أجلس دقيقة.

- إذا كنت تريد ذلك.

وقال ضاحكا :

- هذا كلام لا يبدو أنه ودي تماما ،

- أنا لست من الناس الذين يقولون كلاما جميلا.

استاء فيليب قليلا والتزم الصمت بينما راح يشعل لفافة من التبغ.

وسألته فجأة :

- هل قال كلاتون شيئا عن عملي ؟

- لا.. لا أعتقد أنه قال شيئا.

- أتعلم ، أنه رجل لا ينفع في شيء أنه يعتقد أنه عبقرى ولكنه ليس كذلك. إنه مجنون ، وهو من ناحية أخرى كسول جدا. العبقرية هي القدرة غير المحدودة علي تحمل الألم. والطريقة الوحيدة هي الثبات. لو أن المرء يقرر بإصرار أن يفعل شيئا فإنه لا يسعه إلا أن يفعله.

كانت تتكلم بحماس عاطفي شديد وكان ذلك مدهشا. وكانت ترتدي قبعة بحار من القش الأسود وقميصا أبيض لم يكن نظيفا تماما وتنورة بيضاء. لم تكن ترتدي قفازا في يديها وكانت يداها في حاجة إلى الغسل. لم تكن جذابة علي الإطلاق حتى أن فيليب تمنى ألا يكون قد بدأ الكلام معها على الإطلاق. ولم يعرف ما إذا كانت تريده أن يبقى أم يتركها. وقال فيليب :

- أشكرك شكرا جزيلا.

ثم في لحظة خاطفة قال :

- هل تتناولين الشاي معي في مكان ما ؟

نظرت إليه بسرعة واحمر وجهها. وعندئذ اكتسبت بشرتها ألوانا متعددة مثل الفراولة أو القشدة عندما تفسد.

- لا ، أشكرك. لماذا تعتقد أنني أريد الشاي. لقد فرغت توا من تناول غدائي.

- أعتقد أننا بذلك سنمضي بعض الوقت.

- إذا كنت تري أن الوقت طويل فلا تشغل نفسك بي. فأنا لا يهمني أن أكون وحدي.

وفي هذه اللحظة مر رجلان في يرتديان قمصانا مخملية خضراء اللون وسراويل كبيرة فضفاضة وقبعات من قبعات الباسك. كانا شابين صغيرين غير أنهما كانا ملتحين.

وقال فيليب :

- معذرة ، هل هؤلاء من طلبة الفنون. ربما يكونان قدر خرجا من كتاب حياة البوهيمية وردت الأنسة بريس باستهزاء :

- إنهما أمريكيان. فالفرنسيون لم يرتدوا مثل تلك الملابس منذ ثلاثين عاما ولكن الأمريكيين من الغرب الأمريكي يشتررون هذه الملابس ويتصورون بها بعد أن يصلوا باريس بيوم واحد. وهذه هي صلتهم بالفن. ولكن الأمر لا يهمهم كثيرا فكلهم لديهم من المال ما يكفي.

أعجب فيليب بجرأة الأمريكيين وملابسهم التي اختاروها ورأي أنها تبين الروح الرومانسية. وسألته الأنسة بريس عن الوقت ، وقالت :

- يجب أن أمضي في طريقي إلى المرسوم ، هل ستحظر حصص الرسم التخطيطي؟
لم يكن فيليب يعرف شيئا عن فصول الرسم التخطيطي (الاسكتشات) ، وقالت له أنه من الخامسة حتى السادسة مساء كل يوم تجلس نموذج لرسمها علي أن يدفع من رسمها خمسين سنتيم ، وهناك كل يوم نموذج مختلف وهذا تدريب رائع. ثم قالت له :
- لا أعتقد أنك يمكنك ذلك الآن ويستحسن أن تنتظر قليلا.
- لا أري لماذا لا أحاول فليس لدي ما أفعله.

ونفضا وسارا إلى المرسوم. ولم يعرف فيليب من طريقة تصرفها هل تود أن يسير معها إلى المرسوم أم تفضل أن تسير وحدها. وبقي سائرا معها تجنبيا للخرج ولم يعرف كيف يتركها ، ولكنها لم تنفوه بكلمة واحدة : كانت ترد على أسئلته بطريقة غير مهذبة.

كان هناك رجل يقف عند باب المرسوم يحمل طبقا صغيرا ليضع فيه من يدخل خمسين سنتيم. وكان المرسوم أكثر ازدحاما مما كان في الصباح ولم تكن هناك كثرة من الإنجليز والأمريكيين ، ولم تكن حتى نسبة النساء كبيرة ، ورأي فيليب أن المجتمع في المرسوم هو الذي توقعه. كان الجو شديد الحرارة وسرعان ما تحول الهواء إلى هواء نتن. كان النموذج هذه المرة رجلا عجوزا له لحية بيضاء كبيرة وحاول فيليب أن ينفذ المعلومات القليلة التي حصل عليها في الصباح ولكنه لم ينجح كثيرا وكانت النتيجة هزيلة وأدرك أنه لا يستطيع فعلا أن يرسم كما تصور. ونظر بسرعة وبحسد إلى رسم رجل أو اثنين كانا يجلسان بجواره وتعجب هل سيستطيع يوما أن يستخدم الفحم بهذه الأستازية. ومرت الساعة بسرعة ولم يكن يريد أن يفرض نفسه على الأنسة بريس فجلس بعيدا عنها وفي النهاية عندما مر بها في طريقه وهو خارج سألته بجفاء عما فعل. فقال :

- ليس جيدا على الإطلاق.
- لو كنت تنازلت وجلست بجواري لكنت قد أعطيتك بعض التلميحات. أعتقد أنك ظننت نفسك عظيما جدا.

- أبدا ، الأمر ليس كذلك ، فقد كنت أخشى أن تعتقدين أنني شخص مزعج.

- عندما أعتقد ذلك فسوف أقول لك بصراحة كافية.

رأي فيليب أنها تقدم له المساعدة بطريقتها غير المهذبة. وقال :

- وهو كذلك ، غدا سوف أفرض نفسي عليك ،

- لا بأس.

خرج فيليب وكان يسأل نفسه ماذا سيفعل حتى يحين وقت العشاء. كان يريد أن يفعل شيئا مميزا. الأيسينث (شراب مسكر) ! وهكذا سار الهويني نحو المحطة وجلس خارج المقهى وطلب كأسا من الأيسينث. وشربه بنوع من الغثيان والرضا. وجد طعمه مثيرا للاشمئزاز غير أنه أثره النفسي رائع ، وشعر أن كل بوصة من جسمه هي طالب فن ، ولما كان قد احتسى الكأس على معدة فارغة فإن مزاجه تحسن جدا. شاهد الجماهير وشعر أن كل الرجال أخوة له. كان سعيدا. وعندما وصل إلى جرافيير كانت المنضدة التي جلس إليها كلاتون كاملة العدد ولكنه بمجرد أن رأي فيليب في مشيته العرجاء نادى عليه. وأوسعوا له مكانا. كان العشاء هزيلا : طبق من الحساء وطبق من اللحم وفاكهة وجبن ونصف زجاجة من النبيذ. ولكن فيليب لم يعر ما يأكله اهتماما. ولاحظ الرجال الذين جلسوا حول المنضدة، كان فلانجان هناك أيضا. وهو أمريكي شاب قصير ومتعرج وبوجه بشوش وفم مبتسم. يرتدي جاكيت من نورفولك ذات طراز غريب ويضع وشاحا أزرق حول عنقه وعلى رأسه قبعة شكلها خرافي. وفي ذلك الوقت كان المذهب الانطباعي سائدا في الحي اللاتيني غير أن انتصاره على المذاهب الأقدم منه كان حديثا ووقف كارلوس - ديوران ، و بوجورو وأمثالهم في مواجهة مانيه ومونييه وديجا وكان الاحتفاظ بتقدير هؤلاء علامة من علامات الامتياز. وكان للرسام «ويسلر» تأثير قوي في إنجلترا وعلي معاصريه هناك ، وأصبح الأساتذة الفنانون القدامى يقيمون بمعايير جديدة. وأصبح الشباب الصغير يسخر من التقدير الذي ظل الرسام الكبير «رافائيل» يحتفظ به لمدة طويلة. وقالوا أنه على استعداد للاستغناء عن كل أعماله مقابل اللوحة التي رسمها فيلاسكويكز وسماها رأس فيليب الرابع في المتحف الوطني. ووجد فيليب أن مناقشة الفن راحت تستند وتغلي. وقد جلس لوسون الذي قابله أثناء الغداء في مواجهته. كان لوسون شابا نحيفا بوجه مليء بالنمش وشعر أحمر وعينان خضراوان. براققان. وعندما جلس فيليب ركز عليه عينييه وقال فجأة :

- لقد كان رافائيل محتملا عندما كان يرسم صور أناس آخرين. فعندما رسم بيروجينو أو بينتوريكيوس كان ساحرا ؛ ولكن عندما رسم رافائيل كان - بهزة استخفاف من كتفيه - «رافائيل» كان لوسون يتكلم بطريقة عدوانية لدرجة أن فيليب دهش ولكنه لم يضطر للرد عليه لأن فلانجان تدخل في الحوار بعد نفاذ صبره.

- ليذهب الفن إلى الجحيم ! تصور نفسك في باريس ولا تتحدث عن شيء غير الفن طول الوقت - كان يتكلم بلكنة أمريكية غريبة عريضة - الحياة جميلة ومن الجميل أن نكون أحياء وانتظر قليلا ثم ضرب المنضدة بقبضة يده وقال : لقد قلت فليذهب الفن إلى الجحيم. وقال كلاتون بحدة : إنك لا تقول ذلك فقط بل تقوله بهياج متعب.

كان هناك أمريكي آخر يجلس إلى المنضدة. كانت ملابسه مثل ملابس أولئك الرفاق الذين رأهم فيليب بعد ظهر ذلك اليوم في لوكسمبورج. كان له وجه رجل متقشف جميل ونحيل وعينه زرقاوان. وكان شعره كثيفا أسود ينسدل دائما فوق عينيه وكانت أهم إيماءة الكثيرة هي أن يدفع برأسه إلى الخلف حتى يبعد خصلة طويلة من الشعر سقطت أمام عينيه وبدأ يتكلم عن لوحة «أوليمبيا» التي رسمها مانيه والتي كانت معروضة في ذلك الوقت في لوكسمبورج ، وقال :

- وقفت أمامها ساعة اليوم وأقول لكم أنها صورة رديئة.

وترك لوسون سكينة وشوكته. واشتعلت عيناه الزرقاوان بالنار ، وتنهَّد غضبا ولكنه لم يفرض الهدوء على نفسه وقال :

- من اللطيف أن نستمع إلى ما يفكر فيه المتوحشون غير المتعلمين ، هل يمكن أن تقول لنا لماذا وجدت الصورة رديئة ؟

وقبل أن يرد الأمريكي دخل في الحوار بقوة شخص آخر.

- هل تريد أن تقول أنك يمكنك أن تنظر إلى رسم تلك البشرة وتقول أنه رسم رديء ؟

- أنا لا أقول هذا ولكني أعتقد أن الجزء الأيمن من الصدر مرسوم جيدا جدا.

وصاح لوسون قائلا :

- اللعنة علي الجزء الأيسر من الصدر.. إن اللوحة كلها معجزة في الرسم.

وراح يصف بالتفصيل جماليات اللوحة غير أنه علي تلك المائدة في جرافير فإن الذين يتكلمون بإسهاب يتكلمون لتثقيف أنفسهم ، ولم يستمع إليه أحد. وقاطعه الأمريكي غضب.

- لعلك لا تريد أن تقول أنك تعتقد أن الرأس مرسوم جيدا ؟

وبدأ لوسون الآن ، وقد ابيض لونه من الحماس ، الدفاع عن الرأس ، غير أن كلاتون الذي كان يجلس صامتا وعلى وجهه علامات سخرية طيبة انفجر قائلا :

- تفضلوا بإعطائه الرأس. فنحن لا نريد الرأس فإنها لا تؤثر في اللوحة.

وصاح لوسون قائلا :

- وهو كذلك ، سوف أعطيك الرأس ، خذ الرأس واذهب إلى الجحيم.

وصاح الأمريكي في لهجة انتصار وهو يدفع إلى الخلف خصلة من شعره سقطت على عينيه :

- وماذا عن ذلك الخط الأسود؟ أنت لا تري خطأ أسود حول الأشياء في الطبيعة.

وقال لوسون :

- أوه ، يا إلهي ابعث بنار من الجحيم لتحرق الكافرين. ما علاقة الطبيعة بذلك ؟ لا أحد يعرف ما هو طبيعي وما هو ليس طبيعي ! إن العالم يري الطبيعة من خلال عيون الفنانين طيلة قرون رأي العالم الخيول تقفز سورا وأطرافها كلها ممتدة وللحق يا سيدي أنها كذلك

وقد رأي العالم الظلال كلها سوداء حتى جاء مونييه واكتشف أنها ملونة وبالله يا سيدي ! سوداء. فإذا اخترنا أن نحيط شيئا بخط أسود فإن العالم سوف يري الخط الأسود وسوف يري هناك خط أسود ؛ وإذا رسمنا الأبقار زرقاء والحشائش حمراء فسوف يراها العالم زرقاء وحمراء.

وقال فلانا جان :

- فليذهب الفن إلى الجحيم.. أنا أريد جيني.

ولم يأبه لوسون لمقاطعته وقال :

- اسمع.. عندما عرضت لوحة «أوليمبيا» في المعرض المسمي «الصالون» «قال» بين استنكارات الناقدين والأكاديميين والجمهور «إني أنتظر اليوم الذي ستعرض فيه لمانيه في متحف اللوفر في مواجهة لوحة «إنجريس» المسماة «أوداليسك» ولن تأخذ «أوداليسك» هي المتفوقة بالمقارنة. سوف تكون «أوليمبيا» هناك وأنا أري الزمن يقتضي فني عشر سنوات سوف تعلق أوليمبيا علي جدران متحف اللوفر.

وصاح الأمريكي وهو يستخدم كلتا يديه لمنع شعره من السقوط علي عينيه :

- أبدا في عشر سنوات ستكون هذه اللوحة قد ماتت. إنها اليوم مجرد بدعة. لا يمكن لل

أن تعيش وهي تفتقر إلى شيء فات عليها بآلاف الأميال.

- وما هذا الشيء ؟

- الفن العظيم لا يمكن أن يوجد بدون أن يكون به عنصر أخلاقي.

وصاح لوسون في غضب قائلا :

- يا الله ! كنت أعرف هذا. إنه يريد الأخلاق..- وضم يديه ورفعهما إلي السماء في تحية

واستطرد يقول -أوه يا كريستوفر كولومبوس ماذا فعلت عندما اكتشفت أمريكا ؟ راسكن..

ولكن قبل أن يضيف كلمة أخرى نقر كلاتون علي المائدة بيد السكين وقال في حيرة

صارم :

- أيها السادة ، لقد ذكر اسم هنا لم أفكر أبدا أن أسمعه في مجتمع محترم. إن حرية

شيء عظيم جدا ولكننا ينبغي أن نحترم حدود اللياقة العامة. يمكنكم أن تتكلموا عن

«بوجيرو» إذا أردتم : هناك تقزز مبهج في الصوت الذي يثير الضحك ولكن دعونا لا

أفوهنا الطاهرة بأسماء مثل «جون رسكن» ، وسجي. إف واتس و«بي جونز».

وسأل فلانا جان :

- من هو راسكن هذا علي أي حال ؟

- كان أحد عظماء الرسامين في العصر الفيكتوري وهو أستاذ الأسلوب الإنجليزي.

وقال لوسون :

— أسلوب راسكن ، مزيج من الخيوط والرقع الأرجوانية. وإلى جانب هذا لعنة الله علي الفيكثوريين القدماء. فكلما أفتح صحيفة وأري وفاة واحد من الفيكثوريين العظماء أشكر السماوات علي أن واحدا آخر منهم قد ذهب. فقد كانت موهبتهم الوحيدة هي أنهم كانوا يعمرن طويلا ، فالفنان لا ينبغي أن يعيش بعد الأربعين ؛ ففي ذلك الوقت يكون قد أعطي أحسن ما عنده وكل ما يفعله بعد ذلك هو التكرار. ألا تعتقدون أن من حظ شعراء وفنانين مثل كيتس وشيلي وبونينجتون وبايرون أنهم ماتوا مبكرا ؟ وأن الشاعر سوينبيرن لو مات في اليوم الذي نشرت فيه أول سلسلة من أشعاره لكانت النظرة إليه رآته على أنه عبقرى عظيم. ويبدو أن تلك الاقتراحات لاقت استحسانا فلم يكن أحد من الجالسين يتعدى الرابعة والعشرين من عمره وأيدوها بكل حماس. وكانت تلك المرة الوحيدة التي يتفقون فيها. وزادوا علي تلك الاقتراحات. فقد قال أحدهم أنه يجب أن يشعلوا النار في أعمال الأكاديميين الأربعة الذين يمكن أن يضم إليهم الفيكثوريين العظام وذلك في عيد مولدهم الأربعة. وقد قبلت تلك الاقتراحات بحماس شديد وبالتصفيق. وقد اقترح أيضا أن تلقى في تلك النيران أعمال الفيلسوف توماس كارليل ورسكن والشعراء تينسون ، وبراونينج ، وواتس ، وبي جونز، والكتاب شارلز ديكنز، وذاكرى وأعمال غيرهم كثيرين وكانت هناك مناقشة استغرقت دقيقة بشأن مصير أعمال جورج ميريديث غير أنه أعفي عن أعمال ماثيو آرنولد وأيمرسون. وأخيرا جاء والتر باتر.

وقال فيليب :

— لا ، ليس والتر باتر .

وحملق فيه لوسون بعينين خضراوين وأوما برأسه ثم قال.

— أنت محق تماما فإن والتر باتر هو المبرر الوحيد لوجود المونا ليزا. هل تعرفون «كرونشو» قد كان يعرف والتر باتر.

وتساءل فيليب :

— من هو «كرونشو»؟

— كرونشو شاعر وهو يقيم هنا. دعونا نذهب إلى « ليلاس».

ليلاس كانت كانت مقهى كثيرا ما كانوا يذهبون إليه بعد العشاء. وهناك كان يمكن العثور علي كرونشو بين الساعة التاسعة مساء والثانية صباحا. غير أن فلاناجان كان قد اكتفى بالمناقشات الثقافية في ذلك المساء. واستدار لوسون إلى فيليب وقال :

— هيا بنا إلى حيث البنات. هيا بنا إلى «جيتيه مونبارناس» وسنقابل «جيني» هناك.

وضحك فيليب وقال :

— أفضل أن أذهب لرؤية «كرونشو» وأحتفظ ببقظتي وأظل غير ثمل.



حدث اضطراب عام. فقد ذهب فلاناجان واثنان أو ثلاثة إلى قاعة الموسيقى ، بينما سار فيليب الهوينى مع كلاتون إلى ليلاس. وقال له لوسون :

— يجب أن تذهب إلى «جيتيه مونبارناس» إنها من أجمل الأشياء في باريس وسوف أرسمها في يوم من الأيام.

وكان فيليب بتأثير هايوارد عليه ينظر إلى قاعات الموسيقى بنوع من السخرية ، غير أنه وصل باريس في الوقت الذي اكتشفت فيه أكبر إمكانياتهم الفنية. فنون الإضاءة الغربية ، وكتل الذهب الأحمر الداكن الذي دهن بحيث فقد لونه وثقل الظلال والخطوط الزخرفية كانت بمثابة أفكار جديدة ، وكانت نصف المراسم في الحي تحوي استكتشات عن مسارح المدينة. أما الأدباء فقد حذوا حذو الرسامين حاولوا فجأة العثور علي قيمة فنية في تلك التحولات وحصل ممثلو الكوميديا على ترحاب رفعهم إلى السماء، أما المغنيات البدينات اللاتي كن يرفعن أصواتهن بالغناء وهن مغمورات طيلة عشرين عاما فقد اكتشف أنهن يملكن ملكات وإمكانيات فذة. وهناك أولئك الذين وجدوا مسرة جمالية في تدريب الكلاب بينما آخرون استنزفوا لغتهم لمدح وإطراء أعمال السحرة والمشعوذين. والجمهور أيضا ، تحت تأثير آخر أصبح موضع اهتمام عاطفي. ومع تأثير هايوارد عليه فقد ازدري فيليب الإنسانية كلها. واتخذ موقف من يحيط نفسه بالعزلة ويراقب في اشمزاز تصرفات السوق الغربية ؛ ولكن كلاتون ولوسون تكلموا عن الجماهير بحماسة. ووصفا الزحام الشديد الذي ملأ شتي معارض باريس ، تدفق الوجوه التي لا تكاد ترى إلا نصفها بسبب وهج غاز الأسيتيلين المستخدم في اللحام وبسبب الظلام. ووصفا دوي الأبواق والصفارات التي تشبه أصواتها نعيق اليوم وندنة الأصوات. وكان ما قالاه جديدا وغريبا علي فيليب. وحدثوه عن كرونشو.

— هل قرأت أي من أعماله ؟

— أبدا.

— لقد كتبوا اسمه في الكتاب الأصفر.

لقد نظروا إليه كما ينظر الرسامون للكتاب ، نظرة احتقار لأنه كان رجلا عاديا ونظرة تسامح لأنه كان يمارس الفن ونظرة خشية لأنه يستخدم وسيلة لم يكونوا يرتاحون إليها. — إنه رجل غير عادي ، وسوف تستاء منه في البداية. ولا يصبح في أحسن حال إلا بعد أن يسكر.

وقال كلاتون :

— والمزعج هو أنه لا يسكر إلا بعد وقت طويل جدا.

وعندما وصلا إلى المقهى قال لوسون لفيليب أنهما لا بد أن يدخلوا المقهى. ولم يكن هواء الخريف يتحرك أي حركة ولكن كرونشو كان يخشى خشية الموت تيارات الهواء فكان يجلس حتى في أشد الأيام حرارة داخل المقهى.

وقال لوسون :

-إنه يعرف كل من يستحقون المعرفة. فقد عرف باتر ، وأوسكار وايلد ، ويعرف أي مالارميه وكل هؤلاء الناس.

كان كرونشو يجلس منزويا في ركن بعيد عن تيارات الهواء تماما يرتدي سترته وياق مرفوعة إلى أعلى وقد ضغط قبعته علي رأسه حتى غطت جبهته حتى يتجنب الهواء البارد. كان رجلا ضخما تبدو عليه البدانة ولكنه ليس مترهلا وله وجه مستدير وشعر صغير وعينان صغيرتان غبيتان. وكان حجم رأسه لا يناسب جسده فكانت تبدو مثل موزة بازلاء وضعت فوق بيضة مسلوقة. كان يلعب الضامة مع رجل فرنسي، وحيا القادم بابتسامة هادئة ولم يتكلم. غير أنه وكأنه يفسح لهم مكانا دفع كومة أطباق الفناجين بين يديه والتي تشير إلى عدد المشروبات التي شربها . وأوما برأسه لفيليب عندما قدم إليه ومضى يلعب الضامة. كانت معرفة فيليب باللغة الفرنسية بسيطة ولكن كان ما يعرفه يكفي يعرف أن كرونشو يتكلم الفرنسية برداءة بالغة رغم أنه عاش في باريس.

وأخيرا مال إلى الوراء واستند إلى مقعده في وضع المنتصر. وقال بلهجة قبيحة :
- لقد هزمتك يا ولد.

ثم استدعي الساقى والتفت إلى فيليب وقال :

- هل جئت فورا من انجلترا ؟ هل رأيت أي مباريات للكريكيت ؟

وارتبك فيليب قليلا بسبب هذا السؤال المفاجئ. وقال لوسون مبتسما :

- كرونشو يعرف أكبر لا عبي الكريكيت خلال العشرين عاما الماضية.

وتركهم الفرنسي ليجلس مع أصدقاء له في منضدة أخرى ، وبدأ كرونشو بكلامه البليغ المعروف عنه والذي كان من صفاته الغريبة يتحدث عن الفارق بين لاعبي الكريكيت وفريق كينت وفريق لانكشاير ووصف لهم آخر مباراة بينهما وقال :

- هذا هو الشيء الوحيد الذي أفتقده في باريس : الكريكيت ؛ وقال وهو يحتسي آخر كوكشيد قادمة إليه ، هنا لا ترى أي كريكيت هنا.

خاب أمل فيليب ونقد صبر لوسون الذي كان يريد أن يقدم فيليب لأحد مشاهير الكريكيت استغرق كرونشو وقتا طويلا لكي يستيقظ ذلك المساء رغم أن كثرة الأطباق أمامه في المنضدة تشير إلى أنه بذل محاولة مخلصه كي يسكر. راح كلاتون يراقب المنظر علي الساحة التسلية . وخيل إليه أن هناك نوع من التظاهر والتصنع في كلام كرونشو التافه الكريكيت؛ إنه يحب أن يعذب الناس بالكلام عن أشياء من الواضح أنها تضجرهم. وأخيرا كلاتون إليه بسؤال :

- هل رأيت مالارميه مؤخرا ؟

نظر إليه كرونشو ببطء وكأنه يفكر في السؤال وقبل أن يرد عليه راح ينقر علي المنضدة ذات السطح الرخامي بأحد الأطباق الصغيرة. ونادي الساقى قائلا :

- احضر لي زجاجة الويسكي الخاصة بي. ثم استدار إلى فيليب وقال :

- إني أحتفظ هنا بزجاجة ويسكي خاصة، فلا يمكنني أن أتخمل دفع خمسين سنتيم كل كأس ملء كستبان أشربه.

وأحضر الساقى الزجاجة ورفعها كرونشو في الضوء ليعرف محتواها.

- لقد شربوا منها.. ونادي الساقى قائلا «من الذي دعا نفسه للشرب من زجاجتي»
- ولكن لا أحد فعل ذلك يا سيد كرونشو.

- لقد وضعت علامة عليها ليلة أمس وانظر إليها الآن.

- سيدي لقد وضعت علامة ؛ نعم ؛ ولكنك ظللت تشرب منها بعد ذلك وبهذه الطريقة سيدي يضيع وقته في وضع العلامات.

كان الساقى شخصا مرحا وكان يعرف كرونشو معرفة حميمة. وحج فيه كرونشو و

- إذا أعطيتني كلمة شرف كرجل نبيل وجنتلمان بأن أحدا لم يشرب من زجاجتي فسأقبل كلامك.

وقد كانت هذه العبارة إذا ترجمت بدقة إلى الفرنسية تبدو غريبة جدا. وعندما سمع السيدة التي تكتب الحسابات لم يسعها إلا أن تضحك بصوت عال وقالت إنه رجل مضحك فعلا.

وقد سمعها كرونشو وهي تقول ذلك فنظر إليها نظرة خجولة - كانت امرأة بدينة وقد في متوسط العمر - وقبل يده باحترام لها. فهزت كتفها. وقال ببطء:

- لا تخش شيئا يا سيدتي فقد تجاوزت السن التي يغريني فيها الثناء والعرفان بالجميل

وصب لنفسه بعض الويسكي والماء واحتسى الكأس ببطء. ومسح فمه بظهر يده ، وقال -إنه يتكلم جيدا جدا.

عرف لوسون وكلاتون أن كرونشو كان يرد علي السؤال الذي وجه إليه عن ميلارميه وكان كرونشو كثيرا ما يذهب إلى اللقاءات التي تعقد في أمسيات الثلاثاء عندما كان الشاعري ميلارميه يستقبل الأدباء والرسامين ويتكلم ببلاغة بارعة عن أي موضوع يثار. ويبدو كرونشو حاضرا أحد هذه الاجتماعات في الفترة الأخيرة.

- لقد تكلم ببراعة غير أنه تكلم كلاما فارغا. تكلم عن الفن وكأنه أهم شيء في العالم وسأل فيليب :

- إذا لم يكن الفن أهم شيء في العالم فلماذا نحن هنا إذن ؟

- لماذا أنت هنا ؟ أنا لا أعرف. وليس هذا من شأني. ولكن الفن نوع من الرفاهية. فالنوع تولى أهمية كبرى فقط للمحافظة على أنفسهم ونوعهم. وفقط عندما تشبع هذه الغريزة يوافقون علي أن يشغلوا أنفسهم بالتسلية التي يوفيقها لهم الكتاب والرسامون والشعراء.

وتوقف كرونشو لحظة كي يحتسي كأسه. لقد راح طيلة عشرين عاما يفكر في مش

الخمير وسواء كان يحبها لأنها تجعله يتكلم، أو ما إذا كان يحب الكلام والسمر لأنهما يجعلان

ظمي للشرب. ثم قال :

- لقد كتبت قصيدة شعر أمس.

وبدون أن يطلب منه أحد أن يقرأها بدأ يقرأها ببطء شديد وهو يساير الإيقاع بإصبعه السبابة. وكانت على الأرجح قصيدة رائعة غير أنه في تلك اللحظة دخلت سيدة شابة كانت شفتاها قرمزيتان، وكان من الواضح أن لون وجهها المفعم بالحيوية لم يكن نتيجة قسوة الطبيعة، فقد صبغت رموشها وحاجبيها بلون أسود وجفونها بلون أزرق قوي استمر بشك مثلت عند زوايا عينيها. كان كل شيء فيها رائع وغريب. واتجهت عينا فيليب ناحيتها تتأملها. وكان كرونشو قد فرغ من قراءة قصيدته فابتسم لفيليب وقال :

- أنت لم تسمع القصيدة.

- أبدا كنت أستمع إليك.

- أنا لا ألومك، لأنك قدمت تصورا مناسباً للكلام الذي قلته أنا. ما هو الفن إذا قيس بجانب الحب. إنني أحترم وأصفق لعدم مبالاةك بالشعر الرقيق عندما يمكنك أن تتأمل تلك البهرجة الساحرة لتلك الفتاة الشابة الصغيرة.

ومرت بجانب مائدتهم فأمسك بذراعها وقال :

- تعالي يا طفلي العزيزة واجلسي إلى جانبي ودعينا نلعب كوميديا الحب الإلهية. وقالت الفتاة :

- دعني وشأني. ودفعته جانبا وواصلت سيرها.

وواصل كلامه وهو يلوح بيده قائلا :

- الفن هو مجرد الملجأ الذي اخترعه أشخاص مبدعون بعد أن زودوا بالغذاء والنفس للهروب من ملل الحياة.

وملاً كرانشو كأسه مرة أخرى وبدأ يسهب في الكلام. تكلم بتلقائية وكان يختار كلمات بدقة. وكان يخلط الحكمة بالكلام الفارغ بطريقة مذهلة وأحيانا يسخر من المستمعين إلى في رزاة وبعد ذلك يقدم إليهم نصيحة بالغة العمق. وتكلم عن الفن والأدب وعن الحب وكان أحيانا تقياً خاشعاً وأحيانا فاسقاً قذراً، مرح أحيانا وكئيب أحيانا أخرى. وبدأ الشعر يبدو عليه بشكل ملحوظ ثم بعد ذلك بدأ يتلو الشعر، شعره هو وشعر ميلتون، شعره هو شعر شيللي، ثم شعره هو وشعر كيت مارلو.

وأخيراً شعر لوسون بأنه مرهق فنهض ليعود إلى منزله. وقال فيليب :

- سأرحل أنا أيضاً.

وبقي كلاتون الذي كان أكثرهم صمتاً ليستمع وعلي شفتيه ابتسامة ساخرة لهذه كرونشو صاحب لوسون فيليب إلى فندقه ثم تمنى له نوما هائناً. ولكن فيليب لم يستطع ينام عندما أوي إلى فراشه. فقد كانت في ذهنه دوامة تلك الأفكار التي استمع إليها. وكان متوتراً إلى حد كبير. وشعر أن لديه في أعماقه قوة كبيرة. فلم يشعر أبداً من قبل لهذه في نفسه. وحدث نفسه قائلاً أنا أعرف أنني سوف أكون فناناً عظيماً. فأنا أشعر بذلك

أعماقي. لقد كان في الواقع ثملاً جداً ولكن بما أنه لم يشرب إلا زجاجة واحدة من الجعة فقد يكون مرجع ذلك الشعر إلى مسكر أكبر قوة من الكحول.



كان الأساتذة يقضون صباح الثلاثاء والجمعة في مدرسة أميترانو ليوجهوا النقد لأعمال الطلبة. والرسام في فرنسا لا يكسب من المال كثيراً إلا إذا رسم لوحات كبيرة وأعانه أحد الأمريكيين الأثرياء. أما مشاهير الفنانين فكان يسرههم أن يقضوا ساعة أو ساعتين مرة كل أسبوع في أحد المراسم المتعددة التي يدرس فيها الفن. وكانسمايكل رولانس يقصد مدرسة أميترانو يوم الثلاثاء. ورولان رجل ذو لحية بيضاء وبشرة متوردة، رسم من قبل كثيراً من الصور للدولة، ولكن هذه الصور كانت موضوعاً للسخرية من جانب الطلبة الذين كانوا يعلمهم، وقد تتلمذ رولان على زانجرس ولم يكن يتأثر بتطور الفن، وكان ثائراً لا يطيق صبرا إلى أعمال من يسمونهم «مانيه» ولكنه كان مدرساً ممتازاً، مهذباً، مشجعاً لغيره، يقدم العون لمن يريد هذا على حين كانسفوانيهس الذي يزور المدرسة أيام الجمعة رجالاً لا تسهل صحبته، ضئيل الجسم ضامراً ذا أسنان قبيحة المنظر وذا مزاج صفراوي، ولحية رمادية شعشاء وعينين وحشيتين، وصوت جهوري فيه رنة ساخرة، وقد اشترى منه متحف اللكسومبورج عدداً من اللوحات، وكان وهو في الخامسة والعشرين من عمره يتطلع إلى مستقبل باهر، ولكن موهبته كانت ترجع إلى شبابه لا إلى شخصيته. وقد ظل عشرين عاماً بعد ذلك لا يفعل شيئاً سوى تكرار صور المناظر الطبيعية التي كانت السبب في نجاحه المبكر، وعندما كانوا يلومونه على هذه الرتابة المملة كان يقول:

- إن كورو قد اقتصر على رسم شيء واحد فلماذا لا أفعل أنا بالمثل ؟

وكان يحسد أي شخص على نجاحه ويكره الفنانين الثائرين كراهية شخصية لأنه يرى أن فشله جاء نتيجة للهوس الذي أصاب الناس بعد أن سحرتهم أعمال هذه الحيوانات القذرة.. وكان الاحتقار الذي يكنه لهم مايكل رولان الذي كان يسميهم المدعين يقابله عنده القذف والسباب الذي كان أخفه أن يصفهم بالتعساء أو الغوغاء. وكان مما يسلى به نفسه أن يفضح حياتهم الخاصة في مزاح ساخر وتفصيل بذيئة ملعونة يهاجم فيها شرعية مولدهم وطهارة الجنسية. ولم يخف احتقاره للطلبة الذين كان يختبر أعمالهم وكان أولئك يكرهونه ويخشونه.

أما النساء منهم فكان غالباً ما تبكيهن سخريته الوحشية. وكان ذلك يثير المزيد من تهكمه. وظل في الرسم غير عابئ باحتجاج الذين كانوا يعانون الأمرين من هجماته عليهم، لأنه لم يكن هناك شك في أن الرجل من أبرز الأساتذة في باريس. وكان النموذج العجوز- في بعض الأحيان - الذي يدير المدرسة يجروء على معارضته ولكن سرعان ما اختفت تلك المعارضات وآلت إلى اعتذارات خسيصة أمام وقاحة الرسام العنيفة.

وكان فوانيه أول من اتصل بهم فيليب من الأساتذة، فقد كان في المرسم عندما وصل إليه فيليب وراح ينتقل من لوحة إلى أخرى وإلى جانبه السيدة أوتر لتشرح ملاحظاته للطلبة الذين لا يفهمون اللغة الفرنسية. وكانت فاني بريس التي تجلس بجانب فيليب تعمل بهمة ونشاط وكانت ذات وجه عابس في عصبية، وكانت تتوقف عن العمل بين آونة وأخرى لتمسح يديها في ثوبها لما كان يبعثه القلق من حرارة فيهما. وقد التفتت فجأة إلى فيليب وحدجته بنظرة قلقة، حاولت أن تخفيها بتقطيب جبينها، وقالت وهي تومئ برأسها إلى رسمها: -أتظنه جيدا؟

فنهض فيليب وتأمل الرسم ودهش أيما دهشة، فقد شعر أن فاني بريس لا بد أن تكون عمياء لا تري، فقد كان ما رسمته مشوها تشويها شديدا. وقال لها: -أتمنى لو استطعت أن أرسم بنصف براعتك.

لا يمكنك أن تتوقع ذلك فقد جئت توا، أما أنا فقد مضى على عامان هنا.. وقد أثارت فاني بريس حيرته، فقد كان غرورها شديدا إلى أبعد حد واكتشف فيليب أن كل من في المرسم كان يبغضها من صميم قلبه ولم يكن في ذلك ما يثير الاستغراب فقد كانت وكأنها تخرج عن السبيل السوي لتنال من شعور الناس وما لبثت أن قالت: -لقد شكوت فوانيه إلى السيدة أوتر لأنه لم يطلع على رسمي طيلة الأسبوعين الماضيين لكنه يقضى نصف ساعة أمام لوحة السيدة أوتر لأنها مديرة المدرسة، وأنا أدفع من الأجر مثل ما يدفع أي شخص آخر وأظن أن نقودي مثل نقودهم، ولا أعلم إذن لماذا لا يوليني من الاهتمام ما يوليهما لأي إنسان غيري.

وتناولت أصبع الفخم مرة أخرى ولكنها ما لبثت أن أعادته وهي تزمجر قائلة: -إني لأستطيع أن أرسم أكثر من ذلك الآن فانا في حالة عصبية مفزعة ونظرت إلى فوانيه الذي كان قادما نحوهم بصحبة السيدة أوتر وكانت السيدة أوتر وديعة متوسط الجسم راضية عن نفسها تتكلف العظمة. وجلس فوانيه أمام لوحة أنسة إنجليزية قصيرة القامة غير مهندمة، تسمى روث تشاليس ذات عينيْن سوداوين جميلتين فيهما فتور ولكنهما مفعمتان بالعاطفة، ووجه رفيع تلوح عليه إمارات الزهو والشهوانية، ولها بشرة كالعاج القديم.. وهو اللون الذي كانت الفتيات يتخذنه لأنفسهن في تشلزي بتأثير بيرن جونز.

وبدا فوانيه في حالة نفسية طيبة فلم يبد لها الكثير من الملاحظات، ولكنه أوضح لها أخطاءها بلمسات سريعة من قلمها. وتألفت الأنسة تشاليس فرحا عندما نهض. ثم اتجه ناحية كلاتون وعندئذ ازداد اضطراب فيليب أيضا ولكن السيدة أوتر وعدته بأن تسهل الأمور عليه، ووقف فوانيه لحظة أمام لوحة كلاتون وراح يقضم إبهامه في هدوء ثم بصم وهو ساهم على اللوحة بقطعة الجلد الصغيرة. وقال أخيرا وهو يشير بإبهامه إلى جزء أعجبه: -هذا الخط جميل.. لقد بدأت الآن تتعلم الرسم.

ولم يجب كلاتون بشيء، ولكنه نظر إلى الأستاذ بطريقته التهكمية المعتادة من عدم المبالاة بأراء العالم ومضى فوانيه يقول:

-لقد بدأت أعتقد أن لديك على الأقل قدرا من موهبة.

أما السيدة أوتر التي لم تكن تميل إلى كلاتون فقد زمت شفيتها لأنها لم تر شيئا غير عادي في رسمه.. وجلس فوانيه وأخذ يشرح تفصيلات فنية. وملت السيدة أوتر الوقوف. ولم يتفوه كلاتون بشيء ما، بل كان يومئ برأسه من آن لآخر.. وشعر فوانيه بالرضا لأن كلاتون قد فهم جميع ملاحظاته وأسبابها. وكان معظم الطلبة ينصتون إليه ولكن الذي لا شك فيه أنهم لم يفهموا شيئا مما يقول.. ثم نهض فوانيه واتجه إلى فيليب، وأسرت السيدة أوتر تقول له: -لقد جاء هنا منذ يومين لا أكثر فهو مبتدئ ولم يسبق له أن درس من قبل. وقال الأستاذ: -هذا واضح وأنا أستطيع أن أرى ذلك..

وهمست إليه السيدة أوتر وهو يمر بين الطلبة:

-وهذه هي الفتاة التي حدثتك عنها.

ونظر إليها فوانيه كأنه ينظر إلى حيوان كرية، وازداد صوته علوا وهو يخاطبها قائلاً: -يبدو أنك تعتقدين أنني لا أوليك العناية الكافية.. فلقد شكوت إلى السيدة أوتر، وهو كذلك، أرني عملك الذي تريد أن أوليه عنايتي.

وامتقع لون فاني بريس وبدا أن الدم الذي كان يجري تحت جلدها السقيم أصبح ذا لون قرمزي غريب، وأشارت دون أن ترد إلى رسمها الذي كانت تعمل فيه منذ بداية الأسبوع، واتخذ فوانيه مجلسه ثم قال لها:

-ماذا تريدني أن أقول لك؟ أتريدني أن أقول لك أن رسمك جميل؟ إنه ليس كذلك أتريدني أن أقول لك إنك أحسنت؟ ليس كذلك.. أتريدني أن أقول أن فيه شيئا من المزايا؟ إنه ليس كذلك.. أتريدني أن أدلك على ما فيه من أخطاء؟ إنه كله خطأ.. أتريدني أن أقول لك ماذا تفعلين به؟ مزقيه من أوله لآخره.. هل أنت راضية الآن؟

وامتقع لون الأنسة بريس أشد الامتقاع. لقد ثارت ثائرتها لأنه قال كل هذا الكلام أمام السيدة أوتر ولم تستطع أن تتفوه بكلمتين مع أنه قد مضى عليها عامان في فرنسا وكانت تفهم الفرنسية.

وقالت الأنسة بريس:

-لا يحق له أن يعاملني هذه المعاملة.. إن نقودي مثل نقود غيري وأنا أدفعها له.. أدفع ليعلمني، وهذا ليس تعليمًا.

وصاح فوانيه قائلاً:

-ماذا تقول؟.. ماذا تقول؟

وترددت السيدة أوتر في ترجمة كلامها إلى الفرنسية. ولكن الأنسة بريس أعادت كلامها في فرنسية ممقوتة.

-إني أدفع لك المال لتعلمني.

وبرقت عيناه يومئذ الغضب الجامح، ورفع عقيرته ثم لوح بقبضته قائلاً:

-ولكني والله لا أستطيع أن أعلمك، وأسهل لي أن أعلم جملاً.

ثم التفت إلى السيدة أوتر وقال:

-سليها هل تفعل ذلك على سبيل التسلية، أم أنها تتوقع أن تكسب منه مالا.

وأجابت الأنسة بريس:

- سأكسب مالا بأن أكون فنانة.

-إذن فإن واجبي يقتضي مني أن أقول لك أنك تضيعين وقتك سدى. وليس المهم

عديمة الموهبة الفنية.. فالمواهب لا تجرى في الشوارع في هذه الأيام ولكنك ليس لك أول

مراحل الاستعداد.. كم من الوقت مضى عليك هنا؟ إن طفلاً في الخامسة من عمره يرسم

منك بعد درسين اثنين. وكل ما أستطيع أن أقوله لك هو أن تقلعي عن هذه المحاولة اليائسة

فمن الخير لك أن تكسبي عيشك من أي سبيل آخر غير الرسم تأملي هذا وأمسك بإصبع

فتحطم عندما ضغط به على الورق فسب ولعن، ثم أخذ قطعة متبقية بين أصابعه وراح يرس

خطوطاً جريئة رائعة، وكان يرسم بسرعة ويتكلم في الوقت نفسه، ويقذف بالكلمات من ف

في غل:

-انظري.. هاتين الذراعين ليستا متساويتين في الطول وهذه الركبة مضحكة ألم أقل

أن طفلاً في الخامسة.. هل رأيت أنها لا تقف على ساقيها وهذه القدم..

وكان القلم الغاضب يرسم خطأ كلما نطق بكلمة، ولم تمض دقيقة واحدة حتى أصبح

اللوحة التي قضيت فيها وقتاً طويلاً وبذلت من العناء الكثير لرسمها، مشوهة الم

ومزيجاً من البقع والخطوط. ثم قذف بإصبع الفحم ونهض واقفاً وهو يقول:

-أقبلني نصيحتي يا أنسة، جربي تفصيل الملابس.. ثم نظر إلي ساعتها وصاح:

-الساعة الآن الثانية عشرة.. إلى اللقاء في الأسبوع القادم أيها السادة.

وجمعت الأنسة بريس أدواتها ببطء، وانتظر فيليب في مؤخرة الخارجين حتى يقول

ما يهون عليها فلم يستطع أن يفكر في شيء إلا أن يقول:

-إني لجد أسف.. ياله من حيوان هذا الرجل.

والتفتت إليه في وحشية قاتلة:

-أهذا ما كنت تنظر حتى تقوله؟ إني سأطلب عطفك عندما أريده.. أرجوك أن تبعد

طريقي..

وتخطته خارجة من صالة الرسم.. وهز فيليب كتفيه وخرج وهو يعرج قاصداً ج

ليتناول الغداء.

وقال لوسون عندما أخبره فيليب بما حدث:

-إنها تستحق ذلك.. تلك القدرة الحادة المزاج.

ولم يجد فيليب العيش في باريس رخيصاً كما أوحى إليه من قبل.. وما أن حل شهر فبراير

حتى كان قد أنفق كل نقوده التي جاء بها معه.. وكان كبرياؤه يمنعه من أن يطلب من عمه

شيئاً.. ولم يشأ أن تعرف زوج عمه لويزا أن أحواله قد تأزمت لأنه كان واثقاً أنها ستحاول أن

تبعث له بشيء من أموالها الخاصة، وكان يعلم أنها لا تملك إلا القليل ولم يتبق سوى ثلاثة

شهور حتى يبلغ الحادية والعشرين من عمره، ثم يحصل بعد ذلك على ميراثه الصغير كله.

وراح يدبر نفقات هذه الفترة بأن يبيع الحلي الصغيرة التي ورثها عن أبيه.

ولما قربت الأشهر الثلاثة على الانتهاء اقترح لوسون عليه أن يستأجر مرسماً صغيراً في

شقة كانت خالية في أحد الشوارع المتفرعة من ميدان راسبيل وكان إيجارها منخفضاً،

وكانت هناك حجرة ملحقة بالرسم يمكن أن تستخدم للنوم وسينتفع لوسون بالمرسم في

فترة الصباح وحده عندما يكون فيليب في المدرسة، وكان لوسون قد رأى بعد أن راح يتنقل

من مدرسة إلى أخرى أن من الخير له أن يعمل بمفرده واقترح أن يأتي بنموذج لمدة ثلاثة

أيام أو أربعة في الأسبوع وتردد فيليب في البداية إزاء هذا الاقتراح لكثرة النفقات ولكنهما

عندما قاما بعملية حسابية وجدا أن المصروفات لن تزيد على التي تتكلفها إقامتهما في أحد

الفنادق. وقد عنيا بحساب النفقات عناية عملية لشدة رغبتهما في أن يكون لهما مرسماً

خاصاً. وحين تبين أن أجر البواب والتنظيف مضافاً إلى الإيجار سيزيد على ذلك قليلاً وجدا

أنهما يستطيعان سد هذا النقص بالاقتصاد في إفطارهما وذلك بأن يعداه بنفسيهما. ولو

حدث ذلك لفيليب منذ عام أو عامين لرفض تماماً أن يشاركه أحد غرفته لأنه كان شديد

الحساسية بالنسبة لقدمه الحنفاء، ولكن نظرته السقيمة إلى هذه المشكلة كانت قد أخذت

تخف إلى حد كبير، وبدا أن هذا الأمر لم يكن يههم كثيراً في باريس، ولم يعد يشعر أن الناس

يعيرونها انتباهاً وإن كان هو نفسه لم ينسها أبداً.

وانتقل إلى المسكن الصغير وابتاعاً سريرين ومغسلة وعدداً من المقاعد وأحسا لأول مرة

بلذة التملك. وقد استشارت هذه الحال شعورهما إلى حد أنهما عندما أويا إلى فراشهما في هذا

المكان الذي كانا يستطيعان أن يسمياه مسكنهما، ظلا مستيقظين يتحدثان حتى الثالثة

صباحاً. ثم وجدا في اليوم التالي أن إيقاد النار وإعداد القهوة التي تناولاها وهما في

منامتيهما كان عملاً مسلياً، فلم يذهب فيليب إلى أميترانو حتى اقتربت الساعة من الحادية

عشرة صباحاً وأوماً وهو في غاية الابتهاج إلى فاني بريس محبياً وقال لها في مرج:

-كيف حالك عمك؟

فأجابته متسائلة:

-وماذا يهكم من ذلك؟

ولم يسع فيليب إلا أن يضحك وقال:

-لا تصدني هكذا.. لقد كنت أحاول أن أحدثك في أدب ولا شيء أكثر من هذا.

-أنا لست في حاجة إلى أدبك.

-أتعتقدين أن الأمر يستحق أن نتشاجري معي.. إن عدد الذين تستطيعين أن تتحدثي إليهم حديث مودة قليلون جدا.
-إن هذا من شأني.. أليس كذلك.
-بكل تأكيد.

وبدا فيليب يعمل وهو يعجب لماذا تعمل فاني بريس على أن يبغضها من في الرسم. وأدرك أخيرا أنه لا يحبها على الإطلاق مثله في ذلك كممثل سائر كل الناس.. فلم يكن أحد يظهر لها الأدب إلا لخوفه من سلاطة لسانها ، فقد كانت تذكرهم بكل مكروه من أمامهم ومن خلفهم، ولكنه كان يحس بالسعادة إلى حد لم يشأ معه أن تحقق عليه الأنسة بريس نفسها ، واتباع معها الحيلة التي أجدت من قبل في إزالة غضبها. فقال لها:

-تأتين لتلقى نظرة على ما رسمت.. لقد خلطت فيه خلطا فظيعا..
-أشكرك كثيرا.. ولكن لدى ما هو أفضل من ذلك لقضاء وقتي وحملق فيليب فيها مندهشا، لأن الشيء الوحيد الذي كان يمكنها أن تفعله هو أن تنصح الآخرين. وراحت تقول في عجلة في صوت خفيض فيه وحشية:
-الآن وقد ذهب لوسون، أعتقد أنك ستلجأ إلى.. أشكرك جدا. اذهب وابحث عن شخص آخر ليساعدك، فإني لا أريد بقايا أي إنسان آخر.

وكان لوسون يتصف بتلك الغريزة التعليمية، فكان إذا عرف شيئا تاق لأن يقوله للناس إن كان يشعر بلذة حين يعلم الآخرين.

واعتماد فيليب أن يجلس إلى جانبه دون أن يفكر في هذا الأمر ولم يخطر بباله قط أن فاني بريس تأكل قلبها الغيرة منه. وكانت تنظر إلى قبوله تعليم شخص آخر غيرها في غضب شديد وقالت له مرة في حقد شديد:

- كان يسرك أن تلجأ إلى في الوقت الذي لم تكن تعرف فيه أحدا هنا، ولكنك لم تكذبصادق إنسانا ما هنا حتى ألقيت بي بعيدا كأني قفاز قديم. (وأعادت هذا التشبيه القديم البالي وهي مغتبطة بقولها وكأني قفاز قديم) وهو كذلك فأنا لن أهتم بهذا، ولكني لن أسمع لأحد أن يهزأ بي بعد ذلك.

وبدا من حديثها شبح للحقيقة أثار غضب فيليب فنطق بأول كلمات تبادرت إلى ذهنه:
-ويل لك ، أنا لم أسألك النصح إلا لأني رأيت أن هذا الأمر يسرك.

وشهقت فاني بريس شهقة ثم رمته بنظرة غضب وانسابت دمعتان على وجنتها.. بدت شعئا تبعث على السخرية. وعاد فيليب إلى رسمه وهو لا يفهم معنى هذا التصرف الجديد من جانبها ولم يكن مرتاح البال حينئذ وأحس بوخز ضميره ولكنه لم يشأ أن يذهب ويعتذر إليها إذا كان قد سبب لها شيئا من الألم لأنه خشي أن تنتهز هذه الفرصة وتؤنبه وبعد أن تغلب على هذا القلق الذي سببه انتظار تأنيبها إياه شعر بالارتياح لتخلصه من تلك الصداقة المضنية. لقد استاء فيليب قليلا من جو السيطرة الذي كانت تفرضه عليه.

فقد كانت فاني بريس امرأة غريبة ليست ككل النساء. كانت تصل إلى الرسم في الثامنة من صباح كل يوم ، وتستعد لبدء العمل حين تتخذ النموذج المرأة وضعها ثم تعمل عملا متواصلا دون أن تتحدث إلى أحد، تكافح ساعة بعد أخرى مشكلات لم تكن لتستطيع التغلب عليها وتظل هكذا حتى تدق الساعة الثانية عشرة، وكان رسمها لا أمل فيه فلم يطرأ عليه أي تقدم ولم تصل فيه إلى الدرجة المتوسطة التي يستطيع أن يصل إليها أي إنسان بعد بضعة أشهر من التحاقه بالمدرسة.. وكانت ترتدى كل يوم الرداء القبيح البني اللون الذي ظلت آثار وحل باقية على حاشيته من يوم ممطر، وعليها الرثاءة نفسها التي لاحظها فيليب منذ رآها لأول مرة.. كما هي لم تتغير!

ولكنها جاءت إليه في أحد الأيام وسألته وقد علا وجهها الاحمرار:

-هل تستطيع أن تكلمني فيما بعد؟

فابتسم فيليب وقال:

-بالتبع كما تشائين، سأنتظرك خلف المدرسة في الساعة الثانية عشرة.

وذهب إليها بعد أن انقضى الصباح. فقالت وهي تنظر بعيدا في شيء من الارتباك:

-ألا تسير معي قليلا..؟

-بالتأكيد.

وسارا دقيقة أو دقيقتين في صمت ثم سألته فجأة:

-أتذكر ما قلته لي في ذلك اليوم..؟

فأجاب فيليب:

-لقد قلت أننا لا نريد أن نتشاجر، فإن الأمر لا يستحق الشجار.

وهنا تنهدت بسرعة في ألم وقالت:

-أنا لا أريد أن أتشاجر معك لأنك الصديق الوحيد الذي لي في باريس. ولقد ظننت أنك تميل إلى قليلا، وشعرت أن هناك شيئا بيننا، فاتجهت إليك ، وأنت تعرف ما أعنيه. قدمك المشوهة.

واحمر وجه فيليب وحاول بطريقة غريزية أن يسير دون أن يعرج. ذلك أنه لم يكن يحب أن يشير أحد بشيء إلى عاهته ، وأدرك ما تعنيه فاني بريس.. إنها تعني أنها قبيحة وأنه مشوه القدم، وأن بينهما من أجل ذلك شعورا مشتركا من نوع ما. وغضب منها أشد الغضب ولكنه أرغم نفسه على الصمت ومضت تقول:

-لقد قلت أنك لم تكن تطلب نصيحتي إلا لترضييني. ألا ترى أن عملي لا أمل فيه؟

-إني لم أر رسمك إلا في أميترانو ومن الصعب أن أصدر حكمي بناء على هذا وحده.

-ترى أتأتي لتلقي نظرة على رسومي الأخرى. إني لم أطلب مثل هذا من أي شخص آخر، وأحب أن أريك إياها.

-إن هذا لكرم عظيم منك.. فإني في شوق لرؤيتها.

وقالت في استعطاف:

- إني أسكن بالقرب من هنا.. لن تتطلب منا المسافة إلا عشر دقائق.

فقال:

- لا بأس..

وسارا في الميدان، ثم دلفت به إلى شارع جانبي، وقادته إلى شارع آخر أفقر من الأول، على جانبيه حوانيت فقيرة، ووقفت أخيرا وراحا يصعدان الدرج.. طابقا بعد طابق وفتحت أحد الأبواب ودخلا حجرة صغيرة ذات سقف منحدر، ونافاذة صغيرة، وكانت النافذة مغلقة ففاحت من الحجرة رائحة خائفة، ولم تكن هناك مدفأة بالرغم من برودة الجو ولم يكن هناك أثر لنار، وكان الفراش غير مرتب، أما الأثاث فكان عبارة عن مقعد ومنضدة للزينة بها أدراج وتستخدم كمغسل، وحاملا رخيصا للرسم، وكان من شأن المكان في حد ذاته أن يبدو قذرا، ولكن ما فيه من الفوضى وانعدام الذوق قد جعله مكانا تعافه النفس، وعلى رف المدفأة التي تناثر عليها الألوان والفرش، استقر كاس وطبق قذر ووعاء للشاي. وقالت:

- إذا وقفت هناك فسأضع هذه على المقعد حتى تراها أوضح من ذلك.

وأطلعته على عشرين لوحة صغيرة، طولها عشرون بوصة وعرضها اثنتا عشرة بوصة ووضعتها على المقعد الواحدة بعد الأخرى، وراحت ترقب وجهه، وهو يومئ كلما رأى إحداها، وبعد قليل سألته في قلق:

- لقد أعجبت بها بلا شك.. أليس كذلك؟

- إني أريد أن أراها جميعا أولا ثم أبدي رأيي بعد ذلك؟

وكان فيليب يجمع شتات نفسه، فقد انتابه الفزع ولم يعرف ماذا يقول. فلم تكن هذه الصور قد رسمت رسما رديئا فحسب، أو أن الذي وضع ألوانها كان هاويا مبتدئا ليس له دراية بها، بل إنها لم تبذل فيها أي محاولة لتحديد النسب، وكانت الأبعاد تبعث على السخرية فبدت كرسم طفل في الخامسة، ولكن الطفل كان على الأقل يتسم بشيء من السذاجة وكان يرسم ما يراه ولكن رسمها كان عبارة عن إنتاج عقلي ضعيف امتلا بذكريات من الصور الدينية، وتذكر فيليب أنها كانت تتكلم بحماسة عن «موني» والتأثيريين، ولكن هذا الرسم كان أسوأ رسم رآه. وقالت أخيرا بعد أن أطلعته على كل اللوحات:

- هذا هو كل ما لدي.

ولم يكن فيليب أكثر صراحة من أي شخص آخر ولكنه كان يجد صعوبة في أن يكذب كذبا صريحا متعمدا واحمر وجهه بشدة عندما أجاب:

- أعتقد أنها في غاية الروعة.

وتلون وجنتاهما السقيمتان بحمرة طفيفة، وابتسمت ابتسامة صغيرة، وقالت:

- إني أريد الحقيقة فلا داعي لأن تقول هذا إذا كنت لا تشعر به.

- ولكنني أرى ذلك بالفعل.

- أليس لك نقد ما، فلا بد أن بعضها لم يحز إعجابك.

وتلفت فيليب حوله يائسا و رأى لوحة لمنظر طبيعي تعتبر مثالا لصور الهواة من الرسامين، كصورة قنطرة قديمة، وكوخ قديم غطته النباتات المتسلقة، وجسر غطته أوراق الشجر، فقال:

- لن أدعى بطبيعة الحال أنني أعرف عنها كل شيء. ولكنني لست متأكدا من نسب هذه اللوحة.

واحمرت وجنتاهما، واختلطت منه اللوحة وأدارتها بحيث أصبح ظهرها تجاهه وقالت:

- لا أدري لماذا اخترت هذه الصورة لتعزأ بها. إنها أحسن صورة رسمتها، وإنى لوائقة من أن نسبى سليمة، وهذا شيء لا أستطيع أن ألقنه لأحد، فإما أن تعرف النسب أو لاتعرفها. وأعاد فيليب قوله:

- إني أعتقد أنها كلها في غاية الروعة.

وتأملت فاني بريس الصور في رضاء بالغ وقالت:

- إني لا أعتقد أنها مما يخجل منه الإنسان.

ونظر فيليب إلى ساعته وقال:

- إن الوقت متأخر، فهل تسمحين لي أن أقدم لك غداء خفيفا؟

- إن غداثي ينتظرني هنا.

ولم ير فيليب أثرا لهذا الغداء، ولربما كان البواب سيحضره بعد أن يغادرها. وكان في عجلة من أمره وقد سببت له قذارة الحجرة صداعا.

في شهر مارس بدأت حمى إرسال الصور إلى قاعة العرض، ولم يكن لدى كلاتون شيء معد بعد، وقد سخر من صورتى الرأسين اللتين بعث بهما لوسون لأنهما تبدوان من عمل طالب مبتدئ لا أكثر، فهما صورتان لنموذجين ولم يكن فيهما شيء من القوة. ولم يكن كلاتون يطيق صبرا على أى مجهود يتسم بالتردد لأنه كان يهدف دائما إلى الكمال، وقال للوسون وهو يهز كتفيه أن من الوقاحة أن يعرض لوحات كان يجب ألا تخرج من مرسومه.

ولم يخفف كلاتون من احتقاره للصورتين عندما قبلتا في المعرض، وقد جرب فلانجان حظه كذلك، ولكن لوحته رفضت. أما السيدة أوتر فقد أرسلت لوحة لا بأس بها وهى صورة لاميس لوحة مهذبة من الدرجة الثانية وقد وضعت في مكان بارز.

وجاء هايوارد الذى لم يره فيليب منذ أن ترك هايدلبرج، لقضاء أيام قلائل في باريس في وقت مناسب لحضور الحفل الذى أقامه لوسون وفيليب في مرسومهما احتفالا بقبول لوحات لوسون في المعرض. وكان فيليب قد تاق لرؤية هايوارد مرة أخرى.

ولكنهما عندما تقابلا أخيرا شعر فيليب بقليل من خيبة الأمل. لقد تغير هايوارد قليلا في مظهره، فقد خف شعره الجميل، واختفى لونه بسبب الذبول السريع الذى أصابه، واصفر لون

عينيه الأزرق عما كان من قبل وكسا ملامحه غشاء من الوجوم. غير أن تفكيره لم يطرأ عليه تغيير على الإطلاق .

وبعثت الثقافة التي أثارت إعجاب فيليب وهو في الثامنة عشرة فيه شيئاً من الاشمئزاز عندما أصبح في سن الحادية والعشرين. وكان فيليب نفسه قد تغير كثيراً وبدأ ينظر إلى آرائه القديمة في الفن والحياة والأدب باحتقار ولم يعد يطيق صبراً على أحد يعتقد هذه الآراء.

وقلما كان فيليب يدرك أنه يريد أن يتفاخر على هايوارد، ولكنه عندما اصطحبه حول القاعة الكبرى، كشف له عن كل الآراء الجديدة التي اعتنقها أخيراً، وصحبه إلى صورة أولمبيا التي رسمها «مانية». وقال له بطريقة مسرحية:

«إني على استعداد لأن أتخلى عن جميع أساتذة الفن القدامى عدا فيلا سكويرز ورمبرانت وفيرمير في مقابل هذه اللوحة الفريدة .

وسأله هايوارد:

«ومن هو فيرمير؟

«آه يا صديقي العزيز، ألا تعرف فيرمير إنك لست متحضراً، يجب ألا تعيش دقيقة أخرى إلا إذا عرفته. إنه الأستاذ الوحيد من القدماء الذي كان يرسم مثل المحدثين.

وصحب هايوارد من معرض اللوكسمبورج وأسرع به إلى اللوفر وقبل مغادرتهم اللوكسمبرج سأله هايوارد في شوق السائح الذي يرغب في المزيد من المعرفة:

«ألا توجد لوحات أخرى هنا؟

«ليس هنا لوحات ذات شأن على الإطلاق، وفي وسعك أن تأتي بعد ذلك لترأها بنفسك مستعينا بدليل. وعندما وصلا إلى اللوفر اصطحب فيليب صديقه إلى القاعة الكبرى ، وقال هايوارد:

«أريد أن أرى الجيوكاندا.

وأجاب فيليب :

«يا عزيزي.. أن هذه في الأدب فقط.

وأخيراً وفي حجرة صغيرة وقف فيليب أمام لوحة صانع رباط الأحذية للفنان فيرمير فان ديلت.

وقال:

«هاك.. هذه أحسن صورة في متحف اللوفر.. إنها تشبه بالضبط أعمال زمانيهس. وأشار فيليب بإبهامه إلى اللوحة إشارات العارف الفصيح وأسهب في شرح هذا العمل الساحر وتكلم في لغة أهل الفن في تأثير خلاب وقال هايوارد:

«إني لا أشعر أنني أرى فيها هذه الروائع.

ورد فيليب قائلاً:

«بالطبع.. إنها لوحة فنان.. وإني لا أعتقد أن الرجل العادي سيرى فيها أى جمال.

«من؟

«الرجل العادي.

وكان هايوارد شديد الشوق لأن يكون على صواب فيما يبدي من آراء شأن معظم الذين يحبون أن يغرسوا في نفوسهم الاهتمام بالفن فكان يفرض آراءه على الذين يجرون على تأكيد آراءهم، ولكنه كان يبدو متواضعاً مع الواثقين من أنفسهم. وقد تأثر هايوارد من تأكيد فيليب لآرائه وقبل في وداعة ما قاله فيليب من أن ادعاء الفنان المتعجرف أنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يحكم على الفن، ليس له ما يؤكده غير وقاحته.

وبعد يوم أو يومين، أقام فيليب و لوسون حفلهما. وعرضت الأنسة تشاليس أن تطهو لهما الطعام، ولم تكن تميل إلى بنات جنسها فعارضت في دعوة فتيات أخريات لكي يحضرن الحفل تكريماً لها. وتكون الحفل من كلاتون وفلاناجان وبوتر واثنين آخرين. وكان الأثاث قليلاً ولذلك استخدموا المنصة التي تجلس عليها النموذج كمائدة. وسمح للضيوف أن يجلسوا على حقائبهم إذا استسأغوا ذلك وإلا فليجلسوا على الأرض. وسوت الأنسة تشاليس اللحم على النار في ركن من الحجرة.. فخذاً من لحم الضأن المحمر، وأحضرتة ساخناً لذيق الطعم. وكانت من قبل قد سوت كذلك البطاطس. وامتلاً المرسم برائحة الجزر الذي حمزته (فقد كان الجزر المحمر هو أهم ما تمتاز به) وتبع ذلك الكمثرى التي مزجت بالخمير ووضعت على النار فانبعثت منها رائحة الخمر المحترق، و تنتهي الأكلة بالجبن الفاخر الذي وضع طبق منه بالقرب من النافذة. وأضاف رائحة جديدة إلى الروائح الأخرى التي ملأ عبيرها المرسم.

وارتدى هايوارد ستره من القماش الإنجليزي ووضع حول عنقه ربطة من ربطات مدرسة زترينتيس وذلك حتى يترك للحاضرين كامل حريتهم فيما يلبسون وبدا حينئذ إنجليزيا باعثاً على السخرية وتصرف الآخرون نحوه في أدب جم. وأخذوا أثناء تناولهم الحساء يتحدثون عن الجو والموقف السياسي وجاءت فترة راحة قبل أن تقدم إليهم فخذ الضأن. أشعلت الأنسة تشاليس في خلالها لفافة من التبغ وقالت فجأة:

«رابونزيل.. رابونزيل.. أسدلي شعرك.

وفي حركة رشيقة فكت شريطاً فسقطت خصلاتها على كتفها ثم هزت رأسها قائلة:

«إني أشعر دائماً بمزيد من الراحة عندما أسدل شعري .

وبدت وكأنها شخصية خرجت من لوحات بيرن جونز بعينها العسليتين الواسعتين، ووجهها النحيل ، وجلدها شاحب اللون وجبهتها العريضة. وكانت لها يدان جميلتان طويلتان وأصابع اكسبها دخان التبغ لونا بنياً قوياً . وارتدت ثوباً جرجاراً ذا لونين اخضر وبنى فاتح وقد أشاعت من حولها ذلك الجو الشعري الذي تشع به في شارع هاى بكنسنجتون ،

وكانت تسرف في تقديرها لحاسة الجمال، ولكنها كانت فتاة ممتازة عطوفا كريمة الطبع، ولم يكن ما تظهره من تكلف يتعدى الظاهر. وسمع طرق على الباب فهلل الجميع في فرح، ونهضت الأنسة تشاليس وفتحت الباب وتناولت فخذ الضان وحملت فوق رأسها كأنها يوحنا المعدان على طبق وسارت في جد ووقار بخطوات كهنوتية ولفافة التبغ بين شفثتها. والتهم الجميع فخذ الضان في تلذذ وكانت رؤية السيدة ذات الوجه الشاحب وهي تأكل في شهية ما يبعث على الاغتباط وجلس إلى جانبيها كلاتون وبوتر. وكان كل الحاضرين يعرفون انهما لم يجدوا أنها شديدة الحياء لقد كانت تسأم معظم الناس بعد معرفتهم بستة أسابيع، ولكنها كانت تعرف تماما كيف تعامل بعد ذلك السادة الذين يلقون بقلوبهم الصغيرة تحت قدميها، فلم تكن تحمل لهم ضغينة وإن كانت بعد أن تحبهم تكف عن حبهم. وكانت تعاملهم معاملة الصديق ولكن في غير ألفة. وكانت بين الحين والحين تنظر إلى لوسون نظرة حزينة مكتئبة. وأحرزت الكمثرى المشوية على النار نجاحا ساحقا. ويرجع ذلك إلى الخمر من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى الأنسة تشاليس التي أصرت على أن تؤكل هذه مع الجبن. وقالت بعد أن تذوقت المزيج جيدا.

-لست أدري هل هو لذيق للغاية أو أنى أوشك أن أتقيا؟

وتلت ذلك القهوة والخمر في عجل حتى لا تحدث أية عواقب مكررة.

وجلس الجميع يدخنون في ارتياح. أما روث تشاليس التي لم تكن تفعل شيئا إلا في ذوق فني رصين، فقد اتخذت لنفسها وضعا رشيقا وسرحت بنظرة ساهمة في هوة الزمان المظلمة.. وراحت من حين لآخر تنظر إلى لوسون نظرة حاملة ثم تتنهد في عمق.

واتخذ فيليب لنفسه في ذلك الوقت صديقا جديدا، وتفصيل ذلك أن النماذج اجتمعوا في يوم الاثنين في المدرسة لكي يختار أحدهم للأسبوع التالي.. ووقع الاختيار في أحد الأيام على أحد الشبان ليكون النموذج، وبدا على هذا الشاب في وضوح أن هذه لم تكن مهنته. واسترعى انتباه فيليب الطريقة التي شد بها قامته، فعندما صعد على المنصة وقف في ثبات على كلتا قدميه وواجه الطلبة وقد ضم قبضتيه وألقى برأسه في تحد إلى

الأمم، وقد أبرزت وقفته جمال جسمه الذي خلا من الشحم فبرزت عضلاته وكأنها قدت من حديد. وكان رأسه الذي قص شعره جميل الشكل، وكان ذا لحية قصيرة وعينان سوداوين واسعتين، وحاجبين كثيفين. واستمر في وقفته ساعة تلو الأخرى دون أن يبدو عليه أى إرهاق، وقد لاح على وجهه مزيج من الخجل والإصرار.

وحرك هذا الجو الذي أثاره حوله من النشاط خيال فيليب الجامع، وعندما انتهت الجلسة ورآه مرتديا ثيابه خيل إليه انه أمير في خرق بالية. ولم يكن الرجل كثير التحدث إلى غيره. ولكن حدث بعد يوم أو اثنين أن أبلغت السيدة أوتر فيليب أن النموذج الجديد أسباني وأنه لم يعمل نموذجا أبدا قبل ذلك وقال لها فيليب:

-أظن انه يوشك أن يموت جوعا.

. هل لاحظت ملابسه؟ أنها أنيقة محترمة.. ألا ترى ذلك؟

وتصادف أن كان بوتر وهو أحد الأمريكيين الذين يدرسون في اميترانو مسافرا إلى إيطاليا ليقضى فيها شهرين، فعرض مرسومه على فيليب ليعمل فيه، فاغتبط فيليب لأنه كان قد سئم كثيرا نصائح لوسون التي كان يفرضها عليه فرضا أراد أن يقيم بمفرده. وجاء في نهاية الأسبوع إلى الإسباني وادعى انه لم يتم رسمه وسأله هل يستطيع أن يزوره يوما واحدا فأجابه الأسباني:

-إني لست نموذجا ولدى أعمال أخرى في الأسبوع القادم.

وقال له فيليب:

. تعال وتناول الغذاء معي الآن وستناول الحديث في هذا الشأن. وعندما بدا تردد الآخر

قال فيليب مبتسما:

. أن تناول الغذاء معي لن يضيرك في شيء على أية حال. وأبدى الرجل موافقته مصحوبة بهزة كتفيه.. وقصدا إلى أحد محال الألبان وكان الأسباني يتكلم الفرنسية ركيكة في طلاقة ولكن بطريقة يصعب على الإنسان فهمها. ولكن فيليب استطاع أن يتفاهم معه إلى حد ما وعرف منه انه أديب جاء إلى باريس ليكتب القصص وانه يعيش بالطرق التي يتبعها المفلسون، فهو يعطي الدروس الخاصة ويترجم كل ما يصل إلى يديه وعلى الأخص الوثائق الخاصة بالأعمال، واضطر في النهاية أن يكسب المال عن طريق جسده الجميل. وكان عمل النموذج بأجر لا بأس به. وقد اكتسب في الأسبوع الماضي ما يفي بحاجته أسبوعين آخرين، ولكن فيليب دهش عندما أبلغه انه يستطيع أن يعيش في يسر بفرنكين في اليوم، وانه يشعر بالخلج إذ يضطر إلى عرض جسده في سبيل تكسب المال، وأنه يرى أن في الجلوس أمام المصورين خسة لا يبرها ألا الجوع. وأوضح له فيليب انه لا يريد أن يجلس ليرسم جسده بل لكي يرسم رأسه فقط لأنه يريد أن يرسم صورة يستطيع بعد ذلك أن يبعث بها إلى المعرض القادم. وسأله الأسباني:

ولكن لم تريد أن ترسمني أنا؟

وقال له فيليب أن رأسه قد أثار اهتمامه فأعتقد انه يستطيع أن يرسمه في صورة جميلة.

ورد عليه الأسباني قائلا:

. ليس لدى الوقت الكافي لذلك.. إني أبخل بكل دقيقة أختلسها من وقتي المخصص للكتابة.

ورحب فيليب - وهو صاحب النزعة الشعرية العاطفية - بفرصة تمكنه على تردد الرجل.

وقال الأسباني أخيرا

- سأحدثك بما أنوى أن أفعله، فسأجلس لك كي ترسمني ولكني لن أتناول منك أجرا. بل سأفعل ذلك من قبيل التسلية لا غير.

البواب من هذا العرض وكان من قبل عابسا لا يريد الإصغاء إلى فيليب ورفض أن يتحمل مسؤولية فتح الباب عنوة وقال انه يجب الاستعانة بضابط الشرطة .

وسارا معا حتى مكتب الشرطة ثم بحثا عن صانع أقفال وتبين لفيليب في تلك الأثناء أن الأنسة بريس لم تؤد إيجار المنزل عن الأسبوع الماضي ، ولم تمنح البواب الهدية التي أصبح بحكم العادة القديمة يعتقد أنها حق له في رأس السنة . وصعدا أربعتهم إلى الطابق الذي تقطن فيه وطرقوا الباب مرة أخرى . ولكن أحد لم يجب . وبدأ صانع الأقفال عمله . حتى دخلوا الحجرة آخر الأمر ، وأفلتت من فيليب صيحة فزع وستر عينيه بيديه فقد كانت المرأة التعسة تتدلى من حبل في السقف التف حول عنقهما ، ثبتته في خطاف كان قد وضعه هناك أحد السكان السابقين لستائر الفراش وقد أزاحت سريرها الصغير قليلا بنفسها ووقفت على مقعد ثم ركلته بعيدا فسقط على الأرض على جانبه.. وكان جسدها شديد البرودة .

ولم يستطع فيليب أن يبعد هذا الحادث المشنوم عن فكره ، وكان مما بعث الاضطراب إلى نفسه العبء الذي تحمّلته فإني بريس . ذلك أن أحدا لم يكن يستطيع أن يبذل من الجهود أكثر مما بذلت هي ، ولا أن يبذله بأكثر منها إخلاصا ، فقد كانت تؤمن بنفسها إيمانا أثبتت من كل قلبها ولكن كان من الواضح أن هذه الثقة بالنفس لم تكن تجدى فتيلا فكل أصحابه يثقون بأنفسهم ومن بينهم ميجل أجوريا ، وقد ذهل فيليب عندما قارن بين محاولات الأسباني الباسلة وبين تفاهة إنتاجه .

لقد خلقت الحياة التعسة التي قاساها فيليب في المدرسة في نفسه قوة لتحليل الذات ، واستولت عليه هذه الرذيلة التي تشبه تعاطى المخدرات حتى أصبح لديه حذق عجيب في تحليل مشاعره ، ولم يكن يسعه إلا أن يحس أن الفن يحدث فيه أثرا كبيرا . لقد كانت اللوحة الجميلة تحدث هزة عاجلة في نفس لوسون ، فقد كان تقديره للفن غريزيا فيه . وحتى فلاناجان نفسه كان يحس بأشياء يضطر فيليب إلى التفكير فيها قبل أن يدركها . وذلك أن تقديره للفن كان ينبعث من عقله ولم يكن يسعه إلا أن يعتقد أنه لو كان له المزاج الفني (لقد كان يمقت هذه العبارة ، ولكنه لم يجد عبارة غيرها يعبر بها عن هذا المعنى) لاستساغ الجمال بالطريقة العاطفية الخالية من المنطق ، كما يفعل الآخرون ، وراح يتساءل ترى هل له أكثر من مهارة يدوية سطحية تعنيه على نقل الأشياء في دقة ، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا شيء لا يستحق الذكر .. لقد تعلم أن يحتقر كل مهارة فنية إذا كان أهم ما في الأمر هو أن يشعر عن طريق الرسم . لقد كان يرسم بعقله فأحس بروحة قاحلة جدياء ، وأدرك حينئذ أن الرسم إذا كان ذا قيمة فإنما ينبعث من القلب .

ولم يكن لديه إلا القليل من المال الذي لا يكاد يبلغ ألفا وستمائة من الجنيهات ، فأصبح لا بد له أن يراعى أشد الاقتصاد وهو لا يستطيع الاعتماد على أنه سيكسب شيئا طيلة السنوات العشر القادمة . وتاريخ الفن حافل بالفنانين الذين لم يكسبوا شيئا على الإطلاق . فعليه إذن أن يوطن نفسه على الفاقة ، وخليق به أن يقوم بعمل يخلد اسمه ، ولكنه كان يخشى أشد

وأخذ فيليب يجادله محاولا إقناعه ولكن الأسباني ظل مصرا على رأيه ثم اتفقا أخيرا على أن يوافيه يوم الاثنين المقبل في الساعة الواحدة أعطى فيليب التي كتب عليها اسمه «ميجر أجوريا» وجاء الأسباني في أحد الأيام ومعه بعض ما كتب . وراح يترجم وهو مهتاج إلى اللغة الفرنسية الركيكة عن فقرات يقرأها بلغته وهو يتقدم نحو فيليب أن يفهما . وراح فيليب يتأمل في حيرة الصورة التي كان يرسمها . لقد كان العقل القابع خلف هذه الجبهة العريضة من أتفه العقول . ولم تكن العينان البراقتان المتعلقتان تريدان من الحياة شيئا سوى الجلي الواضح فيها . ولم يشعر فيليب بالرضاء عن لوحته . وكان في نهاية الجلسة يحس ما رسمه تقريبا ، على الدوام وذلك أن بأس على الإنسان من أن يهدف إلى ما تبتغيه النفس ولكن هيهات أن يعرف أحد ذلك يبدو الناس وكأنهم كتله من المتناقضات ؟ .. لقد شعر فيليب بالميل نحو ميجل ولكن كان مما ساءه أن وجد صراع ميجل صراع يائس عديم الجدوى . أوتى كل ما يجعل منه كاتباً ممتازاً عدا موهبة الكتابة . وتأمل فيليب رسمه ، ولكنه لم هل كان فيه شيء من الفن أو أنه ليس ألا مضيعة للوقت ؟ لقد كان من البين أن الإرادة تعيبك على إنجاز ما تشاء وأن الثقة بمواهبها أشد الإيمان وكانت قوة إرادتها غير عادية وحدث نفسه قائلاً :

«إذا كنت أعتقد أنني لن أصبح فناناً ناجحاً فمن الخير لي أن أقلع عن الرسم فليس فائدة في أن أصبح رسامة من الدرجة الثانية.

وحدث صبيحة أحد الأيام أن أبلغه بواب المنزل وهو يهم بالخروج أن له رسالة . ولم أحد يكتب إليه سوى العمة لويزا وهايوارد في بعض الأحيان ولكن عنوان الرسالة كان يعرف صاحبه وكان نص الخطاب : «أرجوك أن تسرع فور تسلمك هذا الخطاب . إني لا أستطيع أن أتحمل المزيد مما أنا فيه . أرجو أن تأتي بنفسك فإني لا أحتمل التفكير في أن شخصاً سيمسني . فإني أريدك أن تنال كل شيء . إني لم أتناول شيئاً من الطعام منذ ثلاثة أيام» . «فإني بريس» .

وشعر فيليب فجأة بالسقم يغشاه من شدة الفزع ، فهرع إلى المنزل الذي تقطن فيه فإني بريس وقد أدهشه وجودها في باريس على الإطلاق ، ذلك انه لم يرها منذ شهور . وظن أنه عادت إلى إنجلترا منذ وقت طويل وعندما وصل سأل البواب هل هي بالمنزل . فأجابه البواب قائلاً :

«نعم .. فإني لم أرها تخرج منذ يومين أسرع فيليب إلى الطابق العلوي وطرق الباب ولكنه لم يتلق رداً ما وناداه باسمها . وكما الباب موصداً وعندما انحنى وجد المفتاح في القفل وقال في صوت مرتفع :

« .. يا إلهي .. أرجو ألا تكون قد أتت أمراً إذا .

وجرى إلى الطابق الأسفل وقال للبواب أنها بلا شك في الحجرة وأنه قد وصلته رسالة ويخشى أن يكون قد وقع لها حادث مروع ، واقترح أن يفتح الباب عنوه ، وارتد

وكان صوت فيليب يرتجف بعض الارتجاف ، واستمر فونيه سائرا في طريقه دون أن يقيم رأسه وكان فيليب يرقب وجهه فلم يلاحظ عليه أثر لأي تعبير وقال فونيه :

- إني لا أفهم ماذا تقول.
- إني فقير للغاية .. فإذا لم تكن لدى الموهبة فعلي أن أعجل وأنتقل إلى عمل آخر .
- ألا تعرف إذا كانت لديك الموهبة أم لا ؟
- إن كل أصدقائي يعرفون أن لديهم الموهبة ، ولكني أعلم أن بعضهم ليس على صواب. وهنا ارتسم على فم فونيه الميرير شبح ابتسامة وسأله :
- أتقطن بالقرب من هنا ؟
- وأخبره فيليب بموقع مرسومه ، فاستدار إليه فونيه وقال :
- هيا بنا إلى هناك ، فستريني أعمالك .
- وصاح فيليب :
- الآن ؟
- ولم لا ؟

ولم يستطع فيليب أن يتفوه بكلمة ، فسار صامتا إلى جانب الأستاذ ، وأحس حينئذ بأن شعورا فظيعا من السقم قد غشيه ، ذلك أنه لم يخطر بباله أبدا أن فونيه في تلك اللحظة بالذات سيطلب إليه أن يطلعه على لوحاته في مرسومه . واستبد به القلق فأخذ جسمه ينتفض . وكل ما كان يقصده أن يطلب إليه أن يسمح بزيارته في موعد قادم أو يأتي بصورة إلى مرسوم فونيه ، وذلك لكي يجد متسعا من الوقت يستعد فيه لهذا الفحص . وكان فيليب يرتعد من شدة القلق . وكان يتمنى من أعماق قلبه لو أن فونيه نظر إلى لوحاته ، ثم ارتسمت على أساريه تلك الابتسامة النادرة ثم سلم على فيليب بيده وقال له :

- لا بأس .. استمر يا بني .. إن لديك الموهبة الحق .
- وامتلا قلب فيليب بالبهجة أزياء هذا خاطر فيا لها من نشوة ويا له من ارتياح !
- سيواصل بعد ذلك عمله في شجاعة ، وماذا يعنى الحرمان والمشاق وخيبة الأمل عندئذ مادام سيصل في النهاية إلى بغيته .

لقد أجهد نفسه في العمل ومن القسوة أن يؤول كل هذا إلى لا شيء ، ثم أجفل عندما تذكر أنه سمع فاني بريس تردد مثل هذا الكلام نفسه . وعندما وصلا إلى المنزل تملكه الخوف . ولو كانت لديه الجرأة لطلب إلى فونيه أن يعود أدراجه لأنه لم يكن يريد معرفة الحقيقة . ودلغا إلى المنزل وأعطى البواب فيليب خطابا في أثناء سيره فألقى نظرة على المظروف أدرك منها أنه كتب بخط عمه .. وسار أمام فونيه صاعدا الدرج ، ولم يستطع أن يفكر في شيء يحدثه فيه ، كما ظل فونيه صامتا ، وأثار هذا الصمت أعصاب فيليب .

وجلس الأستاذ ووضع فيليب أمامه دون أن ينبس ببنت شفة لوحتين ورسمين أو ثلاثة رسوم لمناظر طبيعية ، وبعض الرسوم الأخرى التمهيدية ثم قال في ضحكة عصبية :

الخشية ألا يصبح أكثر من فنان عادي في الطبقة الثانية بين الفنانين ، فإذا كان الأمر كذلك فهل يحق للمرء أن يضحي في سبيله بشبابه ومرح الحياة وفرصها الكثيرة ؟ لقد عرف منهم من ظلوا عشرين عاما يزحفون وراء المجد والشهرة ، ولكن أبت ألا أن تفر منهم حتى وصلوا إلى الحضيض وغرقوا في رذائل الخمر . ولقد أثار حادث انتحار فاني بريس ذكريات في نفسه .. ووصلت إلى سمع فيليب أقاصيص مروعة عن الوسائل التي نجا بها بعضهم من يأس الحياة ، وتذكر النصيحة الساخرة التي أسداها فونيه إلى فاني بريس المسكينة ، ولو أنها استمعت إلى هذه النصيحة وأقلعت عن محاولاتها اليائسة لكان ذلك خيرا لها .

وخيل إلى فيليب وهو يفكر في هذه الأمور أن لدى الفنانين الأصليين من الرسامين والموسيقيين والكتاب قوة تدفعهم إلى الانغماس بكليتهم في عملهم فلا يجدون مفرا من أن يخضعوا الحياة للفن فخصعوا بذلك لسطوة لم يعرفوا ماهيتها وساروا فخدعتهم الغريزة التي تملكهم وتسلبت الحياة من بين أصابعهم دون أن يحسوها ، وانتاب إحساس بأن من الخير للمرء أن يحيا الحياة لا يرسمها ، وأراد أن يختبر تجارب الحياة المختلفة ، وأن ينتزع من اللحظات كل المشاعر التي تعرضها عليه وقرر في النهاية أن يتخذ خطوة مامن يتحمل تبعاتها ، فلما استقر رأيه على هذا قرر أن يخطو هذه الخطوة في الحال . وكان من حسن حظ أن اليوم التالي كان أحد أيام فونيه . فاعتزم أن يطلب إليه في صراحة هل من الخير له أن يواصل دراسة الفن . ولم يكن قد نسى صراحته عندما قال له إنه من الخير له أن يواصل دراسة الفن . ولم يستطع فيليب أن يبعد فاني عن تفكيره ، فقد بدأ المرسوم غريبا بدونها وكان صوت إحدى السيدات في الحجرة بين آن وآخر أو حركة من إحداهن تفزعه فجأة وتذكره بها .. لقد أصبح وجودها يحس بعد موتها أكثر مما كان يحس أثناء حياتها وكثيرا ما كان يراها في حلمه ويستيقظ من نومه وهو يصيح من الفزع وكان التفكير فيما قاسته فاني بريس من أهوال يبعث بالرعب إلى نفسه .

وكان فونيه يتناول غذاءه في الأيام التي يزور فيها المدرسة في مطعم صغير في شارع أوديسا ، ولهذا أسرع فيليب في تناول غذائه حتى يستطيع الذهاب إلى المطعم وانتظار خروجه فونيه .. وراح فيليب يذرع الشارع المزدهم رائحا غاديا ، حتى لمح فونيه آخر الأمر يسيرا منحني الرأس نحوه ، وكان فيليب في حالة عصبية ، ولكنه أرغم نفسه على الذهاب إلى وخطبه قائلا .

- معذرة يا سيدي فاني أود أن أتحدث إليك لحظة واحدة .

ورمقه فونيه بنظرة سريعة ، فعرفه ، ولكنه لم يجبه بابتسامة وقال له :

- تكلم

فأردف فيليب قائلا :

- لقد أمضيت هنا عامين وأنا أدرس على يديك ، وأريد أن أسأل رأيك في صراحة هل ثم

فائدة في أن أواصل هذه الدراسة ؟

- هذا كل ما لدى ..

لف فونيه لنفسه لفافة من التبغ ثم أشعلها وسأله أخيرا :

- هل مواردك الخاصة بسيطة للغاية ؟

وأجاب فيليب وقد غشى قلبه فجأة إحساس بالبرودة :

- بسيطة للغاية .. لا تكفي المرء كي يعيش عليها .

- ليس هناك ما هو أكثر امتهاننا للمرء من ذلك القلق المستمر على مورد رزقه وأنه شخصيا لا يسعني إلا أن أحتقر أولئك الذين يحتقرون المال . إنهم إما منافقون أو مغفلون ذلك أن المال كالحاسة السادسة التي لا تستطيع غيرها أن تستخدم الحواس الخمس الأخرى وإذا لم يكن لك دخل كاف أصبح نصف احتمالات الحياة مقضي عليه . والأمر الوحيد الذي يجب أن تحذره هو ألا تدفع قرشا في مقابل الذي تكسبه . سيصل إلى سمعك قول أناس الفقير خير حافظ للفنان ، وأنا أقول إن هؤلاء لم يشعروا على الإطلاق بوخز هذا الفقر أجسادهم ، ولا يعرفون كيف يجعل هذا الفقر منك إنسانا خسيسا وضيعا ، ويعرضك لمها ليس لها حد ، إنه يقص بجناحيك ويفت في عضدك كالسرطان وليس الذي يجب أن يبه عنه المرء هو الثراء بل هو ما يكفيه ليحفظ به كرامته ويؤدي عمله في غير ما عوانق ، ويعط حرا كريما يعتمد على نفسه . وإني أشفق من صميم فؤادي على الفنان سواء كان كاتباً مصورا إذا لم يكن له مورد يعيش منه إلا فنه .

وأعاد فيليب في هدوء جميع اللوحات التي أطلعها عليها وقال :

-إني لأخشى أن يكون معنى كلامك أني ليس لدى الكثير من الأمل .

وهز السيد فونيه كتفيه في بساطة ثم قال :

- إن لديك بعض المهارة اليدوية .. وليس هنالك ما يحول دون أن تصبح مصورا دقيقا كفؤا بالعمل الشاق والمثابرة .. إنك لتجد الكثيرين ممن يرسمون مثل رسمك ولست أجد ما يعلو على الموهبة فيما أطلعته عليه ، بل أرى فيه أثر الجد والذكاء ولن تصبح أكثر من فنان متوسط الحال .

وكبح فيليب جماح نفسه حتى يجيب في هدوء :

-إني أشكر لك ما تجشمت من مشقة . ولا أستطيع أن أوفيك الشكر .

ونفض السيد فونيه عن مقعده ، وتحرك كأنه يهم بالرحيل ولكنه توقف كأن قد خطرت بباله فكرة أخرى وألقى بيده على كتف فيليب وقال :

-ولكنك إذا سألتني النصح ، فيجب أن أقول لك : اجمع شتات شجاعتك بين يديك وجهك في شئ آخر .. إن ما أقوله لم يبد في غاية القسوة ولكني أقول لك هذا .. لو أن أحدا وجه إلى مثل هذه النصيحة واستمعت إليها عندما كنت في سنك لوهبته الآن كل ما أملك حطام الدنيا .

وحملق فيه فيليب مذهولا .. ودفع الأستاذ بابتسامة إلا شفتيه ولكن عينيه ظلتا على حالهما من الجد والأسى وقال :

-إن من القسوة ألا يكتشف المرء أنه لا يعدو المرتبة الوسطى ألا بعد أن يفوت الأوان .. فإن ذلك لا يصلح من حاله شيئا .

وعندما قال هذه الكلمات الأخيرة ضحك ضحكة صغيرة وغادر الحجرة مسرعا . وأخرج فيليب في حركة آلية الخطاب الذي بعث به إليه عمه ، وعندما رأى خط عمه انتابه القلق لأن زوج عمه هي التي اعتادت أن تكتب إليه ، لقد كانت مريضة طوال الأشهر الثلاثة الماضية ، وقد عرض عليها أن يسافر لرؤيتها ولكنها رفضت إذ خشيت أن يتعارض ذلك مع عمله ولم تكن تريد أن تسبب له شيئا من التعب . وقالت إنها ستنتظر حتى شهر أغسطس ، وأعربت عن أملها في أن يأتي ويقيم معهم في منزل القس أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وإذا حدث أن ساءت حالتها لسبب ما فستبلغه لأنها لا تريد أن تفارق الحياة دون أن تراه مرة أخرى . فإذا كان عمه هو الذي يكتب إليه الآن فمعنى ذلك أنها مريضة إلى حد لم تستطع معه أن تمسك بالقلم . وفتح فيليب الخطاب وكان هذا نصه :

عزيزي فيليب

إني أسف لأن أبلغك أن زوجة عمك العزيزة قد فارقت الحياة في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، لقد ماتت فجأة ، ولكن في سكون وهدوء تام . لقد تدهورت حالتها بسرعة لم نجد لدينا معها من الوقت ما يمكننا من أن نبعث في طلبك .. وقد كانت مستعدة تماما لمواجهة منيتها وخطت إلى عالم الراحة وهي واثقة من أنها ستبعث بعثا مباركا مستسلمة لمشيئة المسيح المباركة .. كانت عمك تود لو شهدت جنازتها ولهذا أمل أن تأتي بأسرع ما يمكنك ولدي بطبيعة الحال كثير من العمل الملحق على عاتقي ، وإني لفي غاية الاضطراب ، وأمل أن تستطيع أن تعمل كل ما تستطيعه لي .

عمك المحب

وليام كاري

وفي اليوم التالي وصل فيليب إلى بلاكستابل ، ولم يكن قد فقد منذ وفاة والدته شخصا وثيق الصلة به .. لقد صدمته وفاة زوج عمه وملأت قلبه برعب غريب أحس معه لأول مرة بأنه إنسان فإن ولم يدرك كيف تصبح حياة عمه من غير هذه المرأة التي رعته وأحبته طيلة أربعين عاما .. وتوقع أن يجده محطم النفس من قسوة الألم اليأس ، وكان يخشى أول لقاء معه ، وأدرك أنه لن يستطيع أن يقول شيئا ذا جدوى في مثل هذا الموقف .

وراح يعد نفسه ليقول بعض الكلمات الملائمة . ودخل منزل القس عن طريق الباب الجانبي ، وقصد حجرة الطعام .. وكان عمه وليام يطالع في صحيفة ورفع إليه عينيه قائلا : -لقد تأخر قطارك .

كان فيليب على وشك أن يترك لمشاعره العنان ولكن المقابلة العادية أدهشته وقد على عمه الحزن ولكنه كان هادئاً ، وناولته الصحيفة قائلاً :

- هناك كلمة لطيفة عنها في «بلاكستابل تايمز» .

وقراها فيليب بطريقة آلية وقال عمه :

- أتحب أن تصعد لتلقى نظرة عليها ؟

وأوماً فيليب برأسه وصعدا سوياً إلى الطابق العلوى وكانت العمة لويزا ممددة على سرير عريض وقد تناثرت حولها طاقات الزهور وقال القس :

- ألا تجب أن تتلو صلاة قصيرة ؟ .. وركع القس على ركبته وحذا فيليب حذوه لأن هذا

متوقعا منه ، ونظرا إلى الوجه القصير الذابل . ولم يشعر حينئذ إلا بعاطفة واحدة فقط

أن تلك المرأة قد ضيعت حياتها ، وسعل السيد كارى بعد لحظة ثم نهض واقفا وأشار

إلكيل عند أسفل السرير ثم قال في صوت خافت وكأنه في الكنيسة :

- هذا الإلكيل من رئيس المالك .

وكان القس يشعر المرء بأنه يؤدي عمله ومضى يقول :

- أظن أن الشئ قد أعد .

وعاد إلى الحجرة الطعام مرة أخرى ، وأضفت الستائر المسدلة على الحجرة جوار

وجلس القس عند طرف المائدة التي كانت زوجته تجلس إليه دائما وصب الشئ وهو

الصلاة ، وشعر فيليب بأن الواجب كان يقضى على كليهما ألا يتناولوا شيئا من الطعام

عندما وجد أن شهية القس لم تتأثر بدأ يتناول الأكل بشهية القوية المعتادة . وأحجم

الكلام فترة من الوقت وشرع فيليب يتناول قطعة من الفطير الفاخر في جو من الحزن

بأنه خليف به أن يطهره وما لبث القس أن قال :

- لقد تغيرت الأمور كثيرا عما كانت عليه وأنا نائب قس فقد كان المشيعون في

شبابي يهدون زوجا من القفازات السوداء وقطعة من الحرير الأسود لوضعها على قبع

أثناء الجنازة وقد اعتادت المسكينة لويزا أن تجمع قطع القماش الأسود وتصنع منها

وكانت تقول دائما أن عشر جنازات تكفيها لصنع ثوب جديد .

ثم حدث فيليب عمن بعثوا إليه بالأكاليل .. وقال إن عددهم بلغ حتى تلك الساعة

وعشرين إكليلا . وقال إنه عندما توفيت السيدة رولنجسون زوجة أسقف فرن بلغ عدد أكاليل

اثنتين وثلاثين إكليلا . وقال إنه يرجح أن يأتي المزيد من الأكاليل في اليوم التالي

الجنازة ستبدأ في السابعة صباحا من منزل الأسقفية ، وإنهم سيتوقفون على

رولنجسون في عدد الأكاليل لأن السيدة كارى لم تكن تحب السيدة رولنجسون على

وقال :

- سأتولى أمر الجنازة بنفسى .. فقد وعدت لويزا ألا أدع أحدا غيرى يوارىها التراب ، ونظر

فيليب إلى عمه في استنكار وهو يلتهم قطعة أخرى من الفطائر . ولم يستطع أن يقاوم شعوره

بأن هذا التصرف في مثل هذه الظروف يعتبر نهما .. وقال القس :

- إن مارى أن تصنع فطائر طيبة بلا ريب وأخشى ألا يستطيع أحد بعد ذلك أن يعمل

فطائر مثلها .

وصاح فيليب في دهشة :

- وهل سترحل مارى أن ؟..

لقد ظلت مارى أن في منزل القس منذ أن وعى فيليب ، ولم تنس أبدا أعياد ميلاده . وكانت

تهتم على الدوام أن تبعث إليه بشيء تافه سخيف ولكن يؤثر فيه . وكان يحتفظ لها بود

حقيقي ، ورد السيد كارى قائلاً :

- نعم .. لأنى أعتقد أنه ليس من اللائق بقاء امرأة غريبة في المنزل .

- ولكن .. مارى أن لا بد قد جاوزت الأربعين .

- نعم أعتقد هذا ولكنها كانت في الفترة الأخيرة مثيرة للمتعاب إلى حد ما . وكانت تميل

إلى التدخل في الكثير من الأمور فوجدت هذه الفرصة مناسبة لكي أنذرها .

وقال فيليب :

- إنها بلا شك ليست من الفرص التي يمكن أن تتكرر .

وأخرج فيليب لفافة تبغ ولكن عمه منعه من إشعالها قائلاً في رقة :

- لا تدخن قبل الجنازة يا فيليب .

فقال فيليب :

- وهو كذلك .

- ليس من اللائق التدخين في المنزل وزوج عمك المسكينة ما زالت في الطبقة العليا .

وبعد انتهاء الجنازة عاد جوزيا جريفز وكيل الكنيسة ومدير المصرف لتناول الطعام في

منزل القس - وقد أحس فيليب بالرغم منه بشعور غريب بالارتياح لأن الستائر كانت قد

رفعت ولأن الجثة وهى في المنزل كانت تسبب له شيئا من الضيق .. لقد كانت المرأة المسكينة

في حياتها كلها حنانا وعطفا ولكنها وهى في غرفة النوم في الطبقة العليا باردة عارية بدت

وكان لها أثرا باعثا للحزن والأسى على الأحياء ، وقد بعث هذا الإحساس بالفزع في نفس

فيليب .

وفي حجرة المائدة وجد نفسه وحيدا مع نائب القس الذى بادره قائلاً :

أمل أن تتمكن من البقاء مع عمك قليلا .. فلست أظن أنه يجب أن يترك وحيدا في هذه

الأيام ..

فأجاب فيليب :

- إنى لم أضع لنفسى خطة ما بعد ، ويسرنى أن أبقى معه إذا رغب في ذلك .

وأعرب له عمه بعد ذلك بأيام قلائل عن أمله في أن يتمكن من قضاء الأسابيع القليلة التالية في بلاكستابل .

وقال فيليب :

-إن هذا ليلانمني كثيرا ..

- أعتقد أنه لا يضيرك أن تعود إلى باريس في شهر سبتمبر .

ولم يجب فيليب .. لقد فكر كثيرا فيما قاله له فونيه ، ولكنه لم يكن قد استقر على شيء فلم يشأ أن يتحدث مع عمه عن المستقبل .. لقد كان يسره أن يتخلى عن الفن لأنه مقتنع بأن لن ينبغ فيه .. ولكن من سوء حظه أن الأمر لن يبدو على هذا النحو إلا له وحده ، أما غير فسيرون أن هذا اعتراف منه بهزيمته ولم يشأ أن يقر بأنه قد غلب على أمره فقد كان في عنيدا وأن ارتيابه في أن موهبته لا تميل به ناحية ما قد جعله يخضع للظروف والأهواء لهواة فيوجهها كلها على الرغم من ذلك إلى هذا الاتجاه ذاته . ولم يكن يحتمل سفر أصدقائه منه ، وكان من شأن هذا أن يمنعه من اتخاذ الخطوة الحاسمة فيتخلى عن دراسته الرسم ، ولكن تلك البيئة المختلفة التي أحاطت به جعلته فجأة يرى الأشياء على وجه مغاير لهذا . فقد تبين له كما يتبين للكثيرين غيره أن عبور المانش إلى بريطانيا جعل الأشياء التي بدت مهمة من قبل عديمة النفع إلى حد منقطع النظير . وأضحت الحياة الساحرة التي تمناه أنه لا يمكنه التخلي عنها سخيصة خرقاء ، واستولى عليه شعور باحتقار المقاهي والمطاعم ذات الطعام الرديء الطهو ، والحياة القذرة التي لن يحياها الجميع .. ولم يهتم إطلاقا سيظنه به أصحابه : السيدة أوتر بما لها من احترام ، وروث تشاليس وتكلفها ، ولوس وكلاتون ومشاجراتهما .. لقد شعر بالاشمئزاز منهم جميعا ! وكتب إلى لوسون يطلب إليه يبعث إليه بكل متاعه ، ووصله هذا المتاع كله بعد أسبوع من ذلك الوقت . وعندما أخذ لوحاته وجد أن في استطاعته أن يحكم على أعماله دون أن يتأثر بالعاطفة ورأى الحقيقة ولع وشغف . وكان عمه يتوق إلى رؤية صورة ، وذلك رغم معارضته الشديدة لرغبة فونيه في الذهاب إلى باريس قد قبل الموقف الآن في هدوء . وكانت حياة الطلبة تثير اهتمام فونيه ، فكان يسأل فيليب كثيرا عنها . والواقع إنه كان يشعر بشيء من الاعتزاز بفيليب ، لأنه فنانا ، وكان إذا اجتمع عنده بعض الناس يحاول دائما أن يشير إليه ويبرزه ، وكان ينظر شغف إلى النماذج التي أطلعه فيليب عليها ، ومنها الصورة التي رسمها لميجل أجونج وسأله القس :

-ولماذا رسمته ؟..

-لقد أردت نموذجا ، وقد أثار رأسه اهتمامي .

- وإذا لم يكن لديك ما تفعله هنا ، فلم لا ترسمني ؟

- إنك ستسأم الجلوس أمامي .

-أعتقد أنني سأرحب بذلك .

سنفكر في الأمر .

واتخذ فيليب من غرور عمه مسلاة له .. وكان الواضح أن القس يتحرق شوقا لأن ترسم صورته ، ذلك أن حصوله على شيء بلا مقابل فرصة يجب ألا تفلت منه .. وراح خلال يومين أو ثلاثة أيام يلمح إلى الموضوع ويلوم فيليب على تكاسله ويسأله متى يبدأ عمله .. وفي النهاية راح أخيرا يحدث كل من يقابلهم بأن فيليب سيرسمه . وأخيرا وفي يوم مطير قال السيد كاري لفيليب بعد أن انتهيا من طعام الإفطار :

-والآن ما رأيك في أن تبدأ صورتي هذا الصباح ؟

وضع فيليب الكتاب الذي كان يقرأه ثم مال إلى الخلف في مقعده وقال :

-لقد أقلعت عن الرسم .

فسأله عمه في دهشة :

-لماذا ؟

- لأنني أعتقد أنه لا جدوى في أن يصبح المرء مصورا من الدرجة الثانية وقد أقسمت أنني لن أكون مصورا ولا غير مصور .

- إنك تثير عجبني يا فيليب .. فقد ذهبت إلى باريس وأنت على ثقة من أنك عبقرى .

وقال فيليب :

-لقد كنت مخطئا .

- كنت أعتقد أنك إذا ما اخترت مهنة وجب أن تفخر بتمسكك بها ويخيل إلى أن ما ينقصك هو المثابرة .

انتاب فيليب قليل من الضيق لأن عمه لم يلحظ البسالة الحق التي اتسم بها قراره بتخليه عن الرسم ، ومضى القس يقول :

-إن من لا يثابر على عمل لا ينال النجاح .

وكان فيليب يكره هذا المثل كرها بالغا ويخيل إليه أنه بلا معنى على الإطلاق . وكان عمه يكرر قوله دائما خلال المناقشات التي سبقت ترك فيليب عمله .. ويبدو أن المثل أعاد إلى ذهنه وصيته في تلك المناسبة فقال :

-إنك تعلم أنك لم تعد صبيا ويجب أن تبدأ التفكير في أن تستقر ، لقد صممت في أول الأمر أن تصبح محاسبا قانونيا ثم مللت ذلك وأردت أن تصبح رساما ، والآن اسمح لي أن أقول إنك قد غيرت رأيك مرة أخرى ومعنى هذا ... وتردد القس لحظة حتى يفكر فيما يعنيه ذلك بالضبط من نقص في أخلاق فيليب .. ولكن فيليب أكمل العبارة قائلا :

- وهن العزيمة .. قصر النظر .. عدم الكفاية .. وعدم التصميم .

ونظر القس إلى ابن أخيه ليرى هل كان يضحك منه . وكان وجه فيليب جادا ولكن عينيه لمعتا ببريق ضائق القس . وكان واجب فيليب في واقع الأمر أن يكون أكثر مما بدا جدا . وشعر القس بأنه من الأصول أن يكيل له ضربة على أصابعه . وقال له :

- إن أمورك المالية لم تعد من شأني الآن .. إنك سيد نفسك ولكنى أعتقد أنك يجب أن تذكر أن أموالك لن تدوم إلى الأبد وأن عاهتك المشنومة لن تجعل من السهل عليك أن تكتسب عيشك. وكان فيليب يعلم حينئذ أنه إذا غضب منه أحد فإن أول ما يفكر فيه أن يقول له شيئا من عاهته ، وكان تقديره لبنى الإنسان يقوم على علمه بأنه قلما يعجز إنسان ما عن مقامة هذا الإغراء . ولكنه وطد نفسه على ألا يبدو منه ما يدل أن هذا القول كان يؤلمه ، ذلك أنه أصبح في إمكانه أن يسيطر على حمرة الخجل التي كانت تعلو وجهه والتي كانت أحد مصادر عذابه في أيام صباه .. ورد قائلا :

- إنك محق في قولك .. إن أحوالي المالية لم تعد من شأنك ، وأنا سيد نفسي .

- مهما يكن من هذا فإن عليك أن تعترف بأنى كنت على حق عندما عارضت رغبتك في دراسة الفن .

- لست أعرف الكثير عن هذا الأمر وكل ما لا أستطيع أن أقوله إن المرء يستفيد من الأخطاء التي يرتكبها بنفسه أكثر مما لو سار في طريق صحيح ينصح به غيره .. لقد حاولت ولم أفلح ولن يضيرني أن أستقر الآن .
- في أى شئ تستقر ؟

ولم يكن فيليب قد استعد للرد عن هذا السؤال لأنه في الحقيقة لم يقرر شيئا ، بل فكر في كثير من الاحتمالات وقال القس :

- إن أنسب شئ هو أن تزاول مهنة والدك وتصبح طبيبا .

من أغرب الأشياء أن هذا بالضبط هو ما انتويت .

لقد فكر من بين ما فكر فيه فيليب أن يشتغل بالطب وكان أكبر سبب حمله على هذا التفكير أن الطب مهنة تتيح للمرء قدرا كبيرا من الحرية الشخصية .. وكان ما لاقاه أثناء العمل في المكاتب قد جعله يقرر ألا تكون له صلة بعمل مكتبي مرة أخرى .. وكادت إجاباته عن سؤال القس تغلث منه دون وعى لأنها كانت من الأجوبة المسكتة.

وأعجبه أن اتخذ قراره بهذه الطريقة المفاجئة وقرر في تلك اللحظة وفي ذلك المكان أن يلتحق بمستشفى والده القديم في الخريف وقال القس :

- إذن فيمكن أن تعتبر السنتين اللتين قضيتهما في باريس كأنهما وقت ضائع .

- إني لا أعرف شيئا عن هذا لقد قضيت سنتين جميلتين نعمت فيهما بالمرح والسهر وتعلمت من الأمور النافعة شيئا أو اثنين .

- وماذا تعلمت ؟

وفكر فيليب لحظة ، ولم تخل إجابته من رغبة رقيقة في مضايقة القس :

- لقد تعلمت أن أنظر إلى بلدان لم أكن أنظر إليها من قبل .. وبدلا من أن أنظر إلى المنازل والأشجار تعلمت أن أتأملها ومن خلفها السماء .. وتعلمت كذلك أن الظلال ليست سوداء ولكنها ملونة .

- أعتقد أنك تظن أنك في غاية الذكاء .. ولكن أقول لك إن طيشك هذا دليل على الجنون ! ودلف السيد كارى إلى حجرة مكتبه والصحيفة في يده . وبدل فيليب مقعده بذلك الذى كان يجلس عليه السيد كارى (وكان هذا هو المقعد الوحيد المريح في الحجرة) .. ونظر من خلال النافذة إلى المطر المنهمر ، ووجد في ذلك الجو الحزين نفسه وفي الحقول الخضراء التي تمتد حتى تلتقي بالأفق ما يبعث على الراحة والاطمئنان لقد كان المنظر الطبيعي سحرا عميقا لم يذكر فيليب أبدا أنه لاحظته من قبل لقد تفتحت عيناه بعد السنتين اللتين قضاهما في باريس علي الجمال الذى ينطوى عليه الريف في بلده .

وابتسم وهو يفكر في كلام عمه ورأى أن من حسن الحظ أن ذهنه اتجه إلى النزق كما قال. وبدأ يدرك الخسارة التي تكبدها بموت أبيه وأمه. فقد كان ذلك هو التباين الذى انتاب حياته وحال دون أن يرى الأمور كما يراها غيره من الناس، ذلك أن حب الآباء لأبنائهم هو العاطفة الوحيدة المنزهة عن الغرض وقد شب فيليب بين قوم غريباء كأفضل ما يمكنه ولكنهم قلما كانوا يأخذونه بالحلم والصبر وشعر بالفخر لقدرته على السيطرة على نفسه.. تلك الخصلة التي غرست فيه علي الرغم منه بسبب سخريه رفاقه. وبعد ذلك يقولون إنه ساخر قاسي القلب، أما الحقيقة فهي أنه اعتاد أن يكون هادئ الطبع وألا يبدو عليه شئ من الغضب في معظم الأحوال، وبهذا لم يلبث في النهاية أن أصبح عاجزا عن إظهار شعوره وقال له الناس إنه جامد العاطفة. ولكنه كان يعرف أنه تحت إمرة عواطفه فكان أى عطف يصادفه عرضا يؤثر فيه حتى لا يجرو في بعض الأحيان علي الكلام حتى لا يفضحه اضطراب صوته وجمال بخاطره شقاؤه في المدرسة وما عاناه من المهانة وتعرض له من السخريه والتي خلفت في نفسه خوفا قاتلا من يصبح أضحوكة للآخرين وتذكر ما أحس من الوحدة عندما واجه العالم لأول مرة وما أصابه من خيبة سببها ما وجد من فرق بين خياله الوثاب بالآمال وما حققته له الحياة منها ولكنه بالرغم من هذا كان يستطيع أن ينظر إلى نفسه من خارجها ويتسم في متعة وابتهاج وقال في نفسه:

«يا الله لو لم أكن نزقا لقتلت نفسي» .



وفي اليوم الأخير من شهر سبتمبر رحل فيليب للمرة الثانية إلى لندن بقدمه الحنفاء وألف وستمائه من الجنيهات ليبدأ حياته للمرة الثالثة. وكان الامتحان الذى اجتازه فيليب قبل دخوله مهنة المحاسبة كافيا لقبوله بمدرسة الطب واختار مدرسة «القديس لوقا» لأن أباه كان طالبا فيها وقصد قبل نهاية الفترة الصيفية إلى لندن وقضى فيها يوما قابل فيه الأمين وحصل منه علي قائمة بالغرف الخالية في الحي واختار مسكنه في منزل مظلم كانت ميزته أنه لا يبعد عن المستشفى بأكثر من دقيقتين وكان فيليب قد كون فكرته عن حياة الطلبة في

كلية الطب مما كتبه تشارلز ديكنز عن حياة الجماهير بوجه عام في منتصف القرن التاسع عشر وسرعان ما وجد أن بوب ساوير - إذا كان له وجود علي الإطلاق - لم يعد كطلبة الطب في هذا الوقت.

والذين يدخلون مهنة الطب خليط من الناس منهم بطبيعة الحال من هو كسول مستهتر وأولئك يعتقدون أن حياة طلبة الطب حياة سهلة فيقضون عامين في عبث ثم يتركون المستشفى لأن مالهم ينفد أو لأن آباءهم الذين يغضبون من سلوكهم يرفضون المزيد من إعانتهم، وهناك آخرون يجدون الامتحانات أصعب مما يطبقون ويسلبهم الرسوب مرة بعد أخرى قوة أعصابهم ويصيبهم الذعر فينسون بمجرد دخولهم المباني الكريهة التي بها الممتحنون كل المعلومات التي كدوا في سبيل استذكارها من قبل، ثم يقضون عاما بعد الآخر وهم عرضة للسخرية المرحمة ممن يصغرونهم سنا من الشباب، ومنهم من يجتاز امتحانات الصيدلة بصعوبة وبطء، ومنهم من يصبحون مساعدين غير مؤهلين وهو وضع مزعزع يصبحون فيه تحت رحمة مرءوسيههم ومصيرهم الفقر والسكر ولا يعلم أمرهم إلا الله ولكن الأغلبية الكبرى من طلبة الطب شباب مجدود من الطبقة الوسطى ذو دخل كاف يعينهم علي العيش المحترم الذي تعودوه من قبل ومنهم الكثيرون من أبناء الأطباء بدا عليهم بالفعل طابع المهنة ومستقبلهم مرسوم، فهم حين ينالون إجازاتهم يتقدمون في إحدى الوظائف بالمستشفيات (وقد يقوم بعضهم برحلة إلى الشرق الأوسط علي ظهر إحدى البواخر) ثم يعودون بعد ذلك إلى آبائهم ويقضون بقية حياتهم يمارسون مهنتهم في الريف ويبدو النبوغ غير المعتاد علي الذين يستحقونها، ثم يحصلون علي وظيفة بعد أخرى في المستشفى ويدخلون في عداد هيئة موظفيه، ثم يفتتحون عيادات الاستشارة في شارع هارلي ويتخصصون في أحد الفروع ويصبحون من الأغنياء المبرزين ذوى الألقاب.

وهيا فيليب الجو لنفسه في حجراته الصغيرة لكي يشعر بالارتياح. فرتب وعلق اللوحات التي كانت لديه علي الحائط وكان يقطن في الطابق التالي فوق حجرة الاستقبال رجل في السنة الخامسة في المدرسة اسمه جريفت ولم يكن فيليب يراه إلا قليلا لأن جريفت هذا كان مشغولا في أقسام المستشفى من ناحية ومن ناحية أخرى كان من قبل في جامعة أكسفورد، وكان أمثال هؤلاء الطلبة الذين كانوا في الجامعة لا يختلطون إلا بأمثالهم في الكثير من الأوقات، وكانوا يستخدمون وسائل كثيرة طبيعية بالنسبة للشباب يطبعون بها في فقد وجدوا أن هذه الرصانة الأولمبية مما لا يمكن احتماله.

وكان جريفت طويل القامة ذا شعر ملتو أحمر وعينين زرقاوين وبشرة بيضاء وفم أحمر قاني، وكان من أولئك المحظوظين الذين يحبهم الناس جميعا وكان جم النشاط دائم المرح وكان يعزف قليلا علي البيان ويترنم بأغان هزلية في مرح وكان فيليب كلما جلس في الأمسية تلو الأخرى يقرأ في حجرته الموحشة سمع من فوقه ضحكات أصدقاء جريفت وضجيجهم الصاخب وجالت بخاطره تلك الأمسيات الجميلة التي قضاها في باريس عندما

كانوا يجلسون في المرسم؛ لوسون وهو وفانا جان وكلاتون ويتبادلون الحديث حول الفن والأخلاق ثم غرامياتهم في ذلك الوقت وفي المستقبل. وشعر بالكآبة تغشاها إذ وجد أن السهل علي المرء أن يتصرف تصرفا يوحى بالبطولة ولكن من الصعب عليه أن يتحمل نتائج ذلك التصرف وكان أسوأ ما في الأمر أنه خيل إليه أن هذا العمل متعب وممل للغاية وكان قد تخلص من مشكلة الإجابة عن أسئلة المدرسين وكان ذهنه يشرد أثناء المحاضرات ووجد أن علم التشريح علم جاف لا يعدو أن يكون مجرد حفظ عن ظهر قلب لعدد لا يحصى من الطائى، أما عمليات التشريح ذاتها فقد كانت تبعث سأمه ولم يعرف ماجدوي التشريح لنيق للأعصاب والشرابين في حين أن المجهود يصبح أقل عناء إذا اطلع المرء علي رسوم التوضيحية بالكتب أو معرض التشريح حيث يعرف كل عصب وكل شريان.

واتخذ فيليب له أصدقاء عرضا ولكنهم لم يكونوا بالأصدقاء الحميمين لأنه لم يكرهه أمر خاص يحدث عنه رفاقه. وعندما حاول أن يبدي اهتمامه بأمرهم شعر بأنهم يرون أنه يتعالى عليهم، ولم يكن هو من أولئك الذين يستطيعون التحدث بما يثير غيره دون أن ينهوا هل حديثهم يبعث علي الملل وسمع أحدهم أن فيليب درس الفن في باريس. وكان لجل معجبا بذوقه، فحاول أن يناقش فيليب في الفن ولكن فيليب لم يكن يطيق الآراء التي اتفق ورأيه ولم يكذب يدرك أن آراء ذلك الرجل عن الفن كانت تقليدية حتى أخذ يتحدث إليه في كلمات مقتضبة .

وكان فيليب يبغى الشهرة ولكنه لم يستطع أن يخلع البهجة علي غيره. ودفعه خزه من أن يصدوه عنهم إلى أن يتودد إليهم، وأخفي خجله وكان لا يزال شديدا تحت ستار من لامت الجامد، لقد كان يمر بمثل التجربة التي مر بها في المدرسة ولكن الفارق هنا هو أن رية طلبه الطب جعلت من الميسور له أن يبقى وحيدا في كثير من الأوقات. ولم تكن صداقه مع دنسفورد لأى مجهود بذله. وقد تعلق دنسفورد بفيليب لأنه كان أول شخص تعرفه في مستشفى القديس لوقا ولأنه له أصدقاء في لندن ولهذا اعتاد هو وفيليب في أمسيات لأحد أن يذهبا لإحدى قاعات الموسيقى ويتخذا لهما مكانا في الردهة السفلى أو في دارالليل حيث يجلسان في المقاعد العليا. كان دنسفورد يتسم بالغباء ولكنه كان مرحا ولا يكن يغضب أبدا وكان يبدي ملاحظات لا عمق فيها وكان يبتسم عندما يضحك منه فيليب وكان له ابتسامة حلوة، ومع أن فيليب قد اتخذ هدفا لسخريته فإنه كان يحبه وأعجبته لبيت وطباعه السهلة وكان لدنسford ذلك السحر الذى أدرك فيليب أنه ينقصه. وكثيرا ما كانا يتناولان الشاي في محل في شارع البرلمان لأن دنسفورد كان معجبا بفتاة صغيرة تعمل ساقية في المحل وأن فيليب لم يجد فيها أية جاذبية فقد كانت طويلة نحيفة ذات عيون ضيقين وصدر كصدر الصبي.

وقال له فيليب ساخرا:

-إن أحدا لن يعيرها نظرة في باريس.

فأجاب دنسفورد:

-أن وجهها رائع.

-وما قيمة الوجه؟

وكانت ذات ملامح صغيرة منتظمة وعينين زرقاوين وجبهة عريضة منخفضة قال عنها المصورون في العصر الفيكتوري أنها تمثل الجمال الإغريقي وبدا شعرها غزيرا جدا، فقد صففته بإتقان كبير وجمعت فوق الجبهة بطريقة تسميها «أهداب المسكارا»، كانت هزيلة للغاية وقد علا الشحوب شفتيها الرفيعتين وكان جلدها رقيقا يغشاه لون أخضر شاحب وشيء من الاحمرار في وجنتيها، وكانت يداها جد صغيرتين رفيفتين لونهما أبيض، وتبدت في عينيها نظرة من السأم أثناء تأديتها عملها.

ولم ينجح دنسفورد لشدة حيانه من النساء في أن يتبادل الحديث معها فألح علي فيليب أن يعاونه قائلا:

-كل ما أريده منك هو أن تمهد لي الطريق وأنا كفيل بعد ذلك أن أدبر أموري بنفسي. وقال فيليب لها كلمة أو اثنتين مراعاة له ولكنها ردت عليه ردا مقتضبا.. وكانت قد قدرتهما حق التقدير وخالت إنيهما من الطلبة فقد كانا صبيين ولم تكن بحاجة إلى أمثالهما. ولاحظ دنسفورد أن رجلا ذا شعر أصفر وشارب بدا عليه أنه ألماني كان يجذب انتباهها كلما أتى إلى المحل فإذا أتى لم يستطيع أن يحملانها علي إجابة طلبهما إلا بعد أن ينادياها مرتين وثلاث مرات. وكانت تعامل من لا تعرفهم من رواد المكان في وقاحة جافة وإذا كانت تتحدث إلى صديق كانت تتجاهل نداء من هم في عجلة من أمرهم، وكانت تعامل النسوة اللاتي يطلبن المرطبات في وقاحة وكانت تثير ضيقهن دون أن تتيح لهن فرصة للشكوى إلى إدارة المحل. وقد أبلغه دنسفورد في أحد الأيام أن اسمها ميلدريد فقد سمع إحدى الفتيات تناديهما بهذا الاسم.

فقال فيليب:

-يا له من اسم كريه.

وسأله دنسفورد:

-لماذا أني أحب هذا الاسم.

-إن فيه عجرفة شديدة

واتفق أن الألماني لم يأت إلى المحل في ذلك اليوم فلما أحضرت لهما الشاي ابتسم فيليب وقال:

-إن صديقك لم يحضر اليوم.

وردت عليه في برودة قائلة:

-لا أعرف ماذا تعني.

- كنت أشير إلى ذلك الرجل ذي الشارب الذي في لون الرمال ترى هل استبدل بك واحدة أخرى؟

فردت عليه قائلة:

-بعض الناس يحسنون إذا لم يتدخلوا في شئون غيرهم.

وتركتهما وجلست تقرأ في إحدى الصحف إذ لم يكن هناك أحد في المحل..

وقال له دنسفورد:

-إنك أحرق إذ جعلتها تولي ظهرها نحونا.

فأجاب فيليب:

-إني لا أبالي على الإطلاق بحالة فقيرات مثلها.

ولكن فيليب شعر بأنها غاظته فقد أثاره أنه كان عندما يحاول أن يكون لطيفا مع امرأة ساءها ذلك منه وعندما طلب الحساب خاطر بعبارة أخرى عسي أن تكون لها ما بعدها فقال وهو يبتسم:

-ألم تعد بيننا صلة تتيح لنا أن نتبادل الحديث؟

-إنني هنا لأتلقى الأوامر وألبي طلبات الرواد وليس لدى ما أقوله لهم ولا أريد منهم أن يقولوا لي شيئا.

ووضعت قصاصة الورق التي دونت عليها الحساب وعادت إلى المائدة التي كانت تجلس إليها من قبل واحمر وجه فيليب غضبا وقال دنسفورد بعدما خرجا من المحل.

-هذه لكمة بين عينيك يا فيليب.

ورد فيليب قائلا:

-إنها قدرة معدومة الأخلاق ولن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى.. وكان لفيليب علي دنسفورد من النقود ما استطاع معه إقناعه بارتياح مكان آخر يشربان فيه الشاي وسرعان ما وجد دنسفورد فتاة أخرى يداعبها ولكن هذا الصد الذي لاقاه فيليب من خادمة المطعم حز في نفسه فلو أنها عاملته بأدب لما عبأ بها علي الإطلاق ولكنه لم يكن خافيا عليه أنها لم تكن تحبه فخرت كبرياؤه ولم يستطع أن يقاوم رغبة في نفسه بأن يرد لها كيدها وقد ألمه أشد الألم إن كان لها هذا الشعور الحقيق. وانقضى يومان أو ثلاثة من الحزم لم يذهب فيها إلى المحل ولكن هذه الفترة لم تعنه علي التغلب علي ما في نفسه وقرر أخيرا ألا يبالي فإن رؤيتها ليست بالأمر الذي يسبب له أقل عناء وإذا رآها فإنه بلا شك سيكف عن التفكير فيها وزعم في إحدى الليالي أنه علي موعد هناك وذلك لأنه في واقع الأمر كان يستحي أشد الاستحياء من ضعفه وقصد من فوره إلى المحل الذي أقسم إنه لن يدخله مرة أخرى ورأى الساقية في اللحظة التي جلس فيها إلى إحدى مناضدها، وتوقع منها أن تقول شيئا عن تغيبه أسبوعا ولكنها عندما أتت إليه لم تقل شيئا وكان قد سمعها تقول لعميل آخر:

-إنك غريب عن البلدة تماما.

ولم يصدر منها ما يشير إلى أنها رأت من قبل وأراد أن يعرف هل كانت قد نسيت حقا فسألها عندما أحضرت الشاي.

- هل رأيت صديقي الليلة؟

- لا إنه لم يأت إلى هنا منذ عدة أيام.

وأراد أن يتخذ هذه الفرصة بداية لحديث ولكنه كان متوتر الأعصاب إلى حد عجيب لم يستطع معه أن يفكر في شيء يقوله وتركته هي في الحال فلم تتح له الفرصة لذلك، ولم تسنح له الفرصة ليحدثها بشيء حتى تغلب على حياته فقال:

- إن الجو قدر اليوم أليس كذلك؟

كان اضطرابه إلى أن يعد عبارة مثل هذه من أشق الأمور علي نفسه ولم يستطع أن يدر لماذا شعر بهذا الحرج الشديد.

- إن حالة الجو لا تهمني كثيرا لأنني مضطرة إلى أن أقضي طيلة يومي هنا.

وكانت في لهجتها وقاحة ضايقته وقفز إلى شفثيه حديث سخرية ولكنه أجبر نفسه على الصمت وحدث نفسه في غضب قائلاً: أود لو تقول الآن شيئاً وقحا لكي أرد إليها كيده وأشكوها إلى صاحب المحل فيطردها وسيكون هذا عقاباً رادعاً لها.

ولم يستطع فيليب أن يبعدها عن فكره وضحك في غضب من حماقته فقد كان من السخف أن يهتم بما قالته له خادمة هزيلة مصابة بفقر في الدم. ولكنه أعتقد أنه امتحن امتحاناً غريباً، وبالرغم من أن أحداً لم يعلم بهذا الامتحان إلا دنسفورد الذي نسيه من غير شك فلم أحس بأنه لا بد أن يمحو هذا العار عن نفسه وراح يفكر في خير طريقة لذلك، وقرر أن يذهب إلى المحل كل يوم. وكان قد ترك في نفسها صورة له غير مستحبة ولكنه أعتقد أن لديه الحصافة ما يمكنه من أن يزيل هذا الأثر فسيحذر ألا يقول ما من شأنه أن يغضب أكثر الناس حساسية. وفعل كل ذلك ولكنه لم ير أية ثمرة له. فكان إذا جاء المحل وحياها تحية المصير

ردت عليه بنفس الألفاظ، ولما قرر مرة ألا يحييها كي يرى هل تبادر هي إلى تحيته لم تبادر شيئاً على الإطلاق. وحينئذ تمتع في سريره بلفظ يستخدم عادة في وصف الجنس اللطيف ولكنه لا يطلق عليهم عادة في المجتمعات المهيبة. لكنه طلب الشاي دون أن يبدو على وجه أقل أثر وقرر ألا يتفوه بكلمة واحدة وغادر المكان دون أن يلقي إليها بتحية المساء المعتاد واعتزم ألا يذهب إلى هناك مرة أخرى. ولكنه عندما آن موعد تناوله الشاي في اليوم التالي شعر بقلق شديد. وحاول أن يفكر في أشياء أخرى، ولكن أفكاره لم تكن تطاوعه، وأخيراً

نفسه في يأس قائلاً:

«ليس هناك على أية حال .. ما يمنعي من الذهاب إن أردت ذلك».

وطال الصراع بينه وبين نفسه، وكانت الساعة تقترب من السابعة عندما دخل المحل

وبادرت قائلة عندما اتخذ مجلسه إلى المائدة:

- اعتقدت أنك لن تأتي الليلة.

وقفز قلبه بين ضلوعه وأحس بوجهه يعلوه الاحمرار وقال:

- لقد حال سبب قاهر بيني وبين مجيئي فلم أستطع المجيء قبل الآن.

- كنت تواصل تشريح الناس على ما أعتقد.

- ليس الأمر بهذه البشاعة.

- أنت طالب طب أليس كذلك؟

- بلى ...

وبدا أن ذلك قد أرضى فضولها، فتركته. ولما لم يكن هناك أحد على المناضد التي

تقوم بخدمتها في ذلك الوقت المتأخر، فقد انهمكت في قراءة إحدى القصص الصغيرة ..

وكان هذا في الوقت الذي لم تكن قد ظهرت فيه بعض طبعات القصص التي تباع ببئسات

سنة، فكان بعض الفقراء من الكتاب يصرون سلاسل منتظمة من القصص الرخيص إذا

طلب إليهم هذا لاستهلاك الجهلة من القراء. وشعر فيليب وقتئذ بنشوة بالغة، لأنها خاطبته

من تلقاء نفسها. ورأى أن الفرصة تقترب وسيحين دوره ليبلغها رأيها فيها بالضبط،

سيستريح كثيراً عندما يعرب لها عن مدى احتقاره البالغ لها. ونظر إليها فكان وجهها من

الجانب جميلاً حقاً، ومن الغريب أن الفتيات الإنجليزيات من هذه الطبقة يمتزبن بوجوه

نحدها خطوط في غاية الكمال إلى حد يبهر أنفاسك. ولكن وجهها كان بارداً برودة الرخام.

وكان الاخضرار الشاحب الذي كسا بشرتها يوحي بالسقم وكانت الخادما كلهن يرتدين

فس الثياب .. الثياب السود العادية التي لا جمال فيها، منزر أبيض وكمين من نفس اللون،

وقبعة. ورسم لها فيليب صورة تخطيطية على ورقة كانت في جيبه، بينما كانت تجلس

منحنية فوق الكتاب (وكانت تحرك شفثيها بالكلمات أثناء القراءة) وترك الورقة على

المنضدة عندما غادر المكان .. لقد كان ذلك إلهاماً لأنها عندما دخل المحل في اليوم التالي

ابتسمت له قائلة:

- لم أكن أعرف أنك تستطيع أن ترسم ..

- لقد كنت طالب رسم في باريس مدة سنتين.

- لقد ذهبت بهذا الرسم الذي تركته أمس إلى المديرية وقد ذهلت .. هل كنت تقصدني أنا به؟

- نعم ..

وعندما غادرت لتحضر له الشاي جاءته إحدى الفتيات الأخريات وقالت:

لقد رأيت الصورة التي رسمتها للآنسة روجرز، فوجدتها صورة منها طبق الأصل.

كانت هذه هي المرة الأولى التي سمع فيها فيليب اسمها، وعندما أراد دفع الحساب نادىها

به. وعندما جاءت إليه قالت:

- أرى أنك تعرف اسمي.

- لقد ذكرته صاحبك أثناء حديثها لي عن ذلك الرسم.

-إنها تريد منك أن ترسم صورة لها .. فلا تفعل لأنك إذا ما بدأت وجب أن تستمر وسيطلب
إليك جميعاً أن ترسمهن.

ثم انتقلت لموضوع لا صلة له مطلقاً بهذا الحديث ودون أن تقطع حديثها بحال:

-أين هذا الشاب الصغير الذي كان يأتي بصحبتك؟ هل رحل؟

وقال فيليب:

-عجيب أن تتذكرى هذا الشاب.

-لقد كان شاباً صغيراً جميل المنظر.

وشعر بقلبه وقد انتابه إحساس غريب لم يعرف ماهيته. ولقد كان لدنسفورد شعر ملين
جميل، وبشرة ناضرة، وابتسامة حلوة، وفكر فيليب في مميزات دنسفورد هذه في شئ الحسب
وقال ضاحكاً:

-أوه ... إنه عاشق.

وانتابه القلق في اليوم التالي. وفكر في الذهاب لتناول غذائه في مشرب الشاي.. ولكن
كان واثقاً من أن المكان سيزدحم وقتئذ بالناس ولن تتمكن ميلدريد من التحدث إليه. وكان
قد نجح من قبل أن يتخلص من تناوله الشاي مع دنسفورد، وفي هذه المرة ذهب إلى المشرب
في منتصف الساعة الخامسة بالضبط ونقول بالضبط لأنه قد نظر قبلها إلى ساعته أثناء
عشرة مرة.

وكان ظهر ميلدريد مواجهاً له. فقد جلست تتحدث مع الألماني الذي كان فيليب
هناك كل يوم كل الأسبوعين الماضيين. ثم لم يعد يراه على الإطلاق. وكانت تضحك
يقوله الألماني. وظن فيليب أن ضحكها رخيصة فاقشعر لذلك بدنه. وناداهما ولكنها لم تنس
إليه، فناداهما مرة أخرى.. ثم اجتاحه الغضب فقد كان عديم الصبر وقرع المنضدة بعنف
بصوت مرتفع وعندما اقتربت منه في عبوس بادرها قائلاً:

-كيف حالك؟

-يبدو أنك في عجلة شديدة من أمرك.

ونظرت إليه بطريقتها الوقحة التي عرفها عنها جيداً.. وسألها قائلاً:

-خبريني ماذا بك؟

-إذا تفضلت وطلبت ما تريد أتيتك به لأنني لا أستطيع أن أقف لأتحدث طوال الليل.

وأجاب فيليب في اقتضاب:

-شاي وفطير مقدد من فضلك..

واستشاط غضباً. وعندما أحضرت الشاي راح يقرأ بعناية جريدة «النجم» التي كانت

وقال لها في برود:

-إذا أحضرت لي قائمة الحساب الآن فلن أزعجك بعد ذلك:

ورقمت له الحساب ووضعت على المنضدة وعادت إلى الألماني وسرعان ما راحت تتحدث
إليه في فرح. وكان الألماني رجلاً متوسط الطول له رأس الألمان المستديرة ووجه شاحب
اللون وكان شاربه عريضاً منتفش الشعر، وكان يرتدى سترة طويلة الذيل وسروالاً رمادياً،
وتدلّت من صدرته سلسلة ساعة ذهبية ضخمة. وخيل إلى فيليب أن الفتاتين الأخريين أخذتا
تنظران إليه ثم إلى الاثنتين اللذين جلسا إلى المائدة نظرات ذات مغزى، ولم يكن يشك في أنهما
تضحكان منه فعلى دمه، وعندئذ احتقر ميلدريد من كل قلبه وأدرك أن خير ما يفعله هو أن
يكف عن المجيء إلى المشرب ولكنه لا يستطيع أن يحتمل فكرة هزيمته في هذا الأمر. ووضع
خطة يبين لها بها أنه يحتقرها. ففي اليوم التالي جلس إلى مائدة أخرى وطلب الشاي من
خادمة غيرها. وكان صديق ميلدريد هناك وأخذت هي تحادثه. ولم تلتفت إلى فيليب، ولهذا
فإنه لما هم بالخروج اختار لحظة كانت تمر فيها بطريقه. فلما مر بها نظر إليها وكأنه لم
يرها أبداً من قبل. وكرر هذا العمل ثلاثة أيام أو أربعة وكان يتوقع أن تنتهز الفرصة لكي
تقول له شيئاً كأن تسأله مثلاً لم لا يجلس الآن إلى إحدى مناضدها، وأعد لها جواباً مليئاً
بكل ما يشعر به نحوها من احتقار. وكان يعلم أنه من السخف أن يزج نفسه إلى هذا الحد
ولكنه لم يسعه غير هذا.. ذلك أنها قد غلبته على أمره... ثم اختفي مرة أخرى الألماني فجأة.
ولكن فيليب ظل يجلس إلى موائد غير الموائد التي تقوم هي بخدمتها. ومع ذلك فلم تلق إليه
بالاً.. وأدرك فجأة أن ما فعله لم يكن يلقي من جانبها أى اهتمام على الإطلاق.. فقد يظل
على ما هو عليه حتى يوم الحشر ولن يكون له أى أثر فيها. وحدث نفسه قائلاً:

-إني لم أنته بعد.

وفي اليوم التالي جلس في مقعده القديم وعندما جاءت إليه ألقى إليها بتحية المساء
وكانه لم يتجاهلها طيلة أسبوع.

كان وجهه هادئاً ولكنه لم يستطع أن يسكن ضربات قلبه القوية. وكانت المسرحيات
الموسيقية قد بدأت في تلك الأيام تحوز رضاء الجماهير. وكان واثقاً من أن ميلدريد يسرها
رؤية إحدى هذه المسرحيات. فقال لها من فوره:

- ترى أنتناولين معي العشاء يوماً ثم نذهب إلى مسرحية «فتاة نيويورك» الجميلة فإن
وافقت فسأبتاع مقعدين أماميين.

وقد ذكر هذه العبارة الأخيرة حتى يغريها بها لأنه كان يعلم أن الفتيات غالباً ما
يجلسن في المقاعد الخلفية الرخيصة. وإذا صحبهن الرجال فإنهن قلما يجلسن في مقاعد
أفضل من مقاعد الدائرة العليا من شرفة المسرح. ولم يبد على وجه ميلدريد الشاحب أى
تغيير وقالت:

- ليس لدى مانع..

- متى تأتين؟

-إني أفرغ من عملي مبكرة يوم الخميس...

وكانت ميلدريد تعيش مع عمه لها في تلال كارين . وكانت المسرحية الموسيقية في الثامنة فكان عليهما إذن أن يتناولوا العشاء في السابعة . واقتрحت عليه أن يقابلها استراحة الدرجة الثانية في محطة فكتوريا .

ولم تبد أى شعور بالاعتباط ولكنها قبلت الدعوة وكأنها تسدى جميلا وانتاب فيها شعور بضيق خفي .

ووصل فيليب إلى محطة فكتوريا قبل الموعد الذى حددته ميلدريد ، بنحو نصف ساعة وجلس في استراحة الدرجة الثانية وانتظر ، ولكنها لم تأت وبدأ القلق ينتابه ، وسار المحطة يراقب القطارات الداخلة إليها من الضواحي ومضت الساعة التي حددتها ولم هناك أثر لها . ونفذ صبر فيليب ، وذهب إلى حجرات الاستراحة الأخرى وأخذ يتطلع إلى فيها . ثم خفق قلبه فجأة خفقانا شديدا وقال :

- ها أنت قد جئت بعد أن أعتقدت أنك لن تأتي أبدا .

- جميل منك أن تقول ذلك بعد أن جعلتني أنتظر طيلة هذا الوقت لقد كنت على أن أعود إلى المنزل .

- ولكنك قلت إنك ستنتظرين في استراحة الدرجة الثانية .

- إنى لم أقل هذا فمادمت أستطيع الجلوس في الدرجة الأولى فلماذا أنتظر في الثانية ؟ أليس كذلك ؟

وكان فيليب واثقا من أنه لم يخطئ ولكنه مع ذلك لم يقل شيئا واستقلا عربة . وسأل - أين نتناول طعام العشاء ؟

- لقد كنت أفكر في مطعم (أديلفي) .. هل يناسبك ذلك ؟

- إنى لا أبالي أين نتناول الطعام ..

وكانت تتكلم في غير رقة . فقد أغضبها انتظارها الطويل فكانت ترد على محال فيليب للحديث في كلمات مقتضبة . وكانت ترتدى عباءة طويلة من قماش أسود ووضع لفاعاة مطرزة فوق رأسها . ووصلا إلى المطعم وجلسا إلى إحدى الموائد . وميلدريد حولها في اغتباط ، وقد أضفت الظلال الحمراء والشموع على الموائد وألوان الذهبية والمرايا على الحجرة جوارها .

- إنى لم آت هنا أبدا من قبل .

وابتسمت لفيليب ، وخلعت عباءتها فرأى فيليب أنها ترتدى ثوبا أزرق حائل اللؤلؤ وكانت قد صففت شعرها بمزيد من العناية . وطلب فيليب مشروب الشمبانيا . ولمعت عندما جاء الشراب .

- إنك ستشمل ...

وسألها في غير مبالاة وكأنه لا يشرب شيئا غير الشمبانيا :

- لأنى طلبت هذا المشروب الفوار ؟

- لقد فوجئت عندما دعوتني إلى الذهاب معك إلى المسرح .

ولم يجر الحديث بينهما سهلا لأنها بدت وكأنها لم يكن في جعبتها الكثير مما يقال . وأحس فيليب بشيء من الضيق لأنه لا يسليها . واستمعت هي في غير اكتراث إلى ملاحظاته وعيناها تدور بين الناس الذين يتناولون عشاءهم .

ولم تحاول التظاهر بأنها مهتمة به ونطق بفكاهة أو اثنين ولكنها حملتها محمل الجد ، ولم تبد من الحماسة شيئا إلا عندما أخذ يتحدث عن الفتيات الأخريات في المحل فقالت أنها لا تطيق مديرة المحل وحدثته عن كل مشاكلها بالتفصيل .

وفرغا من تناول الطعام وذهبا إلى المسرح ، وكان فيليب شابا مثقفا فكان ينظر إلى العرض الموسيقي باستهجان لأن النكات فيه كانت بذيئة والموسيقى غير رفيعة .. وخيل إليه أنهم في باريس أكثر إتقانا لهذا النوع من المسرح .. ولكن ميلدريد استمعت أيما استمتاع فضحكت حتى ألمها جنبها ، وكانت تنظر إلى فيليب من آن لآخر عندما تبتهج من شيء فتريد أن تبادل له نظرة سرور ، ثم تصفق في حماسة بالغة . وقالت بعد انتهاء الفصل الأول :

- هذه هي المرة السابعة التي أحضر فيها .. وليس لدى مانع من الحضور سبع مرات أخرى .

وقد اهتمت ملدريد كثيرا بالنسوة اللائى جلسن في المقاعد حولها . ولم تجد واحدة منهن جديرة بإعجابها ولم تتحدث عنهن إلا لتذمهن .. وقد شعر فيليب بعدم الارتياح إزاء هذا وافترض أنها ستقول لكل الفتيات في المطعم إنه اصطحبها وإنها سئمت وجوده معها أشد السامة .

ولذلك شعر بأنه لا يحبها ، ولكنه بالرغم من هذا كان يريد لسبب لا يعرفه أن يكون معها ، ولهذا سألها وهما في طريق عودتهما إلى المنزل :

- أرجو أن تكوني قد استمتعت ..

- إلى حد ما ..

- هل تخرجين معي مساء آخر ؟

- ليس لدى مانع ..

ولم يكن يسمع منها غير أمثال هذه العبارات ، وقد أثار عدم مبالاتها جنونه .. وعندما استلقى في فراشه خيل إليه أنه لا يمكن أن يكون قد وقع في غرام ميلدريد ووجرز .. لقد كان اسمها قبيحا ، ولم يكن يعتقد أنها جميلة وكان يمقت نحافتها . ولم يلحظ إلا في تلك الأمسية بروز عظام صدرها من ثوب السهرة التي كانت ترتديه .. وقد تأمل كل ملامح وجهها فلم يعجب بفمها واشمأز بعض الاشمنزاز من السقم الذى بدا على لونها .. لقد كانت فتاة عادية ، وكانت عباراتها القليلة المكشوفة التي كانت تكررهما بصفة مستمرة تبين تفاهة عقلها . وتذكر ضحكات الصغيرة السمجة أثناء المسرحية الموسيقية . وتذكر تلك الأصابع الصغيرة التي امتدت في حظر عندما رفعت كأسها إلى شفيتها . وكان خلقها

كحديثها كريها في رفته. و تذكر كذلك وقاحتها. و كان أحيانا يشعر بميل إلى لكمها على أذنيها. و لم يدرك في هذه اللحظة لماذا انتابت عواطفه حدة مفاجئة.. لم يبد لها سببا. ولربما كان ذلك لتذكره ضربها على أذنيها الصغيرتين الجميلتين. لقد حن إليها، وفكر في ضم هذا الجسد النحيل الهش بين ذراعيه ، وتقبيل فمها الشاحب ، وأراد أن يربت على وجنتيهما بلونهما الضارب إلى الخضرة .. لقد كان يشتهيها .

لقد كان يفكر في الحب على أنه شعور بالنشوة والابتهاج يمتلك المرء فيشعر أن العالم كله أصبح كالربيع . لقد توقع سعادة ذات نشوة ولكن هذه لم تكن سعادة . بل كانت مغرور نفسانية وشوقا أليما ، وألما مريرا، لم يعرفه أبدا من قبل . وحاول أن يذكر المرة الأولى التي انتابه فيها هذا الشعور فلم يعرف .. وكل ما كان يذكره أنه في كل مرة كان يذهب فيها إلى المحل بعد المرات الثلاث الأولى كان يغشى قلبه شعور هزيل بالألم، وتذكر أنه عندما كان يحدثه كان يحس بأنه مبهور الأنفاس انبهارا عجيبا.. لقد كان تركها إياه هو البؤس بعينه وكانت عودتها إليه هي اليأس... تمدد في فراشة كما تفعل الكلاب وتساءل كيف سيحتل هذا العذاب النفساني الذي لا ينقطع أبدا.

وابتاع فيليب تذكريتين من تذاكر ليلة السبت .. ولم يكن هذا اليوم من الأيام التي تتر فيها عملها مبكرة، ولهذا لم يكن لديها من الوقت ما يتيح لها عودتها إلى منزلها واستبدال ثيابها . ولكنها اعتزمت أن تأتي معها في الصباح بستره سوداء وأن ترتدى ملابسها مسرعا فإذا كانت المديرة منشرحة خاطر سمحت لها بالخروج في الساعة السابعة . واتفق فيليب على انتظارها في الخارج ابتداء من الساعة إلا الرابع. وكان ينتظر هذه الفرصة في شوق إلى أن أعتقد أنها ستسمح له أن يقبلها وهما في العربة في طريقهما من المسرح إلى المحطة وكانت متعة هذه اللحظات توازي نفقات السهرة.

ولكنه عندما ذهب إلى المحل بعد ظهر يوم السبت ليتناول الشاي ويؤكد الموعد ، قابل الرجل ذا الشارب الأشقر خارجا منه ، وكان قد عرف اسمه وهو ميللر وكان ألمانيا تجن بالجنسية الانجليزية وعدل اسمه حتى سار انجليزيا وعاش سنوات كثيرة في إنجلترا. وسمعته فيليب وهو يتكلم وبالرغم من أن لغته كانت طبيعية فإن لكنته لم تكن كذلك. المواطنيين بالضبط. وعرف فيليب أن الألماني كان يغازل ميلدريد فأحس بغيرة شديدة من ولكنه استراح للبرود الذي تتسم به طباعها والذي كان يؤلمه في غير هذه المناسبة . وإذا كان يعتقد أنها مجردة من العاطفة فقد كان ينظر إلى غريمه على أنه لن يكون أفضل حالا منه ولكن قلبه خفق الآن خفقانا شديدا لأن أول ما تبادر إلى ذهنه هو أن ظهور ميللر سيفسد على النزهة التي طالما تاق إليها. ودخل المحل وقد انتابته الكآبة خشية ما يحدث. وجاءت الساقية، وتلفت طلبه وما لبثت أن عادت بالشاي وقالت له وقد بدا على وجهها شعور حقيقي بالضيق:

-إني لجد أسفة فلن أستطيع أن أخرج معك الليلة.

وقال فيليب:

-لماذا

وضحكت قائلة:

-لا تكتئب لهذا فإنها ليست غلطتي. فقد مرضت عمتي ليلة أمس واللييلة هو موعد خروج الخادمة فيجب على أن أبقى معها لأنه لا يمكن أن تترك وحدها. أليس كذلك؟.

-هذا ليس بذى أهمية فسأوصلك بدل هذا إلى المنزل.

-ولكن التذكريتين معك ويؤسفني أن تضيع قيمتهما بهذه الطريقة.

فأخرج فيليب التذكريتين من جيبه ومزقهما .. على مهل في هدوء..

-ولم تفعل هذا؟

-لا أفنك تعتقدين أنني أريد الذهاب إلى تلك المسرحية الموسيقية العفنة بمفردي ؟ إنني لم ابتع هاتين التذكريتين إلا من أجلك.

-إنك لا تستطيع أن توصلني إلى المنزل .. إذا كان هذا هو ما تقصد..

-إذن فأنت على موعد آخر..

-إنني لا أعرف ماذا تقصد .. ولكن الذي أعرفه أنك أناني كغيرك تماما. وإنك لا تفكر إلا في نفسك .. ولست الملوثة إذا كانت عمتي مريضة..

وسرعان ما كتبت قائمة الحساب وتركته.. ولم يكن فيليب يعرف الكثير عن النساء وإلا لعلم أن المرء يجب أن يقبل كذبهن الواضح .. وقرر أن يراقب المحل ليتأكد هل ستخرج ميلدريد مع الألماني.. لقد كان يتوق للتأكد من ذلك الأمر إلى حد سبب له كثيرا من الشقاء .. وفي الساعة السابعة انتظر على الطوار المواجه للمحل وراح يرقب وصول ميللر؛ ولكنه لم يره ثم خرجت ميلدريد بعد عشر دقائق وقد ارتدت العباءة واللفاعاة اللتين كانت ترتديهما عندما اصطحبها إلى مسرح سسافستبرى.. واتضح له من هذا أنها لا تقصد المنزل. ورأته قبل أن يتمكن من الابتعاد فأبطأت قليلا ثم ذهبت إليه على الفور ، وقالت متسائلة:

-ماذا تفعل هنا؟.

فرد قائلا:

-استنشق الهواء ..

-إنك تتجسس على أيها السافل القذر .. لقد كنت أعتقد أنك رجل مهذب .

فقال بصوت منخفض :

-وهل تعتقدين أن أي رجل مهذب يهتم بك؟

لقد تقمصه الشيطان ودفعه إلى أن يزيد الأمر سوءا على سوء ، أراد أن يؤلمها بقدر ما آلمته.

-أعتقد أنني أستطيع أن أغير رأيي إذا شئت ذلك.. فلست مضطرة إلى الخروج معك.. إنني أقول لك أنني ذاهبة إلى المنزل .. ولا أحب أن يتبعني أو يتجسس على أحد..

- هل رأيت ميللر اليوم؟

- هذا ليس من شأنك.. والحقيقة أنني لم أراه.. وبهذا قد تكون قد أخطأت مرة أخرى..

- لقد رأيته بعد ظهر اليوم.. فقد خرج من المحل في اللحظة التي دخلت أنا...

وليكن ، وماذا في ذلك ؟ إنني إذا شئت أن أخرج معه سأخرج معه أليس كذلك؟ ولا أعرف ماذا يصح أن تقوله في هذا الأمر..

- إنك تنتظرينه.. أليس كذلك؟

- وليكن، إنني أفضل أن أنتظره على أن تنتظرني أنت.. ضع هذا في غليونك ودخنه، والآمل علك تعود إلى منزلك ولا تهتم بشئون غيرك.

وانقلب حال فيليب فجأة من الغضب إلى اليأس، وارتجف صوته وهو يتكلم:

- أريد أن أقول لك ألا تكوني فظة معي يا ميلدريد.. فأنت تعرفين أنني مغرم بك وأعتقد أنك

أحبك من أعماق قلبي.. ألا تغيرين رأيك؟ لقد كنت أنتظر خروجك معي الليلة بشوق بالغ.. لكنك لم تأت.. إنه لا يهتم بك اهتماما حقيقيا على الإطلاق.. تعالى وتناولني العشاء معي وسأبتاع تذكرتين أخريين وسنقصد أى مكان تشائين..

- أقول لك إنني لن أذهب معك وأنه لا فائدة من كلامك هذا.. فإني لن أفعل شيئا مما تقول وعندما أقرر شيئا فإني أتمسك به.

ونظر إليها لحظة وقلبه يتمزق من شدة الألم.. وكان الناس يسرعون مارين بهما على الطوار.. والعربات تسير في ضجيج شديد ، ورأى فيليب أن عيني ميلدريد كانا زائغتين كأن كانت تخشى أن تفقد ميللر في وسط الزحام.. وزمجر قائلا لها :

- إنني لا أستطيع أن أستمع على هذه الحال فتلك حال مؤلمة لا أطيقها.. وإذا ذهبت على

الآن.. فسأذهب إلى الأبد.. وإذا لم تأت معي الليلة فإنك لن ترينى مرة أخرى..

- يبدو أنك تعتقد أنني لن أطيق بعدك.. وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن هذا سيكون تخلصا جميلا من لامة قدرة..

- إذن فوداعا..

وأوما برأسه إليها ثم غادرها وهو يعرج في ببطء ولكنه كان يأمل من شغاف قلبه أن تعود فتناديه، ووقف عند مصباح النور التالي ونظر إلى الورا معتقدا أنها قد تشير إليه، وكان حينئذ على استعداد لأن ينسى ولأن يتحمل كل امتهان.. ولكنها عادت أدراجها وبدا أنها كل عن الاهتمام به.. وأدرك أنها سرت لتخلصها منه.

ولم يسترح في نومه تلك الليلة . وكان اليوم التالي هو يوم الأحد فراح يستذكر على الأحياء وجلس والكتاب أمامه وأخذ يقرأ الكلمات ويحرك بها شفتيه حتى يركز انتباهه عليها ولكنه لم يستطع أن يتذكر شيئا ووجد أفكاره تعود إلى ميلدريد في كل دقيقة وراح يعيد الكلمات التي تبادلها أثناء شجارهما، وكان عليه أن يقهر نفسه قهرا لكي يعود بفكره إلى استذكاره، ثم خرج في نزهة.. وكانت الشوارع على الجانب الجنوبي من النهر رطبة مكنة

طيلة أيام الأسبوع ولكن كان فيها نشاط أضفي عليها قليلا من الحيوية من النوع الدنيء... غير أنه في أيام الأحاد عندما تكون الحوانيت مغلقة والعربات نادرة المرور في الطرقات يصبح الجو ساكنا وبه كآبة تغدو بها هذه الشوارع موحشة إلى حد يفوق الوصف، وخيل إلى فيليب أن هذا اليوم ليس له نهاية ، ولكنه كان متعبا إلى حد راح معه في سبات عميق . ومن ثم بدا الحياة في يوم الاثنين وبه عزم أكيد. وكان عيد الميلاد يقترب فرحل عدد كبير من الطلبة إلى الريف ليقضوا الإجازة القصيرة بين فترتي الشتاء ولكن فيليب أبي أن يلبي دعوة عمه لقضاء هذه الإجازة في بلاكستابل واعتذر بقرب الامتحان . ولكنه في الحقيقة لم يرد مغادرة لندن وميلدريد. لقد أهمل دروسه إهمالا شديدا حتى لم يعد لديه إلا خمسة عشر يوما يستذكر فيها دروسه التي كان مقدرا لها أشهر ثلاثة . وشرع يعمل في جد وكلما مر يوم وجد أنه من السهولة أكثر أن يبعد ميلدريد عن فكره وأخذ يمني نفسه على قوة شخصيته ولم يعد الألم الذي قاساه من قبل عذبا مبرحا كما كان، بل غدا نوعا من ذلك الشعور بالتعب الذي قد يشعر به المرء لو ألقى به عن ظهر حصان، وإن لم تصب عظامه بسوء ، ولكن جسده اهتز وامتلأ بالكدمات ووجد فيليب أن في استطاعته أن يرى بعين الفضول تلك الحالة التي مر بها في الأسابيع القلائل التي انقضت وراح يحلل مشاعره ويفسرها في اهتمام ، وسر في نفسه بعض السرور وأذهله أن تفكير المرء وهو خاضع لمثل هذه الظروف ليست له قيمة وأن فلسفته الخاصة التي كان يشعر بالرضاء لأنه اتبعها لم تجد معه فتىلا فانتابته الحيرة لذلك. ولكنه كان أحيانا إذا لمح في الشارع فتاة قريبة الشبه من ميلدريد شعر بقلبه كأنه يوشك أن يكف عن الخفقان . وكان حينئذ يعدو خلفها ليلحق بها وهو غير قادر على السيطرة على نفسه وبه قلق وشوق ولكنه لا يلبث أن يجد الفتاة غريبة لا يعرفها قط . وعاد الرجال من الريف، وقصد فيليب بصحبة دنسفورد ليشربا الشاي في أحد محلات الألف باء تاء ولحقه الشعور بالأسى الذي يثيره الرداء المألوف الذي ترتديه خادومات المحل ، فلم يستطع الكلام وخطر بباله أنها ربما قد نقلت إلى مبنى آخر من مباني المؤسسة التي كانت تعمل فيها . وأنه قد يجد نفسه فجأة وجها لوجه أمامها ، وأثارت هذه الفكرة في نفسه الفزع . حتى خاف أن يلاحظ دنسفورد أنه قد انتابه مرض وتظاهر بأنه ينصت إلى حديثه ولكن حديث دنسفورد كاد أن يجنه ، ولم يستطع أن يمانع نفسه من الصياح في وجه دنسفورد وأن يكف عن الكلام إلا بشق النفس .



ثم حان يوم الامتحان وعندما حل دوره قصد من فوره نضد الممتحن وهو في غاية الثقة وأجاب عن ثلاثة أسئلة أو أربعة ثم عرضوا عليه نماذج متعددة ولم يكن فيليب قد حضر إلا القليل من المحاضرات ولهذا فإنهم كانوا يسألونه عن أشياء لم يطلع عليها في الكتب ولم

يستطيع الإجابة ، وبذل كل ما في طاقته ليزيل جهله ، ولم يكن الممتحن يصر على أن يتلقى الإجابة عن أسئلته . وما لبثت الدقائق العشر المخصصة له أن انتهت . وشعر بثقة في النجاح ولكنه عندما ذهب في اليوم التالي إلى مبنى الامتحان ليرى النتيجة معلقة على الباب ، ذهل إذ لم يجد رقمه بين أرقام الذين حازوا رضاء الممتحنين وقرأ الكشف في ذهول ثلاث مرات ، وكان دنسفورد معه وقال له :

-إني آسف لرسوبك .

وكان دنسفورد قد سأل فيليب عن رقمه عندما استدار فيليب أدرك من وجه دنسفورد المتهلل أنه نجح فقال له :

-هذا أمر ليس بذي بال على الإطلاق .. وإني لفي غاية السرور أنك نجحت وسأتقدم إلى الامتحان في شهر يوليو .

وكان يتوق كثيرا إلى التظاهر بعدم المبالاة . ولكن شعورا بالوحدة التامة استولى عليه بعد ذلك . وبدا لنفسه سخيلا لا جدوى منه وأضحى في حاجة ماسة إلى من يواسيه في ذلك الوقت أغراه هذا لرؤية ميلدريد إغراء لم يستطع مقاومته . وحز في نفسه أنه قلما تتاح له الفرصة لرؤيتها ولكنه كان يريد أن يراها حتى ولو لم يتحدث إليها . وقال في نفسه إن ميلدريد أيا كان شأنها ليست إلا خادمة في المطعم ملزمة بأن تقوم بخدمته . وكانت هي الشخص الوحيد في العالم الذي يهتم أمره ، وليس ثمة فائدة تعود عليه من إخفاء هذا الحقيقة عن نفسه . ولقد كان من المهانة بالطبع أن يعود إلى المحل وكأن شيئا لم يحدث ولكنه لم يبق لديه الكثير من الاحترام لذاته - وكان يأمل في كل يوم أن تكتب إليه وإن يعترف بذلك في صراحة بينه وبين نفسه . ولم يكن يشك في أن ميلدريد تعلم أن أي خطأ يرسل بعنوان المستشفى سيصله ، ولكنها لم تكتب إليه ، إذا فلا بد إنها لم تكن تهتم به إطلاقا وإن رؤيته أو عدم رؤيته لديها سواء . وراح يردد لنفسه :

«لا بد أن أراها .. لا بد أن أراها».

وكانت رغبته جامحة فلم يطق صبرا على الوقت الذي يستغرقه المسير على قدميه ، فذهب في إحدى عربات الأجرة ، مع أنه كان مقتصدا إلى حد يرى معه أن من الإسراف أن يركب العربات في الوقت الذي يمكنه في أن يتجنب ذلك ووقف خارج المحل دقيقة أو دقيقتين .. وحينئذ بدا لها أنها ربما تكون قد غادرت المحل فدخل المحل مسرعا وهو في شدة الفزع ووقع نفاثا عليها في الحال . وجلس فجاءت إليه فأمرها قائلا :

-قدح من الشاي وقطعة من اللحم من فضلك .

وكان يتكلم في صعوبة وهو يخشى أن ينفجر باكيا . وقالت :

-لقد ظننت أنك مت ..

لقد كانت تبتسم ، نعم .. تبتسم .. ويبدو إنها نسيت تماما ذلك المنظر الأخير الذي أراه فيليب ذكراه لنفسه مائة مرة وقال :

-كنت أعتقد أنك إذا أردت رؤيتي فستكتبين إلي .

-إني لمدى من العمل الكثير مما يشغلني عن كتابة الخطابات .

وبدا له أنها لا قبل لها بأن تقول شيئا جميلا .. ولعن فيليب القدر الذي قيده إلى هذه المرأة . وتركته لتجلب له الشاي وعندما أحضرته قالت له :

-أتريد أن أجلس معك دقيقة أو اثنتين ؟

- نعم ..

-أين كنت طوال هذا الوقت ؟

- كنت في لندن .

- لقد ظننت أنك غادرت لندن لقضاء الإجازة .. فلما لم تأت إذا ؟

ونظر إليها فيليب بعينين زائغتين ملتفتين بالعاطفة .

-ألا تتذكرين أنني قلت أنني لن أراك مرة أخرى .

- وما الذي تفعله الآن إذن ؟

وبدت كأنها تتوق لأن تسقيه كأس مهانته حتى الثمالة ولكنه كان يعرفها جيدا ويعلم أنها كانت تتكلم جزافا .. لقد أدته كثيرا بالرغم من أنها لم تحاول إيذائه ، ولم يجبهها بشيء ، وقالت :

-لقد كانت خدعة قذرة تلك التي لجأت إليها معي بتجسسك على بهذه الطريقة ولقد كنت على الدوام أظن أنك رجل كريم بكل ما في هذه الكلمة من معان .

- لا تتصرفي بهذه الوحشية معي ياميلدريد فأني لا أحتمل ذلك .

- إنك فتى غريب الأطوار لا أستطيع فهمك .

-إن الأمر في غاية البساطة .. إنني أحقق ملعون لأنني أحبك من أعماق قلبي وروحي، إنني لمدرك.. أنك لا تهتمين بي قيد أنملة .

-لو أنك كنت إنسانا مهذبا لعدت في طلبي في اليوم التالي لتعتذري لي .

لقد كانت عديمة الرحمة .. وتأمل جيدها وخطر بباله أنه يود لو مزقه بالسكين التي كان يقطع بها خبزه وكان يعرف من علم التشريح أنه سيخرج شريانها .. لكنه كان يود في الوقت نفسه لو غمر وجهها الشاحب الرفيع بقبلاته .

-ليتني أقدر علي أن أجعلك تفهمين كم أحبك إلى حد الهوس

- أنك لم تطلب الصفح مني بعد .

وكساه بياض شديد . لقد كانت تشعر أنها لم ترتكب شيئا من الخطأ في تلك المناسبة وكانت تريد حينئذ أن يدرك ذلك بنفسه ، أما هو فقد كان شديد الكبرياء وشعر لحظة من الزمن أنه يريد أن يقول لها أن تذهب إلى الجحيم لكنه لم يجزئ علي هذا لأن عواطفه قد خذلته فكان علي استعداد لأن يستسلم لكل شيء إلا عدم رؤيتها . وقال :

-إني لفي غاية الأسف يا ميلدريد وأرجو المعذرة .

وكان يدفع هذه الكلمات دفعا وتطلب هذا الدفع جهدا مفزعا. وقالت:

-إني لا أباي أن أقول لك أما وقد قلت ما قلت فأني كنت أود لو خرجت معك في تلك الليلة. لقد كنت أعتقد أن ميللر رجل مهذب ولكني اكتشفت خطئي الآن وتركته يمضي إلى حال سبيله.

وشوق فيليب قليلا ثم قال:

-ميلدريد.. ألا تخرجين معي الليلة؟ هيا بنا نتناول العشاء في مكان ما.

- لا أستطيع ذلك.. فإن عمتي تنتظر عودتي إلى المنزل.

-سأبعث لها ببرقية وفي وسعك أن تقولي لها أنك تأخرت في العمل، فإنها لن تعرف شيئا.. أوه أرجوك يا ميلدريد أن تأتي معي.. إني لم أرك منذ زمن بعيد. وأريد أن أحدث إليك. وأطرقت ميلدريد وأخذت تنظر إلى ملابسها.

قال فيليب:

-دعك من هذا فسنقصد مكانا لا يهتمون فيه بما ترتدين. وسنذهب إلى قاعة الموسيقى بعد ذلك.. قولي نعم من فضلك فسيسرني قولك أعظم السرور.

وترددت ميلدريد لحظة، ونظر إليها بعينين تناسدانها الشفقة.

وقالت:

- وهو كذلك، ليس لدى مانع من الذهاب معك فأني لم أخرج منذ زمن طويل لا أعلم منذ متى.

ولم يستطع أن يمنع نفسه في تلك اللحظة من إمساك يدها وغمرها بالقبلات.

ولم ينجح فيليب في امتحان علم التشريح في نهاية شهر مارس فقد استذكر هو ودينس فور هذا العلم معا مستعينين بالهيكل العظمي الذي كان لدى فيليب. وكان كل منهما يسأل الآخر حتى حفظنا عن ظهر قلب كل مفصل في عظام الإنسان وفائدة كل عظمة وكل كعبرة. ولكن الرعب استولى على فيليب في غرفة الامتحان، وانتابه خوف مفاجئ خشية أن يجيب إجابات خاطئة على الأسئلة. وأدرك أنه رسب في الامتحان ولم يكلف نفسه في اليوم التالي عناء الذهاب إلى المبني ليرى هل رقمه بين أرقام الناجحين. وبفضله للمرة الثانية دخل فيليب قطعاً في زمرة الكسالى الخاملين في فرقته.

ولم يهتم بذلك كثيرا فقد كان لديه أشياء أخرى يفكر فيها. فقد كان يقول لنفسه أن ميلدريد لها من الإحساس ما لأي مخلوق آخر وأن المسالة كلها لا تحتاج إلا إلى إثارة أحاسيسها وكانت له نظريات عن المرأة.. ممزقة القلوب. فأعتقد أنه بالإصرار والمثابرة لابد أن تستسلم يوما وكل ما يحتاج إليه المرء هو أن يتربق الفرصة ويحفظ بهدوء أعصابه وإنهاكها بدلائل الالتفات الصغيرة وانتهاز فرصة إرهاقها الجسماني الذي يفتح أبواب القلب للركة، وأن يجعل من نفسه ملجأ لها مما يسببه لها العمل من كدر وضيق، وأخذ يحدثها عن العلاقات القائمة بين أصدقائه في باريس والنساء الجميلات اللاتي كانوا يعجبون بهن

وكان للحياة التي وصفها سحر لم يكن فيه فحش وراح يضم إلى ذكرياته هو مغامرات ميممي رودلف وموزيت وسائر الأصدقاء ويصب في أذني ميلدريد قصة الفقر مما أدخل عليها البهجة بالضحك والغناء، والحب الطليق الذي خلع عليه الجمال والشباب حلة شعرية روائية. ولم يحاول أبدا أن يهاجم أهوانها بطريقة مباشرة ولكنه كان يسعى إلى التغلب على ذلك بأن يوحى إليها بأن ذلك أمر يتسم بالريفية ولم يسمح لنفسه قط بأن يضطرب من عدم اهتمامها به، أو يضيق صدرا بسبب عدم مبالاتها، بل كان يظن أنه قد سبب لها الملل والسامة واستطاع بجهد أن يكون ظريفا، مسليا وكبح جماح نفسه فلم يغضب ولم يطلب إليها قط شيئا ولم يشك من شيء ولم يؤنبها على شيء. وكان إذا ما أخلفت معه مواعيدها يقابلها في اليوم التالي بوجه بشوش فإذا اعتذرت له قال أن المسالة ليست بذات بال فلم يتح لها أن تدرك أنها تؤلمه.

وأدرك أن هذا العذاب الوجداني قد ألمه وحاول أن يخفي كل شعور منه قد يبعث على الضيق. وقصارى القول أنه تصرف معها تصرف الأبطال.

ولم تشر ميلدريد أبدا إلى هذا التغير الذي طرأ عليه لأنها لم تلاحظه ملاحظة العارف به المدرك له إلا أنها مع ذلك تأثرت به فأطلعت على أسرارها وكانت تحمل إليه مضايقاتها الصغيرة التي تسببها لها مديرة المحل أو إحدى زميلات أو عمته. وراحت تتكلم كثيرا في الفترة الأخيرة، ومع أنها لم تقل شيئا إلا كان تافها فإنه لم يمل الاستماع إليها. وقالت له مرة:

-إني أحبك عندما تريد مغازلتني.

فأجابها ضاحكا:

-إن هذا إطراء لي.

ولم تدرك ميلدريد كيف جعلت كلماته قلبه يهبط بين جنبيه، ولم تقدر كذلك الجهد الذي بذله

-إني لا أمانع في أن تقبلني من أن لآخر.. فإن هذا لا يضيرني في شيء وهو يسرك. -وكانت من أن آخر تتماذى فتسأله أن يدعوها للغداء، وكان ذلك العرض من ناحيتها يملؤه نشوة.. وكانت تقول له بلهجة الاعتذار:

-إني لا أقول ذلك إلى شخص آخر.. ولكني أعلم أنني أستطيع أن أقوله لك أنت..

-إنك لا تستطيعين أن تسربني أكثر من ذلك..

وحدث في إحدى الليالي قرب نهاية شهر أبريل أن طلبت إليه أن يدعوها لتناول الطعام.

-وهو كذلك. وأين تريدين الذهاب بعد ذلك؟

-يحسن ألا نقصد مكانا ما، بل نجلس، نتبادل الحديث، إنك لن تمنع في هذا.. أليس

كذلك؟

-أبدا..

وظن أنها لا بد قد بدأت تهتم به.. فمئذ أشهر ثلاثة كانت فكرة قضاء أمسية في تبادل الحديث تورثها الملل الذى لا يفوقه ملل . وكان يوما جميلا، وزاد الربيع من روح فيليب مرحا، وكان يقنع بالقليل حينئذ، وقال لها وهما على ظهر سيارة هائلة في طريقهما إلى مطعم سوهو:

-ألا تعتقدين أن الجو سيكون جميلا حين يحل الصيف ؟
وكانت ميلدريد قد اقترحت أن يكفا عن التبذير وإلا يستأجرا مركبة خاصة وواصل حديثه قائلا:

-سيكون في استطاعتنا أن نقضي أيام الأحد كلها عند شاطئ النهر.. وسنحمل معنا طعامنا في سلة.
وابتسمت ابتسامة خفيفة . وتشجع فيليب فأمسك بيدها ولم تسحبها منه وابتسم وهو يقول:

-إني أعتقد بحق أنك بدأت تميلين إلى قليلا..
-إنك سخيف ..لأنك تعرف أنني أميل إليك وإلا لما كنت هنا معك.. وكانا قد أصبحا في نفس الوقت عملاء قدامي في المطعم الصغير في «سوهو» وحيثهم صاحبة المطعم بابتسامة عند دخولهما. وكان الخادم ظريفا.
وقالت ميلدريد:

-دعني أنا أطلب العشاء الليلة..
أعطاهما فيليب قائمة الطعام وهو يعتقد أنها في تلك الليلة كانت أجمل منها في أى ليلة مضت. واختارت أطباقها المحببة إليها. ولم تكن أصناف الطعام في المطعم كثيرة، وقد أكلتا مرارا من قبل ما يمكن أن يقدمه. وكان فيليب مرحا في هذه اللحظات. وأخذ ينظر في عينيها وراح يتأمل كل ما في وجنتيها الجميلتين الشاحبتين من كمال . وعندما انتهيا من طعامهما أشعلت ميلدريد لفافة من التبغ مع أنها لم تكن تدخن إلا نادرا، وقالت :

-إني لا أحب أن أرى سيدة تدخن . وترددت لحظة ثم أردفت قائلة :
-هل دهشت عندما طلبت إليك الليلة أن تدعوني لتناول العشاء معك ؟
-لقد سرتني ذلك كثيرا.

ومضت تقول:
-لدى ما أحدثك به يا فيليب:
ونظر إليها مسرعا .. وخفق قلبه .. ولكنه كان قد درب نفسه جيدا على مثل هذا الموقف وقال وهو يبتسم:

-هيا تكلمي بسرعة.
-إنك لن تتصرف بسخافة إزاء ما أقول؟ الحقيقة هي أنني مقدمة علي الزواج .
ورد فيليب قائلا:

-ستتزوجين؟

ولم يستطع التفكير في شيء آخر يقوله ، وكان قد فكر من قبل في هذا الاحتمال مرات كثيرة وتصور ما سيفعله حينئذ وما سيقوله لها.. وقد عانى الآلام عندما جال بخاطره الأسى الذى سيقاسيه. لقد فكر في الانتحار وفي الغضب الجامح الذى سيملكه ولكن لعله قد طاف بذهنه من قبل ما سوف ينتابه من شعور ولهذا فإن كل ما أحس به وقتئذ هو أنه مرهق خائر القوى، لقد أحس بما يحس به المرء عندما ينتابه مرض خطير فتهبط حيويته إلى أقصى الحدود، فلا يبالي بما يؤول إليه أمره ويغدو كل ما يريده هو أن يترك وشأنه وقالت :

-ألا ترى أنني أتقدم في العمر.. إني في الرابعة والعشرين الآن وقد حان الوقت لكي أستقر. وصمت فيليب فلم ينبس ببنت شفة . ونظر إلى صاحبة المطعم التي كانت جالسة خلفه تقدم الشراب والطعام وسرحت عيناه في ريشة حمراء في قبعة إحدى الطاعمات واغتاظت من ذلك.

-ظننت أنك ستهتني بذلك.
-أهنتك .. أليس كذلك ؟.. إني لا أكاد أصدق أن هذا الأمر صحيح.. لطالما فكرت فيه .. لقد سرتني أنك طلبت إلى أن أدعوك الليلة .. ومن هو الذى ستتزوجينه؟
وأجابته وقد صعدت إلى وجهها حمرة خفيفة:

-ميللر..
وهنا صاح فيليب مذهولا:
-ميللر ! ولكنك لم تقابليه منذ شهور؟
-لقد جاء لتناول الغداء في يوم ما في الأسبوع الماضي وطلب إلى ذلك .. إنه يكسب قدرا من المال، سبعة جنيهات في الأسبوع وأمامه آمال كبيرة .

وصمت فيليب مرة أخرى .. وتذكر أنها كانت تحب ميللر على الدوام فقد كان يسليها . وكان في مولده الأجنبي سحر شاذ تشعر به دون وعي منها. وقال أخيرا:
-أعتقد أن هذا أمر لم يكن منه بد فأنت مضطرة لقبول من يعرض أكبر عطاء ومتي تتزوجين؟

-يوم السبت القادم .. لقد أبلغته ذلك.
وشعر فيليب بألم مفاجئ وقال:
-أبهذه السرعة؟

-ستتزوج في مكتب التسجيل .. أن أميل يفضل ذلك.
وأحس فيليب بأنه في غاية الإرهاق ، كان يريد أن يفر منها ورأى أن يأوى إلى فراشة مباشرة وطلب حسابه. وقال لها:

-هيا بنا ساركبك عربة تقلك إلى محطة فيكتوريا.. وأظن أنك لن تنتظري القطار طويلا.
-ألن تأتي معي؟

وظن أنها لا بد قد بدأت تهتم به.. فمئذ أشهر ثلاثة كانت فكرة قضاء أمسية في تبادل الحديث تورثها الملل الذى لا يفوقه ملل . وكان يوما جميلا، وزاد الربيع من روح فيليب مرحا، وكان يقنع بالقليل حينئذ، وقال لها وهما على ظهر سيارة هائلة في طريقهما إلى مطعم سوهو:

- ألا تعتقدين أن الجو سيكون جميلا حين يحل الصيف ؟
وكانت ميلدريد قد اقترحت أن يكفا عن التبذير ولا يستأجرا مركبة خاصة وواصل حديثه قائلا:

- سيكون في استطاعتنا أن نقضي أيام الأحد كلها عند شاطئ النهر.. وسنحمل معنا طعامنا في سلة.
وابتسمت ابتسامة خفيفة . وتشجع فيليب فأمسك بيدها ولم تسحبها منه وابتسم وهو يقول:

-إني أعتقد بحق أنك بدأت تميلين إلى قليلا..
-إنك سخيف ..لأنك تعرف أنني أميل إليك وإلا لما كنت هنا معك.. وكانا قد أصبحا في نفس الوقت عملاء قدامي في المطعم الصغير في «سوهو» وحيثهم صاحبة المطعم بابتسامة عند دخولهما. وكان الخادم ظريفا.
وقالت ميلدريد:

-دعني أنا أطلب العشاء الليلة..
أعطاهما فيليب قائمة الطعام وهو يعتقد أنها في تلك الليلة كانت أجمل منها في أى ليلة مضت. واختارت أطباقها المحببة إليها. ولم تكن أصناف الطعام في المطعم كثيرة، وقد أكلتا مرارا من قبل ما يمكن أن يقدمه. وكان فيليب مرحا في هذه اللحظات. وأخذ ينظر في عينيها وراح يتأمل كل ما في وجنتيها الجميلتين الشاحبتين من كمال . وعندما انتهيا من طعامهما أشعلت ميلدريد لفافة من التبغ مع أنها لم تكن تدخن إلا نادرا، وقالت :

-إني لا أحب أن أرى سيدة تدخن . وترددت لحظة ثم أردفت قائلة :
-هل دهشت عندما طلبت إليك الليلة أن تدعوني لتناول العشاء معك ؟
-لقد سرتني ذلك كثيرا.

ومضت تقول:
-لدى ما أحدثك به يا فيليب:
ونظر إليها مسرعا .. وخفق قلبه .. ولكنه كان قد درب نفسه جيدا على مثل هذا الموقف، وقال وهو يبتسم:

-هيا تكلمي بسرعة.
-إنك لن تتصرف بسخافة إزاء ما أقول؟ الحقيقة هي أنني مقدمة علي الزواج .
ورد فيليب قائلا:

-ستتزوجين؟

ولم يستطع التفكير في شيء آخر يقوله ، وكان قد فكر من قبل في هذا الاحتمال مرات كثيرة وتصور ما سيفعله حينئذ وما سيقوله لها.. وقد عانى الآلام عندما جال بخاطره الأسى الذى سيقاسيه. لقد فكر في الانتحار وفي الغضب الجامح الذى سيملكه ولكن لعله قد طاف بذهنه من قبل ما سوف ينتابه من شعور ولهذا فإن كل ما أحس به وقتئذ هو أنه مرهق خائر القوى، لقد أحس بما يحس به المرء عندما ينتابه مرض خطير فتهبط حيويته إلى أقصى الحدود، فلا يبالي بما يؤول إليه أمره ويغدو كل ما يريده هو أن يترك وشأنه وقالت :

-ألا ترى أنني أقدم في العمر.. إني في الرابعة والعشرين الآن وقد حان الوقت لكي أستقر. وصمت فيليب فلم ينبس ببنت شفة . ونظر إلى صاحبة المطعم التي كانت جالسة خلفه تقدم الشراب والطعام وسرحت عيناه في ريشة حمراء في قبعة إحدى الطاعمات واغتازت من ذلك.

-ظننت أنك ستهنئني بذلك.
-أهنتك .. أليس كذلك ؟.. إني لا أكاد أصدق أن هذا الأمر صحيح.. لطالما فكرت فيه .. لقد سرتني أنك طلبت إلى أن أدعوك الليلة .. ومن هو الذى ستتزوجينه؟
وأجابت وقد صعدت إلى وجهها حمرة خفيفة:

-ميلر..
وهنا صاح فيليب مذهولا:
-ميلر ! ولكنك لم تقابليه منذ شهور؟
-لقد جاء لتناول الغداء في يوم ما في الأسبوع الماضي وطلب إلى ذلك .. إنه يكسب قدرا من المال، سبعة جنيهات في الأسبوع وأمامه آمال كبيرة .
وصمت فيليب مرة أخرى .. وتذكر أنها كانت تحب ميلر على الدوام فقد كان يسليها . وكان في مولده الأجنبي سحر شاذ تشعر به دون وعي منها. وقال أخيرا:
-أعتقد أن هذا أمر لم يكن منه بد فأنت مضطرة لقبول من يعرض أكبر عطاء ومتي تتزوجين؟

-يوم السبت القادم .. لقد أبلغته ذلك.
وشعر فيليب بألم مفاجئ وقال:
-أبهذه السرعة؟
-ستتزوج في مكتب التسجيل .. أن أميل يفضل ذلك.
وأحس فيليب بأنه في غاية الإرهاق ، كان يريد أن يفر منها ورأى أن يأوى إلى فراشة مباشرة وطلب حسابه. وقال لها:
-هيا بنا ساركبك عربة تقلك إلى محطة فيكتوريا.. وأظن أنك لن تنتظري القطار طويلا.
-ألن تأتي معي؟

-أعتقد أنه من الأفضل ألا أفعل ذلك . إذا لم يكن لديك مانع.

وأجابت في كبرياء:

-كما تشاء.. أظن أنني سأراك غدا في موعد الشاي..

-لا ... أعتقد أنه من الأفضل أن نكف عن ذلك الآن فلست أعلم لم أظل أسبب لنفسي الألم

.. لقد دفعت أجر العربة وأومأ إليها برأسه ودفع بابتسامة إلى شفتيه ثم قفز في إحدى السيارات العامة واتخذ طريقة إلى منزله . ودخل غليونه قبل أن يأوى إلى فراشه ولكنه وجد صعوبة كبيرة في أن يبقي عينيه مفتوحتين ولم يكن يعاني أى ألم ولم يكدر رأسه يحس الوسادة حتى راح في سبات عميق.

وكان فيليب يتوجس خيفة من اليوم الذى ستتزوج فيه ميلدريد، فقد كان يتوقع أن يثير فيه ذلك الحادث ألما لا يستطيع أن يحتمله.. ولهذا شعر بالارتياح عندما وصله خطاب من هايوارد في صباح السبت يقول فيه أنه قادم في ساعة مبكرة من هذا اليوم نفسه وسيحاول العثور علي فيليب ليساعده في البحث عن مسكن له. وكان فيليب يتوق إلى انتزاع نفسه من هو فيه فيبحث في أحد الجداول وعرف القطار الوحيد الذى يمكن أن يكون قد وصل فيه هايوارد وذهب لمقابلته، وكان جمع شمل الصديقين اجتماعا حماسيا وتركوا المتاع في المحطة وغادراها في مرح واقترح هايوارد كعادته أن يذهب قبل كل شيء لزيارة المعرض القومي لأنه لم ير لوحات ما منذ فترة من الوقت وقال إنه في حاجة كي يلقي نظرة عليه حتى يسترد انسجامه مع الحياة وكان فيليب نفسه قد قضى شهورا دون أن يجد من يتحدث إليه عن الفن والأدب .. كان هايوارد منذ أيام باريس قد أنهك في قراءة الشعراء المحدثين الفرنسيين وفي فرنسا طائفة كبيرة منهم وكان هايوارد قد عرف عددا من العباقرة استطاع أن يحدث فيليب عنهم، وراحا يجولان في المعرض وكل منهما يشير إلى اللوحات التي تحوز إعجابه، وانتقلا في حديثهما من موضوع إلى آخر وتكلما في حماسة بالغة وكانت الشمس ساطعة والهواء دافئ.

وقال هايوارد:

-هيا نذهب ونجلس في الحديقة وسنبحث عن المسكن بعد الغداء...

وكان الربيع جميلا.. وبدا اليوم من تلك الأيام التي يشعر المرء فيها بأنه يكفي أنه (حي) فقد كانت خضرة الأشجار الغضة زاهية أمام زرقة السماء، وكانت قطع السحاب الصغير البيضاء تتناثر في السماء الزرقاء الشاحبة. وفي نهاية نهر المياه الصغير الذى تزدان به الحديقة كانت الكتلة الرمادية من حرس الفرسان وكان لأناقة المنظر المنتظمة سحر يمثل صورة القرن الثامن عشر التي لا تذكر المرء بصورة «واتو» ذات الطبيعة البسيطة الممتعة التي تصور غابات الوديان التي يراها المرء في الأحلام بل تذكر بالصور العادية التي رسمها «بابيست باترس» وأفعم قلب فيليب خفة وأحسن بما سبق أن قرأه من قبل بأن الفن يحرس النفس من الألم (لأن نظرة فيليب إلى الحياة كان يحدها الفن) . وقصد الإثنين مطعم

إيطاليا لتناول الغداء، وطلبا زجاجة من النبيذ وراحا يتبادلان الحديث وهما يتناولان الطعام على مهل. وذكر كل منهما الآخر بمن عرفا في (هايديلبرج) وتحدثا عن أصدقاء فيليب في باريس وعن الكتب واللوحات والأخلاق والحياة وفجأة سمع فيليب دقات الساعة وهي تعلن الثالثة وتذكر أن زواج ميلدريد قد بدأ ، وشعر أنه هناك شيئا يحز في قلبه وظل دقيقة أو دقيقتين لا يستطيع سماع حديث هايوارد، ولكنه ملأ كأسه بالنبيذ ولم يكن معتادا على الخمر فصعد إلى رأسه ومهما يكن ما أصابه منه فقد أحس في هذه اللحظة أن قلبه قد خلا من الهم. ذلك أن عقله النشط ظل خاملا عدة شهور وما لبث الحديث الآن أن أسكره، وسره أن وجد من يتحدث إليه ويهتم بما يهتم به من موضوعات وأفاد فيليب من زيارة هايوارد أكبر فائدة وكلما مر يوم قل تفكيره في ميلدريد وأخذ ينظر إلى الماضي وهو مشتمز منه كاره له وتعجب كيف استسلم لمثل هذا الحب المهيمن وعندما خطرت بباله ميلدريد صحب صورتها شعور بالمقت والغضب لما عرضته له من الامتهان الشديد ، وصورها له خياله الآن بكل ما تتصف به من نقص في جسمها وآدابها مبالغ فيه أشد المبالغة فكان جسمه يرتجف من مجرد التفكير في أنه كانت له صلة بها.

وحدث نفسه قائلا: إن هذا يبين شدة ضعفي اللعين . لقد كانت مغامرته أشبه بمن يأتي في إحدى الحفلات فعلة كريهة لا يمكن الاعتذار عنها بحال من الأحوال وكان العلاج الوحيد لهذه الحال هو النسيان وساعده عليه فظاعة ما عاناه من تحقير ومهانة ، فقد كان أشبه بالثعبان الذى يبدل جلده القديم بأخر جديد .. ونظر إلى الجلد القديم وغثت نفسه وابتهج فيليب لأنه استعاد سيطرته علي نفسه من جديد وأدرك حينئذ كم من لذات في الدنيا أضاعها بانغماسه في هذا الجنون الذى يسمونه الحب .. لقد لاقى منه الكفاية حتى سئم ولم يكن يريد الوقوع في شرك الحب مرة أخرى إذا كان هذا هو الحب وقص فيليب علي هايوارد بغض ما مر به وتساءل فيليب :

-أليس هو سوفو كليس الذى راح يدعو ربه أن يفك أسره من وحش العاطفة الكاسر الذى ابتلع أوتار قلبه؟

لقد بدا علي فيليب حقا أنه ولد من جديد ، فراح يتنفس الهواء المحيط به وكأنه لم يتنفس مثله من قبل وانغمس كما ينغمس الطفل في أحوال هذا العالم وكان يسمي فترة الجنون التي قضاهها هذه «سنة شهور من الأشغال الشاقة».

لم يستقر هايوارد في لندن إلا أياما قلائل حتى وصلت فيليب من بلاكستابل، بطاقة دعوة لزيادة خاصة معارض الصور فصحب هايوارد معه وعندما كانا يتأملان فهرس الصور لاحظا أن للوسون لوحة في المعرض وقال فيليب :

-أعتقد أنه هو الذى بعث بالبطاقة .. هيا بنا نبحث عنه فلست أشك في أنه سيكون واقفا أمام لوحته.

منه على أكثر من خمسة عشر جنبها في مقابل قصة مكونة من ثلاثة آلاف كلمة ولكنها كانت قانعة وقالت :

- مهما يكن ما تأخذه فإنها لا تكلف القارئ أكثر من بنسين والقراء يقرأون القصة أكثر من مرة وما علي إلا أن أبدل الأسماء وهذا كل ما في الأمر فإذا شعرت بالسأم فكرت في أجر غسيل الثياب ، وإيجار المنزل وثمان الملابس اللازمة للطفل فأعود إلى الكتابة مرة أخرى . وإلى جانب هذا كانت السيدة نيزيبت تنتقل بين عدد من دور التمثيل التي تحتاج إلى بعض الممثلين الإضافيين وكانت تكسب من ذلك ستة عشر شلنا تصل أحيانا إلى جنبه في الأسبوع في المدة التي تعمل فيها وبانتهاء اليوم شعرت بالتعب الشديد ونامت نوما عميقا أشد العمق وكانت تستغل ظروفها الصعبة إلى أقصى حد ممكن واستطاعت بروحها الفكاهة الشديدة، أن تجد التسلية في كل الظروف الباعثة علي الغضب وكانت تسوء حالتها أحيانا فلا تجد معها شيئا من المال وعندئذ تجد أشياءها التافهة طريقها إلى محال الرهون عند طريق جسر فوكسهول وتكتفي بأكل العيش والزبد حتى تتحسن الأحوال ولكنها لم تكن تفقد مرحها أبدا.

وقد أثارت حياتها التي لا تتغير أبدا اهتمام فيليب وكانت تثير ضحكة فتجعله يضحك بطريقتها الخيالية في قص كفاحها عليه وسألها لماذا لا تحاول أن تكتب عملا أدبيا من نوع أفضل ، ولكنها كانت تعرف أنها تعوزها هذه الموهبة وأن القصص الكريهة التي كانت تكتبها وتجازى عليها بقدر مقبول من المال كانت خير ما تستطيع كتابته . ولم يكن لديها من الآمال غير أن تدوم الحياة التي تحياها ويبدو أنها لم يكن لها أقارب .. وكان أصدقائها فقراء مثلها. وقالت يوما لفيليب :

- إني لا أفكر في المستقبل طالما كان لدى من المال ما يكفي إيجار المنزل ثلاثة أسابيع وجنيه أو جنيهان للطعام ، ثم لا أهتم بشيء بعد ذلك ، ذلك أن الحياة لا تستحق أن يحياها المرء إذا كان يشغل باله بالحاضر والمستقبل معا. فإذا ما ساءت الأحوال إلى أقصى حد فإن الله يحدث بعد ذلك أمرا . وسرعان ما اعتاد فيليب أن يذهب لتناول الشاي معها كل يوم وكان يحمل كعكة أو رطلا من الزبد أو قليلا من الشاي حتى لا يثقل عليها بزياراته وبدأ كل منهما ينادى الآخر باسمه الأول ، وكان العطف الأنثوي شيئا جديدا علي فيليب ، وكان يبتهج عندما يجد شخصا يعير مشاكله أدنا صاغية .. وكانت الساعات تمر سريعا، ولم يخف عنها إعجابه بها فقد كانت له رفيقا ولم يستطع إلا أن يقارنها بميلديريد فوجد الفرق بينها كبيرا . وجد في ميلديريد غباء وغنادا يجعلانها ترفض الاهتمام بأي شيء لا تعرفه ووجد في هذه البديهة الحاضرة والفهم السريع وغاص قلبه بين جنبيه عندما جال بخاطره أنه كان من المحتمل أن يربط نفسه إلى الأبد بامرأة مثل ميلديريد . وحدث في إحدى الأمسيات أن قص علي نورا قصة حبه كلها ولم يكن في القصة ما يدعوه لأن يفخر بنفسه وكان من أسباب سروره أن تستمع إليه بمثل هذا العطف الساحر وقالت عندما انتهت من حديثه:

وكانت اللوحة رسما جانبيا لروث تشاليس وقد قبعت في أحد أركان المعرض ولم يكن لوسيون بعيدا عنها وبدأ عليه أنه تائه قليلا في قبعته العريضة وثيابه الفضفاضة الحائلة اللون وهو بين الجماهير الأنيقة التي تجمعت لمشاهدة المعرض. وحيا لوسون فيليب في حماسة وبلغه بطلاقة المعهودة أنه جاء ليعيش في لندن ، وأن روث تشالي فاجرة وأن أستأجر مرسما وأنه ضاق ذرعا بباريس وأنه كلف برسم إحدى اللوحات وأنه يجب أن يتناولوا الغداء سويا وأن يتحدثا حديثا طيبا كالذي كان يتحدثان به في الماضي وذكر فيليب بأنه سبق أن عرف هايوارد وسره إذ وجده قد ارتاع قليلا لأناقة ثياب هايوارد وخلقه المتعالي، وكانت هذه الثياب منسجمة عليه خيرا مما كانت تنسجم عليه ثيابه في المرس القذر الصغير وجلسا إليه في حال أفضل مما كان عليه في المرس الذي تقاسمه لوسون وفيليب في باريس.



واصل فيليب عمله في إتقان ويسر وكان لديه عمل كثير فقد كان عليه أن يؤدي في شهر يولييه الأجزاء الثلاثة من الامتحان المشترك الأول وكان قد رسب في اثنين من قبل ولكن وجد الحياة بهيجة وأصبح له صديق جديد. فبينما كان لوسون يبحث عن نموذج له وجد فتاة كانت تكمل دراستها في إحدى دور التمثيل وأراد أن يقنعها بالجلوس لكي يرسم فاقام لها حفل غداء صغيرا يوما من أيام الأحد، وصحبت معها رقيبا، وقدم إليها فيليب وطلب إلى فيليب أن يكون رابعهم كما طلب إليه أن يخصصها باهتمامه، ووجد أن ذلك السهولة بمكان فقد اتضح له أنها ثرثرة لطيفة حديثها مسل وطلبت إلى فيليب أن يزورها فقد كانت تسكن في ميدان فنسنت وكانت تتناول الشاي دائما في هذا المسكن في الساعة الخامسة وذهب إليها فيليب وسرته الحفاوة التي قوبل بها وزارها مرة أخرى ولم تكن الس «نيزيبت» قد تعدت الخامسة والعشرين وكانت صغيرة الجسم جدا لها وجه قبيح يبعث النفس السرور وعينان شديتا اللعان ووجنتان حمراوان برزت عظامهما وفم واسع والتناقض الشديد في ألوان جسمها يذكر المرء بلوحات المحدثين من الفنانين الفرنسيين كانت بشرتها شديدة البياض وجنتاها شديتي الاحمرار وحاجباها سميكين وشعر رأسها أسودان وكان لكل هذا أثر غريب فيه شيء غير طبيعي ، ولكنه لا يبعث إلا الامتعاض إطلاقا وقد افترقت السيدة نيزيبت عن زوجها وكانت تكسب قوتها بكتابة القصص القصيرة الرخيصة . وكان هناك ناشران متخصصان في نشر هذا النوع القصص فكانت تعمل في كتابتها أكثر ما تستطيع وكان أجر هذا العمل قليلا فلم تكن تحب

-أظن أنك قد تخلصت من هذه المشكلة تماما.

وكانت لها في بعض الأحيان طريقة لطيفة في إمالة رأسها علي أحد الجانبين كأنه إحدى غرائب «ابردين». وكانت في يوم ما جالسة في مقعد قائم الظهر، تحيك ملابسها، لأن لم تكن تستطيع قضاء الوقت بلا عمل واستراح فيليب عند قدميها. وتنهد قليلا:
-إني لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتن لأن هذا الأمر قد انتهى ..
وتمتت قائلة :

-يا لك من شخص مسكين لا بد أنك قضيت وقتا عصيبا ..

وأرادت أن تظهر عطفها عليه فوضعت يدها علي كتفه فأخذها وقبلها ولكنها سحبته بسرعة. وسألته وقد علت حمرة الخجل وجهها :

-لماذا فعلت ذلك؟

-أتمانعين؟

وتأملته لحظة وقد تألأت عيناها ثم ابتسمت قائلة :

-لا أمانع

ونهض جالسا علي ركبتيه وواجهها، ونظرت في عينيه في ثبات وارتعد فمها الكبير في ابتسامة وقالت :

-ماذا تريد ..؟

-هل تعلمين أنك ساحرة .. إني لممتن لك أنك كنت لطيفة معي لشد ما أنا مغرم بك .

-كف عن هذا الغباء.

وأمسك فيليب بمرفقها وجذبها نحوه ولم تبد مقاومة ما ولكنها انحنت إلى الأمام قليلا فقبل شفتيها الحمراء وسألته مرة أخرى:

-لماذا فعلت ذلك ؟

-لأنني أجد فيه راحتي .

ولم تجبه ولكن نظرة حنونا بدت في عينيها ومرت بيدها برقة فوق شعره وقالت :

-هل تعلم أنه من الحماسة منك أن تتصرف هذا التصرف ؟ لقد كنا صديقين حميمين وكان يحسن بك كثيرا أن تترك الأمر عند هذا الحد.

فرد عليها فيليب قائلا :

- إذا كنت تريدين إرضائي حقا فلا تربتي علي وجنتي وأنت تتكلمين .

فضحكت ضحكة صغيرة ولكنها لم تمتنع عما كانت تفعل وقالت :

- لقد كان خطأ كبيرا من جانبي .. أليس كذلك ؟ ..

ونظر فيليب إلى عينيها في دهشة مصحوبة بالسرور فوجدهما تترقرقان بالدموع وفيهما ما بعث السرور إلى نفسه واهتز قلبه فجأة وأغرورقت عيناه بالدموع وقال لها ولا يكاد يصدق ما يرى :

-نورا .. ألا تحبينني ..؟

-أيها الولد الذكي .. أنك تسال أسئلة بلهاء .

-عزيزتي نورا .. لم يخطر ببالي أبدا أنك قد تحبينني .

وأحاطها بذراعيه وقبلها وأسلمت هي نفسها راضية إلى أحضانه وهي تضحك وتصيح وتحمر خجلا . وما لبث أن رجع إلى الخلف وجلس على كعبيه وتركها ، ونظر إليها في فضول قائلا :

- لقد قضيت على ..

- لماذا ؟ ..

- إني لفي غاية الدهشة ..

-ومسرور ؟

وصاح من كل قلبه :

-وإني مبتهج وفخور وشاكر ..

وأمسك بيدها وغمرها بقبلاته .. وكانت هذه بالنسبة لفيليب بداية سعادة بدت قوية باقية وأصبحا عاشقين ولكنهما ظلّا صديقين .. وكانت لدى نورا غريزة أمومة ارتوت بحبها لفيليب. لقد كانت تريد شخصا تدله وتؤنّبه وتنهمك فيه . وكانت ذات طبع أنيسة تجد لذة في خدمة غيرها من الناس فوجدت متعة في السهر على صحة فيليب والعناية بملابسه الداخلية، وكانت تشفق وترثي لعاهته التي كان شديد الحساسية بها ... وقد أعربت عن رثائها هذا بطريقة غريزية وذلك بالرأفة التي أبدتها نحوه ، وكانت صغيرة السن قوية البنية صحيحة الجسم وكان من الطبيعي أن تهب بحبها وكانت دائما مبتهجة مسرورة مرحة وقد أحببت فيليب لأنه كان يضحك معها لكل الأشياء المسلية التي كانت تستأثر بخيالها وقد أحبته قبل كل شيء لأنه كان هو فيليب نفسه لا يتكلف شيئا .. وعندما أخبرته بكل هذا أجابها في مرح :

-هراء .. إنك تحبينني لأنني شخص صامت .. ولا أريد أن أتفوه بشيء ..

ولم يكن فيليب يحبها على الإطلاق ولكنه كان مغرما بها إلى أقصى الحدود سعيدا لوجوده معها وكان حديثها مشوقا مسليا ويسبب له المتعة وقد أعادت إليه إيمانه بنفسه ، وبدا كأنها وضعت بلسمًا على الجراح التي أصابت روحه وقد شعر بالفخر لأنها كانت تهتم به وأعجب بشجاعته وتفأؤلها ، وتحديها الجريء للقدر ، وكانت لها فلسفة خاصة بنسبته وعملية وسليمة.

وقالت له ذات يوم :

- هل تعلم أنني لا أؤمن بالكنائس ولا بالقساوسة ومن إليهم ولكني أؤمن بالله وأعتقد أن الله يريدك أن تعمل لبلوغ الغاية التي تصبو إليها وتهب العون لكل كلب أعرج كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . وأعتقد أن الناس جميعهم لطاف ، وإني لأسفة لأولئك الذين ليسوا كذلك ..

وسألها فيليب :

-ما رأيك في الدار الآخرة ؟

-إن علمها عند ربى !

وكانت لنورا موهبة أنثوية في الثناء الرقيق على الآخرين ، وأعتقدت أن فيليب كان شجاعا عندما ترك باريس بعد أن أدرك أنه لن يصبح فنانا مرموقا. وقد سحرته بلطفه عندما أعرب عن إعجابها به في حماسة لأنه لم يكن واثقا كل الثقة هل تصرفه يدل على الشجاعة أو على العزيمة . وقد سره أن يعلم أنها ترى في هذا التصرف روح البطولة. وأثار نورا موضوعا كان أصدقاؤه يتجنبونه بفطرتهم فقالت :

-إن من السخف أن تكون شديد الحساسية بالنسبة لقدمك الحنفاء.

ورأت عندئذ أن حمرة الخجل قد علت وجهه بشدة ولكنها استمرت تقول:

-أنت تعلم أن الناس لا يفكرون في هذا الأمر بقدر ما تفكر فيه أنت، أو بما يقرب من هذا القدر . إنهم يلاحظونه عند أول مرة يرونك فيها ثم ينسون كل شيء عنك.

ولم يجب فيليب فقالت:

-إنك لست غاضبا منى.. أليس كذلك ؟

-لا...

وطوقت عنقه بذراعها.

-إنك تعلم أنى لا أحدث عن هذا الأمر إلا لأني أحبك ولست أريد أن أسبب لك شيئا من الشقاء.

فأجابها فيليب مبتسما :

-تستطيعين أن تحدثنى عن أى شيء تريدين وأود لو أستطيع أن أفعل ما أبدى لك به شكرى وكانت تنتقل به إلى موضوعات أخرى تستحوذ بها على تفكيره ولا تجعله يغضب وتضحك منه عندما يثور . وجعلت منه شخصا أكثر رقة . وقال لها ذات مرة :

-إن في مقدورك أن تجعليني أفعل أى شئ تريدين .

-وهل تمنع في ذلك .. ؟

-لا .. إنى أريد أن أفعل ما تشائين .

وكان في مقدور فيليب أن يدرك مقدار ما نال من سعادة فقد خيل إليه أنها منحتة ما تستطيع أن تمنحه إياه زوجة ، مع احتفاظه بحريته فقد كانت نورا أكثر الأصدقاء الذين عرفهم سحرا وقد وجد لديها عطا لم يجده عند أى شخص ما .

وكانت امتحانات فيليب يقترب موعدها ، واهتمت بها نورا كما اهتم بها هو ، وتأثر بالاهتمام وازدهى به . وجعلته يعدها بأن يعود إليها من فوره وبلغها النتيجة ..

أبلى فيليب في هذه المرة بلاء حسنا في الامتحانات الثلاثة ، وعندما أبلغها ذلك انهم دموعها وقالت :

-إنى ليسرنى ذلك كل السرور وقد كنت في شدة القلق .

-أيتها الحمقاء الصغيرة .

وضحك ولكن كانت هناك غصة في حلقه. ولم يكن أحد ليستطع أن يقاوم السرور الذى ينتابه للطريقة التي تلقت بها نبأ نجاحه .



شعر فيليب وهو ينهض من فراشه في صبيحة أحد الأيام كان رأسه يدور ، فعاد إلى فراشه مرة أخرى واكتشف فجأة أنه مريض ، فقد كان جسمه كله يرتجف من البرد وأحس بالألم في جميع أطرافه . وعندما جلبت له صاحبة المنزل فطوره ، ناداها من الباب المفتوح وقال لها إنه مريض ، وطلب قدحا من الشاي وكسرة من العيش المقدد ، وبعد دقائق سمع طرقا على الباب ودخل جريفت وكانا قد عاشا في المنزل نفسه ما يزيد على عام ، ولكن علاقتهما لم تزد على إيماءة من أحدهما للآخر إذا تقابلا في الممر ، وقال جريفت :

-سمعت أن بك وعكة .. فرأيت أن أمر لأرى ما بك .

واحمر وجه فيليب خجلا لغير سبب يعرفه واستهان بالأمر كله وقال إنه سيتحسن في ظرف ساعة أو ساعتين .

وقال جريفت :

-دعني أقيس حرارتك .

وأجاب فيليب وهو منفعل :

لا ضرورة لذلك على الإطلاق .

- هيا ... هيا .

ووضع فيليب مقياس الحرارة في فمه . وجلس جريفت على طرف الفراش وأخذ يحدثه في مرح لحظة من الزمن ثم أخرج مقياس الحرارة ونظر فيه . وقال له :

-والآن استمع إلى أيها الفتى العجوز .. لا بد أن تلزم الفراش وسوف أحضر معي ديكون العجوز ليلقى عليك نظرة .

فقال فيليب :

-هراء .. ليس في الأمر شيء وأحب ألا تزج نفسك بشأني .

-ليس في الأمر إزعاج على الإطلاق ، إن حرارتك مرتفعة ويجب أن تلزم الفراش، إنك ستلزم فراشك .. أليس كذلك ؟

كان في حديث جريفت سحر غريب . كان فيه مزيج من الجد والرقعة وكان في هذا جاذبية لا حد لها وهمهم فيليب وهو يغض عينيه ويبتسم :

- إن لك لطريقة في التسرية عن المرضى .

وسوى جريفت الوسادة ، ورتب له ملاءات الفراش بمهارات ثم دثره وذهب إلى غرفة الجلوس الخاصة بفيليب بحثاً عن دورق قارورة ماصة (سيفون) فلم يجدها فذهب وأحضرها من حجرته . وأسدل ستائر النافذة . وقال له :

-والآن فلتنم .. وسأتى بالرجل العجوز حالما يفرغ من عمله في العنابر .

وخيل إلى فيليب أن ساعات طوالاً مرت قبل أن يزوره أحد .. وشعر بأن رأسه يكاد يتصدع ومزق الألم أطرافه وكان يخشى أن يبكى من شدة الألم . ثم سمع نقرا على الباب ودخل جريفت قويا صحيحا مرحا وقال :

-ها هو ذا دكتور ديكون .

وتقدم الطبيب وكان رجلاً مسناً ذا خلق رقيق ، وكان فيليب يعرفه بصوته لا غير وبعد قليل من الأسئلة وكشف سريع ثم التشخيص سأل جريفت وهو يبتسم :

-ماذا تظن نوع مرضه ؟

-انفلونزا .

-هذا عين الصواب .

وجال دكتور ديكون ببصره في الحجرة الرطبة المظلمة وقال :

-ألا تحب أن تذهب إلى المستشفى ؟ فسيضعونك هناك في غرفة خاصة وستلقى هناك من العناية أحسن مما تلقاه هنا .

وقال فيليب :

-إني أفضل البقاء حيث أنا .

ذلك أنه لم يكن يحب أن يزجج ، وكان الخجل ينتابه كلما احتواه مكان جديد ، ولم يطق تصور الممرضات وهن يرحن ويجنن حوله ثم نظافة المستشفى الكئيبة . وقال جريفت في الحال :

-إني أستطيع العناية به يا سيدى .

-وهو كذلك .

ووصف الطبيب الدواء .. وأدلى إليهما بالتعليمات ثم غادرهما . وقال جريفت :

-والآن عليك أن تنفذ ما أقوله لك بالضبط .. فأنا ممرضتك النهارية والمسائية معا .

ورد فيليب قائلاً :

-إن هذا لكرم جميل منك .. ولكنى لن أحتاج إلى شئ .

-سأحمل هذه إلى الصيدلية لإعداد ما بها ثم أعود إليك .

وبعد قليل ، جاء جريفت بالدواء ، أعطى فيليب جرعة منه ثم صعد إلى الطابق العلوى ليحضر كتبه وقال عندما عاد :

-ألدك مانع من أن أعمل في حجرتك هذا المساء ؟ وسأترك الباب مفتوحاً حتى يمكنك أن تنادينى إذا أردت منى شيئاً .

واستيقظ فيليب في ساعة متأخرة في ذلك اليوم بعد نوم غير مريح وسمع أصواتاً في حجرة الجلوس . لقد جاء صديق لرؤية جريفت .. وسمع جريفت يقول :

-أرى من الأفضل ألا تأتى الليلة .

ثم دخل الحجرة إنسان آخر بعد دقيقة أو اثنتين وأعرب عن دهشته لأنه وجد جريفت هناك . وسمعه يشرح له سبب وجوده فيها .

-إني أسهر على طالب في السنة الثانية يشغل هذه الحجرات ، إن المسكين مصاب بالأنفلونزا ، لن نلعب الورق أيها العجوز .

وسرعان ما ترك جريفت وحده فناداه فيليب وسأله :

-أخبرني .. إنك لن تتخلى عن حفل الليلة .. أليس كذلك ؟

-هذا ليس بسببك .. فإن على أن أستذكر دروس الجراحة .

-لا تتخل عن حفلك فإنني سأكون في خير حال ، ولا تزعج نفسك بشأني .

-ليس في الأمر إزعاج .

وازدادت حال فيليب سوءاً ، ولما جن الليل بدأ فيليب يهذى قليلاً ، ولكنه استيقظ قبيل الصباح من نوم غير مريح ، ورأى جريفت ينهض من مقعد كبير ذى مسندين ، ويحبو على ركبتيه ، بأصابعه قطع الفحم ويلقيها في النار قطعة قطعة . كان يرتدى منامته وعليها عباءة ، وسأله فيليب :

- ماذا تفعل هنا ؟

-هل أيقظتك ؟ لقد حاولت أن أشعل النار دون أن أحدث ضوضاء .

-ولم لم تأو إلى فراشك .. كم ساعة الآن ؟

-حوالي الخامسة .. ولقد رأيت أن من الخير أن أبقي معك الليلة ، فجننت بمقعد ذى ساندتين لأنني ظننت أنى إذا افترشت حشية فسانام نوما عميقاً ولن أسمعك إذا أردت شيئاً .

فقال فيليب في أنين :

-أود لو لم تكن كريماً معي إلى هذا الحد . فلنفرض أن العدوى انتقلت إليك .

فقال جريفت وهو يضحك :

- عندئذ ستقوم أنت بتمريضى أيها الفتى العجوز .

وفتح جريفت النافذة في الصباح وبدا عليه الشحوب والإرهاق بعد سهرة طول الليل ، ولكنه كان في غاية المرح وقال لفيليب وهو مبتهج :

- والآن سأغسل لك جسمك .

فأجاب فيليب في خجل :

- إني أستطيع أن أغتسل بنفسى .

- هراء .. لو أنك كنت في العنبر الصغير لغسلت لك ممرضة جسمك وفي وسعى أن أفعل ذلك كما تفعله الممرضة .

وكان فيليب ضعيفا منهوك القوى لا يستطيع المقاومة فسمح لجريفت أن يغسل له يديه ووجهه ، وقدميه وصدرة وظهره . وفعل ذلك كله في رقة ساحرة ، وهو يحدثه حديثا وديا ، ثم بدل الملاءة كما يفعلون في المستشفى ، وسوى الوسادة ورتب الفراش ، وقال :

- إنني لأود أن تراني الأخت أرثر .. فسيثير ذلك أرقها وسيأتى ديكون لعيادتك مبكرا . وقال فيليب :

- إنني لا أستطيع أن أتصور لماذا تتصرف بهذا الكرم نحوى .

- إنه تدريب جيد لى ومن أحسن الفرص التي تتاح للمرء أن يجد مريضا .

وأعد جريفت له فطوره وخرج لارتداء ملابسه وتناول فطوره ، ثم عادة في الساعة العاشرة إلا بضع دقائق يحمل عنقودا من العنب وبعض الازدهار وقال فيليب :

- إنك لفي غاية العطف .

ولزم فيليب الفراش خمسة أيام ، وتبادلته نورا وجريفت العناية به وتمريضه وكان تصرف جريفت معه تصرف الأم الحنون الفكهة وإن لم يكن أكبر منه سنا . فقد كان شخصا مفكرا رقيقا ومشجعا ولكن ميزته الكبرى هي حيويته التي يبدو أنها كانت تضيء الصحة الكاملة على كل شخص على اتصال به .

ولم يكن فيليب معتادا على التدليل الذى يستمتع به معظم الناس من أمهاتهم أو أخواتهم وأثرت فيه كثيرا تلك الرقة التي يتصف بها هذا الشاب القوى ، وتحسنت حال فيليب ، وكان جريفت يجلس في تراخ في حجرة فيليب ويسليه بأقاصيص مرحة عن مغامرات ، فقد كان شخصا محبا لمغازلة النساء في مقدوره أن ينغمس في ثلاث مغامرات غرامية أو أربع في وقت واحد . وكان من اللطيف أن يستمتع المرء إلى الوسائل التي كان يضطر إلى اتباعها لتتخلص من المآزق وقد أوتى القدرة على إضفاء بهاء خيالي على كل شئ حدث له . وكان غارقا في الدين وكان كل شئ ذا قيمة لديه مرهونا ، ولكنه استطاع دائما أن يظل مرحا مبذورا كريما . وقصارى القول إنه كان مغامرا بطبعه يحب الناس ذوي المهن المريبة والأهداف المتغيرة . وكان معارفه من بين الغوغاء الذين يترددون على مشارب لندن جد كثيرين وكان منهم نساء خليعات يعاملنه معاملة الصديق ويقصصن عليه متاعبهن ، ومشاكلهن ومآزقهن ، والنجاح الذى لقينه في حياتهن ، ومقامرون نصابون يحترمون إفلاسه ويقيمون له المآدب ويقرضونه بالخمسة الجنيهات . ورسب في امتحاناته مرة بعد أخرى . ولكنه كان يتحمل ذلك في مرح واستسلم في رشاقة ساحرة إلى تأنيب أبيه وهو طبيب في ليدز يعز عليه أن يشتد في غضبه عليه وقال جريفت في مرح :

- إننى مولع بالكتب .. إلى حد الجنون ولكننى لا أستطيع أن أعمل لقد كانت الحياة لدي البهجة . ولكن كان من الواضح أن جريفت إذا قضى فترة شبابه الفائر وحصل على أجازة

العلمية فسيصيب في الحياة العلمية نجاحا عظيما وسيشفي الناس بسحر طباعه وحدها وقد أحبه فيليب لدرجة العبادة .. كما أحب من قبل الصبية الطوال ذوى القامات المعتدلة والروح المرحة . وقبل أن يشفي فيليب كانوا قد أصبحوا أصدقاء وكان من أعظم ماسر منه أن جريفت كان يستمتع بالجلوس في حجرته واضاعة وقته في حديثه المسلى وتدخين لفافات لاعدد لها . وكان فيليب يصحبه أحيانا إلى مشرب الخمر في شارع ريجنت .

أما ها يواردفكان يرى أن جريفت غبى . ولكن لوسون لاحظ ما يتصف به من فتنة ويتوق لرسمه . فقد كان شكله جميلا بعينيه الزرقاوين ، وبشرته البيضاء . وشعره المتلوى .

وكثيرا ما كانا يتنافسان في موضوعات لا يعرف جريفت عنها شيئا ، فكان يجلس صامتا وعلى وجهه ابتسامة سمحة . وهو يشعر بحق أن في وجوده اهتماما كافيا منه لتسلية الجماعة . وعندما علم أن ماكاليستر سمسار في سوق الاوراق المالية تاق لأن يقامر وحده ماكاليستر وهو يبتسم في جد عن الثروات التي كان يمكن أن يصيبها لو اشترى أسهما في أوقات معينة ، وأسأل ذلك لعاب فيليب لأنه كان ينفق من نقوده بطريقة ما وكان يظن أكثر مما توقع أن يكسب بعض المال بالطريقة السهلة التي عرضها عليه ماكاليستر . وقال السمسار :

- حين أعلم في المرة الثانية بأية صفقة طيبة بحق فسأبلغك عنها ، فإن هذه الفرص تتاح للمرء أحيانا والأمر يتوقف على اختيار الوقت المناسب ولم يستطع فيليب أن يمنع نفسه من التفكير في لذة كسب خمسين جنيها حتى يستطيع أن يهب نورا الفراء التي كانت في مسيس الحاجة إليها لفصل الشتاء . وراح يتأمل المتاجر . في شارع ريجنت . واختار ما يستطيع أن يبتاعه بالنقد ، فقد كان يرى أنها تستحق كل شئ لأنها جعلت حياته سعيدة كل سعادة .

وفي عصر ذات يوم ، عاد فيليب من المستشفى إلى مسكنه ، ليزيل ما علاه من غبار ويصلح من هندامه ، قبل ذهابه لتناول الشاي مع نورا كعادته ، وما أن أدار مفتاحه في القفل ، حتى فتحت صاحبة المسكن وهي تقول :

هنا سيدة تريد أن تراك .

فتساءل في عجب :

- تراني أنا ؟

ودهش فيليب . فلن تكون سوى نورا ، ولكنه لا يدري ما الذى جاء بها إلى مسكنه .

قالت صاحبة المسكن :

ما كنت لأدخلها ، لو لا أنها حضرت ثلاث مرات وقد بدا عليها القلق والانزعاج عندما علمت أنك قد خرجت ، ولهذا طلبت إليها أن تدخل وتنتظرك . ولم يلق فيليب بالا إلى صاحبة المسكن التي كانت مستمرة في الكلام ، بل اندفع إلى داخل الحجرة وشعر فيليب بالألم يعتمل

في قلبه ، ولقد كانت ميلدريد جالسة ولكنها أسرعت بالوقوف عند دخوله دون أن تتحرك أو تتكلم وبلغت به الدهشة حدا جعله لا يدرك ما يقول .
وسألها :

- ويلك . ماذا تريد ؟

ولم تجب ميلدريد ، ولكنها بدأت تبكي ، ولم تضع يديها على عينيها بل تركتهما مرسلتين إلى جانبها ، فكانت تبدو كخادمة . تطلب عملا وبدت على وجهها علامات الذلة والانكسار . ولم يدرك فيليب أى شعور خامره في ذلك الوقت وكأن خطرا مفاجئا كان يراوده هو أن يفر من الحجرة وأخيرا قال لها :

- ما كنت أظن أنني سأراك مرة ثانية .

فأجابته بما يشبه الأنين .

- كنت أتمنى لو مت ؟

وتركها فيليب واقفة حيث كانت . ولم يكن يفكر في تلك اللحظة إلا في أن تسكن ثائرتة . فقد كانت ساقاه ترتعدان ونظر إليها - وسألها في أنين يائس :

- ماذا بك ؟

فأجابت :

- لقد تركني إميل .

وتوالت ضربات قلب فيليب فعرف أنه ما زال يحبها وأنه لم يفتر يوما عن حبها ، وكانت تقف أمامه ذليلة لا تستطيع مقاومة . وتمنى لو أخذها بين ذراعيه وأمطر بقبلاته وجهها المبلل بالدموع . فما أطول الفراق .. إنه لا يدري كيف استطاع تحمله . وأخيرا قال فيليب لميلدريد :

- من الأفضل أن تجلسي ، وأن تشربي شيئا !!

وسحب المقعد قريبا من الموقد ، فجلست عليه ، ومزج له الويسكي بالصودا فشربته من خلال دموعها وهي تنظر إليه بعينين حزينتين ، رسمت الأحداث تحتها خطوطا سوداء كبيرة ، وكانت أكثر نحافة وأبيض لونا مما رآها أخيرا .

قالت ميلدريد لفيليب :

- كنت أتمنى لو تزوجتك يوم أن طلبت يدي .

وقد بدا فيليب وكأن هذه الملاحظة أثارت آلام قلبه ، ولم يستطع أن يبقى كما فرض على نفسه ، فيفصل بينهما فاصل من مسافة فتقدم منها ، ووضع يده على كتفها قائلا :

- إنني جد لآسف لما أنت فيه من متاعب .

فمالت ميلدريد برأسها على صدره وانفجرت تبكي في عصبية شديدة وتخلصت من قبعتها التي كانت تحول بين رأسها وصدره ، وما كان فيليب يقدر يوما أنها تستطيع أن تبكي كما بكت أمامه فقبلها مرة ومرات وكان لقبلاته أثر في تهدئتها ولو قليلا .

- لقد كنت دائما طيبا معي يا فيليب وهذا هو السبب في التجائي إليك .

- أخبريني ماذا حدث ؟

- أوه .. لا أستطيع ، لا أستطيع .

قالتها وهي تصرخ مبتعدة عنه .

وركع فيليب إلى جانبها ، واضعا خده على خدها ، ثم سألها :

- ألا تعلمين أنه لا يوجد شيء لا تستطيعين الإفشاء به إلي ، أنني لن ألومك أبدا لم أي شيء .

فقصت ميلدريد قصتها على فيليب شيئا فشيئا . وكثيرا ما كان نحيبها الذي يتخلل سرد يطغى عليه حتى يصعب على فيليب فهم ما تقول .
قالت ميلدريد :

- في يوم الاثنين من الأسبوع الماضي ، سافر إميل إلى برمنجهام ووعد أن يعود يوم الخميس . ولكنه لم يحضر ، ولم يحضر كذلك يوم الجمعة . فكتبت إليه أسأله السبب ، ويرد علي ، فكتبت ثانية أقول له إنني إذا لم أسمع منه خبرا برجع البريد ، فسألحق في برمنجهام وفي صبيحة هذا اليوم وصلني خطاب من محاميه يقول بألا حق لي علي إنني إذا أزعجته فسوف يلجأ إلى حماية القانون .

وصاح فيليب :

- ولكن هذا مستحيل ، فليست هذه معاملته رجل لزوجته هل تشاجرتما ؟

فأجابت ميلدريد :

- أجل تشاجرنا يوم الأحد ، وأبدى ضيقه بي ، ولكن مثل هذا حدث قبلا ، ثادت العلاقات حسنة كما كانت . ولم أعتقد أنه كان يعني مايقول ، لقد كان خائفا لأنني برته بأنني سأكون أما عما قريب . لقد أخفيت هذا الخبر عنه ما استطعت ولكنني وجدته لا مندوحة لي عن إخباره به ، وقد أجاب علي ذلك بأنها غلطتي أنا وأن الواجب كان يقيني أن أكون أكثر معرفة ، أه ليتك استمعت إلي ما قاله لي .. ولكنني استطعت بسرعة أن أشف أنه لم يكن مهذبا على الإطلاق ولقد تركني دون نقود ، ولم يدفع إيجار المسكن . (لا يمكن يوجد معي مال أدفعه وقد تفوهت صاحبة المسكن بكلمات قاسية ، لا تقال إلا للصبيان .

- لقد ظننت أنكما ستعيشان في شقة .

- هذا كما كان يقوله ، ولكننا استأجرنا شقة بأثاثها في هاي يوري ، لقد كان فيرا . كان يقول إنني مسرفة مع أنه لم يعط شيئا أسرف فيه .

وكانت لميلدريد طريقة شاذة في مزج التافه بالهام ، مما حير فيليب ، فقد كان النوع بأكمله غير مفهوم .

- لا يمكن أن يتصف إنسان بهذا الشر كله .

- إنك لاتعرفه . لن أعود إليه الآن حتى ولو جاء وركع امامى ، لقد كنت بلهاء إذ فكرت في أنه لم يكن يكتسب النقود كان يزعم أنها له كم كان كاذبا !

فكر فيليب دقيقة أو اثنتين . لقد تأثر تأثيرا عميقا لما كانت فيه من محنة حتى أنه لم يعد يفكر في نفسه .

- أتريد أن أسافر إلى برمنجهام ؟ أن في وسعى أن أقابله وأحاول أن أصلح ما فسد بينكما .

- أوه .. لم يعد هناك أمل في ذلك فلن يعود الآن ، إننى أعرفه !

- ولكن واجبه أن يتفق عليك . إنه لا يملك التهرب من ذلك . حقا إننى لا أدرى شيئا عن هذه الأمور ، وخير لك أن تستشيرى محاميا .

- وكيف أستطيع ذلك وأنا لا أملك نقودا ؟

- سأدفع كل المصاريف وسأكتب مذكرة لمحامى الخاص ذلك الرجل الرياضى الذى كان المنفذ لوصية أبى . هل تريد منى الذهاب معك الآن ؟

- أتوقع أنه مازال في مكتبه !

- كلا . اكتب له خطابا وسأذهب وحدى .

وكانت ميلدريد قد هدأت قليلا بعد هذه المناقشة ، أما فيليب فقد جلس ليكتب المذكرة عندما تذكر أنها خالية الوفاض . ومن حسن الحظ أنه كان قد صرف صكا من البنك في اليوم السابق واستطاع أن يعطيها خمسة جنيهات فقالت له :

- مازلت طيبا معى يا فيليب .

- إننى سعيد إذ أستطيع أن أعمل شيئا من أجلك .

- ألا تزال مغرما بى ؟

- كما كنت دائما .

وقربت شفثيها فطبع عليها قبلة . لقد رأى منها استسلاما لم يره من قبل وكان هذا الاستسلام كفيلا بإزالة كل ما قاساه من ألم سابق .

وخرجت ميلدريد ، وتبين بعد خروجها إنها قضت معه ساعتين . وكان فيليب سعيدا أكثر من المعتاد ، وأخذ يهمس في نفسه قائلا :

- يالها من مسكينة .. يالها من مسكينة ! واشتعل قلب فيليب غراما بها أكثر من ذى قبل . ولم يفكر فيليب في نورا بتاتا حتى وصلته برقية حوالى الساعة الثامنة . وقبل أن يفضى فيليب البرقية كان يعلم أنها منها .

وكانت البرقية تقول «ماذا حدث ؟ نورا ...»

ولم يعرف فيليب ماذا يفعل أو بماذا يجيب .. لقد كان بوسعه أن يعثر عليها بعد انتهاء اللعب الذى تمارسه .. ويصحبها إلى المنزل كما كان يفعل أحيانا .. ولكن روحه عافت رؤيتها

ذلك المساء .. وفكر في الكتابة إليها . ولكنه لم يستطع أن يرغم نفسه على أن يكتب إليها تحت عنوان «عزيزتى نورا» كما اعتاد وأخيرا حزم أمره على إرسال برقية يقول فيها :

آسف لا أستطيع الخروج . فيليب .

وتصورها فيليب بعين خياله .. كان وجهها الصغير غير الجميل يبعد فيليب عنها .. فعظام خديها ناتئة ولون وجهها معتم ، وملمس بشرتها خشن وكان فيليب يعلم أن لبرقيته رد فعل من جانبها . ولكنها على كل حال ستؤجل هذا الأثر .

وفي اليوم التالي أبرق فيليب إلى نورا :

«آسف لا أستطيع الحضور . سأكتب إليك» .

وكانت ميلدريد قد اقترحت عليه الرابعة بعد الظهر موعدا لحضورها ولم يشأ فيليب أن يخبرها أن هذا الموعد غير مناسب ، ومع هذا فقد حضرت أولا وكان على أحر من الجمر وهو ينتظر حضورها ، وراقبها من نافذة مسكنه وهى في طريقها إليه .. ثم فتح لها الباب الخارجى بنفسه ..

- هل قابلت نيكسون ؟

- نعم لقد ألهمنى عدم جدوى الشكوى ، وأن ليس هناك ما يمكن عمله ، وأن أهدى من غضبى وأتحمل .

وصاح فيليب :

- ولكن هذا مستحيل ..

وجلست ميلدريد متعبة . فسألها فيليب :

- هل أبدى نيكسون لك الأسباب ؟

وأعطته ميلدريد خطابا لم يعتن بطيه حتى تكرمش وهى تقول :

- إليك خطابك يا فيليب .. لم أخذه إلى نيكسون لأنى لم أستطع الإفضاء إليك بالحقيقة أمس ، حقيقة أننى لم أستطع ، فاميل لم يتزوجنى ، لأنه لا يستطيع الزواج ، فهو زوج فعلا وله ثلاثة أطفال .

وشعر فيليب بغصة مفاجئة من الغيرة والحقد والضيق .. وكانت مما لا يستطيع احتمالها .. ومضت ميلدريد تقول :

- وكان هذا سبب عدم عودتي إلى عمى . ولم أجد من ألجأ إليه سواك وسألها فيليب في صوت خفيض حاول أن يجعله حازما :

- وما الذى جعلك تذهبين معه ؟

- لا أدرى . وما كنت أعلم إنه متزوج وعندما أخبرني بعد ذلك لم أرفض عرضه رفضا قاطعا ثم إنى لم أره بعد ذلك عدة شهور ، فلما زار المحل ثانية لم أدر ماذا حل بى . لقد شعرت أنني لا أستطيع الرفض وأن على أن أذهب معه .

- وهل كنت تحبينه ؟

- يجب ألا تظني أنني جاحد لك فضلك . لن أستطيع إيفاءك الشكر الواجب ولكن أرجو أن تدركي أن خيالي أقوى مني .
-إنك لنعم الصديق يا فيليب .

واستمر بينهما الكلام وسرعان ما عادا إلى عهد صداقتهما الأولى . لقد نمت هذه الصداقة أخيرا واقتراح فيليب أن يتعشيا معا ثم يذهبا بعد ذلك إلى قاعة للموسيقى ، وكانت ميلدريد في حاجة إلى بغض الإقناع .. فقد كانت فكرة تخامرها بأن يكون تصرفها متلائما مع موقفها ، وشعرت بغريزتها إنه مما لا يتفق مع حالتها المحزنة أن تذهب إلى مكان للترفيه . وأخيرا طلب إليها فيليب أن تلبى رغبته لكي تسعده وقبلت ميلدريد الذهاب بعد أن نظرت إلى الأمر على أنه عمل من أعمال التضحية الذاتية .

وقد اتجهت ميلدريد إلى نوع جديد من التفكير سر له فيليب ، فطلبت إليه أن يصحبها إلى مطعم صغير في حي «سوهو» كان غالبا ما يذهبان إليه وشكر لها فيليب هذا التفكير فقد أظهر اقتراحها هذا مقدار استمساكها بذكرياتهما السعيدة ، وزاد مرحها أثناء العشاء .. فقد أدفأ قلبها «البرجاندى» الذى شرباه من الحانة القائمة على زاوية الشارع .. ونسيت أن عليها أن تحتفظ بطابع الحزن والكآبة . مما جعل فيليب يعتقد أن في وسعه أن يتحدث إليها عن المستقبل . وقد انتهز فرصة لاحت له فسألها :

-أعتقد أنك لا تملكين فلسا واحدا ، أليس كذلك ؟

-معي ما أعطيتني بالأمس فقط . وكان على أن أدفع منه لصاحبة المسكن ثلاثة جنيهات .

-أفضل أن أعطيك عشرة جنيهات أخرى تعيشين منها . وسأذهب للمحامى وأطلب إليه أن يكتب إلى ميلر . ولا شك عندى في أننا نستطيع أن نجعله يدفع شيئا من المال . فإذا استطعنا مثلا أن نجعله يدفع مائة جنيه فإن هذا المبلغ سيكفيك إلى ما بعد ولادة طفلك .

-لن آخذ منه قرشا واحدا . بل إنى لأفضل الموت جوعا على ذلك .

-ولكن من المفزع أن يتركك دون مساعدة .

-إنى اعتد بكبريائى .

كان الموقف صعبا بالنسبة لفيليب . فقد كان في حاجة إلى أن يراعى أشد الاقتصاد حتى يكفيه ما لديه من نقود حتى ينتهي من دراسته ، وكان عليه أن يحصل على مبلغ آخر يعيش منه خلال العام الذى اعترزم أن يقضيه كطبيب امتياز باطنى أو جراح .. إما في عيادة خاصة أو في مستشفى . ولكن ميلدريد قصت عليه الكثير من حقارة إميل فمضى يجادلها ويعترض إذا اتهمته أيضا بأنه ينقصه الكرم .

- لن آخذ منه قرشا واحدا . وخير لي من ذلك أن أستجدى طعامي لقد كنت أستطيع أن أجد لي عملا قبل الآن بزمان طويل ولكن قد لا يكون ذلك من صالحى في حالتي الراهنة .

- لست أعلم . لم أكن أستطيع الإمساك عن الضحك لما يقول . وهناك شئ آخر ، لقد كان يقول إننى لن أسف على ما فعلت ، ووعد بإعطائى سبعة جنيهات أسبوعيا . وكان يقول إننى يتقاضى خمسة عشر جنيها كل أسبوع . ولكنه كان كاذبا في كل ما قال .. وكنت في ذلك الوقت قد ضقت ذرعا بالذهاب إلى المحل كل صباح . ولم تكن علاقتى بعمتي على ما يرام . لقد أرادت أن تعاملنى كخادم لا كقريبة .. وكانت تقول بأن من واجبي إعداد حجرتي الخاص .. وإننى إذا لم أعدها فلن يعدها أحد غيرى ، أوه .. كم أتمنى لو لم أكن ذهبت معه ، ولكن عندما جاء إلى المحل ، وطلب إلي أن أكون له زوجا شعرت أنني لا أستطيع الرفض . وتحرك فيليب بعيدا عنها ، وجلس إلى جوار المنضدة ، وقد دفن وجهه بين يديه . لقد شعرت بأنه دليل زلا شديدا .

- لست غاضبا على يا فيليب ؟

فأجابها فيليب وقد رفع رأسه إلى أعلى بعيدا عنها :

-كلا .. كل ما هناك أنني أهنت .

-لماذا ؟

-لقد كنت تعلمين مقدار حبى لك . وقد بذلت كل ما أستطيع من جهد ليتحول اهتمامى إلى، حتى ظننت أنك ممن لا يستطيعون أن يحبوا أحدا فكان فظيحا حقا أن أعلم عن استعدادى التام لبذل كل تضحية في سبيل ذلك الأفاق ، وإنى لأعجب ماذا رأيت فيه ؟
وقالت ميلدريد :

-إنى جد أسفة يا فيليب لقد أسفت أسفا شديدا فيما بعد ، وإنى أعدك بهذا .

وسرح فيليب بتفكيره إلى أميل ميلر ، بمنظرة السقيم ، وعينيه الخضراوين المحتالتين وأناقاة منظرة السوقية المبتذلة . لقد كان يكثر من ارتداء الصدرة الحمراء اللامعة .

وتنهذ فيليب . فقامت إليه ميلدريد وطوقت عنقه بذراعها وهى تقول :

-لن أنسى قط أنك طلبت الزواج منى يا فيليب .

وأخذ فيليب يدها وتطلع إليها فانحننت وقبلته قائلة :

-أى فيليب .. إذا كانت لاتزال بك رغبة في فسأفعل الآن ما يحلو لك . إنى لأعلم أنك مهمل

بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وشعر فيليب أن قلبه قد توقف وأن كلماتها قد هزت كيانها . هذا فضل كبير منك ولكنى لا أستطيع .

-ألم تعد تهتم بى إلى هذا الحد ؟

-بلى ، إنى أحبك من كل قلبي .

وتخلص فيليب منها ثم قال :

-إنك لا تفهمين الأمر على حقيقته .. لقد أغرمت بك منذ رأيته ، ولكن الآن .. ذلك الر

لسوء حظي إن خيالي من النوع الجامح المتيقظ ، ولذا فإن مجرد التفكير فيه يجعلنى أتوقف . وأخذ فيليب يدها مرة أخرى وابتمس لها ثم قال :

-إن عليك أن تراعى صحتك. أليس كذلك؟ لا تقلقي بالك بالحاضر. ففي استطاعتي أن أمدك بكل ما تريدين حتى تستطيعي العمل مرة أخرى.

-كنت أعلم أن بوسعي الاعتماد عليك. لقد أخبرت إميل ألا يظن أنني لن أجد من أذهب إليه وقلت له هناك سيد مهذب بكل ما في هذه الكلمة من معنى..

وعرف فيليب تدريجيا كيف حدث الانفصال. ظهر أن زوجة إميل اكتشفت مغامراته مع ميلدريد خلال زيارته المتوالية للندن. فذهبت إلى رئيس المؤسسة التي كان يعمل فيها وهددته بالطلاق. وقد أعلن أصحاب المؤسسة أنهم سيفصلونه إذا نفذت تهديدها. وكان إميل متفانيا في حب أطفاله ولم يكن يحتمل مجرد التفكير في الافتراق عنهم. وما أن ترك ميلدريد اختيار بين زوجته وعشيقته حتى اختار زوجته. ولقد كان دائما قلقا خشية أن تكون ميلدريد حاملا فتتعدد الأمور أكثر مما هي ولم تستطع ميلدريد صبرا على إخفاء ما يتحرر في أحشائها فأخبرت إميل بالحقيقة فاستبد به الفزع فاختلف شجارا وتركها دون ضجة وسألها فيليب:

-متى تتوقعين الولادة؟

فأجابته:

-في أوائل شهر مارس.

-بعد ثلاثة أشهر؟

وكان من الضروري أن يتناقشا في خطط المستقبل. وأعلنت ميلدريد أنها لن تبقى في مسكنها بشارع هابيري، وكان فيليب يعتقد أنه من الخير لها أيضا أن تكون قريبة من وعود بأن يبحث عن سكن لها في اليوم التالي فاقترحت ميلدريد «فوكسهول برديج رو» مكانا مناسباً لقربة من مسكنه وقالت له:

-وسيكون صالحا كذلك لما بعد.

-ماذا تعنين؟

أقصد أنني لا أستطيع أن أبقى هناك إلا شهرين أو أكثر من ذلك بقليل وبعدها سيكون الواجب أن أذهب للولادة وإني لأعرف مكانا محترما جدا يقبلون أمثالي فيه نظير أرباب جنيتها أسبوعيا لا أكثر ما عدا الطبيب طبعا. وهذا كل ما يدفع. لقد سكنت هناك صديقي لي. وعلمت أن السيدة التي تؤجر المسكن سيدة مهذبة حقا. سأخبرها أن زوجي ضابط في الهند وإني قد حضرت إلى لندن لأضع طفلي لأنها أفضل لصحتي.

وقد بدا حديثها بهذه الطريقة غريبا على مسامع فيليب. وبدت هي أمامه رزينة باردا ومحتشمة بملامحها الرقيقة الصغيرة ووجهها الشاحب، وعندما فكر فيليب في العواطف التي تحترق في داخلها على غير انتظار استولى عليه الاضطراب وازدادت في قلبه سرعة النبض.



كان فيليب يتوقع أن يجد خطابا من نورا عندما عاد إلى مسكنه. ولكنه لم يجد شيئا. ووصله شيء في صبيحة اليوم التالي. وقد ألمه السكون كما أزعجه في الوقت نفسه. لقد كان يراها وتراه كل يوم طيلة أقامته في لندن في شهر يونيو الماضي، وكان غريبا بالنسبة له أن يمضي يومان دون أن يزورها أو يفسر لها سبب غيابها وكان يخشى أن يكون سوء الطالع قد جعلها تشاهده مع ميلدريد. ذلك أنه لم يكن يحتمل مجرد التفكير في أنه سبب لها شيء من الألم أو أنها غير سعيدة. وعزم على زيارتها عصر ذلك اليوم. وكان يميل إلى لوم نفسه لأنه سمح لها باستثارة علاقة الصداقة معها، أما فكرة الاستمرار في هذه الصداقة فقد ملأه، اشمنزازا.

ووجد فيليب حجرتين لميلدريد في الطابق الثاني من منزل في حي فوكسهول برديج رو.. وكانت في منطقة صاخبة. ولكنه كان يعلم أنها تحب ضوضاء حركة المرور تمر تصافذتها وقالت له ميلدريد:

- لا أحب الشارع الميت الحي حيث لا ترى إنسانا يمر طيلة اليوم، اعطني قطعة من الحياة.

وذهب فيليب بعد ذلك مكرها إلى ميدان فنسنت. واستبد به الخوف عندما دق جرس الباب. وكان ضميره يؤنبه لسوء معاملته لنورا. ويخشى أن تكون قد تأثرت لهذه المعاملة فقد كان يعلم أنها سريعة التأثر. وهو يكره الشجار وقد تكون الطريقة المثلى في هذه الحالة أن يصارحها بأن ميلدريد قد عادت إليه وأن حبه لها ما زال قويا كما كان وأنه يأسف لذلك أشد الأسف، إذ لم يعد لديه ما يقدمه لنورا. وعندئذ فكر فيليب فيما سيصيبها من إيلام لأن تحبه. لقد تملقه ذلك الحب من قبل واعترف لها بالفضل. ولكنه الآن شيء مروع لأنها لم تكن تستحق أن يؤلمها وقد سأل نفسه كيف تحبه الآن. وكان أثناء صعوده السلم يستعرض فذهنه كل أنواع السلوك الممكنة التي قد تقابلها بها. وطرق فيليب الباب وهو يشعر بأنه كان شاحبا ويعجب كيف يستطيع أن يتحكم في أعصابه.

وكانت نورا جالسة تكتب في جد ولكنها قفزت واقفة عندما دخل.

-لقد عرفت خطواتك. أين كنت مخفيا أيها الولد الشقي؟

وسارت إليه نشوى وطوقت رقبتة بذراعيها. فلقد كانت فرحة لرؤيته وقبلها. وأراد أن يظل مسيطرا على أعصابه، فقال لها أنه يتحرق شوقا إلى فنجان من الشاي. وانهمكت نورا في إشعال النار لتحقيق رغبته. ثم قال فيليب في تعثر:

-كنت مشغولا إلى درجة كبيرة.

وبدأت نورا تثرثر بطريقتها الأخاذة، فأخبرته عن عرض جديد لتوريد قصة صنفين مؤسسة لم تعاملها نورا من قبل. وقالت إنها ستربح من وراء ذلك خمسة عشر جنيتها مضت تقول:

- سيل هبط علينا من السماء ، وسأدبر لك خطة للعمل . يجب أن نقوم بنزهة صغيرة فنقضى يوما في أكسفورد ، ألا توافق ؟ أود أن أرى الكليات .

ونظر إليها ليرى هل هناك أثر للألم في عينيها ، ولكنهما كانتا صريحتين مرحتين كطبيعتها دائما وكانت نشوتها لرؤيته طاغية ، فغاص قلبه ، ولم يستطع الإدلاء إليها بالحقيقة المرة .

وقد أخذت نورا تقطع العيش المحمر الذى صنعتته من أجله قطعا صغيرة وتعطيه إياها . ثم سألته :

-هل طعمه ردىء ؟

فأشار برأسه مبتسما ، وأشعلت له لفافة تبغ ، وبعدها قامت لتجلس على ركبتيه كما كان يحلو لها دائما أن تفعل وبدت له جد خفيفة ، وقد استرخت بين ذراعيه وهى تتنهد في سعادة عارمة . تم غمغمت تقول :

-أسمعني كلاما جميلا ..

-ماذا أقول ؟

-تستطيع أن تستنجد بخيالك فتقول إنك تحبنى .

-إنك تعلمين أني أحبك .

ولم يكن يملك من الشجاعة وقتئذ ما يستطيع معه إنبائها بالحقيقة ، ورأى ألا يصرح صفوها طيلة ذلك اليوم مهما كانت الظروف . وربما استطاع الكتابة إليها بما يريد فيما بعد فهذا أسهل من مواجهتها بالحقيقة ولم يكن يحتمل التفكير في رؤيتها وهى تبكى . لقد جعله يقبلها . وكان في أثناء تقبيله إياها ، يفكر في ميلدريد وفي شفتي ميلدريد الشاحبتين ، وظل طيف ميلدريد يراود خياله طول الوقت كشكل غير منفصل كأنه صورة مجسمة ولكنها أكثر مادية من الظل وكان هذا المنظر سببا دائما في تشتيت انتباهه فله وعدم تركيزه .

قالت نورا :

- إنك اليوم جد هادئ ..

وكانت ثرثرة نورا موضع التندر الدائم بينهما مما جعل فيليب يجيبها قائلا :

-إنك لم تعطيني فرصة للكلام . وقد تخلصت من عادة الكلام ..

-ولكنك لست مصغيا . وليس هذا من الأخلاق في شئ .

واحمر وجه فيليب قليلا ، وخشى أن تكون قد اطلعت على شئ من سره فأدار عينيه عن في ضيق ، لقد أزعجه ثقلها في ذلك اليوم ، وكره حتى مجرد لمسها إياه .

وقال فيليب :

-لقد تخدرت قدماى .

فقفزت نورا قائلة :

-أسفة جدا . يجب أن أتخلص من عادة الجلوس على ركب الرجال .

وبدا فيليب يحرك رجله ويضرب بهما الأرض ثم يسهر في الحجرة وأخيرا وقف أم المدفئة حتى لا يمكنها من تكرار هذا الجلوس . وعندما أخذت في الكلام تبين له أنها أفزعته من عشرة من أمثال ميلدريد ، فقد كانت خيرا منها في إدخال السرور عليه وكان الحديث إليه أكثر بهجة ، كما كانت أكثر مهارة وأجمل طبيعة . كانت فتاة طيبة وشجاعة وأمينة ، أما ميلدريد فلم يكن لها نصيب من هذه المميزات ، ولو أن فيليب كانت عنده ذرة من الإدر لتمسك بنورا .. فهي كفيله بجعله أسعد بكثير مما لو كان مع ميلدريد . وفوق كل هذا فهو تحبه ، أما ميلدريد فكل ما غنثها أنها شاكرة له فضل مساعدته لها . ومهما كانت المقار غير متكافئة فإن أهم شئ في نظر فيليب هو أنه لا يحب نورا . وقد كان غارقا بكل جوارحه في حب ميلدريد . كان يفضل عشر دقائق مع ميلدريد على قضاء مساء بأكمله مع نورا . وكما يعتز بقبلة واحدة يأخذها من شفتي ميلدريد الباردين ويراهها خيرا من كل القبلات التي تمنحها إياه نورا .

وقال فيليب في نفسه لا أستطيع المقاومة (إن حبها قد امتزج بلحمي ودمي)

ولم يعد يهمه إذا كانت ميلدريد بلا قلب أو شريرة أو سوقية ، أو غبية أو انتهائية .

فإنه يحبها وكفى ويفضل الشقاء والتعاسة مع ميلدريد على السعادة والهناء مع نورا . وعندما نهض للذهاب ، قالت نورا غرضاً :

-سأراك غدا أليس كذلك ؟

فأجاب :

-بلى

وكان فيليب يعلم أنه لن يستطيع الحضور فقد كان عليه أن يذهب لمساعدة ميلدريد في الانتقال إلى مسكنها الجديد . ولم تكن لديه الشجاعة الكافية لأن يقول لنورا إنه لن يحضر وحزم أمره على أن يرسل لها برقية يعتذر فيها .

وشاهدت ميلدريد حجراتها في الصباح ورضيت بها . وذهبت مع فيليب بعد الغذاء إلى هابرى . وكانت لها هناك حقيبة للملابس وأخرى لمختلف حاجاتها من وسائل وأغط مصابيح ، وبراويز تصوير وغيرها من الأشياء التي أرادت بها أن يكون لمسكنها الجديد طبيعة المنزل الحق . وكان لها كذلك صندوقان كبيران أو ثلاثة صناديق من الورق المقوى ومع هذا فكل ما كان لها يمكن وضعه على سطح عربة من ذوات العجلات الأربع وقد حرمه فيليب على الجلوس في الجزء الخلفي من العربة وهى مارة بشارع فكتوريا مخافة أن تكون نورا مارة به عفوا فتراه . ولم يجد فرصة ليبرق إلى نورا . ولم يستطع أن يفعل ذلك من مكان بعيد فوكسهول بردج رود ، حتى لا تتساءل عن سبب وجوده في هذه المنطقة وما دام هو ذلك المكان فلن يكون له عذر في عدم ذهابه إلى الميدان المجاورة حيث تسكن نورا . وقد رآه فيليب أنه من الأفضل له أن يذهب ليراها لمدة نصف ساعة ، ولكن ضرورة الذهاب إليه

أزعجته، فقد كان غاضباً عليها لأنها أرغمته على اتباع الوسائل المبتذلة المهينة. أما ميلدريد فقد كانت سعيدة بوجوده معها ... وكان يسره أن يساعدها في فك أربطة حقائبها وحاجياتها. وكان يحس لأول مرة الإحساس الجميل بالسيطرة حيث تولى إسكانها الحجار التي وجدها والتي يدفع إيجارها. ولم يتركها تجهد نفسها، فقد كان مما يسعد من يقوم بعمل من أجلها كما أنها لم تكن راغبة في القيام بعمل يشعر غيرها برغبة في أدائه لها. أخرج فيليب ملابسها ووضعها جانباً، ولم تكن تنتوى الخروج إلى الشارع مرة أخرى ولذلك أحضر لها حذاءها المنزلي ونزع عن رجلها حذاء الخروج وكان يسره أن يقوم بهذه الخدمات الحقيمة.

قالت ميلدريد لفيليب وأصابعها تعبت في نشوة بشعره وهو راكع أمامها يحل حذاءها.

- إنك تفسدني بهذا التدليل.

فأخذ فيليب يدها وقبلها ثم قال :

- إن وجودك هنا لهو الإفساد.

وأصلح فيليب من وضع الوسائد وإطارات الصور وكان عندها عدة أوعية من الخزف الأخضر.

- سأحضر بعض الزهور لتوضع في هذه الأوعية.

ثم نظر فيليب حوله إلى ما قام به في زهو وخيلاء.

وعادت تقول:

- مادمت سأبقى هنا فسألبس ثياب المنزل. هل تسمح بك أن أزرار الثوب؟

واستدارت ميلدريد غير هيابة كما لو كان فيليب امرأة لا رجلاً. فما كان جنسه اهتمامها .. ولكن قلبه كان مفعماً بالشكر لها للصلة الوطيدة التي استشعرها من طلبها فك أزرار ثوبها الخلفية .. وقام فيليب بالعملية بإصبع غير محنكة وهو يغتصب النفس ويقول.

- ما كنت أظن أول يوم دخلت فيه المحل أنى سأفعل لك ما أفعله الآن.

- لا بد أن يقوم شخص ما بهذه العملية.

ومضت إلى غرفة نومها ، ولبست ثوباً منزلياً أخضر اللون فاتحة تحليه عدة أسطرحة المحرمات الرخيصة الثمن. أجلسها فيليب على أريكة ثم أعد لها الشاي ولكنه قال لها معها -أخشى ألا أستطيع البقاء لتناول الشاي معك، فإن لدى موعداً لا يمكن التخلف ولكنني سأعود ثانية في نصف ساعة.

وسأل نفسه ماذا يكون ردها لو سألتها عن ماهية هذا الموعد. ولكنه لم يظهر أي شيء في الاستطلاع وكان فيليب قد طلب عشاء لاثنتين عندما انتقل إلى المسكن الجديد وقضى الأمسية في هدوء مع ميلدريد وكان على عجلة من أمره في العودة حتى إنه

الترام في شارع فوكسهول بروج وفكر في أنه من الأنسب أن يقضى بالحقيقة كاملة إلى نورا في الحال بحيث لا يمضي عندها أكثر من دقائق معدودة. وبعد أن وصل فيليب إلى مسكن نورا ودخل حجرتها قال لها.

- ليس لدى من الوقت ما يكفي إلا للسؤال عن حالك فحسب فإنني جد مشغول.

أطرقت نورا برأسها وقالت :

- لماذا؟ وماذا حدث؟

أحنقه منها أنها ستضطرها للكذب و عرف أن وجهه قد علاه الاحمرار عندما أجابها بأن هناك مظاهرة في المستشفى التي كان يزعم الذهاب إليها و تخيل أنها نظرت إليه وكأنها لا تصدق ما يقول وهذا ما ألمه أشد الألم.

قالت نورا :

- لا ضير في ذلك فسوف تكون عندي غداً بأكمله.

ونظر إليها فيليب في بلاهة ، فقد كان غداً يوم الأحد وكان ينتظره ليقضيه مع ميلدريد .. وقد قرر أن يغفل هذا بدافع التأدب والمجاملة، فما كان ينبغي أن يتركها وحيدة في منزل غريب.

- إنني أسف أشد الأسف. فأنا مشغول غداً.

وكان يعلم أن اعتذاره هذا سيكون بداية لثورة يحاول بكل الطرق أن يتحاشاها وازداد لون خدي نورا لمعاناً وقالت :

- ولكنني دعوت أسرة جوردون على الغداء وقد أخبرتك بذلك منذ أسبوع .

وكانت أسرة جوردون هذه تتألف من ممثل وزوجته يطوفان بالريف ثم يعودان إلى لندن يوم الأحد.

وتردد فيليب وهو يقول :

- أسف أشد الأسف. لقد نسيت . أخشى ألا أستطيع الحضور .. ألا تستطيعين إحضار غيري؟

- وماذا تفعل غداً إذن؟

- أود ألا تستجوبيني.

- ألا تريد أن تخبرني .

- لا يهمني بحال أن أخبرك، ولكنه من المزعج حقاً أن يرغم المرء على إعطاء بيان بكل حركاته وسكناته.

تغيرت نورا لكنها كظمت غيظها بعد أن بذلت مجهوداً في السيطرة على نفسها واتجهت نورا إلى فيليب وأخذت يده وهي تقول:

- لا تخيب أملى غداً يا فيليب فقد ظللت أترقب مشتاقاً أن أقضي ذلك اليوم معك، إن أسرة

جوردون تريد أن تراك. وسنقضي وقتاً سعيداً معاً .

- كنت أود ذلك لو استطعت.

-لست ممن اعتاد الإلحاح. أليس كذلك...؟ ولم أعتد أن أطلب إليك إتيان عمل تراه عنتنا. ألا تستطيع الفكك من هذا الموعد الفظيع...؟ وهذه المرة فحسب.

أجابها فيليب في إصرار:

-آسف جد الأسف. لا أدري كيف أستطيع ذلك.

قالت نورا مداعبة:

-قل لي ما هو؟

واستطاع فيليب أن يجد وقتا يلفق فيه سببا.

- حضرت شقيقتنا جريث لقضاء عطلة آخر الأسبوع وسنصحبهما في تجوالها.

فردت نورا مبتهجة، قائلة:

-هل هذا كل ما هنالك؟ أن من السهل على شقيقتي جريث أن تصحبا رجلا سواك.

وتمنى فيليب لو أنه فكر في سبب آخر أكثر قوة من ذلك الذي اخترعه، لقد كذب كذبة غير محبوبة.

-كلا آسف. لا أستطيع فقد وعدت ولا بد من الوفاء بالوعد.

-ولكنك وعدتني أيضا. ومن المؤكد أن وعدك لي كان سابقا لهذا الوعد.

-أود ألا تصرى.

وشارت ثائرة نورا.

-إنك لن تحضر لأنك لا تريد أن تحضر.. ولست أعلم ماذا كان يشغلك خلال الأيام القليلة الماضية.

ونظر فيليب إلى ساعة يده ثم قال:

-لقد حان وقت انصرافي.

-ولن تحضر غدا؟

-كلا

وصرخت نورا وقد فقدت أعصابها قائلة:

-في هذه الحالة لا تتعب نفسك بالحضور إلى هنا مرة أخرى.

أجاب فيليب:

-كما تحبين

فردت بسخرية:

-لا تدعني أوخرك أكثر مما أخرجتك.

وهز فيليب كتفيه ومضى. لقد أنقذه منها عدم تطور الموقف إلى أسوأ. فلم تكن هناك

دموع. وقد هنأ نفسه أثناء سيره على التخلص من الموقف بهذه السهولة وعرج على شارع فيكتوريا ليشتري زهورا لأصص ميلدريد.

ونجح العشاء البسيط نجاحا عظيما. فقد أرسل فيليب وعاء صغيرا من البطارخ الذي كان يعلم أن ميلدريد مغرمة به. أحضرت لها صاحبة المسكن ضلعا من اللحم مع الخضر والحلوى وكان فيليب قد طلب لها البرجاندي، وهو شرابها المفضل. وعندما أسدلت الستائر أضرمت النار في الموقد، ووضع الغطاء فوق المصباح، أصبحت الحجرة غاية في الأناقة.

وابتسم فيليب وهو يقول:

-حقا إنها تشبه البيت. لقد كان من الجائز أن أكون أسوأ حالا وأشد فقرا.

وعندما انتهيا من تناول العشاء، سحب فيليب كرسيين من ذوات المساند أمام المدفئة، وجلسا، وأخذ فيليب يدخن غليونه في راحة وهدوء فقد كان يشعر بأنه سعيد وكريم، وسألها قائلا:

-ماذا تودين أن تفعل غدا؟

-سأذهب إلي تلزهل، إنك تذكر بلا شك مديرة المحل. لقد تزوجت وقد طلبت إلى أن أقضي يوما معها. وهي تعتقد طبعاً أنني متزوجة كذلك.

وغاص قلب فيليب وقال:

-ولكنني رفضت دعوة لكى أقضي معك يوم الأحد.

وأعتقد فيليب أنها لو كانت تحبه حقاً لقالت أنها من أجل ذلك ستبقى معه، وكان يعلم تماما أن نورا ما كانت لتتردد في ذلك لو كانت مكانها.

-لقد كنت مغفلاً في تصرفك هذا. ولقد وعدت بالذهاب من مدة ثلاثة أسابيع أو أكثر.

-ولكن كيف تستطيعين الذهاب وحدك؟

-أوه، سأقول لهم سافر في عمل. إن زوجها تاجر قفازات وهو شخصية ممتازة جداً.

ووقف فيليب صامتا، وقد تخللت الأحاسيس المرة قلبه. أما هي فقد نظرت إليه شذرا ثم قالت:

-لا أظنك تحرميني من متعة بسيطة يا فيليب فستكون هذه آخر مرة أستطيع فيها الذهاب إلى أى مكان. لأنني أعلم المدة الباقية وقد وعدت.

وأمسك بيدها وابتسم ثم قال:

-كلا يا عزيزتي. أريدك أن تتمتعى ما استطعت بخير الأوقات. كل ما أبغيه أن تكوني سعيدة.

وكان على الأريكة كتاب صغير مغلف بغلاف أزرق، وقد قلب مفتوحا. ورفع فيليب الكتاب بثقل. وكان قصة صغيرة مما يباع مقابل بنسين. ومؤلفه «كورتناى باجت» وهو الاسم الذى تنتحله نورا للكتابة.

وقالت ميلدريد:

-إنني أحب كتب هذا الرجل وأقرأها جميعا. إنها كتب راقية جداً.

وتذكر فيليب ما قالته نورا عن نفسها: إني محبوبة كثيرا بين فتيات المطابخ وهن يعتقدن إنني جد ظريفة.



كان فيليب قد أخبر جريفت، موضع ثقته، بتفاصيل غرامياته المعقدة. وفي صبيحة يوم الأحد تناول الصديقان طعام الإفطار- وجلسا بجانب المدفئة بملابسها المنزلية يدخنان، وأخذ فيليب يقص على صديقه ما حدث في اليوم السابق. وقد هنا جريفت لأنه خرج من الصعوبات التي اعترضته بسهولة تامة قائلا: -إن أسهل شيء في الوجود، أن تعقد علاقات صداقة مع امرأة، ولكن من أصعب الصعاب أن تحاول أن تخرج من هذه العلاقات.

وشعر فيليب بميل إلى أن يثق في مهارته في حل مشكلاته: وعلى كل حال فقد تحرر وسرح بتفكيره إلى ميلدريد وهي تمتع نفسها في «تلزهل». ووجد نفسه في حال من الرضى الحقيقي، لأنها كانت سعيدة. كانت تضحية منه ألا يستاء من متعتها، حتى ولو كان ذلك على حساب خيبة أمله وقد فاض قلبه من أجل ذلك بوهج السعادة المريح. ولكن فيليب وجد على منضدته في صبيحة يوم الاثنين خطابا من نورا كتبت فيه تقول:

عزيزى...
أسفة لما حدث يوم السبت. اعف عني وتعال تناول الشاي معي ظهر اليوم كالمعتاد أحبك...

غاص قلب فيليب بين جنبيه ولم يدر ماذا يفعل، وأخذ الخطاب وأراه لجريفت. فقال له: -من الأفضل ألا ترد عليه.

فقال فيليب:

-لا أستطع، فسيؤلمني أشد الألم أن أفكر أنها ستظل تنتظر مني الرد، إنك لم تدق الباب وانتظار أن يدق رجل البريد الباب. لقد جربته، ولن أعرض غيرى لهذا العذاب.
-ليس بوسع أى إنسان يا صديقي العزيز أن يفهم مثل هذا النوع من العلاقات دون أن يسبب ألما للآخرين. يجب أن تروض نفسك على ذلك. ومن خصائص هذا النوع من الألم أنه لا يستمر طويلا.

وشعر فيليب أن نورا لم تكن تستحق منه أن يسبب لها هذا الألم. وماذا يعرف جريفت عن مقدار الألم الذى يمكن أن تتحمله نورا. لقد تذكر فيليب ألمه الخاص عندما أخبرته ميلدريد أنها بسبيل الزواج.

وقال له جريفت:

-إذا كنت حريصا على ألا تؤلمها فاهرب إليها.

-لا أستطيع ذلك.

ونفض فيليب وأخذ يمشى في الحجرة ذهابا وإيابا في عصبية ظاهرة. وكان غاضبا على نورا لأنها لم تترك الأمور تهبط، وما من شك في أنها رأت أنه لم يعد يحبها. إنهم يقولون أن النساء سرعان ما يغطن إلى هذه الأشياء.

وقال لجريفت:

-قد تستطيع أن تساعدني.

-يا صديقي العزيز، لا تثر ضجة حول هذا الموضوع، فالتناس كثيرا ما يتغلبون على مثل هذه الأشياء كما تعلم وأكبر الظن ألا يكون حبها لك بالدرجة التي تظنها. فالمرء دائما ميال إلى المبالغة في تقدير العواطف والآلام التي أوحى بها إلى غيره.

وسكت جريفت عن الكلام ونظر إلى فيليب في هدوء... ثم قال:

-استمع إلى، هناك شيء واحد تستطيع عمله. اكتب إليها وأخبرها أن ما بينكما قد انتهى. قل لها ذلك بصراحة حتى لا يكون هناك لبس. سيؤلمها ذلك ولكن ألمها بالمصراحة القاسية سيكون أقل منه لو أنك حاولت فعل ذلك بأساليب ضعيفة غير واضحة.

وجلس فيليب وكتب إلى نورا الخطاب التالي:

عزيزتى نورا...

أسف أن أكون سببا في شقائك ولكنى أعتقد أن من الأفضل لنا أن نترك الأمور حيث تركناها يوم السبت الماضي. ولا أظن أن هناك أدنى فائدة في أن نجعل مثل هذه الأمور تستمر مترامية بعد أن أضحت لا تسر. لقد طلبت إلى أن أذهب وقد ذهبت. ولست أنتوى العودة. وداعا.

فيليب كارى

واطلع فيليب صديقه على الخطاب وسأله رأييه فيه. وقرأ جريفت الخطاب وتطلع إلى فيليب بعينين براقتين ولكنه لم يفصح عن حقيقة شعوره.

قال جريفت:

-أعتقد أن هذا الخطاب كاف للقيام بالمهمة.

وخرج فيليب لإلقاء الخطاب في صندوق البريد، وقضى الصباح كله وهو غير مستريح، لأنه تصور بالتفصيل الدقيق شعور نورا عندما يصل إليها خطابه، وعذب نفسه بالتفكير في دموعها. ولكنه في الوقت نفسه قد أزاح عن عاتقه عبئا ثقيلا. ذلك أن تحمل الحزن المتخيل أيسر من تحمل الحزن المرنى.

وقد أصبح الآن حرا في أن يحب ميلدريد بكل ما أوتى من عاطفة. لقد قفز قلبه في صدره عندما فكر في الذهاب لرؤيتها عصر ذلك اليوم بعد انتهاء عمله اليومى في المستشفى. وعندما ذهب كالمعتاد إلى مسكنه للإصلاح من هندامه سمع وهو يضع المفتاح في الباب صوتا خلفه:

-هل أستطيع الدخول؟ لقد انتظرتك نصف ساعة.

وكان المتحدث نورا. وشعر فيليب أنه قد احمر خجلا حتى منابت شعره. وكانت تتكلم وهى مبتهجة. ولم يظهر على صوتها أى أثر للاستياء، أو ما يدل على أن شقاقا قد حدث بينهما.

وشعر فيليب بالحرج واستشعر أشد الخوف، ولكنه بذل كل ما في وسعه كي يظهر ابتسامة على وجهه.

وقال فيليب لنورا:

-أجل، ادخلي.

وفتح الباب وسبقته إلى حجرة الجلوس. وكانت أعصاب فيليب ثائرة فأراد أن يهدئ من نفسه بأن قدم لفافة إلى نورا وأشعلها لها، ثم أشعل أخرى لنفسه، ونظرت إليه نورا مبتهجة وقالت:

-لماذا كتبت إلى هذا الخطاب الفظيغ أيها الولد الخبيث؟ ولو أننى أخذته مأخذ الجد لأصبحت بانسة كل البؤس؟

اجابها فيليب في صرامة:

-أعنى ما فيه جديا!

-لا تكن مغفلا. فقد ثرت في ذلك اليوم وكتبت إليك اعتذار.. ولم يكف هذا الاعتذار فأتيت إليك هنا لأكرره. ومع هذا فأنت سيد نفسك، وليس لى حق عليك، ولست أريد منك أن تتصرف تصرفا لا ترضاه.

قالت هذا وقامت من المقعد الذى كانت تجلس عليه لتذهب إليه وبسطت إليه يديها وهى تقول:

-لنعد أصدقاء كما كنا يا فيليب. وأنا جد آسفة إذا كنت قد أسأت إليك.

ولم يكن في وسع فيليب أن يمنعها من أخذ يديها في يديه، ولكنه لم يستطع النظر إليها وقال لها.

-أخشى أن يكون الأوان قد فات.

فارتمت نورا على أرض الحجرة عند قدميه قائلة:

-فيليب لا تكن سخيافا، إنى سريعة الغضب كذلك، أستطيع أن أفهم أننى جرحتك، ولكن من الغباء أن يثير هذا تجهمك وحزنك. ماذا يفيد كلانا من هذه التعاسة، لقد كانت صداقتنا مبهجة مفرحة.

وكانت أصابع يدها تمر في بطاء على يد فيليب وهى تقول له:

-أحبك يا فيليب !!

ونفض فيليب، وتخلص منها، ثم سار نحو الجانب الآخر من الحجرة، وقال لها:

-آسف أشد الأسف. لا أستطع عمل أى شئ فكل ما كان بيننا قد انتهى.

-أتعنى أنك لم تعد تحبني؟

-أخشى أن أقول ذلك.

-إذن فلقد كنت تبحث عن فرصة لنبذى وقد واثقت.

ولم يجب فيليب. ونظرت إليه نورا في ثبات، وبدا له أنه لا يستطيع تحمل نظراتها ولا تزال جالسة على أرض الحجرة حيث تركها وقد انحنت بجسمها على الكرسي ذى المساء وبدأت نورا تبكى في صمت تام، ودون أن تحاول إخفاء وجهها، وتساقطت الدموع الكا على خديها الواحدة تلو الأخرى، ولم تكن تنتحب. وكان من المؤلم حقا أن يراها على الحال، فحول فيليب بصره عنها وقال لها:

- آسف جدا لما سببته من ألم، ولكنها ليست غلطتى إذ لم أكن أحبك.

ولم تجب نورا. بل جلست بعيدة محطمة والدموع تنحدر على خديها.

لقد كان أيسر له أن يتحمل هذا الموقف لو أنها قد لامته وكان فيليب يعتقد أنها لم تسكظم غيظها وقد أعد نفسه لهذا. وكان عقله الباطن يحدثه بأن شجارا حقيقيا يتبادل الطرفان الشتائم والسباب - سيبرر مسلكه حيالها نوعا ما- ومرة الوقت وقد أخافه أن نحبيها الصامت، فذهب إلى الحجرة نومه وأحضر كوبا من الماء وانحنى إليها وهو يقول:

- هل لك في قليل من الماء فإنه سوف سيخفف آلامك.

ووضعت نورا شفتها دون اكتراث على الكوب وشربت جرعتين أو ثلاث،

ثم همست إليه في وهن أن يعطيها منديلا، وجففت دموعها. ثم قالت في أنين:

- كنت أعلم طبعاً. انك لا تحبني، كما كنت أحبك.

- أخشى أن أقول أن هذه الحقيقة دائمة. فهناك على الدوام شخص يحب وشخص آخر

الناس يحبونه.

وفكر فيليب في ميلدريد وقد اخترق قلبه ألم شديد، وظلت نورا وقتا طويلا في صمت

قالت:

- إننى تعسة وبائسة. وحياتى أصبحت بغضضة جدا.

لم توجه نورا الحديث إليه ولكنها كانت تحدث نفسها. ولم يسمعها فيليب قبل ذلك من حياتها أو من فقرها، بل كان دائما معجبا بقوتها على مواجهة أحداث الزمان.

وقالت نورا:

- ثم اعترضت أنت طريق حياتى وكنت طيبا معى. وأعجبت بك لأنك كنت ماهرا، من نعم الله أن يجد المرء شخصا يضع فيه ثقة. فأجبتك، وما كنت أظن أن ما بيننا س

يوما إلى نهاية. ودون أى خطأ من جهتى.

وبدأت دموعها تنساب من جديد، ولكنها عادت رابطة الجأش مرة أخرى وأخفت

في منديل فيليب وتحاملت على نفسها لكى تتحكم في عواطفها وقالت له:

أعطني قليلا من الماء للمرة الثانية .

ومسحت نورا دموعها وقالت -

- أسفة إننى أظهرت نفسى أمامك بمظهر الغباء والغفلة، فلم أكن مستعدة لما حدث

- أسف جدا يا نورا، وأود أن تعلمى أننى جد شاكر لك كل ما قمت به من أجلى .

وتساءل فيليب ما الذى رآته نورا في شخصه .

وتنهدت نورا وقالت :

- أوه.. إنها هي المشكلة نفسها دائما. فإذا أرادت المرأة أن يسلك الرجل معها سلوكا طيبا،

فعلينا . أن تعامله بوحشية . أما إذا عاملت المرأة الرجل بأدب وحسن لياقة ، فلا بد أن

تقاسى معه الأمرين نتيجة هذه المعاملة الطيبة .

ونفضت نورا من مجلسها على أرض الحجرة وقالت إنها يجب أن تذهب .

ونظرت إلى فيليب نظرة طويلة ثابتة ، ثم تنهدت وقالت:

- هذا تصرف لا يمكن تفسيره، ولا أدرك سر ما حدث.

وفجأة وصل فيليب إلى قرار .. وقال لنورا:

- أظن أنه من الأفضل أن أشرح لك الأمر، فلا أريد أن تظني بي السوء.

- أريدك أن تفهمي أننى لا أستطيع التصرف. لقد عادت ميلدريد.

وعاد وجه نورا إلى لونه الطبيعي .

- ولماذا لم تكن صريحا من أول الأمر؟ أننى أستحق كل هذا ولا ريب.

- خشيت أن أخبرك به.

ونظرت نورا إلى نفسها في المرأة وأصلحت من وضع قبعتها ثم قالت:

- هلا طلبت لي عربة فاني أشعر بأننى لن أستطيع المشي.

ذهب فيليب إلى الباب وأوقف عربة كانت مارة، وعندما تبعته نورا إلى الشارع أفرغه

ما بدا على وجهها من شحوب. وكانت حركاتها ثقيلة، وكأن عمرها قد زاد سنوات فجأة. وبدأ

عليها المرض حتى أن قلبه لم يطاوعه أن يتركها تذهب وحدها فقال لها :

- سأركب معك إذا لم يكن هذا يضايقك.

لم تجب نورا، وركب فيليب معها العربة، وسارت بهما في صمت فوق الجسر وخلال

الشوارع الحقيرة حيث يثير الأطفال الصخب وهم يلعبون . وعندما وصلت العربة إلى مسكن

نورا لم تغادرها في الحال، وكأنها لم تجد في رجليها من القوة ما يعينها على الحركة.

وقال فيليب مخاطبا نورا:

- أمل أن تسامحيني يا نورا.

فأدارت نورا عينيها إلى ناحيته. ورأى فيليب أن الدموع ما زالت تترقرق فيها ولكنها

اغتنبت ابتسامة من شفيتها وقالت:

- أيها المسكين، إنك جد قلق على، لا تبتئس ، فلن ألومك، وسأغلب على كل شئ.

وربتت نورا في خفة على وجه فيليب لتريه إنها لا تحمل له سوءا.

ولم تكن هذه الإيماءة منها لتزيد عما كان يراد بها، وبعدها قفزت نورا من العربة ودخلت

منزلها.

ودفع فيليب للسائق أجرة ، ثم سار إلى مسكن ميلدريد . وكان قلبه متقلبا ثقلا لم يألفه.

كان فيليب ميالا إلى لوم نفسه، ولكن لماذا؟ إنه لا يدري ماذا كان يستطيع أن يصنع غير

ما صنع. وتذكر فيليب عند مروره أمام محل الفاكهي أن ميلدريد مغرمة بالعنب. وكان

يسعده أن يستطيع إظهار حبه لها بتذكر كل نزوة من نزواتها.

وظل فيليب يذهب كل يوم طيلة الأشهر الثلاثة التالية لزيارة ميلدريد وكان يأخذ كتبه

معه ويستذكر بعد الشاي على حين تستلقي ميلدريد على الأريكة وتقرأ القصص. وكان أحيانا

يتطلع إليها ويرقبها قليلا فترسم على شفثيه ابتسامة ويشعر بالغبطة والسعادة... فكانت

تقول له.

- لا تضيع وقتك في النظر إلى أيها الأبله واستمر في عملك.

وكان يجيبها في فرح قائلا:

- أيتها الظالمة!!

وكان الأمل الذى يجيش في قرارة قلبها هو أن يولد الطفل ميتا. ولم تفعل ميلدريد شيئا

سوى التلميح إلى هذا الموضوع، ولكن فيليب كان يرى إن هذا الخاطر يراودها. لقد أخذ فيليب

بادئ ذي بدء حين خطر له هذا الخاطر ولكنه بعد التفكير في هذا الموضوع مليا، وجد نفسه

مضطرا إلى الاعتراف بأن هذا الحادث كان أمرا مرغوبا فيه من كل من يهتمهم الأمر.

قالت ميلدريد لفيليب تجادل:

- جميل جدا أن تقول هذا أو ذاك، ولكن من الصعب جدا على فتاة أن تحصل على قوتها

بنفسها. ولن يسهل من هذه الصعوبة وجود طفل لها.

وابتسم فيليب وقال وهو يمسك بيدها:

- من حسن الحظ إننى إلى جانبك وتستطيعين الاعتماد على.

- لقد أحسنت إلى كثيرا.

- أوه ما هذا الكلام الفارغ.

- لن تستطيع القول بأننى لم أمنحك ما يقابل صنعتك معي.

- رباه إننى لا أريد مقابلا، وإذا كنت قد قدمت لك يدا فإنما فعلت ذلك بدافع من حبي لك،

فلست مدينة لي بشيء، ولا أريدك أن تفعلني شيئا إلا إذا كنت تحبينني.

وقد روعه بعض الشيء شعور ميلدريد بأن جسمها سلعة تستطيع أن تقدمها دون مبالاة

عرفانا بما يقدم إليها من خدمات.

- ولكنى أريد ذلك يا فيليب . لقد أحسنت إلى.

- لن يضير الانتظار، وعندما تستعيدين صحتك، سنذهب لقضاء شهر عسل قصير

وابتسمت ميلديريد وهى تقول:

- إنك لخبيث.

وجاء وقت انتقال ميلديريد إلى دار الحضانة حيث تضع حملها. وكان باستطاعة فيليب وقتذاك أن يزورها بعد الظهر فحسب. وغيّرت ميلديريد قصتها فزعمت إنها زوجة جندي ذهب إلى الهند للانضمام إلى فرقته أما فيليب فقد قدمته إلى رئيسة المؤسسة على أنه أخ لزوجها وقالت ميلديريد لفيليب:

- على أن أكون حريصة نوعا ما فيما أقول، فهناك سيدة أخرى زوجها موظف مدني في حكومة الهند.

- لو كنت مكانك لما جعلت هذا الأمر يزعجني، لأنى أعتقد أن زوج هذه السيدة قد سافر إلى الهند على القارب الذي سافر عليه زوجك.

فتساءلت ميلديريد في براءة:

- أى قارب؟

- الهولندي الطائر!!

وضعت ميلديريد طفلة بسلام، وعندما سمح لفيليب أن يراها كانت الطفلة إلى جواره وكانت ميلديريد ضعيفة، ولكنها سرها أن كل شئ قد انتهى. وأرت ميلديريد الطفلة لفيليب ونظرت إليها بدورها في عجب وهى تقول:

- إنها مخلوقة تثير الضحك. أليست كذلك؟ لا أكاد أصدق أنها ابنتي.

كانت الطفلة حمراء مجعدة غريبة. وابتسم فيليب عندما نظر إليها ولم يدر ماذا يقول وما زاد من حيرته أن الحاضنة صاحبة الدار كانت تقف إلى جواره، وشعر فيليب من أسلها نظرتها إليه إنها كانت تعتقد أنه والد الطفلة، غير مصدقة قصة ميلديريد المعقدة.

وسألها فيليب:

- ما الاسم الذى ستختارينه لها؟

- لا أستطيع أن أجزم، هل أطلق عليها اسم مادلين أم سيسليا؟

وتركتهم الحاضنة في خلوة دامت دقائق، وانحنى فيليب يقبل ميلديريد في فمها ويقول:

- إنني لسعيد أن كل شئ قد انتهى بخير يا عزيزتي.

وأحاطت ميلديريد عنق فيليب بذراعيها النحيلتين وقالت:

- لقد كنت عوني أيها العزيز فيليب.

- أشعر الآن أنك لي أخيرا. لقد انتظرت طويلا من أجلك يا عزيزتي.

وأحسا أن الحاضنة بالباب فنهض فيليب. ودخلت الحاضنة وعلى شفثيها ابتسامة خفيفة.

وبعد أسابيع ثلاثة من ذلك الوقت ودع فيليب ميلديريد وطفلتها إلى سيرايتونس. لقد شفيت سريعا وظهرت عليها دلائل العافية أكثر مما اعتاد أن يراها. وكانت ميلديريد في طريقها إلى الإقامة بمنزل تطعم فيه وتقيم حيث كانت قد قضت نهايتي أسبوعين مع أميل ميللر. وقد كتبت ميلديريد لصاحبته تقول إن زوجها اضطر إلى الذهاب إلى ألمانيا في عمل وإنها قادمة مع طفلتها. وكانت ميلديريد تتلذذ من سرد هذه القصص التي تلفقها وتظهر قدرة خاصة على الاختراع والتلفيق عند ذكر التفاصيل.

وفكرت ميلديريد في أن تجد في «برايتون» امرأة تقبل أن يعهد إليها بأمر الطفلة. وقد أفزع فيليب تحجر قلب ميلديريد الذى ظهر في إصرارها على التخلص من وليدها بهذه السرعة. ولكنها ناقشته في تعقل ومنطق. وبينت له أنه من الأفضل للطفلة أن توضع في مكان ما قبل أن تعتاد وجودها معها. بينما كان فيليب يتوقع أن تثور غريزة الأمومة فيها عندما أصبحت لها طفلة. عاش معها أسبوعين أو ثلاثة، واعتمد فيليب على هذه الغريزة في إغرائها بإبقاء الطفلة معها. ولكن شيئا من هذا لم يحدث ولم تكن ميلديريد قاسية على طفلتها، فقد قامت بكل ما كان ضروريا لها، وكانت تسر لرؤيتها أحيانا، وتحدث كثيرا عنها. ولكنها في قرارة نفسها كانت غير عابئة بها. ولم تكن تنظر إليها على أنها قطعة منها، لأنها كانت تتخيلها شبيهة بأبيها. وكانت تفكر على الدوام، فيما تعمله مستقبلا عندما تكبر الطفلة وتحقق على نفسها لأنها كانت ساذجة إذ حملت بها أصلا. قالت ميلديريد:

- ليتنى كنت عرفت وقتها كل ما أعرفه الآن ..

وكانت تضحك من فيليب لأنه كان يهتم كثيرا برفاهية الطفلة وتقول له:

- ما كنت لتثير ضجة أكثر من هذه لو أنك كنت والدها، وكم أود لو أرى أميل في مثل ما أنت فيه من اضطراب بشأنها.

- ستكتبين إلى يا عزيزتي، أليس كذلك؟ وسأنتظر أوبتك بصبر نافد..

- يجب أن تعمل على الفور لامتحانك.

وكان فيليب يعمل جاهدا للنجاح في الامتحان. وهو يبذل اليوم مجهودا أخيرا في هذا السبيل، بعد أن لم تعد هناك غير عشرة أيام ويأتي هذا الامتحان.. وكان فيليب جد حريص على النجاح. أولا ليوفر على نفسه الوقت والمال. فقد أخذت النقود تنسال من بين أصابعه خلال الشهور الأربعة الأخيرة بسرعة لا يمكن أن تصدق. وثانيا لأن هذا الامتحان سيكون بشير بنهاية حياة الكد والعناء بالنسبة له. إذ يستطيع الطالب بعد ذلك أن يعمل في العلاج والتوليد «القبالة» والجراحة، وهى أكثر طرافة من التشريح وعلم الوظائف الأعضاء، وهما المادتان اللتان كان يعنى بهما حتى الآن. وتطلع فيليب باهتمام إلى بقية البرنامج الدراسي. وفضلا عن هذا فإن فيليب لم يكن يريد أن يضطر إلى الاعتراف أمام ميلديريد بأنه فشل، ورغم صعوبة الامتحان ورغم أن غالبية المتقدمين فشلوا عند أول محاولة، فإنه كان يعلم أنها ستسيء الظن به إذا لم ينجح وكانت لها طريققتها الخاصة المذلة في التعبير عن رأيها.

وذهب فيليب إلى الامتحان في ثقة عظيمة ممتلئ القلب سرورا ولم يجد في كلتا ورقتي الامتحان ما يضايقه.

وتأكد من أنه أجاب الإجابة الصحيحة. ورغم أن الجزء الثاني من الامتحان كان شغويا، وأنه كان عصبيا إلى حد كبير، فإنه قد أجاب عن الأسئلة إجابة طيبة.

وأبرق فيليب إلى ميلدريد عندما أعلنت النتيجة. وكتب إليها في اليوم التالي، وأرسل إليها ورقة من ذات الجنيهات الخمسة. وقال فيليب لميلدريد في نهاية خطابه إنها إذا كانت بصحة جيدة ويهمها أن تراه في عطلة نهاية الأسبوع فإنه سيكون سعيدا في الذهاب إليها. ولكن طلب إليها ألا تثير من أية خطة وضعتها لسبب من الأسباب.

وانتظر فيليب رد خطابه بفارغ الصبر. وجاءه الرد تقول فيه أنها لو كانت تعلم نبأ رغبته في الحضور من قبل، لدبرت أمورها. ولكنها أعطت وعدا من قبل بالذهاب إلى إحدى قاعات الموسيقى ليلة السبت، وفوق هذا فإن وجوده معها في المنزل الذي تقيم فيه سيجعل من فيه يتلفظ بالكلام عليها. فلماذا لا يأتي يوم الأحد صباحا ويقضى اليوم معها؟ إنهما يستطيعان تناول طعام الغداء في المتر وبول، ثم تصاحبه بعد ذلك ليرى السيدة العظيمة التي ستأخذ الطفلة.

وأتى يوم الأحد. وقد حمد فيليب الله لأنه كان يوما جميلا. فعندما اقترب القطار من برايتون ألقت الشمس بأشعتها الدافئة في العربة من خلال النافذة. وكانت ميلدريد تنتظر على الرصيف.

وصاح فيليب وهو يمسك يدها قائلا:

- كم هو جميل منك أن تأتي لتقابليني..

- لقد كنت تتوقع مجيئي. أليس كذلك؟

- كنت أرجو أن تأتي، وإنى يسرني ما أراه عليك من دلائل الصحة.

- لقد نلت بحضوري إليك خيرا كثيرا ولكنى أعتقد أنه من العقل أن أمكث هنا ما استطعت.

فهنا جماعة طيبة جدا من سكان المنزل. وأنا في حاجة إلى المرح بعد أن قضيت كل هذه الشهور دون أن أرى إنسانا. ولم تكن الحياة سارة في بعض الأحيان.

وبدت ميلدريد رشيقة في قبعتها الجديدة المصنوعة من القش الأسود الكبير والتي يزينها الكثير من الزهور الصناعية الرخيصة. وكانت تضع حول عنقها عقدا على شكل أفغوان طويل. وكانت نحيلة جدا كالعهد بها وتنحني قليلا أثناء السير ولم تبد عينها واسعتين جدا. ومع أن جلدها لم يكن بلون خاص في يوم من الأيام إلا أنه زال عنه ذلك المنظر الذي كان عليه.

وسارت ميلدريد مع فيليب ناحية البحر. وما أن تذكر فيليب أنه لم يمش معها منذ أشهر حتى أحس فجأة بعرجة. فمشى بقوة محاولا إخفائه.

وسأل فيليب ميلدريد والحب يرقص بجنون في قلبه:

- هل سرتك رؤيتي؟

- دون شك.. ما كان لك أن تسأل هذا السؤال.

- حتى لا أنسى، جريفت يبعث إليك بحبه.

- ياللفساق!

وحدثها فيليب كثيرا عن جريفت، وعن مغازلاته، وقص عليها على سبيل التسلية بعض مغامرات جريفت التي أفضي بها إليه على أنها سر يجب كتمانها.

واستمعت ميلدريد إليه مدعية التقزز أحيانا. ومدفوعة بحب الاستطلاع عامة.

وكان فيليب بدافع من إعجابه بصديقه يبالغ في وصف جمال شكل صاحبه وسحره وقال:

- من المؤكد أنك ستحبين جريفت كما أحبه تماما. فهو جميل، ومسل، ومن عنصر طيب جدا. وقص عليها فيليب كيف أن جريفت قد اعتني به أثناء مرضه. بينما كانا لا يزالان غريبين. ثم أخذ يعدد لميلدريد تضحيات صديقه، لم يدع شيئا.

قال فيليب:

- لن تستطيعي إلا أن تحبيه.

وردت عليه ميلدريد:

- لا أحب الرجال ذوى المنظر الجميل إنهم في نظري مغرورين جدا.

- إن جريفت يريد إن يتعرف إليك. لقد تحدثت إليه طويلا عنك.

- وماذا قلت له؟

لم يجد فيليب سوى جريفت يبته غرامه بميلدريد فأخبره شيئا فشيئا بالقصة الكاملة لاتصاله بها ووصفها خمسين مرة. وأطنب من فرط حبه في وصف دقائق منظرها. وعرف جريفت بالضبط شكل يديها وبياض وجهها، وضحك من فيليب عندما حدثه عن سحر شفتيها الشاحبتين الرفيعتين..

قال جريفت:

- يا إلهي أنني سعيد لأنني لا أخذ الأمور بهذا الشكل الشنيع.. وإلا لما أصبحت الحياة جديرة بأن نحياها.

وابتسم فيليب. أن جريفت لم يعرف لذة الجنون في الحب حتى يصبح الحب للمرء كاللحم والخمر والهواء الذي يستنشقه وكل ما هو ضروري للوجود.

وكان جريفت يعلم أن فيليب أحاط الفتاة بعنايته خلال الوضع وأنه يخرج معها الآن.

- يجب القول بأنك تستحق الحصول على شيء.. فقد كلفت نفسك غاليا ومن حسن الحظ أنك مستطيع الإنفاق.

قال فيليب:

- لست مستطاعة. ولكن ذلك لا يهم.

وسار فيليب و ميلدريد إلى المحطة بعد العشاء وقد اشتبكت ذراعاهما. وأخذ فيليب يحدث ميلدريد عن الإجراءات التي اتخذها لرحلتها إلى فرنسا . وكان عليها أن تحضر إلى لندن في نهاية الأسبوع. ولكنها أفهمته أنها لا تستطيع ذلك حتى يوم السبت من الأسبوع التالي. وكان فيليب قد استأجر حجرة في أحد فنادق باريس. وكان ينتظر في شوق موعد الحصول على التذاكر.

- لن يضايك أن يكون السفر بالدرجة الثانية. أليس كذلك إذ يجب ألا نكون مسرفين وسيكون من صالحنا لو أننا استطعنا أن نمتع أنفسنا هناك.

لقد تحدث إليها فيليب عن الحي «اللاتيني» مئات المرات. سيتجولان خلال شوارع الحبيبة القديمة وسيجلسان في تذاكل وخمول في حدائق اللوكسمبورج الساحرة، وقد يذهبان إلى ضاحية «فونتينلو» إذا كان الجو صحوا. وبعد أن ينتهيا من زيارة كل ما يريدان زيارته في باريس ستكون الأشجار قد بدأت تورق، وخضرة الغابة في الربيع هي أجمل شيء عرفه فيليب. إنها لتشبه الأغنية وإنها لشبيهة بألم الحب السعيد.

واستمعت إليه، ميلدريد في صمت والتفت فيليب إليها محاولا أن يخترق بنظراته أعماق عينيها وقال لها:

- تريدان الذهاب إليها، أليس كذلك؟

وأجابت ميلدريد مبتسمة:

- طبعاً أريده.

- إنك لا تعلمين كيف أنتظر ذلك اليوم. ولست أدري كيف أقضي الأيام القادمة . ثم إنني أخشى أن يحدث ما يحول دون ذهابنا. وإنه ليكاد يذهب بعقلي أحيانا ألا أستطيع مصارحتك بمقدار حبي لك وأخيراً... وأخيراً...

وصمت فيليب، فقد وصلا إلى المحطة ولكنهما كانا قد سرا ببطء ولم يجد فيليب متسعاً من الوقت ليودعها قبل أن يستقل القطار. وقبلها فيليب سريعا ثم جرى نحو الكوة بأسرع ما يمكن. ووقفت ميلدريد حيث تركها فيليب وكان غريبا وهو يجري.

وعادت ميلدريد إلى لندن في يوم السبت التالي، وابتاع له ولها تذكرتين في المسرح وكانت هذه أولى لياليهما الجميلة في لندن منذ زمن طويل فانطلقت في التمتع فيها بكل أنواع المتعة، واحتضنت ميلدريد فيليب أثناء عودتها في العربة من المسرح في طريقهما إلى الحجرة التي استأجرها لها فيليب في حي بمبلوكو.

قال فيليب لميلدريد:

- أرى حقاً أنك سعيدة جداً لرؤيتي.

ولم تجب ميلدريد بل ضغطت برفق على يده. فقد كانت مظاهر الحب نادرة الحدوث منذ كان فيليب يفتن بذلك أيما افتتان وقال لها:

- لقد دعوت جريفت إلى الغداء معنا غدا.

- لقد سرتني إن فعلت هذا فإنني أريد مقابلته.

ولم يكن هناك مكان للترفيه يستطيع فيليب أن يأخذ ميلدريد إليه ليلة الأحد، وكان يخشى أن تسأم إذا ظلت معه بمفرده طوال اليوم ولكن جريفت كان مسليا، وباستطاعة يساعدهما على قضاء فترة المساء . وكان فيليب مغرماً بكليهما ويود لو عرف أحدهما بالآخر وأحبه.

وغادر فيليب ميلدريد وهو يقول:

- لم يبق إلا ستة أيام .

وتوعدا على العشاء في «الرومانو» يوم الأحد ، لأن العشاء هناك ممتان، ويبدو أغلى حقيقته بكثير.

ووصل فيليب و ميلدريد أولاً، وكان عليهما أن ينتظرا بعض الوقت حتى يحضر جريفت وقال فيليب عن جريفت:

- إنه شيطان غير دقيق في مواعيده ، ولعل سبب تأخره إنه يغازل إحدى جميلات الكثيرات..

ولكن جريفت ما لبث أن ظهر . وكان شاباً جميلاً طويلاً نحيلاً رأسه متناسب الوجه جسمه مما أكسبه مظهر الانتصار، وجعله جذاباً. وزاد في سحره وفتنته إن كان شعره مائلاً وعيناه جريئتين صافيتين زرقاوين وفمه أحمر. ورأى فيليب ميلدريد تتطلع إلى جريفت إعجاب وتقدير، فشعر بارتياح عجيب وحياهما جريفت بابتسامة، ثم خاطب ميلدريد وهو يأخذ يدها في يده .

- لقد سمعت كثيراً عنك .

- ليس بقدر الذي سمعته عنك.

وقال فيليب:

- ولم يكن فيما سمعتهما سوءاً.

وسأل جريفت:

- هل كان يسئ سمعتي؟

ثم ضحك جريفت، ورأى فيليب أن ميلدريد لاحظت بياض أسنانه وانتظامها كما لاحظ جمال ابتسامته وعذوبتها.

- يجب أن تشعرا كأنكما صديقان من زمن طويل. فقد تكلمت عن كل منكما للآخر. وكان جريفت في خير حالات مرحة. فقد نجح أخيراً في امتحانه النهائي، وأصبح مؤقلاً وقد عين منذ وقت قريب في وظيفة جراح امتياز بمستشفى في شمال لندن. وسيتسلم واجبه عمله في أوائل شهر مايو، ولذا فهو يعتزم القيام بإجازة عائداً إلى بلده . وكان هذا أسبوعاً له يقضيه في المدينة . وقد قرر قراره على أن يستمتع ما أمكنه الاستمتاع خلال الأسبوع. وراح جريفت يبدي هذا المرح الذي طالما أعجب به فيليب لأنه لم يكن يست

مجاراته فيه . ولم يأت جريفت في حديثه بشيء ذى بال ولكن طريقته الممتعة في الإلقاء هي التي جعلت منه شخصا ظريفا . وكانت قوة الحياة تفيض من جريفت وتؤثر في كل من عرفه ، ويكاد يحسها الإنسان كما يحس حرارة الجسم سواء بسواء .

وكانت ميلدريد أكثر ما عرفها فيليب نشاطا وحياة . وسر فيليب أن يرى نجاح جماعته الصغيرة . واستمتعت ميلدريد بنفسها غاية الاستمتاع . فضحكت عاليا ، ونسيت في غمرة مرحها تحفظها المذهب الذي أصبح لها طبيعة ثابتة .

وفي الحال قال جريفت :

— اسمحي لي أن أقول إنه من الصعب جدا على أن أناديك باسم السيدة ميلر فإن فيليب لم يدعك قط إلا باسم ميلدريد .

ورد فيليب عليه ضاحكا :

— أستطيع أن أقول لك إنها لن تخرج عينيك إذا ناديتها بذلك الاسم أيضا

— إذن فعلها أن تناديني « هارى » .

وجلس فيليب صامتا بينما أخذت ميلدريد وجريفت يثرثران ، وقال في نفسه : « ما أجمل أن يرى المرء الناس في سعادة »

وكان جريفت بين الفينة والفينة يعايب فيليب في رفق لأن فيليب كان دائما جادا في حديثه وابتسمت ميلدريد قائلة :

— أعتقد أنه مغرم بك جدا يا فيليب .

وأجاب جريفت وقد أمسك بيد فيليب وأخذ يهزها في فرح :

— إنه ليس إنسانا خبيثا !!

وظهر أن حب جريفت لفيليب قد أضاف جديدا إلى جاذبية جريفت وسحره وكانوا جميعا ممن لا يفرطون في الشراب ومن أجل ذلك ذهب النبيذ الذي شربوه بألبابهم . فأصبح جريفت أكثر ثرثرة وأشد جلبة حتى لقد طلب إليه فيليب ، وهو في نشوته ، أن يلتزم بالهدوء .

وكانت لدى جريفت موهبة سرد القصص ، ولم تفقد قصص مغامراته شيئا من رونقها وقدرتها على إثارة الضحك خلال سردها . وكان له في كل قصة دور صاحب الشها والفكاهة .

وقد أغرت ميلدريد جريفت بمتابعة قصصه ، ولمعت عينها ببريق الاستثارة . وأجبت جريفت يحكى القصة بعد القصة . وعندما بدأت الأضواء تطفأ ظهرت على ميلدريد الدهشة وقالت :

— حقا لقد مضت الليلة سريعا . فلقد كنت أظن أن الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف . ونهضوا لمغادرة المكان . وبعد أن ألقت ميلدريد على جريفت تحية المساء أضافت قائلة :

— سأحضر لتناول الشاي عند فيليب غدا . أمل أن تحضر إذا استطعت .

فابتسم جريفت وقال :

— سأحضر ..

ولم يكن حديث ميلدريد في طريق عودتها إلى مسكنها في بمبلكو يدور إلا عن جريفت . لقد أخذت ميلدريد بنظراته الجميلة ، وبملابسه التي أحسن هندامها وبصوته ومرحه . وقال فيليب لميلدريد :

— إنني مسرور لأعجابك به . هل تذكرين أنك كنت عازفة نوعا عن مقابلته ؟

— أعتقد أنه جميل منه أن يكون مغرما جدا بك يا فيليب . إنه خير صديق تصطفيه .

ورفعت ميلدريد وجهها إلى فيليب ليقبلها ، وقلما كانت تفعل ذلك .

— لقد تمتعت الليلية يا فيليب . وأشرك كثيرا جدا .

وضحك فيليب وقد أثر فيه تقديرها لعمله حتى اغرورقت عيناه بالدموع وقال لها :

— لا تكوني سخيطة .. إلى هذا الحد ..

وفتحت الباب وقبل أن تدخل التفتت ثانية إلى فيليب وقالت :

— أبلغ هارى إنني مغرمة به إلى حد الجنون .

فضحك فيليب وقال :

— سأفعل . عمى مساء .

وحضر جريفت في اليوم التالي وهما يشربان الشاي . وجلس في تكاسل في أحد الكراسي الكبيرة .

وكانت الحركات البطيئة التي تصدر عن أطرافه الكبيرة تنم عن وجود إحساس شهواني غريب يسرى بين جوانحه . وظل فيليب صامتا ، بينما أخذت ميلدريد وجريفت يتحدثان . ولكنه كان مسرورا كل السرور وكان هو معجبا جدا بكليهما حتى بدا طبيعيا جدا أن يعجب كل منهما بالآخر . ولم يكن يهمه أن يستغرق جريفت كل انتباه ميلدريد فلن يكون انتباهها موجها إلى غيره خلال فترة المساء . لقد كان شعوره وقتئذ شعور الزوج المحب الواثق من حب زوجته له ، الذي ينظر بعين التسلية إليها وهي تغازل أجنبيا دون أى قصد سيئ .

وعندما حانت السابعة والنصف نظر فيليب إلى ساعته وقال :

— لقد حان وقت ذهابنا لتناول طعام العشاء يا ميلدريد .

وصمتوا برهة ، وبدا أن جريفت فهم القصد فقال :

— إني ذاهب فما كنت أعلم أننا قد تأخرنا إلى هذا الحد .

وسألته ميلدريد :

— هل لديك عمل الليلة ؟

— كلا .

وساد الصمت مرة أخرى . وشعر فيليب بقليل من الضيق . قال فيليب :

— سأذهب توا لأغسل يدي .

وأضاف قائلا لميلدريد :

– هل تريدان غسيل يديك ؟

ولم تجب ميلدريد .. وقالت لجريفت :

– لماذا لا تأتي للعشاء معنا ؟

ونظر جريفت إلى فيليب فوجده ينظر إليه في اكتئاب . وضحك جريفت وقال :

– لقد تعشيت معكما بالأمس . سأضايكما إذا كنت معكما الليلة .

وقالت ميلدريد في إصرار :

– وأى ضمير في هذا . دعه يحضر يا فيليب انه لم يضايقنا ، أليس كذلك ؟

وقال فيليب :

– لا أمانع قط في حضوره إذا أحب .

وقال جريفت في الحال :

– إذن . سأذهب إلى مسكني وأصلح من هندامي .

وما أن غادر جريفت الحجرة حتى التفت فيليب إلى ميلدريد وهو غاضب وقال :

– بالله لم دعوته للعشاء معنا ؟

لم أستطع الصمت . ولو إنني لم أقل شيئاً ماحين قال هو أنه ليس لديه ما يشغله .

هذا مما يدعو إلى الضحك .

– كلام فارغ وأى حق لك في أن تسأليه هل لديه عملاً أو لا .

وانطبقت شفتا ميلدريد الشاحبتين قليلاً ثم قالت :

– أريد شيئاً من التسلية في بعض الأحيان لأنني أشعر بسأم عندما أكون دائماً معك

انفراد .

وسمعا وقع قدمي جريفت الثقيلتين على السلم ، ودخل فيليب حجرة نومه ليغسل يديه

وتناولوا عشاءهم في مطعم إيطالي قريب . وكان فيليب عابس الوجه صامتاً . ولكنه سر

ما أدرك أن ذلك لم يكن في صالحة ، عندما تعقد مقارنة بينه وبين جريفت . لذا فقد

إلى إخفاء ضيقه . وشرب فيليب كمية كبيرة من النبيذ ، ليذهب به الألم الذي كان ينهش

وأعد نفسه للكلام . وكان ميلدريد قد شعرت بتأنيب ضميرها على ما قالت من قبل ، ف

كل جهد وسعها في سبيل إرضائه . فبدت لطيفة محبة . وبدأ فيليب يدرك أنه كان

لأنصياحه لشعور الغيرة . وبعد العشاء ركب الثلاثة في عربة إلى إحدى دور الموسي

وكانت ميلدريد تجلس بين فيليب وجريفت وقد أعطت يدها من تلقاء نفسها إلى فيليب .

عنه غضبه . ثم أدرك فجأة ، دون أن يدري كيف عرف ، إن جريفت يمسك بيدها الأ

واستبد به الألم العنيف مرة ثانية ، وكان ألماً جسمانياً حقيقياً . وقد سأل نفسه وهو

للجزع نفس السؤال الذي كان يصح له أن يسأله إياها من زمن : «هل قامت بين

وميلدريد علاقة حب وغرام ؟»

ولم يستطع أن يرى شيئاً بسبب ظلال الشك والغضب والرعب والبؤس
أمام عينيه . ولكنه أرغم نفسه على إخفاء حقيقة ما كان يحس به . وظل
وبعداً تملكته رغبة غريبة في تعذيب نفسه . فنهض قائلاً أنه يريد الذهاب إلى
شرب شئ ما . ذلك أن جريفت وميلدريد لم يكونا قد اختليا قبل الآن ، فأراد
لهما تلك الفرصة . وقال جريفت :

– سأأتي معك . إنني أيضاً أشعر بالعطش .

– هراء . ابق حيث أنت وتحدث إلى ميلدريد .

ولم يدر فيليب لماذا قال ما قال . لقد تركهما سوياً ليجمع الألم الذي يعتم
محتمل أكثر مما هو . ولم يذهب فيليب إلى محل الشراب ولكنه سار إلى الشرف
مراقبتهما من حيث لا يريانه . وكان ما رآه أن جريفت وميلدريد لم يعود ينظر
أخذ كل منهما يبتسم في عين الآخر . وكان جريفت يتحدث بطلاقة المرحه
وبدت ميلدريد وكأنها تلتصق بشفتيه . وبدأت رأس فيليب تدور بشدة ووقف
لا يتحرك وأدرك أنه سيعترض طريق سعادتهما لو أنه عاد ، فلقد كانا يستمت
كان هو يتعذب .. ويتعذب .

ومضى الزمن وقد غشيه خجل غريب من أن يقتحم عليهما خلوتهما .
أنهما لم يفكرا قط في وجوده ، وتذكر في مرارة أنه هو الذي دفع لهما ثمر
المقاعد في دار الموسيقى . إلا ما أشد سخريتهما منه ! وثار الدم في عروقه مر
من العار .



لقد كان فيليب يرى مقدار سعادتهما في غيبته وكان ينتوى أن يتركهما
المنزل . ولكن قبعته ومعطفه لم يكونا معه ، وقد يجز تركه إياهما إلتفسيران
فعاد فيليب إلى حيث كانا يجلسان وشعر بشئ من الضيق يطل من عيني ميلدر
فخاص بين جنبيه .

وقال جريفت في ابتسامة ترحيب :

– لقد غبت زمناً طويلاً .

– لقد قابلت بضع أشخاص أعرفهم . وأخذنا نتحدث سوياً ، ولم أستطع ا

وأعتقدت أنكما كنتما على ما يرام معا .

قال جريفت :

– لقد تمتعت متعة كاملة . ولكني لا أعرف شيئاً عن ميلدريد .

وندت عنهما ضحكة صغيرة تنبئ عن غبطة وسعادة وكانت تتخللها نبرة مبتذلة أفزعت فيليب. واقتراح أن يعودا .

فقال جريفت :

— تعال ، سنوصلك كلانا إلى منزلك .

وظن فيليب أن ميلدرید هي التي اقترحت هذا التدبير لكي لا تترك وحدها معه .

ولم يأخذ يدها وهما في العربة ولم تقدمها هي إليه . ولكنه رأى يدها كانت طول الوقت في يد جريفت .

وكان أهم ما يفكر فيه فيليب وقتها أن كل ما حدث منها كان ابتذالا مروعاً .

وسأل فيليب نفسه أثناء سير العربة أى خطة دبرها ليلتقيا دون علمه . ولعن فيليب نفسه لأنه تركهما منفردين وأدرك أنه أخلى لهما الطريق وعندما وصلت العربة إلى حيث كانت ميلدرید تسكن قال فيليب :

— لنحتفظ بالعربة فإني متعب جدا لا أستطيع العودة إلى منزلي راجلا .

وأخذ جريفت وهما عائدان يتحدث وهو مبتهج جذلان ولم يبال بأن ردود فيليب عليه كانت مقتضبة . وشعر فيليب أن جريفت لابد قد لاحظ أن في الأمر شيئا . وأخيرا أصبح صمت فيليب ذا معنى ، أكبر من أن يقاوم . أما جريفت فقد أصبح فجأة عصيبا ثم وقف عن الكلام . وأراد فيليب أن يقول شيئا ، ولكن حيائه حال بينه وبين الكلام . ولكنه أحس بأن الوقت يمر والفرصة توشك أن تضيع . وكان من الخير الوصول إلى الحقيقة في الحال ، ولهذا تحامل فيليب على نفسه وسأل جريفت فجأة :

— هل وقعت في غرام ميلدرید ؟

وضحك جريفت وقال :

— أنا ؟ هل هذا ما كنت تبدو سخيلا من أجله الليلة ؟ طبعاً لا . يا صديقي العزيز .

وحاول جريفت أن يدخل يده في ذراع فيليب ، ولكن فيليب ابتعد عنه ، فقد كان يعرف أن جريفت يكذب عليه . وما كان فيليب بمستطيع أن يرغم جريفت على القول بأنه لم يكن ممسكاً بيد الفتاة . ثم شعر فجأة بأنه ضعيف جدا ومحطم ، وقال :

— لن يضيرك هذا يا هارى . فلديك الكثير غيرها من النساء .. ولكن لا تسلبني إياها . فإن في بعدها يعنى ضياع عمرى إنني جد بائس .

وتهدج صوته ، ولم يستطع منع عبراته وأناته التي كانت تقطع ذات نفسه . واستحى من نفسه إلى حد كبير .

— يا صديقي العزيز أعلم أني لن أفعل قط ما يؤذيك ، وأن حبي الشديد لك ليحول بيني وبين هذا ، وكل ما هو مجرد عبث ، ولو أنني كنت أعلم أنك تأخذ المزاح مأخذ الجد لكنت أكثر حرصاً .

وسأل فيليب :

— أحق ما تقول ؟

وتنهذ فيليب في ارتياح ، ووقفت بهما العربة أمام المنزل .

وكانت معنويات فيليب عالية في اليوم التالي . وقد حرص على ألا يرهق ميلدرید بطول مرافقته لها . ولهذا قرر ألا يراها حتى موعد العشاء . ووجدها مستعدة عندما ذهب إليها ليأخذها معه . ومازحها على دقتها غير العادية في المحافظة على المواعيد . وكانت ميلدرید تلبس رداء جديدا اشتراه لها فأبدى فيليب ملاحظة على أناقته .. قالت ميلدرید :

— لابد أن نعيده لإصلاحه . فالياقة ليست مضبوطة مطلقاً .

— يجب أن تحثي الحائك على إنهائه سريعا إذا أردت أن تأخذه معك إلى باريس .

— سيكون معدا قبل ذلك الوقت .

لم يتبق إلا ثلاثة أيام كاملة ، وسنذهب إلى هناك بقطار الحادية عشرة . أليس كذلك ؟ إذا شئت .

وكان بوسع فيليب أن يستبقها لنفسه ما يقرب من الشهر وتسمرت عيناه عليها في افتتاحان نهم ، وكان في استطاعته أن يضحك قليلا من عواطفه . وابتسم فيليب قائلا :

— إني لأعجب ما الذى يعجبني فيك .

أجابته ميلدرید :

— حسن جدا أن تقول هذا .

لقد كان جسمها نحيلاً جدا حتى يكاد المرء أن يرى هيكلها العظمى من خلاله .

وكان صدرها مستويا كصدر الغلام . أما وجهها بشفتيه الضعيفتين الشاحبتين فقد كان قبيحا . كما كان جلدها أخضر بعض الشيء .

وقال فيليب وهو يضحك :

— سأعطيك كمية من حبوب «بلود» عندما نسافر ، وسأعود بك سميناً ووردية اللون .

فردت عليه قائلة :

— لا أريد أن أسمن .

ولم تتحدث ميلدرید عن جريفت . ولكن حدث عندما كانا يتناولان طعام العشاء أن قال فيليب في حدة وخبت وقد تأكد من نفسه ومن سيطرته عليها :

— يبدو لى أنك كنت تقومين بمغازلة كبرى مع هارى في الليلة الماضية .

وضحكت ميلدرید ثم قالت :

— لقد أخبرتك إنني أحبه .

— إنني ليسرني أن أعرف أنه لا يحبك .

— وكيف عرفت ؟

— سألته .

وترددت برهة ، وهي تنظر إلى فيليب ، ثم وضعت عيناها ببريق غريب وقالت :
- هل لك أن تقرأ خطابا وصلني منه هذا الصباح ؟

ومدت إليه يدها بمظروف . وعرف فيليب عليه خط جريفت الكبير الواضح . وكان الخطاب مكونا من ثمانى صفحات وقد كتب بإتقان وصراحة وجمال . كان خطاب رجل أعتاد كتابة خطابات الغرام للنساء . كتب جريفت لميلديد يبعثها غرامه الذى وقع فيه منذ أول لحظة وقعت عيناه عليها . وقال إنه لم يرد أن يحبها لأنه كان يعلم غرام فيليب بها . ولكنه لا يسعه إلا أن يحبها . إن فيليب عزيز عليه . وهو لذلك يشعر بالخجل من نفسه ، ولكن الخطأ ليس خطؤه . فقد دفع إلى هذا الحب دفعا . واحتوى الخطاب سطورا من المديح الجميل لها . وفي خاتمته شكر جريفت لميلديد قبولها دعوته للغداء معه في اليوم التالي وأعرب عن عظيم اشتياقه لرؤيتها .

وقد لاحظ فيليب أن تاريخ إرسال الخطاب كان الليلة الماضية . ومعنى هذا أن جريفت كتبه بعد أن افترق عن فيليب . وأنه كلف نفسه عناء الخروج لإلقائه في صندوق البريد ، بينما كان فيليب يظنه هاجعا في فراشه .

وقرأ فيليب الخطاب بقلب ضعيف . ولكنه لم يظهر الدهشة . وأعاد فيليب الخطاب إلى ميلديد في هدوء وهو يبتسم ويقول :

- وهل تمتعت بغداك .

وردت ميلديد عليه قائلة بصيغة التأكيد

جدا ... !

وشعر فيليب بأن يديه ترتعشان فوضعهما تحت المنضدة وهو يقول :

- لا تحملي تصرفات جريفت محمل الجد فهو كالفراسة كما تعلمين .

واستعادت ميلديد الخطاب ، وتطلعت إليه مرة أخرى وهي تقول في صوت حاولت أن تجعله يعبر عن عدم المبالاة .

- وأنا بدورى لا أستطيع المقاومة ولا أدري ماذا حل بى .

وقال فيليب :

- إنه موقف شائك بالنسبة لى ، أليس كذلك ؟

ورمته ميلديد بنظرة سريعة ثم قالت :

- إنك تنظر إلى المسألة في هدوء تام . هذا ما أراه .

- وماذا تتوقعين أن أفعل ؟ هل كنت تنتظرين أن أمزق خصلات شعرى .

- كنت أعتقد أنك ستغضب على .

- المضحك في الأمر أنني لست غاضبا مطلقا . وكان يجب أن أعلم أن هذا سيحدث فقد كنت مغفلا عندما جمعتكما . أعرف أنه له ميزات كثيرة لا أمتع بها ، فهو أجمل منى ، وأكثر رشاقة ، وأقدر منى على التسلية ، ويستطيع أن يتحدث معك ويثير اهتمامك .

وقالت ميلديد :

- لست أدري قصدك من وراء ما تقول .. فإذا لم أكن حسيطة فليس لى في ذلك حيلة . لكننى لست بلهاء كما تظننى ، أؤكد لك أنني أبعد ما أكون من البلاهة ولكنك أرقى وأسمى نى أيها الصديق الصغير .

وسألها فيليب في اعتدال :

- هل تريدين إثارة شجار معى ؟

كلا . ولكنى لا أعلم لماذا تعاملنى كما لو كنت .. لا أدري لو كنت ماذا .

أسف . فلم أقصد اهانتك . وإنما أردت أن أوضح الأمور في هدوء .

- إننا لا نريد أن نخلق منها ورطة ما دام ذلك فى استطاعتنا . لقد لاحظت أنك معجبة به هذا فيما يبدو لى شئ طبيعى جدا . إنما الأمر الوحيد الذى يؤلمنى حقا أن يكون جريفت قد شجعك على هذا . فهو يعلم كم أنا شغوف بك وأظن أنه من غير اللائق منه أن يكتب إليك هذا الخطاب بعد خمس دقائق من تأكيده لى أنه لا يعيرك أدنى اهتمام .

- إنك لتخطئ إذا اعتقدت أن بوسعك أن تقلل من حبي له بما تقوله عنه من أمور شائنة .. وغشى الصمت فيليب لحظة قصيرة . ولم يدر أى كلمات يستطيع استخدامها ليجعلها تؤمن بوجهة نظره . وكان فيليب يريد أن يتكلم في هدوء وتدبر ، ولكنه كان فى عاطفة من الانفعالات لم تمكنه من توضيح أفكاره . فقال :

- من العبث أن نضحى بكل شئ فى سبيل نزوة حب تعلمين أنها لن تستمر . وفوق هذا فإن جريفت لا يهتم بأى أنثى أكثر من أيام عشرة . وأنت بطبعك باردة ، ومثل هذه الأمور لا تعنى شيئا بالنسبة إليك .

- هذا ما تعتقده أنت .

وزاد من صعوبة الموقف بالنسبة لفيليب إن كانت ميلديد تستخدم فى مخاطبته لهجة التحدى والعناد ، ورد عليها بقوله :

- إذا كنت تحبينه فلن تستطيعى رد الحب . وعلى أن أتحمّل هذا بقدر ما أستطيع وفى وسعنا أن نسير معا على خير حال . فأنا لم أسلك معك يوما سلوكا شائنا ، أليس كذلك ؟ وكنت أعلم أنك غير مغرمة بى ، ولكنك معجبة بسلوكى . وحسبى هذا . وأعتقد أننا عندما نذهب إلى باريس ستسعين كل شئ عن جريفت . ولو أنك حزمت أمرك على إقصائه من مجال تفكيرك فإنك لن تجدى فى الأمر من الصعوبة ما تظنين . ولا شك إننى أستحق منك أن تفعلنى شيئا من أجلى .

ولم تجب ميلديد ، واستمر فى تناول عشائهما . ولما ضايقهما الصمت اضطر فيليب إلى قطعه بالتحدث فى مواضيع ليست بذات أهمية . وتظاهر فيليب بأنه لم يلاحظ أن ميلديد غير متنبهة لما يقول ، وأن إجاباتها كانت عن غير اهتمام وأنها لم تبد من تلقاء نفسها أى ملاحظة من جانبها . وأخيرا قطعت كلامه فجأة قائلة :

- فيليب ، أخشى ألا أستطيع السفر يوم السبت . فالطبيب ينصح بذلك وكان فيليب يعرف أن ذلك غير صحيح ولكنه أجاب يقوله :

ومتى تستطيعين السفر ؟

ونظرت ميلدريد إليه ، ورأت شحوب وجهه وصرامته ، فأدارت عينيها عنه في عصبية . لقد كانت في تلك اللحظة خائفة منه .

- أستطيع أن أقولها لك كلمة نهائية إنني لن أسافر معك أبدا .

- كنت أعتقد أنك ترمين إلى هذا . ولكن مضى الوقت الذى تستطيعين فيه تغيير رأيك ، فالتذاكر معي وكل شئ معد .

- سبق لك القول إنك لن تجعلني أسافر ما لم أرغب في ذلك ، ولست راغبة في السفر .

- لقد غيرت رأيي . ولن أسمح بأن تحاك لي المؤامرات أكثر من ذلك يجب أن تسافري .

- أحبك جدا يا فيليب بوصفك صديقا . ولكنى لا أحتمل أن يتطرق إلى نفسي أى ظن آخر عنك . ولا أحب أن تسلك هذا السلوك . لا أستطيع يا فيليب .

- لقد كنت راغبة في السفر منذ أسبوع مضى .

- كانت الحال على غير ما نحن فيه الآن .

- ألم تكوني قد قابلت جريفت ؟

- لقد قلت أنت نفسك إنني إذا كنت أحبه فإني أكون مدفوعة إلى هذا الحب .

وعلا وجه ميلدريد العبوس ، وتعلقت عيناها بالطبق الذى كان أمامها . أما فيليب فقد أبيض وجهه غيظا وغضبا وتمنى لو ضربها على وجهها بقبضته المضمومة وتخيل منظرها وقد أصيبت عيناها . وكان حول المائدة المجاورة لمائدتهما ولدان في حوالى الثامنة عشرة من عمرهما . وكانا بين الفينة والأخرى يختلسان النظر إلى ميلدريد . ولم يدر فيليب هل كانا يغبطانه على العشاء مع فتاة حسناء ، ولعلهما كانا يتمنيان أن يكونا مكانه .

وكانت ميلدريد هي التي قطعت الصمت بقولها :

- أى فائدة تعود علينا في سفرنا معا ؟ سأفكر فيه طول الوقت ولن يسرك هذا كثيرا .

وأجاب فيليب :

- هذا شأنى وحدى .

وفكرت ميلدريد في إجاباته كلها متحيرة ، وقالت وقد احمر وجهها :

- ولكن هذا تصرف وحشي .

- ماذا فيه ؟

- ظننتك رجلا مهذبا بكل معنى الكلمة .

- كنت مخطئة .

وقد راقته إجابته عن نفسه وضحك وهو ينطق بها .

- بالله عليك ، لا تضحك . لن أستطيع السفر معك يا فيليب وإنى جد أسفة لذلك ، وأنا

- أعلم أنني أسأت في سلوكي نحوك ، ولكن الإنسان لا يستطيع مقاومة عواطفه .

- أنسيت أنني فعلت كل ما أستطيع من أجلك عندما ضاقت بك الأرض ؟

فقد قترت على نفسي لأنفق عليك إلى أن تضعي طفلك . ودفعت أجر الطبيب ومستلزماته الولادة ، كما دفعت أجر سفرك إلى «برايتون» ولا زلت أدفع من أجل حضانة طفلك وأدفع ثمن ثيابك ، إنى أدفع ثمن كل خيط تلبسينه الآن .

- لو أنك كنت رجلا مهذبا لما قذفت في وجهي بكل ما فعلت من أجلى .

- اخرسي ! بالله عليك ما الذى يهمني إن كنت مهذبا أو لم أكن ؟ لو كنت مهذبا لما أضعت وقتي مع قدرة سوقية مثلك . لم ، ولا يهمني إن كنت تحبينني أو لا تحبينني ، لقد سئمت سخريتك بي . وستذهبين معي إلى باريس يوم السبت المقبل وإلا فتحملني عواقب تصرفك . وتضربت وجنتاها باللون الأحمر غضبا ، وعندما أجابت ، كان لصوتها تلك النغم غير المهذبة التي طالما أخفتها بالنطق الرتيب الواضح .

- لم أحبك أبدا ، منذ اللحظة الأولى . ولكنك فرضت نفسك على فرضا لقد كنت دائما أكره أن تقبلني . ولن أدعك تمسني الآن حتى ولو كنت أتضور جوعا .

وحاول فيليب أن يبتلع الطعام الذى كان في حلقه ، ولكن عضلات حلقه توقفت عن العمل ، وجرع ماء وأشعل لفاقة التبغ ، وارتجف كل جزء في جسمه ولم ينبس ببنت شفة وانتظر أن تقوم من مكانها ، ولكنها جلست في صمت وعيناها معلقتان بغطاء المائدة . ولما أنهما كانا على انفراد لطوقها بذراعيه وقبلها في نشوة وتصورها فيليب وقد مالت إلى الخلف برقبته الطويلة البيضاء وهو يضغط على فمها بشفتيه .

وانقضت ساعة دون أن ينبس أحدهما بكلمة . وأخيرا ظن فيليب أن الساقى قد بدأ ينظر إليهما في عجب فطلب إليه قائمة الحساب .

وقال فيليب لميلدريد في نغمة عادية :

- هلم بنا .

ولم تجب ميلدريد بل جمعت حقيبتها وقفازاها وارتدت معطفها ، وقال لها :

- متي ترين جريفت مرة ثانية ؟

وأجابت ميلدريد دون اكتراث :

- غدا .

- من الخير أن نتحدثي إليه في الموضوع .

وفتحت ميلدريد حقيبتها بطريقة آلية ورأت فيها قطعة من الورق أبرزتها لفيليب قائلته في تردد :

- وماذا تريد مني أن أفعل ؟

لقد وعدتها أن أدفع لها الثمن غدا

- أحق هذا ؟

- هل معنى هذا أنك لن تدفع بعد أن أفهمتي أن باستطاعتي الحصول عليه ؟
- فعلا .

قالت ميلدرید وقد علا وجهها الاحمرار سريعا :

- سأطلب إلى هارى أن يدفع .

- سيسره أن يساعدك . إنه مدين لي في هذه اللحظة بسبعة جنيهات . وقد رهن مجهره في الأسبوع الماضي لأنه كان مفلسا .

- لا تظن أنك تستطيع أن تخيفني بما تقول . فأنا قادرة تماما على كسب عيشي بنفسى .

- إنه لأفضل ما تعملين . فإني لا أعتزم إعطاءك فلسا واحدا بعد الآن .

وفكرت ميلدرید في أجر المسكن الذى يحل موعده يوم السبت وكذلك أجر حضانة الطفل ، ولكنها لم تتفوه بكلمة .. وغادر فيليب وميلدرید المطعم ، وسألها فيليب في الطريق :

- هل أطلب لك عربة ؟ أما أنا فسأقوم بجولة قصيرة .

- لست أملك نقودا . كان على بعض الدين دفعته بعد ظهر اليوم .

- لن يضيرك المشى . وإذا أردت رؤيتي غدا فسأكون موجودا في موعد الشاى أو حوالیه .

ورفع فيليب قبعته محييا وسار في طريقه . ثم ما لبث أن استدار فوجدها ما زالت واقفة في يأس حيث تركها تراقب المارة . فعاد إليها فيليب ووضع قطعة نقود في يدها وهو يضحك وقال :

- إليك شلنان لتركبي بهما .

وقبل أن تنطق بكلمة تركها مسرعا .



وجلس فيليب في حجرته بعد ظهر اليوم التالي يسائل نفسه هل تأتي ميلدرید أم لا . لقد نام غير هادئ ، وأمضى الصباح في نادى مدرسة الطب يقرأ الصحيفة بعد الصحيفة . وكانت عطلة ، ولا يوجد في لندن إلا القليل من الطلبة . ولكنه وجد شخصا أو اثنين أخذ يتحدث إليهما . ولعب دور شطرنج قضي فيه بعض الوقت وبهذه الطريقة أمضى ساعات الصباح المملة . وشعر بأنه متعب بعد تناول طعام الغداء وأن رأسه يدور فذهب إلى مسكنه واسترخى وحاول أن يقرأ قصة ..

ولم يكن قد رأى جريفت فلم يكن بالمنزل عندما عاد فيليب في الليلة الماضية . وسمع وقع أقدامه وهو عائد ، ولكنه لم يطل برأسه في حجرة فيليب كما اعتاد ، ليرى هل هو متيقظ أو نائم . وفي الصباح سمع فيليب وقع أقدام جريفت وهو يغادر المنزل في وقت مبكر . وكان من الواضح أنه يتجنب رؤية فيليب .

وفجأة سمع فيليب دقا على الباب . وقفز من فراشه ليفتح للطارق . فوجد ميلدرید تقف عند مدخل الحجرة ولم تتحرك عند رؤيته .

قال لها فيليب :

- تفضلي بالدخول .

وأغلق الباب خلفها . وجلست ميلدرید وترددت في الكلام ، وأخيرا قالت :

- شكرا لك على إعطائي الشلنين في الليلة الماضية .

- لا موجب للشكر .

وعلت وجهها ابتسامة شاحبة . كان منظر ميلدرید أشبه بمنظر جرو خجول مستعطف ، ضربه سيده لخيبته وقد أتى يصلح ما بينه وبينه .

قالت ميلدرید :

- كنت أتعدى مع هارى ؟

- أحق هذا ؟

- إذا كنت لا تزال تريد منى السفر معك يوم السبت يا فيليب فإني مستعدة .

وسرت في قلب فيليب هزة سريعة من الانتصار ، ولكنها لم تدم إلا لحظة قصيرة ثم حلت محلها موجة من الشك .

وسألها فيليب :

- بسبب النقود ؟

وأجابت في بساطة :

- هذا بعض السبب . فهارى لا يستطيع عمل شئ . انه مدين بإيجار خمسة أسابيع هنا . ومدين لك بسبعة جنيهات والخياط يستحبه لاداء ما عليه انه مستعد لرهن أى شئ ولكنه رهن كل شئ من قبل . لقد استطعت بمشقة تأجيل ثمن الثوب الجديد . ولكن على أن أدفع ايجار المسكن يوم السبت . ولن أستطيع أن أحصل على عمل في دقائق معدودة . ومعنى هذا دائما الانتظار بعض الوقت حتى تخلو وظيفة .

قالت ميلدرید كل هذا في نغمة تذمر واضحة ، كما لو كانت تعدد ظلم القدر الذى يجب على المرء أن يتحملة لأنه جزء من النظام الطبيعى للأشياء . ولم يجب فيليب فقد كان يعرف جيدا كل ما تقول .

وأخيرا أبدى فيليب ملاحظة على كلام ميلدرید ، وقال فيليب أخيرا :

- لقد قلت أن هذا بعض السبب .

- نعم لقد قال هارى انك كنت عمادا لنا نحن الاثنين . فقد كنت له صديقا صادقا ، كما يقول ، ولقد فعلت من أجلى ما لا يستطيع أى إنسان أن يفعله . وهارى يقول أن علينا أن نلزم جادة الصواب ، وقد اعترف بكل ما قلته عنه فهو شخص متقلب بطبيعته ، وليس مثلك في شئ ، وأننى أكون غبية لو إننى تركتك من أجله . فهو غير دائم لي أما أنت فستدوم . لقد قال هذا بنفسه .

وسألها فيليب :

- هل تريدين أن تسافرى معي ؟

- لا ضير .

ونظر إليها فيليب ، وقد أنقلبت زاويتا فمه في تعبير ينم عن التعاسة لقد أنتصر حقا وتم له ما أراد . وضحك فيليب ضحكة سخرية من نفسه وما أصابه من ذله . وألقت ميلدريد عليه نظرة سريعة ولكنها لظمت الصمت .

وقال فيليب :

- لقد كنت أتمنى من كل قلبي أن أسافر معك ، وأعتقدت إنني أخيرا وبعد كل ما مر بي من بؤس ، سأكون سعيدا .

ولم يتم فيليب ما كان يريد قوله . وفجأة وبدون سابق إنذار ، انفجرت ميلدريد باكية وكانت جالسة في نفس الكرسي الذي جلست عليه نورا وبكت ، وفعلت كما فعلت نورا إذ أخفت وجهها في ظهر اتجاه الجانب حيث يوجد منخفض يوضح الرأس عليه .

وقال فيليب :

- لست حسن الحظ مع النساء .

وكان جسم ميلدرد النحيل ينتفض من النحيب . ولم ير فيليب في حياته امرأة تبكى بمثل هذه الغزارة من الدموع . كان المنظر مؤلما مروعا تمزق منه نياط قلبه . وذهب إليها فيليب دون أن يدري ما هو فاعل وأحاطها بذراعيه ، ولم تقاوم ميلدريد . ولكنها استسلمت في تعاستها ، لتهدئته . وهمس فيليب لها ببضع كلمات للسوى . وما كان يدري ماذا يقول ، فأنحني عليها وقبلها مرارا .

وأخيرا قال لها :

- هل أنت تعسة حقا ؟

وأجابته في أنين :

- تمنيت لو مت ، تمنيت لو مت يوم أن ولد الطفل .

وكانت قبعته تحول بينها وبينه ، فخلعها لها فيليب ، وأراح رأسها على الكرسي ثم ذهب ليجلس بجوار المنضدة وأخذ ينظر إليها .

قال فيليب :

- ما أقسى الحب . أليس كذلك ؟ تخيلي أى إنسان يريد أن يقع في شركه وسرعان ما انحسرت مدة نحيبها ، فجلست على الكرسي متهاكة ورأسها إلى الخلف وذراعاها مدليتا إلى جانبيها . وما كان أشبه منظرها بمنظر الدمى التي تعلق عليها الأقمشة .

وقال فيليب :

- ما كنت أدري أنك تحبينه إلي هذه الدرجة .

كان فيليب يعرف حب جريفت جيدا . فقد وضع نفسه مكانه ، ورأى بعينه ، ولمس بيده وكان قادرا على أن يتخيل نفسه في جسم جريفت ويقبلها بشفتيه ، ويبتسم لها بعينه الباسمتين الزرقاوين وكانت عاطفتها هي التي أدهشته ، فما كان يعتقد أنها تعرف معها

العاطفة . وكان ما تفعله الآن عاطفة لاشك فيها . وشعر فيليب بشيء يهوى في قلبه ، وكان شيئا كان يتكسر فيه . وشعر بأنه ضعيف ضعفا عجيبا .

- لست أريد أن أشقيك . ففي استطاعتك ألا تسافرى معي ، إذا لم تكن لديك رغبة في السفر وسأعطيك النقود ، رغم هذا .

وهزت ميلدريد رأسها وقالت :

- كلا . لقد قلت سأسافر ، وسأسافر .

- وما الفائدة ، إذا كنت تقاسين من حبك له ما تقاسين .

- أجل ، كلمة حق أقولها ، انني أقاسي من الحب . أعلم انه لن يدوم . كعادته ولكني الآن... وتوقفت عن الكلام وأغمضت عينيها كما لو كانت في إغماء . وقد خطرت لفيليب فكرة غريبة وعبر عنها فيليب كما هي دون أن يفكر فيها .

- لماذا لا تسافرين معه ؟

- كيف أستطيع ذلك ، وأنت تعلم أن ليس لدينا نقود ؟

- سأعطيك النقود .

- أنت ؟

واعتدلت ميلدريد في جلستها ، ثم نظرت إلى فيليب . ولمعت عيناها وعاد اللون إلى وجنتيها .

- ربما كان من الأفضل أن ينتهي الأمر على هذا النحو ثم تعودين بعد ذلك إلى . وما أن عرض هذا الاقتراح حتى بان عليه الألم . وقد بعث العذاب إحساسا غريبا رقيقا . وتطلعت ميلدريد إليه بعينين مفتوحتين ثم قالت :

- كيف نستطيع ذلك ، على حسابك ؟ إن هارى لا يمكن أن يقبل هذا .

- سيقبل إذا أقنعتة .

وقد أثار رفضها تصميمه . ومع هذا فقد كان يتمنى من كل قلبه لو رفضت العرض بشدة . - سأعطيكما خمسة جنيهات ، ويمكنكما أن تسافرا من السبت إلي الاثنين ، تستطيعان في سهولة . وفي يوم الاثنين سيذهب إلي قريته إلي أن يتسلم عمله في شمال لندن .

وصاحت ميلدريد وقد ضمت يداها :

- أوه يا فيليب هل تعنى ذلك حقا ؟ لو سمحت لنا بالذهاب لأحببتك أعظم الحب بعدئذ ، وسأفعل أى شيء تريده انى متأكدة أنني سأنسى كل شيء لو أنك فعلت هذا . هل تعطينا النقود حقا ؟

وأجاب فيليب :

- أجل .

وتغيرت ميلدريد تماما . فبدأت تضحك واستطاع فيليب أن يرى أنها كانت في سعادة جنونية . ونهضت ميلدريد وركعت إلى جانب فيليب وقد أمسكت بيده وهي تقول :

- أنت عوني يا فيليب . إنك خير من عرفت . ألن تغضب مني فيما بعد ؟

وهز فيليب رأسه وهو يبتسم بينما العذاب ينهش قلبه .

هل لي أن أذهب لأخبر هاري الآن ؟ وهل أستطيع أن أخبره أن هذا لا يسوء ؟ انه لن

ما لم تعده بأن ذلك لا يضيرك ولا يهكم ، أوه أنك لا تدري كم أحبه .. وبعد ذلك سأفعل كل

يرضيك سأسافر إلي باريس معك أو إلي أي مكان آخر يوم الاثنين .

ونفضت ميلدريد ثم ارتدت قبعاتها .

- إلي أين ؟

- سأذهب لأسأل جريفت هل يأخذني معه .

- أبهذه السرعة ؟

- هل تريد أن أبقى ؟ سأبقى إذا شئت .

وجلست ميلدريد ولكن فيليب ضحك ضحكة قصيرة ثم قال :

- كلا . لا ضير .. تستطيعين الذهاب في الحال ، غير أن هناك شيئا واحدا هو أن

أستطيع رؤية جريفت الآن فإن رؤيته تؤلمني أشد الألم قلبي له أنني لا أشعر نحوه بعد

ما يشابهه ، وكل ما أطلبه إليه هو أن يبتعد عن طريقي .

- سأفعل ، وستعرف مني ما يقوله .

وبعد أن تغدى فيليب في مطعم مدرسة الطب ، عاد إلي مسكنه . وكان هذا يوم السبت

الظهر وقد أخذت صاحبة المنزل في تنظيف السلم .

وسألها فيليب :

- هل مستر جريفت موجود ؟

- كلا ياسيدي . لقد خرج هذا الصباح بعد خروجك مباشرة .

- ألن يعود ؟

- لا أظن يا سدي ، فقد أخذ متاعه معه .

وتساءل فيليب ما معنى هذا ، ثم أخذ كتابا وبدأ يقرأ . كان كتابا من تأليف

عنوانه رحلة إلي مكة وقد استعاره فيليب من المكتبة العامة وستمستر وقرأ فيليب

الأولى ولم يستطيع إدراك معنى ما قرأ . فقد كان عقله في مكان آخر . وظل طول الوقت

أن يدق جرس الباب . وما كان فيليب يجسر أن يأمل في أن يكون جريفت قد سافر فعلا

ميلدريد إلي بلده في كمبرلاند ، وأن ميلدريد في طريقها إليه من أجل النقود . وجز فيليب

أسنانه واستمر في القراءة وحاول جاهدا أن يركز انتباهه فيها . وقد استطاعت

تحفر لنفسها مكانا في عقله بقوة مجهوده . ولكن العذاب الذي كان يقاسيه شتتها .

من كل قلبه لو لم يعرض ذلك الاقتراح الفظيع ، وهو إعطاؤها النقود . ولكنه الآن ،

اقتراح ما اقترح كانت تعجزه القوة التي يستطيع معها الرجوع فيه لا لحساب ميلدريد

لمصلحته هو . وكان عنده نوع من العناد السقيم يرغمه على تنفيذ ما يقرره .

الصفحات الثلاث التي قرأها لم يكن لها أي تأثير منه ، فعاد وبدأ القراءة من أولها ووجد
يقراً جملة واحدة ، المرة بعد الأخرى . ووجد الآن أن ما قرأه يمتزج بأفكار امتزاجا
امتزاج الكابوس .

ووجد فيليب أن شيئا واحدا يستطيع أن يفعله ليحول بينهما وبين السفر ، وهو

يقضى اليوم حتى منتصف الليل خارج المنزل . وتخليهما يحضران إلي المنزل كل

ليسألا عنه . وأمتعته فكرة خيبة أملهما . وأعاد فيليب قراءة تلك الجملة إلي نفسه ، لكن

يستطيع .. فليأتيان للحصول على النقود . وعندئذ سيعرف إلي أي درك من العار يمكن للإند

أن يهوى إليه . ولم يستطع الاستمرار في القراءة فما عاد يرى الكلمات .

وانحنى فيليب إلي الخلف في كرسيه وأغمض عينيه ، وقد خدرته تعاسته وأخذ يذ

حضور ميلدريد .

ودخلت عليه صاحبة المسكن تقول :

- هل لك في رؤية السيدة ميلر يا سدي ؟

- أدخلها .

وجمع فيليب شتات نفسه حتى يستطيع أن يستقبل ميلدريد ، دون أن يظهر عليه ما

عن شعوره ، كانت مشاعر فيليب توحى إليه أن يركع على ركبتيه أمام ميلدريد ، وأن يع

بيديها ويستعطفها ألا تذهب . ولكنه كان يعلم أن ليست هناك وسيلة لتحويلها عن عزمه

فإنها ستخبر جريفت بما قال وما فعل . وعلاه الخجل .

وقال فيليب لميلدريد وهو فرح :

- ماذا عن الرحلة الصغيرة ؟

- سنذهب وهاري في خارج الدار ، قلت له انك لا تود رؤيته ، فابتعد عن طريقك ، ولا

يريد أن يعرف هل يستطيع أن يدخل مدة دقيقة واحدة ليودعك .

قال فيليب :

- كلا . لن أراه .

ورأى فيليب من عينها أنه لن يضيرها أن يرى جريفت أو لا يره . وما دامت قد حض

فإن فيليب أراد أن تذهب سريعا .

- هذه هي الجنيحات الخمسة . وأفضل أن تذهبي توا .

وأخذت ميلدريد النقود وشكرته ، ثم استدارت للخروج .

وسألها فيليب :

- متى تعودين ؟

- يوم الاثنين . فإن على هاري أن يذهب إلي بلدته بعد ذلك .

وشعر فيليب بأن ما كان ينتوى أن يقوله مذل له ، ولكنه كان محطما من أثر الد

والرغبة الجامحة .

- وبعد هذا سأراك ، أليس كذلك ؟

ولم يستطع فيليب أن يتغلب على نغمة الرجاء التي كانت في صوته :

- طبعاً . وسأتصل بك بمجرد وصولي .

وصافحت فيليب . وقد استطاع من خلال الستار أن يرقبها وهى تقفز إلى العربية التي كانت بالبواب وسارت العربية . وارتمى فيليب في فراشه وقد أخفي وجهه بين كفيه . وشعر بالدموع تملأ عينيه . فحنق على نفسه وحاول أن يغالب البكاء . وأخذ ينتحب انتحاباً مؤلماً على الرغم منه .



وجاء يوم الاثنين . وشعر فيليب بكراهية مريرة لجريفت . أما عن ميلدريد فرغم كل ما حدث فإن كل ما كان عنده هو الرغبة لها التي تقطع نياط القلب . وما كان يضيره إذا كانت تلك الرغبة تدعو إلى الفرع أو تدعو للاشمئزاز فقد كان مستعداً لكل ترضية قابلاً لكل إذلال جديد ، مهما كان محقراً في سبيل إشباع رغبته .

وما أن اقترب المساء حتى قادته خطواته ، رغم إرادته ، إلى المنزل الذى تسكن فيه ميلدريد ، ونظر إلى نافذتها فرأها مظلمة ، ولم يجزؤ على أن يسأل هل عادت لانه كان واثقاً من وعدها إياه . وفي الصباح لم يصله خطاب منها وحوالي الظهر ، ذهب ثانية إلى المنزل وأخبرته الخادم إنها لم تصل بعد .

ولم يستطع فيليب أن يفهم ما هنالك فجريفت كان مرغماً على السفر في اليوم السابع لأنه كان وميلدريد لا نقود معهما . وأخذ يقلب في ذهنه كل احتمال .

وفي المساء ذهب كذلك وترك لها مذكرة ، يدعوها فيها للعشاء معه وقد فعل ذلك في هدوء كأن حوادث الأسبوعين الآخرين لم تكن . وذكر لها فيليب مكان المقابلة وموعدها وحارص ، يدفعه الأمل ، حيث لا أمل . على الحضور في الموعد المحدد .

ورغم انتظار فيليب ساعة كاملة فإنها لم تحضر .

وفي صباح يوم الأربعاء ، خجل فيليب من السؤال عن ميلدريد في منزلها فأرسل رسولا يحضر خطاباً وتعليمات منه وأوصاه أن يحضر الرد معه . ورجع الرسول بعد ساعة وبيده خطاب فيليب لم يفتح ، وكان الرد الذى حصل عليه الرسول أن السيدة لم تعد بعد من الريف . وجن جنون فيليب فإن الخدعة الأخيرة كانت أكثر مما يحتمل . وأخذ فيليب يكرر لنفسه مرات ومرات انه يكذب . وميلدريد . ويعزو إلى جريفت خيبة أمله الجديدة . فاشتدت كراهيته له وزادت عنفاً حتى لقد عرف وقتئذ لذة القتل . وسار فيليب يفكر في لذة الهجوم عليه في ليلة مظلمة . وقطع رقبتة بسكين من الشريان ، وترك جثته في الشارع كالكلب . وفقد فيليب رشده من الحزن والغيب . ولم يكن فيليب يحب شرب الويسكي ولكنه شربه ليهدي من ذات نفسه . وذهب إلى فراشه ثملاً ليلة الثلاثاء ولما أصبح الأربعاء .

وفي صباح يوم الخميس . صحا فيليب من نومه متأخراً جداً ، وأخذ يجر نفسه جراً بعيداً زائغتين . شاحبتين ، إلى غرفة الجلوس ليرى هل جاء إليه خطاب . وقد سرى شعور عجيب قلبه عندما تعرف على خط جريفت على إحدى الرسائل .

عزيزى الصديق القديم ..

لا أكاد أعرف كيف أكتب إليك . ومع هذا فأني أشعر بأن واجبي أن أكتب . وأمل ألا تكون حائقاً على وأنا أعلم انه لم يكن ينبغي لي أن أسافر مع ميلي ، ولكنى أقول أنني لم استطع أتغلب على عواطفى . لقد غلبتني على أمرى وأنا لا أملك ألا تنفيذ رغباتها . وعندما أخبرتك انك قد عرضت عليها النقود لنسافر معاً لم أستطع المقاومة .

والآن ، وقد انتهى كل شئ فإننى أشعر بخجل شديد من نفسي ، وكنت أود ألا أكون مغفلاً كما كنت . وبودى لو كتبت إلي تقول أنك لست حاقداً على . وأمل أن تسمح لي بالعودة لرؤية لقد حز في نفسي كثيراً أن تقول لميلي أنك لا تريد رؤية وجهي . اكتب لي ولو سطراً واحداً فأنت إنسان طيب وقل لي أنك عفوت عني ، فإن ذلك يريح ضميرى . ولقد كنت أظن انك يفيدك أن تسافر والا لما عرضت علينا المال . ولكنى أعلم الآن انه لم يكن لي أن أخذ النقود . لقد ذهبت إلي بلدتي يوم الاثنين ، أما ميلي فقد أرادت أن تبقى يومين وحدها . اكسفورد وستعود إلى لندن يوم الأربعاء وعلى هذا فعندما يصلك خطابي هذا تكون قد رأيتى وأمل أن يسير كل شئ بينكما على أحسن حال . أرجوك أن تكتب إلي أنك سامحتني . أرجوك تكتب من فورك .

صديقك إلي الأبد

ها

ومزق فيليب الخطاب في غضب . ولم يعتزم الرد عليه ، وقد احتقر جريفت لاعتذاراته وبعده يطبق تأنيب الضمير . فإن المرء يستطيع أن يأتي عملاً مشيناً لو شاء . ولكن من الحق أن يعتذر عنه فيما بعد . وقد نظر إلي الخطاب على أنه جبن ونفاق ، وأثار تفرز ما ورد من عبارات عاطفية .

وغمغم فيليب يقول لنفسه :

من السهل جداً أن تعمل عملاً دنيئاً ثم تقول انك آسف فيمكن هذا كافياً لاصلاح كل ما فسد وتمنى فيليب من كل قلبه لو وجد فرصة ينتقم فيها من جريفت .

لكنه على أية حال عرف أن ميلدريد في لندن . وارتدى فيليب ملابسه في عجلة ، ولم ينتظر حتى يحلق لحيته ، وشرب كوباً من الشاي ثم اكرتري عربية إلى مسكنها . وقد بدا له أن العربية لا تسير تزحف ، فقد كان شغوفاً جداً لرؤيتها . ودعا الله دون وعى منه ، أن يجعل ميلدريد أن تحسن استقباله ، كان يريد أن ينسى . ودق فيليب الباب ووجيب قلبه يشد . ونسي كل آلامه في غمته رغبته الشديدة في احتضانها مرة أخرى بين ذراعيه . وسأل فيليب الخادم في فرح :

هل السيدة ميلر موجودة؟

وأجابت الخادم:

- لقد خرجت.

ونظر إليها في بلاءة:

- لقد جاءت منذ ساعة ثم أخذت مقاعها وخرجت:

ومضت لحظة دون أن يعرف ماذا يقول .

- وهل أعطيتها خطابي ؟ وهل قالت أين هي ذاهبة؟

وعرف فيليب مرة أخرى أن ملديريد قد خدعته. وأنها لن تعود إليه، وبذل مجهودا كبيرا ليحفظ بماء وجهه.

سأسمع منها قريبا ما يطمئني. ربما تكون قد أرسلت الخطاب إلي عنوان آخر. واستدار فيليب وذهب يائسا إلى مسكنه.. لقد كان من واجبه أن يعلم إنها ستفعل ما فعلته فإنها ما اهتمت يوما به . لقد سخرت منه منذ البداية ولم تأخذها به رحمة ولم تعرف معنى الخير أو الإحسان. ولم يكن أمامه إلا أن يقبل الواقع المحتوم. وكان عذابه شديدا. كان يفضل معه الموت على تحمله.

وواتته فكرة الخلاص من هذا العذاب كله ففي استطاعته أن يرمى بنفسه في النهر أو يضع رقبتة على شريط السكة الحديدية. وما كاد يترجم التفكير حتى ثار عليه. وقد هداه عقله إلي أن في استطاعته التغلب على تعاسته في الوقت المناسب ، فلو انه استخدم قوة ارادته لاستطاع أن ينساها . وأن من السخرية أن يقتل نفسه من أجل فتاة حقيرة سوقية كميلديريد. ذلك أن له روحا واحدة وأنة من الجنون أن يطيح بها. وكان فيليب يشعر انه لن يستطع التغلب على عاطفة حبه، ولكنه يعلم انه مهما كان الأمر فالمسألة مسألة وقت لا أكثر.

لن يبقى في لندن فكل ما فيها يذكره بتعاسته وشقائه . وكتب فيليب إلي عمه ينبئه برغبته في الحضور إلي بلاكستابل . وسرعان ما حزم حقائبه واستقل أول قطار.. لقد أراد الهرب من مسكنه الحقير الذي قاسى فيه كل أنواع العذاب. أراد أن يتنسم هواء نظيف. وكان يشعر بالاشمئزاز من نفسه ويحس أنه كاد يجن..

وعاد فيليب مرة ثانية إلى لندن، وكان ذلك قبل بدء الدراسة بيومين لكي يبحث لنفسه عن مسكن. وسار على غير هدى في الشوارع المؤدية إلي شارع جسر وستمنستر لكنه عاف قذارتها. وأخيرا أراد أن يجد مسكنا في كنجتون يتمتع بالهدوء ويظهر عليه أثر الطراز القديم. وكانت المنازل التي ركز فيليب عليها من ذوات الدورين وعلى نوافذ معظمها إعلانات تقول بأن المسكن معد للإيجار. ودق فيليب باب مسكن مكتوب عليه أن حجراته غير مفروشة وأرشدته سيدة عبوس صامته إلى حجرات أربع صغيرة جدا، في أحدها مطبخ وبالوعة وكان إيجارها تسع شلنات في الأسبوع، ولم يكن فيليب في حاجة إلي هذه الحجرات كلها ولكن الإيجار منخفض وكان يريد أن يستقر في الحال. وسأل فيليب صاحبة المسكن هل تستطيع

أن تقوم بنظافة المسكن وبتجهيز طعام الإفطار له، ولكنها أجابت بأن لديها الكثير من العمل فلا تستطيع. وقد سره ذلك نوعا ما لأنها أظهرت أنها لا تريد أن تعمل أى عمل آخر أكثر من تسلم الإيجار. وأخبرته السيدة أنه إذا سأل عند البقال القائم محله عند زاوية الشارع، وهو كذلك مكتب البريد، فإنه سيسمع منه عن امرأة تستطيع أن تقوم له بما يريد.

وكان عند فيليب قليل من الأثاث جمعه أثناء تجواله: كرسي ذو مساند اشتراه من باريس، ومنضدة وبعض اللوحات، وقد منحه عمه سريرا يمكن طيه ، أستغني عنه بعد أن أصبح يؤجر منزله في شهر أغسطس . ثم أضاف إلي ثمنه عشرة جنيهات أخرى، فاستطاع أن يشتري «تجمع له كل ضروراته . كما أنفق عشرة شلنات على وضع ورق ملون في حجرة أختارها ليبيز منها حجرة استقبال . وعلق على الجدران رسما كان لوسون قد أعطاه إياه ، صورة شمسية: رسم أنجيز ومانت كانت موضع تأملاته في باريس أثناء حلاقة لحيته . ولكي يذكر نفسه كان يوما ما شغوبا بممارسة الفن . علق على الحائط رسما بالفحم لصورة «ميجويل ليريا» الأسباني الصغير. كانت أحسن ما رسم، وهي تمثل صبيا عاريا من الملابس، واقفا وقد يديه، بينما قدماه الصغيرتان تلتقيان بالأرض في قوة خارقة وعلى وجهة علانم التصميم، يترقى الناظر إليها أشد التأثير. ورغم أن فيليب بعد هذه الفترة الطويلة قد أدرك عيوب رسمه بوضوح فإن ارتباطاتها جعلته ينظر إليها وهو راض عنها متسامح عن أخطائها. ولم يكن يدري ما حل بمجويل. ولكنه كان يحس أنه لاشيء أنظع من السير وراء الفن لمن ليست لهم مواهبه ليكون ميجويل قد انتهى أمره إلى الفضيحة، أو الجوع أو المرض أو واجه نهايته في مستشفى. إنه في نوبة يأس عارمة لاقى حتفه غرقا في نهر السين. ولكنه كذلك ربما كان على عادة أهل لينوب غير المستقرة، قد ابتعد عن الصراع من تلقاء نفسه. وأصبح الآن كاتبافى مكتب ما بمر. وقد حول حماسه إلى السياسة ومصارعة الثيران.

وقد طلب فيليب إلى لوسون وهيوارد أن يحضرا ليريا مسكنه الجديد وقد حضرا ووسر فيليب عندما امتدحا ذوقه. وكان يريد أن يدعو السمسار الاسكتلندي كذلك ولكن ان لا يملك إلا ثلاثة كراسي. وهذا من شأنه أن يقصر الترفيه على عدد محدود من الضيوف. وأخذ فيليب يحضر محاضرات في الطب والجراحة. وكان يقوم في صباح أيام خلة في الأسبوع بالتمارين على عمليات التضמיד لبعض المرضى في العيادة الخارجية، و جد مسرور لحصوله على القليل من المال. وتعلم فيليب التسمع على الصدر وعرض كيف يستعمل مسماع الصدر. كما تعلم الصيدلة. وكان يستعد لامتحان. وقد أجرى امتنافية شهر يولية في علم الأقبازيين. وكان يسره أن يجرب العقاقير وعمل المخاليط واليوب والمراهم وبحث فيليب في نهم عن كل شيء يمكن أن يستخرج منه نفع لمصلحة بني الإنسان ورأى فيليب جريفت مرة عن بعد، لكنه تجنبه لكيلا يكلف نفسه عناء قتله لاشعر فيليب بنوع خاص من الاعتداد بالنفس مع أصدقاء جريفت الذين أصبح بعضهم الآن لداق فيليب عندما علم أنهم عرفوا كل شيء عن خصامه مع جريفت. وألهمه حدسه أنهم علي ية من

السبب ومن بين هؤلاء الأصدقاء «رامزدن»، ورامزدن هذا شاب طويل جدا له رأس صغير ومنظر خائر. وكان رامزدن من أخلص خلصاء جريفت، يقلده في اختيار رابطات عنقه، وأحذيته وفي أسلوبه في الكلام وحتى في التفاتاته وإيماءاته. وقد أخبر رامزدن فيليب أن جريفت يشعر بإهانة بالغة لأن فيليب لم يرد على خطابه وأنه يريد أن يتصالح معه.

وسأله فيليب :

- هل طلب إليك إبلاغي هذه الرسالة.

- كلا إني أقول ما قلت بدافع من نفسي. وإنه جد آسف لما فعل وهو يذكر أنك كنت دائما أقوى معين له، وأعتقد أنه سيكون سعيدا لو سويت المسألة وهو أنه لا يأتي إلى المستشفى مخافة أن يقابلك فهو يعلم أنك قد تنتقم منه.

- فعلا.

- هذا يجعله يشعر بتعاسة كما تعلم.

- أستطيع احتمال المضايقة التافهة التي يشعر بها في جلد كبير.

- إنه مستعد لأن يبذل كل ما في وسعه لإنهاء المسألة.

- يا للطفولة والجنون! لماذا يهتم بي هكذا؟ فأنا شخص عديم القيمة وبوسعه أن يستغني عن صحبتي فلست مهتما به بعد الآن.

وأعتقد رامزدن أن فيليب جاف وبارد وسكت لحظة وهو ينظر إليه نظرة مضطربة ثم قال:

- إن هاري يتمني على الله إن لم يكن له علاقة أصلا بتلك المرأة أحق هذا؟

وكان فيليب يتكلم بغير اكتراث كان راضيا عنه وما كان أحد مستطيعا أن يحدس مقدار عنف ضربات قلبه في ذلك الوقت وأنتظرني صبر نافذ أن يستمر رامزدن في كلامه.

- أعتقد أنك تغلبت على عواطفك تماما الآن أليس كذلك؟

وقال فيليب:

- أنا.. تماما..

وقد استطاع شيئا فشيئا أن يكتشف قصة علاقة ميلدريد جريفت. فاستمع إليها والابتسامة تفارق شفتيه متصنعا رباطة الجأش وخدع بذلك الصبي الغر الذي كان يتحدث إليه وقد عرف من أن نهاية الأسبوع التي قضتها ميلدريد مع جريفت في أكسفورد أشعلت ولم تطفيء غرام الفجائي به وعندما عاد جريفت إلى بلدته صممت بشعور لم يكن صدوره متوقعا من مثلها تبقى يومين وحيدة في أكسفورد، لأنها نعمت بالسعادة فيها ورأت ألا شيء يستطيع أن يغيرها بالعودة إلى فيليب. فهي تشمئز منه وذعر جريفت من نار الحب التي أوقدها في صدرها مع أن كان يشعر بالملل طول اليومين اللذين قضاهما في الريف بصحبته ولم تكن به رغبة في تحويل قصة مسلية إلى عمل ممل مستم لقد كانت ميلدريد قد جعلته يعد الكتابة إليها وقد كتب إليها خطابا طويلا سارا عندما وصل إلى بلدته لأنه كان صادق الوعد مهذبا ذا أدب طبيعي ولأنه

أن يكون محبوبا من الجميع وردت عليه ميلدريد بصحائف من العاطفة الخرقاء لأنها لموهوبة في تعبيرها ولا في خطها فجاء كلامها مبتذلا. وقد ضايقه خطابها. وعندما بأخرى اليوم التالي وبالثاني في اليوم الثالث بدأ يعتقد أن حبها لم يعد رحبا بل أصبح إن مروعا ولم يرد جريفت على الخطابات فأخذت تقذفه بالبرقيات تسأله فيها هل هو مريض تسلم خطاباتنا وتقول أن صمته قد جعلها جد قلقا عليه واضطر جريفت أن يكتب إليها حرص على أن يجعل رده عليها عرضيا ما أمكن دون أن يسيء إليها وطلب إليها جريفت ألا إليه لأن من الصعب شرح البرقيات لوالدته وهي سيدة من الطراز القديم الذي لا يزال ير البرقيات حادثا يثير الرعب وردت ميلدريد على خطاب جريفت برجوع البريد قائلة أنها رؤيته وأعلنت عن عزمها على رهن أشياء كانت عندها. حقيبة ملابس قدمها إليها فيليب بمناسبة زواجها وتستطيع أن ترهنها على ثمانية جنيهات لكي تذهب إليه وتقيم في مدينة التي تبعد أربعة أميال عن القرية التي كان والد جريفت يزاول فيها عمله. وقد أخاف هذا جريفت واستخدم جريفت هذه المرة البرق ليطلب إليها ألا تنفذ ما اعتمته، ووعد أن يكتب ساعة حضوره إلى لندن وعندما كتب إليها بذلك وجد أنها قد سألت عنه فعلا في المستشفى عين به وضايقه هذا التصرف فأبلغها عندما رآها ألا تحضر إلى المستشفى بأية حجة والآن غياب أسابيع ثلاثة وجد جريفت ميلدريد تصر على مضايقته وسأل نفسه لماذا سولت له نفس يهتم بها وعزم على قطع كل صلته بأسرع ما يستطيع وكان جريفت إنسانا يخشى الشجار وأن يؤلم غيره ولكنه في الوقت ذاته كان عنده من العمل الشيء الكثير، وقد صمم ألا يدع ميل تضايقه بعد الآن. ولما قابلها جريفت كان مرحا مسليا عاطفيا واخترع لها أعذارا قهري الفترة التي مرت منذ أن رآها آخر مرة، ولكنه بذل غاية جهده لكي يتجنبها ولما أرغمته مواعيد للمقابلة عمد إلى إرسال - في اللحظة الأخيرة برقيات - يعتذر فيها عن الموعد المض وكانت صاحبة المنزل الذي يقيم فيه قد تلقت منه أوامر بأن تقول أنه بالخارج كلما سألت ميلدريد. وكانت ميلدريد أحيانا تكمن له في الطريق وكان جريفت يعلم أنها تنتظره حين يلتقي ساعتين خارج المستشفى فيلقي إليها ببعض كلمات لطيفة حبيبة، ثم يعتذر بإنشغاله بالعمل وأصبح جريفت ماهر في التسلل من المستشفى دون أن يراه أحد وذات وعندما كان عائدا إلى المسكن عند منتصف الليل رأى امرأة واقفة فظنها هي وذهب إلى رامزدن ليهرب منها وفي اليوم التالي أخبرته صاحبة المسكن أن ميلدريد جلست تبكي عند مد باب مسكنه ساعات وأنها اضطرت إلى تهديدها بإبلاغ الشرطة إذا لم تغادر المكان.

وقال رامزدن لفيليب بعد أن قص عليه قصة ميلدريد مع جريفت:

- اسمع يا بني، لقد نجوت من هذه الورطة.

- إن هاري يقول إنه لو شك نصف ثانية في أنها ستجعل من نفسها آفة له، لتمني لنفسه ال قبل أن تكون له علاقة بها.

وتخيل فيليب جلوسها عند مدخل الباب الساعات الطويلة من الليل ورأى وجهها وهي تنظر في غباء إلى صاحبة المسكن التي طردها.

وقال فيليب:

- لست أدرى ماذا تفعل ميلدريد الآن.

- أحمد الله لقد وجدت عملا في مكان ما يشغل كل يومها.

وكان آخر ما سمعه رامزدن قبل نهاية الفصل الدراسي الصيفي مباشرة، أن دماثة جريفت قد انهارت أخيرا تحت عبء غيظه من مطاردتها الدائمة له. وأن جريفت أفهم ميلدريد أنه يضيق بها، وأن من الأفضل لها أن تبتعد عنه ولا تزعه بعد ذلك.

قال رامزدن لفيليب:

كان هذا هو الحل الوحيد الذي استطاعه جريفت بعد أن أصبحت المسألة شديدة التعقيد.

وسأل فيليب:

- إذن قد انتهى كل ما كان بينهما؟

- لم يرها منذ عشرة أيام وأنت تعلم أن هاري ذى قدرة عجيبة على التخلص من الناس وقد كانت هذه آخر مشكلة لا بد له أن يتخلص منها وقد تخلص منها فعلا وانتهى الأمر.

وبعد ذلك لم يسمع فيليب شيئا قط عنها فقد تلاشت الكتل البشرية الهائلة التي يضمها تعداد مدينة لندن.

وفي الربيع وبعد أن انتهى فيليب من عمله في العيادة الخارجية أسند إليه عمل كاتب في العيادة الداخلية. واستمر في هذا المنصب ستة شهور. وكان من عمل الكاتب أن يقضي الصباح كله في غنابر المرضى: في غنابر الرجال أولا ثم في غنابر السيدات مع طبيب الامتياز، يدون الحالات ويقوم بعمل الاختبارات ثم يقضي بقية اليوم مع الممرضات. وفي بعد الظهر من يومين في الأسبوع يمر الطبيب المنوب مع فريق من الطلبة يفحص الحالات ويلقي التعليمات وكان هذا العمل خاليا من روح الإثارة والتغير الدائم والاتصال الصحيح بعالم الحقيقة والواقع كما هو الحال في قسم العيادة الخارجية ولكن فيليب اكتسب قسطا كبيرا من المعرفة وكانت علاقة فيليب بالمرضى أحسن ما يكون، وقد اغتبط بما يراه على وجوههم من علائم السرور والبشر عند قيامه بالإشراف عليهم ولم يكن يحس بعطف شديد على آلامهم ولكنه كان يميل إليهم وإذا لم يكن متصنعا في مسلكه فقد كان محبوبا من المرضى أكثر من غيره.

وكان لطيفا مشجعا وصديقا للجميع وقد وجد فيليب، كما وجد غيره ممن يتصل عمله بالمضى، إن التفاهم مع المرضى الذكور أسهل بكثير من التفاهم مع المرضى الإناث. فالإناث دائما متذمرات، غاضبات دائمات الشكوى من الممرضات المجهدات اللاتي لم يولينهن العناية التي يرين أنها من حقهن وكن متعبات غير شاكرات غير مهذبات.

وسرعان ما أسعد الحظ فيليب فوجد صديقا فقد عهد إليه نائب القسم في صباح أحد الأيام بفحص حالة جديدة، حالة رجل. وجلس فيليب على سرير هذا الرجل وبدأ يملأ «الصحيفة الخاصة

بمرضه» وقد لاحظ فيليب وهو يملأ الصحيفة أن مهنة الرجل كانت الصحافة وكان اسمه إثلني، ومثل هذا الرجل يعتبر زائرا غير عادي للمستشفى وكان عمر هذا الصحفي ثمانية و عا ما ويشكو الرجل أزمة من أزمت مرض اليرقان وقد أدخل إلى المستشفى بسبب وجود غير معروفة للمرض كان من الضروري تتبعها ومراقبتها. وقد أجاب الصحفي المريض الأسئلة المختلفة التي وجهها إليه فيليب في صوت مهذب لطيف. وكان من الصعب أن يعر الرجل طويل أو قصير لأنه كان مستلقيا في الفراش ولكن رأسه الصغير ويديه الصغيرتين تدل على أنه دون متوسط الطول وكان من عادة فيليب أن يفحص يدي المريض، وقد أثار إثلني دهشته. فقد كانتا صغيرين، ذواتي أصابع مستدقة الطرف طويلة تنتهي بأظافر جميلة. وكانت يدا الرجل ناعمتين جدا ولولا مرض اليرقان لكانتا بيضاوين بيضا يثيران وكان المريض يضعهما خارج الغطاء، إحدهما مبسوطة قليلا بينما كان اصبعهااا والثالثة ملتصقتين معا ولاحظ فيليب أثناء كلام الصحفي معه أنه كان يتأملها في رضي وأن وقد نظر فيليب إلي وجه الرجل فظهر له رغم الاصفرار الذي علاه وجهها متميزا عن غير الوجوه: كانت له عينا زرقاوان وأنف أشم، ولكنه ليس أخرق ولحيته صغيرة مستدقة وكان الرجل أصلع تقريبا:

ولكنه كان واضحا أن شعره كان جميلا جدا، متثنيا طريفا.

قال فيليب:

- أرى أنك صحفي. فلأى صحيفة تكتب؟

- أكتب لجميع الصحف. لا تكاد تفتح صحيفة دون أن تجد شيئا من كتابتي.

وكانت هناك صحيفة بجانب الفراش وعندما أحضرت له أشار إلى إعلان فيها. وكان مكتوبا بحروف كبيرة عن مؤسسة معروفة جدا لفيليب، هي مؤسسة «لين وسدلي» في «ريجننت» بلندن وكان مكتوبا، تحت اسم المؤسسة وبخط أصفر وإن كان كبيرا نوعا، هذه الجازمة التسويق مضیعة للوقت وبعدها سؤال مدهش لمعقوليته: لماذا لا تسارع بالطلب وقد تكرر السؤال في حروف كبيرة كواخزات الضمير في قلب قاتل: لم لا؟ وبعدها بكل قوة الأزواج من القفازات من أشهر الأسواق العالمية بأسعار مذهلة. آلاف الأزواج من الجوار أشهر مصانع العالم الموثوق فيها بتخفيض هائل، وأخيرا يظهر السؤال مرة ثانية كأنه للبرواز. لماذا لا تسارع بالطلب اليوم؟

- أنا المندوب الصحفي لمؤسسة لين وسدلي.

قالها إثلني وهو يهز يديه الجميلتين قليلا. وزاد عليها قوله:

- ألا ما أحقر العمل..!

واستمر فيليب في توجيه الأسئلة التقليدية التي يكون بعضها عاديا رتيبا محضا والآخر يقصد به إلى اكتشاف معلومات يحرص المريض على إخفائها. سأله فيليب:

- هل عشت في الخارج يوما ما ؟

- قضيت في أسبانيا إحدى عشر سنة..

- وماذا كنت تعمل هناك؟

- كنت أمين شركة المياه الإنجليزية في طليطلة.

وقد أثارته أجابه الصحفي فجعله ينظر إليه باهتمام. ولكن فيليب وجد من غير اللائق إظهار هذه الحقيقة. فقد كان من الضروري الاحتفاظ بالتباعد الموجود بين مرضي المستشفى وبين الهيئة العاملة فيه. ولما انتهى فيليب من فحصه انتقل إلى غيره من المرضى.

ولم يكن مرض ثورب إثنى بالخطر. فرغم الاصفرار العظيم فقد شعر بالتحسن. ولم يبق بالمستشفى إلا لأن الطبيب كان يرى بقاءه تحت الملاحظة حتى تصبح بعض الأعراض طبيعية. وقد ازدادت معرفة فيليب بالصحفي خلال الأيام القليلة التي تلت دخول الصحفي المستشفى وأثناء اللحظات التي كان يختلسها فيليب من وقته كلما سنحت له فرصة وكان الصحفي محدثا لبقا. لم يكن يقول أشياء هامة ولكنه كان يتكلم بحيوية حماسية تلهب خيال فيليب وإذ كان فيليب قد عاش طويلا في عالم الرياء والتكلف فقد وجد خياله قد اكتظ بالصورة الجديدة. وكان أثلني على خلق حميد جدا، ويعرف أكثر مما يعرفه فيليب عن الحياة وعن الكتب كما كان أكبر منه سنا. وقد وهبه حسن استعداده للكلام والمحادثة نوعا من السمو ولكنه كان بالمستشفى يلتمس الخير والرحمة خاضعا للقواعد الصارمة الدقيقة، وقد استطاع أن يوفق بين الحالين في يسر وبروح مرحة وقد سأله فيليب ذات مرة لماذا أتيت إلى المستشفى.

وأجاب إثنى :

- إن المبدأ الذي أسير عليه أن أستفيد من الخدمات التي يقدمها المجتمع.

- وأن أجنى فوائد الزمن الذي أعيش فيه فإذا مرضت طلبت الشفاء في المستشفى دون أن أشعر بخجل زائف، وأرسل أبنائي إلى التعلم في المدارس الداخلية.

وسأله فيليب :

- أحق هذا؟

وهم يحصلون على تعليم أفضل بكثير مما حصلت عليه أنا شخصيا في ونشستر كيف تظن أنني أستطيع تعليم أطفال كلهم بغير هذه الطريقة؟ أن عندي تسعة منهم يجب أن تحضر لتراهم جميعا عندما أعود إلى المنزل هل تحضر؟

وقال فيليب :

- ليس أدعي لسروري من هذا.

وشفي ثورب أثلني تماما بعد عشرة أيام وأصبح في استطاعته أن يغادر المستشفى وأعطي عنوانه لفيليب فوعده أن يتعشى عنده يوم الأحد التالي وكان أثلني قد أخبر فيليب أنه يسكن في منزل بناحية «أينجو جو نس» وكان يهذر ويمزح كما اعتاد أن يهزر ويمزح دائما وما ذهب ليفتح الباب لفيليب حتى جعله في الحال يعجب بالحفر الأنيق الموجود بشرفة الباب، وكان شكل المنزل

مهوشا في حاجة إلى طلاء ولكنه ما زال يحتفظ بعظمة الفترة التي بني فيها وكان يقع في شارع صغير بين «شاتري لين» وهولبورنس، وكان يوما من الأيام من الأحياء الحديثة الطراز ولكنه الآن لا يزيد على أي حي في الأحياء القذرة الصغيرة، وقد كانت هناك فكرة لهدم هذا المنزل وإقامة مكاتب جميلة مكانه وخاصة أن إيجاره كان رخيصا. إثنى استطاع أن يستأجر الطابقين العلويين بإيجار يتفق ودخله ولم يكن فيليب قد رأى إثنى واقفا من قبل ولذلك أدهشه صغر حجمه إذ لم يزد طوله على خمس أقدام وخمس بوصات وكان إثنى يلبس سراويل من التيل الأزرق من ذلك النوع الذي يلبسه العمال في فرنسا وسترة قديمة جدا من القطيفة البنية كما كان يرتدي «يتمنطق» بشريط أحمر فاتح حول وسطه وياقة منخفضة وربطة عنق من ذلك النوع الذي يلبسه المهرجون الفرنسيون الذين تظهر صورهم على صفحات مجلة «باناش» وحيا إثنى فيليب في حماس. وبدأ يتحدث في الحال عن المنزل وهو يمر بيده في حنان على حاجز السلم.

انظر إليه، تلمسه أنه كالحرير.. إنه معجزة من معجزات الرشاقة.. ومع هذا فبعد خمس سنوات سيبيعه الهدام ليكون طعاما للئيران وأصر إثنى على أن يأخذ فيليب إلى حجرة بالطبقة الأولى حيث كان رجلا يلبس قميصا وامرأة وثلاثة أطفال، يتناولون عشاء يوم الأحد.

قال إثنى للرجل:

- لقد أحضرت معي هذا السيد لاربه سقفكم. هل رأيته في حياتك أعجب منه؟

وكيف حالك يا مستر هوجسن؟ هذا مستر كاري الذي كان يعتني بي يوم أم كنت بالمستشفى. وقال الرجل:

- تفضل يا سيدي. إني أرحب بأصدقاء مستر أثلني. أن مستر أثلني يرى السقف لكل أصدقائه ولا يهمه ماذا تعمل وقتها. لا يهمه أن تكون في الفراش أو أن تكون في الحمام للاغتسال فهو يدخل على أي حال. واستطاع فيليب أن يعرف أنهم يعتبرون أثلني شاذا نوعا ما ولكنهم رغم هذا يحبونه ويصفون إليه مشدوهين وهو يتحدث إليهم بطلاقة المعهودة عن جمال سقوف القرن السابع عشر.

- أي جريمة يمكن أن ترتكب بهدم هذا السقف أليس كذلك يا هوجسن؟ إنك مواطن ذو نفوذ فلماذا لا تكتب إلى الصحف محتجا؟

وقال هوجسن لفيليب :

- إن مستر أثلني يردد مزحته الصغيرة يقولون أن هذه المنازل غير صحية وأن.. السكن فيها مأمون.. لعنة الله على الصحة.. الفن هو المهم. إن عندي تسعة أطفال يعيشون فيه رغم حالة المجارى السيئة. كلا، كلا، ليس معني هذا أن هناك خطرا لا أريد أن أتبنى أحد أفكارك الحديثة فعندما أنتقل من هذا النزل سأؤكد من أن المجارى فاسدة قبل أن أسكنه.

ودق الباب وفتحته فتاة صغيرة ذات شعر أشقر.

- بابا، مامي تقول لك حسبك ثرثرة وتعال معي لتناول عشاءك.

قال إثنى مشيرا إليها بإصبعه السبابة حركة تمثيلية:

- هذه ابنتي الثالثة واسمها «ماريا دبلار» ولكننا نفضل أن نناديها باسم جين. جين نظفي أنفك.

- ليس معي منديل يا بابا.

- صه صه يا بنية ولماذا خلق الله لنا أصابع إذن؟

قال إثلني هذا وهو يخرج منديلا كبيرا من جيبه لا بنته.

وصعد فيليب معه إلى الدور العلوى ودخل حجرة ذات وزرة من خشب البلوط. فى وسطها منضدة من خشب الساج لها عمادتان من الحديد. كان المفروض أن يتعشيا عليها فقد أعدت لاثنتين ووضع كرسيان أمامها لكل كرسي منهما ذراعان عريضا ومستويان من البلوط وظهر كل منهما من الجلد وكذلك المقعد. مكان الكرسيان قاسيين وغير مريحين. ولم يكن بالغرفة من الأثاث بعد ذلك إلا الشيء القليل وعلي الجدران كانت صور الفنانين القدامى من رجال المدرسة الأسبانية والتصوير موضوعة فى إطارات جميلة وإن كانت محطمة. ولم يكن هناك شيء ذو قيمة فى الحجرة ولكن التأثير الذى أحدثته كان محببا. كانت عظيمة مع أنها قديمة وشعر فيليب أنها تعطي الروح الأسبانية الحق.

وفي أثناء ما كان أثلني يتحدث مع فيليب دخلت طفلة طويلة ذات غديرتين من الشعر البني الجميل المدعى خلفها، وقالت:

- تقول أُمي أن العشاء معد وينتظر وسأحضره بمجرد جلوسكم. واستدار أثلني إلى فيليب وقال للطفلة:

- تعالي يا سالى صافحي مستر كارى.

ثم قال لفيليب:

- أليست عظيمة أنها كبرى بناتي كم عمرك يا سالى؟

- خمسة عشر عاما، فى شهر يونية القادم.

- عمدتها باسم ماريا دل سول لأنها كانت أول طفل رزقته وأهديتها لشمس قشتالة المجيد ولكن أمها تدعوها سالى وأخوها يدعوها «وجه البودنج».

وضحكت الفتاة فى خجل وظهرت أسنانها بيضاء مستوية وأحمر وجهها وكان شكلها متناسقا وأطول مما تؤهلها له سنها وعيناها عسلتان جميلتان وجهتها عريضة ووجنتا حمراوان.

- اذهبي وقولي لأُمك أن تحضر لتصافح مستر كارى قبل أن يجلس.

- أُمي تقول أنها ستحضر بعد العشاء فهي لم تغتسل بعد.

- إذن سنذهب لنراها نحن. فلا ينبغي أن يأكل بودنج يوركشير قبل أن يصافح اليد صنعناها.

وسار فيليب فى إثر مضيفه إلى المطبخ وكان المطبخ صغيرا ومزدحما للغاية وكانت ضجة كبيرة ولكنها خفت بمجرد أن دخل الرجل الغريب وكانت بوسط المطبخ مائدة كبيرة

حولها أطفال أثلني متأهبين للعشاء وعند الفرن كانت تقف سيدة تأخذ البطاطس المشوية الواحدة بعد الأخرى.

وقال إثلني:

- هذا هو مستر كارى يا ابنتي.

- وأتيت به إلى هنا؟ ماذا يظن بنا؟

وكانت ترتدى ميدعة قدرة وكانت كما رداها القطني مرفوعين إلى مرفقيها وكان شعرها بعض الدبابيس تلويه بها. وكانت مسر أثلني سيدة كبيرة الجسم أطول من زوجها بثلاث بوصات جميلة ذات عينين زرقاوين ومنظر وديع لقد كانت فى شبابها مخلوقا رشيقا. ولكن تقدم السن وحملها مثل هذا العدد من الأطفال جعلها سمينة ومكتنزة وشحبت عيناها الزرقاوان، واخشوشن جلدها واحمر وزهب لون شعرها واعتدلت مسر أثلني ثم مسحت يديها فى ميدعتها ومدتها وقالت فى صوت خفيض وببرة بدت مألوفة لفيليب.

- مرحبا بك يا سيدى لقد قال أثلني أنك كنت عطوفا عليه فى المستشفى.

وقال إثلني لفيليب:

- والآن يجب أن أقدمك إلى بقية النسل هذا ثورب.. (وأشار إلى طفل مكور ذى شعر مجعد) أنه أكبر الصبيان وارث اللقب والأملاك وتبعات الأسرة وهؤلاء اثليستان وأدوار وهارولد (وأشار بسبابته إلى أطفال ثلاثة صغار كلهم من ذوى اللون الوردى وعليهم مظاهر الصحة وتعلو وجوههم الابتسامات بالرغم من أنهم نظروا فى خجل إلى صحنهم عندما شعروا بعيني فيليب تبسمان لهم) والآن البنات بالترتيب ماريا وسول.

قال أحد الأولاد الصغار:

- وجه البودنج.

وقال إثلني:

- إن روح المزاح فيك بدائية يا بني ماريا دلوس مرسيدس، ماريا ول بيلار، وماريا دلا كتسبشن، ماريا روزاريو.

وقالت مسر إثلني:

- أنا أدعوهم سالى مولي كوني، روزى، جين، والآن أذهب يا اثلني إلى حجرتك وسأرسل لكما العشاء وسأدع الأطفال يدخلون عليكما بعد ذلك لفترة قصيرة بعد أن يغتسلوا.

- يا عزيزتي لو كان لي أن أسمى على طريقتك لدعوتك ماريا رغوة الصابون فإنك دائما تعذبين هذه المخلوقات المسكينة بالصابون.

أذهب أولا يامستر كارى، وإلا لن أستطيع أن أجعله يجلس لتناول العشاء.

وألقى إثلني و فيليب نفسيهما على الكرسيين العتيقين وأحضرت لهما سالى طبقين من لحم العجول وبودنج يوركشير والبطاطس المحمرة والكرنب. وأخرج اثلني قطعة من ذات السقة البنسات من جيبه وأرسل سالى تشتري بها أبريقا من الجعة.

وقال فيليب:

- أمل ألا تكون قد أعددت المائدة هنا من أجلي. لقد كان يسعدني أن أتعشي مع الأطفال.
- كلا. فإني دائما أنناول وجباتي وحيدا. فأنا أحب تلك العادات القديمة. ولا أوافق على أن تجلس السيدات إلى مائدة واحدة مع الرجال. أن ذلك يفسد الحديث وأنا متأكد أن هذا ليس من صالحهن إنه يملأ رؤوسهن بالأفكار. والنساء لا يسترحن مطلقا إذا كانت لهن أفكار. وأكل كل من المضيف والضيف بشهية كبيرة.

- هل ذقت في حياتك مثل هذه البودنج إلى وركشيرية؟ لا أحد غير زوجتي يستطيع صنعها هكذا. وهذه ميزة من ميزات عدم زواج المرء من سيدة. لقد لاحظت أنها ليست سيدة أليس كذلك؟ وكان هذا سؤالا محرجا ولم يستطع فيليب الرد عليه.

وقال فيليب في تعثر:

- لم أفكر في هذا.

وضحك إثلني وكانت له ضحكة مرحة خاصة. وقال:

- كلا إنها ليست سيدة ولا أى شيء من هذا القبيل فأبوها كان مزارعا، ولم تضايق نفسها يوما بأصول آداب المجالس، وقد ولد لنا اثنا عشر طفلا عاش منهم تسعة وطلبت منها أن تكتفي بهذا العدد ولكنها امرأة عنيدة ولا زالت تحمل حتى الآن. ولا أعتقد أنها ستقتنع إلا إذا أوصلتهم إلى عشرين. وفي هذا اللحظة حضرت سالي بالجنة وبعد أن أفرغت كأسا لفيليب ذهبت إلى الجانب الآخر لتصب آخر لأبيها الذى وضع يده حول خصرها.

- هل رأيت مثل هذه الفتاة الرشيقة؟ عمرها خمس عشرة وتشبه بنت العشرين. أنظر إلى وجنتها. أنها لم تعرف المرض يوما في حياتها وسيكون سعيدا ذلك الرجل الذى تكون من نصيبه، أليس كذلك يا سالي؟

واستمعت سالي إلى كل هذا بابتسامة بطيئة بسيطة، ولم تحرج، لأنها اعتادت نزوات أبيها ولكنها فعلت هذا بأدب واضح كان جذابا جدا.

قالت سالي وقد سحبت نفسها بعيدا عن ذراع أبيها:

- لا تدع عشائك يبرد ونادني عندما تريد البودنج هل تسمح؟

وبقي فيليب مع إثلني وحدهما ورفع إثلني قدح الشراب إلى شفثيه وشرب طويلا.

قال إثلني:

- بالله عليك هل وجدت خيرا من الجعة الإنجليزية؟ فلنشكر الله على هذه المتعة الصغيرة لحم العجل المشوى وبودنج الأرز الشهية المفتوحة مع الجعة. لقد تزوجت مرة سيدة يا إلهي! لا تتزوج سيدة يا بني.

وضحك فيليب فقد سره المنظر، الرجل الصغير فى ملابسه العجيبة والحجرة ذات الورد والأثاث الأسباني والطعام الإنجليزي لقد كان المنظر ممتعا بديعافى غير تناسقه.

- أتضحك يا بني. لا تستطيع أن تتصور الزواج ممن هي أقل منك. فأنت تريد زوجة تكافى عقليتها. فتكنظ رأسك بالأفكار عن الزمالة والصداقة، ذلك حشو وهراء يا ولدى. ليس الرجل حاجة إلى زوجة يتحدث إليها فى السياسة وماذا يهمني من آراء حتي فى حساب التكاليف والتفاصيل. إنه فى حاجة إلى زوجة تعرف كيف تطبخ طعامه وتعتني بأطفاله لقد جربت الحاحا وعرفت هما دعنا نأتي البودنج.

وصفق إثلني بيديه فحضرت سالي. وعندما أزاحت الأطباق والصحون، أراد فيليب أن ينها ليساعدها ولكن إثلني منعه من ذلك:

- دعها وحدها يا بني أنها لا تحب أن تقوم من مكانك أليس كذلك يا سالي؟ ولن تعتبر جلوسك هنا ساكنا أثناء خدمتك غلطة منك فإنها لا تهتم بأدب الفروسية أليس كذلك يا سالي؟

قالت سالي فى رصانة وحشمة:

- لا يا أبي..

- هل تعرفين عم أتكلم يا سالي؟

كلا يا أبي ولكنك تعلم أن أمي لا تحب أن تسمع منك سبابا. وضحك إثلني بقوة. وأحضرت سالي أطباق بودنج الأرز الدسمة ذات القشدة اللذيذة وهما إثلني طبقه بشراهة.

- من تقاليد هذا البيت أن عشاء يوم الأحد لا يتغير أبدا. إنه مقدس كالطقوس الدينية. ش من لحم البقر، بودنج أرز يتكرر خمسين أسبوعا فى العام. وفي يوم عيد الفصح حمل وبس خضراء، وفي عيد سانت ميشيل - ٢٩ سبتمبر - أوزة مشوية وتفايح. وبهذا نحافظ على تقاليد قومنا. وعندما تتزوج سالي ستنسى كثيرا من الأشياء المعقولة التي علمتها إياها، ولكنها تنسى أنه إذا أراد المرء أن يعيش سعيدا موفقا فعليه أن يأكل شواء لحم العجل وبودنج الأرز فى يوم الأحد.

قالت سالي دون أن تتأثر:

- نادني عندما تريد الجبن.

وسأل إثلني فيليب:

- هل تعرف أسطورة الطائر المسمى كينجز الصياد؟

وكان فيليب قد أخذ يعتاد انتقال إثلني السريع من موضوع إلى آخر قال إثلني:

- عندما تخور قوى كينجز الصياد أثناء طيرانه فوق البحر تضع أنثاه نفسها تحته وتحتد فوق جناحيها القويين. وهذا ما يريده الرجل من الزوجة أن تكون زوجة ملك صياد. لقد عشت زوجتي الأولى ثلاث سنوات، وكانت سيدة ذات دخل يبلغ ألف جنيه وخمسمائة فى العام واعتدت إقامة حفلات عشاء جميلة فى بيتنا الصغير ذى الواجهة المصنوعة من الحجر الأحمر كينسنجتون وكانت ساحرة. كما كان الجميع يقولون وكان المحامون وزوجاتهم يتعشون مع

وكذلك السماسرة ورجال السياسة الناشئون. أوه لقد كانت فاتنة وكانت تحتج على الذهاب إلى الكنيسة في قبعة حريرية وحلة السهرة وتصحني إلى الحفلات الموسيقية الكلاسيكية، وكانت جد مغرمة بالمحاضرات بعد ظهر يوم الأحد. وكانت تتناول طعام إفطارها كل يوم في الثامنة والنصف ولو تأخرت فسيبرد الأكل. وكانت تقرأ الكتب الصحيحة وتعجب باللوحات الصحيحة وتعبد الموسيقى الصحيحة. يا إلهي، كم ضايقتني تلك المرأة.. أنها لا زالت فاتنة، ولا زالت تسكن في البيت الصغير الأحمر في كينسنجتون مع أوراق موريس وصور هويسلر على الحائط ولا زالت تعد حفلات العشاء الجميلة الصغيرة حيث تقدم قشدة اللحم البقرة ومثلجات جنتر الشهيرة كما كانت تفعل منذ عشرين عاما.

ولم يسأل فيليب كيف افترق الزوجان غير المتوافقين ولكن إثلني أخبره بذلك فقال:

- إن بتي ليست زوجتي، فزوجتي لم تطلقني، أما الأطفال فغير شرعيين كل منهم من أب وماذا يضيرها من هذا؟ فقد كانت بتي إحدى الخادومات في البيت الصغير الأحمر القائم في كينسنجتون ومنذ سنوات أربع أو خمس.

كنت في حالة عوز شديد، وكان عندي من الأطفال سبعة وذهبت إلى زوجتي وطلبت إليها المساعدة. ووعدت بعطائي مصروفا خاصا لو هجرت بتي وسافرت إلى الخارج.. لم أتصور هجراني لبتي، تضورنا جوعا بدلا من ذلك وقتا ما.

وكانت زوجتي تقول إنني أحب ضيق الرزق والحق أنني انحدرت إلى الدرك الأسفل. إنني اكتسب اليوم ثلاثة جنيهات في الأسبوع من عملي مندوبا صحفيا لمحل تجارة أقمشة تيلية وأناي لأشكر الله على أنني لست في المنزل الصغير الأحمر في كينسنجتون.

وأحضرت سالي الجبن واستمر إثلني في حديثه الطلق:

إن أكبر خطأ في العالم أن يعتقد الإنسان أنه في حاجة إلى النقود لإعالة أسرة. فأنت تريد النقود لتجعل منهم سادة وسيدات. ولكني لا أريد لأطفالي أن يكونوا سادة وسيدات فسالي ستكسب عيشها بعرق جبينها بعد عام. فستلحق بمحل حائكة للثياب لتتمرن عندها على العمل، أليس كذلك؟ ياسالي؟ وسيعمل جميع الأولاد في خدمة وطنهم. فأنا أريد أن يلتحقوا جميعا بالبحرية، إنها حياة مريحة وصحية، طعام جيد، ومرتب ومعاش ينالونه إلى آخر أنها حياتهم.

وأشعل فيليب غليونه. ودخن إثلني لفافة من تبغ هافانا لفها بيديه. وخرجت سالي من الحجرة كان فيليب متحفظا في حديثه. وقد أخرجته أن يكون محلا لكل هذه الثقة. وكان إثلني بصوته القوي في جسمه الضئيل وبشقيقته وبنظراته الغريبة ويتأكداته. كان بهذا كله مخلوقا مدهشا. كما كان معتزا بأسرته الريفية. وقد أطلع فيليب على صور لبتي من العهد اليصاباتي وقال له:

- لقد عاشت أسرة إثلني هناك سبعة قرون يابني. أه لو رأيت المداخل والسقوف.

وكان هناك صوان أخرج منه إثلني شجرة الأسرة وأراها لفيليب بنظرة رضي كالأطفال وكانت رائعة فعلا. وعلق إثلني عليها بقوله:

- إنك ترى أن أسماء الأسرة تتكرر فهي ثورب، إثلستان، وهارولد، وإدوار، وهي الأسماء التي اتخذتها لأولادي، أما البنات فإبني كما ترى قد اخترت لهن أسماء أسبانية.

وطاف برأس فيليب شعور مضمض بأنه من الممكن أن القصة التي سمعها من إثلني بأكملها لا تعدو أن تكون خدعة محكمة الوضع لم يكن يقصها بقصد سيء بل لمجرد الرغبة في التأثير في المستمع وإثارة دهشته وذهوله. لقد أخبره إثلني أنه كان في ونشستر ولكن فيليب ذى الحساسية الشديدة لمختلف الأخلاق لم يشعر بأن مضيغه له ميزة من مميزات الرجل الذي تعلم في مدرسة خاصة. وفي أثناء ما كان إثلني يشير إلى المصاهرات التي أقامها أسلافه، كان فيليب يسلي نفسه بالتساؤل هل كان إثلني أبن أحد تجار ونشستر أو تجار الفحم، وهل كان التشابه في اسم الأسرة هو العلاقة الوحيدة بينه وبين الأسرة القديمة التي كان يطلع فيليب على شجرتها.

وسمع فيليب دقا على الباب ثم دخلت كتيبة من الأطفال. كانوا جميعا نظيفين ومرتبين تلمع وجوههم من الصابون وكانت شعورهم مرسلة، فقد كانوا ذاهبين إلى مدرسة الأحد في رعاية سالي. وأخذ إثلني يمزج معهم على طريقته التمثيلية العريضة. وكنت ترى أنه متعلق بهم جميعا. وكان اعتزازه بصحتهم الجيدة ومظهرهم الحسن مؤثرا. وشعر فيليب أنهم خجلون في حضرته ولما سمح لهم أبوه بالخروج تسللوا من الحجرة وكأنهم تخلصوا من واجب ثقيل قاس. وبعد قليل ظهرت السيدة إثلني وقد خلصت شعرها من الدبابيس التي تلويه وارتدت ثوبا أسود بسيطا وقبعة تزينها زهور رخيصة. وكانت تحاول بقوة إدخال يديها الحمراء والخشتين بسبب العمل الكثير في قفاز أسود من جلد الماعز.

قالت السيدة إثلني:

- إنني ذاهبة إلى الكنيسة يا إثلني. ليس لديك ما تريده مني. أليس كذلك؟

- دعواتك فقط يا عزيزتي بتي.

- لن تفيدك دعواتي كثيرا، فأنت بعيد جدا عن الخير.

وابتسمت السيدة، ثم التفتت إلى فيليب وقالت:

- لست أستطيع حمله على الذهاب إلى الكنيسة. إنه ليس خيرا من الملحد.

وقال إثلني:

- ألا تشبه زوجة روبين الثانية؟ ألا تكون فاتنة لو أنها لبست لباس القرن السابع عشر. إنها من النوع الذي يجب أن يتزوج الإنسان يابني انظر إليها.

وقالت السيدة في هدوء:

- إنك كثير الكلام يا إثلني.

ونجحت مسر إثلني في أحكام أزرار قفازها وقبل أن تغادرهما، التفتت إلى فيليب بابتسامة رقيقة ولكنها مرتبكة نوعا ما وقالت له:

- ستبقى حتى موعد الشاي، أليس كذلك؟ أن إثلني يريد شخصا يتكلم معه.. ولا يوجد في الغالب شخصا ماهرا مثلك.

وقال إثلني .

- طبعاً، سيبقى حتى موعد الشاي.

وما أن خرجت زوجة حتى قال :

- إنى أهتم بأن يذهب الأطفال إلى مدرسة الأحد، وأحب أن تذهب بتي إلى الكنيسة. لأنى أعتقد أن السيدات ينبغي أن يكن متدينات. أنى لست أؤمن شخصياً، ولكنى أحب أن يؤمن النساء والأطفال.

ولم يفارق فيليب أسرة إثلني حتى الساعة العاشرة، ولقد ألقى الأطفال عليهم تحية المساء فى الثامنة وكان طبعياً جداً أن يتقدموا بوجوههم إلى فيليب ليقبلها. وتعلق بهم قلبه. أما سالى فاكثفت بمد يدها له لتصافحه.

وقال أبوها :

- إن سالى لا تقبل أحداً أبداً إلا بعد أن تراه مرتين.

وقال فيليب :

- إذن عليك أن تدعوني مرة أخرى.

وقالت سالى فى ابتسامة :

- لا تهتم بما يقوله أبى.

وأضاف والدها قائلاً :

- إنها شابة قوية الشخصية إلى حد كبير.

وتناولوا عشاء من العيش والجبن والجعة بينما كانت مسز إثلني تضع الأطفال فى فراشهم وعندما ذهب إليها فيليب فى المطبخ ليحييها وكانت بتي جالسة هناك، تريح نفسها وتقرأ صحيفة ويكلي ديسباتش دعتة بإخلاص لزيارة ثانية.

وقالت :

- ستجد عندنا دائماً طعاماً طيباً يوم الأحد، ما دام إثلني يعمل، وإنك لتفعل خيراً إن أتيت لتتحدث معه.

وقد وصلت إلى فيليب بطاقة من إثلني يوم السبت تقول بأنهم ينتظرونه على العشاء فى اليوم التالي. ولكن فيليب كان يخشى ألا تكون مواردهم كافية بحيث تمكنهم من ذلك. فرد عليهم بما يقبل الحضور لتناول الشاي فحسب.

واشترى فيليب كعكة كبيرة محشوة بالبرقوق حتى لا يكلفهم حضوره شيئاً. ووجد أن الأمر بأكملها فرحة لقدومه وحقت الكعكة غزوه لقلوب الصغار. وأصر فيليب على أن يتناول الجميع الشاي سوياً فى المطبخ. وكانت الأكلة صاخبة ومفرحة وسرعان ما أصبح من عادة فيليب الذهاب إلى أسرة إثلني كل أحد كما أصبح معبود الأطفال، لأنه كان بسيطاً غير متكلف، ولأنه اتهم لهم أنه مولع بهم. وكانوا عندما يسمعونه يدق جرس الباب يجرى الواحد منهم ويطل برأسه من الشباك ليتأكد من أنه هو. وعندها يندفعون جميعاً ليفتحوا له الباب. ثم يرتمون فى أحضان

وعند تناول الشاي يتشاجرون للحصول على امتياز الجلوس إلى جانبه. وسرعان ما بدأ عليه اسم «العم فيليب».

وكان إثلني ممن لا يحتفظون كثيراً بالسر. وقد عرف فيليب مراحل حياته المختلفة فقد اشتغل بعدة مهن. وفهم فيليب أن إثلني لم يفلح فى كل محاولة حاولها. فقد عمل فى الشاي فى سيلان، ومندوباً منتقلاً فى أمريكا لبيع النبيذ الإيطالى، وعلم فيليب كذلك أميناً لشركة المياه فى طليطلة، وكانت تلك أطول مدة قضاها فى عمل ما. واشتغل بـ فعمل فترة من الزمن مندوباً فى دوائر الشرطة والقضاء لصحيفة مسائية. وكان مساء تحرير صحيفة فى ميدلاند ثم رئيساً لتحرير صحيفة أخرى فى الريفيرا، وقد جمع إثلنم الأعمال التي قام بها قصصاً مسلية كان يقصها فى لذة أكيدة وبقدرته العجيبة على وإدخال السرور على سامعيه.

وقد قرأ الكثير وخاصة الكتب غير المتداولة. وقد أخذ يصب ما اخترزته من معلومات «عسرة الفهم» ويستمتع كما يستمتع الأطفال بدهشة سامعيه. ولقد دفعته حاجته وفقره. وظيفة مندوب إعلانات لمؤسسة كبيرة للأقمشة، بالرغم من شعوره بأن هذا العمل لا يـ موهبته التي يقدرها تقديراً عالياً جداً، إلا أن حزم زوجته وحاجة أسرته قد جعلاه يحتف وبعد أن غادر فيليب منزل آل إثلني، سارفى شارع «تشانسرى لين» ثم سار على طو ستراند، ليستقل السيارة العامة من ناصية شارع البرلمان.



وحدث ذات يوم أحد. بعد أن عرف هذه الأسرة بستة أسابيع أن قام بهذه الجولة لكنه وجد أن سيارة شارع كينسنجتون كاملة العدد. كان ذلك فى شهر يونية، ولكن أمطرت أثناء النهار وكانت الليلة باردة. وسار فيليب إلى ميدان بيكاديللى لعله يجد مقعد وجد السيارة العامة تنتظر عند النافورة، وعندما وصلت لم يكن بها إلا شخصان أو أشخاص. وكانت الخدمة مستمرة كل ربع ساعة، فكان لديه متسع من الوقت للانتظار. فيليب فى كسل إلى الجمهور. كانت المحال تستعد لكى تغلق أبوابها، والشارع مزدحماً وكان ذهنه مشغولاً بالأفكار التي تفتقت عنها موهبة إثلني الساحرة.

و فجأة كف قلبه عن الخفقان، لقد رأى ميلدريد. لم يكن ذكرها قد جال فى خاد أسابيع. كانت تعبر الشارع من ناصية ناحية شافستيرى، ثم وقفت تحت واقية المطر حـ سرب العربات، وكانت ترقب فرصة لعبور الشارع فلم تهتم برؤية ما عدا ذلك. وكانت ترتد عريضة سوداء من القش تزينها كمية من الريش وثوباً من الحرير الأسود. وكان من الأنافة فى تلك الأيام أن يكون للرداء ذيل طويل.

ولما أصبح الطريق خاليا أمامها عبرته و ذيل ردائها يصل إلى أرض الشارع وسارت ميلدرید إلى شارع بيكاديللى. و تبعها فيليب بقلب يخفق فى ثورة و لم يكن يرغب فى الكلام معها. ولكنه كان يتساءل أين تذهب فى مثل هذه الساعة و كان يريد أن يلقي نظرة على وجهها. وواصلت هي السير فى ببطء، ثم اتجهت إلى شارع أير وبهذا أصبحت فى شارع ريجنت. و سارت بعد ذلك مرة أخرى نحو الميدان. و حير هذا فيليب لأنه لم يستطع أن يفهم قصدها. ترى هل تنتظر أحدا من الناس، و دفعه حب الاستطلاع إلى محاولة معرفة من يكون هذا الشخص و رآها تلحق برجل قصير يلبس قبعة على شكل مستدير كبيرة، و كان يسير فى نفس الاتجاه الذى كانت تسير فيه. وألقت ميلدرید على الرجل نظرة جانبية عندما مر بها. ثم سارت خطوات قليلة حتى وصلت محلات «سوان وإدجار»، و عندئذ وقفت و انتظرت و هي تواجه الطريق و عندما وصل الرجل إلى حيث كانت تقف ابتسمت له ونظر إليها الرجل لحظة فى تفرس فيها ثم استدار وسار. وعندئذ فهم فيليب كل شيء.

وغشى الفزع، و بعد لحظة شعر بأنه أصبح من الضعف بحيث لم تعد رجلاه تقوي على حمله. و سار خلفها بسرعة و لمس ذراعها بيده و صاح:
- ميلدرید!

واستدارت فى رجفة عنيفة. و ظن فيليب أن وجهها قد علاه الاحمرار. و لكنه لم يستطع أن يحسن الرؤية فى الظلام. و تطلع كل منهما الآخر مدة دون أن ينبس إحداهما ببنت شفة. و أخيرا قالت ميلدرید:
- تصور، أنى أراك ثانية.

ولم يدر فيليب بماذا يجيب، فقد كان مأخوذا لدرجة عظيمة. و قد أخذت العبارات يطارد بعضها بعضا فى ذهنه بشكل مريع. و أخيرا قال: كيف حالك يا ميلدرید؟
ولم تقل ميلدرید أكثر مما قالت، و استدارت بعيدا عنه ثم نظرت إلى الطوار. و أحس فيليب أن وجهها قد شوهه البؤس. و قال لها:

- ألا يوجد مكان ما نستطيع الذهاب إليه لنتحدث فيه؟
و أجابت فى اكتئاب قاتلة:
- لا أريد الكلام. دعني وشأني. هل تسمح؟
و خطر بذهنه أنها قد تكون فى حاجة ماسة إلى نقود، وليس معها ما تتركب به فى مثل هذه الساعة من الليل.

و قال فيليب لميلدرید و هو يتلعثم:
- معي جنيهان إن كنت فى حاجة إلى المال.
- لا أفهم قصدك. لقد كنت أسير فى طريقي إلى سكني، وكنت أتوقع مقابلة إحدى الفتيات ممن يعملن معي.
وقال فيليب:

- بالله عليكى، لا تكذبي.

ورأى فيليب إنها تبكى. وأعاد عليها السؤال :

- هل نستطيع الذهاب إلى مكان ما لنتحدث معا؟ هل أستطيع العودة إلى مسكنك؟
وأجابت وهى تنتحب :

- كلا. لن نستطيع ذلك إذ لا يسمح بأخذ الشبان الرجال إلى هناك. فإن شئت قابلتك وكان فيليب متأكدا من أنها لن تف بوعدها، ولم يكن ليتركها تذهب.

- كلا لا بد وأن أذهب معك إلى أى مكان ما الآن.

- توجد حجرة أعرف مكانها. ولكنهم سيتقاضون منك ست شلنات فى نظير ذلك.
- لا يهمني هذا. أين هي؟

وأعطته ميلدرید العنوان، و نادى فيليب عربية وسارت بهما العربية فى شارع غير نظيف المتحف البريطاني بجوار شارع «جراى». وأوقفت ميلدرید العربية على الناصية ثم قالت:
- إنهم لا يريدون أن تقف العربية أمام الباب.

وكانت هذه أولى الكلمات التي قيلت منذ ركوبهما العربية. و سار فيليب وميلدرید يارداً قليلة حتى وصلا المنزل. ودقت ميلدرید الباب ثلاث دقات شديدة. ولاحظ فيليب ورقة مقواه مكتوب عليها أن فى الدار حجرات للإيجار. وانفتح الباب فى هدوء وأدخلتهم عجوز طويلة.

وحدثت فيليب بنظرها ثم تحدثت إلى ميلدرید فى نغمة خفيفة، وقادت ميلدرید فيليب أحد الممرات إلى حجرة فى الخلف وكان الظلام مخيما على المنزل، فسألته عن عود ثقاب، وأ مصباح الغاز. ولما لم يكن للمصباح غطاء فقد خرج منذ الغاز بقوة ووجد فيليب أنه فى قدرة، فيها طائفة من الأثاث طليت حتى تكون شبيهة بخشب البلوط وهى أكبر كثيرا مما يـ الحجرة، أما ستائرهما فقدرة جدا وكان الموقد مختفيا وراء مروحة كبيرة من الورق. وغ ميلدرید فى أحد المقاعد بجانب المدفأة. بينما جلس فيليب على حافة السرير وهو يشعر بالـ ورأى لأول مرة وجنتي ميلدرید ملطختين بالدهان الأحمر أما حاجباها فكانا مزججان، منظرها لا زال نحيفا سقيما وقد ضاعف الأحمر الذى وضعته على وجنتيها من اخضرار، بشرتها. ونظرت ميلدرید إلى المروحة فى إهمال. ولم يستطع فيليب التفكير فيما تقول، بغصة فى حلقه كما لو كان على وشك البكاء فغطى عينيه بيديه ثم قال فى أنين:

- يا إلهي. هذا مروع.

- لست أدرى علام هذه الضجة التي تقيمها. فقد كنت أعتقد أنك ستكون مسرورا.

ولم يجب فيليب وما هي اللحظة حتى انفجرت ميلدرید تبكى:

- لعلك لا تظن أنني آتي هذا لأنني أحبه، هل تظن ذلك؟

أوه يا عزيزتي. أنا أسف. أنا أسف كل الأسف.

- هذا يتيح لي الكثير من الراحة النفسية.

ولم يجد فيليب مرة أخرى ما يقول. كان يخشى جدا أن يقول شيئا تجد فيه معني الإيلاام أو السخرية وسألها أخيرا:

- أين الطفلة؟

- لقد أحضرتها معي إلى لندن. فلم يكن معي تقود أدفعها لحضانتها في برايتون. ولهذا اضطررت أخذها. ولي حجرة في طريق هابري وقد أخبرتهم هناك أنني أعمل في المسرح. والطريق طويل للوصول إلى: الوست إند كل يوم ولكن من النادر أن تجد من يؤجر سكنا للسيدات.

- ألا يرجعونك إلى المحل الذي كنت تعملين به؟

- لم أستطع الحصول على عمل في أى مكان. لقد حفيت قدماي من السير بحثا عن عمل. ولقد حصلت يوما على عمل، ولكنني غبت عنه أسبوعا لأنني كنت متوعدة. وعندما عدت إليه قالوا إنهم لا يريدونني بعدئذ وليس في وسعك أن تلومهم، أليس كذلك؟ فهذه الحال لا يمكن أن تعطي عملا لفتاة ضعيفة البنية مثلي.

وقال فيليب:

- مظهرك يدل على أنك متوعدة.

- لم أكن صالحة للخروج الليلة، ولكنني لم أستطع، فأنا في حاجة إلى نقود، ولقد كتبت إلى إميل أخبره أنني أصبحت محطمة، ولكنه لم يتكرم حتى بالرد على الخطاب.

- كان من واجبك أن تكتبي إلى.

- لم أرد أن أكتب إليك بعدما حدث. ولم أكن أود أن تعلم أنني في ضائقة. وما كنت أدش لو أنك قلت أنني أستحق ما أنا فيه من شقاء.

- إنك لا تعرفينني جيدا حتى الآن، أليس كذلك؟

وتذكرني لحظة كل العذاب الذي قاساه بسببها، وضاق عندما استعاد ظروف هذا الألم ولكنها كانت استعادة لا أقل ولا أكثر. وقد عرف بعد أن نظر إليها أنه لم يعد يحبها، وإنما كان أسفا لما حدث لها وكان سعيدا لتحرره منها. وعندما راقبها فيليب باهتمام سأل نفسه لماذا كان مسلوب اللب هيما بها.

وقالت ميلدريد لفيليب:

- إنك إنسان مهذب بكل مافى هذه الكلمة من معني وأنت الرجل الحق الوحيد الذي قابلته في حياتي.

وصمتت برهة ثم احمر وجهها وقالت:

- إني أبغض أن أسألك يا فيليب ولكن هل لديك فضلة من المال تقدمها لي؟

- لحسن الحظ أن معي نقودا ولكنني أخشى ألا يكون معي أكثر من جنيهين.

وأعطاهما الجنيهين.

سأردهما لك يا فيليب.

- وابتسم وهو يقول:

- لا تقلقي بالك بهذا.

ولم يقل فيليب شيئا كان يريد أن يقوله. وتحدثان معا كما لو كان الذي جرى طريا. وعليها أنها ستعود إلى بشاعات حياتها، وأنه غير مستطيع أن يمنعها ونهضت ووقفا، وسألت ميلدريد:

- هل احتجرتك؟ أعتقد أنك تريد العودة إلى المنزل.

وأجاب فيليب:

- كلا لست في عجلة.

وقالت ميلدريد:

- إني سعيدة إذ أتحت لي الفرصة لأجلس.

وقد قطعت هذه الكلمات بما تضمنته من معان نياط قلبه، وكان من المؤلم حقا أن يرى حالة الإعياء التي كانت بادية عليها والتي جعلتها تغوص في الكرسي.

واستمر بينهما الصمت طويلا حتى أشعل فيليب لفافة من حيرته:

- كان جميلا منك ألا تقول شيئا يسيئ إلى يا فيليب ظننتك تقول أنك لا تعرف كل شيء.

ورأى فيليب ميلدريد تبكي من جديد، وتذكر كيف جاءت إليه عندما هجرها إميل في وكية بكثت أمامه، وظهر أن استعادة آلامها واستعادة إذلاله سببافى زيادة شعوره بالرحماني بالآن.

وقالت ميلدريد في أنين:

آخ لو استطعت أن أهرب مما أنا فيه.. إنني أكره هذه الحياة ولا أصلح لها ولست مزرا النور من الفتيات. إني مستعدة لعمل كل ما أستطيع للهرب منه أريد أن أعمل خادمة لو استنت. أو ليتني مت قبل هذا.

وانهارت أشد الانهيار من فرط حزنها على نفسها، فبكت بشكل هستيري وأخذ جسمها يتفضز - أه إنك لا تدري ما هو، ولا أحد يعرفه حتى يجربه.

ولم يتحمل فيليب أن يراها تبكي، لقد عذبتة شناعة موقفها فهمس قائلا:

- يا للطفلة المسكينة!! يا للطفلة المسكينة..

لقد تأثر أشد التأثر، وفجأة هبطت عليه فكرة ملأته بالغبطة الغامرة التامة.

- اسمعي. إذا أردت الخروج مما أنت فيه فإن لدى فكرة، إن خالتي المالية ليست غرا يرا

الآن، ولهذا فإني مضطر إلى أن أكون مقتصدا ما أمكن، ولكن عندي مسكنا صغيرا في كينجستون وفيه حجرة خالية فإذا أردت أن تقيمي فيها أنت وابنتك فليس هناك ما يمنع. وأني لثلاث شلنات ونصف شلن كل أسبوع لامرأة تقوم على نظافة المسكن وطهو الطعام وفي أسبوعك تحلي محلها ولن يكلفك طعامك أكثر من هذا المال. فلن يزيد إطعام اثنين كثيرا على إطعام واحد ولا أعتقد أن طفلك يأكل كثيرا.

وتوقفت ميلدريد عن البكاء ونظرت إليه:

- هل معني هذا أنك ستأخذني عندك ثانية بعد كل ما حدث؟

واحمر وجه فيليب قليلا وقد شعر بالحرج مما يريد أن يقول:

- أرجو أن لا تخطيني قصدي. كل ما سأفعله أنني أعطيتك حجرة لا تكلفني شيئا. ولست أتوقع منك أن تقومى إلا بما كانت تقوم به المرأة التي عندي. وبعد هذا لا أريد منك شيئا قط. وإني ليسعني أن أقول أن باستطاعتك طهو الطعام خيرا من الأخرى.

وقفزت ميلدريد على قدميها وكانت على وشك الذهاب إلى حيث كان:

- إنك تحسن إلى يا فيليب.

وقال فيليب بسرعة وقد مد يده وكأنه يريد أن يمنعها.

- كلا. من فضلك قفي حيث أنت.

ولم يدر فيليب لم فعل هذا، ولكنه لم يكن يحتمل فكرة أن تمسه ميلدريد.

- لا أريد منك أكثر من أن أكون لك صديقا.

وأعادت ميلدريد قولها:

- أنت تحسن إلى، تحسن كل الإحسان.

- أيعني هذا أنك ستحضرين؟

- نعم سأفعل المستحيل لأخلص مما أنا فيه لن تندم على ما فعلت يا فيليب أبدا.

- متى أحضر يا فيليب.

- خير لك أن تأتي غدا.

وفجأة وإنهمرت الدموع من عينيها. وابتسم فيليب وقال لها:

- بالله مم تبكين الآن؟

- إني شاكرة لك فضلك ولا أدري كيف أستطيع التعبير عن هذا الشكر.

- لا يهمك هذا وخير لك أن تعودى.

وكتب لها العنوان وأفهمها أنها إذا جاءت فى النصف بعد الخامسة فستجده فى انتظارها.

وكان الوقت قد تأخر بهما وكان عليه أن يعود إلى بيته. ولكن المسافة إلى البيت بدت قصيرة فقد

كان ثملا بالفرح وسار وكأنه يسير فى الهواء.

وصحا فيليب من نومه مبكرا فى اليوم التالي لإعداد حجرة ميلدريد وأفهم المرأة التي كانت

تعمل عنده أنه لم يعد بحاجة إليها. وحضرت ميلدريد حوالى الساعة السادسة، ونزل فيليب الذي

كان يرقبها من النافذة، إلى الباب. ليفتحه لها، وليساعدها فى نقل متاعها. ولم يكن هذا المتاع

أكثر من ثلاث لفافات لفت فى ورق بني، لأنها اضطرت إلى بيع كل ما لم تكن فى أشد الحاجة إليه.

وكانت ميلدريد ترتدى نفس الثوب الحريري الأسود الذي كانت تلبسه فى الليلة السابقة. مع أنها

لم يكن تضع الصبغ الأحمر على وجنتيها فقد ظل السواد حول عينيها حتى بعد أن غسلت

وجهها فى غير عناية فى الصباح، وقد جعلها هذا تبدو جد سقيمة. ونزلت ميلدريد من العربة

كأنها شبح يستوجب الرثاء وطفلتها بين ذراعيها وبدت خجله بعض الشيء، ولم تجد هي ولا فيليب ما يقوله أحدهما للآخر سوى بعض أشياء عادية:

- وهكذا أتيت إلى هنا سالمة.

- لم أسكن هذا الجزء من لندن من قبل.

وكانت الطفلة نائمة نوما هادئا. وقالت ميلدريد:

- إنك لا تعرفها كما أتوقع.

- لم أرها منذ أن أخذناها إلى برايتون.

- أين أضعها؟ إنها ثقيلة ولا أستطيع حملها طويلا.

- فأجاب فيليب وهو يضحك بعصبية:

- أخشى ألا يكون عندي مهد أطفال.

- ستنام معي. لقد اعتادت هذا.

ووضعت ميلدريد طفلتها فى كرسي ذى مساند وألقت نظرة على جوانب الحجرة. وتعرفت على

الكثير من الأشياء التي كانت تعرفها فى مسكنه القديم، ولم يكن فيها إلا شيء واحد وهو صورة

ملونة لرأس فيليب وكتفاه رسمها له لوسون فى نهاية الصيف السابق وقد علقها على رف

المدفأة. ونظرت إليه ميلدريد نظرة ناقد.

- أحبها من بعض النواحي ولا أحبها من بعضها الآخر وأعتقد أنك تبدو أجمل من ذلك منظرًا.

وضحك فيليب وقال:

- لقد أخذت الأمور تتحسن فإنك لم تقولي يوما أنني حسن المنظر.

- لست ممن يهتم منظر الرجال، ولا أحب الرجال حسني المنظر. إنهم مغرورون فوق ما يليق.

ودارت عيناها فى الحجرة تبحث بغريزتها عن مرآة، ولكنها لم تجد فرفعت يدها وربتت على

أهدابها الطويلة. ثم سألتها فجأة:

- ماذا يقول سكان المنزل الآخرون عن وجودى هنا؟

لا يوجد هنا سوى رجل وزوجته والرجل طول النهار خارج المنزل ولا أرى السيدة أبدا إلا يوم

السبت لادفع لها أجر الحجرات. وهما منطويان على نفسها ولم أتحدث مع أى منهما منذ جئت إلى

هنا. وذهبت ميلدريد إلى حجرة النوم لتتزع الأربطة عن أسيانها وترتيبها وحاول فيليب أن يقرأ

ولكنه كان فى حالة معنوية عالية واسترخى فى كرسيه وأخذ فى تدخين لفافة، وقد نظر إلى الطفلة

النائمة بعينين باسميتين وشعر بالسعادة كان واثقا من أنه لا يحمل لميلدريد أى بقية من حب.

وعجب كيف مات فيه هذا الشعور القديم بل إنه أصبح يحس بشيء من شعور الاشمئزاز نحوها

وكان يعتقد أنه إن مسها فسيصاب بذلك المرض الذى يجعل الجلد خشنا نتيجة للخوف. أن فيليب

لا يستطيع فهم نفسه. وسمع طرقا بالباب، ودخلت ميلدريد. قال فيليب:

- لا داعي لأن تطرقي الباب قبل الدخول هل تجولت فى القصر؟

- إن المطبخ أصغر مطبخ وقعت عليه عيناى.

- ستجدينه متسعا بما فيه الكفاية لطبخ أكلاتنا الفاخرة!
- لست أرى شيئا فيه للطبخ. من الأفضل أن أذهب لاحضار شئ.
- أجل. ولكننى أذكر بأننا يجب أن نراعي الاقتصاد إلى أقصى الحدود.
- ماذا أحضر للعشاء.

وضحك فيليب وقال :

- احضرى ما تستطيعين طبخه.

وأعطاهما نقودا فتركته وخرجت ثم عادت بعد حوالي نصف الساعة. ووضعت ما اشترته على المنضدة وهي تلهث من طلوع السلم.

وقال فيليب:

- أنت مصابة بفقر الدم وسأعالجك بحبوب بلود،

- ضاع منى وقت كبير فى البحث عن المحلات. اشتريت كبدة إنها لذيدة أليس كذلك.. ولا يستطيع المرء أن يأكل منها كثيرا وعلي هذا فإنها أرخص بكثير من لحم القصاب.

وكان بالمطبخ موقد غار فوضعت ملديريد الكبدة عليه ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس لتعد المائدة. وسألها فيليب:

- لماذا تعدين المائدة لشخص واحد فقط؟ ألن تأكلين؟

واحمر وجه ميلديريد خجلا وقالت:

- ظننت أنك لا تود أن أتناول طعامي معك.

- ولم لا

- لأنى لست إلا خادمة، ألسن كذلك؟

- لا تكوني حمارة. كيف تكونين غبية إلى هذا الحد؟

وابتسم فيليب. ولكن ذلتها جعلته يشعر بألم عجيب فى قلبه. يالها من مسكينة! وتعجب فى نفسه لحالتها عندما رآها لأول مرة وحالها اليوم وتردد قليلا ثم قال :

- لا تعتقدى أننى أتفضل عليك بشئ. بل إن المسألة مسألة عمل فأنا أمنحك مسكنا وغذاء فى مقابل عمل تقومين به من أجلى فلست إذن مدنية لي بشئ وليس فى هذا ما يحقرك.

ولم تجب ميلديريد ولكن الدموع سالت بغزارة على وجنتيها لقد عرف فيليب من خبرته فى المستشفى أن النساء اللاتى فى طبقتها يعتبرون الخدمة حقارة وإذلالا.. ولم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بنفاد صبره قليلا معها ولكنه أنحي على نفسه باللائمة، فقد كان من الواضح أنها مجهدة ومريضة. ونهض فيليب وساعدها فى إعداد المكان الآخر بالمائدة وهنا استيقظت الطفلة فأعدت ملديريد لها بعض الطعام الصناعي «طعام ملسن» ونضجت الكبدة واللحم وجلس فيليب وميلديريد للعشاء، وكان قد امتنع عن الشرب بدافع الاقتصاد ولكنه كان يحتفظ فى منزله بنصف زجاجة من الويسكي. ظن أن قليلا منه يفيد ميلديريد صحيا وقد بذل كل ما يستطيع من جهد

ليجعل العشاء يمر فى مرح ولكن ميلديريد كانت ذليلة ومجتهدة وعندما فرغا من الأكل، لتضع طفلتها فى الفراش.

وقال فيليب:

- أظن أنه من الأحسن لصحتك أن تنامي أنت أيضا مبكرة فإنه يبدو عليك الإجهاد.
- سأذهب لأنام بعد أن أغسل الصحاف.

وأشعل فيليب غليونيه وبدأ يقرأ. وكان مسرورا لسماعه حركات شخص آخر فى الغرفة الم فقد قتلته الوحدة. ودخلت ميلديريد الحجرة لتنظف المائدة وسمع فيليب صوت ارتطام الا عندما كانت ميلديريد تغسلها وابتسم فيليب عندما فكر أن من الخصائص التي تميزها عن أنها تقوم بهذا العمل كله وهي فى ثوبها الحريري الأسود ولكنه لم يطل تفكيره فى هذا فقد لديه ما يعمل به ولهذا جاء بكتابه إلى المنضدة. يقرأ كتاب من أوسلرفى «الطب» وكان هذا محل كتاب تيكرا فأصبح الطلبة يؤثرونه عليه بعد أن ظل هذا مرجعهم عدة سنين. ودخلت الحجرة وهي تنزل كميتها اللذين كانا مرفوعين وقت العمل. ونظر إليها فيليب ولم يتحرك. الموقف عجيبا وشعر فيليب بقليل من اضطراب الأعصاب وخشي أن تتصور ميلديريد أنه إلى مسلكه السابق ولم يدر كيف يوضح لها أنه لا يفكر فى هذا دون أن يسئ إليها. فقال لها - أحب أن أذكر لك أن لدى محاضرة فى الساعة التاسعة.. وعلي هذا أريد الإفطار فى الريد الثامنة. أتستطيعين ذلك؟

- أجل، أستطيع فعندما كنت أعيش فى شارع البرلمان اعتدت أن أركب عربة الساعة الـ واثنتي عشرة دقيقة يوميا من «هيرن هل»

- أمل أن تكون حجرتك مريحة وستكونين غدا امرأة أخرى بعد أن تنامي طويلا.

- أعتقد أنك تعمل إلى وقت متأخر من الليل.

- أعمل عادة حتى الحادية عشرة أو منتصف الثانية عشرة.

- سأقول، تصبح بخير إذن؟

- وأنت بخير.

كانت المنضدة بينها.. ولم يتقدم لمصافحتها، فأغلقت الباب بهدوء وسمع فيليب حركتها حجرة النوم وبعد قليل سمع صرير السرير وهي تلقي بنفسها عليه.

وكان اليوم التالي يوم الثلاثاء وتناول فيليب طعام إفطاره فى عجلة كالمعتاد واندفع خ ليستمع إلى المحاضرة التي ستلقى فى التاسعة ولم يجد إلا قليلا من الوقت لتبادل بعض الك مع ميلديريد وعندما عاد إلى المسكن فى المساء وجدها جالسة بالقرب من الشباك ترتق جوا وابتسم لها فيليب وهو يقول:

- إنك لمجدة فى العمل. ماذا فعلت بنفسك طوال اليوم؟

- لقد نظفت المسكن كله، ثم خرجت بالطفلة فى نزهة قصيرة.

وكانت ميلدريد ترتدى ثوبا قديما أسود، كذلك الزى الرسمي الذي كانت ترتديه عندما كانت تعمل في محل الشاي. وكان منظره عليها غير أنيق، ولكنها بدت فيه خيرا من ذلك الثوب الحريري الذي كانت ترتديه في اليوم السابق. أما الطفلة فكانت جالسة على الأرض وقد نظرت إلى فيليب بعينين غامضتين كبيرتين، وانفجرت ضاحكة عندما جلس بجوارها، وبدأ يلعب بأصابع رجلها العارية. ودخلت شمس العصر الحجرة فغزتها بأشعتها الهزيلة. وقال فيليب:

- من أحسن الأشياء أن يعود المرء إلى منزله فيجد فيه إنسانا. وأن سيدة وطفلة لهما حياة جميلة في أية حجرة.

وكان فيليب قد ذهب إلى صيدلة المستشفى وأحضر زجاجة من حبوب «يلود» أعطاه ميلدريد وأوصاه أن تأخذ منها بعد كل أكلة. وكان هذا دواء اعتادت تعاطيه منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها.

وقال لها فيليب:

- إني متأكد من أن «لوسون» سيحب لون جلدك الأخضر. وسيقول أنه صالح للرسم ولكنني في هذه الأيام لا أميل قط لغير المألوف. ولن أكون سعيدا حتى تعودين إلى احمرارك وبياضك كأنك حالبة لبن.

- أشعر بتحسّن فعلا.

وبعد أن تناول فيليب طعام عشاءه الاقتصادي، ملأ كيس تبغته ولبس قبعته.. وقد اعتاد فيليب أن يذهب إلى حانة في شارع بيك كل ثلاثاء.. وقد سره أن يأتي هذا اليوم بعد وصول ميلدريد بقليل أنه كان يريد أن يعجل العلاقات معها واضحة لا غموض فيها.

وسألته ميلدريد:

- هل أنت خارج؟

وأجاب فيليب:

- أجل ففي يوم الثلاثاء أمنح نفسي إجازة بالليل.. سأراك غدا. طابت ليلتك

وكان من عادة فيليب أن يذهب إلى الحانة مغتبطا مسرورا. وكان ماكليستر السمسار المتفلسف يوجد هناك عادة وعلى أتم استعداد للمناقشة في أي موضوع تحت الشمس.. أما هيوارد فقد اعتاد أن يزور الحانة بانتظام كلما حضر إلى لندن ورغم أنه وماكليستر لم يكونا متحابين فقد كانا يلتقيان عادة في تلك الليلة من كل أسبوع. وكان ماكليستر يرى أن هيوارد مخلوق مسكين وكان يهزأ من رقة عواطفه ولما سأله في سخرية عن أعماله الأدبية وأشار هذا في غموض بأنه سيخرج روائع من الأدب في المستقبل تلقى قوله هذا بابتسامه تحقير. وكثيرا ما حمي وطبش الجدل بينهما. ولكنهما غالبا ما كانا ينسيان خلافاتهما في نهاية الليل ويكبر كل منهما أخاه ويحبهما فيليب في هذه الحالة كما وجد لوسون. ولما كان يأتي لوسون إلى الحانة غير أنه يأتي الآن بعد أن بدأ يتعرف على الناس في لندن، ويذهب كثيرا إلى مواعيد العشاء.

كان الجميع على وفاق تام.. فقد تسبب ماكليستر لهم في الحصول على ربح من مصفي الأوراق المالية. وحصل كل من هيوارد ولوسون على خمسين جنيهًا. وكان ذلك غنما عظيما للوسون، ذلك المتلاص الذي لا يكسب إلا القليل وكان قد وصل إلى تلك المرحلة في رسم اللوحات التي أصبح في موضع أنظار النقاد... ووجد عددا كبيرا من سيدات الطبقة الراقية يسمحن له برسم صورهن در مقابل فقد كان هذا إعلان للطرفين لأنه يظهر هؤلاء السيدات بمظهر راعيات الفنون ولكنه قد وجد شخصا مستعدا لدفع مبلغ محترم من المال للحصول على صورة لزوجته لقد طفح كآ، لوسون بالقناعة. وكان لوسون يصيح قائلاً:

- إن هذه لأسوأ مهنة للحصول على المال حتى إنني أكاد أصعق، إن لا أجد نصف شلن في جيبتي عندما أضع يدي فيه.

وقال ماكليستر لفيليب:

- يا إلهي! ولماذا لم تكتب إلي؟ ألا ليتك تعلم مقدار نفع المائة جنيه لي..

- لم يكن هناك متسع من الوقت للكتابة إليك إذ يجب أن يكون المرء حاضرا في اللحظة المناسبة لقد سمعت عن صفقة طيبة يوم الثلاثاء الماضي وسألت هذين الرجلين هل يرغبان في الاشتراك، واشتريت لهما ألف سهم صباح يوم الأربعاء، وارتفع السعر عند الظهر فبعتهما في الحال وحصلت بهذا على خمسين جنيهًا لكل منهما، وحصلت أنا شخصيا على مائتين.

وحسدهم فيليب أشد الحسد لقد باع أخيرا آخر شيء رهنه، ولم يبق له إلا ستمائة جنيه وكان أحيانا يصاب بالهلع كلما فكر في المستقبل. فقد كان عليه أن يعول نفسه سنتين أخريين حتى يصبح أهلا للعمل وكان ينوى بعدئذ أن يحاول الالتحاق بوظيفة في المستشفى. وعلي هذا فلم يكر يتوقع أن يكتسب قرشا قبل ثلاث سنوات على الأقل ومهما تقشف واقتصد فلن يتبقى له وقتئذ أكثر من مائة جنيه وهذا مبلغ بسيط جدا يمكن الاعتماد عليه في حالة المرضي وعدم استطاعة الكسب أو التعطل. وإنه فإن مقاومة ناجحة كهذه كفيلة بتغيير الموقف أشد التغيير.

وقال ماكليستر:

لا ضير. سيأتي غيرها سريعا وبكل تأكيد.. فسترتفع أسعار أسهم جنوب أفريقيا مرة أخرى هذه الأيام. وسأرى ما يمكن عمله لك.

وكان ماكليستر يعمل في السوق الخاصة بأسهم بلاد كافر بجنوب أفريقيا وكثيرا ما قصر عليهم أبناء الثروات المفاجئة التي حصل عليها بعض الناس نتيجة لارتفاع الأسعار منذ سنة أو سنتين.

- لا تنس إذن في المرة القادمة.

وجلسوا جميعا يتكلمون حتى أوشكت الساعة على منتصف الليل فكان فيليب أبعدهم سكنا، ولهذا كان أول من غادر المكان، لأنه إذا لم يستطع اللحاق بالترام الأخير فسيضطر إلى السير على قدميه. وهذا يؤخره.. ومع هذا فإنه لم يصل إلى منزله حتى النصف بعد الثانية عشرة وصعد السلم، وكم كانت دهشته عندما وجد ميلدريد لا زالت جالسة في كرسيه ذي المساند.

فصاح بها قائلاً:

- بالله لم تذهبي إلى فراشك؟

- لم أشعر بالرغبة في النوم.

- ولكن يجب أن تكوني في الفراش رغم هذا، فإن ذلك يريحك.

ولم تتحرك ميلدريد، وقد لاحظ أنها منذ انتهى العشاء قد غيرت ثوبها وارتدت الثوب الحريري الأسود.

- ظننت أن من الأوفق أن أنتظر قدومك لعلك تكون في حاجة إلى شيء.

ونظرت إليه وقد لعب ظل ابتسامة على شفثيها النحيلتين الشاحبتين. ولم يستطع فيليب أن يعرف هل فهم أو لم يفهم. كان في حيرة نوعاً ما. ولكنه حاول أن يظهر إنساناً مرحاً عادياً. وقال لها:

- طابت ليلتك.

- أتريد الذهاب إلى الفراش توا.

- لقد اقتربت الساعة من الواحدة ولست معتاداً على النوم متأخراً في هذه الأيام.

فأخذت ميلدريد يده وأمسكتها، ثم نظرت إلى عينيه في ابتسامة وقالت:

- يا فيل. في الليلة الماضية، وفي تلك الحجرة، عندما طلبت إلى أن آتي وأمكث هنا. لم أكن أعني ما ظننت أنت أنني كنت أعنيه، عندما قلت أنك لا تريد مني إلا أن أطبخ وأقوم لك بمثل هذه الأعمال.

قال فيليب وقد سحب يده من يدها:

- أحق أنك لم تكوني تقصدينه؟ لقد كنت أنا أقصد ما أقول.

فضحكت ميلدريد وقالت:

- لا تكن أبله.

وهز فيليب كتفيه وقال:

كنت أعني ذلك جدياً. وما كنت لأطلب إليك الإقامة هنا على أية شروط أخرى.

ولم؟

أحس أنني لا أستطيع ولا يمكنني الشرح. ولكن ذلك يفسد كل شيء.

وهزت كتفها وقالت:

- ليكن الأمر كما تشاء. لست ممن يركع على أيديهن وأرجلهن من أجل هذا. لك ما تشاء.

وخرجت بعد أن أغلقت الباب بقوة خلفها.

وسارت الحياة هادئة هائلة بفيليب وميلدريد. وكان فيليب يقضي النهار بأكمله في المستشفى ويعمل في البيت مساءً إلا في الأمسيات التي يذهب فيها إلى آل إثلني أو إلى الحانة في شارع بيك. وذات يوم دعاه الطبيب الذي يعمل معه إلى عشاء كما دعي مرتين أو ثلاثاً إلى حفلات نظمها زملاؤه في الدراسة. وكانت ميلدريد راضية بحياتها التي تسير على وتيرة واحدة، وكان

فيليب بين الخين والحين يصحبها إلى دار الموسيقى، وقد عمل على تنفيذ ما اعتمه من أن تكون الرابطة الوحيدة بينهما دائماً هي رابطة الخدمة المنزلية التي تقوم بها نظير للعام والمساء وتأكيد ميلدريد إلا فائدة من الحصول على عمل في هذا الصنف وعزمت بموافقة فيليب على البقاء حيث هي حتى الخريف، وهي تعتقد أنه سيكون من السهل عليها أن تجد عملاً وذاك.

- أما من جهتي أنا فإنك، تستطيعين البقاء هنا عندما تجدين عملاً إذا كان هذا يروق فحجرتك هنا، ومن الممكن أن تعود المرأة التي كانت تقوم بالخدمة لي قبلاً إلى الرعاية الطف وقد حدثت مفاجأة سارة لفيليب حوالي نهاية الفصل الدراسي الثاني له وهو يعمل مساعداً القسم الداخلي بالمستشفى كان ذلك في منتصف شهر يوليو عندما ذهب إلى حانة نارع بيك مساءً يوم ثلاثاء ولم يجد أحداً سوى ماكليستر السمسار وجلسا سوياً يتحدثان عن إملاء الغائب وبعد قليل قال ماكليستر.

- لقد سمعت اليوم عن صفقة طيبة نوعاً. أسهم الذهب في منجم كلينتين في رديسيا.

لقد كان فيليب متلهفاً للحصول على مثل هذه الفرصة. ولكنها ما إن واثقت تردد. كما يخشى أن يفقد كل ما يملك فقد كانت روح المقامرة فيه غير كبيرة.

- أود ذلك، ولكن لا أدري هل أجزؤ على المخاطرة. كم سأخسر لو سارت الأمر سيئاً؟

وأجاب ماكليستر في برود:

- كان يجب ألا أتكلم على هذه الصفقة، لولا أنك شغوفاً بمثلها وشعر فيليب بـماكليستر أنه

إليه إلى حمار.

فضحك وقال:

- إنني خريص على كسب قليل من المال من هذه الناحية.

- لا يمكنك أن تربح المال ما لم تكن مستعداً للمخاطرة بالمال.

وبدا ماكليستر يتحدث إلى فيليب في أمور أخرى. وكان فيليب أثناء إجابته على كلام ماكليستر يفكر في أنه إذا انتهت المغامرة نهاية سعيدة فإن السمسار سيكون مضكاً وهو يطمح مصاريفه في أول مقابلة بعدها. فقد كان لماكليستر لسان حاد في السخرية.

وقال فيليب في شغف:

- أعتقد أن باستطاعتي المقامرة إذا سمحت؟

- سأشتري لحسابك مائتي سهم وخمسين سهماً، وعندما يرتفع السعر نصفارون سأبيع في الحال.

وحسب فيليب ما سيصل إليها مبلغه وسال لعبه، فإن ثلاثين جنيتها في نظره كانت نعمة السماء في ذلك الوقت. وأعتقد أن القدر مدين له بالكثير.

وأخبر فيليب ميلدريد بما فعله عندما رآها على مائدة الإفطار في الصباح التالي فظن إنساناً أبله وقالت:

- لم أعرف قط إنسانا أترى عن طريق المضاربة. هذا ما كان أميل بقوله دائما إنك لا يمكن أن تتوقع أن تغتني عن طريق البورصة.

واشترى فيليب صحيفة مسائية أثناء عودته إلى المنزل وفتحها على صفحة الأوراق المالية. ولم يكن يعرف شيئا عن هذه الأمور، ووجد صعوبة حتى وجد الأسهم التي أشار إليها ماكليستر ووجد أنها ارتفعت ربع كراون وقفز قلبه خشية أن يكون ماكليستر قد نسي أو أن يكون، لسبب من الأسباب، لم يشتري. فقد وعده ماكليستر أن يبرق له. ولم يستطع فيليب الانتظار حتى يأتي الترام ليعود إلى منزله. بل قفز في عربة. وكان ذلك منه إسرافا لم يفنده من قبل.

وما أن دخل المنزل حتى سأل:

- هل وصلت برقية لي؟

وأجابت ميلدريد:

- كلا...

وأطرق برأسه وغاص في كرسيه وهو يشعر بخيبة أمل مريرة.

- وعلى هذا، لم يشتري ماكليستر الأسهم! لعنة الله عليه.

ثم أضاف بعنف:

- ياله من حظ قاسٍ! لقد أمضيت اليوم كله أفكر في الأغراض التي سأنفق فيها النقود.

وسألته ميلدريد:

- وماذا كنت تنوي أن تفعل؟

- وما فائدة التفكير في ذلك الآن؟ إنني في مسيس الحاجة إلى النقود.

وضحكت ميلدريد وسلمته برقية:

- كنت أمزح معك. وقد فتحها.

وانتزعها من يديها. لقد اشترى ماكليستر مائتي سهم وخمسين سهما وباعها بربح قدره نصف جنيه للسهم الواحد كما اقترح من قبل. على أن تصل مذكرة السمسرة في اليوم التالي وغضب فيليب لحظة قصيرة من ميلدريد لمزاحها القاسي لكنه لم يعد يفكر إلا في فرحته وسعادته وصاح فيليب:

- سيكون لهذا أثر كبير بالنسبة إلي. وسأشتري لك ثوبا جديدا إذا شئت.

وأجابت ميلدريد:

- ما أشد حاجتي إليه..

وكانت مسألة النقود تحتل كل فراغ في ذهن فيليب تقريبا. واكتشف ما ينطوي عليه من كذب ذلك الذي طالما رده وهو أن باستطاعة اثنين أن يعيشا بنفس التكاليف التي يعيش بها شخص واحد.

لقد بدأت تكاليف المعيشة تزعجه. ولم تكن ميلدريد بالسيدة المدبرة، وكانت تكاليف معيشتها لا تقل عنها لو كانا يأكلان في المطاعم. وفوق هذا، فقد كانت الطفلة في حاجة إلى

ملابس، وميلدريد في حاجة إلى حذاء ومظلة، وغير ذلك من الأشياء البسيطة التي لم تكن عنها بحال. وكانت ميلدريد قد أعلنت عزمها على البحث عن عمل، ولكنها لم تتخذ خطوة في هذا السبيل ولم تلبث أن أصابها برد ألزمها الفراش مدة أسبوعين. وبعد إن شفيت إعلان أو اثنين من إعلانات طلب الوظائف، ولكنها لم تحصل على عمل، إما لأنها وصلا فشلت الوظيفة الخالية أو لأن العمل كان أشق مما تحتمل. وذات مرة وجدت فرصة، و كان أربعة عشر شلنفاي الأسبوع، وهي ترى أن هذا مبلغ بسيط جدا بالنسبة لها. وقالت ميلدريد:

- من الخطأ أن تحتقر نفسك.. فالناس لا يحترمونك إذا سمحت لنفسك أن تكون رذ

ورد عليها فيليب بجفاف:

- أظن أن أربعة عشر شلنفاي أجر سيئ.

ولم يستطع فيليب أن يمنع نفسه من التفكير في أن هذا الوضع سيفيده في نقار وبدأت ميلدريد تشير إلى أنها لا تجد مكانا في أي محل لأنها لا ترتدى ملابس محترمة لمقابلة أصحاب الأعمال. واشترى لها فيليب ثوبا وحاولت مرة أو اثنتين أن تجد لها عملا فيليب انتهى إلى أنها لم تكن جادة في البحث عن عمل ولم تكن تريد أن تعمل.

وكان الطريق الوحيد لفيليب للحصول على المال هو المضاربة في سوق الأوراق المالية متلهفا على إعادة التجربة السعيدة التي قام بها في الصيف ولكن نيران الحرب قد أ

الفرنسفال، وتعطل العمل في مناجم جنوب أفريقيا.

وعلم أن القائد «رد فرس بلر» سيزحف علي بريتويا في خلال شهر سترتفع الأثمان وليس عليه إلا أن يصبر وكل ما كان مطلوبا هو أن يكون لدى كل بريطاني مال احتياطي من ثمن الأشياء قليلا، وعندئذ يكون من المصلحة أن تشتري هذه الأسهم. وبدأ فيليب يقرأ صفحة المال في صحيفته اليومية المفضلة وأصبح وقتئذ قلقا سريع الانفعال.

وحدث أن تكلم مرة أو اثنتين مع ميلدريد. ولما كانت تنقصها الكياسة والصبر، فقد غضب وتشاجرا. وكان فيليب على الدوام يبدي أسفه لما يقوله، ولكن ميلدريد لم يكن من التسامح، فتجهمت له مدة يومين.. كانت تثير أعصابه بكل الوسائل، بطريقة أكلها، وبعدد وترتيبها، حتى لقد كانت تترك قطع الثياب مبعثرة في حجرة الجلوس.

وضاق فيليب بغياء ميلدريد. ولكنه لم يعد يكثر، ولهذا لم يكن يغضب منها إلا في النادر وخاصة أن فيليب قد اعتاد وجودها. وأتى عيد الميلاد.

ومعنى هذا أن هناك إجازة يومين لفيليب. فأحضر شجرة عيد الميلاد، وجاء ببعض وأخذ في تزيين المسكن. وفي يوم عيد الميلاد منح ميلدريد وطفلتها بعض الهدايا. ولما ك لا أكثر فإن الحاجة لم تكن تدعو إلى شراء ديك رومي، واكتفت ميلدريد بشوى دجاجة، وطوى عيد الميلاد الذي اشترته من البقال. كما اشترى فيليب زجاجة من النبيذ.

وبعد العشاء جلس فيليب في كرسية بجوار المقعد وأخذ في تدخين لفافة وقد أنساه النبيذ الذي لم يعتد شربه، قلقه من ناحية النقود، ذلك القلق الذي كان متسلطا عليه دائما وشعر بأنه سعيد وهانئ. وما لبثت ميلدريد أن دخلت عليه تقول له إن الطفلة تريد أن تحببه قبل النوم. وابتسم فيليب وذهب إلى غرفة نوم ميلدريد. ثم عاد إلى حجرة الجلوس بعد أن طلب إلى الطفلة أن تنام، وبعد أن أطفأ النور. ترك الباب مفتوحا ليسمع صراخها إذا صاحت:

وسأل ميلدريد:

- وأين تجلسين؟

- إجلس أنت مكانك في الكرسي، كما أنت، أما أنا فسأجلس على الأرض.

وعندما جلس فيليب، استقرت بجسمها أمام الموقد وانحنى على ركبته. ولم يستطع أن يغالب نفسه. فتذكر أن هذه الجلسة بعينها هي الجلسة التي كانا عليها في مسكنها في شارع فوكسهول بروج ولكن الوضع هنا قد انعكس، فقد كان هو الذي ينحني برأسه على ركبته. ألا ما كان أعظم حبه لها يومئذ، ولقد شعر الآن نحوها برأفة لم يعرفها منذ وقت طويل. ولقد بدا أنه لا يزال يشعر بيدى الطفلة الصغيرتين الناعمتين حول عنقه.

وسألها:

- هل أنت مستريحة؟

ونظرت إليه في ابتسامة بسيطة ثم هزت رأسها. وتسمرت عيناها بنار الموقد في حلم، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة. وأخيرا استدارت ميلدريد ونظرت إلى فيليب نظرة عجيبة وقالت فجأة:

- هل تدري أنك لم تقبلني مرة واحدة منذ قدمت إلى هنا.

وابتسم فيليب وقال لها:

- وهل تريدني أن أقبلك؟

- أعتقد أنك لم تعد تهتم بي من هذه الناحية.

- إنني مغرم بك.

- إن غرامك بالطفلة أكبر.

ولم يجب فيليب، ووضعت ميلدريد وجنتها على يدها. سألتها في الحال وعيناها على الأرض:

- لم تعد حانقا على الآن؟

- ولم أحق عليك...؟

- لم أهتم بك من قبل اهتمامي بك الآن، فلقد تعلمت أن أحبك منذ أن اكتويت بالنار.

وارتعش فيليب عند سماعه إياها تستخدم ذلك التعبير الذي قرأته في القصص الصغيرة التي تباع ببس واحد، والتي تلتهمها ميلدريد التهاما.

وتساءل في نفسه هل تفهم معنى ما تقول، أو لعلها لا تجد وسيلة غير تلك لتعبر بها عن شعورها الحقيقي وهي وسيلة أخذتها عن قصة «أسرة هيرالد».

- إنه لمن المضحك حقا أن تعيش معا على هذا النمط.

ولكن هذا لم يؤثر فيه، فقد كانت هي من ذلك النوع من النساء الذي لا يمكن أن يدرك أن قد لا يكون مثلها، يطغى عليه التفكير في العلاقة الجنسية. وكانت علاقتها مع الرجال قائمة على هذه الأفكار. وما كانت تفهم أن لهم نواحي أخرى للاهتمام بها غير الجنس. وكان هذا في أنها أعتقدت أن فيليب إنما كان واقعا في غرام امرأة أخرى. فراقبته واتجه شكها الممرضات في المستشفى، وإلى من يقابلهم خارجها. ولكنها توصلت، عن طريق استئصالها الماكرا إلى أنه ليس هناك أي خطر من هذه الناحية في أسرة إثلني.

وتغلبت عليها فكرة أخرى. وهي أن فيليب كغيره من طلبة الطب، لم يكن يشعر باللاتي اتصال به. فقد ارتبطن في ذهنه برائحة اليود الضئيلة. ولم يمكن فيليب يتلقى خطابات، ولا صور لفتيات بين حاجاته. فإذا كانت له صلة حب مع أية مخلوقة فقد كان بارعا جدا في ذلك. وأجاب فيليب عن أسئلة ميلدريد بكل صراحة ووضوح دون أن يشك في دوافعها إلى الإلقاء وأخيرا قالت لنفسها:

«لا يمكن أن أصدق أنه يحب أي فتاة أخرى».

وشعرت براحة لأنها في هذه الحالة، تصبح متأكدة من أنه لا زال يحبها هي.. ولكن سر نحوها حيرها أشد الحيرة. فإذا كان يعتزم أن يعاملها بهذه المعاملة، فلماذا طلب إليها إذن تأتي لتعيش معه في مسكن؟ إن هذا في رأيها تصرف غير طبيعي. لأن ميلدريد لم تكن من اللاتي يؤمن باحتمال أي يكون السبب هو دافع الرحمة أو الكرم أو الشفقة. وعلى هذا خرجت بحثها بنتيجة وهي أن فيليب شخص عجيب. وقد خطر بذهنها أن أسباب سلوكه تجاهها قد تهي للشهامة والمروءة. وكان خيالها قد اكتظ بمبالغات كتب الأدب الرخيص، فصورت لنفسها التفسيرات الخيالية لوداعته ورقته وشط بها الخيال إلى سوء فهم مرير، وهو أن يكون فيليب إلى التطهير بالنار أو الموت في ليلة عيد الميلاد قاسية البرد. وبعد أن وجدت ميلدريد أنه هناك شيء ما يغري فيليب بمشاركته نفس حجرة النوم. وعندما وجدته يتكلم معها عن بنعمة لم تسمعها منه من قبل، تأكدت فجأة أنه لا يريد لها. وأثار هذا دهشتها. تذكرت كل ما يقوله لها في الماضي وكيف كان يخبئها حبا جازفا.

وشعرت بالحقارة وبالغضب ولكنها كانت تتميز بنوع من القحة الطبيعية جعلتها تتغلب هذا الشعور.

وما كان لفيليب أن يظن أنها تحبه، لأنها لم تكن تحبه. بل فقد كانت تكرهه أحيانا، تتوق لإزالته، ولكنها لم تجد في نفسها قوة تساعد على ذلك. وعلى هذا لم تعرف الطريق لمعاملته. وأخذت تثور في وجهه. فبكت مرة أو اثنتين، وظهرت أمامه مرة أو اثنتين بمظهر اللطيف المعاشرة والظرف. ولكنها لاحظت أنه كان يعتذر إليها إذا ما أمسكت بذراعه أثناء السير ويطلب إليها ترك ذراعه وكأنه كان يزعه أن تمسكه. ولم تجد لذلك تعليلا.

وكانت الطفلة هي القوة الوحيدة التي تجعل لها سلطانا عليه فقد ازداد حبا لها.

وكانت ميلدريد تجعله يستشيط غيظا بأن تصفع الطفلة أو تدفعها عنها، ولا تعود الابتسامة القديمة الرفيعة إلى عينيه إلا عندما تقف أمامه والطفلة بين ذراعيها.

لقد كانت تفكر وهي حزينة فى هذا كله. واقتنعت أثناء غضبها، انها ستجعله يندم يوما على هذا كله، ولم تستطع ميلدريد. أن تروض نفسها على أن فيليب لم يعد يحفل بها. وقالت انها سترغمه على ذلك.

لقد تألمت كثيرا من جرحه لشعورها. ولكنها فى بعض الأحيان كانت تشعر شعورا عجيبا بأنها تشتهيه. وقد ألمها أن فيليب أصبح باردا جدا. وهذا ما أصبحت تعتقده فيه باستمرار. لقد كانت تعلم أنه يعاملها أسوأ معاملة، ولكنها لم تكن تدرى ماذا فعلت لتستحق منه هذه المعاملة. ودأبت ميلدريد على القول لنفسها بأن بقاءهما معا على هذه الحال أمر غير طبيعى. وفكرت ميلدريد فى أنه لو سارت الأمور سيرا مختلفا، وحملت منه فسيضطر إلى الزواج منها. نعم أنه إنسان مضحك، ولكنه كان مهذبا بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، ومامن أحد يستطيع أن ينكر هذا. تسلطت هذه الفكرة على تفكير ميلدريد. وصممت على أن تحدث تغييرا فى علاقتها به. إنه لم يقبلها حتى الآن وهي تريد منه أن يقبلها.

وتذكرت ميلدريد كيف اعتاد أن يعتصر شفتيها فى نهم، لقد أثارت فيها هذه الذكرى شعورا غريبا. جعلها تتطلع باستمرار إلى فم فيليب، وذات مساء فى أوائل فبراير بالذات، أخبر فيليب ميلدريد أنه سيتناول عشاءه مع لوسون الذى دعاه إلى حفلة فى مرسه الخاص احتفالا بعيد ميلاده.

أضاف فيليب أنه لن يعود إلا متأخرا.

وقد اشترى لوسون زجاجتى نبيذ من النوع المفضل عنده وعند فيليب من حانة شارع بيك. واقترحا أن يمضيا مساء حافلا بالسرور والمرح. وسألته ميلدريد هل بين المدعوين سيدات، فأجابها فيليب بأنه لن يكون معهم نساء، فلم يدع لوسون إلا الرجال، وستقصر الأمر على الجلوس والحديث التدخين.

ولم تجد ميلدريد فى هذا مجالا للتسلية. فلو أنها كانت رساما مثل لوسون لدعت إلى مثل هذه الحفلة ستا من الفتيات النماذج.

وذهبت ميلدريد إلى الفراش لكنها لم تستطع النوم، وفجأة خطرت ببالها فكرة، فنهضت وأحكمت رتاج الباب الصغير لكيلا يستطيع فيليب الدخول. وعاد فيليب حوالى ساعة الرابعة صباحا وسمعته يسخط ويلعن عندما وجد الباب مغلقا. فنهضت من فراشها وفتحت له.

وقال فيليب :

- لماذا حبست نفسك ؟ أسف جدا لأننى اضطررتك لمغادرة الفراش.

لقد تركت الباب مفتوحا عن قصد، ولست أدري كيف أغلق.

- أسرعى إلى الفراش وإلا أصابك البرد.

لم يجب ومضت فترة طويلة جدا لم يجب فيها فيليب على هذا الكلام.

وساد الصمت بينهما مرة ثانية. ولكنه تكلم أخيرا، وكأن لم تكن هناك فترة من الصمت.

- يجب ألا تحنقى على، فالإنسان لا يستطيع منع هذه الأشياء. لقد كنت أراك شريرة وقاسية لأنك تفعلين هذا الشيء أو ذاك أو أى شئ آخر. ولكن هذا كان غباء منى. إنك لم تحبينى. وكان من العبث أن ألومك على هذا. وظننت باستطاعتي أن أجعلك تحبيننى. ولكننى أعلم الآن أن ذلك كان مستحيلا ولست أعلم ما الذى يجعل الإنسان يحب الآخر. ومهما يكن الأمر، فهذا هو الشيء الوحيد الذى يجب الاهتمام به. وإذا لم يكن هذا الشيء موجودا فلا يمكن خلقه أو افتعاله عن طريق الشفقة أو السخاء أو أى شئ من هذا القبيل.

فأجابته قائلة:

- كنت أعتقد أنك لو كنت قد أحببتنى حقا لظلت على حبك لي حتى اليوم.

وكان يجب أن أعتقد ذلك أيضا.

إني لأذكر كيف كنت أظن أن حبي لك سيستمر إلى الأبد وكنت أشعر أنني أفضل الموت على البقاء بدونك.. وكنت أتوق إلى ذلك الوقت الذى تصبحين فيه ذابلة ومجعدة حتى لا يهتم بك أحد وحتى تصبحين لي وحدى.

ولم تجب ميلدريد بل نهضت فى الحال وقالت إنها ذاهبة إلى الفراش بعد أن منحته ابتسامه صغيرة تنم عن الخجل.

- إنها ليلة عيد الميلاد يا فيليب. ألا تقبلنى تقول طابت ليلتك؟

وضحك فيليب وقد احمر وجهه قليلا ثم قبلها. وذهبت ميلدريد إلى حجرتها، وبدا فيليب يقرأ. وبلغ الموقف ذروته بعد ذلك بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع. فلقد دفع سلوك فيليب ميلدريد إلى هوة من الحنق والسخط العجيب. وكانت تتنازع نفسها انفعالات كثيرة مختلفة.. واستطاعت الانتقال من حالة نفسية إلى أخرى فى سهولة ويسر. وكانت تقضى وقتا طويلا وحدها تفكر بعمق فى موقفها ولم تستطع أن تترجم كل إحساساتها إلى كلمات. بل إنها لم تكن تدرى ماهية هذه الاحساسات. ولكن كانت هناك أشياء بعينها استقرت فى ذهنها. وفكرت فيها وأعادت التفكير. فهي لم تستطع للآن أن تفهم فيليب، ولا أن تحبه لدرجة كبيرة. ولكنها كانت تسر لوجوده بجوارها، لأنها تعتقد أنه رجل مهذب. وكان من أسباب تأثيره فيها أن والده كان طبيبا وأن عمه من رجال الكنيسة. ثم إنها كانت تحتقره قليلا لأنها استطاعت خداعه، ولم تكن فى نفس الوقت تشعر أبدا براحة تامة فى وجوده. فلم تكن تستطيع أن تكون على سجيته. وكانت تشعر بأنه ينتقد أخلاقها وتصرفاتها.

وعندما أتت أول الأمر لتعيش فى مسكنه الصغير فى كينسنجتون، كانت منهوكة القوى وخجله. وكان يسرها أن تترك وحدها. وكان يريحها إنها لم تكن تدفع إيجارا، ولم تكن تضطر للخروج فى مختلف الأجواء، بل أصبح باستطاعتها أن ترقد فى الفراش إذا ما أحست بوعكة. فقد كرهت حياة الليل التي كانت تحياها. وكان مما يروعاها فيها أن تضطر إلى المودة والخضوع. لقد

كانت ميلديريد حتى اليوم تفزع وتبكي حسرة على نفسها كلما مرت بذهنها ذكرى تلك الأيام. وتذكرت ميلديريد خشونة الرجال ووحشية لغتهم معها. ولكن هذه الذكرى أصبحت نادرة الطواف بذهنها. وكانت ميلديريد عارفة بجميل فيليب في إنقاذها. وعندما تذكرت كيف كان يحبها بإخلاص، أساءت إليه، شعرت بوخز التأنيب والندم.

لقد كان من السهل عليها أن تعوضه عما فرط منها ولم يكن ذلك الأمر بذى البال عليها. ودهشت كل الدهشة عندما رفض اقتراحها. فهزت كتفها وهي تقول لنفسها دعيه، فليتظاهر ما شاء فلن أهتم وسوف يدفعه الشوق بعد قليل.

وسياتى دورى فى الرفض. ولو ظن أن تمتعه حرمانا لى فإنه سيكون مخطئا. لم تكن ميلديريد تشك الآن فى تفوقها عليه. ورغم ذلك فلم يكن هو إنسانا عاديا ولكنها كانت تعرفه حق المعرفة، فقد كان أحيانا يتشاجران، معها ويقسم أن لن يراها بعدها أبدا، ثم لا تمضى لحظة حتى يكون على ركبتيه أمامها يطلب إليها الصفح والمغفرة.

وكانت ميلديريد تشعر بهزة فرح عندما تتذكر كيف كان يتذلل أمامها. حتى لقد كان يسرها لو استلقى على الأرض لكى تمر عليه. ولقد راته يبكى.

وكانت تعرف تماما كيف تعامله، وكيف لا تهتم به، وكيف تتظاهر بأنها لم تلاحظ غضبه، وكيف تتركه فى قسوة وحيدا وهي واثقة من أنه بعد فترة قصيرة سياتى زاحفا على ركبتيه.

وضحكت ميلديريد قليلا لنفسها فى نشوة عندما فكرت أنه أتى إليها، وأكل القذارة مرة أمامها. وقد أتى دورها اليوم. إنها تعرف الكثير عن الرجال ولا تريد أن تكون لها بهم منذ الآن صلة. وكانت على استعداد تام للاستقرار مع فيليب. فهو رغم كل شيء رجل مهذب بكل معنى الكلمة. وليس هذا بالشئ القليل. وعلى أية حال لم تكن فى عجلة من أمرها، ولم تكن تريد أن تأتى الخطوة الأولى من جانبها. وكانت تسر لما تراه من مظاهر حبه الشديد لطفلتها.

وإن كان ذلك يثير غيرتها إلى درجة كبيرة. ولقد كان مضحكا حقا أن يشغل نفسه كثيرا بالعطف على ابنة رجل غيره، لقد كان فيليب عجيبا دون شك.

ولكن أمرا أو اثنين أثارا دهشة ميلديريد... لقد تعودت خضوعه لها، فقد كان فى الماضى يتمنى لو قام لها بخدمة.... واعتادت أن تراه حزينا كئيبا إذا سمع كلمة غاضبة منها. فرحانا جذلان إذا بدرت كلمة رقيقة عنها.

ولكنه تغير الآن وكانت تقول لنفسها إنه لم يتحسن خلال السنة الأخيرة. ولم يدر بخلدها لحظة احتمال وجود تغيير فى مشاعره. إن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلا، عندما يتجاهل ثورة غضبها. كان أحيانا يطلب إليها الهدوء لأنه يريد أن يقرأ. ولم تكن تدري هل تثور لذلك أو تعبس، وتبلغ بها الحيرة إلا تفعل هذا أو ذاك. وتأتى بعد ذلك المناقشة التي قال فيها إنه يعتزم أن تكون العلاقة بينهما عذرية ظاهرة. وتذكرت حادثا فى ماضيها، وخطر لها أنه كان يخشى احتمال حملها منه وأنها حاولت كثيرا أن تطمئنه.

فيليب. فلقد كانت تحاول دائما أن تبدو مهذبة وتروعها غلظة الألفاظ. ولهذا فقد أخذ فيليب من قذارة لغتها حتى أنه لم يدرك فى خلد أنه كانت تفهم الكلمات التي كانت تنطق بها وقتئذ. وسارت إليه ودفعت بوجهها إلى وجهه. لقد أعمتها العاطفة. وسال اللعاب على شفثيها خلال ثورتها الكلامية الصاخبة.

- إننى لم أهتم بك قط، ولا مرة واحدة. وكنت أهرأ منك دائما. لقد ضايقتنى، وضايقتنى بعنف. وأنا أكرهك. وما كنت لأدعك تلمس جسدى، لولا الحاجة إلى المال. لقد كنت أتقرز عندما أسمح لك أن تقبلنى. لقد ضحكنا عليك.. جريفت وأنا، ضحكنا لأنك كنت مغفلا لاتفقه!..

ثم انفجرت مرة ثانية فى قذفة بأشنع الأوصاف وأحط النعوت. وقالت عنه أنه بخيل، وقالت عنه أنه غبي، وقالت عنه أنه مغرور وأنانى. وتناولت بالسخرية اللاذعة كل ما كان فيليب يشعر بحساسية شديدة من ناحيته.. وفي النهاية استدارت ميلديريد لتخرج ولكنها ظلت ترميه فى ثورتها الهستيرية بنعوت حقيرة معيبة. ثم أمسكت بمقبض الباب ودفعته فانفتح على مصراعيه وعندها استدارت ميلديريد ثانية وقذفته بالكلمة التي كانت تعلم أنها الوحيدة التي يتألم لها. وقد أفرغت فى هذه الكلمة كل سموم حقد لها عليه وكراميتها له وكأنها كانت تقذفه بقنبلة وهي تنطق بها. قالت ميلديريد لفيليب (يا معقد).

وصحا فيليب فى يومه الثانى فزعا، فقد أدرك أنه تأخر. وعندما نظر إلى ساعته وجدها التاسعة. فقفز من فراشه وذهب إلى المطبخ، ليسخن ماء لحلاقة ذقنه. ولم يكن هناك أثر لميلديريد، وقد بقيت الأدوات التي استخدمتها فى عشائها الليلة الماضية فى مكانها عند البالوعة لم تغسل. وذهب فيليب إلى باب حجرتها وطرقة قائلا :

- استيقظى يا ميلديريد، فقد تأخر الوقت كثيرا. ولم تجب ميلديريد حتى بعد أن طرق الباب مرة ثانية طرقا أشد من الأولى. وقد ظن فيليب إنها كانت لا تزال غاضبة. وكان فى عجلة من أمره فلم يضايق نفسه بمشاكلتها، بل وضع قليلا من الماء على الموقد ليغلى، وقفز إلى الحمام الذى كان معدا من الليلة الماضية لكى تزول عنه قشعريرة البرد.

وقدر فيليب أن ميلديريد ستطهو طعام إفطاره وهو يرتدى ملابسه ثم تتركه فى حجرة الجلوس. فقد فعلت هذا مرتين أو ثلاثا عندما كانت غاضبة منه.

ولكنه لم يسمع صوتا لحركتها. وأدرك أنه إذا أراد أكلأ فعليه أن يحضره بنفسه. وقد ألمه أن تتخلي عنه فى هذا الصباح بالذات الذى استيقظ فيه متأخرا. ولم يكن هناك أى أثر لميلديريد عندما انتهى فيليب من ارتداء ملابسه ومن طعامه وأصبح على استعداد للخروج. ولكنه سمع خطواتها فى حجرتها. وما من شك فى أنها قد بدأت وقتئذ تستيقظ من نومها. وأعد فيليب لنفسه كوبا من الشاي، وقطع قطعتين من العيش والزبد، أكلها وهو يلبس حذاءه. ثم هرع ينزل الدرج وسارفى الشارع إلى الطريق الرئيسى كى يلحق بالترام. وبينما كان فيليب يتطلع إلى واجهات محال الصحف ليقرأ أخبار الحرب على اللافتات طاف بذهنه منظر ما حدث فى الليلة الماضية. فلم يسعه

بعد أن نام وهجع إلا أن يراه غريباً. وظن أن تصرفه كان سخيفاً. ولكنه لم يكن وقتئذ مسيطراً على مشاعره. فقد طغت هذه المشاعر عليه.



واشدت حفيظة فيليب على ميلدريد لأنها اضطرت به إلى هذا الوضع السخيف. كما أنه عاد وفكر من جديد وفي دهشة بالغة، في انفجارها بالأمس وما صاحبه من لغة حقيرة بذينة. وقد احتاج على الرغم منه عندما تذكر جموحها الأخير ولكنه هز كتفيه احتقاراً لها. فقد اعتاد أن يعايره أصدقائه بعاهته عندما يغضبون منه ولا يتورعون عن ذلك مطلقاً.

لقد رأى زملاء له في المستشفى يقلدون مشيته، ولم يكن ذلك يصدر منهم أمامه كما كان زملاء الدراسة يفعلون، بل عندما يظنون أنهم بمنأى عن موقع بصره. وقد عرف فيليب الآن أن هؤلاء هؤلاء لم يكونوا يقلدونه عن قسوة متعمدة. ولكن بل لأن الإنسان بطبيعته حيوان مقلد، ولأنه من أسهل الأمور على المرء أن يثير ضحك الآخرين. عرف فيليب هذا، ولكنه لم يستطع أن يروض نفسه على قبوله.

وسره أن يقبل بجد على عمله. وبدت له حجرات المرضى مبهجة وتسودها روح الود والصدقة حين يدخل بابها. وحيته كبيرة الممرضات بابتسامة عاجلة لا تزيد على ابتسامة من يضمهم عمل واحد، وقالت له :

– لقد تأخرت كثيراً يا مستر كارى.

– لقد كنت فى سهرة طويلة ليلة أمس.

– يبدو ذلك عليك.

– شكراً لك.

ومضى فيليب، ضاحكاً لفحص أول حالة. وكانت حالة طفل عنده قرحة درن، وفك فيليب أربطة الطفل فنظر هذا إليه وهو مسرور لرؤيته، ومازحه فيليب أثناء وضع الغيار التنظيف على الجرح. لقد كان فيليب يتمتع بحب جميع المرضى، فهو يعاملهم بروح مرحة، ويده رقيقة حساسة لا تؤذى أحداً منهم وقت قيامه بعمله بينما كان بعض زملائه غلاظاً إلى حد ما ومستهترين بعض الشيء فى عملهم.

وتناول فيليب غداءه فى ذلك اليوم مع زملائه فى النادى وكان غداء اقتصادياً يتكون من كعك وزبد، وقدخ من الكاكاو، وكان حديث الجميع يدور حول الحرب. وكانت هناك حاجة لذهاب الكثيرين منهم إلى الميدان، ولكن السلطات كانت حازمة ودقيقة فرفضت ذهاب كل من لم يحمل أمر تعيين بمستشفى. ولقد أشار بعضهم إلى أنه إذا طال الحرب، فإن ولاية الأمور لن يلبثوا أن يلبوا رغبة كل من كان مؤهلاً. غير أن الفكرة السائدة وقتئذ كانت هي أن الحرب لن تستمر أكثر من شهر. والآن وقد أرسل «روبرتس» إلى ميدان القتال فإن الأمور ستستقيم فى لمح البصر.

وسار فيليب الى حجرة الجلوس وأضاء المصباح الغازى، وتبعته ميلدريد وأسرعت إلى الموقد وهى تقول:

– أود تدفئة قدمي قليلاً إنهما باردتان كالثلج.

وجلس فيليب وبدأ يفك رباط حذائه وقد لمعت عيناه واحمرت وجنتاه وظنته ميلدريد ثملاً، فسألته بابتسامة:

– هل تمتعت الليلة؟

– أجل لقد قضيت وقتاً ممتعاً.

وكان فيليب فى تمام وعيه، ولكنه كان أثناء السهرة يتكلم ويضحك، ولا يزال مهتاجاً مستبشراً فقد ذكرته هذه الليلة بلياليه القديمة فى باريس، وكانت روحه المعنوية غاية فى السمو وأخرج غليونه من جيبه وبدأ يحشوه.

وسألته ميلدريد:

– أأنت تذهب إلى الفراش؟

– كلا ليس الآن، فإننى لا أشعر بميل للنوم لقد كان لوسون عظيماً الليلة. وكان يحتكر الحديث لنفسه منذ أن وطأت قدمائى مرسمه إلى اللحظة التي غادرته فيها.

– وفيم تكلمتم؟

– الله يعلم. فى كل موضوع تحت الشمس. ولو كنت هناك لرأيتنا جميعاً نتكلم بأعلى أصواتنا ولا أحد منا يستمع.

وضحك من فرط السرور عندما تذكر ما حدث وضحكت ميلدريد كذلك، لقد كانت متأكدة من أنه شرب أكثر مما يحفظ عليه توازنه. وهذا ما توقعت حدوثه لأنها تعرف الرجال حق المعرفة.

وقالت ميلدريد لفيليب:

– هل أستطيع الجلوس؟

– وقبل أن يتمكن من الإجابة استقرت فوق ركبتيه.

وقال فيليب:

– إذا لم تذهبي إلى الفراش فمن الأفضل أن تذهبي فترتدى ثوباً منزلياً.

أوه .. إننى على مايرام، كما أنا.

ثم وضعت ميلدريد يديها حول عنقه ووجهها على وجهه وقالت:

– لماذا أنت مزعج بهذا الشكل يا فيليب؟

وحاول أن ينهض ولكنها لم تمكنه من ذلك بل قالت:

– أحبك يا فيليب أشد حب.

لا تنطقى بهذا الهراء السخيف.

– إنه ليس هراء إنه الحقيقة، إننى لا أستطيع الحياة بدونك، أريدك يا فيليب.

وانتزعت فيليب نفسه من بين ذراعيها وهو يقول:

- أرجو أن تنهضى إنك بهذا تجعلين من نفسك هزأة وتجعليننى أشعر بأننى أبله معتوه.
 - أحبك يا فيليب، أريد أن أعوضك عما أصابك من أضرار بسببى ولا أستطيع العيش على هذه الحال فهذا يخالف الطبيعة البشرية.
 وانسل من الكرسي وتركها فيه وقال لها:
 - آسف جدا ولكن الوقت قد فات.
 فانهمرت الدموع من عينيها وانتحبت انتحابا يقطع نياط القلب وقالت:
 - ولماذا هذا؟ ما أشد قسوتك.
 - أعتقد أن ذلك لأننى أحببتك حبا شديدا حتى أبليت عاطفتك. إن أية فكرة من هذا النوع لتروعننى ولا أستطيع أن أنظر إلى وجهك الآن دون أن أتذكر إميل جريفت وليس فى وسع الإنسان أن يتحمل ذلك، وأعتقد أن هذا يرجع إلى الأعصاب.
 وأمسكت ميلدريد بيديه وأمطرتهما بالقبلات. وصاح فيليب:
 - إياك؟
 وغاصت فى مقعدها وهى تغمغم:
 - لا أستطيع الاستمرار كما أنا. فإما أن تحبنى وإما أن أفارقك.
 - لا تكونى بلهاء إنك لن تجدى مكانا تذهبين إليه، وتستطيعين البقاء هنا كما تشائين على أساس من التفاهم المحدد بيننا وهو أننا أصدقاء لا أكثر.
 وفجأة انتابت ميلدريد ثورة عاطفية، وضحكت ضحكة ناعمة مغرية، ثم سارت فى حركة جانبية، ولفت يدها حوله، وحاولت أن يكون صوتها خفيفا وفيه نغمة الملق.
 - لا تكن ابلة سخيفا. أعلم أنك عصيى ولكنك لا تدرى كيف أستطيع أن أكون لطيفة.
 ووضعت ميلدريد وجهها على وجهه. ومرغت وجنتها على وجنته.
 لقد كانت ابتسامتها فى نظر فيليب سخرية كريمة لا حد لها وكانت ومضة عينيها الإيجابية تملؤه فزعا. وتراجع فيليب إلى الخلف لا شعوريا ثم قال:
 - لا أستطيع..
 ولكنها لم تدعه يبتعد عنها. لقد عضت على فمه بشفتيها فأمسك بيديها وأبعدهما عن جسده فى عنف ودفعها بعيدا عنه وهو يقول:
 - إنى لأشمتز منك.
 - منى؟..
 واستندت بيدها على المدفأة، ثم نظرت إليه برهة فجأة ظهرت على وجنتيها بقعتان حمراوان. وأطلقت ميلدريد ضحكة غضب حادة وهى تقول له:
 - أنا التى أتقزز منك.
 وسكتت ثم شهقت فى حدة وانفجرت فى سيل صاخب من الشتانم وكانت تصيح بأعلى صوتها وقد نعتت فيليب بكل نقيصة وعتها حافظتها، مستخدمة أفظع الكلمات مما أثار دهشة

وكان الشيء الوحيد الذى يفكر فيه فيليب فى هذا الوقت هو إخلاء المسكن. فانتهوى
 للمالكة بذلك فى اليوم التالي. ولم يكن لديه ما يستطيع به إصلاح ما حل بأثاثه من أضرار
 الباقي لديه من المال قليلا جدا اضطره إلى أن يفكر فى استئجار مسكن أرخص. وكان يسر
 عن هذا أن يترك المسكن فقد ضايقته كثرة النفقات وستظل ذكريات ميلدريد مرتبطة به
 يستطع صبرا، ولم يعد إلى الراحة حتى قام بتنفيذ ما انتواه. وعلى هذا، استدعى، فى مساء
 التالي، متعهدا لشراء الأثاث المستعمل، إعطاءه ثلاثة جنيهات ثمنا لكل ما حطم من متاعه
 لم يحطم، وبعد ذلك بيومين انتقل إلى المنزل المقابل للمستشفى الذى كان يسكنه أولا عندما
 حياته طالب طب، وكانت صاحبة المنزل سيدة مهذبة، أستأجر منها حجرة النوم فى الطابق
 الأعلى مقابل ستة شلنات فى الأسبوع. وكانت صغيرة وغير حسنة المنظر، وتطل على فناء المنزل
 لكن فيليب لا يملك الآن سوى ملابسه، وصندوق كتب وقد سره أن يجد مسكنا بهذا الأجر القليل.
 وحدث بعد ذلك أن تأثر مصير فيليب كارى، وهو المصير الذى لا يهتم به أحد سواه، بالأحداث
 التى كانت بلاده تجتازها. لقد كان تاريخ البلاد يصنع فى تلك الأيام، وكانت الأحداث الجارية
 ذات خطر كبير، وكانت هذه العملية ذات دلالة حتى بدا من أبعد الأمور عن العقل أن تمس حياة
 طالب طب مجهول مثل فيليب.
 ولقد أذل الأمة خسرتها المعارك الواحدة تلو الأخرى. وكان ذلك ضربة قاضية لهيئة
 الأرستقراطية والأشراف الذين لم يوجهوا قبل اليوم من يعارض جديا استعلاءهم واعتقادهم أنهم
 خلقوا بطبيعتهم للغلبة والحكم.
 لقد أخذ العهد القديم ينهار وبدا تاريخ البلاد يكتب من جديد حقا. وظهرت قوة العملاق وتوالت
 الأخطاء، حتى تحولت أخيرا إلى نصر، وأنقذت بلدة ليد سميث، وفي أوائل مارس دخل لورد
 روبرتس بلوم فونتيني.
 وحدث أن تقابل فيليب وماكليستر، فى حانة شارع بيك، بعد يومين أو ثلاثة من وصول هذه
 الأنباء إلى لندن، وأنهى ماكليستر إلى فيليب، وهو جذلان أن الأمور تبشر بالخير فى سوق الأوراق
 المالية فقد اقترب يوم السلام. وهذا روبرتس سيدخل بريتوريا خلال أسابيع قليلة ونتيجة لهذا
 سيرتفع سعر الأسهم وتتصاعد بلا شك أسعار الأوراق المالية.
 وقال ماكليستر يستحث فيليب:
 - هذا وقت الشراء، فلا خير فى الانتظار حتى يشترك الجمهور فى العملية فالفرصة اليوم والا
 فلن تكون أبدا.
 وكانت لدى ماكليستر معلومات خاصة، فقد أبرق أحد مديرى المناجم فى جنوب أفريقيا إلى
 الشريك الأكبر للمؤسسة التى يعمل على رأسها، بأن المصانع لم يمسهها ضرر. وأنها ستبدأ العمل
 من جديد وبأسرع ما يمكن. فالمسألة لم تعد مسألة مضاربة مالية، ولكنها استثمار لنقود. ولكي
 يبرهن ماكليستر على حسن فهم الشريك الأكبر للأمر على النحو الجديد، أفهم فيليب أنه قد اشترى

خمسائة سهم لأخته. ولم يحدث قط أن أقحمهما فى صفقة لا يثق فى متانتها ثقته فى متانة بنك إنجلترا.

وقال ماكليستر :

— سأضع آخر بنس فى جيبي فى هذه الصفقة.

وكان الثمن يتراوح بين جنيهين إلى جنيهين وربع للسهم. وقد نصح ماكليستر فيليب ألا يكون جشعا بل يقنع بصعود عشرة شلنات. وقال ماكليستر إنه سيشتري ثلاثمائة سهم لنفسه، واقترح على فيليب أن يشتري نفس العدد من الأسهم. وتعهد بأن يحتفظ له بها إلى أن يبيعها عندما تلوح له الفرصة المناسبة. وكان فيليب يثق بماكليستر كل الثقة لسببين أولهما. أن ماكليستر اسكتلندى فهو إذن حريص بطبعه، وثانيها: أنه لم يخطئ الظن فى المرة السابقة، وعلى هذا سر فيليب من اقتراح ماكليستر وقال هذا :

— أعتقد أنه سيكون فى مقدورنا أن نبيع قبل أن ندفع باقى الثمن. فإذا لم يمكن فسأفعل على استبقائها لك للاحتفاظ بها لك.

وبدا لفيليب أن الصفقة جد رابحة. فما عليه إلا أن يستبقى الأسهم حتى يحصل على الربح دون أن يضطر إلى وضع يده فى جيبيه. وبدا فيليب يراقب أعمدة الأوراق المالية فى الصحف ويطلعها باهتمام شديد. وحدث فى اليوم التالي أن ظهر ارتفاع قليل فى السوق فى جميع الأثمان، وكتب ماكليستر يقول إن عليه أن يدفع اثنين وربعا من الجنيهات. كما قال أن السوق متماسكة. ثم حدث بعد يوم آخر أو يومين هبوط فى الأسعار، والآن لم تكن الأخبار التي وصلت من جنوب أفريقيا مطمئنة بالدرجة التي كانت عليها من قبل. ورأى فيليب بعين قلقه، أن الأسهم قد هبط ثمنها إلى مائتين جنيه. ولكن ماكليستر كان متفائلا، فلن يستطيع البوير الصمود طويلا. وكان على استعداد للرهان بأية قيمة، على أن رويتس سيدخل جوهانسبرج قبل منتصف أبريل. وكان على فيليب أن يدفع نحو أربعين جنيها تقريبا ليغطي حسابه. وقد أزعجه ذلك كثيرا، ولكنه وجد أن السبيل الوحيد هو أن يظل صامدا. رغم أن الخسارة كانت كبيرة عليه فى الظروف التي كان يجتازها. ولم يحدث شئ خلال الأسبوعين أو الثلاثة الأسابيع التالية. فإن البوير لم يقتنعوا بأنهم هزموا وأنه لم يبق أمامهم إلا التسليم، والحق انهم حصلوا على انتصار أو اثنين صغيرين. ونزلت قيمة أسهم فيليب نصف كراون آخر. وبدأ واضحا أن الحرب لم تنته. فكثرت البيع. وعندما قابل ماكليستر فيليب هذه المرة رآه متشائما.

قال ماكليستر :

— لعل خير ما نفعل فى هذه الظروف هو ألا نتمادى فى الخسارة فلقد دفعت كل ما استطعت دفعه لتغطية الفروق.

واستبد القلق بفيليب. ولم يطرق النوم جفنيه طول الليل. وتناول طعام إفطاره الذى قصره الآن على الشاى والخبز بالزبد لكي يستطيع الإبقاء على أجر الحجرة، وقراءة الصحف. وكانت الأنباء أحيانا سيئة، وأحيانا أخرى لا ترد أنباء على الإطلاق، وكانت الأسهم إذا تحركت فإلى النزول. ولم

وكانت هذه فكرة ماكليستر كذلك، فقد أفهم فيليب أن الواجب يقضى أن يرقبوا الفرصة، فيشتروا أسهما قبل إعلان السلم. فسترتفع الأسعار وقتئذ، وفى هذه الحالة يستطيعان الحصول على قدر كبير من الربح. وعهد فيليب إلى ماكليستر أن يشتري أسهما كلما لاحت له فرصة. فقد أثار رغبته فى الربح، مبلغ الثلاثين جنيها التي حصل عليها فى الصيف الماضى، وهو يريد اليوم أن يحصل على مائتين من الجنيهات.

وانتهى فيليب من عمله فى المستشفى، واستقل الترام عائدا إلى مسكنه فى كينسنجتون وتساءل ماذا عسى أن تكون معاملة ميلدريد له فى تلك الليلة. وضايقه أن يفكر فى أنها ستكون فى أغلب الظن جافة الطبع لا ترد على أسئلته.

وكانت الليلة دافئة بالنسبة لهذا الوقت من العام، وحتى شوارع جنوب لندن الكالحة كانت تعاني من الاسترخاء والكلال فى شهر فبراير، ذلك أن الطبيعة تكون عادة ثائرة فى مثل ذلك الوقت بعد شهور الشتاء الطويلة وتبدأ الكائنات الحية النامية تصحو من سباتها وتشعر الأرض بالحركة والحفيف، إيذانا بمقدم الربيع، عندما يستعيد نشاطه الدائم. وود فيليب لو استمر الترام فى السير مسافة أطول، فقد كان يكره أن يعود إلى مسكنه كما أنه كان فى حاجة إلى الهواء. ولكن رغبته فى رؤية الطفلة هزت فجأة أوتار قلبه، فابتسم لنفسه، حين تصور حبوها إليه فى غمرة من البهجة والسرور.

وكم كانت دهشة فيليب عندما وصل إلى المنزل وتطلع إلى النوافذ فى حركة إليه فلم يجد خلالها ضوءا، وصعد الدرج وطرق الباب فلم يتلق على طرقة ردا وكان من عادة ميلدريد إذا خرجت أن تترك المفتاح تحت ممسحة الباب. وقد وجده فيليب الآن فى مكانه فدخل المسكن وأشعل ثقابا عند دخوله حجرة جلوسه وأحس أن شيئا ما قد حدث، ولكنه لم يستطع معرفته بادئ ذي بدء. وفتح فيليب مصباح الغاز وأشعله، فغمر النور الحجرة فجأة وتطلع فيليب حواليه. وانطلقت من بين شفتيه شهقة. فقد كان كل ما فى الغرفة مخربا لقد حطمت ميلدريد كل شئ تماما. وتملأ الغضب من فيليب، واندفع إلى حجرة ميلدريد فرأها مظلمة وخالية فلما أضاءها وجد أنها قد أخذت كل حاجياتها وحاجيات طفلتها. وكان قد لاحظ فيليب عند دخوله أن عربة الطفلة لم تكن فى مكانها المعتاد عند المدخل. ولكنه ظن أن ميلدريد قد خرجت بالطفلة للرياضة، وكان كل ما على الحوض مكسورا. وقد مزقت ميلدريد بالسكين المقاعد الجلدية للكرسيين ذوى المساند. وشقت الوسائد وأخرجت ما بها. وأحدثت بالملاءات والأغطية الخارجية قطوعا طويلة وعرضية. وبدت المرأة وكأنها حطمت بمطرقة. وارتبك فيليب، ودخل حجرته الخاصة فوجدها فى حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب. حوض الغسيل مهشم، الإبريق محطم. والمرأة متناثرة قطعا صغيرة فى أرجاء الحجرة والأغطية ممزقة. وقد شقت ميلدريد الوسادة شقا يتسع لإدخال يدها فيه وأخرجت محتوياتها من الريش ثم بعثرت على أرض الحجرة وأغمدت سكينها فى قماش البطاطين فمزقته، وقد حطمت فى ثورة غضبها إطارات صور لأم فيليب كانت على نضد الآنية وأطاحت

بزجاجها وذهب فيليب إلى المطبخ ليجد كل ما يستطيع تحطيمه محطما، الزجاج والأوعية والصحاف والصحون.

ولهث فيليب غيظا وحنقا وضاق صدره عن التنفس. ولم تترك ميلدريد خطابا.. لا شيء إلا هذا الخراب الذي أنبأ عن ثورتها العارمة. وكان في وسعه أن يتمثل منظر وجهها المعاند وهي تقوم بعملية التحطيم والتخريب ثم عاد إلى الجلوس ونظر فيما حوالیه.

وقد أثار دهشته أن غضبه قد زال. ونظر في عجب إلى سكين المطبخ وإلى مطرقة الفحم اللتين كانتا على المنضدة حيث تركتهما ميلدريد ثم لمح سكيناً كبيرة مكسورة في بناء المدفنة. وما من شك في أن هذا التخريب قد استنفد منها وقتاً طويلاً. لقد مزقت صورته التي رسمها له لوسون. كما مزقت كل رسوماته والصور الشمسية بضربات قاسية من مطرقة الفحم. ومزقت كذلك أغطية الموائد والستائر والكرسيين ذوي المساند. لقد تحطم كل شيء تحطيماً تاماً.

وكان عند فيليب طبقان أو ثلاثة أطباق بيضاء وزرقاء اللون، ليست لهما قيمة كبيرة ولكنه قد اشتراها واحداً بعد الآخر بأثمان بخسة جداً وكان يعتز بها لارتباطها ببعض الذكريات. وقد وجدها فيليب حطاماً متناثرة في أرض الحجرة، كذلك الكتب لم تسلم من غضب ميلدريد، فقد مزقت أغلفتها تمزيقاً، وامتدت يدها إلى الكتب الفرنسية غير المغلفة فانتزعت بعض أوراقها وتناثرت أجزاء قطع الزينة التي كانت فوق بناء المدفأة بعد أن تحطمت وقصارى القول أن ميلدريد أتلفت كل ما يمكن أن يتلف بسكين أو بمطرقة..

إن كل ممتلكات فيليب لم تكن تتجاوز في قيمتها ثلاثين جنيتها، ولكن معظمها كانت له بمثابة الأصدقاء القدامى وكان فيليب مخلوقاً محباً لمنزله، يرتبط بكل ما فيه من أدوات وتحف. لأنه كانت تخصه... ولأنه كان فخوراً بمنزله الذي استطاع أن يجعل منه تحفة جميلة ممتازة بميل بسيط من المال. وتملكه اليأس فجلس وسأل نفسه كيف استطاعت ميلدريد أن تقسو هذه القسوة ثم ساوره خوف مفاجئ جعله يقفز من كرسيه ليذهب إلى الممر حيث يوجد صوان يحتفظ فيه بملابسه وفتح فيليب الصوان، وتنفس الصعداء. لقد نسيته على ما يبدو فلم تمس شيئاً مما كان به.

وعاد فيليب إلى حجرة الجلوس، وألقى نظرة فاحصة، على منظرها وعجب من أمر نفسه ولا يكن شعوره ليقوى على أن يبدأ إصلاح هذا الفساد. وفوق هذا فليس في البيت طعام وهو جائع فخرج من المنزل واشترى لنفسه ما يأكله. وعندما عاد وجد أنه أهدا من ذى قبل، كما أنه أحس بوخز عندما طاف بذهنه منظر الطفلة الصغيرة. ثم فكر في أنها قد تفتقده في أول الأمر ولكنها ستنساه بعد أسبوع. وقد حمد الله على أنه تخلص منها. ولم يشعر وهو يذكرها بثورة غضب عليها ولكنه كان يشعر بإحساس طاغ من الضيق من وجودها.

وقال لنفسه في صوت مرتفع :

«أتمنى على الله ألا أرى وجهها ثانية أبداً»...

وصمت فيليب لحظة كان يجمع فيها شتات أفكاره ثم قال :

- هل تعنى أن تقول إنها لم تعد تساوى شيئاً بالمرّة.

- كلا. لست أقول هذا فهي تساوى شيئاً بالطبع ولكنك ترى أنه ليس هناك من يريد شراء الآن.

- إذن يجب أن تبيعها بأى مبلغ يمكنك الحصول عليه.

وتطلع ماكاليستر إلى فيليب متفحصاً إياه خشية أن يكون قد أساء إليه إساءة بالغة ثم قال :

- آسف جداً، يا صديقي العزيز. ولكننا جميعاً في ذلك سواء. فما كان أحد يظن أن الحر سيطول أمدها بهذا الشكل. لقد أوقعتك في مأزق ولكنني أنا نفسي واقع فيه.

وقال فيليب :

- لا بأس فكل إنسان وحظه.

وعاد فيليب إلى المنضدة التي نهض منها ليتحدث مع ماكاليستر، وقد عقد الصمت لسانه، ورأسه يدور بعنف فجأة. ولكنه لم يرد أن يجعل هايوارد وماكليستر يشكان في قوة احتمال

واستمر معهما زهاء الساعة يضحك محموماً من كل ما يقولانه، وأخيراً نهض يريد الخروج.

وقال ماكاليستر وهو يشد على يده :

- لقد أخذت الأمر بهدوء عجيب ولا أظن إنساناً يتقبل خسارة مبلغ يتراوح بين المائتى جنبت بهذا الهدوء.

وعندما عاد فيليب إلى خجرتة الصغيرة الحقيرة ألقى بنفسه على فراشه واستسلم لليأس :

أخذ يؤنب نفسه في مرارة على غفلته، ومع أنه أقنع نفسه بعدم جدوى التائب والأسف على

حدث لأن هذا الذى حدث كان لا مفر منه بدليل أنه حدث فعلاً، فإنه لم يستطع أن يكتم عواطفه

ولاح له أنه أتعس إنسان في الوجود ولم يستطع النوم وأخذ يستعرض في ذهنه كل النواحي التي أضاع فيها ماله خلال السنوات القليلة الأخيرة. وأحس بصداًع شديد.

وجاء إليه في البريد الأخير في المساء اليوم التالي كشف حسابه. وقام بفحص البيان فوج

أنه بعد أن يدفع كل ما عليه تبقى له سبعة جنيهات. سبعة جنيهات لا غير وحمد الله أنه استط

أن يوفي بديونه، فقد كان يروعه أن يعترف لماكليستر أنه لا يملك مالا، فقد كان يعمل في قس

أمراض العيون في الصيف الماضى وقد اشترى منظار فحص من طالب ولم يدفع له الثمن

وأعوزته الشجاعة التي يقول بها للطالب أنه قد تراجع عن الصفقة كما أنه كان في حاجة إلى

بعض الكتب. فلم يتبق معه بعد ذلك سوى خمسة جنيهات، عاش عليها أسابيع ستة، وبعدها ك

إلى عمه القس خطاباً كخطابات رجال الأعمال، قال فيه إن الحرب قد أصابته بخسارة جسيم

وأنه لن يستطيع مواصلة الدراسة ما لم يبادر عمه إلى مساعدته واقترح أن يقوم القس بإقراض

مائة جنيه وخمسين جنيتها خلال الأشهر الثمانية عشرة التالية علي أن يدفعها على أقساط شهري

ويتعهد فيليب بأداء فائدة عليها، وأن يرد رأس المال تدريجياً عندما يصبح قادراً على الكسب

فبعد عام ونصف عام على الأكثر سينال درجته العلمية، ولا شك مطلقاً أنه سيحصل علم

وظيفة مساعد تدر عليه ثلاثة جنيهاً أسبوعياً، ورد عليه عمه قائلاً أنه لا يستطيع عمل شيء له وأنه ليس من العدل أن يطلب إليه بيع شيء والكساد سائد وأنه يرى من واجبه نحو نفسه أن يحتفظ بالقليل الذي يملكه، لينتفع به في حالة مرضه. وختم العم رسالته بموعظة صغيرة جاء فيها أنه حذر فيليب المرة بعد المرة، ولكن فيليب لم يلق بالآ إلى تحذيره وأنه لم يدهشه ما وصل إليه حاله فقد توقع من زمن طويل أن تكون هذه نهاية إسرافه وعدم اتزان. وصعق فيليب عندما أتم قراءة الرسالة. ذلك أنه لم يخطر قط في بال فيليب أن عمه سيرفض مساعدته فاستشاط غضباً، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يعيش في فراغ تام فما دام عمه لن يساعده فلن يكون باستطاعته أن يستمر في المستشفى، وتملكه الروع فتخلّى عن كبريائه، وكتب مرة أخرى إلى عمه يشرح له الأمر، شرحاً أوفى من ذي قبل. ولكن لعله لم يستطع أن يشرح ظروفه لعمه كما ينبغي أو أن عمه لم يدرك ما كان فيه من عسر شديد لأنه أجاب علي رسالته بأنه لن يغير من رأيه الأول، وقال إنه أصبح في الخامسة والعشرين وعليه أن يكسب عيشه بنفسه، ومضى يقول إنه بعد حين سيرث فيليب القليل عنه، ولكنه اليوم، يرفض أن يمده ببس واحد حتى يحين ذلك الوقت واشتم فيليب من ثناء رسالة عمه روح الرضا والافتناع من رجل ظل السنين الطوال غير راض عن سلوكه، وقد حانت له الفرصة ليبرر موقفه.

وبدأ فيليب يهرن ملابسه، وخفض من مصروفاته بأن وطن نفسه على الاكتفاء بأكلة واحدة إلى جانب الإفطار. وكانت تقتصر على الخبز والزبد والكاكاو يأكلها في الساعة الرابعة ليظل مفعولها سارياً معه حتى صباح اليوم التالي. وكان الجوع بعضه في نحو الساعة التاسعة مساءً فيسرع بالذهاب إلى الفراش.

وقد خطرت له فكرة الاقتراض من «لوسون» ولكن خوفه من رفضه أرجعه عنها. وأخيراً اضطر لسؤاله أن يقرضه خمسة جنيهاً فأقرضه لوسون إياها عن طيب خاطر ولكنه قال له وهو يعطيه إياها :

— سترجعها خلال أسبوع أو أكثر قليلاً. أليس كذلك ؟ لأنني مضطر أن أدفع حساب صانع الإطارات وأنا مفلس الآن أشد الإفلاس.

وكان فيليب يعلم أنه يستطيع رد المبلغ في موعده، وقد شعر بالخجل من نفسه عندما فكر فيما سيظنه لوسون إذا علم بالحقيقة فأعاد له نقوده لم تمس بعد مضي يومين اثنين.. وكان لوسون في طريقه لتناول طعام الغداء وطلب إلى فيليب أن يرافقه. وكان من أصعب الأشياء على فيليب أن يأكل، وقد سره أن حصل على أكلة دسمة. كان فيليب واثقاً من الحصول على غذاء طيب يوم الاحد عند آل إثلنى. وقد تردد في أخبار هذه الأسرة بما حدث له، فقد كانوا ينظرون إليه على أنه رجل غنى إلى حد ما. وخشى أن يقل قدره في نظرهم إذا علموا أنه مفلس.

ومع فيليب كان دائماً فقيراً إلا أن احتمال عدم حصوله على طعام كاف لم يخطر قط بباليه فلم يحدث أن هذا لمن كان يعيش بينهم. وعلى هذا فقد كان يشعر بخجل كما لو كان مصاباً بمرض خبيث. وكان الموقف الذي وجد نفسه فيه خارجاً عن نطاق تجاربه. وأخذ فيليب يفكر، ولم

يدر فيليب ما يفعل، فلو أنه باع أسهمه الآن لخسر حوالي ثلاثمائة وخمسين جنيهاً. ومعنى هذا أن يتبقى له ثمانية جنيهاً لا غير يعيش عليها، وتمنى من كل قلبه لو أنه لم يكن مغفلاً يجرفه تيار المضاربة في سوق الأوراق المالية ولكنه لم يكن لديه من وسيلة إلا الاستمسك بأوراقه. فقد يحدث أمر حاسم يوماً ما، فترتفع السوق. ولم يعد فيليب يأمل الآن في الربح بل كل أمله هو تعويض الخسارة.

لقد كانت هذه فرصته الوحيدة لإتمام دراسته بالمستشفى. ذلك أن الفصل الدراسي الصيفي يبدأ في مايو، وكانت نهايته تعنى دخوله الامتحان في علم القبالة «التوليد» وعندئذ تصبح أمامه سنة دراسية واحدة لا أكثر. لقد قدر فيليب التكاليف بدقة ووصل إلى أن باستطاعته أن يدبر الأمر، من مصاريف مدرسته وغيرها في حدود مائة وخمسين جنيهاً، وهذا أقل مبلغ يستطيع به أن يوفي طلباته.

وذهب فيليب، في أوائل شهر أبريل، إلى حانه شارع بيك نعله يرى ماكليستر، فقد كان مما يريح نفسه بعض الشيء أن يناقش معه الموقف، وأن يعلم أن هناك كثيرين غيره يقاسون ما يقاسيه هو من الخسارة فإن هذا كان يخفف قليلاً جداً من آلامه، ويعينه بعض الشيء على احتمالها. ولكن فيليب لم يجد بالحانة حين أقبل غير هايوارد وما أن جلس حتى بادره هايوارد قائلاً :

— سأبحر إلى مدينة الرأس يوم الأحد..

وصاح فيليب عن عجب :

— أحق هذا ؟

فقد كان هايوارد آخر شخص يتوقع منه أن يقوم بعمل من هذا النوع. أما المستشفى فقد كان الناس يغادرونه أفواجا بعد أن أعلنت الحكومة أنه يسرها الحصول على المؤهلين، وقد كتب غيرها ممن ذهبوا إلى الميدان جنوداً يقولون إنهم الحقوا بالعمل في المستشفيات حينما علم ولاية الأمور أنهم كانوا طلبة طب. وجرف تيار الشعور الوطني جميع المواطنين، وتدفق المتطوعون من جميع طبقات المجتمع.

وسأل فيليب هايوارد :

— وماذا سيكون عملك ؟

— سأعمل، في كتيبة دورست للفلاحين.

وكان فيليب يعرف هايوارد من ثمانى سنوات. لقد تلاشت من زمن علاقة الشباب الوطيدة التي كان أساسها إعجاب فيليب الحماسي بالشخص الذي كان يحدثه عن الفن والأدب، وحلت العادة محلها. وكان هايوارد لا يزال يتحدث إلى فيليب عن الكتب في تقدير رفيع ولكن فيليب لم يعد يتمتع بفضيلة الصبر، فقد كان أحياناً يضيق بحديث هايوارد، ولم يعد يعتقد جازماً أنه ليس في العالم كله شيء جليل سوى الفن، وكره احتقار هايوارد للعمل والنجاح. وتذكر فيليب وقد تحركت فيه ذكريات الماضي، صداقته المبكرة لهايوارد، وما كان يتوقعه له من القيام بجلال

الأعمال. لقد مضى وقت طويل منذ طرد فيليب كل هذه الأوهام، وعرف الآن أن هايوارد لا يستطيع إلا الكلام، ووجد كذلك أن جنيهااته الثلاثمائة في العام لا تكفي لكي يعيش في حدودها الآن بعد أن أصبح في الخامسة والثلاثين، وأن ملابسه، وإن كانت قد صنعت بيد حائك ماهر، قد بليت إلى حد بعد أن طال لبسها وقتا أطول مما كان يظنه مستطاعا لها في سالف الأيام.

وكان بيدنا ولم يفلح أى تسريح منه لشعره الأشقر في أن يخفي أنه أصلع وأصبحت عيناه الزرقاوان مكتنبتين شاحبتين، وجملة القول أنه لم يكن من الصعب أن يتبين الإنسان أنه يدمن الشراب.

- وما الذى جعلك، تفكر في السفر إلى مدينة الرأس.

- لا أدري، وإنما اعتقدت أنني يجب أن أسافر.

وظل فيليب صامتا وشعر بأنه سخي نوعا ثم أدرك أنه مدفوع إلى هذا العمل بشئ من القلق النفساني لا يدري له سببا. كأن قوة داخلية قد أوحى إليه بأن عليه أن يذهب ويحارب من أجل وطنه. وكان هذا غريبا منه فلم يكن هايوارد يرى الوطنية إلا إنها نزعة لا أساس لها من الحقيقة. ولم يكن دائم الفخر بالوطنية هذه، ويرى أن انجلترا منفي له، وأن مواطنيه جعلتهم يجرحون إحساسه، وعجب فيليب كيف يأتى الناس أفعالا تناقض نظرياتهم في الحياة. وكان الأخرى بهايوارد أن يقف بعيدا ويرقب البرابرة يقتل بعضهم بعضا، والابتسام على شفثيه، لكنه قد خيل إليه أن الناس في هذا العالم دمي تحركها قوى خفية، وتدفعها إلى فعل هذا الشئ أو ذاك. فهم تراهم في بعض الأحيان يستخدمون عقولهم ليبرروا أعمالهم، وإذا ما أصبح ذلك مستحيلا قاموا بالعمل رغم مخالفته لعقولهم.

وقال فيليب لهايوارد :

- عجيب جدا أمر الناس. ما كنت أتوقع أن تذهب إلى الحرب.

وابتسم هايوارد وقد ارتبك قليلا ولم يتكلم وأخيرا قال :

- لقد فحصت طبيا بالأمس. وكان خليقا بالإنسان أن يفحص ليعلم أنه صالح كل الصلاحية للعمل الذى هو مقدم عليه. ولاحظ فيليب أنه قد حشرفى كلامه لفظة فرنسية يستطيع أن يستعمل بدلها كلمة إنجليزية. ولكن قابل ماكليستر الذي قال له: إن الذين معهم أسهما لا يرغبون في الاحتفاظ بهذه الأسهم بعد الآن والسوق في حالة مخيفة. وهم يريدونك أن تتسلمها.

وذعر فيليب من هذا النبأ فقد كان يدرك أن هذا مستحيل، والأمر معناه أن عليه أن يتقبل الخسارة ودفعه كبرياؤه إلى أن يجب في هدوء.

«لست أدري هل يهمنى هذا، وخير لك أن تبيعها».

- جميل جدا أن تقول ذلك، ولكنى لا أجزم أن ذلك باستطاعتي، فالسوق راكدة، وليس هناك مشترين.

- ولكن سعرها محدد في سوق الأوراق المالية بجنيه ونصف.

- خفا ولكن هذا لا يعنى شيئا. فإنك لا تستطيع الحصول على هذا الثمن لو بيعتها.

يدر ماذا يفعل غير الاستمرار في المستشفى، وكان يراوده بعض الأمل الغامض في أن يحدث ما يغير الموقف. ولم يكن يصدق أن ما يحدث له الآن حقيقة، وتذكر، كيف كان، خلال الفصل الدراسي الأول في المدرسة يظن حياته حلما سيصحو منه ليجد نفسه مرة أخرى في موطنه الأصلي. ولكن سرعان ما أدرك أنه لن يمضى أسبوع أو نحوه حتى يكون قد فقد كل ما معه من النقود وأن عليه أن يبحث في الحال عن عمل يقتات منه. ولو أنه كان قد حصل على درجته، لذهب إلى مستعمرة الرأس رغم عاهته، لأن الطلب شديد على الأطباء هناك في تلك الناحية. كان بوسعه لولا عاهته أن يتطوع في إحدى فرق الخيالة التي كان أفرادها يسافرون باستمرار. وذهب فيليب إلى أمين مدرسة الطب وطلب إليه أن يسمح له بتدريب بعض الطلبة الضعفاء في دراستهم، ولكن الأمين خيب أمله في الحصول على شئ من هذا القبيل. وأخذ يقرأ أعمدة الإعلانات في المجلة الطبية. وتقدم بطلب للالتحاق بوظيفة مساعد غير مؤهل لصاحب صيدلية في شارع فولهام. وذهب فيليب لمقابلته، ورأى الرجل ينظر إلى رجله المريضة. وعندما سمع أن فيليب لا يزال في السنة الرابعة في المستشفى قال في الحال أن خبرته غير كافية. وأدرك فيليب أن ذلك كان مجرد اعتذار عن عدم قبوله. فالرجل لا يريد مساعدا لا يكون له النشاط الذى يرتجيه. وحول فيليب اتجاهه إلى نواح أخرى للكسب. فقد كان يعرف الفرنسية والألمانية، وأعتقد أن في مقدوره أن يعمل كاتب مراسلات. وقد ألمته هذه الفكرة ولكنه كظم غيظه لأنه لم يجد أمامه سبيلا غيرها. ومع أنه كان حبيسا لا يستطيع الرد على الإعلانات التي تتطلب الحضور شخصيا، فقد كان يرد على الذين يطلبون الرد كتابة. ولكنه كانت تنقصه الخبرة في الكتابة ولم تكن لديه توصيات وكان يدرك أن ألمانيته أو فرنسيته تنقصها الاصطلاحات التجارية. ولم يكن يعرف الاختزال أو الكتابة على الآلة الكاتبة، ولم يسعه إلا الاعتقاد بأن حالته ميئوس منها. وفكر في الكتابة إلى المحامى الذى كان المنفذ لوصية والده ولكنه لم يستطع حمل نفسه على ذلك، لأن بيع فيليب للرهنيات التي كانت نقوده مستغلة فيها، كان ضد نصيحة المحامى وقد علم من عمه أن مستر نيكسون لم يكن راضيا عنه. وأنه أدرك أن السنة التي قضاها فيليب في مكتب المحاسب قد أكدت له أنه كسول وغير كفء.

وغمغم فيليب لنفسه :

- خير لى أن أموت جوعا...

ومرة أو اثنتين راودت فيليب فكرة الانتحار. وقد كان من السهل عليه استحضار بعض السموم من صيدلية المستشفى. وشعر بالراحة عندما فكر في أنه إذا وقع المحذور وسارت الأمور إلى أقصى حد في السوء فإن لديه الوسائل الكفيلة بجعل نهايته خالية من الألم. ولكنه لم يكن جادافى هذا الاتجاه. فعندما تركته ميلدريد لتذهب مع جريفت ألمه ذلك ألما شديدا فكر معه أن يموت ليتخلص منه ولكنه لا يشعر الآن بمثل ما كان يشعر به وقتذاك، بل كانت رغبته تنحصر في أن يتحدث إلى أى إنسان بما يقلقه. ولكنه لم يجد في نفسه القدرة على الاعتراف بمتاعبه، فقد غلبه الحياء وصمم على أن يبحث عن عمل. ولم يدفع إيجار الحجرة ثلاثة أسابيع موهما صاحبة المنزل أن نقودا ستصله في نهاية الشهر. ولم تقل السيدة شيئا بل رمت شفثيها وعبست، وعند نهاية الشهر

سألته السيدة هل يستطيع أن يدفع شيئا على الحساب، حزفى نفسه أن يجيب بالنفي. ولكنه أفهمها أنه سيكتب إلى عمه، وأنه واثق من أنه سيستطيع أن يسد الحساب يوم السبت التالي: وقالت المالكة :

- أرجو أن تستطيع أن تدفع فى هذا الموعد يامستر كارى لأن على أن أودى الإيجار ولا أستطيع أن تظل الحسابات غير موفاة.

- ولم تكن تتكلم فى غضب بل فى عزم وتصميم يخيفان. وصمتت لحظة ثم قالت :

- وإذا لم تدفع يوم السبت القادم، فسأشكوك إلى أمين المستشفى.

- أجل هذا حسن.

وتطلعت إليه قليلا ثم جالت بنظرها فى أرجاء الحجرة العارية. وعندما تكلمت كان كلامها خاليا من التأكيد كما لو كان ما تقوله شيئا طبيعيا.

- عندى فخذة لحم طيبة حارة فى الطابق الأسفل فإذا شئت النزول معى إلى المطبخ فإبنى أرحب بتناولك شيئا من طعام الغذاء معى.

وشعر فيليب بالاحمرار يعلوه من رأسه إلى أخمص قدميه، وشعر بغصة فى حلقه قال بعدها :

- شكرا كثيرا يامسز هيمنجز، ولكنى لست جائعا.

- كما تشاء يا سيدى.

وما أن غادرت الحجرة حتى ألقى فيليب بنفسه على الفراش. وكان يجمع قبضته لكى يمنع نفسه من الصراخ.

وأقبل يوم السبت.. وهو اليوم الذى وعد بأداء الإيجار لصاحبة المنزل وقد ظل طوال الأسبوع يتوقع حدوث ما يغير الموقف. لكنه لم يجد عملا. ولم يكن قبل اليوم قد وصل إلى هذه النهاية وطاش عقله فلم يدر ماذا يفعل. وكان يحس إحساسا غامضا لا شعوريا بأن هذا كله لا يعدو أن يكون مزاحا غير مقبول عقلا ولم يعد يملك إلا بعض قطع النقود النحاسية بعد أن باع كل الملابس التي كان يستطيع الاستغناء عنها، وما زال عنده بعض الكتب وقليل من الأشياء التي يمكنه أن يحصل منها على شئ أو اثنين. ولكن صاحبة المسكن كانت ترقب روحاته وجيئاته. وكان يخشى أن تمنعه من أن يخرج أى شئ آخر من حجرته. ولم يكن أمامه إلا أن يخبرها أنه لن يستطيع أداء الإيجار إليها. ولكنه لم يجدفى نفسه الشجاعة لذلك.



وانتصف شهر يونيو. وكانت ليلة جميلة دافئة واعتزم فيليب أن يقضيها خارج المسكن. وظل يسير على شاطئ تشلزي فقد كان النهر وادعا هادئا، حتى أدرك فيليب التعب. فجلس على مقعد

وراح فى سبات عميق. ولم يدر فيليب كم من الزمن ظل نائما، ثم استيقظ فيليب فزعا فقد حلم بأن أحد رجال الشرطة كان يهزه ويأمره بمغادرة المكان، ولكنه وجد نفسه وحيدا عندما استيقظ. وسارفى طريقه وهو لا يدرى السبب حتى وصل أخيرا إلى شيزويك حيث نام مرة ثانية ولكنه ما لبث أن أيقظته صلابة المقعد. وبدأ له الليلة طويلة جدا. وأخذ يرتعد فقد تملكه شعور بالتعاسة، ولم يدر ماذا فعل، وشعر بالخجل لنومه على شاطئ النهر فقد كان هذا إذلالا شديدا له. وشعر أن وجنتيه قد امتلأتا بالدم فى الظلام. واستعاد فيليب فى ذهنه القصص التي سمعها من قبل عن أولئك الذين كانوا فى مثل حالته، وكيف كان من بينهم الظباط ورجال الدين وخريجو الجامعات وتساءل هل سيكون مصيره مثل مصيرهم، فيقف فى الصف ليحصل على بعض الحساء من إحدى الجمعيات الخيرية. إنه يفضل الانتحار على ذلك. وهو لا يستطيع الاستمرار كما هو. إن لوسون سيساعده إذا علم بما هو فيه من ضيق، ومن السخف أن يقف كبرياؤه حائلا بينه وبين الحصول على مساعدة منه. وعجب من حاله كيف أصبح فاشلا إلى هذا الحد لقد كان من عادته دائما أن يحاول عمل ما يعتقد أنه خير، ولكن الأمور كانت تسير دائما على عكس ما كان يشتهي. لقد ساعد الناس عندما كان قادرا على مساعدتهم، ولم يعتقد أنه كان يوما ما أكثر من غيره أنانية وحب الذات. فمن الظلم البين إذن أن ينزل إلى هذا الدرك من الإذلال.

وفكر فيليب فى عمه الذى أخبره فى خطابه بأنه إن مات سترك له القليل الذى يملكه ولم يكن يعرف قط مقدار ما يملك هذا العم. ولكنه على أى حال لا يمكن أن يزيد على بضعة مئات من الجنيهات. وتساءل هل بوسعه أن يحصل على نقود بضمان هذا المال الذى سيعود إليه. ولكنه علم أن هذا غير ميسور بغير موافقة العم وهو لن يحصل على هذه الموافقة. وقال فيليب لنفسه :

- إن الشئ الوحيد الذى يمكن عمله هو أن أعيش بطريقة ما حتى يموت الرجل.

واستمر حاله على هذا النحو أياما، لا يتناول فيها إلا أقل الطعام حتى ساءت حالته، وبدأ يشعر بالضعف والمرض. حتى لم يعد يجد من القوة والنشاط ما يمكنه من البحث عن عمل وقد أصبح الحصول عليه من الصعوبة بمكان واعتاد الانتظار الطويل خلف أحد المحال التجارية فى انتظار فرصة منحه عملا، أو الرفض الجاف وطرق كل أجزاء لندن لتلبية للإعلانات، حتى لقد أصبح يعرف جميع من كانوا على شاكلته يقدمون الطلبات دون ثمرة. وحاول واحد أو اثنين من هؤلاء التعساء أن يعقد أواصر صداقة معه ولكنه كان متعبا جدا وبائسا جدا لا يستطيع قبول هذه الصداقات. ولم يذهب مرة أخرى إلى لوسون لأنه كان مدينا له بخمسة شلنات. وبدأ يحس أنه قد طاش عقله فلا يستطيع التفكير جديا ولم يعد يهتم قط بما سيحدث له. وبكى كثيرا. وغضب أول الأمر واستحي من نفسه لهذا الضعف ولكنه وجد فى البكاء عزاء وتنفسا، بل لقد جعله البكاء لسبب ما أقل شعورا بالجوع. وكان فيليب يقاسي من قشعريرة البرد فى الصباح الباكر وذات ليلة ذهب إلى حجرته ليغير ملابس الداخلية بعد أن اطمأن إلى أن كل من فى المنزل مستغرق فى النوم انسلك إلى فراشه فى الثالثة صباحا ثم غادره الخامسة ونام فى الفراش وكانت نعومته ساحرة وكانت عظامه كلها تؤلمه وأحس وهو فى الفراش بلذة غامرة. فقد كان هذا الفراش ممتعا إلى حد لو كان

يشعر معه برغبة فى النوم وقد بدأ يعتاد قلة الطعام. ولم يعد يشعر بالجوع الشديد بل كل ما يشعر به هو الضعف. كان الخاطر الذى يراوده دون أن يشعر به هو التخلص من حياته ولكنه استخدم كل ما يملك من قوة لكي يبعده عن ذهنه، فقد كان يخشى أن يملكه أغراؤه فلا يستطيع أن ينقذ نفسه منه. واستمر يقول لنفسه أنه لمن السخف أن ينتحر إذ لابد أن يحدث شئ بعد قليل. ولم يستطع أن يقاوم اعتقاده بأن موقفه غير مقبول عقلا فلا يمكن أن يؤخذ على مأخذ الجد فقد كان فى نظره أشبه بمرض يرغم صاحبه على تحمله ولكنه لابد له أن يشفى منه. وكان يقسم كل ليلة أن لا شئ سوف يغريه بالاستمرار على هذه الحال، فكان يصمم على أن يكتب فى الصباح لعمه أولمستر نيكسون فإذا أصبح الصباح حتى أحجم عن إذلال نفسه بالاعتراف بفشله التام. ولم يكن يدرى على أى وجه يفسر موقفه للوسون فقد كان لوسون فى عهد صداقتهما شخصا مستهترا. وكان فيليب يزهو عليه بالتعقل وحسن التصرف. ووجد فيليب أنه سيضطر إلى سرد التاريخ الكامل لتصرفه الاحمق، وخامرة شعور قاسى بأن لوسون بعد أن يساعده، سيدبر له ظهره أما عمه والمحامى فأنهما دون شك سيقومان بعمل ما من أجله، ولكنه يخشى تأنيبهما، وهو لا يريد أن يؤنبه أحد وصر فيليب على أسنانه وكرر قوله لنفسه أن ماحدث كان لابد من حدوثه. فالأسف على ما حدث عمل سخيف. وبدأت الأيام طوالا لانهاية لها. وتاق فيليب إلى مجئ يوم الأحد حتى يذهب إلى آل أثلنى ولم يدر ما الذى منعه من الذهاب إليه قبل ذلك اليوم. اللهم إلا إذا كان السبب رغبته الكاملة فى أن يتغلب على الموقف بوسائله الخاصة. فأثلنى كان الشخص الوحيد الذى نظر فيليب الذى يستطيع الآن أن يعمل شيئا من أجله. ومع ما يعرفه هذا عن حالة الضيق واليأس التى يعيش فيها الرجل وأسرته. وظن فيليب أن باستطاعته أن يتحمل على نفسه بعد العشاء ويخبر أثلنى بما هو فيه من كرب. وأخذ يعيد على نفسه مرارا كثيرة، الكلمات التى سيقولها للرجل. وكان فى نفس الوقت يخشى أن يرده أثلنى خائبا بعبارات جوفاء وقد روعه هذا وود لو يؤخر ما أمكنه التأخير وضع نفسه فى هذا المأزق، لقد فقد فيليب كل ثقته بأصحابه.

وكانت ليلة السبت باردة وقد عانى فيليب كثيرا إذ لم يكن قد تناول طعاما من منتصف يوم السبت إلى أن جر نفسه فى ضعف إلى منزل أثلنى. لقد أنفق آخر بنسين كانا معه فى صبيحة يوم الأحد فى مقابل غسل جسمه وتسريح شعره فى مغسل عند محطة تشاريخ كروس.

وما أن ضغط فيليب جرس الباب حتى أطل رأس من النافذة. وسرعان ما سمع وقع أقدام عاليا على الدرج هو صوت أقدام الأطفال يتسابقون لفتحه له. وانحنى فيليب بوجهه الشاحب، القلق، الناحل ليقبل الأطفال. وقد تأثر بعاطفتهم الفياضة تأثرا بلغ من شدته أن أخذ ينتحل الأعذار للتلكو فى صعود الدرج لكي يكتسب وقتا يهدئ فيه عواطفه، لقد كان حاله هستيرية وكان أقل انفعال كاف لإبكانه وسأل الأطفال فيليب عن سبب عدم حضوره لزياراتهم يوم الأحد الماضى وأجابهم بأنه كان مريضا وأرادوا أن يعرفوا نوع مرضه فأراد أن يرفه عنهم وذكر لهم علة غامضة ذات اسم بربرى مزدوج. هو خليط من اللغتين اليونانية واللاتينية. وما أن سمعوا هذا الاسم حتى صاحوا فى ابتهاج وسحبوا فيليب إلى البهو وطلبوا إليه أن يعيد الاسم كى يعرفه أبوه

ونهض أثلنى وصافح فيليب وحملق فيه وكان أثلنى يبدو دائما محملا بعينيه الدائرتين المنبعجتين. ولم يدر فيليب السبب الذى جعله فى هذه المرة بالذات يهتم بهذه الحملقة. قال أثلنى :

— لقد افتقدناك يوم الأحد الماضى.

وما كان فيليب يستطيع أن يكذب دون أن يظهر عليه الارتباك والحيرة وقد اصطبغ وجهه باللون القرمزى عندما انتهى من شرح أسباب عدم زيارته لهم فى الأسبوع الماضى.

ثم دخلت مسز أثلنى وصافحت فيليب وقالت :

— أرجو أن تكون أحسن حالا. يامستر كارى.

ولم يدر فيليب لماذا تصورت مسز أثلنى أن شيئا حدث له، فالمطبخ كان مغلقا عندما صعد الدرج مع الأطفال. وهم لم يتركوه منذ ذلك الوقت.

ثم قالت فى بطء شديد كعادتها :

— لن يكون العشاء جاهزا قبل عشر دقائق أخرى. فهل أضرب لك بيضة فى كوب من اللبن خلال فترة الانتظار ؟

وكانت تلوح على وجه السيدة دلائل القلق مما شعر معه فيليب بشئ من عدم الارتياح. ولكنه اغتصب ابتسامة وأجاب بأنه ليس جائعا قط. ودخلت سالى لتعد المائدة، وبدأ فيليب يمازحها، وكانت فرحة الأسرة تعنى أن سالى سترث السمنة من عمه لوالدتها تدعى العممة إلى صابات. لم يرها الأطفال أبدا ولكنهم يرونها المثل الأعلى للسمنة الفاحشة.

وبدأها فيليب قائلا :

— ماذا حدث منذ رأيك آخر مرة ياسالى ؟

— لا شئ فيما أعلم.

— أعتقد أنك تزاددين وزنا.

— وأنا متأكدة من أنك على النقيض. لقد أصبحت هيكلا عظميا.

واحمر وجه فيليب :

وصاح أبوها :

— ما هذا ياسالى؟ سأوقع عليك غرامة قدرها عشرة من شعرك الذهبى.. اذهبى يا جين واخضرى المقص.

فاعترضت سالى قائلة :

— إنه نحيل يا أبى إنه جلد على عظم ولا شئ غير هذا.

وليست هذه المشكلة يا طفلى فله مطلق الحرية فى أن يكون نحिला ولكن سمنتك هى التى تتنافى والحشمة.

وكان الأب يتكلم وقد أحاط خصر ابنته بذرعة فى فخر. ثم نظر إليها بعينى إعجاب وقالت سالى :

- دعنى أنتهى من عملى فى إعداد المائدة يا أبى فلو أننى أرحت نفسى فسيكون هناك من لا يهتم بها.

فصاح أثلنى وقد لوح بيده فى حركة تمثيلية :

- الوقحة ! إنها تعيرنى بالحقيقة المؤسفة المعروفة وهى أن يوسف ابن ليفى الذى يبيع المجوهرات فى هلبورن قد تقدم لخطبتها.

وسألها فيليب :

وهل وافقت يا سالى؟

- ألا تعرف، حتى الآن، إن أبى خيرا من هذا ؟ لا توجد كلمة صدق واحدة فيما قال..

وصاح أثلنى قائلا :

- إذا لم يكن قد عرض عليك الزواج فبحق سانت جورج وبحق إنجلترا المرحمة سأسمكه من أرنية أنفه وأسأله أن يجبنى فى الحال عما يعتزمه.

- اجلس يا أبى، فالعشاء جاهز. والآن، اذهبوا أيها الأطفال فاغسلوا أيديكم جميعا ولا تحاولوا النصب والاحتيال فسانظر إلى أيديكم قبل أن تمتد إلى الطعام هلموا..

وكان فيليب يعتقد أنه سيكون لهما كالوحش الكاسر، حتى بدأ يأكل.. ثم اكتشف أن معدته عازفة عن الطعام. ولم يكد يجد شهية له. لقد كان عقله متعبا، ولم يلاحظ أن أثلنى كان قليل الكلام على غير عادته وشعر فيليب بالهدوء لوجوده فى منزل مريح ولكنه كان بين الفينة والفينة لا يملك نفسه من التطلع من النافذة. كان اليوم عاصفا. وقد انتهى الجو اللطيف فأصبح البرد قارسا والرياح صرصر عاتيه. وصكت الزجاج ضربات هطول المطر. من حين إلى حين ولم يكن فيليب يدرى ماذا يستطيع أن يفعل فى تلك الليلة فمن عادة آل أثلنى أن يأووا إلى فراشهم فى وقت مبكر. وهو لا يستطيع أن يبقى حيث هو بعد العاشرة وغاص قلبه عندما فكر فى خروجه فى هذا الليل إليهم. وبدت له المشكلة وهو بين أصدقائه أكثر رهبة منها حين كان وحده خارج المنزل. واستمر يقول لنفسه أن كثيرين غيره يقضون ليلهم فى الخلاء، وقد جاهد كثيرا ليصرف ذهنه عن التفكير فى هذا الموضوع بالكلام ولكن كل قذيفة من المطر على زجاج النافذة أثناء كلامه كانت كافية لإشاعة الفزع فى نفسه.

وقال أثلنى :

- إن هذا الجو شبيه بجو مارس. وليس من الأيام التى يحسن فيها عبور القناة.. وسرعان ما انتهوا من العشاء، ودخلت سالى لرفع المائدة.

وسأل أثلنى فيليب وهو يمد إليه يده بلفافة كبيرة :

- هل لك فى لفافة رخيصة ؟

وأخذها فيليب ودخلها بابتهاج، لقد هدأته هدوءا كثيرا. وعندما أنتهت سالى، أمرها أبوها بإغلاق الباب بعد خروجها ثم قال لفيليب :

- والآن، لن يكون هنا ما يزعجنا، فقد اتفقت مع بتي ألا تدخل الأطفال هنا حتى أدعوهم.

ونظر إليه فيليب نظره فزع، ولكن أثلنى ثبت منظاره فوق أنفه، بإيماء اعتادها قبل أن يفهم فيليب معنى كلماته، واستمر يقول :

- لقد كتبت إليك يوم الاحد الماضى أسالك ماذا بك. ولما لم ترد ذهبت إلى مسكنك يوم الأربعاء.

وأدار فيليب رأسه ولم يجب. وخفق قلبه بشدة ولم ينبس أثلنى ببنت شفة وسرعان ما بدا الصمت غير محتمل لفيليب. ولم يسعفه تفكيره بكلمة واحدة يستطيع النطق بها.

- لقد أخبرتنى صاحبة المسكن أنك لم تطأه منذ ليلة السبت، كما أبلغتني أنك مدين لها بأجر الشهر الماضى، فأين كنت تنام طيلة هذا الأسبوع؟

وأخذ من فيليب الألم كل مأخذ وهو يرد على هذا السؤال. ولكنه قال وهو يحملق خارج النافذة

- لم يكن لى مكان أنام فيه..

- لقد حاولت العثور عليك.

- لماذا؟

- لقد كنت أنا وبتي مفلسين تماما مثلك ولكن عندنا أطفال نرعاهم.. فلماذا لم تأت إلى هنا؟ - لم أستطع..

وخشي فيليب أن يقلت منه زمام نفسه فيبكى بصوت عال. وشعر بضعف شديد فأغمض عينيه وعبس، وحاول ضبط أعصابه. وانتابته نوبة غضب مفاجئة من أثلنى لأنه لم يدعه لنفسه. ولكنه كان محطما. ولم تمض لحظات، وعيناه ما زالتا منخفضتين حتى بدأ يقص على أثلنى قصة ما لاقاه خلال الأسابيع القليلة الماضية، وكان يتكلم فى ببطء لى يحافظ على اتزان صوته. وبدأ له وهو يتكلم أنه قد تصرف تصرفا أحق وزاد هذا الاعتقاد من عدم قدرته على الكلام.

لقد شعر بأن أثلنى سيظن أنه أحق لا يعى.

وما أن فرغ فيليب من حديثه حتى بادره أثلنى قائلا :

- ستقيم معنا حتى تجد لنفسك عملا.

واحمر وجه فيليب ولم يدر السبب :

- إنه لكرم عظيم منك، ولكننى لا أظن أننى مستطيع ذلك.

- ولم لا ؟

ولم يجب فيليب. لقد رفض العرض خشية أن يكون فى إقامته مضايقة للأسرة يضاف إلى ذلك أن ما فى طبيعته من حياء كان يجعله على الدوام يرفض قبول أفضال الناس عليه. لقد كان فيليب يعلم أن آل أثلنى يعيشون على الكفاف وأن كثرة عددهم لا تترك متسعا فى المكان أو المال لاستضافة غريب..

وقال أثلنى :

- ستأتي طبعاً هنا. وسينام ثورب مع أحد أشقائه لاحتل أنت فراشه. ولا تظن أن طعامك سيكلفنا زيادة في الإنفاق.

وخشي فيليب أن يتكلم، واتجه أثلنى إلى الباب ونادى زوجته. وما أن قدمت حتى قال:
- بتي سيقم مستر كاري معنا.

قالت بتي:

- هذا حسن، سأذهب لأعد له الفراش.

وكانت بتي تتكلم بنغمة حبيبة صادرة من القلب. ليس فيها شيء من التكلف وكان لها أبلغ الأثر في نفس فيليب. فما كان يتوقع رحمة من البشر. فلما وجدها دهش لها وتأثر منها. ولم يستطع أن يحبس دمعين كبيرتين من السقوط على وجنتيه.

وإذ أثلنى وزوجته يناقشان الترتيبات اللازمة لإقامة فيليب متظاهرين بعدم ملاحظة ما وصلت إليه حالة فيليب من الضعف. وما أن غادرتهما مسر إثلنى حتى استلقى فيليب فى كرسيه وضحك قليلاً وهو يتطلع من النافذة ثم قال:

- ليست هذه بالليلة التي يمكن أن يقضيها الإنسان فى الخارج، أليس كذلك؟ وقال أثلنى لفيليب أن من السهل لا عليه أن يجد له عملاً فى مؤسسة الأقمشة القطنية الكبيرة التي يعمل هو بها بعد أن ذهب كثيرون من المساعدين بها بعد الحرب وقد وعدهم أصحاب المؤسسة بدافع من الغيرة الوطنية، أن يحتفظ لهم بوظائفهم حتى يعودوا. وقد وقع عبء عمل هؤلاء الأبطال على الباقيين. ولم ترفع الأجور تبعاً لذلك بل استغلت المؤسسة الروح الوطنية فى القيام بعملية اقتصادية. ولكن الحرب استمرت تتأثر بها التجارة إلا قليلاً. وأصبحت الإجازات على الأبواب وسيقوم عدد من موظفي المؤسسة بعطلاتهم فى نفس الوقت مدة أسبوعين، فلا بد إذن من استخدام مساعدين جدد للقيام بالعمل. وكانت تجارب فيليب قد جعلته يشك فى. إنهم سيقبلونه فى المؤسسة حتى فى هذه حال ولكن أثلنى تظاهر بأنه شخص ذو مكانة فى المؤسسة وأن المدير لا يرد له طلباً، وقال أن فيليب بما لديه من التدريب الذى حصل عليه أيام أن كان فى باريس سيكون شخصاً عظيم النفس فما عليه إلا أن ينتظر وقتاً قصيراً يستطيع بعده أن يحصل على عمل ذى مرتب مناسب، وكان يصمم أزياء أو يرسم إعلانات، وقد رسم فيليب إعلاناً عن ملصقة لأزياء الصيف أخذه إثلنى، ثم عاد بعد يومين ليعلن أن المدير أعجب به كثيراً ولكنه أبدى أسفه من كل قلبه، بعدم وجود وظيفة خالية وقتئذ فى هذا القسم وسأله فيليب أليس هناك عمل آخر، يستطيع أن يقوم به:

- أخشى أن أقول أنه لا يوجد..

- أمتأكد أنت؟

فقال إثلنى وهو ينظر إليه فى شك من خلال منظاره:

- الحقيقة أنهم سيعلنون عن وظيفة بائع جائل.

- هل تظن أن هناك أملاً فى الحصول عليها؟

وارتبك إثلنى قليلاً. فهو قد جعل فيليب يتوقع أنه سيجد عملاً أعظم شأنًا من هذا، ثم هو من ناحية أخرى أفقر من أن يستطيع الاستمرار فى إمداده إلى الأبد بالمأكل والمساكن فقال له:

- تستطيع أن تشغلها مؤقتاً حتى تعثر على خير منها. وإن يمكنك وأنت تعمل أن تجد دائماً فرصة أحسن.

وابتسم فيليب وقال:

- لست متكبراً، كما تعلم..

- إذا ما قررت هذا فإن عليك أن تكون هناك فى الربع قبل التاسعة من الصباح غد.

لقد كان من الواضح أن الحصول على عمل أمر من الصعوبة بمكان رغم قيام الحرب، فقد كان فيليب عند ذهابه إلى المحل كثيراً من الناس منتظرين. وقد عرف من بينهم بعض من التقى به

من قبل أثناء بحثه. ووجد من بينهم واحداً كان قد شاهده مستلقياً بعد ظهر اليوم السابق وكان من إليه وجوده أنه مشرد مثله يقضى لياليه فى الخلاء. وكان المنتظرون من مختلف الأعمار والأوصاف فمنهم المسن والشاب، والطويل والقصير، ولكن كل واحد منهم كان يحاول أن يظهر

بمظهر الرشاقة استعداداً لمقابلة المدير. وقد صنف كل منهم شعره بعناية واهتم بنظافته وارتدى

وانتظر الجميع فى ممر، عرف فيليب فيما بعد أنه يؤدى إلى قاعة الطعام ثم إلى غرفة المدير. ويقطع هذا الممر خمس درجات أو ست درجات كل بضع ياردات. ومع أن المحل كان مليئاً بالكهرباء فإن هذا الممر كان مضاء بالغاز، وكان يعلو مصابيح حواجز سلكية لوقايتهم من

تحدث وهى مضاءة صوتاً عالياً. وكان فيليب قد وصل فى الموعد المقرر. ولكنه لم يستطع أن يدخل إلا قبل العاشرة بقليل. وكان مكتب المدير ذا أركان ثلاثة كأنه قطعة من الجبن. وهو مليء

جنبها. وكان على الجدران صور لسيدات فى تصفيات وإعلانات كبيرة أحدهما لرجل، والآخر لـ «بيجاما» ذات خطوط حمراء وبيضاء كبيرة والثانية لمركب يمزج عباب البحر، وكان مكتب

شراعه بخط كبير «مزداد اختياري عظيم» وكان أوسع جانب للمكتب هو الذى يقوم به الواجهات التي كانت مغطاة فى ذلك الوقت بينما كان عامل يتمشى جيئةً وذهاباً على

وكان لون شاربه أسود، وكانت تتدلى من منتصف سلسة ساعته حزمة من ميداليات

وكان يجلس وعليه قميص، والاكمام امام مكتب كبير على جانبه آلة تليفون واليوم، التي قام بعملها إثلنى وكذلك قصاصات الصحف كلها ملصقة على

المدير إلى فيليب، ولكنه لم يقل كلمة. قام أملى رسالة على كاتبه وهى فتاة نحيلة منضدة صغيرة فى أحد الأركان وسأل فيليب بعدئذ عن اسمه وعمره والتجارب التي

يتحدث ولكنه أهل لندن فى صوت رنان مرتفع، بدا وكأنه لا يستطيع دائماً التذكر فيليب أن أسنان المدير العليا كبيرة وبارزة. وتوحى أنها غير ثابت وأن من السهل

حادة.

وقال فيليب:

- أظن أن مستر إثلنى تحدث معكم عنى.

- أنت الشخص الذى رسم هذا الإعلان الكبير ؟

- أجل ياسيدى..

- إنك لاتصلح لنا.. لاتصلح بتاتا..

ونظر إلى فيليب من رأسه إلى قدمه. ويبدو أنه لاحظ أن فيليب يختلف بعض الشئ غمن سيقوه.

- يجب أن ترتدى حلة سوداء رسمية. أعتقد أن ليس عندك واحد منها ويبدو أنك شاب محترم

وأظن أنك وجدت أن الفن لا يقيم الأود.

ولم يستطع فيليب أن يعرف هل يعنى أنه قد سيستخدمه أم لا ، فقد كان يلقي عليه الأسئلة بطريقة عدائية.

- وأين موطنك الأصلي ؟

- توفي والداى ، وأنا طفل صغير.

- أود أن أمنح الشبان فرصة. وقد منحناها للكثيرين حتى أصبح منهم الآن مديرون للأقسام

وكلهم معترف بفضلى. وأنا أشهد لهم بذلك ، وهم يدركون ماذا فعلت لهم. أبدا من أول السلم فهذا

خير الطرق لفهم العمل. فإذا تمسكت بعملك بعد ذلك فليس من أحد يدري ماذا تصبح في المستقبل

، ومتى أحسنت العمل فإنك ستجد نفسك يوما من الأيام في مركز كالذى أشغله الآن.. ضع هذا

نصب عينيك أيها الشاب.

وأجاب فيليب :

- إنى شغوف بأن أبذل جهدى يا سيدى.

وقد عرف فيليب أن من واجبه أن يضيف إلى قوله كلما استطاع كلمة سيدى مع أنها كانت

غريبة على سمعه وكان يخشى أن يفرط في استعمالها وكان المدير يحب كثرة الكلام فقد كان

ذلك يشعره بعظمته وبأهميته. ولهذا فإنه لم يعلن فيليب قراره إلا بعد أن ألقى خطبة طويلة.

وأخيرا قال المدير لفيليب في عظمة :

- أستطيع القول بأنك مقبول ومهما يكن من شئ فلا مانع عندى من أن أجربك.

- أشكرك شكرا عظيما يا سيدى

- تستطيع البدء في الحال وسأعطيك ستة ثلثات في الأسبوع ، مع نفقات الأكل والسكن. فكل

ما تريده موجود كما والثلثات الستة للمصروفات الخاصة تفعل بها ما تشاء. وسيكون الدفع

شهريا بدأ عملك يوم الاثنين المقبل وأعتقد أنه لن يكون لديك أى سبب للشكوى من ذلك.

- لا يا سيدى

- شارع هارنجتون ، أتعرف أين هو ؟ طريق شافيتسبرى. ستنام هناك في رقم ١٠ تستطيع أن

تنام هناك ليلة الأحد لو شئت أو ترسل حقائبك إليه يوم الاثنين.

- وهز المدير رأسه قائلا :

- عمت صباحا..

وقد أقرضت مس أثلى فيليب نقودا ليدفع لصاحبة المسكن مبلغا يكفي لأن يجعلها تسمح له

بأخذ متاعه واستطاع أن يحصل على حلة سوداء مناسبة مقابل دفع خمسة ثلثات ورهن حلة

من حله كما تمكن من فك رهن بقية ملابسه. وأرسل حقيبته مع حوذى النقل بترش إلى شارع

هارنجتون وفي صبيحة يوم الاثنين. ذهب إلى المحل برفقة أثلى وقدمه هذا إلي رئيس قسم

الملابس الجاهزة وتركه.

وكان هذا الرجل لطيفا كثير الحركة في حوالى الثلاثين من عمره يدعى سامبسون. وصافح

الرجل فيليب وأراد أن يظهر له مقدار كماله وتهذيبه وكان دائم الفخر بهما ، وسأله هل يعرف

الفرنسية ، وكم كانت دهشته عندما أجابه فيليب بأنه يعرفها.

- وأى لغة أخرى ؟

- أتكلم الألمانية.

فقال له :

- إنى أذهب إلى باريس من حين إلى حين هل زرت حانة مكسيم ؟

وعين لفيليب مكانه على رأس السلم في قسم الملابس الجاهزة. وكان عمله إرشاد العملاء إلى

مختلف الاقسام ، ، وما كان أكثر هؤلاء لأن مستر سامبسون كان يستهويهم بزلاقة لسانه. وقد

لاحظ سامبسون كما لاحظ الكثيرون أن فيليب يعرج في مشيته.

وسأله سامبسون :

- ما بال رجلك ؟

- إنها عرجاء ، ولكنها لا تمنعني من المشي أو ما شاكلة.

ونظر إليها سامبسون في شك ، واستنتج فيليب أنه يعجب كيف عينه المدير رغم عاهته. وكان

فيليب يعرف أن المدير لم يلاحظ فيه نقصا.

واستدار سامبسون وحاول فيليب أن يتذكر أين هذا القسم أو ذاك ، وراقب باهتمام عميلا يسأل

عن معلومات. وقد سر فيليب لعودته إلى القسم المخصص له. وبدأ فيليب يذكر أين يوجد كل قسم.

وقل سؤاله لغيره المساعدين إذا ما سأل عميل عن الطريق إلي أى قسم. فكان يقول مثلا :

الأولى إلى اليمين.. الثانى على اليسار ، يا سيدى..

وما أن انتهى فيليب من عمله اليومي في السادسة والنصف حتى كان خائر القوى. وقد تطوع

هاريس جاره على المائدة بأن يصاحبه إلى الشارع هارنجتون ليريه أين ينام. وأفهمه أن بحجته

فراشا خاليا وأن الغرف الأخرى مشغولة كلها فإنه يظن أن سيكون مكانه معدا في حجرته. وكان بيت

شارع هارنجتون من قبل ذلك مملوكا لصانع أحذية وقد استعمل حانوته حجرة نوم. ولكنها كانت

حالكة الظلام. فقد غطى ثلاثة أرباع النافذة بالالواح الخشبية. ولم يكن من المستطاع أن تفتح. وكانت

التهوية الوحيدة تأتى من كوة عليا في الطرف البعيد من الحجرة. وكانت رائحة الغرفة تزكم الأنوف

ولهذا فإن فيليب حمد الله على أنه لن ينام فيها. وأخذ هاريس إلى حجرة الجلوس في الطابق الاول

ورأى فيها معزفا قديما تشبه لوحة مفاتيحه صفا من السنان النخرة. وعلى المنضدة صندوق لغافات

تبغ كبيرة من غير غطاء وبداخله مجموعة من أحجار الدومينو وعلى المنضدة كذلك أعداد من مجلتي ستراند وجرافيك. أما بقية الغرف فكانت تستخدم للنوم. وكانت حجرة نوم فيليب في الطابق الأعلى من المنزل وهي تضم ستة سرر بجانب كل منها حقيبة أو صندوق. ولا يوجد بها من الأثاث إلا صوان ذو أدراج أربعة كبيرة واثنين صغيرين ، وإن كان فيليب ضيفا جديدا على الحجرة فقد أخذ أحد الأدراج الصغيرة. وكان لكل من الأدراج مفتاحه ولكن تشابهها جعلها غير ذى قيمة كبيرة. وقد نصحه هاريس أن يضع أشياءه الثمينة في حقيبتة. وفوق بناء المدفنة وضعت مرآة. وأرشد هاريس فيليب إلى مكان الغسيل ، وهو حجرة متسعة نوعا تضم ثمانية أحواض في صف واحد يستخدمها للغسيل جميع الساكنين. وتتصل هذه الحجرة بحجرة أخرى بها حمامان ، وحال لونهما ولطخ الصابون أخشابهما. وذهب فيليب لينام وصحا في السابعة على صلصلة جرس وفي الثامنة إلا ربعا انتهى الجميع من ارتداء ملابسهم وهرعوا إلى الطابق الأسفل بجواربهم ليبحثوا عن أحذيتهم وقد ربطوها في أثناء جريهم إلى المحل في شارع اكسفورد، حيث يتناولون طعام الإفطار ، وهم يعلمون أنهم إذا تأخروا عن الثامنة فلن يجدوا فطورا ، ولم يكن في وسعهم متى بدأوا العمل أن يحضروا لأنفسهم شيئا يطعمونه ، وكانوا في بعض الأحيان إذا ما وجدوا أنهم يستطيعون دخول البناء في الموعد المحدد ، يتوقفون عند محل صغير بجانب حيهم ليشتروا قطعتين من الفطير ، ولكن هذا كان يكلفهم بعض المال ، ولهذا فكثيرا ما كانوا يعملون دون فطور حتى وقت الظهر ، وأكل فيليب خبزا وزبدا وشرب كوبا من الشاي وفي الثامنة والنصف بدأ عمله اليومي من جديد. الأول:

ثم بدأ يجيب علي الأسئلة التي توجه إليه. وكان العمل مملا ومتعبا وما انقضت أيام على وجوده في العمل حتى شعر بألم في قدميه لا يكاد يستطيع معه الوقوف. وأثر فيهما البساط اللين الكثيف وكأنهما كانتا تحترقان وأصبح يتألم عندما ينزع عنهما الجورب ليلا. وكانت هذه شكوى عامه.. وقد أخبره زملاؤه في العمل أن الجوارب والأحذية تتغفن من العرق المستمر. وكان كل من في حجرته يقاسون نفس الألم ، ويحاولون التخلص منه بإخراج أقدامهم من الغطاء عند النوم. ولم يستطع فيليب ، أول الأمر أن يمشي واضطر أن يقضي كثيرا من أمسياته في حجرة الجلوس بشارع هارتجتون وهو يضع قدميه في دلو مملوء بالماء البارد.

وكانت أجور العمال تؤدي شهريا من أمين المؤسسة. وكانت كل طائفة من المساعدين تذهب يوم استلام الأجور ، بعد تناول الشاي ، إلى الممر لتقف في الصف الطويل ينتظرون في نظام كما يفعل جمهور النظارة خارج أبواب المسارح ثم يدخلون المكتب واحدا في أثر الآخر. وكان الأمين يجلس أمام منضدة عليها أوعية خشبية بها النقود ، ويسأل العمال عن اسمه ، ويرجع إلى دفتر أمامه ويلقى نظرة شط سريعة على الموظف ثم ينطق بقيمة ما يستحق بصوت عال ثم يأخذ النقود من الوعاء وبعدها في يده يقول :

- شكرا.. بعده !

وتكون الإجابة «شكرا».

ووجد فيليب أن الباقي له أجر الشهر هو ثمانية عشر شلنا، وكانت أول نقود يكتسبها في حياته. ولم تشعره هذه النقود بما كان يتوقعة من فخر بل أثارت فيه شعورا بالفزع. وقد أكدت له ضالة المبلغ حقارة عمله. وحمل خمسة عشر شلنا إلى مسن إثلنى وفاء لبعض ما عليه، ولكنها لم تقبل منه الا نصف جنيه فقال لها :

- هل تعلمين أنى بهذه النسبة ، سأظل شهورا ثمانية حتى أوفي بقيمة ما اقترضته.. فأجابته قائلة :

- ما دام إثلنى يعمل فإننى أستطيع الانتظار ، ومن يدري لعلمهم يمنحونك علاوة.

وقد حاول فيليب أول الأمر أن يستمر على الاطلاع في كتب الطب لكيلا ينسى ما تعلمه ، ولكنه وجد أخيرا أن هذا عبث لا فائدة منه. فلم يكن يستطيع تركيز انتباهه فيما يقرأ بعد ذلك المجهود المضني الذي يبذله في عمله اليومي المرهق ، وقد بدا أنه لا فائدة من الاستمرار في العمل ، مادام لا يدري متى يستطيع العودة إلى المستشفى ، وكان يحلم دائما بأنه في عتابر المرضي ، وكان استيقاظه من النوم مؤلما له. وكان الإحساس المنبعث من وجود عمال آخرين نائمين معه في الحجرة مزعجا له ، ذلك أنه كان قد اعتاد العزلة ، وكان وجودة دائما مع غيره ، وعدم انفراده لحظة بنفسه مرعبا في ذلك الوقت. وكانت هذه هي الساعات التي صعب عليه منها أن يقاوم يأسسه. ورأى نفسه منساق في هذه الحياة ، «إلى اليمين.. إلى اليسار يا سيدى».. إلى ما لانهاية له وعليه أن يحمده الله على بقائه فيها فسيعود الرجال الذين ذهبوا إلى الحرب ، ولما كانت المؤسسة قد ضمنت لهم عودتهم إلى أعمالهم فإن هذه سيعنى الاستغناء عن حل محلهم. وعليه إذن أن يبذل للاحتفاظ بهذه الوظيفة الحقيرة التي حصل عليها. ولم يكن ينجيه منها إلا شئ واحد هو موت عمه. ذلك أنه سيحصل بهذا على بضع من الجنيهاات يستطيع بها أن يتم دراسته في المستشفى. وبدأ فيليب يتمنى بكل قلبه ، أن يموت هذا الرجل المسن. وأخذ يحسب في ذهنه كم سنة يتحمل أن يعيشها الرجل لقد جاوز السبعين. ومع أن فيليب لم يكن يعلم سنه بالضبط فإنه لا بد أن يكون في الخامسة والسبعين على أقل تقدير وهو يشكو من نزلة شعبية مزمنة تسبب سعالا حادا كل شتاء. ورغم أن فيليب كان يحفظ أعراضها عن ظهر قلب ، فقد أخذ يقرأ في كتاب الطب المقرر ، التفاصيل الخاصة بالنزلة الشعبية إذا أصابت كبار السن. إن شتاء قاسي البرد قد يكون خطرا على حياة الرجل العجوز. وتمنى من كل قلبه أن يشتد البرد والمطر. وظل على هذا التفكير حتى أصبح ناحية من نواحي الجنون. كان العم وليم يتأثر أيضا بالحرارة الشديدة ، وقد مرت به في شهر أغسطس ثلاثة أسابيع من الجو الحار الخانق. وتصور بعيني خياله أنه سيتلقى يوما برقية تقول بأن القس قد مات فجأة. وتخيل نفسه وقد تخلص من همومه وكان وهو واقف على رأس السلم يرشد الناس إلى حيث يريدون ، يشغل ذهنه بالتفكير في إنفاق الأموال التي سيرثها ، إنه لا يعرف مقدارها بالضبط. قد لا تزيد على خمسمائة جنيه ولكنها حتى إذا كانت كذلك تكفيه فإذا حدث هذا فسيترك المحل على الفور ولن يهتم بالأخطار عن تركه للعمل بل يحزم صندوقه ويرحل دون أن يبادل أحد كلمة.. ثم يعود إلى المستشفى ، وسيكون هذا أول عمل يقوم به. ترى هل

نسي الكثير من معلوماته ؟ إن في استطاعته أن يسترجع كل شيء فيما لا يزيد على ستة شهور ، وعندئذ يدخل الامتحانات الثلاثة بأسرع ما يمكن ، القابلة أولا ثم الطب وبعدئذ الجراحة. وقد تملك فيليب الخوف من أن يترك عمه ، رغم وعوده كل ما يملك للأبروشيه أو الكنيسة. وقد أزعجته هذه الفكرة. وقال في نفسه أن عمه لن يكون بهذه القسوة. أما إذا وقع المحذور ، فقد قرر ما ينتوي عمله.. إنه لن يستمر في عمله هذا إلى الأبد ! لقد كانت حياته محتملة لمجرد أنه يتوقع شيئا أحسن. فإذا ما فقد الأمل فلن يخشى شيئا وسيكون الدليل الوحيد على شجاعته هو الانتحار. وعندما تعمق في بحث هذه الفكرة ، حدد بدقة العقار غير المؤلم الذي يستطيع أخذه ، وكيف يحصل عليه وكان مما شجعه على ذلك أنه إذا تخرجت الأمور واستعصي حلها فسيجد منها مخرجا على كل حال.

«الثاني إلى اليمين يا سيدتي ، ثم أنزلي الدرج ، الأول على اليسار ثم رأسا الإمام تقدم من فضلك يامستر فيلبس».

وكان فيليب يتحاشى ورود الأماكن التي كان يعرفها في أسعد أيامه ولقد أنفرط عقد الاجتماعات الصغيرة التي كانت تحدث في حانة شارع بيك. فلم يعد ماركليستر يذهب إلى هناك، بعد أن غرر بأصدقائه. أما هايوارد فكان في مدينة الرأس. ولم يبق إلا لوسون وحده ولم يرغب فيليب في رؤيته بعد شعوره بأنه لم يبق ما يربطه بالمرسم، ولكن حدث في أحد أيام السبت، بعد الغذاء وكان قد بدل ملابسه وسار في شارع ريجنت أن تقابل فجأة مع لوسون وجها لوجه وكان فيليب في طريقه إلى المكتبة الحرة في شارع سان مارتن ليقضي فيها بعض الوقت.. وكانت الفكرة الأولى التي طافت بذهنه أن يمر به دون كلام ولكن لوسون لم يتح له هذه الفرصة فقد يادره بقوله:

— ألا تأتي إلى المرسم لتحدث؟

وقال فيليب:

— كلا.

— ولم لا؟

— ليس ثمة ما نتحدث فيه.

ورأى فيليب ألما يجول في عيني لوسون ولكنه لم يكن يسعه إلا أن يعلل ما فعل، فقد كان عليه أن يفكر في نفسه ولم يكن يحتمل مجرد التفكير في مناقشة موقفه أنه لم يكن يستطيع أن يحتل هذا الموقف إلا في حالة واحدة هي الإصرار على ألا يفكر فيه. كان يخشى أن يضعف إذا ما بدأ يكشف عن خبيثة نفسه وفوق هذا، فقد كان يكره الأماكن التي ذاق فيها مرارة البؤس وتذكر ما تحمله من إذلال وتحقير عندما كان ينتظر في ذلك المرسم وهو يتلوى من الجوع حتى يقدم له لوسون وجبة غداء. وتذكر المرة الأخيرة التي أخذ فيها منه خمسة شلنات لقد كره منظر لوسون لأنه أعاد إلى ذهنه ذكرى تلك الفترة أيام المهانة التامة.

— اسمع يا فيليب.. تعال إلى لتعيشي معا ليلة من الليالي واختر الليلة التي توافقك.

وتأثر فيليب من كرم الرسام فإن الناس على مختلف أنواعهم كرماء معه كرما يسرعني النظر وقال:

— ذلك كرم منك يا صديقي القديم، ولكني لا أستطيع.

ثم رفع يده قائلا:

— وداعا..

وضاق لوسون بهذا التصرف الذي لم يدر له سببا، ولكنه صافحه وسار فيليب في طريقه وهو يعرج في عجلة. وهو مثقل القلب وشرع كعادته يؤنب نفسه على ما فعل. ولم يذكر كيف جعله جنون الكبرياء يرفض الصداقة المعروضة عليه ولكنه سمع وقع أقدام تجرى خلفه، وسرعان ما كان صوت لوسون يناديه. ووقف عن المسير وتملكه العداء نحو لوسون فجأة ونظر إليه نظرة نتور ثم سأله :

— ماذا تريد ؟

— أعتقد أنك سمعت عن هايوارد أليس كذلك ؟

— أعرف أنه رحل إلى المدينة الرأس.

— لقد مات بمجرّد وصوله إلى هناك.

وصمت فيليب لحظة ولم يحر جوابا ، ولم يصدق أذنيه.

وسأل :

— أوه. مرض معوى. إلا ما أسوا حظله ، أليس كذلك ؟ ظننت أنك لا تعلم. ولقد ذهلت عندما سمعت الخبر.

وأطرق لوسون بسرعة ثم سار في طريقه، وشعر فيليب بقشعريرة تسرى في قلبه. ذلك أنه لم يفقد من قبل صديقا من نفس سنه، ومن أجل ذلك أحدث له هذا الخبر صدمة شديدة غير عادية وذكره بأن الموت مصيره. ذلك أنه وإن كان يعلم حق العلم ، وأن مصير الناس كلهم إلى البوت ، لم يكن يحس في خبيثة نفسه كما لم يكن يحس سائر الخلق بأن ما يصيب الناس سببها هو أيضا. هذا سبب في أن موت هايوارد كان له أعمق الأثر في نفسه، رغم مضي مدة طويلة فترت فيها حرارة الصداقة بينهما. فقد تذكر فيليب فجأة كل ما دار بينهما من أحاديث طيبة، وحزفي نفسه كثيرا أن يدرك أنه لن يتحدث معه للأبد بعد الآن وتذكر أول لقاء بينهما والشهر الجيلة التي قضياها معا في هيندلبرج غاص قلب فيليب عند التفكير في تلك الأيام الخوالي.

وفكر في هايوارد ، إعجابه الشديد به عندما التقيا لأول مرة، ثم كيف تخلص من ذلك الهم وأصبح لا يبالي به حتى لم يعد حتى هناك ما يربطهما معا غير العادة والذكريات القديمة.

إن من عجائب هذه الحياة أن ترى شخصا كل يوم عدة شهور، وتصبح وثيق الصلة به ، حتى لا تتصور أن في وسعك أن تحيا بدونه. ثم يأتي الفراق، وتسير الأمور في طريقها الطبيعي، ويثبت لك أن الرفيق الذي بدأ من قبل ألا غني عنه كان غير ضروري وتستمر حياتك، ولا تفقده. وتذكر فيليب تلك الأيام الأولى التي قضاها في هيندلبرج ، عندما كان هايوارد ، الذي كان في نظره

قادرا على كل أمر عظيم، شديد التحمس للمستقبل وكيف أنه أذعن تدريجاً للفشل بعد أن لم يستطع تحقيق شيء من أهدافه وقد مات الآن وكان موته غير ذي شأن كما كانت حياته لقد مات ميتة حقيرة، من مرض حقير بعد أن فشل مرة أخرى في آخر حياته في إنجاز أي شيء. فكانه وهذه حاله الآن لم يعيش قط.

ومضي الخريف وأتي الشتاء، وكان فيليب قد ترك عنوانه لمسر فوستر مديرة بيت عمه؛ حتى تستطيع الاتصال به ولكنه ظل يذهب مرة كل أسبوع إلى المستشفى على أمل ورود خطاب وحدث ذات مساء أن وجد اسمه على غلاف رسالة بخط كان يتمني ألا يراه أبداً. وشعر بشعور غريب، وظل لحظة قصيرة لا يجسر على أخذه. لأنه يعيد إلى نفسه ذكريات بغيضة إليه ولكنه أخيراً قاوم نفسه ومزق الغلاف ليفتحه ووجد بداخله الرسالة التالية:

٧ شارع وليم - ميدان فتزوري.

عزيزي فيل...

هل لي أن أراك مدة دقيقة أو اثنتين بأسرع ما يمكن أني أعاني متاعب شديدة ولا أدري ماذا أعمل والمسألة لعلاقة لها بالنقود.

المخلصة ميلدريد...

ومزق فيليب الخطاب إرباً إرباً وبعثر قصاصاته في ظلام الشارع بعد خروجه ثم غمغم يقول:

- عليها اللعنة!

وغمره شعور من الاشمئزاز عندما فكر في رؤيتها مرة ثانية. ذلك أنه لم يعد يهيمه أن تحل بها المصائب، فهذا جزاؤها الحق أياً كان. إنه لا يفكر فيها إلا وقلبه مفعم بكرهها. وأن حبه القديم لها ليثير في نفسه بغضه إياها واشمئزازه منها. لقد ملأته ذكرياته بالغثيان والتقزز، وقد حاول وهو يسير فوق جسر نهر التيمس، أن ينأى بنفسه عن التفكير فيها وأوى إلى فراشه ولكنه لم يستطع النوم. وتساءل عما ألم بها، ولم يستطع أن ينزع من رأسه فكرة الخوف من أن تكون مريضة وجائعة وقال في نفسه أنها لم تكتب إليه إلا بعد أن وصلت حالتها حافة اليأس. وثار على نفسه لهذا الضعف. ولكنه كان يعلم أنه لن يجد سلاماً أو راحة إلا إذا رآها. ولهذا كتب لها في الصباح بطاقة أودعها صندوق البريد وهو في طريقه إلى المحل وكانت كلماتها جافة وضمنها أسفه الشديد للمتعاب التي تعانيتها، وعزمه على الحضور في الساعة السابعة مساءً إلى العنوان الذي أعطته. كان مسكناً في منزل حقير يقع في شارع قذر وكان يشعر وهو يسأل هل هي موجودة بألم لمجرد التفكير في أنه سيرها. وتملكه أمل قوى في أن تكون قد رحلت فقد كان منظر المكان يوحي بأنه من النوع الذي ينتقل إليه الناس ثم يرحلون منه باستمرار. ولم يكن فيليب قد عني بالنظر إلى خاتم البريد على الرسالة فلم يعرف كم يوماً ظلت على الرف. ولم تجب السيدة التي فتحت الباب عن استفهامه بل تقدمته وهي صامتة إلى الممر، وطرقت باباً في الجهة الخلفية ونادت:

- مسز ميللر هنا سيد يريد أن يراك.

وفتح الباب قليلاً وأطلت ميلدريد منه في توجس ثم قالت:

- أنت هو؟ ادخل!

ودخل فيليب وأغلقت ميلدريد الباب. وكانت حجرة نوم صغيرة جداً غير منظمة كمثيلاتها من الغرف التي سكنتها من قبل. وعلي الأرض حداؤها أحد جزئيه في جانب والثاني في جانب آخر، وهو غير نظيف وعلي الصندوق ذي الأدراج كانت قبعته. وإلى جانبها خصلات من الشعر المستعار، وبحث فيليب عن مكان يضع فيه قبعته. فالمشاجب التي خلف الباب كانت محملة بملابسها وقد لا حظ فيليب أنها جميعاً ملطخة بالطين عند نهايتها.

وقالت ميلدريد لفيليب:

- هلا جلست..

وأطلقت ضحكة صغيرة سمجة وقالت:

- أظنك دهشت عندما سمعت مني مرة ثانية..

وأجابها فيليب:

- إنك مبحوكة الصوت جداً.. هل تقاسين من ألم في حلقك؟

- أجل أقاسيه منذ وقت..

ولم يقل فيليب شيئاً، وأنتظر حتى تشرح له لماذا طلبت رؤيته. وقد أوحى إليه منظر الحجرة في وضوح أنها عادت إلى الحياة التي انقشلتها منها. ولم يعرف ما حدث للطفلة فقد كانت صورتها فوق المدفأة، ولكن لم يكن بالحجرة ما يدل وجودها. وكانت ميلدريد ممسكة بمنديلها وقد حولته إلى كرة صغيرة أخذت تتقاذفها من يد إلى أخرى. ولاحظ أنها عصبية جداً. وكانت تحمق في النار، استطاع أن ينظر إليها دون أن تتقابل عيناها. وكانت أنحف كثيراً مما كانت يوم أن فارقت. وكان جلدها، الأصفر المائل إلى الجفاف، ملتصقاً إلى درجة كبيرة بعظام وجنتيها وكانت قد صبغت شعرها حتى أصبح الآن كستنائى الشكل، وقد غيرها هذا كثيراً وجعلها تبدو أكثر سوقية.

وقالت ميلدريد أخيراً:

- لقد روح عني كثيراً وصول خطابك.. وقد ساورني الشك في وجودك بالمستشفى..

ولم يتكلم فيليب:

- أعتقد أنك قد نلت الآن درجتك العليا، أليس كذلك؟

- كلا...

- كيف كذلك؟

- لم أعد ملتحقاً بالمستشفى فقد اضطررت إلى تركه منذ ثمانية عشر شهراً.

- إنك إنسان متقلب.. ويبدو أنك لا تستطيع الثبات على حال.

وصمت فيليب برهة أخرى، وعندما عاد للكلام كان يتكلم في برود:

لقد فقدت النقود القليلة التي كنت أملكها في مضاربة مشنومة ولم يعد عندي ما أستطيع معه الاستمرار في دراسة الطب، وكان على أن أشتغل لأعيش.

- وماذا تعمل إذن؟

- أعمل في محل.

- عجباً.

وحدرجته ميلدريد بنظرة ثم حولت عينيها عنه في الحال. وظن أن وجهها قد أحمر وأخذت تضرب راحتها بمنديلها في عصبية. وقالت وهي تخرج الألفاظ من فمها متقطعة:

- إنك لم تنس بعد كل ما درسته في الطب، أليس كذلك؟

- لم أنسه تماماً.

- لهذا أردت رؤيتك.

ثم تحول صوتها إلى همس مبحوح وقالت:

- لا أدرى ماذا أصابني.

- ولماذا لا تذهبين إلى مستشفى؟

لا أريد ذلك ولا أحب أن أرى كل الطلبة يحملقون في، أخشى.. أن يحتجزوني هناك.

وسألها فيليب في برود وبنفس العبارة التقليدية التي تستعمل في العيادات الخارجية:

- مم تشكين؟

- أصبت بطفح في جسمي ولا أستطيع التخلص منه الآن.

وروع فيليب وشعر بوخز في قلبه، وتندى جبينه بالعرق.

- دعيني أنظر إلى حلقك.

وأخذها فيليب إلى النافذة وفحصها بقدر المستطاع ثم لمح عينيها فجأة. فرأى فيهما الخوف وعلائم الرعب والفرع، وارتاعت هي من نظرته إليهما وأرادت أن يطمئنهما على حالتها ونظرت إليه في توسل وهي لا تجسر على طلب كلمة مواساة ولكن أعصابها كلها كانت متوترة تود سماع هذه الكلمة. ولكنه لم يجد ما يطمئنها به وقال لها:

- أخشى أن أقول لك في أشد حالات المرض.

- ماذا تظن بي؟

وعندما صارحها فيليب، شحب وجهها شحوب الأموات وحتى شفيتها أصفر لونهما. وبدأت تبكي في يأس، بدأت تبكي في هدوء ما لبث أن استحال إلى نحيب خانق.

وأخيراً قال لها فيليب:

- أسف كل الأسف كان لابد لي أن أخبرك.

- هذا معناه أن أقتل نفسي وانتهى.

ولم يلتفت فيليب إلى هذا التهديد بل قال:

- هل لديك نقود؟

سنة جنيهاً أو سبعة.

يجب أن تطرحي هذا النوع من الحياة. ألا تظنين أنك تستطيعين الحصول على عمل؟ أخشى ألا أستطيع معاونتك كثيراً فأنا لا أحصل على أكثر من اثني عشر شلناً في الأسبوع.

وصاحت ميلدريد.. وقد عيل صبرها.

- وأي عمل أصلح له الآن؟

- لعنة الله على العمل كله.. يجب أن تحاولي الحصول على أي عمل.

وكان فيليب يتكلم في جد، وهو يطلعها على ما هي فيه من خطر، وعلي الخطر الذي تتعرض له، وكانت تستمع إليه وهي واجمة. وحاول هو أن يواسيها حتى استطاع أخيراً أن يجعلها بعد أن تنفذ ما يشير عليها به وكتب لها ما يلزمها من الدواء وقال إنه سيتركها عند أقرب صيدلي. وشدد عليها بضرورة تعاطي هذا الدواء في أدق نظام ومد إليها يده بعد أن هم بالخروج وهو يقول لها:

- لا تستسلمي لليأس فسيشفي حلقك قريباً.

ولكنه ما كاد يخطو حتى انقلبت سحنتها، وأمسكت بسترته وهي تصرخ بصوت مبحوح.

- لا تتركني، فأنا جد خائفة.. أرجوك ألا تتركني وحدي الآن يا فيليب.

ليس لي سواك أذهب إليه.. فلم يكن في حياتي صديق سواك.

وأحس فيليب بما تملكها من فرع.. وأطرق بعينه إلى الأرض. لقد اقتحمت هذه المرأة حياته مرتين وسببت له أشد البؤس. نعم إنها ليس لها حق عليه، ومع هذا فقد كان يحس بألم عجيب في أعماق قلبه لا يدري له سبباً. وهو نفس الألم الذي أقض مضجعه، حين تلقي رسالتها، ولم يترك له سبيلاً للراحة والهدوء.

وقال لنفسه:

- أعتقد أنني لن أستطيع أبدا التغلب على هذا الشعور.

وكان الذي يحيره أنه يشعر بتفرز طبيعي غريب، يجعله غير مرتاح إلى وجوده بجانبها وسألها:

- ماذا تريد مني أن أفعل؟

- لنخرج معا للعشاء وسأدفع الثمن.

وتردد فيليب. وشعر بأنها تتسلل مرة ثانية إلى حياته في الوقت الذي كان يظن أنها خرجت منها إلى الأبد. وراقبته ميلدريد في قلق مؤلم.

- أعلم أنني عاملتك بقسوة. ولكن لا تتركني وحدي الآن فلقد انتقمتم لنفسك، ولو أنك تركتني الآن وحدي فلن أدرى كيف أتصرف.

وقال فيليب:

- لا ضير. على أن يكون ذلك بأقل النفقات، فلم تعد معي نقود أبعثرها في هذه الأيام.

وجلس ميلدريد ولبست حذاءها، ثم بدلت ملابسها ولبست قبعتها وسارا معا حتى وجدا مطعما فى طريق توتنهام كورت. وكان فيليب قد تخلص من عادة تناول الطعام فى تلك المواعيد. كما كان حلق ميلدريد يؤلمها فلم تستطع بلع الطعام، وتناولوا قليلا من اللحم البارد. وشرب فيليب كوبا من الجعة، وكانا يجلسان متقابلين، كما كانا يفعلان كثيرا من قبل، وسأل فيليب نفسه هل تذكر ميلدريد ذلك. ولم يجدا ما يقوله أحدهما للآخر، وكاد الصمت يطول بينهما لو لم يرغم فيليب نفسه على الكلام. وكانت ميلدريد تبدو عجوزا شاحبة ضامرة فى الضوء اللامع للمطعم، ذى المرايا الرخيصة التي تعكس الصور واحدة وراء واحدة فى سلسلة لا نهاية لها. وكان فيليب مشوقا إلى معرفة ما حل بالطفلة، ولكن الشجاعة لم تواته ليسألها وأخيرا قالت هي:

- أتعلم أن الطفلة ماتت فى الصيف الماضى؟

وأجاب فيليب:

- لم أعلم بهذا...

- كان أولي بك أن تقول أنك حزنْتَ لهذا النبأ.

وأجابها:

- لست حزينا بل أنا مسرور.

ونظرت إليه وقد فهمت قصده، ثم حولت بصرها عنه وقالت:

- لقد كنت يوما شديد التعلق بها، أليس كذلك؟ لقد كنت دائما أتحير من شدة تعلقك بابنة رجل سواك.

- ولم فرغا من تناول الطعام، ذهبا إلى الصيدلي لإعداد الدواء الذى أمر به فيليب.

وبعد عودتهما إلى حجرتهما الحقيمة سقاها جرعة منه. وجلسا معا حتى حل موعد عودته إلى شارع هارنجتون. وقد حل به ضيق شديد.

واعتماد فيليب أن يذهب لزيارتها يوميا.. وكانت تتناول الدواء الذى وصفه وتتبع تعليماته، وسرعان ما ظهرت النتائج فبعثت فى نفسها أشد الثقة فى مهارة فيليب. وكانت كلما تحسنت حالتها قل قنوطها، وأصبحت تتحدث فى حرية أكثر.

وقالت ميلدريد:

- ستصلح حالى بمجرد حصولي على عمل، لقد تلقيت درسا وأنتوى الانتفاع به. ولن

أعود لحياة العريضة.

وكان فيليب يسألها فى كل مرة يزورها، هل وجدت عملا. وكانت تطلب إليه ألا يشغل نفسه بأمرها فإنها ستجد ما تعمله حين تريد ذلك ففي قوسها أكثر من وتر، ومن الخير ألا تعمل شيئا مدة أسبوع أو اثنين. ولم يكن فيليب ينكر هذه الحقيقة، ولكنه بدأ يصر على اشتغالها بعد انتهاء هذه الفترة وكانت هي تضحك منه فقد أصبحت الآن مرحلة إلى حد كبير وقالت له أنه إنسان مزعج كعهدها به. وأخذت تقص عليه قصصا طويلة عن المديرات اللاتي

التقت بهن فقد كانت تفكر فى العمل فى محل للأكل، وتذكر له ما قلن لها وما قالت لهن. ولكن شيئا محددا لم يتم، وإن كانت متأكدة من أن شيئا ما سيتقرر فى أوائل الأسبوع القادم. وليس ثمة فائدة من التسرع فمن الخطأ أن يقبل المرء عملا لا يناسبه.

وقال لها فيليب وقد نفذ صبره:

- من الغباء أن تتكلمي هكذا.. يجب أن تقبلي أى عمل تحصلين عليه فلن أستطيع معونتك كما أن نقودك لن تبقي إلى الأبد.

- إني لم أصل بعد إلى نهاية المطاف وسأترك ذلك للظروف.

ونظر إليها نظرة حادة لقد مضت أسابيع ثلاثة منذ زارها أول مرة وكان لديها فى ذلك الوقت أقل من سبعة جنيهات. وتملكه الشك، وتذكر بعض ما قالت، وأخذ يضيف بعضه إلى بعض وأخذ يشك فى أنها قد بحثت فى الواقع عن عمل أو لعلها كانت تكذب عليه طول الوقت. فمن الغريب حقا أن تستمر نقودها القليلة هذا الزمن الطويل وسألها.

- كم تدفعين أجرا لهذا المكان؟

- إن صاحبة المنزل سيدة لطيفة تختلف عن غيرها وهي تقبل راضية أن تصبر حتى يسهل على أن أؤدى الأجر.

وظل هو صامتا. ذلك أن موضوع شكه كان مروعا إلى حد تردد معه فى الإفصاح عنه. ولم تكن هناك فائدة من سؤالها عنه، فستنكر كل شيء وعليه أن يبحث بنفسه إن شاء أن يعرف، ولقد اعتاد أن يغادرها فى الساعة الثامنة مساء. وما أن دقت الساعة حتى نهض، ولكنه لم يذهب إلى شارع هارنجتون، انزوى فى ركن بميدان فتزورى، بحيث يستطيع رؤية أى إنسان يسير فى شارع ويليام. وخيل إليه أنه انتظر وقتا لا نهاية له. وأوشك أن يغادر مكانه، بعد أن ظن أن تقديره كان خاطئا، ولكنه وجد باب المنزل رقم ٧ يفتح وتخرج منه ميلدريد. وتراجع فيليب إلى الخلف فى الظلام، وراقبها وهي تسير تجاهه. وكانت تلبس القبعة ذات الريش الكثير التي رآها فى حجرتها وترتدى ثوبا يعرفه. فقد كان خارجا عن حدود الحشمة لا يليق للسير فى الشارع ولا يصلح لذلك الوقت من السنة. وتبعها فى بطء حتى وصلت إلى طريق توتنهام كورت، حيث أبطأت من خطواتها، ثم وقفت عند زاوية فى شارع أكسفورد، وتلفتت حولها ثم عبرت الشارع إلى قاعة الموسيقى. ذهب هو إليها ولمس ذراعها. ورأى منها أنها قد صبغت باللون الأحمر وجنتيها وطلت شفتيها وقال لها:

- إني أين يا ميلدريد؟

وأفزعها صوته فاحمر وجهها كما كان يحدث دائما عندما تضبط متلبسة بالكذب. وما لبث برىق الغضب الذى كان يعرفه جيدا، أن ظهر فى عينيها، عندما تحاول بغريزتها أن تدافع عن نفسها بالألفاظ السباب، ولكنها لم تنطق بالألفاظ التي كانت على طرف لسانها.

- لقد كنت ذاهبة لرؤية العرض لا أكثر. فإن جلوسي وحيدة كل ليلة سيحني ظهري.

ولم يتظاهر بأنه مقتنع بقولها بل انفجر يقول:

- يجب ألا تعودى إلى ذلك.. لقد أفهمتك خمسين مرة ما فى هذا من خطر عليك. يجب أن تمتنعى عن هذا العمل حالا.

وصاحت فى خشونة:

- أمسك لسانك، وكيف أستطيع أن أعيش فيما تظن؟

وأمسك فيليب بذراعها وحاول أن يجرها بعيدا عن ذلك المكان دون أن يفكر فيما يفعل.

- بالله عليك. سيرى معى إلى منزل، إنك لا تدركين خطورة ما تفعلين أنه عمل إجرامى والرجال خطرين.

- وماذا يهمني من أمرهم فلنتركهم لحالهم.. إن الرجال لم يحسنوا إلى حتى أضايق نفسي من أجلهم.

ودفعته بعيدا عنها، وسارت إلى شباك التذاكر ودفعت النقود.

ولم يكن مع فيليب إلا ثلاثة بنسات فلم يستطع أن يتبعها فاستدار ومشى فى ببطء فى شارع أكسفورد.

وقال لنفسه:

- لا أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت.

وكانت هذه هي النهاية، فلم يرها بعدها أبدا.



ومضت الأسابيع، ومضت الشهور وقرب الشتاء من نهايته. وفي الحقائق وفي المتنزعات ظهرت البراعم ثم الأوراق وخيمت السامة والخمول على فيليب. وكان الزمن يمر ولكن بخطوات ثقيلة. وظن أن شبابه سيولي، وأنه سرعان ما سيفقده دون أن يكون قد حقق شيئا من آماله. ودهش فيليب، وكان قد انصرف تفكيره إلى أشياء أخرى عندما جاءت الأنباء أخيرا بخطورة حالة القس. وكان هذا فى شهر يوليو. وكانت أجازته ستبدأ بعد أسبوعين ووصله خطاب من السيدة فوستر تقول فيه أن الطبيب يقرر أن ما بقي للقس فى الحياة لا يعدو أن يكون بضعة أيام، وأن علي فيليب إن شاء رؤيته أن يحضر حالا. وذهب فيليب إلى رئيسه وأخبره بعزمه على السفر. وكان السيد سامبسون رجلا مهذبا وما أن علم بالظرف حتى وافق.. وودع فيليب زملاءه فى القسم، وكان خبر رحيله انتشر بينهم انتشارا مبالغا فيه كثيرا، وظن الجميع أنه قد أصبح من الأغنياء.

كان هذا غريبا، ولكن فيليب كان بالفعل أسفا لتركه هؤلاء الزملاء، وقد ظن أنه كان يكرههم وتشمئز نفسه منهم، وعندما غادر منزل شارع هارنجتون لم يكن مبتهجا. لقد كان يتنبأ بما سيظهر عليه من انفعالات فى هذه المناسبة ولكنه لم يشعر بشيء منها. ولم يبال بها قط وكأنه ذاهب إلى قضاء إجازة لبضعة أيام.

وقال هو لنفسه:

«إن لي طبيعة خبيثة.. أتطلع بها إل حدوث الأشياء فى اهتمام وما أن تحدث حتى أشعر بخيبة أمل». ووصل إلى بلاكستابل مبكرا بعد ظهر نفس اليوم. وقابلته السيدة فوستر بالباب، وقد نم وجهها على أن القس لم يمض بعد.

وقالت السيدة فوستر:

- إنه اليوم أحسن حالا، إن له بنية عجيبة

وقادته إلى حجرة النوم حيث يرقد السيد كاري على ظهره وابتسم الرجل لفيليب ابتسامة خفيفة فيها ظل من المكر والرضا. وقال الرجل العجوز فى صوت خائر:

- ظننت أن كل شيء قد انتهى بالأمس وسلم الجميع للغر أليس كذلك يامسر فوستر؟

- إن لك بنية عجيبة، ولا يستطيع أحد أن يسر ذلك.

- مازالت فى الكلب العجوز بقية من حياة

وقالت السيد فوستر إن القس ينبغي أن يمتنع عن الكلام فإن ذلك يجهده وكانت تعامله بشيء من الاستبداد الرحيم وكأنه طفل. وكان فى تصرف الرجل العجوز شيء من الطفولة فى إحساسه بالرضي إذ استطاع أن يخدعهم فيما توقعوه لقد خطر فى باله من فوره أن فيليب قد استدعى وسر لأنه حضر فى مهمة خادعة. ذلك انه استطاع أن يتجنب أزمة أخرى من أزمات القلب، فإنه سيشفى فى مدى أسبوع أو اثنين وقد سبق له أن اجتاز أزمات عديدة من قبل. كان يشعر فى أثنائها دائما بأنه سيموت ولكنه لم يمض. وكانوا كلهم يتحدثون طويلا عن بنيته ولكن أحدا منهم لم يعرف مدى قوتها

وسأل فيليب وهو يتظاهر بأنه يعتقد أنه إنما جاء إلى إجازة

- هل تبقي هنا يوما أو اثنين؟

وأجاب فيليب فى مرح:

- كنت أفكر فى ذلك.

- إن تنفس نسيم البحر يفيدك كثيرا.

وحضر الدكتور ويجرام وقتئذ وتحدث إلى فيليب بعد أن فحص القس قائلا:

- أخشى أن تكون نهايته قد حانت هذه المرة وسيكون موبه خسارة عظيمة لنا جميعا لقد عرفناه خمسا وثلاثين سنة.

وقال فيليب:

- يبدو أنه أحسن حالا الآن.

- إني أبقي على حياته بالدواء، ولكن ذلك لا يدوم. فقد كانت الحالة خطيرة فى اليومين الأخيرين ولقد ظننته مات أكثر من ست مرات.

وصمت الطبيب دقيقة أو اثنتين، ولكنه قال فجأة لفيليب عند مدخل الدار:

- هل قالت لك السيدة فوستر أى شيء؟

- ماذا تعني؟

- إن هؤلاء الناس يعيشون على الخرافات. هذه السيدة تظن أن في ذهن الرجل شيئا، وأنه لن يموت حتى يتخلص من هذا الشيء وأنه لا يريد أن يتحامل على نفسه ويعترف به ولم يجب فيليب واستمر الطبيب يقول:

- وهذا هراء طبيعى الحال. لقد كان طول حياته رجلا صالحا وعندما يموت نستشعر أننا خسرنه. ولا يمكن أن يكون قد أتى شيئا يستوجب أن يؤنب نفسه عليه وإني لا أشك في أن يتجاوب معنا القس التالي نصف ما تجاوب معنا عمك.

وظل السيد كارى دون أن يطرأ عليه تغيير يذكر عدة أيام ثم فقد بعد ذلك شهيته الممتازة، وقل طعامه ولم يتردد دكتور ويجرام الآن في إيقاف ألم الأعصاب الذى يعذبه.

وكان ذلك يجهد بالإضافة إلى عملية تحريك أطرافه المصابة بالفالج. ولكن ذهنه ظل صافيا. وتولى فيليب مع السيدة فوستر تريض القس بالتبادل. وقد أجهدها العناية بالرجل هذه الأشهر الطوال التي ظلت تلازمه فيها وتقضي كل حاجاته، ولهذا أصر فيليب على الجلوس إلى جانب المريض لكي تستطيع الحصول على ما يلزمها من الراحة ليلا. وكان يقضي الساعات الطويلة جالسا في كرسي ذى مساند حتى لا يستغرق فى النوم. وكان يقرأ فى كتاب ألف ليلة وليلة على ضوء الشموع المحجوب ولم يكن قد قرأ هذه القصص منذ أن كان صبيا. وقد ذكرته الآن بطفولته. وكان أحيانا يجلس ليستمع إلى هدوء الليل. ثم يحدث أن يذهب تأثير الدواء فيصبح الشيخ قلقا ويسبب لفيليب الانشغال الدائم.

وحدث أخيرا وفي الصباح المبكر من أحد الأيام، وبينما كانت الطيور تشقشق على الأشجار، أن سمع فيليب من يناديه، وذهب إلى فراش المريض، فوجد السيد كارى مستلقيا على ظهره، وعيناه تنظران ألى سقف الغرفة، ولم يحولهما إليه. ورأى فيليب أن العرق يندى جبينه، فأخذ منشفة ومسحه.

وسأله الرجل العجوز:

- أهذا أنت يا فيليب.

وفزع فيليب لأن صوت الرجل قد تغير فجأة، فقد كان مبحوحا وخفيضا كصوت رجل يرتجف خوفا.

- أجل، هل تريد شيئا؟

وساد الصمت. ومازالت العينان اللتان لا تبصران تحمقان فى السقف، ثم مرت بوجه الرجل رجفة وقال:

- أظن أنني أموت.

وصاح فيليب:

- ما هذا الهراء.. لن تموت قبل سنين..

وانحدرت دمعتان من عيني الرجل العجوز وأثر ذلك أشد التأثير فى فيليب. ذلك أن عمه لم يظهر قط انفعال ما فى أى شأن من شئون الحياة فكان من المفجع الآن أن يظهر عليه هذا الانفعال لأن هذا معناه وجوده فى حالة من الفزع لا يستطيع التصريح بها.

وقال القس لفيليب:

- أرسل فى استدعاء السيد سيموندس فإننى أريد أن أتناول العشاء الربانى.

وكان السيد سيموندس هذا نائبه.

وسأله فيليب:

- الآن؟

- حالا، وإلا وصل متأخرا.

وذهب فيليب ليوقظ السيدة فوستر، ولكنه كان متأخرا فقد كانت متيقظة فعلا. وطلب إليها أن ترسل الخادم برسالة، وعاد فيليب إلى حجرة عمه فسأله:

- هل أرسلت تستدعي السيد سيموندس؟

- أجل.

وساد السكون. وجلس فيليب إلى جانب الفراش، وأخذ يمسح العرق عن جبين عمه بين الحين والحين. وأخير قال الرجل العجوز:

- دعني أمسك يدك يا فيليب.

وأعطاه فيليب يده، وأمسك بها الرجل كأنه يمسك بالحياة، ليشعر بالراحة فى آخر ساعاته، ولربما لم يكن هذا القس قد أحب إنسانا فى حياته كلها، ولكن الآن ولي وجهه بحكم الغريزة نحو كائن إنسانى. وكانت يده مبتلة وباردة، وقد أمسكت بيد فيليب فى جهد هزيل يائس، كان الرجل الشيخ يحارب الخوف من الموت، وفكر فيليب أن الناس سيمرون جميعا بهذه الأزمة. إلهي ما أفضع أن يقاسي الإنسان مثل هذا العذاب ومع أن فيليب لم يهتم يوما بعمه. وأنه ظل طيلة الأُسنتين الأخيرتين يتمنى موته، ولكنه لا يستطيع الآن أن يقاوم الحنان الذى يملأ قلبه. إلا ما أغلي الثمن الذى يدفعه الإنسان ليكون شيئا آخر غير الحيوان الأعجم.

ودام الصمت بينهما ثم قطعه استفهام ضعيف من السيد كارى:

- ألم يحضر بعد؟

وأخيرا حضرت مديرة المنزل لتعلن فى لطف أن السيد سيموندس قد حضر. وكان يحمل حقيبة بها عباؤه البيضاء وقلنسوته، وأحضرت السيدة فوستر طبق العشاء الربانى.

وصافح مستر سيموندس فيليب فى صمت، ثم ذهب إلى جانب الرجل المريض وقد بدأ عليه الوقار الذى تتطلبه مهنته. وخرج فيليب والخادم من الحجرة.

وسار فيليب فى الحديقة التي كانت كلها أشجار، ومازالت قطرات ندى الصباح تعلق أوراقها. وكانت الطيور تغرد فى بهجة، والسماء صافية الأديم، وكان الهواء المشبع بالملح لذيذا وباردا والورود مزدهرة، كما كانت خضرة الأشجار، وخضرة المروج جميلة وممتعة.

وسار فيليب وكان في أثناء سيره يفكر في ذلك اللغز الذي يجرى في حجرة نوم القس. وأثار فيه هذا التفكير انفعالا خاصا. وسرعان ما جاءته السيدة فوستر لتقول له أن عمه يرغب في رؤيته. كان نائب القس يضع أشياءه في حقيبته السوداء، وأدار الرجل المريض رأسه وحياء بابتسامة. ودهش فيليب، فقد طرأ على الرجل تغيير، غير عادي. ذلك أن عينيه لم تبق فيهما نظرة الفزع وذهب التقطيب الذي كان يعلو وجهه، وبدا سعيدا وهادئا.

قال العم في صوت تختلف نبراته عن الأولي:

— أنا مستعد الآن.. وعندما يريد الله أن يناديني فإن روحي بين يديه.

ولم ينطق فيليب، فقد كان في وسعه أن يدرك أن عمه مخلص فيما يقول، وكان معجزة قد حدثت له فبدلته، وكأنه قد تناول مع الخبز جسم المنقذ ودمه، فبقى فيه من القوة ما يستطع أن يتغلب على الخوف في أثناء مروره المحتوم إلى ظلمة الآخرة. وكان يعرف أنه سيموت. واستسلم لما لا بد منه ولم يقل إلا شيئا واحدا:

— سألحق بزوجتي العزيزة..

وأفزع هذا القول فيليب. فقد تذكر أنانية عمه المتحجرة التي كان يعامل بها زوجته، وكيف كان يقابل حبها المخلص المتواضع له. وخرج نائب القس وهو شديد التأثر وصاحبه السيدة فوستر إلى الباب وهي تبكي.

وراح السيد كاري في سنة خفيفة بعد أن أنهكه المجهود الذي بذله. وجلس فيليب بجوار الفراش ينتظر النهاية.

ومضى الصباح، وأصبح تنفس الرجل العجوز يشبه الشخير. وجاء الطبيب وأعلن أن الرجل يموت. لقد غاب عن الوعي وأخذ ينقر في ضعف على غطاء الفراش. كان قلقا، وصرخ واضطرب فأعطاه الطبيب ويجرام حقنة مسكنة وقال:

— ليس في عملي هذا أية فائدة له وقد يموت في أية لحظة.

ونظر الطبيب إلى ساعته ثم إلى المريض. ورأى فيليب إنها كانت الساعة الواحدة. وكان الدكتور ويجرام يفكر في غذائه.

وقال فيليب:

— لا فائدة من انتظارك.

وأجاب الطبيب:

— لا أستطيع عمل شيء.

وراقب فيليب، في عجب، عملية الموت. ورأى أنه لم يعد شيء إنساني في الكائن غير الواعي الذي يقاوم في ضعف. وكانت تصدر في بعض الأحيان صرخة مكتومة من فمه المسترخي. وأرسلت الشمس أشعتها الحارة من سماء لا سحب فيها. ولكن أشجار الحديقة كانت سارة وباردة وكان اليوم جميلا. وكانت حشرة تطن وهي ملتصقة بلوح النافذة وسمع فيليب فجأة

حشرة عالية أفزعته فقد كانت مخيفة مرعبة وسرت حركة في أطراف الرجل العجوز، ومات القس. لقد تعطلت الآلة، وظلت الحشرة تطن أمام شباك النافذة.

وأعد جوسيه جريفز بمهارته المألوفة، الترتيبات اللائقة بالجنائز في حدود الاقتصاد. وبعد أن انتهت مراسيمها عاد إلى الأبرشية مع فيليب. وكانت الوصية في حوزته، وقد قرأها على فيليب في أثناء تناولها الشاي في الصباح الباكر مراعيًا ظروف الوقت أتم مراعاة. وكانت الوصية مكتوبة على نصف صحيفة من الورق، وقد أوصى فيها السيد كاري بكل ما كان يملك لابن أخيه، الأثاث، وحوالي ثمانين جنيها في المصرف، وعشرين سهما في شركة إيست، وقليل من أسهم شركة السوب للجنة، وبعض أسهم من قاعة موسيقى أكسفورد، وعدد آخر قليل من مطعم في لندن. اشترت جميعها بإشراف جريفز الذي قال لفيليب مغتبطا: ها أنت ذا ترى أن الناس يجب أن يأكلوا وأن يشربوا وهم يتوقون إلى التسلية. وستظل أمتنا ما دمت تنفق نقودك فيما تعتقده ضروريا.

وقد أظهرت هذه الكلمة دقة التمييز بين خشونة السوقية، التي أسف فيليب لها ولكنه وافق عليها، وبين ذوق الطبقة الراقية. وكانت جملة المبلغ المستثمر كله ما يقرب من خمسمائة جنيه يضاف إليها رصيده في المصرف وما يساويه، وهي ثروة لفيليب لم يكن سعيدا ولكنها أشعرته بأنه نجا من التعب وإن لم يشعر بالسعادة.



وما أن انقضت أيام قليلة حتى رحل فيليب إلى لندن ودخل بالنهار لأول مرة من سنتين بهو مستشفى القديس لوقا. وذهب إلى أمين مدرسة الطب الذي دهش لرؤيته. وسأله في عجب ماذا كان يفعل. وكانت التجارب قد أكسبت فيليب ثقة في نفسه، وبدلت نظراته إلى كثير من الأمور. وكان هذا السؤال يحرج فيليب في الماضي ولكنه الآن أجاب عنه في برود، وبغموض متعمدا أن يمنع الأمين عن الاستمرار في الاستعلام. قال فيليب أن شتونا خاصة اضطرتته إلى قطع برنامج دراسته وأنه الآن جد شغوف لأن ينال درجته بأسرع ما يمكن، ومن أول امتحان يدخله خاصا بالقبالة وأمراض النساء. وقد سجل اسمه للتمرين في أحد العباير المخصصة للمريضات من النساء ولما كان الوقت وقت إجازة. فإنه لم يلق صعوبة في الحصول على مكان في قسم الولادة واتفق على أن يباشر واجباته خلال الأسبوع الأخير من أغسطس والأسبوعين الأولين من سبتمبر. وسار فيليب في مدرسة الطب بعد هذه المقابلة، وكانت وقتئذ خالية أو تكاد لأن امتحانات أحر الفصل الدراسي الصيفي كانت قد انتهت وأخذ يتجول على طول الشرفة بجانب ساطيء البهر وقلبه ممتلئ بالأمال. فقد كان يفكر الآن في أنه سيبدأ صفحة جديدة، في حياته. ويلقى وراء ظهره كل أخطاء الماضي وعيبه وتعاسته وأوحى إليه

منظر النهر الجارى، بأن كل شئ مضى فى طريقه المرسوم، وأنه ليس هناك ما يستدعى القلق، والمستقبل أمامه غنى بالإمكانات.

وقضى فيليب الأسابيع القليلة التي كانت تسبق بدء الفصل الدراسي الشتوى فى قسم العيادة الخارجية واستقر فى عمله المنتظم فى أكتوبر وإذ كان قد بعد عن المستشفى زمنا طويلا فقد وجد نفسه بين أناس يكادون أن يكونوا كلهم جدد عليه، وقلما كانت هناك علاقة بين من هم من أعمار مختلفة، أما معاصرو فيليب فقد نالوا الآن درجاتهم. ولقد غادر بعضهم المستشفى ليعمل مساعدا. أو فى إحدى الوظائف. الأخرى فى مستشفيات الريف وملاجئ، بينما حصل البعض الآخر على عمل فى نفس مستشفى القديس لوقا. وظن فيليب أن السنتين اللتين كان فيهما عاطلا من الدراسة قد أنعشاه ، وإنه أصبح اليوم قادرا على العمل فى نشاط وقوة.

سر آل إثلنى لما حل بساحة فيليب من خير. وكان قد احتفظ بأشياء قليلة من متاع عمه، لم يبيعها ، فأهداها كلها لهم، فأعطى سالى سلسلة ذهبية كانت لعمته. لقد كبرت سالى الآن وأصبحت مساعدة عند حائكة، وهى تخرج صباح كل يوم فى الساعة الثامنة لتعمل طول اليوم فى محل بشارع ريجنت، وكانت سالى تتمتع بعينين زرقاوين صريحتين، وحاجبين عريضين وكمية وفيرة من الشعر اللامع وكانت مرحلة ممثلة الجسم، وكان والدها مغرما بمناقشة منظرها وكان يحذرهما دائما من السمنة. وكانت جذابة لأنها صحيحة الجسم. تتمتع بأنوثة طاغية. وكان لها معجبون كثيرون، ولكن أحدا منهم لم يثر عواطفها فلقد كانت تشعر الإنسان بأنها تنظر إلى الحب على أنه أمر سخيف. ولهذا تخيل الشبان أنه ليس من السهل التقرب إليها.

والحقيقة أن سالى كانت تبدو أكبر من سنّها. فقد اعتادت أن تساعد أمها فى عمل المنزل وفى العناية بالأطفال ، فاكسبت بذلك روح الإدارة والتنظيم ، مما جعل أمها تقول أن سالى مغرمة فوق ما يجب بالتصرف كما تريد. ولم تكن كثيرة الكلام. ولكنها كانت كلما كبرت سنا اكتسبت روحا من الفكاهة الوديعه. وكانت تلقى، فى بعض الأحيان، بملاحظة توحى بأن وراء ظاهرها العادى تفكهه بأبناء جنسها. ووجد فيليب انه لم يصل أبدا معها إلى درجة الصداقة الحقيقية التي وصل إليها مع بقية أسرة إثلنى الكبيرة. وكان يضايقه ما تظهره أحيانا من عدم المبالاة به. فقد كان عدم مبالاتها يثيره نوعا، كما كان فى طبعها شئ من الغموض.

وقد أصر إثلنى، بأسلوبه العاصف، على أن تقبل سالى فيليب عندما أعطاها العقد ولكن سالى احمرت خجلا وتراجعت قائلة:

- كلا، لن أقبله.

وصاح إثلنى:

- أيتها السليطة يا ناكرة الجميل.. لم لا تقبلينه؟

وقالت سالى:

- لأنى لا أحب أن يقبلني الرجال.

ورأى فيليب ارتباكها، وسر من ذلك ثم حول انتباهه إثلنى إلى موضوع آخر ولم يكن هذا بالأمر الصعب ولكنه كان واضحا أن أمها تكلمت فى هذا الموضوع فيما بعد، لأن سالى انتهزت فرصة انفرادها بفيليب يوما ما لمدة دقيقتين، فى المرة التالية التي حضر فيها إلى الدار وأشارت إلى مسألة القبلة فقالت:

- لا أظنك قد ساءك منى أن أرفض تقبيلك فى الأسبوع الماضي.

وضحك فيليب وقال:

- لا أبدا..

واحمر وجه سالى قليلا عندما نطقت بالعبارات الشكلية التي أعدتها من قبل:

- لم يكن ذلك منى نكرانا للجميل. وسأظل أقدر هذا العقد قدره، وقد كان جميلا منك أن تهديني إياه.

وكان فيليب يجد الكلام معها صعبا لدرجة ما. فقد كانت تؤدى كل ما يجب أن تؤديه على أكمل وجه ولكنها كانت تبدو غير راغبة فى الدخول فى محادثات. ومع هذا فلم يكن هناك ما ينفر منها من حولها.

وحدث فى أحد الأيام الأحاد أن خرج إثلنى وزوجته معا، وجلس فيليب الذى كان يعامل كأحد أفراد الأسرة، يقرأ فى البهو ، وأنت سالى وجلست بجوار النافذة تحيك. ذلك أن ملابس الفتيات كانت تصنع فى المنزل. وما كانت سالى تستطيع أن تقضى أيام الأحد خاملة.

وظن فيليب أنها تريد الحديث معه فوضع الكتاب من يده.

وقالت سالى لفيليب:

- استمر فى القراءة. لقد ظننت أن باستطاعتي أن اجلس بجوارك ما دمت وحيدا.

وقال فيليب:

- إنك أكثر من رأيت صمتا.

فردت عليه سالى قائلة:

- لا نريد ثرثارا آخر فى هذا المنزل؟

ولم يكن فى نبراتها سخرية من أحد. بل كانت تقر الحقيقة المجردة. ولكن فيليب فهم أنها كانت تقصد أباه. لقد انتهى عهد الطفولة الذى كانت تراه فيه بطلا. وارتبط فى ذهنها حديث والدها المسلى، بالإسراف الذى كثيرا ما أثار الصعاب فى حياتهم. وقارنت بين بلاغته وبين تفكير أمها العملي. ورغم أن مرح والدها كانت فيه تسلية لها، فإنها كانت فى كثير من الأحيان تضيق به. ونظر إليها فيليب عندما انحنت فوق عملها. فرأها صحيحة الجسم ، قوية سوية، وما من شك فى أنها كانت تبدو غريبة إذا رأيتها فى محل العمل بين الفتيات الأخريات نوات الصدور المفلطحة والوجوه التي تشكو من فقر الدم. وكانت ميلدريد تعاني من هذا الداء.

وظهر بعد زمن ، أن لسالي خطيبا. فقد اعتادت أن تخرج أحيانا مع بعض صديقاتها فى العمل، وإنها التقت بشاب يعمل مهندسا كهربائيا، وعلى درجة كبيرة من النشاط، وكان هذا الشاب مقبولا إلى حد كبير. وذات يوم أخبرت سالى أمها أنه طلب إليها الزواج. وسألته الأم:

- وماذا قلت؟

- قلت إنني لست مشوقة جدا إلى الزواج من أى إنسان فى هذا الوقت.

وسكنت برهة كما كانت تفعل عادة بين الكلام ثم استمرت قائلة:

- لقد فهم هذا على أن باستطاعته أن يحضر لتناول الشاى معنا يوم الأحد.

وكانت فرصة راقية كثيرا لإثلى. فأخذ يردد طوال فترة بعد الظهر، كيف يمثل دور الوالد الثقيل فى تثقيف الابن، حتى اضطر الأطفال على الرغم منهم أن يضحكوا ويقهقهوا. وقبل حضور الشاب فى موعد الشاى جد إثلى فى البحث عن طربوش، وصمم على أن يلبسه وقالت له زوجته:

- استمر يا إثلى فى عبثك وستقضى على مستقبل ابنتك.

وكانت الزوجة تلبس أفخر ثيابها وهو ثوب مصنوع من القطيفة السوداء، وقد ضاق عليها، بسبب سميتها سنة بعد أخرى.

وحاولت الزوجة أن تخلع عن رأس زوجها الطربوش، ولكن الرجل الصغير قفز بخفة بعيدا عن طريقها:

- لا تمسيني يا امرأة فلا شئ يحملني على خلعه يجب أن يرى الشاب فى الحال أن الأسرة التي يستعد للدخول فيها ليست أسرة عادية.

وقالت سالى بطريقتها العادية الخالية من الاهتمام:

- دعيه يا أمي فإن السيد دونالدسون إذ لم يأخذ الأمر على المقصود منه فله أن ينأى بنفسه عنا. ويكون فى هذا خير خلاص لنا منه.

ورأى فيليب أن هذه محنة قاسية سيمر بها الشاب. فإن إثلى، بحلته المصنوعة من القطيفة البنية، وربطة عنقه السوداء المهفهفة، وطربوشه الأحمر، سيجعل من نفسه منظرا مدهشا لمهندس كهربائى ساذج. وما أن أتى الشاب حتى أقبل مضيفه على تحيته فى بشاشة عظيم أسباني وحيته السيدة إثلى بطريقتها الودية الطيبة. وجلسوا جميعا حول منضدة كى الملابس القديمة، على كراسيهم ذات الظهر العالي الشبيهة بكراسى الأديرة، وصبت السيدة إثلى الشاى من إبريق براق أضفى على الوليمة رونق الاحتفالات فى انجلترا وريفها. وكانت السيدة إثلى قد صنعت الكعك بيديها كما كان على المائدة مربى صنعت فى المنزل. والخلاصة أن هذا الشاى كان شبيها بحفلات الشاى فى الضياع، وقد بدا لفيليب فى هذا المنزل الشبيه بمنازل انجلترا فى القرن السابع عشر عجيبا وممتعا معا.

وخطر لإثلى، لباعث وطراً على ذهنه، أن يتحدث عن التاريخ البيزنطى وكان قد قرأ المجلدات الأخيرة من كتاب انهيار الدولة الرومانية وسقوطها، وأخذ إثلى يصدع أذننى الشاب الطالب الزواج بقصص مجلة عن تيودورا وإيرينه. وهو يمد سبابته فى حركة تمثيلية، وكان يتكلم لضيفه فى موجة من الفخر عاتية. وكان الشاب، الذى لزم الصمت البائس وعلاه الخجل، يومئ برأسه فى فترات، وهو يظهر اهتمامه. الواعى بما يقول إثلى.

أما السيدة إثلى فإنها لم تعر كلام زوجها أى اهتمام بل كانت تقاطعه بين الحين والحين لتقدم إلى الشاب شايا جديدا أو لتحته على تذوق الكعك أو المربى.

وراقب فيليب سالى وكانت تجلس وعيناها مسبلتان، وساكنة هادئة ترقب ما يجرى أمامها، وتلقى أهدابها الطويلة ظللا جميلة على وجنتيها. وقالت أمها:

- أرى أنه شاب لطيف مؤدب فى حديثه. وأعتقد أن مثله كفيل بأن يجعل أية فتاة سعيدة.

- ولم تجب سالى مدة دقيقة أو دقيقتين. ونظر إليها فيليب فى عجب لعلها كانت تفكر فيما قالته أمها، أو لعلها، من ناحية أخرى كانت تسبح فى بحر من الأوهام.

ورأى فيليب الشاب ولم يكن المرء يستطيع أن يدرك هل كانت سالى مبتهجة للمنظر الذي تشاهده، لم يكن أحد يستطيع أن يتبين أمرها، أمر واحد كان مؤكدا لا شك فيه، هو أن المهندس الكهربائى كان حسن المنظر، مقبولا حليق اللحية، ذا ملامح جميلة ومنظمة ووجه ينم على الإخلاص والأمانة.

وكان طويلا وحسن البنية، ولم يكن يسع فيليب إلا أن يعترف بأنه سيكون زوجا ممتازا لسالي، وشعر فى نفسه بوخز الحسد والغيرة للسعادة التي لهما فى ذمة المستقبل. وسرعان ما أعلن الشاب أن وقت زواجه قد جان وهضت سالى دون أن نبس ببنت شفة وراففته حتى الباب، وما أعادت حتى انفجر أبوها قانلا:

- إننا نظن يا سالي إن فتاك لطيف جدا، ونحن على استعداد للترحيب به عضوا فى أسرتنا وعندما يعلن الزواج سأتولي بنفسى تأليف أغنية العرس.

وبدأت سالى فى تنظيف المائدة من آثار الحفل، ولم تجب. وفجأة صوبت نظرة سريعة إلى فيليب وقالت:

- وماذا تري فيه يا سيد فيليب؟

وكانت سالى ترفض دائما أن تدعوه العم «فيل» كإخوانها، أو تدعوه فيليب مجردا.

- أعتقد أنكما ستكونان زوجين جميلين إلى درجة كبيرة.

وألقت عليه نظرة أخرى سريعة، ثم احمر وجهها واستمرت تؤدى عملها.

وقالت السيدة إثلى:

- لم لا تجيبين يا سالى عندما تسألين؟

أعتقد أنه كان سخيفا.

- ألا تنوين الزواج منه الآن؟
- كلا. لن أتزوجه.



واجتاز فيليب امتحان الجراحة فى أوائل أغسطس، وكان آخر امتحان له فتسلم إجازته الدراسية بعد أن أمضى سنوات سبع فى مستشفى القديس لوقا. وأصبح فى حوالى الثلاثين من عمره. ونزل فيليب درج كلية كينجز للجراحين وفى يده ملف يخوله حق ممارسة المهنة. وكان قلبه يركض رضا وفرحا.

وقال فى نفسه:

«اليوم أبدأ حياتى حقاً».

وذهب فى اليوم التالى إلى مكتب الأمين ليسجل اسمه لإحدى وظائف المستشفى. وكان هذا الأمين رجلاً صغير الجسم لطيفاً. له لحية سوداء.

- لا أظنك تود أن تعمل نائباً مدة شهر على الساحل الغربى نظير ثلاثة جنيهات فى الأسبوع مع المسكن والمأكل.

وأجاب فيليب:

- لا مانع لدى.

- سيكون مقرك فى بلدة فارنلى فى مقاطعة دورست شاير. مع الدكتور ساوث. وغليك أن تتسلم عملك حالا فقد أصيب بمساعدة بالغدة النكفية. وفى رأى أن المكان جميل.

وكان فى ملامح الأمين ولهجته ما حير فيليب وأثار شكه بعض الشيء.

وسال فيليب الأمين:

- ما عيب هذه الوظيفة؟

وتردد الأمين لحظة ثم ضحك وقال محاولاً استرضاءه.

- الحقيقة إننى أعتقد أن دكتور ساوث شخص جاف مسن. يثير الضحك، لا تبعث له الهيئات بمرضى لأنه يتكلم بصراحة عما فى ضميره والناس لا يحبون ذلك.

- وهل تعتقد أنه سيرضى عن وجود رجل حديث التخرج مثلى. عديم الخبرة؟

وقال الأمين فى لباقة:

- ينبغى أن يسر لذلك.

وفكر فيليب ملياً أنه لم يكن لديه ما يشغله طيلة الأسابيع القليلة القادمة، وقد سره أن تتاح له الفرصة ليكسب القليل من المال. ففي استطاعته أن يوفر مالا للأجازة التى وعد نفسه بقضائها فى أسبانيا، عندما ينتهى من عمله فى مستشفى القديس لوقا، أو إذا لم يهيئوا له عملاً فى أى مستشفى آخر.

وقال:

- لا مانع لدى، سأذهب.

- المهم أن تذهب بعد ظهر اليوم، أيناسيك هذا؟ فإذا وافقت فسأبرق لهم فى الحال. وكان فيليب يريد أن يستمتع بنفسه أياماً قلائل قبل أن يبدأ عمله.

لكنه كان قد رأى آل إثلنى فى الليلة الماضية عندما ذهب لينهى إليهم أخباره الطيبة. فلم يكن ثمة ما يعوقه عن البدء فى عمله من فوره. وكانت حاجاته قليلة فلم يستغرق حزمها زمناً طويلاً. وما أن وافت الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم، حتى كان فيليب يغادر محطة سفارنايس فى عربة إلى عيادة الدكتور ساوث. وكانت العيادة فى منزل متسع قليلاً الارتفاع، جدرانها من الجص، قد نمت عليها فروع أشجار اللبلاب. وكان بالعيادة رجل متقدم فى السن يكتب على منضدة وما أن أدخلت الخادم فيليب حتى تطلع الرجل إليه دون أن يقف أو يتكلم. بل أخذ يحملق فى وجه فيليب. وأخذ فيليب لحظة من الزمن ثم قال:

- أظنك تنتظر قدومى؟ لقد أبرق إليك أمين مستشفى القديس لوقا هذا الصباح.

- لقد أخرت العشاء نصف ساعة. هل تريد أن تغتسل؟

وأجاب فيليب:

- أجل.

وكان فى تصرفات الدكتور ساوث ولقائه بعض التفكهة لفيليب، ونهض الآن، ورأى فيليب فيه رجلاً متوسط القامة نحيل الجسم، أبيض شعر الرأس حيق اللحية، لولا عارضاه الأبيضاض الصغيران اللذان زادا من مظهر وجهه المربع الذى أكسبه إياه فكة القوى.

وكان يرتدى حلة من الصوف البنى وجوربا أبيض. وملابس متهذلة كأنها قد صنع لشخص أكبر منه جسماً. وبدا كأنه مزارع محترم من مزارعى القرن التاسع عشر، وفتح الرجل الباب ثم قال وهو يشير إلى باب فى الجهة المقابلة:

- هذه حجرة الطعام، أما حجرة نومك فهى أول باب يقابلك فى أول طابق فأنزل عندما تستعد للنزول.

وقد عرف فيليب فى أثناء الطعام أن دكتور ساوث كان يتفحصه ولكنه كان قليل الكلام وشعر فيليب أن ساوث لا يحب من مساعده أن يتكلم كثيراً.

وسأله الدكتور ساوث فجأة:

- متى حصلت على إجازتك العلمية؟

- أمس.

- هل عملت فى جامعة؟

- كلا.

- عندما حصل مساعدي على أجازة فى العام الماضى، بعثوا إلى بأحد خريجي الجامعة. وقد طلبت إليهم ألا يعاودوا الكرة معى هذا العام. فهم متأنقون إلى حد لا أطيقه.

وتوقفت عن الكلام مرة أخرى. وكان العشاء بسيطاً ولكنه كان جيداً جداً. وحرص فيليب على الظهور أمام الرجل بمظهر الرزانة. وإن كان في داخله يمجج بالانفعال فقد ابتهج بأن يعمل نائباً. فقد أشعره هذا بأنه قد كبر كثيراً. وراودته رغبة جنونية في أن يضحك دون سبب معقول. وكان كلما فكر في مركزه ، ازداد ميلاً إلى القهقهة ولكن دكتور ساوث اقتحم عليه أفكاره فجأة :

- كم عمرك؟

- اقترب من الثلاثين.

- وكيف إذن لم تتل درجتك إلا حديثاً ؟

- لأنني لم أبدأ دراسة الطب إلا وأنا حوالي في الثالثة والعشرين ، واضطرت لترك دراستي مدة سنتين في وسط الدراسة.

- لماذا ؟

- الفقر.

وحده الدكتور ساوث بنظرة غريبة ثم التزم الصمت ، وعندما انتهى العشاء نهض وغادر المائدة قائلاً :

- أتعلم أى نوع من العمل هذا ؟

- وأجاب فيليب قائلاً :

- كلا.

- أغلب المترددين على هذه العيادة من صائدى السمك وأسرههم ، فأنا طبيب اتحادهم وطبيب مستشفى البحارة ، وقد كنت من قبل الطبيب الوحيد في هذا المكان ولكن حدث أن أنشأ رجل عيادة أخرى على الجبل المطل على البحر عندما ظهرت فكرة تحويل هذا المكان إلى بلد للاستجمام والراحة من الطراز الحديث على شاطئ البحر ، وإلي هذه العيادة الأخرى يذهب المقعدرون ، فلا يتبقى لى إلا من كان غير قادر على أداء أجر الطبيب.

ورأى فيليب أن المنافسة كانت موضع إيلام شديد للرجل العجوز وقال :

- تعلم أن ليس لى بعدد خبرة بالعمل.

- ليس فيكم من يعرف شيئاً.

وأخذ الرجل يرقب فيليب في دقة شديدة مدة يومين أو ثلاثة أيام ، وهو على استعداد تام لمهاجمته بسخريّة لازعة إذا أتاحت له فرصة ، وكان فيليب يدرك ذلك فسار في عمله بروح هادئة طروب ، وسره أن يوجد في عمل مغاير عن أعماله السابقة. وأحب الشعور بالاستقلال والمسئولية.

وكان يتردد على غرفة الاستشارة أناس من مختلف الطبقات. ورضى فيليب عن نفسه لأنه استطاع أن يوحى إلى مرضاهم بالثقة في الشفاء ، وكان من أسباب سروره أن شاهد عمليات العلاج ، وهى العمليات التي ما كان يراها في المستشفى إلا في فترات متباعدة ،

واستطاع خلال زيارته للأكواخ ذات السقوف قليلة الارتفاع أن يشاهد حبال السفن والأشرعة ، وأن يعثر هنا وهناك على بعض التذكارات عن رحلات في البحار العميقة.. صندوق مدهون باللورنيش من اليابان ، وحراب ومجاديف من ميلانيزيا، وخناجر من أسواق استانبول وغيرها وغيرها مما يثير روح الخيال والجمال في أرجاء هذه الغرف الصغيرة المكتظة ، وقد أضفى عليها ملح البحر نضارة مريرة. وكان فيليب يحب الحديث مع البحارة. وعندما وجد هؤلاء أنه ليس من النوع المتعجرف أخذوا يقصون عليه قصصاً طويلة عن رحلات بعيدة قاموا بها في شبابه.

ولقد أخطأ فيليب مرة أو اثنتين في تشخيص بعض الأمراض فمثلاً لم يكن فيليب قد رأى من قبل حالة من حالات مرضى الحصبة، وعندما واجهته واحدة منها تسرع واعتبرها مرضاً جلدياً غامضاً. واختلف مرة أخرى أو مرتين مع الدكتور ساوث في طريقة علاجه. وقد هاجمته دكتور ساوث في أول مرة بسخريّة قاسية، فقبلها فيليب بصدر رحب. وقد أوتى فيليب قليلاً من موهبة الردود المهدئة. فأجاب بسخريّة على دكتور ساوث مما جعله يمتنع عن الاستمرار في الهجوم عليه، وينظر إليه في دهشة. وكان وجه فيليب رصيناً ، ولكن عينيه كانتا تلمعان. فقد اعتاد الرجل كراهية مساعديه له وخوفهم منه. أما فيليب فكان تجربة من نوع جديد. وقد أوشك أن يندفع فيعيده من حيث أتى في القطار التالي كما فعل بغيره من قبل. ولكن الطبيب مالبت أن خامره شعور مضطرب بأنه سيقابل تصرفات فيليب ببساطة ويضحك منه. فما كان من فيليب إلا أن أحس بشيء من السرور. وانطبعت على فمه ابتسامة لا إرادية على الرغم منه ، ثم استدار ومشى. وقد أدرك الرجل ، بعد مدة قصيرة ، أن فيليب كان يسلى نفسه على حسابه. وقد أخذ لذلك في أول الأمر ولكنه تلهى عنه فيما بعد. وتمتم لنفسه:

- اللعنة على وقاحته.. واللعنة على وقاحته!

وكتب فيليب إلى إثلنى يخبره بأنه يقوم بعمل نائب في دورست شاير. وقد تلقى فيما بعد رداً على هذا الخطاب.. كان مكتوباً بالطريقة الرسمية التي يؤثرها إثلنى، ومرصعاً بالنعوت الضخمة كما ترصع التيجان الفارسية بالأحجار الكريمة، وكتب بخط جميل. وقد اقترح عليه إثلنى في خطابه أن يشاركه في زيارة إلى حقول حشيشة الدينار في مقاطعة كنت. حيث يذهب كل عام وأراد أن يقنعه بهذه الزيارة هو وأسرته فأخذ يروى له أشياء جميلة معقدة عن نفسه وعن خيوط حشيشة الدينار الملتوية.

ورد فيليب في الحال بأنه سيذهب إليهم في أول فرصة يخلو فيها من العمل.

ومضت سراعاً الأسابيع الأربعة المقررة له في فارنلى.

وقد حدث ذات مساء وفي الأسبوع الرابع لمقام فيليب عند الدكتور ساوث أن طرقت طفلة باب العيادة في أثناء انشغاله هو والدكتور ساوث بتحضير بعض الوصفات، وكانت بنتاً صغيرة ترتدى أسماًلاً بالية، وجهها قدر، وقدماه عاريتان. وفتح لها فيليب الباب وقالت الطفلة:

- أسمح يا سيدى بزيارة السيدة فلتشر حالا فى حارة إيفى؟
وسألها دكتور ساوث فى صوته الأجي:

- ومم تشكو السيدة فلتشر؟

ولم تعره الطفلة التفاتا، بل خاطبت فيليب للمرة الثانية قائلة:

- وقع حادث ياسيدى لابنها، فهلا أتيت حالا؟

وقال دكتور ساوث:

- قولى للسيدة فلتشر إنى سأتى فى الحال.

وترددت الطفلة لحظة، ثم وضعت أصبعها قدرا فى فم قدر، ووقفت صامته ثم نظرت إلى فيليب وابتسم فيليب وقال لها:

- ما خطبك يا صغيرتى؟

- من فضلك يا سيدى، إن السيدة فلتشر تطلب الطبيب الجديد.

وارتفع صوت دكتور ساوث فى الصيدلية ثم وصل إلى الممر وهو يصيح:

- أليست السيدة فلتشر مكتفية بى؟ لقد عنيت بها منذ ولادتها، فهل لم أعد أصلح الآن

للعناية بابنها القدر؟

وبدا على الطفلة الصغيرة كأنها موشكة أن تبكى ولكنها فكرت قليلا، ثم أخرجت عن عمد لسانها إلى دكتور ساوث. وقبل أن يستفيق لنفسه من الدهشة أخذت الطفلة تجرى بأسرع ما يمكن.

ورأى فيليب أن الرجل العجوز قد أغضبه ما حدث. فقال له محاولا أن يوجد له عذرا فى عدم الذهاب إلى السيدة فلتشر بنفسه:

- إنك تبدو مجهدا والطريق إلى حارة إيفى ليس مريحا.

وزمجر الدكتور ساوث مرة أخرى وقال:

- أيهما يصلح لهذا الطريق، رجل يستطيع السير على رجليه الاثنتين أو رجل يستعمل رجلا

ونصف رجل؟

واحمر وجه فيليب، ووقف صامتا لحظة ثم قال فى خشونة ظاهرة:

- أتريد أن أذهب أو تذهب أنت؟

وما فائدة ذهابى وهم يريدونك أنت؟

وأخذ فيليب قبعته وذهب لعيادة المريض. ولم يعد إلا فى حوالي الثامنة وقد وجد دكتور ساوث واقفا فى حجرة الطعام وظهره إلى المدفأة.

وقال ساوث:

- لقد مكثت هناك طويلا.

- آسف. لماذا لم تبدأ عشاءك؟

- لأنى أثرت الانتظار. وهل كنت طوال هذا الوقت عند السيدة فلتشر؟

- كلا.. أخشى أن أقول إننى لم أكن هناك طول الوقت، بل وقفت فى أثناء عودتى، لأطلع إلى منظر الغروب، فلم أحسب للزمن حسابا.

ولم يجب دكتور ساوث. وأحضر الخادم بعض المشويات، فأكل فيليب بشهية. وفجأة وجه إليه دكتور ساوث سؤالا:

- ولماذا كنت تتطلع إلى الغروب؟

وأجاب فيليب وفمه ملآن بالطعام:

- لأنى كنت سعيدا؟

وحدجه ساوث بنظرة غريبة، ولاحت ابتسامة على وجهه المجهد العجوز وساد الصمت بينهما فى أثناء تناول طعام العشاء. وما أن قدمت إليهما الخادم النبيذ وغادرت الحجرة حتى مال دكتور ساوث إلى الراء على كرسيه، وسدد إلى فيليب نظرة حادة ثم قال:

- لقد أملك قليلا أننى ذكرت أن رجلك مريضة، أيها الشاب؟

- إن الناس دائما يتعرضون لذلك بشكل مباشر، أو غير مباشر عندما يغضبون منى.

- أعتقد أنهم يعرفون إنها نقطة الضعف فيك؟

وواجهه فيليب ثم نظر إليه فى ثبات وقال:

- أمسور أنت لأنك اكتشفت هذا؟

ولم يجب الطبيب، ولكنه أطلق ضحكة تنم عن فرح مريب. وجلسا لحظة فحدق كل منهما فى الآخر، ثم إذا الطبيب العجوز يفاجئ فيليب مفاجأة شديدة بقوله:

لماذا لا تبقى هنا فأتخلص من ذلك الأبله المأفون وغدته النكفية؟

- هذا فضل منك، ولكنى أمل أن أحصل على وظيفة بالمستشفى فى الخريف وسيساعدنى ذلك فى الحصول على عمل آخر فيما بعد.

وقال دكتور ساوث فى تجههم:

- لكنى أعرض عليك المشاركة فى العيادة.

وسأله فيليب فى دهشة:

- لماذا؟

- يبدو أنهم يحبونك هنا.

وقال فيليب فى خشونة:

- لم أكن أظن أن هذه الحقيقة تنال موافقتك.

أظن أننى بعد أن قضيت أربعين عاما فى المهنة، أعير أدنى اهتمام لتفضيل الناس مساعدى على؟ لا يا صديقى.. ليست هناك عاطفة متبادلة بينى وبين مرضاى، ولست أنتظر منهم عرفانا بالجميل بل كل ما انتفعتهم منهم لا يعدو أن يكون أداء أخرى، والآن ما رأيك؟

ولم يحر فيليب جوابا ولم يكن هذا لأنه كان يقلب الأمر على وجوهه بل لأنه كان دهشا فمن الواضح أنه لم تجر العادة بأن يعرض إنسان المشاركة فى عمله على شخص حديث التخرج.

وأدرك وهو فى منتهى العجب أن دكتور ساوث قد ارتاح إلى وجوده رغم عدم قيام ما يدفعه إلى ذلك وتخيل مقدار سرور أمين مستشفى القديس لوقا عندما يبلغه هذا الخبر. وقال الطبيب الكبير:

- تدر العيادة دخلا سنويا يقدر بحوالي سبعمائة جنيه. وفي الاستطاعة حساب ما يخصك، على أن تسدد ما عليك أنساطا. وعندما أموت تستطيع أن تخلفنى. وأعتقد أن هذا أفضل كثيرا من طرق باب المستشفى مدة سنتين أو ثلاث سنين، تحصل بعدها على وظيفة مساعد تستمر فيها إلى أن تستطع الوقوف على قدميك.

وكان فيليب يعلم أن هذه فرصة يتمنى معظم من يشتغلون بالمهنة أن يصلوا إليها، فقد كانت مهنة الطب تضيق بشاغيلها، ويعلم كذلك أن نصف هؤلاء لا يترددون فى شكر من يقدم لهم عملا ذا دخل ثابت مهما كان متواضعا المعروض عليهم.

ولكن فيليب قال للرجل:

آسف جدا ياسيدى ، فلن أستطيع القبول ، لأن معنى هذا أن أتخلى عن كل الأهداف التي تعلقت بأهدافهما سنين طويلة. لقد مرت بى أيام قاسية من هذا النوع أو ذاك. ولكنى رغم كل هذا كنت أضع هدفا وحيدا أمام عيني، هذا الهدف هو أن أصبح مؤهلا لكى أجوب العالم الآن، ولست أهتم بمعرفة أى مكان بالذات أذهب إليه.. فكل ما هو مطلوب السفر.. السفر إلى أماكن لم أرتدها من قبل.

واليوم يبدو الهدف قريبا.. ففيليب ستنتهى مدة عمله بمستشفى القديس لوقا فى منتصف العام القادم، وعندها سيرحل إلى أسبانيا حيث يقضى عدة أسابيع بين ربوع البلد الذى طالما بدا له أرضا شاعرية خيالية. وبعد ذلك يستطيع أن يسافر بحرا إلى الشرق وما دامت الحياة فسيحة أمامه فليس للزمن عنده حساب. ففي وسعه أن يجول أعواما إذا شاء ، ويرتاد مختلف الأماكن التي لا يتردد عليها الكثيرون من الناس ويعيش به بين أناس لا يعرفهم، ولا ما ستسفر عنه رحلاته. ولكنه يحس بأنه سيعرف نواحي جديدة من الحياة. وحتى إذا لم يجد فيها جديدا، فإنه سيكون قد هدا جذوة الشعور بالقلق التي تأكل قلبه. لكن دكتور ساوث كان به حفيا. ومن نكران الجميل أن يرفض فيليب عرضه دون سبب كاف. وعلى هذا فقد حاول فيليب فى خجل أن يكون واقعيًا، فأخذ يشرح السبب الذى يجعل من الأهمية بمكان لديه أن يقوم بتنفيذ خطته التي رسمها لنفسه.

واستمع إليه دكتور ساوث فى هدوء، وبرقت عيناه الماكرتان العجوزتان بنظرة رقيقة لطيفة ، ورأى فيها فيليب مزيدا من العطف عليه إذ لم يعمد الرجل الكبير إلى الضغط عليه لقبول عرضه. فالخير غالبا ما يتخذ صورة الأمر القاطع وبدا أن دكتور ساوث اقتنع بأسباب

فيليب. فقد كان فيه ما يجذبه إليه ووجد نفسه يبتسم له دون أن يعرف السبب. أن فيليب لم يضايقه، وقد وضع يده مرة أو اثنتين على كتفه. وعندما حانت ساعة رحيله، رافقه دكتور ساوث إلى المحطة وأحس فيليب بضيق شديد.

- لقد قضيت معكم زمنا ممتعا كنت أنت كريما معى إلى أبعد حدود الكرم.

- أعتقد أنه يسرك الخروج من هذا المكان!

- لقد تمتعت كثيرا هنا.

- ولكنك تريد أن تجوب العالم ؟ آه، انك شاب....

ثم تردد الشيخ لحظة وقال:

- أود أن تذكر دائما أن العرض سيظل قائما، إذا ما غيرت رأيك فى أية لحظة.

- هذا كرم عظيم منك ياسيدى.

ومد فيليب يده من نافذة عربة القطار يصافح دكتور ساوث. وغادر القطار المحطة، وفكر فيليب فى الأسبوعين اللذين سيقضيهما فى حقول حشيشة الدينار. وأسعده أن يفكر فى أنه سيرى أصدقاءه مرة أخرى فتملكه الفرح، وكان اليوم بديعا. أما دكتور ساوث فقد عاد إلى منزله الحالي فى خطى ونيدة ، وهو يشعر أن عمره زاد عدة سنين. وأحس بالوحشة والوحدة. ووصل فيليب إلى بلدة فيرون فى وقت متأخر من المساء. وكانت فيرون هذه مسقط رأس السيدة إثلنى. وقد اعتادت، منذ نعومة أظفارها أن تذهب إلى حقول حشيشة الدينار. ومازالت تذهب إليها مع زوجها وأطفالها كل عام. وقد خرجت أسرة السيدة إثلنى كما تفعل جميع أسر مقاطعة كنت إلى ظاهر البلدة، وهى فرحة بالحصول على مقدار من المال وخاصة بعد بيع المحصول السنوى الذى ينتظرونه شهورا وبعد خير ما يعمل فى أيام العطلات ولم يكن العمل فى الحقول شاقا فقد كان عملا جماعيا، فى الهواء الطلق، وكان الأطفال يرونه نزهة طويلة مفرخة وكان حاصدو الحشيشة فى الزمن السالف ينامون فى الأجران، ولكن حدث منذ حوالي عشر سنوات أن أقيم صف من الأكواخ إلى جانب أحد المراعى وأصبح آل إثلنى كما أصبح لغيرهم كوخ يقيمون فيه كل عام.

وقابل إثلنى فيليب فى المحطة. وكان قد استعار عربة من الفندق الذى استأجر لفيليب غرفة فيه. ويقع على بعد ربع ميل من حقول حشيشة الدينار.

وترك فيليب حقيبته فى الفندق، ومشى مع إثلنى إلى المراعى حيث الأكواخ التي لم تكن سوى صف طويل من الحظائر وقسم إلى حجرات صغيرة تبلغ مساحة كل منها اثنا عشر قدما مربعا وأمام كل كوخ منها نار موقدة من العصى تتجمع حولها كل أسرة ترتقب طهو عشائها. وقد أكسب هواء البحر. والشمس المشرقة ، وجوه أطفال إثلنى لونا بنيا أسمر كما بدت مسر إثلنى وكأنها امرأة أخرى فى قبعة الشمس التي كانت تضعها على رأسها أن الناظر إليها لا يكاد يشعر بأن السنين الطويلة التي عاشتها فى المدينة قد أحدثت فيها تعبيرا حقيقيا.. فقد كانت نفس السيدة ريفية مولدا وتربية وكنت تحس بأنها هنا فى بيتها

الحقيقية. وكانت تحمر لحم الخنزير فى الوقت الذى ترقب فيه أطفالها وعندما وصل فيليب استقبلته استقبالا طيبا حارا فصافحته وهى تزجي إليه ابتسامة جميلة. أما إثلى فقد بدأ متحمسا لمباهج الحياة الريفية.

وقالت السيدة إثلى لأطفالها :

تعالوا نتناول العشاء أيها الأطفال.. أين سالى؟

- أنا هنا، يا أماه!

وقفزت سالى من كوخهم الصغير وقد اكتسى وجهها بلون أحمر حاد من أثر لهب نار الخشب ولم يكن فيليب قد رآها من قبل إلا فى ثيابها الأنيقة التى اعتادت لبسها منذ أن كانت تعمل عند الحائكة، أما الثوب المطبوع الذى ترتديه الآن فقد كان فيه الشيء الكثير من السحر والجمال كان واسعا ومريحا بحيث تستطيع أن تعمل وهى ترتديه وكان كماه مرفوعين إلى أعلى بحيث تظهران ذراعيها القويتين المستديرين، وكانت سالى أيضا تضع قبعة شمس على رأسها.

وصفها فيليب وهو يقول :

- إنك تشبهين بائعة اللبن التى نقرأ عنها فى القصص الخرافية.

وجلست سالى صامئة ولكنها أخذت ترعى طلبات فيليب فى حصافة سحرته وفرح لوجودها إلى جانبه وكان بين الفينة والأخرى يتطلع إلى وجهها الذى لوحته شمس الشتاء والذى ينم عن صحة سابقة وقد تلاقت عيناهما مرة فابتسمت له فى هدوء وقالت السيدة إثلى لفيليب قبل أن يفارقها إلى الفندق:

- إننا نتناول طعام الإفطار فى الساعة السادسة إلا ربعا، ولكنك فيما أعلم لا تريد أن تستيقظ من النوم فى هذا الوقت المبكر فنحن كما ترى نبدأ العمل فى الساعة السادسة. طبعاً يجب أن يستيقظوا مبكرا ويجب أن يعملوا كما نعمل جميعا لكى يكسبوا قوتهم فإذا لم تعمل فلن نأكل يا ابنى. إن الأطفال يذهبون للاستحمام قبل الإفطار وبوسعهم أيضا أن يمروا عليك وهم عائدون فهم يمرون فى طريقهم بفندقك.

وقال فيليب:

- لو أيقظونى ذهبت لأستحم معهم.

وصاحت جين وصاح هارولد وإدوارد فرحا بهذا الاقتراح وفى الصباح التالى استيقظ فيليب من نوم عميق على صوت اندفاعهم إلى حجرته وقفز الأولاد على سريره فأخذ يطاردهم بخفة، ثم ارتدى فيليب معطفه وسرواله ونزل معهم وكان النهار يوشك أن يشرق والجو يميل إلى البرودة، وإن كانت السماء صافية الشمس ساطعة فى اصفراء وكانت سالى واقفة فى منتصف الطريق وقد أمسكت بيد كوني وعلى ذراعها منشفة وملابس حمام ووجد فيليب أن قبعة الشمس التى كانت ترتديها سالى كانت فى لون زهر الخزامى يقابل هذا وجهها الذى جمع بين اللونين الأحمر والأسمر فأصبح فى لون التفاح، وحيته سالى

بابتسامتها الحلوة البطيئة ولاحظ فجأة انتظام أسنانها وصفارها وبياضها الشديد وعجب كيف لم يلفت هذا نظر من قبل.

وقالت سالى لفيليب:

- كنت أريد أن يتركوك نائما ولكنهم أيقظوك وكنت أقول لهم إنك أم تكن تريد المجيء بحق.

- بل كنت أريد.

وسار فى الطريق ثم اجتاز المستنقعات إلى ساحل البحر الذى كان على بعد أقل من الميل من نقطة ابتدائها وبدت مياه البحر سنجابية اللون وارتعد فيليب عند رؤيتها ولكن الأطفال خلعوا ثيابهم وجروا إليها وهم يصخبون وفعلت سالى كل ما فعلته فى بطن فلم تنزل إلى الماء إلا بعد أن نزل إليه الجميع وأخذوا ينثرون الماء عاليا حول فيليب وكانت السباحة هى الشيء الوحيد الذى يتقنه وكان يشعر وهو فى الماء بأنه حيث يحب أن يكون وسرعان ما جعل الجميع يقلدونه وهو يمثل لهم سباحة الحوت والرجل الغارق والسيدة السمينة التى تخاف أن يبتل شعرها وأصبحت السباحة صاخبة، وكان لابد أن تتصنع سالى القسوة والحزم لحمل الجميع على الخروج من البحر.

وقالت سالى لفيليب بطريقتها التى تجمع بين الأمومة والصرامة تلك الطريقة التى كانت مضحكة ومؤثرة فى وقت واحد:

- إنك لا تقل سوءا عن أى فرد منهم. فهم لم يكونوا أشرارا كما هم الآن عندما كنت بعيدا عن هنا.

وعاد الجميع وكانت سالى تمسك بقبعتها فى يدها وقد تهدل شعرها الجميل على إحدى كتفيها وما أن وصلوا إلى كوخ حتى كانت السيدة إثلى قد ذهبت إلى الحديقة، أما إثلى فقد كان يلبس أقدم سروال لبسه إنسان فى حياته وقد زرر معطفه ليظهر أنه لا يرتدى قميصا تحته وعلى رأسه قبعة لينة واسعة الأطراف وقد أخذ يقلب السمك السالمون على نار الخشب وكان فرحا بنفسه وهو يبدو كقطاع الطرق لا فرق مطلقا فى كل شيء وما أن شاهد الجماعة حتى بدأ يغنى أغنية جماعة السحرة فى مسرحية ماكنتز وقال لهم:

يجب ألا تتأخروا فى إفطاركم وإلا أغضبتكم أمكم.

ولم تمض دقائق معدودة حتى كان هارولد وجين يقفزان بين المراعى إلى حقول حشيشة الدينار وقد أمسكا بأيديهما قطع الخبز بالزبد كانا آخر من غادر المائدة، وكانت حديقة حشيشة الدينار أحد المناظر المرتبطة بطفولة فيليب، كما كانت أفران التجفيف هى الطابع المألوف فى مناظر مقاطعة كنت.

ولم يكن فيها شيء من الغرابة، بل إن فيليب تبع سالى خلال الحشيشة كما لو كان موطنه الأصلي وكانت الشمس ساطعة فى ذلك الوقت وقد ألقت ظلالات واضحة للأشياء ومتع فيليب

نظره بخضرة الأوراق وكانت حشيشة الدينار أخذة في الاصفرار كانت بالنسبة له تحمل نفس الجمال ونفس الشعور اللذين وجدتهما شعراء صقلية في لون عينيها الأرجواني.
وأحس فيليب خلال سيره مع سالى بأنه مأخوذ بهذه النضارة العظيمة فقد هبت رائحة عطر جميل من أرض كنت الخصبة وكان نسيم سبتمبر العليل مثقلا برائحة حشيشة الدينار الجميلة.

ولم يكن لفيليب سبت خاص يجمع فيه المحصول ، فجلس مع سالى. ووجدت جين من المريع حقا أن يساعد أختها الكبيرة ولا يساعدها هي ، فوعدها بأن يكون معها بعد أن يمتلئ سبت سالى. أما سالى فكانت سريعة كأمها.

وسألها فيليب :

— ألا يؤذى جمع الحشيش يدك ، فلا تستطيعين الحياكة ؟

— كلا ، أن هذه العملية تتطلب يدا ناعمة ، وهذا هو السبب في أن النساء خير من الرجال في جمعها فإذا كانت يداك خشنيتين وأصابعك جافة من عملك الشاق ، فلن تستطيع أن تقطف كما ينبغي.

وكان يحب أن ترى حركتها الماهرة ، وكانت هي ترقبه بين الحين والحين بروح الأمومة الطاغية عليها ، تلك الروح التي كانت ممتعة وساخرة إلى أبعد حد. وكان فيليب أول أمره غير بارع في عمله فكانت تضحك منه وقد تلاقى يديهما عندما انحنت عليه لتريه خير الطرق في معالجة (اقتطاف) صف بأكمله. وقد أثار دهشته أن علا وجهها الاحمرار ، ذلك أنه لم يستطع أن يقنع نفسه يوما ما بأنها امرأة فقد عرفها مداعبة ، ومازال غير قادر على اعتبارها أكثر من طفلة رغم أن عدد المعجبين بها يؤكد أنها لم تعد طفلة بعد.

ورغم أنه حدث بعد أن سافروا ببضعة أيام ، أن أظهر أحد أقارب سالى اهتماما عظيما بها ، كما سبب لها كثيرا من الضيق ، وكان اسمه بيترجان ، وهو ابن أخت السيدة إثلنى التي تزوجت مزارعا في قرية فيرن. وأبرك الجميع لماذا كان بيترجان يجد من الضروري أن يتجول يوميا خلال حقول الحشيشة.

وكان وقت انتهاء العمل يتحدد على أساس الحالة في بيت أفران التجفيف فقد كان أحيانا يمتلئ مبكرا إذ يقطف الكثير من الحشيشة ، ليوقف خلال الليل. وهنا يقف العمل. ولكن الذى كان يحدث غالبا أن يعمل الحساب اليومي للعمل بقدر آخر تقديرا للعمل اليومي في الساعة الخامسة ، وكان لكل شركة مستودعاتها التي تجمع فيها أشياءها ، ثم يبدأ الجميع في السمر بعد انقضاء العمل ويخرجون على مهل من الحدائق. ويعود السيدات إلى الأكواخ لتنظيفها وإعداد العشاء ، بينما يتسكع عدد كبير من الرجال في الطريق إلى الحانة ، فإن كأسا من الجعه تضيفي الكثير من اللذة على الشخص بعد انتهاء عمله اليومي.

وقالت السيدة إثلنى لفيليب :

أتوقع أن تستعد للنوم ، فلم تعدد الاستيقاظ مبكرا في الخامسة والبقاء في الخلاء طول اليوم.

وصاح الأطفال :

— ستأتي لتستحم معنا يا عم فيل ، أليس كذلك ؟
— تقريبا.

وكان مجهدا وسعيدا. وقد جلس بعد العشاء بجوار حائط الكوخ على كرسي دون ظهر ، وأخذ يدخلن قصبته وهو ينظر إلى الليل. أما سالى فكانت مشغولة تدخل الكوخ وتخرج منه. وهويرقب في كسل بالغ ما تقوم به من أعمال منظمة. وكانت مشيتها تجتذب انتباهه ، نعم فلو أنها لم تكن على درجة كبيرة من الرشاقة فقد كانت تمشى سهلة متندة ، وكانت رجلها تتأرجحان من ردفها وقدمها تطآن الأرض في عزم وتصميم. وكان إثلنى قد ذهب ليثرثر مع بعض جيرانه ، وسرعان ما سمع فيليب زوجته تخاطب العالم كله قائلة :

اسمعوا ، لقد نفذ الشاي ، وكنت أريد أن يذهب إثلنى ليحضّر بعضه.

ومضت فترة ارتفع بعدها صوتها تقول :

— سالى.. انذهبي إلى مسز بلاك لتحضري نصف رطل من الشاي ، لقد نفذ من عندي كله.
— سمعا وطاعة يا أمه.

وكان لمسز بلاك كوخ يبعد عن كوخم نصف ميل على طول الطريق بين مكتب البريد ومكتب التموين العام. وخرجت سالى من الكوخ وهي تنزل كميها.
وسألها فيليب :

— هل أصحبك يا سالى ؟

— لا تتعب نفسك ، فلست أخشى الذهاب وحدي !

— لا أقول أنك خائفة ، ولكن وقت نومي قد حان ، وكنت أفكر حالا في تمشية رجلي.
ولم تجب سالى وسارا معا وكان الطرق خاليا من كل حركة. فلم يكن هناك ما يعكر سكون الليل. ولم يتحدثا كثيرا ، حتى قال فيليب أخيرا :

— أعتقد أنه جو حار حتى في هذه الساعة.

— أظنه جو بديع بالنسبة لهذا الوقت من العام.

ولكن صمتهما لم يبد مزعجا ، فقد وجدا من الممتع أن يسيرا جنبا إلى جنب ، ولم يشعرا بحاجة إلى الكلام. وفجأة وعندما درج يصعد إلى السياج النباتي سمعا أصواتا خافتة ورأيا في الظلام شبح اثنتين ، كانا جالسين جنبا إلى جنب ، ولم يتحركا عندما مر بهما فيليب وسالى.

قالت سالى :

— ترى من يكون هذان ؟

— يبدو أنهما سعيدان جدا ، أليس كذلك ؟

- أعتقد أنهما قد ظلنا أنهما عاشقان أيضا.

وأبصرا نور الكوخ أمامهما ، وبعد هنيهة دخلا المحل الصغير. وقد أعشاهما الضوء اللامع لحظة من الزمان.

وقالت مسر بلاك :

- لقد تأخرتما.. فقد كنت على وشك إغلاق المحل.

ثم نظرت إلى ساعة وقالت :

- إنها تقترب من التاسعة.

وطلبت سالى نصف رطل شاي ، ذلك أن السيدة إثلني لم يكن أحد يستطيع أن يقنعها بأن تشتري يوما أكثر من نصف رطل في المرة الواحدة. وعادا مرة أخرى إلى الطريق. وكانت وحوش الليل ، تأتي بين الحين والآخر بأصوات حادة قصيرة ، ولكنها كانت أصواتا تجعل السكون أوضح مما كان وأكثر ظهورا.

وقالت سالى:

- أظن أنك إذا وقفت استطعت أن تسمع صوت ماء البحر.

وأرهفا أذنيهما ، وذهب بهما الخيال إلى أنهما يسمعان أصوات الموج الصغيرة الخافتة مع حبس الشاطئ وعندما مرا بالدرج مرة أخرى كان العاشقان لا يزالان حيث هما. ولكنهما لم يكونا يتكلمان بل كانا يتعانقان ، وقد ضغطت شفقا الفتى على شفتي الفتاة.

وقالت سالى:

- يظهر أنهما مشغولان.

وانعطف بهما الطريق ، وهب نسيم دفى على وجهيهما لحظة وواجهتهما الأرض بنظرتها وكأن هناك شيئا غير عادى فى ذلك الليل المرتجف ، شئ لا تعرف ما هو ، يبدو أنه سيقع وشيكا. وأصبح الصمت فجأة مليئا بالمعنى. وخامر قلب فيليب شعور غريب. إن قلبه كان يذوب ! كان فيليب يشعر بالسعادة وبالقلق وبمرارة الانتظار. ولم يدرك فيليب ماذا كان فى الهواء ، حتى جعل حواسه على هذا الوضع من اليقظة العجيبة. وبدا له أنه كان روحا نقية طاهرة يستمتع برائحة الأرض وأصواتها وطعمها. ولم يشعر من قبل بمثل هذه القدرة الشائقة على إدراك الجمال. وكان يخشى أن تفسد سالى هذا السحر إذا ما تكلمت ، ولكنها لم تنبس ببنت شفة ، وكان يتوق إلى سماع صوتها ذلك أن خصوبة هذا الصوت الخفيض تمثل فى نظره صوت الليل فى الريف.

ووصلا إلى الحقل الذى لا بد أن تجتازاه حتى تعود إلى الأكواخ. ودخل فيليب ليفتح لها

الباب:

- هنا أستطيع أن أقول لك (نعمت مساء).

- أشكرك لاصطحابي طول هذا الطريق.

ومدت له يدها وقال وهو يتناولها :

- لو كنت ظريفة لمنحتنى قبلة المساء ، كما تفعلين مع بقية أفراد الأسرة

وردت عليه قائلة :

- لا مانع لدى..

وكان فيليب يتكلم وهو يمزح. فقد كان كل ما يعنيه أن يقبلها ، لأنه كان سعيها يحبها ، كم كانت الليلة رائعة جميلة !

وقال وهو يضحك قليلا ، وقد جررها إليه :

- طابت ليلتك إذن.

ونام فيليب وكأنه كتلة من الخشب ، وصحا فزعا ليجد هارولد يداعب وجهه بريشة وندت عن الأطفال صيحة فرح عندما فتح عينيه. فقد كان ثملا من كثرة النوم. وقال - هيا أيها الكسول. لقد قالت سالى إنها لن تنتظرك ما لم تسرع.

وتذكر فيليب ما حدث بالأمس. وغاص قلبه ، وما كاد يغادر الفراش حتى توقف.

يدري كيف يواجهها. لقد طغى عليه شعور مفاجئ من تأنيب الضمير ، وأسف أشد وبكل مرارة لما فعل. ترى ماذا تقول له هذا الصباح ؟ لقد كان يخشى أن يقللها ، وسأ كيف أمكن أن يكون بهذا الحق ، ولكن الأطفال لم يتركوا له فرصة للتفكير ، فقد أخذ لباس استحمامه ومنشفته ، وأزالت أثملستان غطاء الفراش ، وما أن انقضت دقائق حتى كان الجميع فى الطريق. وقابلته سالى بابتسامة حلوة ، بريئة كما كانت دائما وقالت له :

- إنك تضيع وقتا طويلا فى ارتداء ملابسك. لقد ظننت أنك لن تحضر !

ولم تكن هناك ذرة من التغيير فى سلوكها أو حالتها ، فقد كان يتوقع أن يراه التغيير سواء أكان تغيرا دقيقا صغيرا أم مفاجئا. وكان يتخيل أنه سيبدو عليها الغضب فى طريقة معاملتها له ، أو ربما بعض الزيادة فى عدم التكلف. ولكن شيئا لم يحدث. فقد كانت على حالتها الأولى تماما. وساروا جميعا إلى البحر ، وهم يد ويتحدثون. وكانت سالى هادئة ولكنها كانت كذلك دائما متحفظة ومهذبة. ولم يد على غير ذلك ولم تفكر فى محادثته كما أنها لم تتحشاها. وتملكت فيليب الدهشة. يتوقع أن تثير حادثة ليلة أمس بعض الثورة فى نفسها ولكن كل شئ سارفى طريقة شيئا لم يحدث ، أو كأن ما حدث كان حلما. وأخذ فيليب يفكر فى تعليل لهذه الحالة سيره فى الطريق ممسكا ببنت فى يده وبصبي فى الأخرى وهو يثرثر دون اهتمام ، فى تعليل ما لهذه الحال. وتساءل فى نفسه هل تقصد سالى أن ينسى هذا الموضوع مشاعر سالى قد سارت فى نفس الطريق الذى سارت فيه مشاعره ، ووجدتنيما جرة كان نتيجة لظروف غير عادية وعلى هذا قررت أن تصرفه عن ذهنها. ولكنه فى هذا يعزو إليها قدرة على التفكير والحكمة الناضجة ، لا تتناسب مع سنها وأخلاقيها. أدرك أنه لا يعرف عنها شيئا وأن فيها على الدوام شيئا غامضا.

ولعبوا جميعا لعبة قفز الضفدع فى الماء ، وكانت السباحة صاخبة ، كما كانت فى اليوم السابق. أما سالى فقد كانت للجميع بمثابة الأم. تراقبهم جميعا وتستدعيهم إذا سبحوا بعيدا جدا. وكانت تسبح فى رزاة إلى الأمام وإلى الخلف بينما كان الآخرون يعبثون ، وبين الحين والحين كانت تتقلب على ظهرها وتطفو وسرعان ما خرجت من البحر وبدأت تجفف جسمها. ونادت الجميع للخروج بصوت الأمر النهائى ، فخرجوا جميعا غير فيليب من الماء ، فقد انتهاز الفرصة لكى يقوم بسباحة شاقة جيدة. بعد أن أصبح فى يومه الثانى أكثر قدرة على السباحة فى المياه الباردة. وقد تملكه المرح وهو يسبح مستعملا أطرافه فى حرية تامة. وقطع مياه البحر بضرباته الثابتة الطويلة. ولكن سالى نزلت إلى حافة الماء والمنشفة حولها وقالت له كما لو كان طفلا صغيرا تحت رعايتها.

- يجب أن تخرج من الماء حالا ، يا فيليب.

وعندما ذهب إليها ، وهو يبتسم فى سرور لطريقتها التحكمية ، عنفته قائلة :

- من العبث أن تمكث فى الماء طويلا كما فعلت. لقد ازرققت شفتاك ثم انظر إلى أسنانك ، إنها تصطك.

- إنك على حق. سأخرج.

ولم تكن سالى قد تحدثت إليه بهذه اللهجة من قبل. وكأن ما حدث بينهما قد رتب لها نوعا من الحقوق عليه. فاعتبرته طفلا من واجبها رعايته وما أن انقضت دقائق معدودة ، حتى ارتديا ملابسهما وبدأ سيرهما عاندين إلى كوخ. ولا حظت سالى يدى فيليب وقالت :

- انظر.. لقد أصبحتا زرقاوتين.

- إنها الدورة الدموية ولا شئ أكثر من هذا وسيعود الدم حالا بعد دقيقة.

- أعطنى إياهما.

وأخذت يديه فى يديها وبدأت تدلكهما ، الواحدة بعد الأخرى ، حتى عاد إليهما لونهما وقد لاحظها فيليب وهى تقوم بذلك فى تأثير وحيرة. ولم يتحدث معهما بشئ لوجود الأطفال ، ولم تلتق عينيهما لم تتحاشيا الالتقاء بعينيه عن قصد. بل كان مجرد صدفة ، ولم يبد من تصرفها خلال اليوم ما يدل على أنها تفكر فى أن شيئا ما حدث بينهما. ولربما كانت اليوم أكثر ثرثرة من عاداتها. وعندما جلسوا جميعا مرة أخرى فى حقل حشيشة الدينار ، أخبرت سالى أمها كيف كان فيليب خبيثا فلم يخرج من الماء الا بعد أن أصبح لونه أزرق من شدة البرد ، كان هذا كله بعيدا عن أن يصدفه فيليب ، وقد بدا أن الأثر الوحيد لحادث ليلة أمس هو إنه أثار فيها شعورا بالحماية فقد أصبحت لها نفس الرغبة الغريزية فى رعايته ، كما كانت بالنسبة لإخوتها وأخواتها.

ولم يحدث أن اختلى بها عند المساء. فقد كانت تطهو العشاء ، وكان هو جالسا على الكلا إلى جانب النار. وقد ذهبت السيدة إثلى إلى القرية لتبتاع بعض حاجاتها وتناثر الأطفال فى جهات شتى يقومون ببعض أعمالهم الخاصة ، وتردد فيليب قبل أن يتكلم.. فقد كان

عصبيا جدا ، واستمرت سالى فى عملها فى مقبرة رصينة ، وقد ارتضت هذا السكون الذى كان يحيره. ولم يدر كيف يبدأ كلامه. أما سالى فإنها لم تكن لتتكلم إلا إذا تحدث غيرها إليها أو كان لديها شئ خاص تريد قوله. وأخيرا لم يستطع صبورا فقال فجأة :

- لست حانقة على يا سالى؟

ورفعت سالى عينها فى هدوء ونظرت إليه دون أن يبدو عليها أى انفعال وقالت :

- أنا ؟ كلا.. ولماذا أحنق عليك ؟

وأخذ فيليب.. فلم يستطيع الإجابة ، ورفعت غطاء القدر ، وحركت ما بداخله ثم أعادت تغطيته ثانية وانتشرت فى الجو رائحة شهية. ونظرت إليه مرة أخرى ، بابتسامة هادئة لم تكن تنفرج عنها شفتاها حتى لكأنها ابتسامة بالعينين وقالت :

- كنت أحبك دائما !

واختلج قلبه بشدة داخل ضلوعه ، وشعر بالدم يندفع إلى وجنتيه ، واغتصب ضحكة باهتة وقال :

- ما كنت أعرف ذلك..

- ذلك لأنك غبى..

- لست أدري لماذا أحببتنى ؟

- ولا أنا..

ووضعت سالى مزيدا من الخشب فى النار ثم قالت :

كل ما أعرفه أننى أحببتك منذ ذلك اليوم الذى زرتنا فيه ، عندما كنت تنام فى الشارع ، ولم تكن تجد ما تأكله ، أتذكر ذلك ؟ وقد أعددت لك أنا وأمى فراشا وثوبا لتنام فيه.

واحمر وجه فيليب ثانية فلم يكن يدرى أنها كانت تذكر هذا الحادث ، وقد تذكره هو فى هلع وخجل ثم تابعت سالى حديثها قائلة :

- وهذا هو السبب فى عدم قيام علاقة لى مع الآخرين. ولعلك تذكر ذلك الشاب الذى كانت أمى جد راغبة فى زواجه منه ؟ لقد دعوته للشاي لأنه ألح فى الطلب ولكننى كنت مصرة على أن أقول «لا»..

وبلغ من دهشة فيليب أنه لم يجد ما يقوله.. لقد كان فى قلبه شعور غريب ، لم يدر ما هو إن لم تكن السعادة. وحركت سالى القدر مرة أخرى وقالت :

- أود لو أسرع الأطفال بالمجئ. فلست أدري أين هم ، والعشاء معد الآن..

وقال فيليب :

- هل أذهب لأرى إن كان فى استطاعتى العثور عليهم ؟

وكان الكلام فى الأمور العملية خلاصا لفيليب مما هو فيه.

- ليست هذه فكرة سيئة على كل حال ، وهى ذى أمى قادمة.

وعندما نهض نظرت إليه سالى دون أن يعطوها أى ارتباك وقالت له :

— هل أستطيع أن آتى للمشى معك الليلة بعد أن أضع الأطفال فى فراشهم ؟

— نعم..

— إذن فانتظرنى عند الدرج الموصل إلى السياج النباتى وسأحضر بعد أن أنتهى من عملى.

وانتظر فيليب تحت النجوم ، جالسا على الدرج ، وقد تدلى السياج بعوسجة الناضج على الجانبين. وانبعثت من الأرض رائحة الليل ، ولم يكن يفهم شيئا مما حدث له. فقد كان يربط عاطفة الحب بالبكاء والدموع والانفعال الشديد. ولم يكن فى سالى شئ من ذلك ولكنه لم يدر أى شئ آخر غير الهيام قد جعلها تسلم إليه نفسها. ولكن ، أهو الهيام به ؟ لم يكن فيليب ليعجب لو أنها هامت بحب ابن خالتها بيتر جان. فقد كان طويلا ، مستقيم العود نحىلا نحيف القوام ، ذا وجه لفحته الشمس ، وخطى طويلة سهلة. وعجب فيليب ما الذى ارتأته فيه هو ؟..

ولم يكن يعرف هل أحبته الحب الذى يعرفه. وكان مؤمنا بطهارتها وكان يتناوبه شعور غامض غير واضح بأن هناك عوامل عدة قد تضافرت عليها ، عوامل شعرت بها رغم عدم إدراكها لها. فقد أسكرها الهواء وحشيشة الدينار والليل ، وغريزة الأنوثة الطبيعية السليمة والرقعة الطاغية ، والعاطفة التي تجمع بين الأمومة والأخوة. وهكذا منحت كل ما تستطيع أن تمنحه لأن قلبها كان عامرا بالخير.

وسمع خطوا فى الطريق ، وبرز شبح من الظلام ، وتمتم فيليب قائلا :

— سالى..

ووقفت سالى ثم أتت إلى الدرج وأتى معها طيب الريف الحلو النظيف. وقد بدا أنها تحمل معها روائح الدريس حديث الحصاد ، وطعم حشيشة الدينار الناضجة ونضارة الأعشاب الصغيرة.

وأخذ العجب من جمالها فقد كانت تتلألأ فى الظلام وكان لها نفس الجلد الذى رسمه روبين ، ذلك الجلد الذى يدهش الناظر بجماله وشفيفه ، وعلى أحد جانبيها نما بعض الشعر الذهبى الصغير. فلم يكن للبشر مثل هذه الطبيعة البسيطة الشيقة ، وفكر فيليب وقتئذ فى كوخ ذى حديقة تحتوى الأزهار العزيزة كالوردتين البيضاء والحمراء اللتين يسميانهما «بيت لانكستر ويورك وما إلى ذلك من الأزهار». وقال لها :

— كيف تهتمين بى ؟ إنى حقير ، عاجز ، عادى قبيح المنظر.

وأمسكت سالى وجهه ثم قالت :

— أنت غبى عجوز ، هذا هو أنت !

وبعد أن انتهى حصاد حشيشة الدينار عاد فيليب مع آل إثلني إلى لندن وفي جيبه نبأ تعيينه فى وظيفة نائب فى مستشفى القديس لوقا. وقد اكترى لنفسه مسكنا متواضعا فى وستمنستر، وبدأ عمله فى أوائل شهر أكتوبر وكان العمل لذيذا ومتشعبا، يتعلم فيه كل يوم

شيئا جديدا. وشعر بأنه أصبح إنسانا ذا شأن فى الحياة. واعتاد أن يرى سالى كثيرا ووجد الحياة سارة على غير ما اعتاد. وكان عمله ينتهى فى الساعة السادسة إلا فى الأيام التي يذهب فيها إلى العيادة الخارجية، فكان يذهب إلى المحل الذى تعمل فيه سالى ليرافقها بعد خروجها.

وكان هناك عد من الشبان يتسكعون أمام المدخل التجارى أو على بعد منه عند أول ركن فى الشارع، وعندما يخرج البنات مثني مثني أو فى مجموعات صغيرة يتغامزون ويقهقهون. أما سالى فى ثوبها الأسود البسيط، فكانت تختلف تماما عن فتاة الريف التي قطفت الحشيشة معه جنبا إلى جنب. فقد كانت تسير من المحل مسرعة، ثم تبطئ فى خطوها عندما يتقابلان وتخيه بابتسامتها الهادئة، فيسيران معا خلال الشارع المزدهم يحدثها عن عمله فى المستشفى، وتحدثه هي عما كانت تفعله فى ذلك اليوم وأصبح يعرف أسماء الفتيات اللانى يعملن معها. ووجد أن سالى تتميز بحاسة انتقادية تهكمية مكبوحة وإن كانت حادة. فهي تبدى ملاحظات عن الفتيات وعن الرجال الذين يتعلق بهم، وتعمل وكان ما تنطوى عليه هذه الملاحظات من مزاح غير متوقع مما يسر فيليب، ففيه بعض التسلية وكانت لها طريقتها الخاصة فى التحدث عما تريد أن تتحدث عنه. فهي تتكلم فى رصانة مكينة كأن لم يكن فى الأمر شئ يضحك. ومع هذا فقد كان حديثها قويا بحيث يجعل فيليب ينفجر بالضحك. ثم تحدج فيليب بنظرة بسيطة توحى فيها عيناها الباسمتان بأنها تدرك فى كلامها روح الفكاهة. وكانا دائما يتصافحان عند اللقاء ويفترقان بصورة رسمية، وقد دعاها فيليب مرة إلى تناول الشاي فى مسكنه ولكنها رفضت قائلة:

— كلا لا أستطيع ذلك فإنه لوحدث لبدأ أمرا مضحكا.

ولم تجر على لسان أى منهما كلمة من كلمات الحب. وبدت وكأنها لا تريد أكثر من مصاحبة فيليب فى روحاته وغدواته وكان هو يدرك كل الإدراك أنها يسرها أن تكون معه. وقد حيرته الآن كما حيرته فى بادىء الأمر ولم يبدأ بعد فى تعرف سلوكها على حقيقته. ولكنه كان كلما عرفها جديدا ازداد غراما بها. فقد كانت ذات كفاءة ممتازة تتميز بقدرتها على ضبط النفس وبأمانتها الفائقة الساحرة، حتى ليشعر المرء أن باستطاعته الاعتماد عليها فى كل الظروف.

قال لها فيليب يوما دون أن يكون هناك موجب لهذا القول:

— إنك شخصية طيبة إلى درجة كبيرة..

فأجابته:

— أظن أنني لا أفترق فى شئ عن سائر الخلق.

ثم عرف فيليب أنه لم يكن يحبها، وأن ما كان يشعر به إنما هو فى الحقيقة مجرد عاطفة شديدة نحوها، فقد كان يحب مصاحبتها لأنه يجد فى ذلك ترفيها عن نفسه، وكان يخالجه نحوها شعور خيل إليه أن من السخف أن يكون له نحو عاملة فى متجر فى التاسعة عشرة

من عمرها ذلك أنه يحترمها ويعجب بصمتها وبسمعتها الطيبة. فهي كائن عظيم لا عيب فيه. وكان هذا الكمال الجسمي جديرا بها.

و ذات يوم، بينما كانا سائرين معا، وكان ذلك بعد أسابيع ثلاثة من عودتهما إلى لندن، لاحظ فيليب أن سالى صامتة .. على غير العادة. وقد تغيرت معالم الرصانة على وجهها بخط رفيع بين أهدابها، وكان هذا إيذانا بالعبوس،

وسألها فيليب قائلاً:

- ماذا بك يا سالى؟

ولم تنظر سالى إليه، بل نظرت أمامها مباشرة وتغير لونها ثم قالت :

- لست أدري.

وفهم فيليب فى الحال ما تعني وبدأ قلبه يخفق بشدة، وشعر بالدم يفارق وجنتيه.

- ماذا تعنين؟ أخائفة أنت أن...؟

وتوقف فيليب عن الكلام ولم يستطع الاستمرار فيه. فإن احتمال وقوع شئ كهذا لم يخطر يوماً بباله ورأى أن شفتيها ترتجفان وأنها على وشك البكاء.

وقالت:

- لست متأكدة بعد.. ولعل الأمر يمر على خير!

وسارا معا فى صمت حتى وصلا إلى ركن حارة تشا نسرى حيث اعتادا أن يفترقا، ورفعت سالى يدها وابتسمت قائلة:

- لا تزعج نفسك لهذا الموضوع الآن، ولنأمل الخير.

ومضى وقد عصفت برأسه أمواج التفكير. ياله من مجنون! كان هذا أول ما خطر له، أنه شخص سافل تعس أحق. ومضى يكرر هذه الكلمات لنفسه عشرات المرات، إنه يحتقر نفسه، كيف وقع فى هذه الزلة ؟ وسأل فيليب نفسه ما الذى سيفعله. فقد كانت الأفكار يطارد بعضها بعضها فى ذهنه، ثم بدت وكأنها قد تجمعت فى حيرة يائسة.

لقد كان كل شئ واضحاً أمامه . وقد أصبح كل ما كان يهدف إليه منذ زمن طويل فى متناول يده وهامو ذا غباؤه الواضح قد أقام عقبة جديدة فى سبيل مستقبله ، ولم يستطع فيليب أن يتغلب أبداً على ما كان يراه نقصاً فى رغبته الجازمة فى حياة منظمة. وهذا النقص هو رغبته فى أن يعيش فى المستقبل. فما كاد يستقر فى عمله فى المستشفى حتى أخذ يشغل نفسه بالاستعداد للرحلات التى سيقوم بها. لقد حاول كثيراً فى الماضى ألا يفكر تفكيراً دقيقاً فيما يضعه من خطط للمستقبل. ذلك أن هذا الأمر لم يكن له من أثر إلا أن يثبط من همته ، أما الآن فإنه لم ير شراً فى الاستسلام لهذه الرغبة الملحة التى كان يصعب عليه أن يقاومها. فعزم على السفر أولاً إلى أسبانيا ، إنها أمل قلبه ، وقد أصبح الآن مفتوناً بروحها وخيالها الشعرى وبلونها وتاريخها وعظمتها. وكان يشعر بأن لهذه البلاد رسالة له خاصة لا يستطيع أى بلد آخر أن يحققها له. وقد أصبح يعرف مدنها القديمة الجميلة كما لو كانت

قدماء قد وطنتا شوارعها المتعرجة منذ نعومة أظفاره، كان يعرف قرطبة وأشبيلية ، وطليلة ، وليون ، وبرغوس ، وطراقونة. وكان كبار رسامي أسبانيا أقرب رسامي العالم إلى نفسه. وكانت دقات قلبه تزداد سرعة كلما تصور تشوقه عندما يواجه إحدى بدائع هؤلاء العباقرة ذات التعبير والتى لا يمكن لغيرها أن تجد لها معنى فى قلبه القلق المعذب.

وكان قد قرأ لكبار شعرائها ميزات لجنسهم أكثر مما يجده فى شعر غيرها من أبناء البلاد الأخرى. فقد خيل أنهم لم يستمدوا قط وحيهم من تيارات العالم الأدبية بل إنهم يستمدونه مباشرة من سهول بلادهم الحارة العطرة وجبالها القفرة.

وعما قليل سيسمع فيليب بأذني رأسه ، فى كل مكان من أرض أسبانيا تلك اللغة التى تبدو له أجدر معه بمجد الروح وبالعاطفة. وقد أوحى إليه ذوقه المرفه أن الأندلس جد رقيقة وعاطفية بل ومبتذلة قليلاً فلا تنثير حماسه وتركز خياله فى رغبة جامحة فى مشاهدة أرغوته وليون ولم يكن يدري ما ستسفر عنه هذه الاتصالات والرحلات ، ولكن كان يشعر بأنها كفيلة بمنحه القدرة والغاية اللتين سيملكانه من مواجهة عجائب الأماكن الأكثر منها بعداً وغربة وفهما حق الفهم.

لقد كانت مجرد بداية ، وقد اتصل بالشركات المختلفة ، والتى تحتاج إلى جراحين على سفنها وعرف منها خطوط سيرها ، كما عرف ممن سافر على ظهر هذه السفن مزايا هذا الخط أو ذاك ومضاره. وأغفل فيليب شركة الشرق «أورينت» وغيرها.. فقد كان من العسير الحصول على مكان فى سفنها. هذا إلى أنه قلما يسمح بشئ من الحرية للضابط الطبيب الذى يسافر عليها بسبب المسافرين عليها، بينما كانت هناك شركات أخرى تقوم برحلات بطيئة على نطاق واسع إلى الشرق وتقف مراكبها على مختلف الموانئ فترات متباعدة تتراوح بين يوم أو اثنين وأحياناً تصل إلى الأسبوعين ، حيث يستطيع المرء أن يجد المتسع من الوقت الذى يمكنه من القيام برحلات قصيرة فى داخل البلاد فى كثير من الأحيان.

ومرتبات الأطباء على ظهر هذه السفن جد قليلة، ولم يكن الطعام بأكثر من الضرورى ، مما قلل الإقبال عليها. ولهذا فإن أى شخص يحمل درجة من لندن لابد أن يحصل على وظيفة عليها إذا تقدم لها.

وإذا لم يكن هناك مسافرون أكثر من شخص أو نحوه يبحر على هذه المراكب فى سبيل قضاء مهمة من أحد الثغور لتأتيه إلى أى ثغر آخر ، فإن الحياة على ظهر المراكب كانت جميلة وتنعقد الصداقة خلالها بين الراكبين ، وقد حفظ فيليب عن ظهر قلب قائمة الأماكن التى ترسو عليها تلك السفن، وكان كل مكان منها يثير فى خياله صورة شمس المدارين الساطعة ، والألوان السحرية ، واتساع الحياة الغامضة المكتظة القوية.. الحياة.. كانت هي كل ما يريد فيصبح أخيراً قاب قوسين أو أدنى من الحياة. وقد يستطيع أن يتخذ من طوكيو أو من شنغهاى طريقاً أخرى إلى جزر المحيط الهادى الجنوبي ، فالطبيب يصلح للعمل فى أى مكان. فربما سنحت له الفرصة للذهاب إلى بورما أو أى غابة فى سومطرة وبورنيو لم يكن فى

استطاعته من قبل أن يزورها. فهو لا يزال صغير السن وليس للزمن أن يحول بينه وبين تحقيق ما يأمل. وليست هناك روابط تربطه بانجلترا، ولم يعد له أصدقاء فيها.. فبوسعه أن يسافر هنا وهناك سنوات يتعلم خلالها جمال الحياة وبدائعها وتباين الأشياء فيها. وقد أتى هذا اليوم، وأسقط من حسابه احتمال وقوع سالي في الخطأ. فقد كان يشعر جدياً بأنها كانت على حق، ومهما يكن من شيء، فإن هذا الشيء ببعيد، فقد كان في وسع أي إنسان أن يعرف أن الطبيعة قد أعدتها لتكون أما لأطفال.

وكان يعرف ما ينبغي له عمله. يجب ألا تحوله هذه الحادثة قيد شعرة عن السير قدماً في طريقه. وفكر فيليب في جريفت واستطاع في سهوله أن يتصور عدم المبالاة التي كان يقابل بها مثل هذه الأمور. كان جريفت سيراهما مجرد مضايقة كبيرة ثم سرعان ما يفر من الموقف. كان أي شخص عاقل يترك الفتاة وراءه تدبر أمر نفسها على الشكل الذي تستطيعه. وأقنع فيليب نفسه بأنه إذا كان ثمة شيء قد حدث فذلك لأنه لم يكن من المستطاع منع حدوثه فلا يقع عليه اللوم أكثر مما يقع على سالي. فقد كانت فتاة تعرف العالم وتدرك حقائق الحياة. وقد خاطرت وعيناها مفتوحتان، فمن الجنون أن يسمح لهذا الحادث بأن يغير معالم الطريق التي رسمها لحياتها. لقد كان فيليب من القلائل الذين يدركون أن الحياة عرض زائل وأن من الضروري استغلالها إلى أقصى حد. إنه على استعداد لأن يفعل ما يستطيع من أجل سالي. في استطاعته مثلاً أن يمنحها مبلغاً كافياً من النقود. إما أن يتحول عن أهدافه فهذا ما لا يسمح به لنفسه رجل قوى.

كان هذا ما يقوله فيليب لنفسه، ولكنه كان يعلم أنه غير مستطيع تنفيذه إنه لا يملك أن ينفذه فقد كان يعرف حقيقة نفسه.

وتمتم في يأس يقول :

«يا لي من إنسان ضعيف لعين !».

لقد وثقت به سالي وكانت عليه عطوفا ولم يستطع أن يأتي ما يشعر معه رغم كل تعللاته بأنه أتى أمراً إداً. وأدرك أنه لن يستشعر السلام في أسفاره، ما ظل يفكر في بؤسها وتعاستها، إلى جانب هذا كان هناك أبوها وأمها اللذان أحسنا على الدوام معاملته، وإن لم يكن ليتحمل أن يرد إليهما جميلهما بالانكران. والشيء الوحيد الذي يستطيع عمله هو أن يتزوج سالي بأسرع ما يمكن. وفي هذه الحالة سيكتب حالاً إلى الدكتور سارث ينبئه بما اعتزمه من زواج سريع، فإذا كان عرضة السابق لا يزال قائماً، فإنه على استعداد تام لقبوله. فقد كان هذا النوع من العمل بين الفقراء، هو الشيء الوحيد الذي يلائمه. فلن يكون هناك اعتبار لعاهته، ولن يسخر هؤلاء القوم من تصرفات زوجته البدائية. وكان عجباً أن يفكر فيليب في سالي على أنها زوجته، وقد أتاح له هذا التفكير شعوراً عجيباً رقيقاً وسرت موجة من العاطفة في جنباته عندما تذكر الطفل الذي ينجبه. وقلما كان يخالجه شك في أن الدكتور سارث سيسر لعمل معه وأخذ يرسم في خياله صورة لحياته الجديدة مع سالي في تلك القرية التي يعمل

جل أهلها في الصيد. سيكون لهما منزل صغير يشرف على البحر، يستطيع منه أن يراقب السفن العظيمة وهي تبحر إلى أراض لن يعرفها أبداً. وربما كان هذا أقرب شيء إلى الصواب ستكون آمال فيليب العظيمة جميعاً هي هدية الزفاف التي سيقدمها لعروسه.

لقد سما جمالها بمعنويات فيليب فظل طول الأمسية يفكر فيها، وبلغ من احتياجها أنه لم يستطع القراءة في تلك الليلة. وبدا له كأنه خرج من مسكنه إلى الشارع، وأنه سار فيه جيئةً وذهاباً وقلبه يخفق فرحاً. وأنه لم يستطع صبراً على رؤية سالي. وتاق إلى رؤيتها وهي سعيدة عندما يتقدم إليها طالباً يدها. ولو لم يكن الوقت متأخراً جداً لطار إليها لساعته يحمل إليها البشري. ثم أخذ يتصور الأمسيات الطويلة التي سيقضيها مع سالي في حجرة جلوسهما المريحة، حيث الستائر مرفوعة كي يستطيعا رؤية البحر. وهو يقرأ، وهي منكفئة تعمل. وقد أضفى ضوء المصباح الظل على وجهها الجميل فأكسبه مزيداً من الجمال. سيتحدثان عن طفلهما النامي وتصور فيليب منظر سالي عندما تلتقي عيناها بعينه وقد تجلت فيهما آيات الحب وأضواؤه. وتخيل فيليب صيادي السمك وزوجاتهم وهم يمثلون مرضاه، وقد أحبوه حباً جماً، وكيف يدخلان بدورهما في أفراح هؤلاء القوم السذج والآلهم. وسرعان ما كانت أفكاره تعود به إلى الابن الذي سيقسمان تربيته. ويشعر فعلاً في قرارة نفسه بحب خالص له. وهو يتخيل يده وهي تربت على أطرافه الصغيرة السليمة، وكان يعتقد أنه سيكون جميلاً، وأنه سيحقق له كل أحلامه في الحياة الهنيئة المتباعدة النواحي.

وأعد عدته لملاقاة سالي يوم السبت في قاعة المعرض القومي، وكانت قد اعتزمت الذهاب إلى هناك بمجرد خروجها من محل عملها. واتفقت معه على العشاء معاً. لقد مر يومان منذ أن رآها ومع ذلك لم يفارقه فرحه لحظة واحدة فقد كان يسره دائماً شعوره بأنه يحاول أن يسعى لرؤيتها. وأخذ يعيد لنفسه ما سيقوله لها وكيف يقوله. وقد نفذ الآن صبره. وكان قد كتب إلى دكتور ساوث وفي جيبه الآن برفية منه وصلت في الصباح تقول :

— سحقاً للأحمق ذي الغدة النكفية.. متى ستحضر؟

وفكر فيليب في سالي، ذات العينين الزرقاوين الحانيتين، واتخذت شفتاه، دون وعي منه شكل ابتسامة وصعد الدرج في المعرض القومي وجلس في الحجرة الأولى لكي يراها عند أول مقدمها.

وكان يشعر بارتياح كلما وجد نفسه بين الصور والرسوم. ولم يكن ينظر إلى رسم بعينه أو إلى صورة خاصة ولكن عظمة ألوان الصور وجمال خطوطها جميعاً كانت تأخذ بمجامع نفسه. وكان خياله شارداً مع سالي. وكان يسره أن يبعتها عن لندن حيث تبدو شخصيتها فيها بشكل غير عادي.. كما تبدو زهرة في محل بائع الزهور إلى جانب زهور الأوركيد، وكان قد عرف في أثناء وجوده في حقول حشيشة الدينار في مقاطعة كنت أنها لا تمت إلى حياة المدن بصله، وتأكد أنها ستترعرع ويزداد جمالها نضارة تحت سماء دور ست الوداعة.

ودخلت سالى قاعات المعرض ، ونهض فيليب لملاقاتها ، وكانت ترتدى ثوبا أسود اللون ذا أزوار أن بيضاء عند الرسغين وياقة من نسيج التيل الرقيق حول العنق ، وتضافها ثم سألتها سالى:

- هل انتظرت طويلا؟
- كلا ، عشر دقائق.. هل أنت جائعة؟
- لست جائعة جدا..
- لنجلس هنا لحظة، أوتواقين:
- كما تريد..

وجلسا فى صمت، جنباً إلى جنب، ولم يتكلما. وكان يسر فيليب أن تكون سالى بجواره تدفئه إشعاعات صحتها. وهج الحياة فيها هالة مضيئة من حولها، وأخيرا قال فيليب لسالى بابتسامة رقيقة:

- كيف حالك؟
- أوه، على خير ما يرام، كان انزعاجا لا أصل له.
- أهكذا كان.
- أأنت مسرورا؟

وغمره شعور غير عادى. لقد ظن أن شكوك سالى كانت قائمة على أساس متين ولم يخطر بباله قط أنها قد تكون مخطئة وتبدلت خطته كلها على حين غفله، وأصبح لا يرى فى مسألة وجود جنين كما صورت له هذا التصوير المحكم أكثر من حلم لن يتحقق أبدا لقد أصبح حرا مرة أخرى.. فليس ثمة داع للعدول عن مشروعاته وما زالت الحياة بين يديه يصنع بها ما يشاء. ولم يشعر بالفرح لذلك بل كل ما شعر به وهن العزيمة والرعب وغص قلبه، وامتد المستقبل أمامه فى فراغ موحش. ظل السنين الطوال يبحر فوق مساحات شاسعة من بحر الحياة يعاني الخطر حتى وصل أخيرا إلى مرفأ جميل ولكنه ما كاد يرسو، حتى عصفت ريح مضادة قذفت به مرة أخرى إلى عرض البحر. ولما كان قد وطن نفسه على الحياة الناعمة بين هذه المروج والغابات الجميلة فإن صحارى المحيط الشاسعة ملأت قلبه أسى وعذابا ولم يعد يستطيع مواجهة الوحدة والعاصفة مرة ثانية. ونظرت سالى إليه بعينين صريحتين ثم سألتها:

- أأنت مسرورا؟ كنت أظن أنك ستسر لسماع هذا النبأ..
- وقابل فيليب نظرتها باكتئاب متمتما:
- لست متأكدا..

- إنك لمضحك.. معظم الرجال يسرهم ذلك .

وأدرك فيليب أنه كان يخدع نفسه. فلم تكن التضحية الذاتية هي التي دفعت به إلى قرار زواجه منها ولكن الرغبة فى وجود زوجة وبيت وحب. والآن وقد أصبح من الواضح أن كل

شئ أوشك أن يفلت من بين أصابعه فلا غرو إذا تملكه اليأس لقد كان يريد كل هذه الأشياء الثلاثة أكثر من أى شئ آخر فى العالم ماذا يهمهم من أسبانيا ومدنها، قرطبة، وطليلة، وليون؟ وأى قيمة عنده لمعايد بورما ومستنقعات جزر بحر الجنوب؟ لقد أحس أنه قد رسم طيلة حياته المثل التي لقنها إياها الآخرون بكتابتهم وأقوالهم.. ولم يكن يستجيب قط لرغبات قلبه!

وكانت سبيله فى الحياة أن يعمل ما يظن أن عليه أن يعمل لا أن يعمل ما يريد من قلبه أن يعمل. وهو الآن يقذف بكل هذا فى نفاذ صبر لقد كان يعيش دائما فى المستقبل، أما الحاضر فكان دائما ينزلق من بين أصابعه. وما هي مثله العليا؟ لقد فكر فى رغبته أن يضع لنفسه خطة معقدة وجملة عناصرها حقائق الحياة التي لا حصر ولا معنى لها. أفلم ير أن أبسط أنموذج للحياة هو ذلك الذى يتمثل فى أن الشخص يولد ويعمل ويتزوج وينجب أطفالا ثم يموت هو أكثر الخطط كمالات؟

ولربما كان الاستسلام للسعادة قبولا للهزيمة، ولكنها هزيمة تفضل الكثير من الانتصارات. وألقى فيليب على سالى نظرة سريعة وهو يتساءل ما مدار تفكيرها ثم ابتعد بنظرة عنها مرة أخرى وقال:

- كنت بسبيل أن أطلب إليك الموافقة على الزواج مني.
- ظننت أنك ربما فعلت ولكني لم أشأ أن أكون عقبة فى طريقك.
- لو فعلت ما كنت عقبة بأى حال.
- وماذا عن رحلاتك فى أسبانيا وما شاكلها؟
- وكيف عرفت أنني أريد القيام برحلات؟
- كان ينبغي أن أعلم شيئا عن ذلك. فلما سمعتك تتكلم مع أبي عن هذا الأمر حتى علت وجهك الزرقة.

- لم أعد مهتما بكل هذا.
- وتوقف فيليب لحظة عن الكلام. ثم عاوده فى همس مبحوح قائلا:
- لا أريد فراقك ولا أستطيع فراقك.
- ولم تجب سالى وما استطاع فيليب أن يعرف مجرى تفكيرها.
- إنني أتساءل ياسالى هل تقبلين الزواج مني ؟
- ولم تتحرك سالى أو بيد على وجهها أثر من آثار الانفعال. ولكنها لم ترفع بصرها إليه عندما أجابته قائلة:

- إذا شئت..

ألا تريدين ذلك أنت؟

- طبيعى أن أرغب فى أن يكون لي بيت خاص ، فقد حان وقت الاستقرار بالنسبة لي أو كاد..

وابتسم فيليب ابتسامه صغيره ، فقد كان قد عرفها على حقيقتها ، ولم تعد احوالها تثير دهشته ، وسألها ثانية :
- ولكن ألا تريدان الزواج منى ؟
- ليس هناك آخر أريد أن أتزوجه..
- هذا كاف..
- سيدهش أبى وأمي ، أليس كذلك ؟ إني جد سعيدة..
وقالت سالى:
- أريد غدائي !
يا عزيزتي !
ابتسم فيليب وأخذ يدها بين يديه واعتصرها ثم نهضا وتجولا فى المعرض وبعد ذلك وقفا لحظة أمام الحاجز الحجرى للسلم ، ونظرا إلى ميدان الطرف الأغر حيث المركبات الخاصة والعامة تسرع جيئة وذهابا ، وحيث الجماهير تمرق فى شتى نواحي الميدان ، وكانت الشمس مشرقة.